القرون العثمانية
قيام وسقوط الإمبراطورية

الدكتورة
ناهد ابراهيم دسوقي



الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه

الناشر : منشأة المعارف ، جلال حزى وشركاه
٤٤شارع سعد زغلول – محطة الرمل – الاسكندرية – ت/ف ٤٨٥٣٠٥٥/٤٨٧٣٣٠٣
٣٢ شارع دكتور مصطفى مشرفة – سوتير – الاسكندرية ت/٤٢٥٤٢٣٨/٤٨٤٣٦٦٢
الادارة: ٢٤شارع ابراهيم سيد احمد – محرم بك – الاسكندرية ت/ف ٣٩٢٢١٦٤
EMAIL: monchaa@maktoob.com

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق:
اسم الكتاب : القرون العثمانية ..قيام وسقوط الامبراطورية التركية
اسم المؤلف: تاليف : جون باتريك كينروس
ترجمة : د. ناهد ابراهيم الدسوقى
رقم الايداع : ٢٠٠٣/١٤٦٨٤
الترقيم الدولى: 7 - 1198 - 03 - 977
التجهيزات الفنية:
كتابة كمبيوتر : مكتب الكرنك
تصميم غلاف : سلطان للكمبيوتر ت: ٥٤٤٥٦١٤
طبـــــاعة : شركة الجلال للطباعة ت: ٤٤٩١٢٤٤

القـرون العثمانيـة
قيام وسقوط الإمبراطورية التـــركيـة

تأليف

جون باتريك كينروس
(لورد كينروس)

ترجمة وتعليق

دكتورة / ناهد ابراهيم دسوقى
أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

اهـــداء

إلى أستاذى الفاضل

مؤسس مدرسة الدراسات العثمانية

بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الأستاذ الدكتور / عمر عبد العزيز عمر

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بآداب الإسكندرية

ونائب رئيس جامعة الإسكندرية السابق

المحتوى

مقدمة المترجم

هذه ترجمة عربية لكتاب :

The ottoman Centuries

The Rise and Fall of the

Turkish Empire

للمؤلف الإنجليزى John Patrick Kinross (Lord Kinross)

ويتناول الكتاب تاريخ الدولة العثمانية منذ قيامها فى ١٢٨٨ حتى سقوطها فى ١٩١٨ ، ويقع فى ٦٣٨ صفحة من القطع الكبير ومزود بمجموعة من الخرائط والصور وقائمة بأهم المراجع وفهرس للأعلام .

وقد قسم المؤلف الكتاب إلى سبعة أقسام بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة . وتناول فى المقدمة أصل كلمة «الترك» وعلاقة الأتراك بالمسلمين العرب وبالسلاچقة وهجرتهم فى اتجاه الغرب أمام ضغط چنكيز خان المغولى حتى استقرارهم فى شمال غرب الأناضول . أما عن أقسام الكتاب فقد حملت عناوين الموضوعات التى عالجها وهى :

فجر الإمبراطورية

بيزنطة الجديدة

عظمة الإمبراطورية

بذور الإنهيار

المنافسة الروسية

عصر الإصلاح

نهاية السلاطين

وناقش المؤلف فى القسم الأول ، الذى ضم خمسة فصول ، قيام الدولة العثمانية والأساطير المرتبطة بهذه المرحلة والنظريات الخاصة بأصول الدولة وعوامل هجرة العثمانيين إلى الأناضول . كما تحدث عن جهود عثمان وأورخان وبايزيد الأول فى إرساء دعائم الدولة الوليدة ، وتكوين الجيش العثمانى وسياسة التوسع والغزو . وأوضح التحديات التى واجهت العثمانيين فى هذه المرحلة المبكرة من جانب البيزنطيين والمغول والقوى الأوروبية التى تكتلت فى شكل أحلاف صليبية .

وخصص المؤلف القسم الثانى والذى اشتمل على خمسة فصول أيضًا ، للحديث عن السلطان محمد الثانى (١٤٥١- ١٤٨١م) وكيفية الإستيلاء على مدينة القسطنطينية ، وسياسة التعمير التى اتبعها السلطان بعد السقوط وأثرها فى إزدهارها الإقتصادى . كما تعرض المؤلف لدور السلطان محمد الثانى فى بناء الأعمدة الأساسية للإمبراطورية العثمانية فى النواحى المدنية والعسكرية والتى سارت عليها الدولة لقرون تالية .

وفى القسم الثالث الذى ضم سبعة فصول ، عالج المؤلف أعمال السلاطين بايزيد الثانى وسليم الأول وسليمان الأول ودور كل منهم فى التوسع العثمانى فى البلقان والشام ومصر وشمال أفريقيا حتى تكونت « الإمبراطورية العثمانية » التى امتدت عبر القارات الثلاث آسيا وأوروبا وأفريقيا . وقد نال عصر السلطان سليمان العظيم النصيب الأكبر من هذا القسم حيث أسهب المؤلف فى الحديث عن الأعمال الداخلية والخارجية للسلطان وعلاقته بالدول الأوروبية وعلى رأسها فرنسا ، وأوضح الدور العثمانى فى حفظ التوازن الأوروبى فى القرن السادس عشر من خلال التحالف الفرنسى - العثمانى .

وفى القسم الرابع ، الذى اشتمل على ستة فصول ، ناقش المؤلف بدايات إنهيار الإمبراطورية فى أعقاب وفاة السلطان سليمان القانونى ، وتحدث بالتفصيل عن موقعة ليبانتو (١٥٧٢) ودورها فى إنهيار البحرية العثمانية شرقى المتوسط ،

كما تناول التصدع الذى أصاب الأنظمة الداخلية وبداية تخلخل المؤسسات العثمانية التقليدية وأثر زيادة نفوذ الدول الأجنبية فى الدولة من خلال نظام الإمتيازات الأجنبية . وإستكمالاً لموضوع الإنهيار العثمانى عالج المؤلف فى القسم الخامس ، على مدى خمسة فصول ، الدور الروسى فى إضعاف الدولة والسير بها فى طريق الإنهيار ، وناقش أيضاً العلاقات العثمانية النمساوية .

وخصص المؤلف القسم السادس لقضية « الإصلاح فى الدولة العثمانية » فناقش على مدى سبعة فصول بدايات الإصلاح فى عهد السلطان سليم الثالث فى أواخر القرن الثامن عشر ، وفى عهود السلاطين محمود الثانى وعبد المجيد وعبد العزيز وعبد الحميد الثانى . وقد قدم المؤلف نقداً موضوعياً للإصلاح ولموقف المجتمع العثمانى بكل فئاته ولمواقف الدول الأوروبية فى هذا الصدد . أما القسم السابع والأخير ، فقد عالج فيه المؤلف فى خمسة فصول سلبيات السلطان عبد الحميد الثانى ودوره فى المذابح الأرمينية ومواقف الدول الأوروبية من الدولة العثمانية ، والتحول الذى حدث فى السياسة البريطانية تجاهها . وناقش ظروف نشأة جمعية الاتحاد والترقى ومنهجها السياسى والتقارب العثمانى الألمانى . واختتم المؤلف هذا القسم بالحديث بإيجاز عن دور مصطفى كمال أتاتورك فى تكوين جمهورية تركيا الحديثة بعد الحرب العالمية الأولى . وفى الخاتمة استعرض المؤلف عوامل إنهيار الإمبراطورية العثمانية وبزوغ تركيا العلمانية . وهذه ليست سوى إشارات إلى بعض الأفكار التى أوردها المؤلف فى دراسته .

وقد ساهم المؤلف بهذا الكتاب الضخم فى تقديم دراسة موضوعية وجادة عن الأتراك العثمانيين للغرب الأوروبى وللمجتمع الأمريكى (حيث طبع كتابه فى الولايات المتحدة الأمريكية) ، ونجح فى إبراز دورهم فى تاريخ الإنسانية وبيان مكانتهم بين الحضارات الكبرى فى التاريخ من خلال العديد من المقارنات التى ساقها فى فصول الكتاب . كما نجح فى إلقاء الضوء على قضايا عديدة لا تزال شائكة إلى اليوم فى تاريخ الدولة العثمانية ، وتوصل فيها إلى

تفسيرات تستحق الاهتمام ، كما تميز مؤلفه بالاهتمام بالعلاقات العثمانية – الأوروبية فى جميع مراحلها ، فقد أورد حولها تفصيلات تهم الكثيرين من الباحثين فى التاريخ العثمانى وذلك من واقع المصادر المعاصرة .

وأخيراً أرجو أن تنال هذه الترجمة المتواضعة رضاء القارئ الكريم ، وتسهم فى إيضاح إحدى وجهات النظر الغربية فى التاريخ العثمانى ، وتحقق الفائدة للمهتمين بالدراسات العثمانية ، وعلى الله قصد السبيل .

د/ ناهد دسوقى

الإسكندرية أبريل ٢٠٠٢

مقدمة المؤلف

تدفقت موجات من الشعوب البدوية ناحية الغرب على طول السهب الأورو آسيوى ومن حدود الصين إلى تركستان وما ورائها على إمتداد القرون المتعاقبة . لقد كانت مجتمعات ريفية تعيش فى خيام وتركب الخيول والجمال وتطعم وتربى القطعان والتى بدورها كانت تمنحهم الكساء . واعتادت هذه الجماعات على الترحال خلال تقلب المواسم فى المراعى ، من أجل الحصول على أراض أفضل أو للهروب من ضغط البدو من ورائهم . ففى بعض الأحيان كانوا يتاجرون بمنتجاتهم الريفية مع سكان الحضر والمزارعين ، وقلما كانوا يستقرون على هذه الحال فى بعض الواحات الغنية بالمياه ليكونوا حياة قوامها الزراعة . ولقد اضطروا من أجل الحفاظ على اقتصادهم الريفى ، أن يخوضوا غمار الحرب المستمرة مع قوى الطبيعة واستطاعوا من خلال بنى قبلية غير منظمة أن يكتسبوا قدرات خاصة ومهارات وعادات .

وانتشرت بينهم فئة من ذوى الهمم عرفوا باسم الأتراك وعرفهم الصينيون وجيرانهم باسم توكيوه أو دوركو Dürkö كجنس شرس اشتق اسمه (كما يقال) من تل فى منطقتهم ذو شكل يشبه شكل الخوذة ، وبحكم اختلاطهم فى مرحلة مبكرة بالهون ، كان الأتراك ذوى ارتباط وثيق بالمغول وبالشعوب التى عرفت فيما بعد بالفنلنديين والمجريين .

وفى القرن السادس بعد الميلاد ، غزا الأتراك شعباً آخر من نفس نوعهم حتى يسيطروا على أرض عرفت فيما بعد بمنغوليا . ومنذ ذلك الوقت توسعوا فى مساحة شاسعة من السهوب تجاه الشمال والجنوب والغرب ، ليؤسسوا بذلك إمبراطورية بدوية مازالت تتردد أصداؤها حتى الآن . وبرغم ضياع وحدتهم من جراء الانتشار ، إلا أنهم استطاعوا تكوين شخصية عرقية ولغوية مميزة ، وكان مفهومهم عن الهوية المشتركة أمراً بلغ من قوته أنهم كانوا يشيرون إلى العناصر السحرية لعبادتهم من أرض وهواء ونار وماء كأشياء تركية . وبسرعة تطوروا

إجتماعياً ونفضوا عباءة البربرية الرعوية الساذجة وكونوا حضارة خاصة بهم ، إستناداً إلى نظامهم القبلى القائم على حكم الرجال فقط ، بل كان حكامهم لا يزيدون عن مجرد شيوخ قبائل كما ضموا قبائل تابعة تحت إمرتهم .

وفى بدايات القرن الثامن ، كانت القبائل التى رحلت غرباً وعرفت باسم الأوغوز ، والتى كانت تسير خلف ذئب رمادى أسطورى الحجم وبعض رؤساء السلاجقة ، قد وصلت سمرقند فى أقصى الغرب ، لتوطد حكمها على المناطق الغربية فى وسط آسيا . وفى نفس الوقت كان عرب الخلافة الإسلامية ، كجنس جديد متوسع ، قد زحفوا شمالاً وشرقاً من شبه الجزيرة العربية ليفتحوا إمبراطورية فارس . ولم تقو عليهم القوة التركية ، ولكن العلاقات التجارية والثقافية بين الشعبين استمرت . لقد مارسوا تجارتهم عبر طرق القوافل من أجل مصالحهم المشتركة فى المنتجات المكملة فى الزراعة والرعى . علاوة على أن الأتراك ، منذ القرن التاسع وصعوداً ، بدأوا يولون ظهورهم للمعتقدات الوثنية واعتنقوا الإسلام .

واستطاع العرب بسرعة أن يلحظوا المزايا الحربية لهؤلاء الأتراك . وبمعزل عن فضائل الجلد ، والانضباط ، والحكمة التنبؤية ، كان نظام البدو الذى قاسوه قد ربى فيهم روح الكفاح ، وخفة الحركة ، والمهارة فى قيادة الخيل ، والبراعة الفذة كرماة للسهام من فوق ظهور الخيل . وبهذا بدأت جيوش الخلافة العباسية فى تجنيد الأتراك خلال صفوفهم ، وكانوا كمعتنقين للدين الإسلامى فى مكانه أعلى بقليل من مكانة العبيد ، وأعطتهم حرية الترقى فى المناصب . ومن ثم كانت معظم القيادات العسكرية والعديد من المناصب السياسية فى الإمبراطورية العربية يشغلها الأتراك المسلمون بنهاية القرن التاسع الميلادى . وعندما اضمحلت الإمبراطورية فى القرن الحادى عشر ، ملأت السلالة السلجوقية الفراغ بإمبراطورية أخرى خاصة بها قامت على أساس تقاليد الخلافة العباسية ، واستطاعت أن تستوعب الولايات التركية - الإسلامية ، مستندة إلى شعار القوس والرمح كرمز مناسب لسلطتها ، وتوسعت فى حكمها

لتخضع فارس ، وميزوبوتاميا وسوريا . وهكذا نعم الشعب الرعوى القادم من السهب بالراحة فى مناخ مستقر .

وعلى عكس القبائل الرعوية الأخرى خلال التاريخ مثل الهون والمغول والآفاريون قصيرى الأمد ، هب السلاجقة الأتراك ، بكل ما تحمل الكلمة من معانى الجلد والعمل ، لتحدى الحياة العسكرية . وكانوا يتمسكون بتقاليدهم ومؤسساتهم حتى انتهوا إلى حياة حضارية مستقرة ، وبرزوا كبناة لإمبراطورية مستغلين حنكتهم البناءة ومساهمين بشكل فعال فى التاريخ مثلما فعل المسلمون الأوائل عندما أنشأوا شكلاً جديداً من الرقى الإجتماعى والإقتصادى والدينى والعقلانى . وأصبح هؤلاء الرعاة والمحاربون سكان مدن بل وحكام وتجار وصناع وفنانو عمارة ، ومالكو وحارثو أراض وعمال شق طرق وبناة للخانات والمساجد والمدارس والبيمارستانات . لقد شجعوا البحث العلمى والدراسة فى مجال الفلسفة والعلوم والآداب والفن الذى كان فيه الفرس والعرب قبلهم هم القدوة .

إلا أن نسبة كبيرة من الأتراك المستقلين كانوا لا يزالون يطوفون بالمرتفعات كبدو رغم الحياة المتمركزة المستقلة للدولة السلجوقية فى الداخل . ولقد تحالف هؤلاء البدو مع قبائل أخرى ريفية ، كان بعضها لا يزال وثنياً ، وكونوا جماعات من المحاربين ، التى بقيت قوة أساسية للجيوش السلجوقية . وطالما ناوشوا المقاطعات المستقلة وورطوا الحكومة المركزية فى مواقف محرجة من خلال سلوكهم الهمجى البدائى . ولأنهم كونوا بالفعل مجتمعاً منفصلاً عن الدولة الأصلية، وتبنوا ثقافة خاصة بهم وشكلاً معارضاً ، فإنهم أصبحوا يعرفون بالتركمان ، كإسم مميز للعناصر المسلمة منهم .

وكانت العناصر البارزة بينهم هى نتاج حركة قديمة شائعة تعرف بالغزاة أى (محاربى العقيدة المقدسة) . وكانوا يتكونون من مجموعة من المتطوعين ، عادة المتشردين ، والهاربين ، والساخطين والعاطلين الذين يحشون

عن لقمة العيش ، وكانت مهمتهم تتلخص فى محاربة الكفرة لتحقيق الدافع الأساسى وهو النهب . وقامت طرق حربهم على الأساس التقليدى كعساكر مشاة ، تشن الغارات بعيداً عن حدود الدولة الإسلامية . وفى القرن الحادى عشر نزحوا غربًا وحاربوا على الحدود غير الواضحة بين الإمبراطوريتين السلجوقية والبيزنطية فى آسيا الصغرى . وهنا واجهوا جماعات من المشاة الإغريق والمغيرين الأكريتانيين ، الذين كانوا يشبهونهم كثيراً فى تقاليد الحرب وإنفصالهم عن أى سلطة مركزية مما جعل الأمر يبدو كما لو كانوا أبناء جيش واحد . وبعض العناصر الأخرى من التركمان كانت تميل إلى التوسع تجاه حدودهم بحثًا عن مراع جديدة ولأجل الاشتراك مع الغزاة فى الغارات ضدهم فى الوقت الذى كانت التحصينات البيزنطية فى ضعف مستمر .

ولم تكن فكرة الاشتباك فى حرب مع الإمبراطورية المسيحية البيزنطية ضمن سياسة سلاطين السلاجقة لأنهم كانوا عاكفين على فتح القطاع الجنوبى من الإمبراطورية الإسلامية . فقد كانت حيادية المسيحيين البيزنطيين تضمن لهم أمن وسلامة أسوارهم السورية . وبالرغم من ذلك تورطوا فى حرب معهم بسبب قوة الغزاة الشرسين وقوات التركمان اللصوص ، ومثل هذه العناصر يجب أن تكن لها الحكومة السلجوقية الاحترام وتستنجد بها حينما تريد بلوغ غاياتها . ومن ثم فقد أبعد السلطان السلجوقى طغرل المحاربين المقدسين عن نهب المقاطعات الإسلامية عن طريق شن حملات متتابعة ضد الدولة المسيحية فى أرمينيا ، التى كانت تعتبر مقاطعة حدودية منشقة عن الدولة البيزنطية . وهنا تبع نجاحهم فى المعركة غارات ذات قوة وجرأة كبيرة ، وتوغلت من الأناضول الشرقية حتى الوسطى ، لدرجة أنها وصلت إلى سواحل بحر إيجة .

وقبالة هذه التوغلات فى مملكته المنهارة ، شعر الإمبراطور البيزنطى رومانوس الرابع ديوجينيس بأنه مضطر إلى الانتقام . ففى محاولة لإستعادة السيطرة على أرمينيا سار لمحاربة الأتراك باستخدام جيش متعدد الأجناس من المرتزقة الأجانب .

وكانت النتيجة فى عام ١٠٧١ م أن هزم الإمبراطور وأسر بواسطة السلطان السلجوقى ألب أرسلان (الأسد الشجاع) فى معركة منزيكرت الشهيرة على الحدود . أنها بحق معركة يتذكرها الإغريق للأبد فهو يوم رهيب شهد مواجهة تاريخية بين إمبراطوريتين وعقيدتين وفتح الطريق للأتراك مرة أخرى وآخر مرة لآسيا الصغرى .

لقد حملت موقعة منزيكرت تلميحات مستقبلية هامة حول فتوحات أبعد على البر . ولكنها حتى ذلك الوقت لم تحمل فى طياتها أى تفكك مفاجئ فى الموقف فى الأراضى المحتلة ، لأن النصر المرتقب كان نتيجة القوات الإسلامية الشرسة غير المنظمة وليس القوات السلجوقية المنظمة . وكانت نتيجتها المباشرة الفعالة هى التوسع خلال المناطق الشرقية وإلى آسيا الوسطى عن طريق الحضارة المختلطة الحدود للغزاة . والآن تحركت قبائل التركمان إلى الأراضى الجديدة فى أعقاب الغزاة دون أى عائق حدودى .

لقد كان أسلوب حياتهم يقوم على الثقافة والتعايش المشتركين والمشاعين لكل من الفاتحين والمحتلين ، بما فى ذلك الأناضوليين والأرمينيين ، الذين لم يعتبروا الأتراك ككل أجانب . وكتب بول وتك يقول : « أنه مجرد تلاشى للوجود البيزنطى المنهار ، والذى سوف يحل محله فيما بعد الوجود الإسلامى » . ولم تستمر الدولة السلجوقية نفسها ، رغم تركيز أعينها بشكل مستمر على العالم الإسلامى ، وأسرعت إلى سحب قواتها من جزء من الدولة البيزنطية ، فبعد أن أطلق السلاجقة سراح الإمبراطور المسجون ، اقتنع الحكام باحتلال رسمى للمناطق التى تم فتحها تحت إمرة أمير سلجوقى يدعى سليمان . وفى ذات الوقت ، وبنهاية القرن الحادى عشر ، شنت الحملة الصليبية الأولى على آسيا الصغرى ، وخلقت بذلك حداً مرناً بين المسلمين والمسيحيين .

وفى منتصف القرن الثانى عشر بدأ السلاجقة يتحررون من العالم

الإســلامى القــديم وأقدموا على بناء ولاية منظمة لها خط واضح من السلاطين ، وتقوم على أساس الطراز الإسلامى والتنظيمات المستقرة ، لكى تسيطر على وسط الأناضول من عاصمتهم فى مدينة قونيا Konya . لقد عرفت سلالتهم عند القوى الإسلامية الأخرى باسم سلطنة الروم . ويعرفون فى العربية باسم « قياصرة الروم » حـيث اعتقـد العرب أنهـم ورثة بقـية الإمـبراطورية « الرومانية » . وبعد معركة ميريو كيفالون ، بعد قرن من معركة منزيكرت ، استمر البيزنطيون المسيحيون أنفسهم يحكمون فى غرب الأناضول على أساس وجود حد متفق عليه أو « نطاق حدودى » ، فى ظل علاقات هادئة مع الدولة السلجوقية المتحدة . وهكذا استطاع سلاجقة الروم ، الذين اشتقوا سطوتهم من الإسلام عن طريق أصولهم الإمبراطورية كسلف لسلاجقة فارس العظام ، استطاعوا أن يكونوا قوة مزدهرة ضارية وصلت إلى أوجها فى النصف الأول من القرن الثالث عشر .

ولكن لم يكتب لها الاستمرار والتحمل ، فلقد برزت من فوقهم موجة جـديدة متفجرة من البدو أو أقاربهم المغول . فانحدروا من فوق السهب الأورو آسـيوى ، كما فعل الأتراك من قبل ، زاحفين ناحية روسيا ، وشرقًا إلى الصين ، وغربًا خلال آسيا ليطوقوا العالم الإسلامى . لقد كات غزواتهم تشن من قبل فى أوائل القرن تحت قيادة جنكيز خان ، والآن تحاول أن تستوطن المكان عن طريق خلفائه ، ولقد دفعت قوات البدو الأتراك أمامهم حتى انتشرت فرق محاربة وقطعان جديدة من التركمان خلال آسيا الصغرى مما أثار القلق خلال الدولة السلجوقية فى قونية . وفى أعقابهم دلفت حملة ضارية شرسة من جحافل المغول . وفى عام ١٢٤٣ استطاعوا أن يسيروا بالجيش السلجوقى الذى لا يزال غير مقهور حتى الآن ، رغم كونه معززًا بالمساعدات البيزنطية والمرتزقة المعروفين ، إلى قوجة داغ Köse Dagh بين سيواس وارزنجان واستمروا فى احتلال كل ما يستطيعونه من المدن التى اختاروها . وهكذا تغير تاريخ آسيا الصغرى كله بين عشية وضحاها ، فلم تعد هناك قوة سلاجقة الروم ، كما

كانت هناك من قبل قوة سلاجقة فارس العظام ، وأصبح سلاطين قونية تابعين لدولة مغولية تحت الحماية حكمها هولاكو . وحتى قوة المغول نفسها ، مثلها مثل باقى الشعوب البدوية التى تغير على مجتمع مستقر ، كانت قصيرة الأجل ، حيث استمرت فى آسيا الوسطى لجيل واحد فقط ، ولكن القوة التى تلتها لم تكن قوة السلاجقة .

إن أسلوب آسيا الوسطى ارتد فى نفس الوقت إلى أسلوب الحضارة القديمة الحدودية التى تحررت من أى سلطة مركزية ، وعاد المحاربون المشاة إلى أماكنهم مرة أخرى ، مغيرين وحتى مستولين على المدن دون أى عائق خلال النطاق الحدودى البيزنطى . وفى وقت قصير تمتعوا بتعزيزات ليس فقط من القبائل التركمانية - كما كان من قبل -ولكن أيضاً بفرق من اللاجئين من الدولة السلجوقية السابقة ، وأيضاً « برجال مقدسين » ، أى شيوخ ودراويش ذوى قدرة إسلامية غير تقليدية على الإقناع ، حيث كانوا قد هربوا من تركستان وفارس إلى آسيا الصغرى وأذكوا من جديد الحماسة التركية للحرب ضد الكفرة .

والآن أصبح هؤلاء الغزاة يملكون زمام الأمور ، فلقد استفادوا من انهيار التحصينات البيزنطية ، وساقتهم روح التعصب والحاجة إلى مزيد من الأرض وعمليات النهب ، وانهالوا دون أية مقاومة إلى غرب آسيا الوسطى ، رغم القليل من معارضة إخوانهم الأعداء الاكريتانيين بعدما أهملتهم حكومة إغريقية منشقة وغير آمنة . وكانت معظم مقاطعات آسيا الوسطى فى المنطقة الغربية قد وقعت بحلول عام ١٣٠٠ فى يد البيزنطيين ، وفى الوقت الذى تناحر فيه الزعماء من أجل هذه المقاطعات ، كانوا قد أصبحوا حكاماً على عشرة من الولايات المستقرة للغزاة ، وكانت إحداها ولاية عثمانية ، والتى قدر لها أن تصبح قوة عالمية عظمى ، أو الإمبراطورية العثمانية . لقد ملأت الفراغ الذى تركه تداعى وانهيار الإمبراطورية البيزنطية وقدر لها أن تبقى تحت حكم سلالة العثمانيين لمدة تزيد على ستة قرون .

القسم الأول

فجر الإمبراطورية

الفصل الأول

تغلف الأسطورة بدايات تاريخ الأسرة العثمانية الحاكمة ، والمتعارف عليه أن مؤسسها هو زعيم قبيلة صغيرة يدعى أرطغرل هاجر من آسيا مع فرقة تضم حوالى ٤٠٠ فارس ، وأنه شاهد معركة بين فريقين مجهولين ، ثم وقع اختياره ، بعد التشاور مع رجاله ، على مد يد العون للفريق المهزوم ، مما أدى إلى قلب الموازين وتحقيق النصر . واتضح لأرطغرل فيما بعد أن هذا الفريق يتبع السلطان السلجوقى علاء الدين وأنه كان يحارب المغول ، وكوفئ أرطغرل بمنحه إقطاعاً قرب اسكيشهر يشمل أراضى سهلية تصلح للإقامة صيفاً وشتاءاً فى سوجوت غرب الأناضول . وقد اتسعت مساحة هذا الإقطاع بعد ضم مساحات جديدة إليه إثر معركة جديدة بين السلطان السلجوقى والإغريق . ومن هنا وضعت أسطورة تؤكد وجود علاقة وثيقة بين العثمانيين والأسرة الحاكمة السلجوقية وتدفق الهبات على أرطغرل وابنه عثمان فيما بعد .

ولا شك أن هذه الأساطير تتفق مع الطابع العام للتأريخ فى العصور الوسطى وقد دعمتها الحوليات المسيحية التى تضمنت عدة رؤى ذات دلالات خاصة لأرطغرل وعثمان ، ومنها أن عثمان قضى ليلة ذات مرة فى دار أحد الشيوخ المسلمين ووجد عنده كتابًا سأله عنه فكان الرد : « إنه القرآن كلمات اللّه المنزلة إلى العالم عن طريق النبى محمد ﷺ » ، وقرأ فيه عثمان حتى الفجر فرأى فى الحلم أن ملكًا يقول له : « طالما أنك قرأت القرآن الكريم بجلال ووقار سيكون لك ولأولادك وأحفادك شأنًا عظيمًا جيلاً بعد جيل » . والحلم الثانى يتعلق بفتاة تدعى ملخاتوم كان عثمان يرغب فى الزواج منها ، وهى إبنة لأحد القضاة المسلمين فى إحدى القرى القريبة يدعى الشيخ أده بالى ، وعندما قضى عثمان ليلة فى بيت هذا الشيخ رأى فى منامه أن القمر اكتمل وخرج من صدر الشيخ واستقر فى صدره ، ثم بزغت منه شجرة غشيت العالم كله بظلالها وفروعها الخضراء الجميلة ، ثم رأى عثمان أربعة قمم لجبال هى : القوقاز وأطلس وطوروس والبلقان ، وأربعة أنهار هى : دجلة والفرات والنيل والدانوب ، وحقول غنية بالمحاصيل وجبال غنية بالغابات ووديان

زاخرة بالمدن والقباب والأهرامات والمسلات والأعمدة والأبراج ، والهلال يعتلى هذا كله ، وتختلط أصوات الآذان مع تغريد البلابل والببغاوات الواقفة على فروع الأشجار المتداخلة ذات الرائحة العطرة ، ثم استطالت أوراق الأشجار وفروعها لتصبح سيوفًا تتجه نحو مدينة القسطنطينية التى تقع عند ملتقى بحرين وقارتين ، وكانت تشبه لؤلؤة مرصعة بالياقوت والزمرد ، وبدت كحجر كريم فى حلقة من مملكة واسعة طوقت العالم كله ، وكاد عثمان أن يضع هذه اللؤلؤة فى يده ولكنه استيقظ من نومه . وعندما قص رؤياه على الشيخ فسرها بأنها كرامة من الله تعالى وقبل بزواج ابنته من عثمان بعد أن استشعر القوة والمجد فى ذريته . وقد أقيمت مراسم زواج عثمان من ملخاتوم وفقًا للشريعة الإسلامية ، وفيما بعد أقام عثمان ضريحاً لهذا الشيخ ووهبه عدة قرى وأراضى خصيبة .

والأسطورة الأولى توحى بأن عثمان ورفاقه كانوا وثنيين عندما استقروا فى اسكيشهر ، وهذه المرحلة ضمت الموجة الأولى من المهاجرين الأتراك من آسيا فى القرن الحادى عشر وصعوداً ، فكانوا مجرد تابعين للسلاجقة المسلمين ، وكانوا جماعات هاربة من الغزو المغولى ومنهم العثمانيين أتباع عثمان ، وتميزوا بالقوة والكفاءة القتالية ، وبعضهم استقر فى هذه المنطقة وربما عاد البعض الآخر إلى وطنه بعد زوال الخطر المغولى . وهؤلاء العثمانيون الذين اندرجوا تحت حماية السلطان علاء الدين ، لم يتخذهم كمرتزقة فى جيشه وإنما أنعم عليهم بالأراضى فى المناطق الحدودية المضطربة من أجل حفظ النظام ومحاربة البيزنطيين الإغريق . وفى هذه المرحلة اعتنق أرطغرل وعثمان الإسلام . وكان العثمانيون يتميزون بالشجاعة والكثير من الفضائل البدوية وظهرت بطولاتهم خلال كفاحهم كمسلمين ضد الملحدين والمسيحيين .

وكلمة تركى تتصل بسكان تركستان الآن ، أما أتباع عثمان فعرفوا بالعثمانلى وهذا ميزهم عن غيرهم من الجيران الأتراك الذين شكلوا عشرة

إمارات صغيرة . ويرجع الفضل فى تحول الإمارة العثمانية إلى إمبراطورية إلى عامل جغرافى وهو الموقع الإستراتيجى لإمارتهم فى الركن الشمالى الغربى فى قارة آسيا على الحدود الآسيوية للإمبراطورية البيزنطية ، ثم مجيئهم وقت انهيار هذه الإمبراطورية ، كما مكنهم هذا الموقع من الوصول إلى البحر بسهولة حيث الأراضى البلقانية الأوروبية من ورائه . وقد انفرد العثمانيون ، بين المحاربين المشاة المجاورين لهم ، فى خاصية القدرة على تحويل ثمار الانتصارات العسكرية إلى مؤسسة سياسية فعالة ، فكان عثمان إدارياً ناجحاً بالإضافة إلى كونه قائداً عسكرياً ، وعاونه فى ذلك صهره ووزيره أده بالى ، كما تميز بالحكمة والصبر ونجح فى كسب إخلاص رجاله وتفانيهم فى خدمته لهدوئه وشخصيته القيادية وتواضعه فى التعامل معهم فى أثناء المجالس ، وكان كما وصفه جيبونز : « عظيماً ومؤثراً فى قيادة رجاله » . ولقد خلقت هذه الصفات جواً من المودة والرغبة الأكيدة فى المساعدة بين الرجال وقائدهم لإرساء دعائم دولة صغيرة متماسكة فى البنيان الإجتماعى ، فكانوا يدركون واجباتهم العسكرية وينسقون أنشطتهم فى شبه إستقلالية مع خضوع تام لأوامر رئيسهم . ومن منطلق الحماس الدينى أيضاً والبساطة الإسلامية الأولى التى استلهمها من الخليفة عثمان بن عفان ، الذى حمل اسمه ، أرسى عثمان قواعد العدل وجعلها فوق السلطة والثروة ، وحكم على أساس السلطة الموحدة وهو النهج الذى سار عليه خلفاؤه ، وذلك حتى تصبح الدولة الوليدة فى مأمن من المنافسات والإنقسامات التى أصابت الدولة السلجوقية . وفى البيئة الجديدة التى نشأت عليها هذه الدولة تكيف العثمانيون مع أوضاعها الإقتصادية والإجتماعية بالصبر والتسامح والرغبة الصادقة فى البناء والتنمية .

لقد قام العثمانيون بتطوير مصادرهم وتفوقوا على جيرانهم ثقافياً ودينياً وتجارياً ، وتزايدت أعدادهم بمجئ المزيد من العناصر الوافدة الباحثة عن الملجأ والملاذ من الخلافات الداخلية وعن المستقبل الجديد فى هذه المنطقة الحدودية . وقد أثبت العثمانيون أيضاً كفاءتهم فى المجال الإدارى حيث تفوقوا على

الإغريق والبيزنطيين بعد أن طوعوا أنظمتهم الإدارية ، كما أثبتوا أنهم بعيدين عن التعصب الديني في التعامل مع الأعداء ، وأكدوا على روح التسامح على عكس ما أشيع عن العرب في الفتوحات الأولى ، وتعايشوا مع الإغريق وزعماء الإمارات المجاورة من المسيحيين الذين أقام معهم عثمان علاقات ودية ، إذ كانت العائلات الإغريقية مثل مايكل أوغلى وماركوس أوغلى ، وهم أبناء مايكل وماركوس من أخلص أصدقائه بعد أن كانوا في صفوف الأعداء ، واعتنق أفرادها الإسلام .

ولم تكن هناك خطة محددة اتبعها العثمانيون لجذب المسيحيين للدخول في الإسلام بل كانت العناصر المسيحية التي تعتنق الإسلام تأتي طواعية إستجابة لرغباتهم الخاصة . ففي المناطق التابعة لسلطة القسطنطينية المركزية شعر المسيحيون بانصراف حكامهم عنهم وإهمال شئونهم ففضلوا الدخول في الإسلام والعيش في ظل الحكم العثماني والتمتع بالأمان والإعفاء من الضرائب التي أثقلت كاهلهم . ومع تقلص سلطة الكنيسة الأرثوذكسية وغياب سيطرتها استجاب الإغريق لتعليمات الإسلام واندمجوا مع العثمانيين خاصة وأنهم كانوا متقاربين معهم في أسلوب المعيشة والتقاليد . وفي هذه الفترة كانت الزيجات بين الطرفين أمراً شائعًا مما ساهم في ميلاد مجتمع جديد مختلط . وعلى ذلك لم يعد العثمانيون مجرد بدو رحل بل أصبحوا مستوطنين ومبدعين ومنشئين لحضارة جديدة في هذه المنطقة الحدودية القائمة في الشمال الغربي لآسيا ، وكانت سمات هذه الحضارة أنها قائمة على عنصرين أساسيين هما الآسيويين والأوروبيين من المسلمين والمسيحيين والأتراك والتركمان من البدو والحضر ، حضارة متحررة من القيود الثقافية والإجتماعية والدينية الشرقية ، حضارة ورثت التقاليد والأنظمة البيزنطية ، وقامت بالدور الذي قام به السلاجقة من قبل حينما حملوا ميراث العرب في هذه المنطقة .

وقد تميزت شخصية عثمان بالتريث والترقب والانتظار في اتباع سياسة

التوسع على حساب جيرانه البيزنطيين ، إذ وجد ثلاثة مدن رئيسية تسيطر على الأراضى البيزنطية فى آسيا وهى : بورصا فى الجنوب التى تتحكم فى سهول بثينيا الغنية المنحدرة من جبال الأوليمب ، ونيقيا العاصمة فى الوسط ، وفى الشمال ميناء نيقوميديا الواقع على رأس خليج طويل يسيطر على الطرق البحرية المؤدية إلى القسطنطينية والبحر الأسود والتى تستغرق يومًا من السفر بين عاصمته وهذه المناطق . وظل عثمـان بعيداً عن مهاجمة أيًا من هذه المدن ، بل لم يسيطر العثمانيون فى عملية التوسع إلا على مساحة ستين ميلاً فقط خلال ستين عامًا من الحروب المتقطعة منذ عهد أرطغرل ، وهى المساحة الممتدة بين اسكيشهر (المدينة القديمة) وينى شهر (المدينة الجديدة) .

وخلال فترة الترقب هذه ، أخذ عثمان يعمل على تنمية قواته العسكرية وزيادة عددها حتى بلغت ٤٠٠٠ مقاتل بعد أن كانت ٤٠٠ ، وغالبيتهم من محاربى الحدود المعروفين بالأكريتاى الإغريق الباحثين عن مصادر جديدة للدخل والذين تعرضوا للاضطهاد من حكام القسطنطينية . ولا شك أن هذا الاستعداد القتالى نبع من إدراكه لقوة تحصينات القسطنطينية ومناعة أسوارها . ولم يدخل عثمان فى نزاع مع البيزنطيين قبل بداية القرن الرابع عشر ، وكان ذلك فى موقعة قويون حصار والتى تعرف ببفايون باليونانية ، حينما قام بشن غارة على السهل الخصيب الواقع أمام نيقوميديا وألحق هزيمة سهلة وسريعة بالقوات الإغريقية الإمبراطورية بقيادة قائد تركمانى مغمور . وكان لهذه الموقعة أثرها فى شد انتباه البيزنطيين إلى أهمية دولة آل عثمان وإدراك مدى قوتها ، كما ذاع صيت عثمان كمحارب مقدام ومجاهد يستحق الفخر به من جانب العثمانليين . غير أن عثمان لم يتبع هذا النصر بشن هجمة قوية على نيقوميديا نفسها ، واكتفى رجالة بتخريب الأراضى حولها . وبعد سبع سنوات وبعد ازدياد قوته هاجم تحصينات آق حصار ، وسيطر على روافد نهر سكاريا (سنجاريوس باليونانية) الواقع إلى جانب نيقوميديا فاتحًا بذلك الطريق أمام العثمانيين إلى البحر أى مضيق البوسفور ، ثم بدأ بالتدريج فى الاستيلاء

على موانئ وتحصينات البحر الأسود الساحلية الواقعة شرقه ، ثم اخترق بحر مرمرة واحتل جزيرة قالوليميني Kalolimini ، وأقام سداً حاجزاً بين بورصا ونيقوميديا ، ثم غزا بورصة وسقطت فى يده عام ١٣٢٦ وهو عام وفاته . وخلال سبع سنوات تالية وقعت أمهات المدن والضواحى البيزنطية فى أيدى العثمانيين بسبب ضعفها وتفككها وعدم وصول التعزيزات إليها من القسطنطينية التى كانت تعانى من الخلافات بين الأباطرة المتناحرين ، وانتهى الأمر باستسلام إيفرينوس ومعه بعض القادة الإغريق الآخرين ثم ما لبث أن اعتنق الإسلام .

وأقام العثمانيون أول عاصمة لهم فى بورصا فى المنحدرات الخصيبة لجبل الأوليمب ، وتحولت بالتدريج إلى عاصمة للفن والتعليم زاخرة بالعمارة الخالدة . وبمرور الوقت وبتتابع الفتوحات العثمانية فى أوروبا اقتصر دورها على النواحى الدينية فى الإمبراطورية وعلى كونها مركزاً للعلماء والمدارس الدينية والتقاليد الإسلامية والتشريع الإسلامى ، كما قامت بدور هام فى إرساء دعائم الدين الإسلامى ، وغدا رجالها على مدى القرون يمثلون هيئة إسلامية مرشدة ومحافظة على الطابع الدينى للدولة . وقد دفن عثمان وخلفاؤه فى المقبرة التى أقيمت لهم فى بورصا والتى أصبحت بمرور الوقت مزاراً مقدسًا ، ونقشت عليها عبارات مقرونة بسيف عثمان ذو الحدين توضح فضائله . وكانت آخر كلمات عثمان لولده وهو على فراش الموت تحث على نشر العدل وإستصلاح الأرض وتحقيق الانتصارات المتتالية ونشر الدين الجديد عن طريق الفتح وتطبيق الشريعة الإسلامية والاهتمام بالتعليم .

ويعتبر الدور التاريخى الذى قام به عثمان هو حشد الشعب حوله ووضع بذور أو نواة الدولة الجديدة ، أما مهمة تحويل هذه الدولة إلى الإمبراطورية فقد وقعت على كاهل إبنه أورخان وحفيده مراد الأول ، وقد نجحا فى تحقيق هذا الإنجاز السياسى وإستحقا ثناء أحد الشعراء العثمانيين الذى قال : « نحن أقمنا دولة عالمية من مجرد قبيلة » . وقد اعتمد العثمانيون فى توسعاتهم على

التقاليد الراسخة فى نفوسهم المستمدة من الحياة القبلية القائمة على مبادئ التعاون والإخاء التى هى أساس التشريع الإسلامى والحكم العادل ، كما أقاموا مفاهيم معنوية صوفية ظهرت فى المدن حيث أحاطوا بطوائف الحرف التى ضمت الصناع المهرة ، وفى القرى ومناطق الحدود ظهر الآخى أو أخوة السلاح الذين جمعوا بين الحماس القتالى والتعصب الدينى ، وقد وصفهم ابن بطوطة أحد رحالة القرن الرابع عشر بقوله : « لا يمكن مقارنة هذه الجماعة بغيرها من الجماعات الأخرى ، فهى تتميز بالعناية المفرطة بالغرباء ، وبالحماس لتقديم العون وسد الحاجة والضرب على أيدى الطغاة والفاسدين . واصطلاح (أخاى) يعنى تجمع أعضاء طوائف الحرف فى وحدة تضم الشباب العزاب لرعاية مصالحهم والطاعة لزعيمهم » . وبناء على دعوة منهم قام ابن بطوطة بزيارة إحدى تكاياهم ، وهو فى ثيابه البالية وعمامته ، فقال : « تضم التكية ما يقرب من مائتى رجل من مختلف الحرف يمدون يد العون للمسافرين وعابرى السبيل ، وليس لهم من هدف سوى تقديم الخدمة الخالصة . وأقيمت التكية فى خيمة جميلة مفروشة بالسجاد العجمى البهيج وتزينها المصابيح والثريات العراقية المصفوفة ، والشباب يرتدون العباءات الطويلة والنعال ويضعون عمائم صوفية على رؤوسهم وتتدلى حاشية من كل عمامة . وعندما جلست بينهم أحضروا الفاكهة واللحوم الشهية ، ثم أنشدوا الأغانى وأدوا بعض الرقصات ، وقد إمتلأت إعجاباً وإنبهاراً بكرمهم ونبلهم الفطرى » . وفى بورصا تقابل ابن بطوطة مع أورخان ووصفه بأنه « أعظم ملوك الترك وأغناهم وأكثرهم إمتلاكاً للأراضى الحصينة إذ بلغ ما تحت يده أكثر من مائة مدينة وكان يحارب الملحدين والكفرة » .

ويعتبر أورخان أصغر أولاد عثمان ، ويقال أن عثمان عرض الحكم على ابنه الأكبر علاء الدين ولكنه رفض لاهتمامه بالقانون والدين ، وأن أورخان طلب منه أن يصبح وزيراً له ، وكلفه بشئون الإدارة ووضع التشريع الجديد . وعندما استقر أورخان فى أول عاصمة وهى بورصا تلقب بالسلطان ابن

السلطان الفاتح ابن الفاتح بطل العالم ، ولأول مرة أمر بسك عملة عثمانية فضية لتحل محل العملة السلجوقية ونقش عليها عبارة « ليحفظ الله إمبراطورية أورخان ابن عثمان » ، وكانت مهمته مواصلة جهود أبيه فى ضم الشعب العثمانى حوله وتوسيع حدود الدولة الوليدة ، وكان يتميز بالرقى والتحضر والبساطة والعدل ، كما كان بعيداً عن التعصب والقسوة ، وأوسع أفقاً من والده وأكثر نشاطاً فى مجال الحرب وفى مجال الإدارة ، وأظهر قدرة فى المجال الدبلوماسى وفى التغلب على مشكلات الحكم .

وكانت مدينتى نيقيا ونيقوميديا محط أنظار أورخان ، وقد تميزتا بالأسوار القوية والتحصينات المنيعة ، ونيقيا ظلت عاصمة للإمبراطورية البيزنطية لقرن من الزمان منذ الغزو اللاتينى للقسطنطينية ، ولذلك فقد قرر الإمبراطور أندرونيكاس الثالث مساعدتها ، ولكنه جرح فى معركة بلكانون فى البلقان مع العثمانيين فى عام ١٣٢٩ وهرب من ميدان المعركة عائداً إلى القسطنطينية تاركاً جيشه ، وبذلك استسلمت حاميتها . ثم حدث نفس الشئ مع نيقوميديا بعد ذلك بثمانى أعوام . وتعتبر العوامل الإقتصادية هى الأسباب الحقيقية لسقوط المدن الثلاث : بورصا ونيقيا ونيقوميديا ، كما لم يكن الغزاة الجدد مجرد مغيرين مؤقتين بل كانوا مستوطنين دائمين ، ومن ثم لم يكن أمام الشعب البيزنطى سوى الاستسلام للعدو لضمان البقاء فى أرضه وممارسة حرفه وصناعاته . وهكذا وبنهاية عهد أورخان تزايد سكان الدولة الجديدة ليصل إلى ما يقرب من نصف مليون نسمة بعد أن كانوا ٤٠٠ فارس حول أرطغرل . وكانت هذه الدولة الإسلامية التى ترتكز على الدين فى جوهرها تعامل هذه الشعوب المسيحية بكل تسامح وسلام ، غير أنه ظلت بعض عوامل التفرقة قائمة بين الطرفين فى مجال ممارسة الخدمة العسكرية والتى ترتب عليها الحرمان من جميع حقوق الأراضى مع دفع ضريبة الرؤوس ، هذا فى المناطق الريفية ، أما فى المدن فكان الوضع أفضل حيث كان الدخول طواعية فى الإسلام يقابله الكثير من المزايا الإقتصادية مثل الإعفاء من الضرائب

والمشاركة فى الحكم ، وقد اعتنق الإسلام الكثير من المسيحيين وذابت أصولهم مع العثمانليين ، وكانوا فى تزايد مستمر فى هذه المرحلة .

وقد اختلف نظام إمتلاك الأراضى فى الدولة العثمانية عن أوربا رغم كونه إقطاعياً ، حيث كانت الإقطاعيات العسكرية صغيرة وتتبع النظام الوراثى فى حق الانتفاع أما الأرض فهى ملكاً للدولة ، وعلى ذلك لم يكن لطبقة الخيالة دوراً سياسياً فى الدولة كما ساد فى أوروبا ، واستمر نظام منح الأراضى كمكافآت للجنود مع استمرار عملية الغزو وتملك السلاطين للأراضى . وقد عمل أورخان بنصيحة أخيه علاء الدين وكون جيشاً نظامياً قائماً على عناصر المشاة وظل قوة لا تقارن فى أوروبا لقرنين من الزمان . وكان هذا الجيش يختلف عن جيش عثمان الذى ضم العناصر التركمانية غير النظامية من المتطوعين الفرسان الذين عرفوا بالاكنجى Akinjis ، والذين كان يتم جمعهم للحرب عن طريق صيحات فى يوم محدد تقول : « من يريد الخروج للقتال ؟ » ، فكانوا يتجمعون ويسيرون كالأسوار خلف القائد ، وقد جعلهم أورخان فيما بعد فرقاً إستكشافية تتقدم الجيوش النظامية وتقوم بدور التمهيد للفتح قبل الهجوم المخطط ، وبذلك واجهوا المخاطر الجسام ، وحتى يضمن السلطان ولاءهم منحهم الأراضى ودعمهم بفرق إرشادية تعرف بالشافاش Chavash ، وبفرسان نظاميين عرفوا بالسباهية Sipahis . كما أقام أورخان كتيبة من المشاة تعرف بالعزب Azabs وجعلها فى مقدمة الجيش لتفتح النيران على العدو ويليها الخط الأكثر قوة من الفرق النظامية ثم يليها الجنود حاملى الرتب المعروفين بالقابى قولو Kapi Kulu الذين يعملون تحت إمرة قادتهم . وقد تميزت هذه الفرق النظامية ، على عكس فرق المرتزقة التى سادت هذا العصر ، بالإخلاص والاتحاد والطاعة العمياء لقادتهم ، وتمتعهم بنظام المكافآت والترقيات نظير خدماتهم ، وكانوا دائماً يقفون على باب خيمة السلطان مستعدين فى أى لحظة لتقديم الخدمات بشكل مباشر أو غير مباشر للقائد ، وهذا جعل العثمانيون دائمًا فى وضع الاستعداد وعدم التعرض

للمفاجآت . وقد وصف الرحالة برتراند دى بروكيير Bertrand de Broquière الجيش العثمانى قائلاً : « تستطيع هذه الفرق البدء بسرعة وبدون ضوضاء ، فمائة من الجنود المسيحيين يحدثون ضجيجاً أكثر من عشرة آلاف من العثمانليين . فعندما تدق الطبول يصطفون كالبنيان لا يتعثرون ولا يتحركون حتى تصدر الأوامر . وهم غير مدججين بالسلاح ويستطيعون التحرك فى ليلة واحدة بينما يستغرق تحرك منافسيهم ثلاثة أيام » .

ولا شك أن هذه المواهب القتالية لهذا الجنس النشط المنظم نابعة من البيئة البدوية التى جاءوا منها والتى تميزت بالسرعة وسهولة الحركة ، ويدفعهم فوق كل ذلك إرادة لا تقهر لتحويل هذه الدولة إلى إمبراطورية . ومنذ اعتناق الإسلام أصبح طابع هذا الجنس هو الجهاد والغزو ضد الكفرة فى ميدان الحرب ، فهم يفتحون الأراضى ويضمونها لممتلكاتهم ويخضعون شعوبها للحكم الإسلامى . ولكن مع مرور الوقت أصبحت الدوافع الإجتماعية والإقتصادية هى المحرك للتوسع والغزو من خلال الضغط السكانى الذى جاء نتيجة زيادة أعداد المهاجرين فى مناطق الحدود سواء كانوا من البدو الرحل أو الإغريق المسلمين أو المغامرين من الإقطاعات المركزية فى الأناضول . وهكذا أصبح على الأتراك القادمين من وسط آسيا أن يتعايشوا مع بيئة جديدة غير مألوفة ، ثم أصبح على عاتقهم التقدم لاقتحام أوروبا عند منتصف القرن الرابع عشر .

الفصل الثانى

لم يكن دخول الأتراك إلى أوروبا مسألة فجائية مثل دخول المغول إلى آسيا ، ولكنها كانت مسألة تدريجية اعتمدت بشكل جوهرى على انهيار الإمبراطورية البيزنطية وسقوطها ، فقد كانت تعانى من الانحلال والتفكك الدينى والسياسى الذى تمثل فى الشقاق بين الدول المسيحية ومعاداة الغرب للشرق والكاثوليك للأرثوذكس أو اللاتين ضد الإغريق ، وقد ازدادت حدة هذا الشقاق فى بداية القرن الثالث عشر حينما قام الفرسان اللاتين بهجوم غادر على إخوانهم المسيحيين الإغريق فى القسطنطينية بدلاً من مهاجمة المسلمين فى الأراضى المقدسة كماكان مخططاً للحملة الصليبية الرابعة ، وقد سلبوا ونهبوا المدينة فى عام ١٢٠٤ م مؤسسين بذلك إمبراطورية اللاتين فى المنطقة المتبقية من الدولة البيزنطية فى أوروبا . وبفضل هذا الشقاق بين العناصر المسيحية تمكنت هذه الدولة من البقاء أكثر من نصف القرن فهى إمبراطورية ممتدة عاصمتها نيقيا ثم نجح الإغريق فى السيطرة على أراضيهم المتبقية فى آسيا حتى استطاعوا فى عام ١٢٦١م استعادة القسطنطينية مرة أخرى .

وقد قاومت الدولة البيزنطية الضربات الموجهة إليها وظلت قائمة حوالى قرنين من الزمان لتمثل ظلال العظمة الغابرة حيث انتهى دورها كقوة مركزية عالمية عسكرياً وحضارياً ، ولم تستطع استعادة قوتها وأمنها السابقين وتقلص حجمها إلى درجة كبيرة وفقدت كنوزها وهجرها سكانها ، وتحولت تجارتها مع الشرق إلى دروب أخرى ، أما تجارتها مع الغرب فقد باتت فى أيدى البنادقة وأهل جنوة . ثم اشتعل من جديد ذلك الصراع القديم بين البابوية والدول اللاتينية وبشكل أكثر حدة من ذى قبل . ومن الناحية الداخلية كابدت الإمبراطورية انهياراً إدارياً وغلياناً إجتماعياً وخواء مالياً ، ولم تظهر فى هذه الفترة الحرجة من التاريخ البيزنطى أسرة حاكمة بها عدد من الحكام العظام الذين يستطيعون بعث الحياة من جديد فى أوصال الدولة ، بل على

العكس تبع حكم أباطرة أسرة باليولوج (١) ، بعد استعادة القسطنطينية ، انهياراً إمبراطورياً عاماً ولم تحدث بها نهضة إلا فى مجال الفنون . وكان من توابع الحرب التى وقعت بين المسيحيين حدوث انقسام وتفكك داخل الأسرة الحاكمة نفسها ، وخاضت حرباً أهلية متقطعة حيث قام الابن بمحاربة الأب والحفيد بمحاربة الجد ومغتصب الأرض ضد الحاكم الشرعى . وقد كان لهذا الانحلال أثره فى وقوع القسطنطينية فى أيدى الأتراك الذين كانوا يخوضون حرباً مقدسة من أجل الإسلام ثم أدت بهم الظروف إلى غزو أوروبا .

لقد لجأ العثمانيون إلى نظام المرتزقة التقليدى والذى سار عليه العرب زمن الخلافة العباسية منذ ثلاثة قرون مضت ، وقد بدأ تطبيق هذا النظام أولاً فى مقاطعة التركمان الذين استقروا فى إقليم دبروجة الواقع على الساحل الغربى للبحر الأسود وذلك عندما تولى أول الأباطرة من أسرة باليولوج الحكم وهو ميخائيل الثامن (٢) والذى كان لاجئاً ومنفياً فى البلاط السلجوقى منذ الغزو اللاتينى ، كما كان السلطان السلجوقى المخلوع عز الدين بدوره لاجئاً فى القسطنطينية فقام التركمان بمظاهرة تهديد ضد الإمبراطور وتمكنوا من إطلاق سراح السلطان وانسحبوا معه إلى شبه جزيرة القرم ، ولكن بقى فى القسطنطينية ابنه ومجموعة من حرسه الخاص وهؤلاء اعتنقوا المسيحية وأصبحوا نواة لفرق الحرس التركية التى سرعان ما تزايدت أعدادها وزودت الجيش الإمبراطورى بتعزيز مطلوب ومرغوب فيه .

---

(١) أسرة باليولوج أو باليولوجس هى أسرة حاكمة بيزنطية امتد حكمها من ١٢٦١ إلى ١٤٥٣ بدأت بميخائيل الثامن وانتهت بقسطنطين الحادى عشر . أنظر : ستيفن رانسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٧ .

(٢) امتد حكم ميخائيل الثامن من ١٢٨٢ إلى ١٣٢٨ . أنظر ستيفن رانسيمان ، المرجع السابق .

وعند بداية القرن الرابع عشر قام الإمبراطور البيزنطى أندرو نيقاس الثانى بالمثل بتزويد جيشه بقوة كبيرة من المرتزقة المسيحيين من منطقة قطلان الكبرى (١) تحت إمرة جندى ليس له سلطة وصاحب ثروة يدعى روجردو فلور . وعندما أثار هؤلاء القطلانيون الشغب فى القسطنطينية أرسلهم الإمبراطور إلى آسيا الصغرى وهناك حاربوا بنجاح ضد الترك ، ولكنهم استأثروا بالغنائم لأنفسهم على حساب الإغريق فدخلوا فى صراع مفتوح معهم مكونين بذلك مركزاً أوروبياً للقيادة فى غاليبولى وباحثين عن إمكانية إقامة دولة لهم فيها ، وعندما قتل قائدهم روجر دوفلور فى القصر الإمبراطورى بفعل الدسائس ، انقلب القطلانيون بوحشية على الإغريق واستعانوا بأعدائهم الأوائل الأتراك من آسيا الصغرى لمساعدتهم ضد الإمبراطورية التى جاءوا أساساً للدفاع عنها وحمايتها .

وهكذا كان القطلانيون هم أول من جاء بالأتراك إلى أوروبا ليحاربوا كقوة منظمة ضد الإغريق ، وعندما تقهقر القطلانيون إلى تثاليا (٢) تركوا وراءهم قوة ضخمة من الترك فى تراقيا ومقدونيا أغارت على خطوط المواصلات ونشرت الفوضى العامة ، ثم تمكن قائدهم خليل من التوصل إلى اتفاقية تنص على الإنسحاب مقابل منحهم امتياز المرور بأمان عبر البسفور . وحينما حاول الإغريق فيما بعد خرق الاتفاق وحرمان الأتراك من غنائمهم استدعى خليل التعزيزات من آسيا وألحق هزيمة بالإمبراطور الشاب ميخائيل التاسع وأقام نفسه مكانه ، ولكن الإمبراطور استطاع التخلص من الأتراك عن طريق الإستعانة بقوات صربية لمساعدته .

---

(١) يقع إقليم قطالونيا فى شمال شرق أسبانيا وينسب إليه القطلانيون وهم فئة من المرتزقة التى استدعيت لمساعدة الدولة البيزنطية ضد أعدائها ، أنظر : محمد فؤاد كوبريلى ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمة السعيد سليمان ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٣٦ .

(٢) تثاليا مدينة يونانية تقع على بحر إيجة : أنظر : La Rousse , p . 1731 .

ومن الآن فصاعداً تعرضت الجزر والسواحل البيزنطية في أوروبا خلال القرن الرابع عشر لغارات من القراصنة الأتراك القادمين من مختلف مقاطعات آسيا الصغرى ، وكان التنافس بين هؤلاء القراصنة يحول دون تنفيذ غزو منظم لهذه المناطق ، كما أن الأتراك كانوا يحاربون من أجل الإغريق وضدهم فى آن واحد . كذلك واجه الأتراك خطر التتار فى شمال البحر الأسود الذين زحفوا فى موجات إلى جنوب روسيا والقرم وغرباً حتى المجر . وفى هذه الفترة شن القراصنة الأتراك من مقاطعة ايدين فى آسيا الصغرى عدة غارات على جزر بحر إيجه مما أدى إلى الدعوة إلى حملة صليبية ضدهم قامت بها القوات البابوية وتمكنت من الإستيلاء على مدينة سميرنا (١).

ولم يلعب العثمانيون دوراً واضحاً فى هذه الاعتداءات حيث أدركوا أن هذا من شأنه إضعاف بنى عشيرتهم من الترك واستمروا على سياستهم الحذرة طويلة الأجل وبرغم أنهم ظلوا يحتلون سواحل البسفور حتى عام ١٣٣٠ إلا أنهم لم يعبروه إلى أوربا إلا بعد سبع سنوات تلبية لطلب المغتصب للعرش البيزنطى جون كنتاكوزين من الإمبراطور الشرعى الطفل چون باليولوج لدعمه فى الحرب الأهلية . وقد عرض كنتاكوزين على أورخان الزواج من ابنته تيودورا فى مقابل ذلك فوافق بلا تردد . وفى عام ١٣٤٥م عبرت قوة عثمانية قوامها ستة آلاف جندى إلى أوروبا ، واستطاعت هزيمة الإمبراطور باليولوج ومكنت كنتاكوزين من الإستيلاء على كل المدن الساحلية فى البحر الأسود ، كما خربت تراقيا وهددت أدرنة وحاصرت القسطنطينية .

وفى العام التالى تم الاحتفال بزواج الأميرة البيزنطية من السلطان العثمانى على السواحل الأوربية وتمت المراسم المناسبة لذلك حيث أرسل

---

(١) تقع سميرنا فى أزمير حاليًا ، وهى ميناء تركى على بحر إيجة ومركز تجارى للمنسوجات القطنية .

أنظر : La Rousse , p . 1437 .

أورخان من مقره فى سكوتارى أسطولاً من ثلاثين سفينة تركية وقوة حراسة من الفرسان ليحملوا عروسه من السرادق المشيد فى معسكر الإمبراطور فى سلمبريا . ويروى المؤرخ جيبونز تحت عنوان « إهانة الملكية » قائلاً : « لقد اعتلت تيودورا العرش الذى كان محاطاً بستائر من الحرير والذهب ، وكانت الفرق العسكرية تسير حولها مدججة بالسلاح والإمبراطور وحده هو الذى كان علي صهوة الجواد ، وعند إشارة معينة رفعت الستائر فجأة لتكشف عن العروس أو الضحية حيث أحاط بها الخصيان الراكعون ومشاعل الزفاف . ثم أعلنت أصوات الأبواق والمزامير الحدث البهيج وعلت أغانى الزواج المألوفة فى هذه المناسبات والتى تتمنى السعادة المزعومة ، ثم سلمت تيودورا إلى سيدها الهمجى بدون الطقوس الكنسية المنصوص عليها فى عقد الزواج ولكن سمح لها الاحتفاظ بديانتها وسط حريم بورصا ثم عانقها والدها فى هذا الموقف الغامض ونصحها بالسخاء والإخلاص » . وفى الحقيقة استطاعت تيودورا تقديم بعض الخدمات لدينها عن طريق شراء عدد من العبيد والسجناء المسيحيين وتحريرهم .

وقد تبع هذا التحالف العسكرى والعرقى مع العثمانيين دخول كنتاكوزين إلى القسطنطينية فى عام ١٣٤٧ حيث زوج ابنته الثانية هيلين من الشاب جون باليولوج وتم إقرار تحالف بين الإمبراطورين . وهكذا دخل الأتراك العثمانيون إلى أوروبا ليس كأعداء بل كحلفاء وأصهار للأباطرة البيزنطيين بعد أن تزوج سلطانهم من ابنة الإمبراطور وصار صهراً لإمبراطور آخر وهو زوج شقيقة تيودورا وصهراً أيضاً لقيصر بلغاريا . على أن هذا الوضع مكن أورخان من ممارسة مغامرات تنافسية لعقد تحالف مشابه مع ستيفن دوشان عدو البيزنطيين الذى كان قد وسع حدود دولته المجاورة فى الصرب وحولها إلى إمبراطورية ، وأصبح يحمل لقب « سيد الإمبراطورية الرومانية جمعاء » ، بل نادى به البنادقة إمبراطوراً على القسطنطينية ذاتها ، وبرغم ذلك فشل فى الحصول على مساعدتهم لشن هجوم عليها ، ولذلك قرر الحصول على مساعدة أورخان بدلاً من البنادقة واقترح إقامة تحالف بين

القوات العثمانية والصربية للقيام بحملة مشتركة على المدينة . وليؤكد ستيفن هذا التحالف عرض ابنته على أورخان ليزوجها من ابنه ، وأرسل أورخان رسله إلى ستيفن معلناً الموافقة ، ولكن كنتاكوزين استطاع إجهاض هذه الخطة وقتل بعض الرسل وسجن البعض الآخر واستولى على الهدايا المرسلة إلى إمبراطور الصرب ، ولم يفتح باب الحوار بين ستيفن وأورخان حول هذا الموضوع مرة أخرى وإنهارت أهداف كليهما . وكانت المرة الأخيرة فى عام ١٣٥٥ والتى حاول فيها ستيفن أن يشن هجوماً بمفرده على القسطنطينية بقوة قوامها ٨٠,٠٠٠ مقاتل ، ولكنه توفى فى اليوم التالى للحملة وماتت إمبراطوريته الصربية معه .

وفى عام ١٣٥٠ طلب كنتاكوزين المساعدة من العثمانيين مرة أخرى حيث استعان بـ ٢٠,٠٠٠ فارس عثمانى لإنقاذ سالونيكا من دوشان واستطاع طرد قواته من المدن الساحلية فى مقدونيا وأنقذ سالونيكا ، ولم تحتل القوات التركية أيًا من هذه المدن واكتفت بالعودة مع السلطان إلى آسيا الصغرى محملة بالغنائم . وبعد عامين مد أورخان يد المساعدة لأهل جنوة فى حربهم ضد منافسيهم التقليديين وهم البنادقة وفى بعض الأحيان ضد كنتاكوزين نفسه . وفى عام ١٣٥٢ حينما تحالف البنادقة مع البلغاريين ضد المنافس جون باليولوج طلب كنتاكوزين المساعدة من جديد من العثمانيين فأمدوه بـ ٢٠,٠٠٠ مقاتل ، ووعد البيزنطيون بمنح أورخان قلعة فى شبة جزيرة تراقيا وبذلك أنقذت أدرنة وتم تأمين تراقيا ومعظم مقدونيا ، ثم أعلن ابنه متى إمبراطوراً مشاركًا . وفى عام ١٣٥٣ عبر سليمان باشا ابن أورخان مضيق البحر الأسود على رأس قوة عثمانية ليتسلم القلعة التى وعد بها والده وهى قلعة تزيمب Tzympe التى تقع فى شبة جزيرة بين غاليبولى وبحر إيجه ، وبعد وصوله مباشرة وقع زلزال دمر جزءاً من أسوار غاليبولى فاستولى عليها سليمان بسرعة وعلى القلعة وأصلح أسوارها وأقام بذلك أول مستعمرة للعثمانيين السادة القادمين من آسيا . وتبع ذلك إقامة مستعمرات أخرى سريعة فى أراضى المسيحيين الذين كانوا يعملون تحت إمرة بكوات المسلمين

والذين كانوا رفقاء لأورخان وزملاء سلاحه وكانوا يعدونه حليفاً أكثر منه قائداً وصاروا قوات داعمة للدولة العثمانية الجديدة فى أوروبا . وفى الوقت نفسه أسر سليمان عدداً من الفلاحين الإغريق فى المقاطعات المختلفة بعد احتمائهم بالقلاع والمدن ولكنهم لم يتعرضوا لأى ضرر بعد أن كونوا قوة متطوعة لخدمة العثمانيين .

وهكذا كانت بداية الاحتلال العثمانى الذى سار بخطى حثيثة تجاه الغرب الأوربى الذى تميز بالحدود المفتوحة أمام الغزاة ، وأصبح هناك غرساً عثمانياً فى الأراضى البيزنطية يتقدم بسرعة وقوة ليغلق الطرق ويدمر المحاصيل ويخلق حالة من الانهيار الاقتصادى ، حيث أسس الجيش الرئيسى مناطق إستقرار عديدة للأتراك على الطرق السريعة وعلى ضفاف وأودية الأنهار الأربعة التى تصب فى الدانوب ، ولكنهم لم يتوغلوا فى المناطق الجبلية التى لجأ إليها السكان الأصليون ، وفى هذا المجتمع البلقانى غير المستقر كانت المقاومة ضعيفة للغزاة واستطاع الأخوة الدراويش تأسيس تكايا أو زوايا كانت بمثابة النواة للقرى العثمانية الجديدة . وقد استطاع البكوات المسلمون فى الأراضى التى سيطروا عليها إقامة علاقات مع الفلاحين المسيحيين أدت إلى ثورة إجتماعية ، فقد طردوا طبقة ملاك الأراضى القدامى بالتوارث من الإغريق واللاتين الذين كانوا يسيئون استغلال أقنان الأرض « فلاحين الإقطاع » وأسسوا إدارة جديدة من الملاك تقوم بتحصيل ضرائب محدودة من الفلاحين وتم إلغاء مبدأ السخرة . ولم يكن العثمانيون فى ظل هذا النظام الجديد ملاكاً للأراضى وإنما وسطاء بين الفلاحين والسلطان الذى امتلك جميع الأراضى المفتوحة . وفى هذا الوقت الذى تدهورت فيه الأوضاع السياسية والإجتماعية البيزنطية ، أقام العثمانيون إدارة مركزية قوية وأصبحوا سادة الأراضى المحتلة الواقعة على حدودهم وخضع إليهم نسبة من المسيحيين ممن قبلوا دفع جزية سنوية رمزاً للخضوع لدولة إسلامية .

لقد قامت هذه الدولة الجديدة على سياسة التسامح والتعايش مع المسيحيين ، والتأكيد على الفلاحين بأنهم لن يعودوا لسادتهم الإقطاعيين مرة

أخرى ، بل شجعوا ثورات الفلاحين ضد هؤلاء السادة . وكان هذا الغزو الإسلامي موضع تقدير من فلاحي البلقان لأنه حررهم من سطوة الإقطاع المسيحي الذي بلغت تجاوزاته ومساوئه حداً لا يستهان به ، بالإضافة إلى تزايد مساحات الأراضي الديرية أو الكنسية ، بينما تضفي عليهم العثمنة مزايا عديدة أهمها الانضباط والقانون»، وقد عبر أحد الرحالة الفرنسيين عن هذا الوضع قائلاً : « البلاد الآن آمنة ولا يوجد قطاع طرق أو عصابات لصوص كما هو سائد في الأمة المسيحية » . وفي هذه المرحلة المبكرة سيطر العثمانيون على غالبية شبة جزيرة غاليبولي والساحل الأوروبي لبحر مرمرة حتى نقطة تبعد عدة أميال عن مدينة القسطنطينية ، أما كنتاكوزين الذي أصبحت سيطرته على وشك الإنهيار فقد اتهم أورخان بعدم الوفاء للتعهدات ، وطالب باستعادة قلعة تزيمب مقابل عشرة آلاف من الدوكات ، وقد سلمه أورخان القلعة في مقابل الفدية وهو على دراية بأنه يستطيع إستردادها في أي لحظة ، ولكنه رفض بشدة التنازل عن غاليبولي التي سقطت في يده بالقوة ولكن بإرادة الله ومشيئته كما قال ، ورفض التشاور حول هذا الموضوع أكثر من ذلك معتبراً أن التدخل الإلهي هو سبب إستقرار الأتراك في هذا المكان .

وأمام هذا الموقف السيئ سعى كنتاكوزين لتكوين حلف من الصرب وبلغاريا ضد العثمانيين ولكنهما رفضتا وطلب منه قيصر بلغاريا أن يواجه العاصفة بمفرده وأن الأتراك إذا هاجموا بلاده سوف يعرف كيف يدافع عن نفسه . وقد ثار سكان القسطنطينية ضد كنتاكوزين وحاصروه بوضع المتاريس أمام قصره ، واعترفوا بالإمبراطور چون باليولوج ، واتهموا الأول بمحاولة تسليم المدينة للعثمانيين ، ولذلك انسحب وعاش في أحد الأديرة في ميسترا بالقرب من إسبرطة وقضى الثلاثين عامًا المتبقية من عمره في كتابة تاريخ الفترة التي عاش فيها وغير إسمه إلى جوزيف . لقد وسع سليمان باشا فتوحاته ومستعمراته داخل بيزنطة ، واستولى على ديموتيقة وقطع خط الاتصال بين أدرنة والقسطنطينية عن طريق السيطرة على منطقة تشورلو ، وقد قابل السكان الإغريق هذا العمل بمقاومة غير جادة وكذا الوضع بالنسبة لقوات الإمبراطور

باليولوج الذى أثبتت الأحداث أنه أصبح تحت رحمة الأتراك كما حدث لكنتاكوزين من قبل وواجه مصيراً مؤلمًا . ففى عام ١٣٥٧ حينما تم أسر خليل ابن أورخان وتيودورا بواسطة القراصنة طلب السلطان من الإمبراطور أن يحاصر فوقيا لإنقاذهما ، ونفذ الإمبراطور الحصار لفترة ثم رفعه فأمره أورخان بالاستمرار فيه ولكنه توسل إليه أن يعفيه من هذه المهمة التى هى فوق طاقته .

وهكذا أصبح أورخان سيداً على الأباطرة البيزنطيين ، وفى عام ١٣٥٩ توجه إليه فى سكوتارى الإمبراطور جون الخامس ساعيًا لتهدئة الأوضاع ، فعقد معه السلطان معاهدة سلام على أن يدفع نصف الفدية لإبنه خليل مع الإبقاء على الوضع الراهن فى تراقيا ، ثم قدم الإمبراطور ابنته ذات العشر سنوات زوجة لخليل ، وأعيد إلى نيقيا حيث أقيمت احتفالات الزفاف على الأميرة المسيحية وفقًا للمراسم الإسلامية . وكما فعل كنتاكوزين من قبل وجلب العثمانيين إلى أوروبا جنوداً ، فإن منافسه جون باليولوج قبل وجودهم كمهاجرين .

لقد توفى أورخان فى عام ١٣٥٩ بعد عام من وفاة إبنه الأكبر سليمان الذى سقط من فوق صهوة الجواد فى أثناء رحلة صيد فى شبة جزيرة غاليبولى ، فخلفه إبنه الأصغر مراد الأول . ويعد أورخان ثانى ثلاثة حكام عثمانيين مؤسسين ، وقد حقق جميع أهدافه من خلال مهاراته الدبلوماسية أكثر من الكفاءة الحربية ، ونجح فى تحويل إمارته إلى دولة ، ورغم أنه دخل أوربا بجيش حديث خلف إلا أنه لم يستخدم القوة كثيراً واستبدلها بأسلوب عقد الصفقات والمساومات . ولما كان العدو الذى يواجهه أورخان ضعيفًا منقسمًا فقد استخدم الدسيسة والصبر والمثابرة ، وعلى هذه الأسس قامت الإمبراطورية العثمانية فى أوروبا . لقد حان الوقت لتوسيع نطاق الغزوات العثمانية فى أوروبا والتى أدت إلى مواجهة القوة الدفاعية المسيحية عن بقايا الإمبراطورية البيزنطية وحدود دول البلقان ، وكانت هذه مهمة السلطان مراد الأول الذى كان يبلغ من العمر أربعين عامًا عند تولى الحكم وتفوق على

أسلافه كقائد عسكرى وكرجل دولة ناجح بمقياس العصر ، وبفضله خضع الغرب للشرق كما سبق وأن خضع الشرق للغرب فى العصور اليونانية والرومانية .

الفصل الثالث

لقد مهد أورخان الطريق للإمبراطورية العثمانية فى أوروبا ، وأصبح مراد أول وأعظم سلاطينها ، فقد حكم لجيل كامل فى أواخر القرن الرابع عشر . وكان مراد من رجال الحرب المشبعين بالحماسة الدينية وملهماً فى قيادته ، وبفضل هذه الصفات تمكن من مد السيطرة العثمانية إلى أبعد حدود شبه جزيرة البلقان ، كما قام بتقوية وتحصين هذه الفتوحات لتدوم حوالى خمسة قرون . ومن صفاته أيضاً سعة الأفق والمقدرة السياسية مما كان له أثره فى بناء إطار مستقبلى للحكومة العثمانية ، وخلق حياة جديدة على أنقاض الإمبراطورية البيزنطية ، واستخدام أساليب جديدة لم يلجأ إليها أى حاكم فى التاريخ من قبل ، ويمكن القول أنه بشر بفجر حضارة عثمانية جديدة فريدة فى خصائصها من ناحية الجنس والدين واللغة .

ويضاف إلى ذلك أن التوسع العثمانى فى شرق أوروبا تزامن مع انحسار المد الغربى الأوروبى فى هذا الاتجاه ، فبعد السقوط النهائى للقدس فى منتصف القرن الثالث عشر والهجمة المغولية الفجائية ودخولهم إلى آسيا الصغرى انحسر الإقطاع المسيحى ناحية الشرق ، وانقلب الزحف الصليبى على عقبيه بعد أن دب النزاع بين المسيحيين اللاتين وتقاتلوا فيما بينهم ، وأصاب الفشل البيوتات المالية الإيطالية التى كانت تقيم تجارة نشطة مع الشرق وتمول الصليبيين . وأدى هذا الدمار المالى والإقتصادى إلى أزمات إجتماعية عامة ووصل المجتمع الأوروبى إلى أدنى درجات الإنحطاط ، وأصبح من الشائع قيام ثورات الفلاحين ضد سادة الأرض من الإقطاعيين ورجال الدين ، وثورات العمال ضد التجار .

ومن ناحية أخرى كان انتشار الوباء المعروف بالموت الأسود (١) والذى

---

(١) الموت الأسود هو وباء الطاعون الذى أصاب عدداً كبيراً من سكان آسيا وأوروبا فى القرن الرابع عشر ، وجاء عن طريق الفئران السوداء التى غزت إنجلترا فى عام ١٣٤٩م ، والتى يعتقد أنها جاءت مع سفن الصليبيين قبل هذا التاريخ بقرن من الزمان . وقد حصد هذا الوباء عشرات الآلاف من الشباب أكثر من الكبار .

أنظر : La Rousse , p 1215

أتى من الشرق وهاجم سكان منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط وغرب أوروبا كلها ، واكتشاف العالم الجديد (الأمريكتين) والذى جذب شباب الغرب الأوروبى وجعله يعبر الأطلنطى ، من العوامل التى عجلت بنهاية العصور الوسطى وببزوغ إمبراطورية جديدة على أكتاف الأتراك العثمانيين . إن دخول مراد إلى أوروبا كان عملاً مخططًا من قبل جلوسه على العرش ، ونفذه القادة العظام ، وأفتتح عام ١٣٦٠ بأولى مراحله السريعة المتكاملة ، فخلال خمسة عشر شهراً استطاع التحكم الفعال والسيطرة على تراقيا بقلاعها الحصينة وسهولها الغنية الممتدة إلى سفح جبل البلقان ، بعد أن أقام مذبحة فى تشورلو لحامية المدينة وقطع رأس قائدها ، وكان هذا كافياً لنشر الرعب فى البلقان من الغزاة الأتراك ، ولأن تفتح أدرنة أبوابها لهم ولتحل محل بورصة كعاصمة سلطانية . واتجه العثمانيون بعد ذلك ناحية الغرب إلى القسطنطينية حيث كان جون باليولوج شبح الإمبراطور وعقدوا معه معاهدة تعهد فيها بعدم محاولة إستعادة ممتلكاته المفقودة فى تراقيا ، أو محاولة تقديم العون للصربيين والبلغار لمقاومة العثمانيين ، كما ألزموه بتقديم المساعدة للعثمانيين ضد منافسيهم فى آسيا الصغرى . وبعد عقد من الزمان أصبح الإمبراطور تابعًا للسلطان وإعترف بسيادته ووافق على تجنيد قواته فى الجيش العثمانى .

وعندما توغل الأتراك فى أوروبا تجاه بلغاريا ومقدونيا والصرب والمجر حاولت القوى المسيحية برعاية البابا أوربان الخامس التحالف مع اليونانيين للقيام بعمل عسكرى دفاعًا عن الأمة المسيحية دون جدوى . وفى عام ١٣٦٣م ولأول مرة عبرت قوات صربية ومجرية نهر ماريتزا دون مساعدة الإغريق باتجاه أدرنة وانقض عليهم الأتراك كالوحوش البرية التى انطلقت من عرينها ، على حد وصف المؤرخ التركى سعاد الدين ، بعد أن قضى الأعداء ليلتهم فى احتفالات بمناسبة عبور النهر دون مقاومة تذكر ، وكانت نتيجة هذا الهجوم إعادتهم من حيث أتوا كما تذروا الرياح الشرر وكادوا يبيدونهم عن بكرة أبيهم . بيد أن جميع المحاولات التى قام بها الصليبيون أصابها الفشل بسبب النزاع بين الكنائس اللاتينية والإغريقية ، وقد انعكس ذلك

على الرسالة التي بعث بها البطريرك إلى البابا أوربان قائلاً : « إذا كان العثمانيون هم الأعداء الألداء ، فإن الإغريق المنشقين أسوأ من الأعداء » . وكان في إمكان الإمبراطور چون باليولوج أن يحصل على حلفاء إذا وعد بإخضاع الإغريق لكنيسة روما ، وقد وعد بذلك في زيارة سرية للمجر غير أن البلغار حجزوه في إحدى القلاع في طريق العودة ، وأدى هذا التصرف إلى تدخل أماديو حاكم سافوى (١) وخروجه على رأس حملة صليبية في عام ١٣٦٦م ، ونجح في استرداد غاليبولي من الأتراك ثم أبحر إلى البحر الأسود لمحاربة البلغار ، وبعد أن أنقذ الإمبراطور البيزنطي من بين أيديهم ، صمم على الخضوع لكنيسة روما كما فعل المجريون ، ولكن قوبل طلبه بالرفض فعاد وحارب الإغريق .

وفي نهاية الأمر خضع الإمبراطور البيزنطي لكنيسة روما وتوجه في عام ١٣٦٩ إلى روما معلناً تخليه عن أخطاء الكنيسة الأرثوذكسية ، وفي مقابل ذلك وعده الأمراء المسيحيون بالمساعدة ضد الأتراك ، ولكنهم لم ينفذوا وعودهم بل حجزوه في طريق العودة في البندقية حتى يسدد دين شقيقه الأكبر أندرونيقاس وهو فدية الشقيق الأصغر مانويل - على أن خضوع چون لكنيسة روما لم يلق قبولاً وإستحساناً في القسطنطينية ولذلك دخل في تبعية السلطان مراد ، لقد استثار العثمانيون كراهية سكان البلقان للكنيسة اللاتينية إضافة إلى الكراهية السياسية المتبادلة بين الطرفين ، مما مهد الطريق أمامهم للسيادة على الأرثوذكس بدلاً من الكنيسة الكاثوليكية ، وكان هذا يعني أن جميع أجناس البلقان من الإغريق أو السلاف الصربيين أو البلغار يفضلون الحكم العثماني على ما عداه وبصفة خاصة على الحكم المجري . وقد تزامن هذا الوضع مع ضعف الإرادة والعزيمة الذي أصاب سكان البلقان نتيجة انتشار وباء الموت الأسود مما جعل مهمة العثمانيين في تثبيت أقدامهم

---

(١) تقع سافوى في جنوب شرق فرنسا على الحدود الإيطالية ، وقد ضمتها فرنسا في الفترة من ١٧٩٢ إلى ١٨١٣ ، ثم أصبحت إقليماً فرنسياً خالصاً منذ عام ١٨٦٠ .

أنظر : La Rousse , p 1680

فى هذه المناطق أمراً سهلاً أمام رجل دولة محنك مثل مراد . وبرغم أن العثمانيين كانوا قلة وواجهوا سكاناً متطرفين إلى أبعد مدى وأجناسهم معقدة وشخصياتهم الدينية والسياسية مختلفة تماماً عنهم فقد ساروا فى سياسة دمجهم فى المجتمع العثمانى وكانت هذه من أعقد المشكلات التى واجهت مراد ، خاصة وأنه لم يكن لدى سكان البلقان المسحيين أية معلومات عن الإسلام فوجد أن دمجهم عن طريق إعتناق الإسلام طواعية واختياراً أمراً عسيراً ولا ينطبق عليهم كما فعل من قبل سكان آسيا المسيحيون ، كما كان من المستحيل إبادتهم أو التخلص منهم لعدم وجود أعداد كافية من المستعمرين المسلمين ليحلوا محلهم . فكان الاتجاه من جانب السلطان هو الاحتفاظ بالإدارة السياسية لهذه المناطق فى أعقاب الغزو العسكرى ، وإتباع سياسة التسامح وعدم الإكراه للدخول فى الإسلام حتى لا يواجه أى تهديد من جانب القوى المسيحية ، وبالفعل أدخل عدداً من رجال الصفوة العسكرية فى خدمة العثمانيين ، وعدة آلاف من الفرق العسكرية المسيحية كمقاتلين فى الفرق العثمانية مع الاستعانة بأمرائهم وقادتهم ليترأسوهم ، وفى مقابل ذلك تمتعوا بالإعفاء الضريبى (الجزية) وبحق استغلال الأرض .

ولكن مشكلة الإدماج التام التى طبقها العثمانيون عن طريق تحويل السكان إلى عبيد هى إعادة للتجربة التى مر بها الغزاة فى تاريخهم المبكر ، فقد أصبح الأسرى عبيداً فى المدن المفتوحة ، وكان التشريع العثمانى يعطى للجندى العثمانى الحرية الكاملة فى إمتلاك العبيد إلا إذا اعتنقوا الإسلام ، ومن حقه استخدامهم فى الخدمة المنزلية أو فى الأرض أو بيعهم فى الأسواق على أن يؤدى للحكومة حقها فى ضريبة العشور . وكان الاستعباد بالنسبة للإغريق أمراً حقيراً مهيناً ولا يمكن تحمله ، ولذلك فضل الكثيرون منهم تغيير الدين وإعتناق الإسلام عن فقد الحرية . غير أنه وجد نوع من المرونة فى هذا الأمر وخاصة فى المدن ، إذ استطاع العديد من الإغريق الحصول على الحرية دون اعتناق الإسلام بعد أن سمح مراد للسكان بافتداء أنفسهم ، وفى المناطق الريفية كان الهروب إلى الجبال أمراً يسيراً وكانت تعقب الفارين أمراً

شاقاً أمام الغزاة . ومن ناحية أخرى ظلت بعض الأراضى فى حوزة أصحابها فى مقابل أداء ضريبة محددة ، وفى أراض أخرى كان الملاك العثمانيون الجدد يستعينون بالسكان المحليين مع بقائهم على دينهم فى فلاحة الأرض . أما النساء فكن سبايا حرب ، وتحولت بنات الإغريق والصرب والبلغار إلى جوار وإماء للفاتحين الذين كانوا لا يصطحبون زوجاتهم معهم ، فكانت النتيجة بزوغ جنس عثمانى بدماء مختلطة ، دماء شرقية وتترية ومغولية وچركسية وچورجية وفارسية وعربية تجرى فى عروق الأتراك وتختلط بدماء العناصر البلقانية الأوروبية ، وأدى هذا عبر القرون إلى نشوء حضارة مفتوحة تماثل حضارة الإغريق والرومان والبيزنطيين .

وبالإضافة إلى النظام العام للعبودية الذى كان يمكن التخلص منه باعتناق الإسلام ، قام مراد بتجنيد عدد من المشاة المنتظمين من أفضل العناصر المسيحية للعمل فى خدمته بصفة شخصية أو كحرس خاص له ، وعرفت بفرق الانكشارية (ينى – تشرى) أو الفرق الجديدة التى أوجدها أورخان كحرس له ، وتحولت هذه الانكشارية بواسطة مراد إلى ميليشيا أو قوات خاصة وظيفتها الأساسية الدفاع عن المناطق المسيحية المفتوحة فى أوروبا . وكانت هذه الفرق تجبر على اعتناق الإسلام ، ويتم اختيار أفرادها من كل منطقة مفتوحة على أساس مبدأ الإعفاء من أداء الخدمة العسكرية بدفع ضريبة الرؤوس . وكان على السلطات العثمانية اختيار أفضل العناصر للعيش فى بيئة إسلامية ووظيفتهم هى خدمة السلطان والولاء له شخصياً ، وتقاضوا مرتبات أعلى من الفرق الأخرى ، وخضعوا لتدريب بدنى وذهنى خاص وصارم وابتعدوا تماماً عن بيئتهم الأصلية وحرم عليهم الزواج مثل الرهبان ، كما حرم عليهم ممارسة أى مهنة أخرى ، وأصبحت حياتهم مكرسة للخدمة العسكرية تحت الرعاية الخاصة للسلطان .

وقد نشأت علاقة وثيقة بين هذه الفرق وفرق البكتاشية (١) الدراويش

---

(١) تنسب فرق البكتاشية إلى حاجى بكتاش ، وهى طريقة صوفية نشأت فى غرب الأناضول فى القرن الرابع عشر .

أنظر محمد فؤاد كوبريلى ، المرجع السابق .

التى كان أورخان ينتمى إليها وشيد لها العديد من الزوايا والتكايا فى مدينة بورصة ، وقد بارك شيخهم حاجى بكتاش هذه الفرق ومنحهم راية خاصة بهم عليها شعار الهلال والسيف ذى النصلين الخاص بعثمان ، ثم وضع رداء كمه على رأس أول جندى منهم وسماهم بالاسم الذى اشتهروا به ، وبارك مستقبلهم قائلاً : « إن منظرهم مشرق وسواعدهم قوية وسيوفهم حادة وسهامهم قوية ، وسينتصرون فى كل معركة ولن يعودوا إلا مظفرين » . وبعد هذه المباركة وضع أفراد الانكشارية على رؤوسهم غطاءً أبيض اللون وعليه شعار الملعقة الخشبية . وعاشت هذه الفرق فى مستوى أعلى من الفرق الأخرى ، وكان شعار ضباطها وعاء الطبخ والملعقة لأنهم كانوا فى الأصل فى المطابخ السلطانية وشغلوا وظائف مثل الشوربجى الأول أى (صانع الحساء) والسقا الأول ، ولذلك كان القاذان الكبير شيئاً مقدساً لديهم حيث كانوا يتجمعون حوله ليس لتناول الطعام ولكن للتشاور فى الأمور الهامة .

إن شعوب أوروبا ربما شعرت بالاستياء من وحشية الأتراك القادمين من الشرق والذين فرضوا ضريبة الدم على المسيحيين واستعبدوا الأسرى وانتزعوا الأبناء بعيداً عن آبائهم وفرضوا ديناً غريباً وجديداً ومعه أسلوب للحياة ينبغى اتباعه وهو الحرب ضد الأعداء برغم أن المسيحيين كانوا أنفسهم فى هذا القرن يتعاملون مع بعضهم البعض بروح لا إنسانية ، وكان البلقان مسرحًا للحرب بين الجنود المسيحيين والأتراك ، ولم يحدث فى أى وقت أن حاربت الجيوش الإسلامية تحت إمرة قادة مسيحيين ضد مسيحيين آخرين . وبرغم تزايد أعداد فرق الانكشارية إلا أنها بمرور الوقت ظلت تشكل أقلية بين القوات المسلحة العثمانية ، فلم يزد عددهم فى عهد السلطان مراد على بضعة آلاف ، ولذلك كانت تقدم الإغراءات للفلاحين لإعتناق الإسلام والدخول فيها . وهؤلاء الشباب الذين خضعوا للتدريب البدنى العالى والتدريب على المهارات الفنية للعمل مدى الحياة سادهم نوع من التفاخر والمباهاة مع الإخلاص للسلطان والترابط الدينى القوى ، وبمرور الوقت منحوا العطايا والهبات بشكل مفرط أكثر مما يستحقون .

إن نظام العبودية العسكرية والذى كان بمثابة الصدمة للعالم المسيحى ، كان معروفًا فى العالم الإسلامى وعند الأتراك أنفسهم ، ففى زمن الخلافة العباسية كان يتم أسرهم وبيعهم كعبيد قادمين من سهول وسط آسيا وبراريها غير الإسلامية ، ثم اعتنقوا الإسلام وتم تدريبهم فى بغداد للعمل كجنود وإداريين ، وقد كتب كلود كاهن عن هذا النظام قائلاً : « إن هؤلاء العبيد يختلفون بطبيعتهم عن العبيد فى داخل البلاد الذين ينتمون لبعض الأفراد ، فلم يكن الحصول عليهم صعباً ، والعبودية لم تثر فى نفس أى شخص منهم الشعور بالاستياء » . وهكذا وصل الأتراك العبيد إلى أعلى مراتب القيادة العسكرية والوظائف الإدارية .

وفى ظل الدولة السامانية (١) أثبتوا بعض القدرات وكانوا عاملاً مهماً فى الحفاظ على وجود الأسرة الحاكمة التى انتموا إليها وكانت من العبيد ، كما حكم مصر أسرات حاكمة مشابهة أسسها الترك مثل الطولونيين ، وآخرهم المماليك الذين هم فى الأصل عبيداً لصلاح الدين والأسرة الأيوبية ، ثم تخلصوا من هذه الأسرة وأسسوا دولتهم القائمة على العبودية والتى ظلت متواجدة فى ظل النظام العثمانى .

لقد واجه العثمانيون فى ظل حكم مراد تحديًا جديداً ، كما يبدو فى كلمات أرنولد توينبى : « إن النقلة الجغرافية لمجتمع بدائى قادم من بيئة بدوية من البرارى ويحمل طبائع معينة إلى بيئة مختلفة متحررة من أية ضغوط طبيعية وخاصة الجفاف جعل التحدى الذى يواجههم هو كيفية السيطرة على هذا الملك الجديد وهذه المجتمعات البشرية المتباينة » . لقد واجهت مجتمعات بدوية أخرى نفس المشكلة وحاولت الانتقال من رعاة للأغنام إلى رعاة للبشر ولكنها فشلت ، فلم يسيطر الآفار على السلاف إلا لفترة خمسين عامًا ،

---

(١) تنتسب الدولة السامانية إلى أسرة إيرانية حكمت فى منطقة ما وراء النهر وفارس من عام ٩٠٢ إلى ١٠٠٤م .

أنظر: La Rousse , p . 1170

وكذلك الهون الغربيين لم يستطيعوا السيطرة على المجريين إلا فى فترة حكم أتيلا فقط ، والإمبراطوريات الناجحة التى أقامها المغول أيضًا كانت قصيرة الأجل . إن المبدأ البدوى فى الحكم كان يقوم على أن البشر الرعية الزراع فى أراضيهم ، وهم يمثلون قطاع الإنتاج ، سيندمجون تدريجيًا مع الراعى الحاكم ، ولكن لم يتحقق هذا وسقطت جميع الإمبراطوريات البدوية للاستغلال الواضح للطبقات العاملة والذى يؤدى إلى صعود سريع يعقبه إنهيار سريع أيضًا . وبرغم أن العثمانيين كانوا بدوًا إلا أنهم أثبتوا تفردهم فى التاريخ ، فقد دربوا كلاب الحراسة من البشر لحماية قطيع السلطان (البادشاه) وحراسته من جيرانه ، وهؤلاء الحراس كانوا من العبيد المسيحيين إذ فتح مراد الطريق أمام الإنكشارية ليصبحوا مؤسسة حاكمة فى الدولة قائمة على العبودية والإخلاص للسلطان والمساهمة فى النظام المدنى وفى جميع فروع الخدمات العامة ، وهكذا صار الرعايا المسيحيون فى الإمبراطورية يخضعون لحكم رجال ذوى أصول مسيحية خالصة ، أى أن الحكام المسلمين حكموا الرعايا من خلال هيئة من الحكم المسيحى . وكانت فرق الانكشارية المترابطة عبارة عن قوة نظامية من المشاة تشابه الحرس القضائى الرومانى ولم يوجد مثيل لها فى الجيوش المسيحية المعاصرة ، وأدت دورها النشط فى إستمرار حملات مراد وقادته فى البلقان ، وفى تأمين الاستيطان فى الأراضى المفتوحة وضمان إستقرارها ، وقد عبر جيبونز عن ذلك قائلاً : « كانوا يؤدون عملهم بحماس من اعتنق الإسلام حديثًا ضد الوثنيين » .

إن غزو تراقيا فتح الطريق أمام الجيوش العثمانية إلى بلغاريا (١) ومقدونيا ، وقد استفاد السلطان من الاضطرابات التى وقعت فى هذه المناطق

---

(١) كونت بلغاريا دولة كبرى فى البلقان منذ القرن الرابع عشر ، وتعرضت لهجوم الأتراك وخضعت لهم حتى القرن التاسع عشر ، ثم اعترف مؤتمر برلين فى ١٨٧٨ باستقلال القسم الشمالى منها ، وفى ١٩٠٨ تم الإعتراف باستقلالها موحدة .

أنظر : La Rousse , p . 1806

بعد وفاة القيصر الحاكم ، والانقسامات التى وقعت بين أبنائه الثلاثة وخاصة فى بلغاريا ، حتى اشتهرت هذه الفترة من تاريخ بلغاريا بفترة البلغار الثلاثة وهم الأمير سيسمان وشقيقاه ، ونتج عنها انتشار الفساد وتعرض البلاد لغزو خارجى من جانب المجريين بمباركة البابا ، ثم إرسال فرق الفرنسيسكان (١) التبشيرية ، التى نجحت فى تحويل ٢٠٠ ألف بلغارى من المذهب الأرثوذكسى إلى الكاثوليكى اللاتينى . وفى مثل هذه الظروف كان الترحيب بالغزو الإسلامى على أمل إسترداد حرية العقيدة . وبعد ثلاثة أعوام بدءاً من عام ١٣٦٦م ، سيطر العثمانيون بشكل كامل على وادى ماريتزا وجنوب بلغاريا ، أما سيسمان فقد سار على نهج چون باليولوج وأصبح تابعًا لمراد ، ولحقت ابنته بحريم السلطان مع الوعد بعدم إجبارها على إعتناق الإسلام . وقد استطاع سيسمان فيما بعد طرد المجريين بمساعدة العثمانيين ولكنه فشل فى السيطرة على إقليم شقيقه الأصغر كما كان يأمل ، وفى عام ١٣٧١م انقلب على العثمانيين بمساعدة الصرب ، ولكنه لقى هزيمة فى سماكوف وهرب إلى الجبال وترك الممرات المؤدية إلى صوفيا مفتوحة أمام الأتراك . وبرغم ذلك لم يسارع مراد باحتلال صوفيا لأنه كان بناءاً للإمبراطورية ومؤمناً بمبدأ التقدم البطىء المخطط أكثر من كونه قناصًا ، واكتفى فى هذه الفترة بتأمين جناحه الأيسر بإرسال حملة على أودية ستروما (٢) وڤاردار (٣) ضد الصرب ثم أصدر أوامره لغزو مقدونيا باتجاه أعالى نهر ڤاردار .

لقد مزق مراد مقدونيا والصرب أكثر من بلغاريا من الناحية الداخلية ، إذ

---

(١) الفرنسيسكان جماعة تعمل فى الوعظ والإرشاد تنسب إلى القديس فرانسوا من أسيس بإيطاليا منذ عام ١٢٠٩ ، ثم نظم شئونها البابا أنوسنت الثالث فى ١٢١٥ .
أنظر : La Rousse , p . 1352

(٢) ستروما مقاطعة فى يوجوسلاڤيا تطل على بحر إيجة .
أنظر : La Rousse , p . 1714

(٣) ڤاردار نهر فى البلقان يمر بيوجوسلاڤيا ومقدونيا ويصب فى بحر إيجة .
أنظر : La Rousse , p . 1775

كانت وفاة دوشان فى أثناء تقدمه تجاه القسطنطينية فى عام ١٣٥٥م سبباً فى حالة الفوضى والحرب الأهلية التى أصابت الإمبراطورية ، خاصة بعد تولى ابنه الحكم وكان محتقراً من شعبه وأطلق عليه « نچاكى » أى العاجز . وأعاد التاريخ نفسه عندما توجه الجيش الصربى مرة ثانية فى عام ١٣٧١م إلى نهر مارتيزا ولقى هزيمة أمام العثمانيين فى سيرنومن وقتل ثلاثة من أمرائه ، ثم تقدم العثمانيون إلى شرق مقدونيا وتراقيا واحتلوا أهم مدنهما وهى دراما وسِرز وحولوا كنائسها إلى مساجد واعترفت المدن والقرى الواقعة حول وادى ستروما بالسيادة العثمانية ، بينما ظل الصربيون يحكمون كتابعين للعثمانيين فى المناطق الكبرى .

وفى عام ١٣٧٢م عبرت الجيوش العثمانية نهر ڤاردار وعثمنت السكان فى الوادى الشرقى ، وتحولت الإمارة التى يحكمها لازار إلى إمارة تابعة للعثمانيين وحكمها لازار كخليفة لملوك الصرب ولكن لم يعترف به سوى قلة من السكان . وهكذا كانت نهاية الإمبراطورية المقدونية التى حكمها ستيڤن دوشان .

وبعد هذه الحملة الناجحة توقف مراد لعقد من الزمان ليتحقق الإستقرار فى المناطق المفتوحة ، وللإستعداد لشن حملة على المجر ، وللإهتمام ببعض شئون الأناضول ، ولكنه أجبر على العودة إلى أوروبا حينما دخل ابنه البغيض كونتوز Cuntuz فى حلف مع أندرونيقاس الإبن الأكبر للإمبراطور چون المحتقر من قبل شقيقه مانويل المفضل لدى الإمبراطور . وقد تقدم الأميران لإشعال الثورة ضد آبائهما فى تراقيا ، ولكن حاصرهما مراد فى ديموتيقا وأجبرهما على الإستسلام وتعرضا لإنتقامه القاسى ، أما الثوار الإغريق فقد فروا هاربين وألقوا بأنفسهم فى مياه نهر ماريتزا ، ثم فقأ مراد عينى ابنه وقطع رأسه ، وأمر جميع الآباء الأتراك الذين شاركوا فى الثورة بفقأ عيون أبنائهم وإعدامهم مثلما فعل مع إبنه ، وقد قام جميعهم بهذا العمل ماعدا إثنان تم إعدامهما بدلاً من أولادهم . كما صمم مراد على أن يفقأ الإمبراطور عيون إبنيه الثائرين الأكبر والأصغر ، وقد قام بهذا العمل عن طريق الخل المغلى ،

ولكن هذه الطريقة كانت غير مجدية وإستردا بصرهما . وقد تناسب بقائهما على قيد الحياة مع مصالح السلطان وسعى لإبقاء أندرونيقاس مع أبيه لخدمة أهداف العثمانيين بشأن القسطنطينية .

وبعد فترة قصيرة عاد الابن الأصغر مانويل نادمًا وعُين حاكمًا على سالونيك ، وبدأ فى تدبير مكيدة للتخلص من سيادة السلطان مراد على مدينة سرز ، ولكن باءت محاولته بالفشل بعد محاصرة العثمانيين لسالونيك فهرب إلى القسطنطينية ، ولما كان والده يخشى السلطان فقد رفض إستقباله وطلب العفو والسماح فى بورصة وتم وأُعيد إلى العرش الإمبراطورى مع والده . أما أندرونيقاس فقد هرب من القلعة التى سجنه بها والده وعاد إلى القسطنطينية بمساعدة أهل جنوة والقوات العثمانية وتُوج باسم الإمبراطور أندرونيقاس الرابع ، وأودع والده وشقيقه مانويل فى القلعة نفسها ، ولكنهما استطاعا الفرار بعد ثلاث سنوات وعبرا البوسفور وأصبحا من أقوى مؤيدى السلطان . وهكذا صار مراد مصدراً لثقة الفريقين المتناحرين فى الأسرة البيزنطية الحاكمة ، فصمم على العفو عن أندرونيقاس ومنحه حكومة سالونيك وعدد من المدن الأخرى ، وجعل چون ومانويل على العرش لقاء جزية سنوية كبيرة ، وتقديم فرقة عسكرية بيزنطية تعمل فى خدمة الجيش العثمانى ، والتنازل للعثمانيين عن فيلادلفيا وهى آخر مدينة بيزنطية متبقية فى آسيا ، وحينما رفض السكان الوضع الجديد حاربهم چون ومانويل بمساعدة الجيش العثمانى لإخضاعهم للحكم الإسلامى ، وكان هذا هو الدرك الأدنى الذى وصل إليه الإمبراطور البيزنطى لكى يبقى فى الحكم بفضل العثمانيين .

وكان مراد فى حاجة ماسة إلى السيطرة على ثلاث مدن لتقوية مركزه فى البلقان وهى : صوفيا ليتمكن من مد سلطانه على شمال بلغاريا والدانوب ، ونيس وهى مفتاح الصرب ، وموناستير حتى يقيم الحكم العثمانى فى غرب ڤاردار ، وبعد ستة أعوام من عودته من حملات آسيا حقق قادته جميع هذه الأهداف ، وأصبحت موناستير قلعة حدودية للإمبراطورية العثمانية فى عام ١٣٨٠م . وفى الأراضى التابعة لألبانيا وأبيروس دخل العثمانيون بناء

على دعوة الأمراء المحليين الذين طلبوا مساعدتهم ضد الأعداء . وحتى يواصل العثمانيون تقدمهم تجاه الصرب كان عليهم احتلال سهل صوفيا فى قلب البلقان والذى يتحكم فى أودية ثلاثة أنهار تنبع من الشمال وتصب فى الدانوب والبحر المتوسط ، وبالفعل سقطت صوفيا الواقعة على نهر ايسكر الذى ينحدر نحو الدانوب في أيديهم بدون مقاومة في ١٣٨٥م بعد أن هرب قائدها وانضم إلى عدد من اللاجئين الأتراك ولكنهم أعدموا بعد ذلك جميعًا . وبعد صوفيا صار الطريق مفتوحًا إلى المدينة الصربية نيس وسقطت فى العام التالى بعد مقاومة واستسلم لازار للأتراك وأجبر على دفع جزية ضخمة وتقديم فرقة عسكرية للعمل فى جيوشهم .

وهذا أصبح مراد سيدًا على ست مدن بلقانية رئيسية فى أوروبا ، وتحكم فى أربعة أخماس الطرق الرومانية الخارجة من القسطنطينية إلى بلجراد ، ومن بلجراد إلى سالونيك ، وصار لزامًا على الرحلات البرية القادمة من البوسفور إلى الأدرياتى أن تمر عبر الأراضى العثمانية التى أصبحت تستغرق ٤٢ يومًا من الشرق إلى الغرب بعد أن كانت لا تزيد على ثلاثة أيام فى بداية حكم مراد منذ سبعة وعشرين عامًا . وكان أول تأكيد لسيادة مراد على الإمبراطورية البيزنطية من قبل فى عام ١٣٣٥م حينما عقدت معه جمهورية راجوزا (١) الواقعة على سواحل الأدرياتيك معاهدة تجارية ، واعتبر هذا بمثابة أول تفاوض بين العثمانيين ودول المنطقة ، وبمقتضاها قبلت راجوزا دفع جزية سنوية للعثمانيين فى مقابل الحصول على حق ممارسة التجارة فى الدولة العثمانية والملاحة في أعالى البحار دون تدخل منهم . وقد وضع مراد بصمته على هذه المعاهدة لأنه كان أميًا لا يعرف الكتابة ، ومن هنا نشأت أصول نظام الطغراء الذى اتخذ شكل الختم وأصبح التوقيع الرسمى لكل سلطان من آل عثمان

---

(١) تعرف راجوزا باسم دوبرفينيك أيضًا ، وهى منطقة فى يوغوسلافيا ومركز تجارى مهم ، وكانت بها جمهورية أرستقراطية فى الفترة من ١٤٠٣م إلى ١٨٠٩ م .
أنظر : La Rousse , p . 1633

فيما بعد . وبعد عشرين عامًا وقعت البندقية وجنوة معاهدات مع الإمبراطور البيزنطى تتعهدان فيها بالدفاع عنه ضد جميع الأعداء خاصة مراد والأتراك . وتبع ذلك توقيع جنوة معاهدات صداقة مع مراد بك سيد حكام العالم المبجل القوى ، وهذا لم يمنعها من الإنضمام إلى حلف دفاعى بعد عام مضى ضد الأتراك (أبناء الشيطان وأعداء الصليب أتباع مراد وملته الذين يحاولون مهاجمة المسيحية) .

وأصبح السلطان يواجه جبهتين قويتين إحداهما فى أوروبا والثانية فى آسيا وكان يحاول أن يتجنب القتال معهما فى وقت واحد ، كما تطلب الأمر تأمين ممتلكاته فى آسيا وخاصة الولايات العثمانية الداخلية منذ أن استولى على أنقرة فى قلب الأناضول فى السنة الثانية من حكمه ، فقد أيقن أنه بالمصادر المالية والبشرية التى حصل عليها من البلقان عن طريق دمج المسيحيين وضمهم إليه ، يمكنه أيضًا دمج آسيا الصغرى برغم أن الخطر من جانب المسيحية كان أقوى من خطر العناصر الإسلامية . وفى هذه الفترة كان تهديد الخطر الصليبى فى البلقان قد توقف بعد أن دخل السلاف الجنوبيون فى نزاع مع المجريين وتأسست إمارة فى الصرب ، وبلغاريا كانت تعانى من نقص القادة وتمزقت الأسرة الحاكمة البيزنطية شر ممزق ، وفى ذات الوقت تعززت القوات العسكرية للسلطان عن طريق الفرق العسكرية التى زودته بها الإمارات المسيحية التابعة له ، ووجد أنه يمكن أن يوجهها من أوروبا إلى آسيا لتأمين حدوده فى مقدونيا وتراقيا وجنوب بلغاريا .

وفى الحقيقة كان السلطان يستطيع تحقيق هذه الأهداف فى آسيا الصغرى بغير قتال بعد أن أمن جانب ولاية جرميان المجاورة له ، وكذلك مدينة كوتاهية ذات الموقع الإستراتيجى المهم بعد زواج ابنه بايزيد من ابنة أمير المدينة ، وكان الصداق مقاطعة مهمة . وقد أقيمت مراسم الزواج فى بورصا طبقًا للتقاليد العثمانية لأجداد مراد وكانت تتمشى فى ذات الوقت مع تقاليد البلاط البيزنطى التى أخذ بها العثمانيون . ثم حصل مراد على منطقة أخرى فى حميد الواقعة بين جرميان ودولة قرامان الكبيرة بالشراء من أميرها الذى

شعر بعدم الأمان بعد إحتلال العثمانيين لكوتاهية . أما بالنسبة لإقليم تكة جنوب كوتاهية فقد تطلب إرسال حملة عسكرية وغزو الأراضى المحيطة بالبحيرة الموجودة بها ، واكتفى مراد بذلك وترك لأميرها الوديان الجنوبية والأراضى المنخفضة الواقعة بين طوروس والبحر المتوسط . وعندما حان وقت السيطرة على دولة قرامان الواسعة المهمة والتى جاورت الحدود العثمانية ، أعد مراد جيشًا جعل جناحه الأيسر بقيادة إبنه بايزيد وكان يضم فرق الإغريق والصربيين والقوات البلغارية فى عام ١٣٨٧ م فى سهل قونية ، وبرغم أن كل طرف أعلن الانتصار إلا أن النتيجة لم تكن حاسمة ، فقد واجه مراد مقاومة من المدينة (قونية) ولم يحصل على غنائم أو أراضى أو وعد بدفع جزية أو عون عسكرى ، واضطر إلى عقد صلح مع أمير قرامان قبل فيه يد السلطان فقط كرمز للخضوع ، ويعد ذلك فشلاً للسلطان فى الحصول على ممتلكات جديدة فى آسيا أو توسيع الحدود بعد معركة مع أمير مسلم قوى . وقد أدت حملة قرامان إلى حملة جديدة فى البلقان ، وتفصيل ذلك أن الفرقة الصربية المقاتلة اعتبرت الغنائم حقًا من حقوق الجنود فى مقابل الخدمات القتالية زمن الحرب ، وعندما نهاهم السلطان عن المطالبة بهذا الحق أثاروا الشغب ورفضوا إطاعة أوامره فقتل السلطان بعضهم وعاد الباقون إلى الصرب مستائين من هذه المعاملة ، واستغل لازار هذه الفرصة وأثار الصربيين ضد العثمانيين الذين كانوا بصدد الاستيلاء على مدينة نيس ، وكون حلفًا معاديًا مع أمير البوسنة الذى كان يحكم منطقة ممتدة حتى الساحل الأدرياتى . وكان رد الفعل العثمانى هو عبور القوات العثمانية نهر فاردار ومهاجمة البوسنة ، غير أن الهزيمة لحقت بالعثمانيين فى موقعة بلوشنيك Plochnik وفقدوا أربعة أخماس جيشهم ، فعمت الفرحة السلاف فى البلقان وإلتف الصربيون والبوسنيون والألبان والبلغار وأهل ولاشيا والمجريون حول لازار وصمموا على طرد الأتراك من أوروبا .

وقد ظل مراد فى آسيا الصغرى لفترة ولم يظهر أى رد فعل للانتقام ، وفضل الانتظار ليرى مدى بقاء أعدائه متحدين ، فقد كان يدرك من خلال

بتجاربه السابقة أن الاتحاد بين الأجناس السلافية قصير الأجل ، ولذلك قرر قبل أن يعيد الهجوم مرة أخرى على الصرب ، القيام بحملة فى ١٣٨٨م لإستكمال غزو بلغاريا ، ونتج عنها إنسحاب الأمير سيسمان إلى قلعة على نهر الدانوب طالبًا السلام ، ولكنه بذل محاولة أخيرة يائسة للمقاومة أساء فيها تقدير قوة العثمانيين فلقى هزيمة منكرة وأسر ، وأقام العثمانيون حكمهم فى شمال ووسط بلغاريا على الضفة اليمنى للدانوب ، كما استولوا على عدد من القلاع الإستراتيجية الواقعة على ضفافه وتحكموا فى ممرات جبال البلقان . وبرغم أن سيسمان أصبح تابعًا للسلطان فقد كان من القوة بحيث يستطيع مد يد المساعدة لأتباعه السلاف الحلفاء الجدد .

وقاد مراد حملة جديدة ضد البوسنيين بعد أن انصرف عن بلغاريا وهو فى السبعين من عمره مدعمًا بقوات من بلغاريا وفرقتين من المرتدين الصربيين مع وعد بأن تلحق بهم فرقة ثالثة ، وكانت المعركة الفاصلة والمصيرية التى قضت على إستقلال الصرب ، فى سهل كوسوفو (سهل الطيور السوداء) الذى تلتقى عنده حدود الصرب والبوسنة وألبانيا والهرسك ، وبرغم قلة عدد العثمانيين بالنسبة للصربيين وحلفائهم فإنهم كانوا أعظم ثقة وإيمانًا وكذلك سلطانهم الذى حرص على ألا تتعرض القلاع والمدن والقرى فى تلك المنطقة للدمار أثناء المعارك ، لأن هدفه كان الإستيلاء على منطقة غنية والإبقاء على مصادرها وعدم تشريد أهلها وتدمير مواردها . وكان الصربيون فى الجانب الآخر يحملون مقومات هزيمتهم ، إذ تفشت بينهم الخيانة وإنعدام الثقة ، كما كان لازار يفتقر إلى السلطة والأمان ودخل فى نزاع مع صهره ميلوش أوبراڤيتس متهمًا إياه بالخيانة ، فانتظر السلطان حتى تهدأ الأمور فى معسكر الأعداء ، وتضرع إلى الله طالبًا الحماية والهداية إلى الدين القويم ، وفى الصباح التالى تدفق الجيش العثمانى بتشكيله المألوف ؛ السلطان فى القلب وحوله الانكشارية والفرسان ، وبايزيد فى الجناح الأيمن قائدًا للفرق الأوروبية ، ويعقوب الابن الأصغر فى الجناح الأيسر قائدًا للفرق الآسيوية ، وفى المقدمة فرق الحرس من القواسين الذين بلغ عددهم ألفى

فـرد . وقد بدأ الصربيون بشن هجوم على الجناح الأيسر فجاء بايزيد لإنقاذ شقيقه وجناحه وظلت المعركة شائكة والعثمانيين فى موضع الدفاع حتى ظهر صهر لازار الثاني وكان يدعى ڤوك برانكوڤيتش ، ثم انسحب من المعركة بترتيب مسبق مع مراد ومعه اثنى عشر ألف مقاتل (وكانت هـذه هـى الخيانة) مما أضعف المعسكر الصربى وأدى إلى تشتت صفوفه وهروب رجاله من الميدان . وعلى ذلك كان مـراد على صواب حينما توقع تفكك إتحاد السلاف ، ولكنه فقد حياته فى ميدان القتال ، وقد كتبت أكثر من رواية حول هذه الدراما المحزنة ، ولكن أقربها إلى الصحة ما روى عن المقابلة التى تمت ليلة المعركة بين مراد وميلوش والتى أعلن فيـها خضوعه للسلطان أو تظاهر بذلك ، ثم غـرس خنجره فى صـدر السلطان مرتين حتى نفد من ظهره ، وحينما حاول الهروب قتله الجـنود العثمانيون ، وطلب مـراد أن يظل فى أرض المعركة حتى يتحقق النصر ، وكانت آخر أعماله إعدام لازار أمامه . وهكذا كانت نهاية هذا السلطان العثمانى العظيم فى لحظة النصر فى هذه المعركة التاريخية ، السلطان الذى استطاع تحويل الدولة التى وضع أساسها أجداده إلى إمبراطورية من أقوى دول العالم .

لقد كان مراد ندأ لاثنين من الحكام العثمـانيين العظام وهـما محـمد الفاتح وسليمـان القـانونى من خلال إنجازاته فى مجال الفـتوحات والإدارة الحكيمـة للمنطقة الشاسعة التى شملتها البلاد والمؤسسات التى أقامها وطورها . كما كان محارباً من الطراز الأول وعنيفاً فى ميدان القتال ومانحاً ثقته على الدوام لقادته ، وعلى استعداد دائم للتشاور معهم مما جعله من أمهر القادة . وتميز مراد أيضاً بالحنكة السياسية والدراية بفنون السلام ، وبالرغبة فى الاستقرار فور الاستيلاء على المناطق المسيحية بصفة خاصة ، وحاول بكل الطرق مواءمة التقاليد العثمانية مع المجتمعات الأوروبية .

وفيـما يتعلق بعلاقة مراد برعاياه من الإغريق أو السلاف فقد تميزت ببصيرة نافذة ، فبرغم أنه كان مسلمـاً متعصباً إلا أنه لـم يفرض ضغوطاً على المسيحيين فى إمبراطوريته فوق طاقتهـم ولم يمارس التعذيب ضدهم ، ولـم

يفرض الإسلام عليهم قسراً ، وقد كان هذا الأمر موضع تقدير من البطريرك الأرثوذكسى فى الرسالة التى بعث بها إلى البابا فى عام ١٣٨٥م يقر فيها بأن السلطان ترك لكنيسته مطلق الحرية فى العمل . وقد اتبع مراد أسلوب الإدماج فى المناطق المفتوحة مما أدى إلى وضع بذور مجتمع مختلط جنسيًا ودينيًا ولغويًا تعايش لعدة قرون فى عهود خلفائه فى سلام على مساحة شاسعة من الأراضى ، ويمكن مقارنة هذا السلام العثمانى بالسلام الرومانى Pax Romana الذى كان قائماً فى العصور المبكرة . ويعد مراد قياساً على ذلك خلفاً حقيقياً للإمبراطورية الرومانية لأن اقتدى بالتقليد الرومانى الذى منح حق المواطنة للأجانب وجعلهم يتشربون نظامه الخاص ووصلوا إلى أعلى المناصب فى الدولة . وكما ذكر توينبى : « أعطيت الفرصة للرومان لبناء أول إمبراطورية ثم بعثت من جديد أكثر من مرة » ، ويقصد البعث العثمانى الذى ظل باقياً حتى الربع الأول من القرن العشرين .

الفصل الرابع

خلف بايزيد الأول وهو الابن الأكبر لمراد والده على الفور بعد حادثة إغتياله ، وتولى السلطة فى كوسوڤو ميدان المعركة بعد ضغوط من مجلس الدولة خشية قيام النزاع حول العرش. وكان أول عمل قام به السلطان الجديد هو إصدار الأوامر بقطع رأس شقيقه الأصغر يعقوب رفيق القيادة فى المعركة الأخيرة ، والذى تمتع بشعبية ومحبة القوات العسكرية خلال الحرب . وبهذا العمل وضع بايزيد مبدأ سلطانيًا وطبقه عمليًا وهو « قتل الأخوة » Fraticide ، وصار معمولاً به بعد ذلك فى تاريخ الأسرة الحاكمة العثمانية ، وكان سبب اللجوء إلى هذا المبدأ هو أن القتل أفضل من الفتنة والاضطرابات التى طالما أثارها أشقاء السلاطين ، وقد دعمه بايزيد بآية قرآنية تحمل معنى « من يميل إلى الفتنة ولا يجنح للسلم ينبغى مقاتلته » . وفى القرن التالى اتخذت هذه العادة غير الإنسانية قوة القانون بذلك المرسوم الذى أصدره السلطان محمد الثانى (الفاتح) لقتل شقيقه الأصغر الطفل بخنقه فى الحمام . ومنذ هذه الفترة والعثمانيون يعتبرون هذا المرسوم قانونًا يحمى نظام وراثة العرش ، وأصبحوا يمارسون هذا التقليد عند كل ولاية للعرش حتى يبتعدوا عن نظام تقسيم السلطة ويمنعوا تفتت الأسرة الحاكمة .

وكان واضحًا أن بايزيد لا يمتلك إلا القليل من خصال والده وفضائله ، فقد كان عجولاً مندفعًا وغامضًا فى سياسته كرجل دولة وخارجًا على جميع تقاليد أجداده ، ولكنه فى المجال العسكرى تميز بالنشاط والمقدرة القتالية وترك بصمات واضحة فى المعارك العسكرية حتى أطلق عليه لقب (يلدرم) وهى كلمة تركية تعنى الضوء الخاطف أو الصاعقة وذلك لسرعته فى نقل الجيوش من أوروبا إلى آسيا أو من قارة إلى أخرى ، ويرى جيبونز أن هذا اللقب يعبر عن نشاطه الجم وسرعته فى التحركات العسكرية .

وفى أوروبا سرعان ما انتقم بايزيد لمقتل والده بأن أقام مذبحة لمعظم نبلاء الصرب فى كوسوڤو ، وأرغم ابن الأمير لازار وهو ستيفن بلكوڤيتز ، الذى خلف أباه فى الحكم ، على القبول بشروطه التى كانت تقضى بإقامة تحالف ودى بين الاثنين يستمر طوال فترة حكم بلكوڤيتز ، وضمن بايزيد بهذا

التحالف عدم تجدد تهديد الصرب له ، كما حصل من خلاله على فرق عسكرية لدعم حملاته على آسيا الصغرى والدفاع عن الدانوب ضد تهديدات المجريين المتجددة . ولم تنضم الصرب إلى الإمبراطورية العثمانية بل ظلت تابعة ومستقلة إستقلالاً ذاتيًا ، وفي المقابل وافق ستيفن على دفع جزية سنوية بضمان عوائد مناجم الفضة في بلاده ، كما ضمن إمتيازات أبيه ، وقدم شقيقته دسبينا Despina زوجة لبايزيد ، وقدم أيضًا فرقة عسكرية للجيش العثماني في أي زمان ومكان يحدده بايزيد ، وصفح السلطان عن خطايا الصربيين السابقة بخصوص الغنائم . وهكذا تأسست المستعمرات الإسلامية في المناطق الصربية المفتوحة ، وتم العفو عن كوسوڤو كما ذكرت الرواية الصربية .

وفي المرحلة التالية جعل بايزيد آسيا الصغرى مجال نشاطه العسكرى ، وبرغم أنه قام بأعمال أثبتت عدم حكمته ومجازفته بمستقبل الإمبراطورية ، إلا أنه صادف نجاحًا في بعض الفترات ، فقد جعل أمير أيدين (١) تابعًا له وهزم أيضًا حكام صاروخان ومنتيشى ، وأقام ملكًا للعثمانيين في البحر الإيجى حيث كانت العناصر التركية المستقرة في هذه المنطقة قليلة العدد . وهكذا وصل العثمانيون للمرة الأولى إلى البحر المتوسط مما مهد الطريق أمامهم ليصبحوا قوة فعالة في المجال البحرى . غير أن العثمانيين فشلوا في إنتزاع سميرنا من الفرسان الصليبيين الاسبتارية ، فقاموا عوضًا عنها بتخريب جزيرة خيوس وغزوا سواحل أتيكا (٢) ، وحاولوا محاصرة الجزر الإيجية مرة أخرى ولكنهم كبحارة كان ينقصهم أساطيل المدن التجارية الكبرى مثل البندقية وجنوة . وقد استفاد بايزيد من مساعدات أتباعه المسيحيين ومن بينهم مانويل

---

(١) تقع ايدين في أقصى الطرف الغربي لآسيا الصغرى على بحر إيجة .
أنظر La Rousse , p . 1523

(٢) هي شبه جزيرة في اليونان تضم أثينا .
أنظر La Rousse , p . 1146

باليولوج (١) الإمبراطور البيزنطى الذى حضر بنفسه إلى معسكر السلطان لتقديم خدماته ، فقام بغزو قرامان وحاصر قونية كما فعل والده من قبل ، لأن القرمانيين خرقوا السلام القائم مع العثمانيين ، وبفضل التعزيزات الأوروبية نجح السلطان فى إلحاق الهزيمة بهم فى موقعة آق تشاى والإستيلاء عليها ، وأتبع ذلك بالإستيلاء على قيصيرية وسيواس وتوابعها وقسطامونى فى الشمال والتى منحت العثمانيين قاعدة على البحر الأسود ممثلة فى سينوب Sinope . وتباهى بايزيد وتفاخر فى أعقاب هذه الانتصارات بأنه أصبح سيد الأناضول ، غير أن هذه السيادة كانت سطحية ولم تمس جوهر المناطق المفتوحة ، على عكس والده الذى اتبع سياسية الإدماج فى المناطق المفتوحة فى أوروبا المسيحية ، فبايزيد لم يقم بأى محاولة لإدماج سكان المناطق الآسيوية فى الحكم العثمانى ، وظل سكان هذه المساحات الشاسعة التى ضمها فى الأناضول بعيدين عن الحكم العثمانى باستثناء القليل منهم ، ومن ثم طالبت الغالبية العظمى منهم بالعودة إلى حكامهم السابقين .

وإستقر بايزيد فى بلاطه بأوروبا ، ذلك البلاط الفخم الذى نافس البلاطات البيزنطية ، وبدلاً من أن يحاول بحث المشكلات المتعلقة بفتوحاته فى فترات الراحة بين الحملات العسكرية ، راح يتمتع بالملذات الحسية مع الإماء والغلمان والطعام والشراب . وبرغم جميع هذه التجاوزات فقد كان يتميز بطبيعة دينية خاصة ، ولذلك شيد لنفسه حجرة صغيرة أعلى مسجد بورصة حيث كان يقضى فيها الساعات الطوال فى عزلة غامضة ويتبادل الآراء مع علماء الدين الإسلامى .

وبعد الانتصارات التى حققها السلطان فى آسيا الصغرى ، عاد إلى الاهتمام بشئون أوروبا بعد أن واجه تحدياً من المجر وملكها سجسموند خصمه اللدود ، فشن عدة غارات عنيفة عليها ولأول مرة يعبر جنوده نهر الدانوب

---

(١) هو مانويل الثانى باليولوج إمبراطور بيزنطة من ١٣٩١ إلى ١٤٢٥ .
أنظر La Rousse , p . 1510

لمحاربة المجريين على أرضهم ، ودخل فى تحالف مع سكان الأفلاق (ولاشيا) الذين كانوا يرغبون فى التحرر من السيادة المجرية . وعندما أدرك سجسموند خطورة التهديد العثمانى أرسل إلى بايزيد معترضًا على تدخله فى بلغاريا الخاضعة للحماية المجرية ، ولكن السلطان رفض الرد على هذه الرسالة ، واكتفى بتهديد رسول الملك بالأسلحة المعلقة فى خيمته . وكان رد سجسموند هو غزو بلغاريا والإستيلاء على قلعة نيكوبوليس الواقعة على الدانوب ، ولكنه تخلى عنها حينما تحركت قوة عثمانية كبيرة لنجدتها . وكان السلطان قد منح بلغاريا فى السابق نوعًا من الاستقلال الذاتى كولاية تابعة له بعد هزيمة حاكمها سيسمان ، ولكنه أثبت عدم كفاءته كحليف ، فأرسل السلطان جيشًا إلى بلغاريا وشنقه وضم الولاية كلها إلى الحكم العثمانى ، وصارت بلغاريا جزءًا من الدولة العثمانية مثل تراقية ومقدونية ، بالإضافة إلى الأفلاق كولاية تابعة ، وتكون بذلك حاجز عثمانى قوى على الدانوب ضد المجر . وبعد أن طرد بايزيد عددًا من الأسرات المحلية الحاكمة فى البلقان سعى لإقامة حكومة مركزية تعتمد على العثمنة وإعتناق الإسلام بمرور الوقت ، وفقدت بلغاريا إستقلالها كلية وكذلك كنيستها الأرثوذكسية التى كانت شعارًا للبلغاريين والتى سبق وأن خضعت للنفوذ اللاتينى من قبل ، وأصبحت الآن تابعة لسيطرة الرهبان الإغريق وللكنيسة الأرثوذكسية ، وكان هذا يمثل مرارة أكثر من التبعية لحكم إسلامى .

وعندما توفى الإمبراطور جون باليولوج الخامس فى عام ١٣٩١م ، انحدر خليفته مانويل ، وهو التابع المخلص للسلطان العثمانى ، إلى الدرك الأسفل من المهانة وشارف على الموت جوعًا وصار وضعه مثل الخادم فى البلاط ، فهرب إلى القسطنطينية وجلس على العرش الإمبراطورى ، وكان والده قد قام بترميم بعض أسوار المدينة فأعاد هو بناء بعض الأسوار لزيادة تحصيناتها ، وبعض الأبراج التى تحمى البوابة الذهبية ، ولما وصلت هذه الأنباء للسلطان انزعج وأمر بهدم التحصينات وهدد مانويل بالقضاء عليه إذا لم يمتثل لأوامره ، خاصة وأن آخر وصايا الإمبراطور جون قبل وفاته كانت إطاعة أوامر السلطان .

ثم وصلت مانويل رسالة من بايزيد تطلب الاستمرار فى التبعية وزيادة الجزية وتعيين قاض فى القسطنطينية لرعاية شئون المسلمين ، وتبع ذلك وصول جيش عثمانى أمام أسوار المدينة ، وقام الجنود بقتل عدد من السكان وإستعباد البعض الآخر ممن كانوا على الديانة المسيحية ، وكان هذا أول حصار عثمانى للقسطنطينية وبعد سبعة أشهر رفع الحصار وفرض شروطاً أقسى من السابقة ، حيث أجبر على مانويل على تأسيس محكمة إسلامية فى المدينة ، وتخصيص أحد أحيائها للمسلمين ، والتنازل عن نصف ميناء جالاطة الواقع على القرن الذهبى ووضع حامية عثمانية به تضم ستة آلاف جندى ، وزيادة الجزية السنوية والحصول على عشر إنتاج حدائق الكروم والخضروات الواقعة خارج أسوار المدينة . ومن الآن فصاعداً ارتفعت أصوات الآذان من مساجد المسلمين فى المدينة ، وأطلق العثمانيون على القسطنطينية « استانبول » وهى تحريف للكلمات اليونانية (is – tin – poli) وتعنى (إلى المدينة) .

وتعرضت القسطنطينية بعد عامين لهجوم جديد من جانب جون باليولوج الصغير ابن شقيق مانويل الذى أدعى أنه الوريث الشرعى للعرش ، ولكنه باء بالفشل . وفى عام ١٣٩٥ أقام بايزيد محاكمة فى مدينة سرز serres بصفته وريث القياصرة ودعا إليها أتباعه ومن بينهم الإمبراطور وشقيقه وابن شقيقه ، وأصدر حكماً بقتل جميع أفراد أسرة باليولوج ، ولكن الحكم تأجل بفضل على باشا الصدر الأعظم الذى نجح فى حمل السلطان على إعادة النظر فيه لمدة ستة أشهر ، وبالفعل تم تعديله ليصبح قطع الأيدى وفقأ الأعين لعدد من كبار رجال البلاط البيزنطى بدلاً من القتل ، وظل مانويل الثانى يحكم وأثبت كفاءته كحاكم بعد هذه الحادثة .

ومن جديد واجه بايزيد تهديداً من جانب سجسموند ملك المجر الذى أزعجته غارات العثمانيين وتهديداتهم لقلاع الدانوب ، وقرر أن يطلب العون والمدد من القوى المسيحية الغربية لشن حملة صليبية جديدة ضد الأتراك للقضاء عليهم . وكان السلطان مراد يتجنب بين كل حملة وأخرى إثارة المسيحية ، ولكن بايزيد لم يحرص على هذا الأمر فى علاقته مع المسيحيين ،

وتمشياً مع طبيعته التى تميل إلى التفاخر أعلن لبعض المبعوثين من إيطاليا أنه بعد أن يقوم بغزو المجر سيتجه إلى روما وسيطعم جواده بالشعير فى مذبح كنيسة القديس بطرس معتبراً نفسه حامى الإسلام ، وظل يجهر بنواياه العدوانية ضد المسيحية . وكان هذا التهديد من العوامل التى جعلت سجسموند يصمم على قيادة حملة صليبية ضد السلطان ، وقوبلت دعوته بحماسة فى بادئ الأمر ثم تحولت إلى وعود فاترة من جانب عدد من البابوات المتعاقبين ، كما أن البنادقة كانوا يشككون فى نوايا المجريين وقوتهم ، وابتعد الجنويون عن منافسيهم البنادقة لوجود مصالح تجارية مشتركة مع بايزيد ، وظل أهالى نابولى وميلان يحتفظون بروابط الود والصداقة مع العثمانيين . ولم يكن أمام سجسموند سوى إرسال المبعوثين إلى فرنسا للحصول على متطوعين لحملته ، وكان على رأس الحكم الملك شارل السادس (١) الملقب بالأحمق، ولم يتحمس للفكرة إلا عمه وهو دوق برجاندى ووعد سجسموند بإرسال قوة من الفرسان والمرتزقة بقيادة ابنه الأصغر كونت دى نفر .

وفى أوروبا الإقطاعية وجد سجسموند إستجابة لندائه خاصة بعد أن كانت حرب المائة عام (٢) قد وضعت أوزارها وساد السلام الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وعلى ذلك تجمع لديه ، بالإضافة إلى القوة الفرنسية ، عدداً من الفرسان من نبلاء إنجلترا وإسكتلندا والفلاندرز ولومباردى وسافوى وجيع أنحاء ألمانيا ، ومغامرون من بولندا وبوهيميا وإيطاليا وأسبانيا ، وكانت هذه المرة الأخيرة فى التاريخ التى يتجمع فيها مثل هذا الحشد الهائل من الفرسان الأوربيين لإنفاذ حملة صليبية ظاهرها دينى وباطنها وقف تقدم بايزيد

---

(١) شارل السادس كان ملكاً على فرنسا من ١٣٨٠ إلى ١٤٢٢ م .
أنظر La Rousse , p . 1239

(٢) قامت حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا فى الفترة من ١٣٣٨ إلى ١٤٥٣ م .
أنظر La Rousse , p . 1207

وقهر الأتراك وطردهم من البلقان . وقد بلغ مجموع هذا الجيش أكثر من مائة ألف مقاتل ورابط فى مدينة بودا (١) إنتظاراً للأوامر فى صيف ١٣٩٦ . وإضافة إلى ذلك تواجد أسطول مسيحى فى البحر الأسود بعيداً عن مدخل الدانوب بقيادة فرسان الاسبتارية والبنادقة والجنويين لتقديم العون لهذا الجيش . وقد ظل سجسموند يتوقع أن يقوم بايزيد بمهاجمة المجريين عبر الدانوب منذ شهر مايو ، وحينما لم تتحقق أهدافه ولم تجد إستفزازاته أية إستجابة لدى العدو ، وضع سياسة دفاعية تقوم على إغراء الأتراك بالمجئ إلى المجر ثم مهاجمتهم هناك ، ولكن الفرسان كانوا يتوقون إلى المجد العظيم والدفاع المشرف ، وقد صورت لهم أوهامهم ، أن بايزيد لم يحضر لأنه توجه إلى القاهرة طالباً العون ، وأنه جمع قواته فى الإسكندرية ودمشق برعاية خليفة بغداد وآسيا الصغرى ، وأنه سيأتى بجيش ضخم يضم العربان والرعاع والتتار والفرس والسوريين وأهالى الإسكندرية وغيرهم من الكفرة ، وقرروا فى حالة عدم مجيئه أن يتقدموا إلى الممتلكات التركية والإمبراطورية الفارسية وأن يقوموا بغزو سوريا والأراضى المقدسة ، وكما ذكر فرواسار « لتخليص أورشليم من أيدى السلطان وأعدائه » . وفى الحقيقة كان بايزيد مشغولاً فى حصار القسطنطينية لذلك لم يتوجه إلى المجر .

وقد قرر الصليبيون ألا ينتظروا دون عمل ، فلا معنى لبقائهم دون القيام ببعض الأعمال العسكرية ، إذ أن الحرب هى حرفتهم الرئيسية ، فساروا أسفل وادى الدانوب حتى وصلوا إلى أورسوفا بالقرب من بوابات أيرون وعبروا النهر وقاموا بعمليات عسكرية استغرقت ثمانية أيام . أما المجريون فقد انتشروا فى الصرب بلا مقاومة ، ثم ساروا أعلى وادى مورافا حيث وجدوا نبيذاً جيداً وضعه الأتراك فى قرب من جلد الماعز لأنه محرم عليهم فباعوه للمسيحيين ،

(١) بودا مدينة فى المجر على الدانوب وضمت إليها بست وصارت العاصمة .
أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى التاريخ الأوروبى والأمريكى الحديث ، الإسكندرية ، ١٩٩٢ ، ص ٧٧ .

ثم استولوا على نيش بعد أن قتلوا عدداً ضخماً من الرجال والنساء والأطفال بلا رحمة ، ولم تقل أفعالهم شراسة عن أفعال المهاجمين العثمانيين . وفى بلغاريا فتحت أمامهم بوابات ڤِادين أولى قلاع الدانوب ورحب بهم القائد المسيحى وقتلوا أفراد الحامية التركية ، ثم ساروا أسفل النهر وهاجموا قلعة راهوڤا وحاميتها العثمانية الكبيرة التى ما لبثت أن استسلمت أمام هذا الحشد الضخم من الفرنجة والمجريين ، وقتلوا أيضاً بقية السكان وكان من بينهم بعض المسيحيين . وبعد هذه العمليات العسكرية رابطت القوات المسلحة أمام قلعة نيكوبوليس حيث لم تتواجد أى قوة تركية ، ولم يكن معهم آلات لضرب الحصار وواجهوا بذلك نقصاً فى التجهيزات العسكرية ، وظلوا بجانب أسوار القلعة على أمل أن تسلم المدينة . وقد تعامل الفرسان الغربيون مع الموضوع كله كأنه نزهة أو رحلة صيد طالما لم يكن هناك عدواً ماثلاً أمامهم ، فاستمتعوا بالنساء والخمور والوسائل الترفيهية التى أحضروها معهم مثل لعب القمار معتقدين أن الأتراك لا يشكلون خطراً عليهم ، وتصرف جندهم بروح لا تتوقع الهزيمة على الإطلاق ، ولكن سرعان ما وقعت المشاحنات بين الفرق المختلفة وخاصة بين فرق الإفلاق وفرق ترنسلڤانيا ، كل هذا خلال ستة عشر يوماً قبل ظهور بايزيد .

وفجأة ظهر بايزيد بخفته المعهودة فى الحركة أمام مدينة نيكوبوليس التى سبق وأن انتصر عليها مرتين من قبل بجيش مكون من ٢٠٠ ألف جندى فى مواجهة سجسموند ، وكان الأخير يعلم أن الجيش العثماننى مدرباً تدريباً جيداً ومنضبطاً وسهلاً فى تحركاته أكثر من جيش الصليبيين ، ولذلك قرر إتباع خطة حذرة تقضى بأن يشتبك الفارس الفرنسى دى كورسى مع قوة عثمانية إستكشافية كتجربة ، ونجح بالفعل وهزم العثمانيون فى ممر جبلى مما أثار غيرة بقية الفرسان الفرنسيين وأرادوا أن تكون المعركة الأولى مع العدو هى معركتهم حتى لا ينتزع منهم ملك المجر ثمرة النصر وعظمته ، ولكنه أقنعهم بأن يبدأ المجريون والأفلاق المعركة ويظل الفرسان والمرتزقة فى الخط الثانى سواء للدفاع أو للهجوم . ورفض كونت ديلو Conte d'Elu وأعوانه إطاعة

سجسموند ، وأصدر أوامره لحامل الراية قائلاً : « تقدم باسم الرب والقديس جورج ، سأكون اليوم فارساً عظيماً ، تقدموا جميعاً بلا تفكير لمحاربة الكفار تحت راية العذراء » .

وقد سجل فرواسار Froissart أن الفرسان الفرنسيين كانوا مجهزين بشكل كامل ، ولكـن حينما اشتبكوا مع الأتراك لم يزد عددهم على سبعمائة مقاتل ، وأشار إلى أنهم لو كانوا انضموا لملك المجر الذى كان يقود حوالى ستة عشر ألف مقاتل لاستطاعوا القيام بأعمال عظيمة ، ولكن الغرور سيطر عليهم ، بعد أن قاموا بقتل بعض جند بايزيد وترجلوا واستمروا فى القتال ضد المشاة العثمانيين وشتتوا شملهم وإمتلأت سيوفهم بالدماء فاعتقدوا أنهم حققوا النصر المبين ، إلى أن وصلوا إلى أعلى الهضبة وتقابلوا مع الجيش الرئيسى للسلطان المكون من ستين ألف مقاتل والمدعم بقوة صربية وفى حالة معنوية عالية ومستعداً إستعداداً كاملاً للمعركة ، فتغير الوضع إلى النقيض . فكان التكتيك الذى يسير عليه بايزيد دائماً هو أن يدفع بقواته غير النظامية إلى مقدمة المعركة لاختبار قوة العدو ، ثم يأتى بعد ذلك دور الفروسية والجنود والمركبات التى تلتف على شكل هلال ، وقد بدا الفرق واضحاً حيث الفرسان الصليبين بأسلحتهم الثقيلة وحركتهم البطيئة أمام الهجوم العثمانى فكانت الهزيمة النكراء وسقوط خيرة الفرسان على أرض المعركة فى نيكوبوليس ما بين أسير وجريح وقتيل .

لقد كان الجنود الصليبيون مجرد هواة بمقاييس هذه الفترة ، فهم يحاربون بروح رومانسية وبأساليب الماضى ولم يعوا فنون القتال المتطورة ولم يتمتعوا بالمهارات التى كانت لدى الأتراك من تدريب وتنظيم وخطط عسكرية محكمة ، هذا بخلاف افتقادهم لخفة الحركة التى برع فيها القواسون العثمانيون على ظهور الخيل . وكانت هذه هى الدروس التى أدركها سجسموند والمجريون من خلال التجربة ، فعندما علم بخسارة الصليبين أخذ يردد : « لوأنهم وثقوا بى لأصبح لدينا جيشاً أحراراً لمحاربة العدو بعد أن كان يقول قبل المعركة متفاخراً « إذا انطبقت السماء على جيشنا سنرفعها

برماحنا » ، ثم هرب لتوه مع قائد فرسان الإسبتارية إلى سفنهم فى الدانوب ، وكذلك فعل بعض الفرسان الصليبين ، بينما لقى آلاف آخرون الأهوال فى أثناء عبورهم جبال الكربات . وتفقد بايزيد فى اليوم التالى ميدان المعركة وقدر عدد القتلى ، ثم أمر بإقامة مذبحة عامة لجميع الأسرى ، ولم يفتد سوى كونت دى نيفر ومستشاروه وعدد من أثرياء الفرسان ، ولكنهم أجبروا على الوقوف بجانب السلطان ليشاهدوا زملائهم وهم راكعون وتضرب أعناقهم ، وقد قدرت أعداد القتلى فى هذه المعركة بعشرة آلاف رجل ، وسجلت بهذا نهاية للصليبين وهزيمة نكراء على أيدى المسلمين فى قلب أوروبا المسيحية وابتهاجًا عظيمًا للسلطان الذى لقن الفرسان درسًا قاسيًا جعلهم لا يفكرون فى القيام بمثل هذه المغامرات مرة أخرى .

وقد توقف بايزيد عن إرسال الحملات إلى البلقان بعد هذه المعركة واكتفى بهجوم صغير على اليونان للسيطرة على بعض المواقع الحصينة فى تثالية وتزوج من عروس مسيحية جديدة هى إبنة هيلين كنتاكوزين Helen Canta cuzene وترك قادته يخرجون على رأس حملة إلى المورة حيث مستعمرات الأتراك المسلمين القادمين من الأناضول ، وبرغم ذلك ظلت أثينا فى أيدى المسيحيين .

وهكذا أصبح ميراث بيزنطة تحت سيطرة بايزيد ، إلا أنه لم يحاول الدخول فى معركة لفك حصار القسطنطينية حيث كانت تعوزه القوة البحرية بعد اتخاذ البندقية وجنوة موقف المعارضة منه فى أعقاب معركة نيكوبوليس ، وبعد معركة مع الجنونيين فى بيرا فى عام ١٣٩٩م حاول دخول المدينة بجيش قوامه عشرة آلاف جندى ، ولكن انسحب أمام قوة صليبية بقيادة المارشال الفرنسى بوسيكولت Bouci cault ، وهو القائد الوحيد الذى ظل على قيد الحياة بعد موقعة نيكوبوليس ودخل فى تحد مع السلطان . وقد قاد بوسيكولت حملتين ناجحتين لمساعدة الجنويين والبنادقة ، وقاتل لأول مرة قوة بحرية عثمانية وهزم أسطولاً لبايزيد فى الدردنيل وطارد سفنه من السواحل الآسيوية إلى البوسفور ، وترك قبل رحيله حامية فرنسية فى المدينة ، ثم أصبح

مساعداً للإمبراطور مانويل وابن شقيقه الذى كان يكرهه .

وقد طاف مانويل بأوربا ملتمساً مساعدة المسيحية لإنقاذ الإمبراطورية ، وإنتعشت آماله بعد الإستقبال الحار فى إيطاليا وفرنسا وانجلترا ، ولكنه عاد خالى الوفاض وظلت عاصمته محاصرة لستة أعوام حتى اقتربت من المجاعة ، وبدأ سكانها يتدلون بالحبال وراء الأسوار ويسلمون أنفسهم للعثمانيين ، وكانت الخزينة الإمبراطورية خاوية واقترب سقوط المدينة ذاتها ، وتزامن ذلك مع إعلان بايزيد فى المورة وألبانيا والأدرياتيك بأنه على استعداد لتوجيه الضربة القاضية للإمبراطورية غير أنه واجه تهديداً خطيراً فى ربيع ١٤٠٢ قادماً من جهة الشرق جعله يوقف جميع الحملات ويجمع قواته من البلقان ويرسلها إلى آسيا الصغرى ، وبالتالى تأجل الهجوم على القسطنطينية وأنقذت هى وبقايا الإمبراطورية فى اللحظة الأخيرة . فقد بدأ تحرك العدو المغولى ناحية الغرب عبر سهب آسيا كما فعل چنكيز خان فى حملته منذ قرنين من الزمان ، فها هو سليله تيمورلنك يسير على الدرب نفسه وتلقب بتيمور التتار .

الفصل الخامس

عرف التتار (١) فى أول الأمر معدن الحديد ، ولما عجز أقوى رجالهم عن ثنيه مثلما كانوا يثنون بقية المعادن ، افترضوا أنه لابد أن تكون هناك مادة غير معروفة تحت سطح هذا المعدن أطلقوا عليها اسم تيمور Timur ، وتعنى الشئ الممتلئ تمامًا ، ومن ثم أصبح مألوفًا لديهم أن يمنحوا هذا الإسم لقادتهم العظام الذين يتمتعون بقوة جسمية خارقة . وكان من بين هؤلاء تيمور الذى وصفه التتار بأنه أعظم رجال الحديد ، وأنه ملهم لمهمة واحدة وهى غزو العالم لتحقيق القول الذى طالما رددوه وهو : « إذا كان هناك إله واحد فى السماء فينبغى أن يكون هناك حاكمًا واحدًا فى الأرض » .

وقد ولد تيمور فى قبيلة تتارية صغيرة ، وأصبح زعيمًا لها فى شبابه ، ثم حكم منطقة إمتدت من سمرقند (٢) إلى الحدود الجبلية لهندستان ، وكان يتميز بشجاعة واضحة ونشاط جم ومقدرة فذة على القيادة بالإضافة إلى تمتعه بكفاءة عسكرية كبيرة . وقد أسس تيمور جيشًا قويًا وجعله تحت إمرته وأخذ يعده للغزو المرتقب حتى يصبح حاكمًا على ثلاثة إمبراطوريات وهى فارس والتتار والهند ، وبالفعل استطاع خلال فترة وجيزة القضاء على تسع أسرات حاكمة فى سمرقند وأصبح هو سيدها ، كما حكم قسمًا كبيرًا من آسيا

---

(١) التتار كلمة تعنى رماة السهام ، وقد منح الروس هذا الاسم لمجموعة متنوعة من الشعوب التى تتحدث التركية وغيرها قبل وصول الإسلام ، ثم أصبح هذا الاسم يطلق على جميع المسلمين الذى يعيشون فى حوض الفولجا وأوزبكستان وقازاخستان وتتاريا وسيبيرية وأوكرانيا .

أنظر : رأفت الشيخ ، محمد رفعت عبد العزيز ، آسيا فى التاريخ الحديث والمعاصر ، عين للدراسات الإجتماعية ، القاهرة ١٩٩٧ ، ص ١٧١ وما بعدها .

(٢) سمرقند من كبريات مدن وسط اسيا وهى فى أوزبكستان حاليًا ، وقد فتحها القائد العربى سعيد بن عثمان فى عام ٥٥/٦٧٤م فى عهد الدولة الأموية . وقد ظلت سمرقند خاضعة للدويلات الإسلامية فى المشرق حتى اجتاحها جنكيز خان فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى وخربها ، ثم اتخذها تيمورلنك عاصمة له فى القرن ١٤م/٨ هـ . أنظر رأفت الشيخ ، محمد عبد العزيز ، المرجع السابق ، ١٧٥ وما بعدها .

باسم الإسلام . وكان حكمه مطلقًا فلم يتخذ له وزراء ، وكان بناؤه الجسمانى فريداً وذراعاه قويين مفتولين ورأسه ضخماً وجبهته بارزة وله لحية طويلة . كما اشتهر تيمور بشعر الرأس الأبيض منذ شبابه وبعرج فى سيره بسبب حادث وقع له أو لجرح أصابه فى إحدى المعارك ، أو كما ذكر هو أن سهماً أصابه فى قدمه ، ولذلك عرف بتيمورلنك وتعنى تيمور الأعرج .

وقد تسبب هذا العرج فى بعض المشكلات لتيمور ؛ فحينما اقترب جيشه من بغداد كان لا يقدر على الجلوس على صهوة الجواد فكان رجاله يحملونه على محفة . ومن صفات تيمورلنك الشخصية الصمت والإخلاص فى العقيدة الدينية ، والحدة والصلابة وخاصة فى المسائل التى تمس العدالة ، كما كان دقيقًا فى حساباته وخططه إذ كان يقضى الساعات الطوال وحيداً دائمًا أمام رقعة الشطرنج ، وكان يضع بنفسه الخطط الخاصة بالمعارك العسكرية ، والتى حققت الانتصارات الدائمة . وكان جيش تيمورلنك يضم الأجياد التى كانت تصطف فى ستة تشكيلات ، وكذلك الجمال والفيلة ، وقد أثبت الفيل أنه حيوان خدوم ومعطاء ليس فقط فى ميدان المعارك العسكرية ، ولكن فى مجال البناء وخاصة فى بناء عاصمته الجديدة سمرقند .

ومنذ نهاية القرن الرابع عشر حكم تيمورلنك إمبراطورية إمتدت إلى سور الصين العظيم شرقًا وإلى برارى روسيا شمالاً وإلى نهر الجانج (١) والخليج الفارسى جنوبًا وإلى فارس وأرمينيا وأعالى دجلة والفرات غربًا ، وبذلك وصلت حدود دولته إلى آسيا الصغرى حيث الإمبراطورية العثمانية الإسلامية التى ذاع صيت انتصاراتها وغزواتها زمن مراد وبايزيد . والآن أصبح من المحتم التقاء الإمبراطورين المتنافسين والمنتصرين تيمور التتارى وبايزيد العثمانى عبر حدودهما .

---

(١) نهر الجانج هو أحد أنهار الهند ، وينحدر من جبال الهيمالايا ويصب فى خليج البنغال ، ويبلغ طوله ٢,٧٠٠ كم .
أنظر La Rousse , p . 1361

لقد كانت لحظة تاريخية فاصلة تلك التى التقى فيها الطرفان من أجل تسوية الحسابات ، ولم يكن تيمور يعد الخطط آنذاك للتوسع على حساب جيرانه العثمانيين ، فهو من الناحية العسكرية كان يحترم قوة الأتراك ، وكمؤسس لإمبراطورية كان لا يزال لديه مناطق صالحة للغزو ، فمن جهة الجنوب كان يمكن أن يواصل سيره إلى سوريا وبيت المقدس وميزوبوتاميا ومصر ، وفى ذات الوقت كان بايزيد فى حاجة إلى التأمين على ممتلكاته فى البلقان بالإستيلاء على القسطنطينية التى كان من المؤكد سقوطها فى يده ، غير أنه كان يمتلئ غروراً بسبب انتصاراته المتوالية على مدى عقد من الزمان دون أن يقهر مرة واحدة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى وصلته أنباء زائفة من بعض السفراء عن قوة خصمه الحقيقية ، ومن ثم اتبع أسلوب إثارة تيمور حتى يدفعه للدخول فى معركة معه .

لقد استطاع بايزيد أن يضم مناطق كثيرة من أراضى الأناضول ولكنه فشل فى دمجها أو عثمنتها ، لذلك لجأ الكثير من أمراء هذه المناطق المفتوحة إلى المنفى ، وكانوا يسعون إلى استعادة إماراتهم مرة أخرى من العثمانيين ، وكان بعض هؤلاء الأمراء يعيش فى بلاط تيمورلنك ، إلا أن الأخير لم يفكر جديًا فى مشاكلهم أو أن يستخدمهم كأداة ضد العثمانيين حتى بعد أن استولوا على مدينة سيواس (١) . لقد اتخذ بايزيد من هذه المدينة الحصينة موقعاً هجوميًا يتقدم منه تجاه الشرق ناحية أعالى الفرات ، حيث أرسل حملة بقيادة ابنه سليمان فى ١٣٩٩ ضد أحد الأمراء التركمان الذين كانوا تحت حماية تيمورلنك وهو قره يوسف ، وتمكن من أسره .

وكانت هذه المرة الأولى التى يثور فيها تيمورلنك ضد بايزيد وكتب إليه طالبًا إعادة الأسير ، وقد أورد المؤرخ جيبونز نص الرسالة نقلاً عن المؤرخ الفارسى شرف الدين وهى : « أنت أيها السلطان الذى حارب كثيراً فى

---

(١) سيواس أو سيفاس مدينة تركية هامة تقع وسط الأناضول .
أنظر La Rousse , p 1056

غابات الأناضول ، يا من يعتبر نفسه حامياً للإسلام ، لقد حققت الكثير من الانتصارات على مسيحى أوروبا ، وتبارك سيفك بطاعة رسول الله ﷺ وإحترام القرآن وهذا ما منعنا من تدمير بلادك حامية الإسلام ، فلتكن حكيماً وتجنب عاصفة انتقامنا ، فأنت لا تزيد عن مجرد نملة ، فلماذا تستثير الفيلة ؟ إنهم سيسحقونك تحت أقدامهم » .

وقد رد بايزيد على هذه الرسالة قائلاً : « إن جيوشى لا تحص ولا تعد ، فأين تذهب سهوم التتار أمام سيوف الانكشارية وخناجرها التى لم تر الأعين مثلها ؟ سيظل الأمراء الذين طلبوا حمايتى معى وإذا كنت تريدهم فلتأتى إلى خيمتى » ، ثم أهانه إهانة شخصية بالغة واتهمه بالعجز عن مقاتلته .

وكانت رسائل تيمورلنك لبايزيد ، برغم محتوياتها ، تتخذ شكلاً دبلوماسيًا وتتبع الأسلوب الذى ينبغى السير عليه بين اثنين من الحكام الأنداد ، فكانت مثلاً تبدأ بذكر أسماء الحكام جنباً إلى جنب . أما من ناحية بايزيد فقد تخطى جميع النواحى الدبلوماسية وكتب إسمه بحروف عريضة بماء الذهب ، بينما كتب اسم تيمورلنك فى الأسفل بحروف سوداء صغيرة . فمن الناحية الدبلوماسية يعتبر ذكر الأسماء فى مقدمة الرسائل جنباً إلى جنب إشارة إلى احتمال التشاور والتفاوض ومقدمة لرد فعل مرضى .

وقد توجه تيمورلنك بجيشه إلى المعركة ضد سيواس حيث كان سليمان بن بايزيد على رأس قوة عسكرية صغيرة من الفرسان ، فطلب من والده إرسال التعزيزات العاجلة ولكنه لم يتلق رداً من تشالية فانسحب من المدينة بعد أن أيقن من تفوق جيش تيمور فى العدد ، وإستغرقت إجراءات إستيلاء تيمورلنك على المدينة وتحصينها ثمانية عشر يومًا ، وبعدها قام بإحراق بضعة آلاف من المدافعين عنها من الأرمن المسيحيين الذين كانوا يختبئون فى الخنادق . وبدلاً من أن يتوجه إلى آسيا الصغرى سار جنوباً واستولى على حلب ودمشق وبغداد حيث دكها دكًا وأقام أهرامات من رؤوس القتلى المدافعين عنها ، ثم رحل عنها فى خريف ١٤٠١م عائداً إلى حدود آسيا الصغرى حيث قضى فصل الشتاء بين ربوعها تراوده الأفكار فى إمكانية تجديد الهجوم على الدولة

العثمانية . ولم يتخذ بايزيد أى إجراء لمواجهة هذا التهديد المغولى ، إلا أن فقدان سيواس كان بمثابة أول ضربة خطيرة وأول هزيمة يواجهها ، فقد أعقبت سلسلة من الانتصارات على عدد من الأمراء فى أوروبا وآسيا ، وتعد أول مواجهة مع عدو مرعب بحق .

مر ما يقرب من العام بعد إستيلاء تيمور على سيواس وعودته من سوريا وميزوبوتاميا ، وكان إحتمال تجديد الهجوم ضد بايزيد يلدرم (أى الصاعقة) لا يزال قائمًا ، ولكن بايزيد لم يفكر فى الانتقام من تيمور أو ملاحقته بعد أن ضعفت عزيمته العسكرية والدبلوماسية .

وفى صيف عام ١٤٠٢ قرر تيمور مهاجمة بايزيد بعد أن أقام حلفًا مع جنوة وغيرها من القوى المسيحية الأخرى فى أوروبا ضد العثمانيين ، فقد بات لا يخشى خطر القوى الإسلامية بعد هجومه الأخير على سوريا ، وكانت سيواس هى الهدف الذى توجه إليه بعد أن هجرها بايزيد إثر الخسائر التى لحقت بها ، وتوجه إلى قلعة أنقرة فى قلب الأناضول الذى تميز بجفافه فى فصل الصيف القائظ . وكانت قوات بايزيد مدربة جيداً ومترابطة ولا تقل فى شجاعتها ومهارتها العسكرية عن جيش تيمور الذى ضم تتار وسط آسيا ، ولكن كان جزء من جيش بايزيد مرهقًا من طول السير حيث لم يمنحهم القائد الفرصة الكافية للراحة وإلتقاط الأنفاس ، كما أن تقتير بايزيد عليهم وعدم إعطائهم الهبات المألوفة التى تحفزهم على القتال جعلهم فى حالة إستياء . ومن ناحية أخرى رفض قادة السلطان الموافقة على خطة المعركة الهجومية وطلبوا أن يكون الجيش فى موقف الدفاع عن النفس وهو على أرضه ، وأنه إذا أراد شن الهجوم على تيمورلنك فإن ذلك سيكون أفضل لأن التراجع الذى سيعقب الهجوم سيكون إلى الجبال حيث بقية القوات ، وفى هذه الحال سيجبر تيمور على مطاردتهم فى تلال وسهول الأناضول وبذلك تكون المعركة على هذه الأرض الرحبة . ولكن بايزيد رفض الإستماع لهذه الآراء وتعجل ودفع قواته جهة الشرق على طول الطريق إلى سيواس واتخذ

موقعاً بالقرب من نهر هالى وانتظر مجيء جيش تيمورلنك .

ومرت عدة أيام ولم تجد طلائع بايزيد الكشفية أى دليل على مجيء الجيش المغولى ، وأخيراً وصلت الأخبار أن تيمور سيهاجم الجيوش العثمانية من الخلف وكان تيمور بالفعل قد تحرك من سيواس متجنبًا التلال الواقعة جهة الغرب واتجه جنوباً على طول وادى النهر إلى قيصرية (١) ، واستولى فى طريقه على محصول الذرة الناضجة وزود بها قواته ، ثم عرج شمالاً وتوقف قبالة أسوار أنقرة ، وبذلك أصبح الأتراك على الجانب الشرقى من قواته . أما بايزيد فقد كان أمام جيش لا تقارن سرعته ويشبه الحلزون الذى يتلوى ، وبرغم ذلك استخف بجميع التحذيرات وسار بقواته كأنه ذاهب إلى رحلة صيد ، فحصد الجوع والعطش آلاف من رجاله حيث كانت المنطقة المحيطة بهم شديدة الجفاف . ووصل جيش تيمور وعسكر فى الموقع الذى هجره بايزيد واستطاع أن يعثر على ترعة مياه تتدفق من أنقرة ، ثم أمر بتلويث أحد ينابيع المياه الواقعة فى طريق سير الجيش التركى القادم من الشرق فى إثره ، وبذلك استعد تماماً لخوض المعركة بينما جيش بايزيد يعانى من الإجهاد والظمأ ويواجه جيشاً مصفوفًا أمام أسوار مدينة أنقرة فى مكان فسيح يصلح للقتال .

وكان الجناح الأيسر من جيش بايزيد من القوات الأناضولية المعروف عنها التفانى والإخلاص لقائدها سليمان الابن الأكبر لبايزيد ، وتولى ابنه الثانى المفضل لديه محمد قيادة مؤخرة الجيش ، أما الجناح الأيمن فقد ضم الصربيين وغيرهم من الفرق الأوروبية التابعة له ومعهم صهره ستيفن لازارفيتش ، واتخذ بايزيد لنفسه موقعًا فى القلب مع الانكشارية المحيطة به . وقد أخطأ بايزيد فى هذا التشكيل الحربى ؛ فمن المبادئ المتعارف عليها عسكريًا أن تخصص القوات متدنية المستوى للقيام بمهمة إحداث الصدمة للعدو عند

---

(١) قيصيرية مدينة تركية تقع جنوب غرب أنقرة وينسب إسمها إلى قلعة قديمة بها .
أنظر La Rousse , p 1453

الهجوم ، ولكنه وضع فروسية الأناضول فى الصفوف الأولى ، وهؤلاء بعد أن بدأت المعركة شاهدوا أمامهم عدواً مرعبًا فما لبثوا أن غادروا أرض المعركة وانضموا إلى جيش تيمور ، وبذلك فقد بايزيد ما يقرب من ربع قواته فى المرحلة الأولى ، فلم يبق أمامه سوى أن يأمر جناحه الأيسر بالهجوم ، وبالفعل حلت فروسية سليمان الأناضولية محل الفرسان الأول وحاربت بشجاعة وواجهت عاصفة من السهام وكرات النار الإغريقية من كل جانب ، ولكنها فشلت فى اختراق صفوف جيش التتار وتشتت شملهم وقتل منهم الآلاف ، ومن ثم اتخذ جيش تيمورلنك موقف المهاجم وطارد فرسان جيش الأتراك لمسافة بعيدة ، وانقض جنوده مثل الأسود على الصربيين فى الجناح الأيمن وسط إعجاب تيمورلنك وتقديره ، وأخيراً انقضوا على قلب الجيش حيث يوجد السلطان وحده مع الانكشارية وبقية المشاة .

وفى هذا الجو العصيب اتخذ بايزيد موقف الدفاع عن النفس بعد انصراف قادته عنه ، ثم بدأ ينسحب الخطوة تلو الأخرى إلى قمة جبلية صغيرة وظل يحارب منها مع قلة من الحرس الخاص وبعض المخلصين له حتى حلول الظلام . وكانت النهاية حينما فقد السلطان الصاعقة كل شئ وولت شجاعته واقتاده الأعداء أسيراً إلى خيمة زعيمهم . وقد وصف أحد المؤرخين الأتراك المعركة قائلاً : « لقد انقض جنود العدو مثل الذئاب الجائعة على قطعان الماشية فى هجمة واحدة ، ولم يتطلب الأمر هجمة ثانية » . وقيل أن السلطان حينما وجد قوات العدو تحيط بأتباعه امتطى جواده وحاول الهروب من بين صفوفهم ، وهو جريح ، ولكنه فشل فاقتادوه أسيراً إلى تيمورلنك الذى كان يلعب الشطرنج مع ابنه فى الخيمة .

لقد تصرف تيمورلنك فى البداية تصرفًا لائقًا مع غريمه وعامله كسلطان ، ثم طلب بعد ذلك معاملته كأسير وأخذه معه إلى الأناضول مصفداً فى الأغلال ومحبوسًا فى القفص وسخر منه أمام الجنود التتار ورعاياه من الآسيويين . وذكرت الأساطير سوء معاملة تيمورلنك لبايزيد حيث أجبره على خدمته والركوع تحت أقدامه ، وسمح لحريمه بأن يحقروا دسبينا الصربية

زوجة بايزيد وأجبروها على خدمة سيدهم المنتصر . وقد دمرت هذه المعاناة روح بايزيد وعقله فلم تمض سوى ثمانية شهور حتى كان قد مات منتحراً أو ربما بسكتة قلبية .

لقد فشل بايزيد لأنه تجاوز الحدود وخرج على تقاليد الغزاة من أجداده فى آسيا الصغرى وأوروبا ، لقد دخل فى صراع مع إمبراطورية شرقية دون أن يحسن تقدير موارده ، ولم يستمع لنصائح رجال الدين فى مدينة بورصا المقدسة فواجه الدمار مع المغول الذين لم يكن لهم سوى هدف واحد هو تأمين حدودهم الغربية وإيجاد السلام مع دولة العثمانيين الغزاة .

لقد اجتاح تيمور سريعاً آسيا الصغرى ، واستولت قبائل التتار على مدينة بورصا وأجهضوا النساء ودخلت خيولهم مساجدها ونهبوا المدينة وأحرقوها ، ولكنهم فشلوا فى أسر سليمان بن بايزيد لأنه تمكن من الفرار إلى أوروبا . أما تيمور نفسه فقد قاد قواته إلى مدينة سميرنا آخر قلاع المسيحية الحصينة ، وتمكن من الإستيلاء عليها فى غضون أسبوعين بعد أن طرد منها الفرسان الاسبتارية فتوجهوا بسفنهم إلى ردوس بطريق البحر ، ثم قام بقتل القلة المتبقية التى فشلت فى ركوب السفن ، ووضع رؤوسهم على شكل أهرامات كما هو مألوف لديه ، تلك كانت ظاهرة فى عرف الغزاة ضد الكفرة من أجل كسب إستحسان العالم الإسلامى .

ومن أنقرة تعقبت قوات تيمورلنك فلول الجيش العثمانى التى هربت بالآلاف عبر السهول والجبال فى اتجاه الدردنيل حيث قام الجنويون والبنادقة بتقديم العون لهم فى العبور إلى أوروبا حتى لا يلاقوا المصير المرعب على يد تيمورلنك بعد أن فضلوا العيش فى ظل الأعداء الذين لا يعرفونهم ، وكانت هذه إحدى الوسائل التى تعايش بها الأتراك فى البلقان على مدى جيلين من الزمان واستطاعوا كسب رضاء السكان المسيحيين .

وفى الأناضول استطاع تيمورلنك التفرقة بين أبناء بايزيد الأربعة وجعلهم تابعين له وشجع كل واحد منهم على أن يعلن نفسه وريثاً للعرش العثمانى ،

ثم نصب سليمان تابعاً له على المناطق العثمانية فى أوروبا .

والآن أصبح مصير الأسرة العثمانية الحاكمة فى يد تيمور ، كما عرضت عليه بعض القوى الأوربية الإعتراف به ، ولكن حين عرض عليه الإمبراطور البيزنطى أن يعترف بسلطانه وسيادته وأن يدفع له الجزية ، كان الرد أنه أصدر أوامره بتجهيز الأسطول لعبور المضايق إلى أوروبا ، وكان هذا يعنى أنه يعتزم محاصرة القسطنطينية ، غير أنه لم يضع خططًا مسبقةلهذا الأمر ولا حتى ضد الأناضول وإنما فضل أسلوب الغزو والسيطرة على حكام المقاطعات وأراضيهم . لقد اعتبر تيمورلنك حملته ضد العثمانين مجرد غزوة ناجحة ، وظل يوجه أنظاره تجاه الشرق لبناء الإمبراطورية الموعودة .

ومات تيمورلنك بعد وفاة بايزيد بعامين إثر إصابة بالحمى التى يذكر جبيونز أنها كانت من الإفراط فى شرب المياه المثلجة بلا وعى ، وبعد موته رحلت القبائل التتارية عن البلاد فى إرتباك واضطراب إلى سمرقند فى عام ١٤٠٣ م بعد أن كان قائدهم قد أعد العدة لغزو الصين ولكن القدر لم يمهله .

لقد أدت هزيمة العثمانيين فى الأناضول إلى تحلل حكمهم القصير فى هذه المنطقة كما حدث للسلاجقة من قبل حينما تعرضوا للغزو المغولى ، وأعقب ذلك فترة من الفساد والتناحر الداخلى بين الفرق العسكرية من أجل المناصب القيادية ، وتمركزت السلطة المركزية فى أيدى الأمراء المحليين أو أمراء المقاطعات كما حدث فى الدول الإسلامية الأخرى . لقد تنافس أبناء بايزيد الأربعة على العرش وظهر مدع آخر خامس يطالب به ، وكان لكل منهم مؤيدين من الأسر المحلية التى كانت تحرص على إمتيازاتها ، بينما الإمبراطور البيزنطى يحاول الإستفادة من هذه الظروف لتحقيق مصالحه ، كما حاولت الولايات المسيحية التابعة للعثمانيين فى البلقان إستعادة أراضيها .

لقد انقسمت الأملاك السلطانية إلى قسمين : أوروبا فى يد الابن الأكبر سليمان وحكمها من أدرنة ، والأناضول وكانت تحت سيطرة الابن الأصغر

محمد وحكمها من بورصة ، وكان كل طرف يحارب من أجل توسيع حدوده على حساب الطرف الآخر وتحول الأمر إلى حرب أهلية بين الشقيقين وانضم إليهما الشقيقان الآخران عيسى وموسى فبعد أن قتل موسى شقيقه سليمان طلب الإمبراطور البيزنطى مساعدته وفى طريق العودة التقى فى معركة عسكرية مع شقيقه محمد فى عام ١٤١٣ م وانتصر الأخير واعتلى العرش باسم السلطان محمد الأول .

واجه السلطان الجديد قوتين عظميين هما : بكوات الأناضول الذين كان والده بايزيد قد طردهم من أراضيهم ثم أعادهم تيمورلنك ، والانكشارية التى كانت تمارس سيطرتها على الشئون الداخلية لأول مرة فى التاريخ العثمانى وتنادى به كأفضل أمير عثمانى . وبعد فترة من الاضطراب والفتن عادت السلطة المركزية إلى المنطقة كسابق عهدها وعادت السيادة العثمانية فى شخص السلطان محمد الأول . وقد قضى السلطان محمد ثمانية أعوام فى الحكم نجح فيها فى إعادة الإستقرار للبلاد بفضل مقدرته وحنكته السياسية . وبفضل تدهور قوى المسيحية وإنهيارها ، فقد سارت الإمبراطورية البيزنطية فى طريق النهاية بينما كان آل عثمان متحدين وبعثوا من جديد وأثبتوا مقدرتهم على النمو والتوسع من خلال عدد من الحكام الأكفاء ، فخلال جيل من الزمان ظهر أعظم الفاتحين العثمانيين وهو السلطان محمد الثانى .

القسم الثانى

بيزنطة الجديدة

الفصل السادس

السلطان محمد الفاتح الذى قدر له أن يقوم بفتح مدينة القسطنطينية هو حفيد محمد الأول وابن مراد الثانى ، وكان والده من الحكام المستنيرين إذ استطاع خلال فترة حكمه التى إمتدت ثلاثين عاماً أن يكسب عطف الشعب العثمانى وإحترامه لأنه تميز بالعدل والإخلاص والسعى الدؤوب من أجل توفير الراحة لشعبه ، كما كان رجل سلام بحق ولكن تهديدات الحرب فرضت عليه ، وقد كان ينشد الأمن ولإستقرار لبلاده بعد فترة الانقسام والتفتت التى كانت عليها إبان حكم والده ، وكان يرغب فى الهدوء من أجل الإستمتاع العقلى والنفسى ، ولذلك نراه يتنازل عن العرش أكثر من مرة لابنه الأصغر المفضل لديه ، ولكنه فى كل مرة كان يضطر إلى العودة للحكم .

لقد واجهت البلاد تهديداً من الأعداء منذ بداية حكم مراد الثانى وكان ذلك فى الجبهتين الأوروبية والآسيوية ، وقد دفعته هذه التهديدات إلى خوض بعض المعارك العسكرية ، ولكنه كان يؤثر السلام دائمًا ، ويدخل فى مفاوضات مع أعدائه ، فقد عقد عدة معاهدات وإلتزم بتنفيذ شروطها . وكانت أولى المشكلات التى واجهت السلطان فتنة داخلية من جانب أحد مدعى العرش ، وقد قضى عليها بمساعدة علماء الدين والانكشارية ، ثم شرع بعد ذلك فى حصار القسطنطينية مستخدمًا المدافع لأول مرة فى دك أسوارها ، وكذلك الأبراج المتحركة حتى يتمكن من شن الغارات على أهلها ، ولكن استبسل الإغريق فى الدفاع عن المدينة ببطولة نادرة مستلهمة من العذراء ، فاضطر السلطان إلى رفع الحصار عنها ، ولم تتعرض للحصار مرة أخرى إلا فى عهد إبنه ، وفى الوقت نفسه عقد مراد معاهدة جديدة مع جون الثامن خليفة الإمبراطور عما نويل البيزنطى تقضى بعدم التعرض للمدينة بعد أن ضم منطقة صغيرة واقعة خلف أسوارها .

وبعد عودة مراد بقواته إلى الأناضول واجه ثورة جديدة من جانب إبنه الأصغر مصطفى تؤازره قوة تابعة لعدد من الأمراء من إقليم قرامان ، ولكنه هزم وأعدم شنقًا . لقد كان حاكم إقليم قرامان ينافس الأتراك فى السلطة

وطالما قام بثورات ضدهم وهزم ، وانتهى الأمر بقتله ثم وقع مراد على معاهدة تقضى بتبعية قرامان تبعية إسمية للدولة العثمانية ، كما نجح السلطان فى إخضاع بعض المناطق الواقعة غرب الأناضول . أما فى أوروبا فقد واجه السلطان العداء من جانب دولتى المجر والبندقية ، فكان المجريون يرغبون فى تكوين إمبراطورية سلافية واسعة تضم القسطنطينية . أما البنادقة فكانوا يأملون فى تأكيد سيادتهم على البحار ، وقد دخل معهم مراد فى حرب بعد أن باع لهم الإمبراطور البيزنطى ميناء سالونيكا المهم ليقيم عقبة كؤود بين العثمانيين والإغريق ، فأرسل السلطان حملة فى عام ١٤٣٠ م ونجح فى الإستيلاء على المدينة وبعض المناطق المحيطة بها مما شكل خسارة فادحة للبنادقة ، فأقاموا المذابح للأتراك بغية التخلص منهم فعقد السلطان معهم معاهدة سمح لهم فيها بحرية التجارة والملاحة فى ممتلكاته ، وتعهد بعدم التدخل فى شئون الجزر والقلاع الواقعة فى منطقة البلوبونيز (١) حيث يوجد نصب القديس مارك . وفى المجر توفى الملك سجسموند (٢) فى عام ١٤٣٧م وأعقب وفاته انتعاش الروح العدائية لدى المجريين خاصة أنه لم يترك وريثًا للعرش من الذكور مما أدى إلى إنهيار الأسرة الحاكمة ، وقد أجبر هذا الوضع السلطان على إنفاذ حملة لتأمين جنوب الدانوب وتقوية السيادة العثمانية على الصرب ، واستطاع بالفعل تحقيق هذه الأهداف بالإضافة إلى الإستيلاء على قلعة سمندريا الحصينة الواقعة على الدانوب بعد أن طرد صاحب السطوة والنفوذ جورج برانكوفيتش منها الذى لجأ إلى المجر طالبًا التأييد والمساعدة . وبرغم أن

---

(١) البلوبونيز مجموعة من أشباه الجزر الواقعة جنوب اليونان وتتصل بخليج كورنثه وتضم أركاديا وأخاى واليدا ومسينا ولاكونيا وأرجوليدا .

أنظر : La Rousse , p . 1423

(١) تولى الملك سجسموند حكم المجر من عام ١٣٨٧ إلى عام ١٤٣٧م .

أنظر : La Rousse , p . 1713

السلطان فشل فى الإستيلاء على بلجراد إلا أنه حقق نجاحًا فى ولاشيا (الأفلاق) بعد وفاة سجسموند وفتح بذلك طريقًا للعثمانيين عبر الدانوب إلى المجر التى ظلت بدون حاكم حتى ضمتها بولندا وأصبح حاكمها لاديسلاس الثالث على المجر وبولندا ، ومد يد المساعدة للبطل الوطنى المجرى هونيادى Hunyadi (١) الذى صار عقبة فى وجه العثمانيين فى البلقان فى الأعوام العشرين التالية . لقد كان هونيادى الذى لقبه الأتراك بيانكو Yanko ذا ميول رومانية وكانت له مطامع فى السيطرة والحكم ، ولذلك شارك لاديسلاس فى حكم منطقة واسعة من ترنسلفانيا ثم انتهى به الأمر إلى حكم المجر ذاتها ، وكان فى نظر المجريين والصربيين الفارس الأبيض الذى يقود فرسانه فى أعمال بطولية ، وعلقت الآمال به لإنقاذ الأمة المسيحية الشرقية وتحريرها من قبضة الأتراك الكفرة . واستطاع يانكو بالفعل الدفاع عن مساحة تقدر بـ ٢٠٠ ميل فى جنوب المجر ضد الأتراك وحقق العديد من الانتصارات عليهم بعد أن كانت أعلامهم ترفرف على الكنائس المجرية ، ثم دعا إلى حملة صليبية جديدة لطردهم من أوروبا . ولم يتلق هونيادى أى مساعدة عسكرية من الغرب لهذه الحملة بخلاف مباركة الكاردينال جوليان نائب البابا ، وبذلك اقتصرت الحملة على المجر وبولندا ثم انضمت إليها ولاشيا (الأفلاق) ، ثم قدمت بعض شعوب البلقان مساعدة متواضعة مثل البلغار والبوسنيين والألبان . وفى عام ١٤٤٣م عبرت الحملة نهر الدانوب واستولت على نيش بعد القضاء على حاميتها التركية وأعادت الملك المخلوع برانكو فيتش إلى ممتلكاته فى الصرب ، ثم استولت على صوفيا ، ثم عبرت جبال البلقان المغطاة بالثلوج وسط مناخ شتوى قارس البرودة حتى وصلت إلى سهول تراقيا الجنوبية .

---

(١) هونيادى لقب أسرة مجرية اشتهر أبناؤها بالبطولات ومنهم جون هونيادى (١٣٨٧-١٤٥٦م) الذى حكم ترنسلفانيا ونظم حملة صليبية ضد العثمانيين ونجح فى حماية بلجراد ، وتولى أحد أبنائه حكم المجر وهو ماتياس بعد وفاة لاديسلاس الخامس .

أنظر La Rousse , p . 1423

لقد واجهت هذه الحملة الكثير من المخاطر حيث كان العثمانيون يغلقون عليها ممرات العبور بالأحجار ، وفى بعض المناطق كانت تصادفها حوائط ثلجية وشلالات المياه المنحدرة من الجبال ، وبرغم أن الحملة حققت النصر فى يوم عيد الميلاد إلا أن الضغوط العثمانية المتواصلة ونقص الإمدادات أجبرت هونيادى على التراجع إلى مدينة بودا وقواته فى حالة سيئة من الجوع والبرد حيث استقبلها الملك لاديسلاس مع الشعب المجرى إستقبال الظافرين ، ورفعت الكاتدرائيات الشكر لله المنقذ فى أوقات الشدائد .

أما السلطان مراد رجل السلام فقد شعر بالكلل من مطاردة الصليبيين عبر الدانوب ، ولذلك قرر الدخول معهم فى مفاوضات انتهت بالتوقيع على هدنة لعشر سنوات في سيجيد Szeged (مدينة مجرية) ، وبمقتضاها أصبحت الصرب والأفلاق تتمتعان بالاستقلال الذاتى فى ظل السيادة العثمانية الإسمية ، كما وافق المجريون على عدم عبور الدانوب أو المطالبة بأية إدعاءات فى بلغاريا ، وأقسم لاديسلاس على الإنجيل بالإلتزام بهذه المعاهدة كما أقسم مراد على القرآن الكريم .

استقرت الأوضاع الداخلية فى الدولة العثمانية بعد هذه الصراعات ، وبدأ السلطان فى اتخاذ خطوات بناءة لإقامة حكومة مركزية قوية ؛ فقام بزيادة أعداد الجنود الانكشارية وضم إليهم الشباب من المناطق المسيحية فى الولايات المختلفة وبذلك لم يعد الأمر مقتصراً على الشباب الذين يتم أسرهم فى المعارك العسكرية ، وبلغ حجم هذه الزيادة حوالى سبعة آلاف مقاتل ، وأصبحت الانكشارية بذلك عماد الدولة إلى جانب السباهية أو الفرسان وفرق الإدارة العسكرية وخضع الجميع لنظام العبودية . وهكذا أقيمت مؤسسات ثابتة يستطيع خلفاء مراد الثانى الاعتماد عليها فى المستقبل .

ولكن بدأ السلطان مراد لأول مرة ينصرف عن الاهتمام بشئون الحكم ، ويلجأ إلى حياة العزلة فى قصره فى مغنيسيا بآسيا حيث أخذ فى إعداد ابنه محمد للحكم ، وكان فى الثانية عشرة من عمره ، فعينه حاكماً على أدرنة وكلفه بإدارة الولايات الأوربية تحت رعاية الصدر الأعظم خليل جندارلى

باشا . وقد أثار هذا التصرف غضب وإستياء جندارلى وبقية الوزراء ، واعترضوا على قيام هذا الطفل بتبعات الحكم فى هذه السن المبكرة .

نشأ محمد الثانى فى ظروف استدعت رعاية خاصة نظراً لانتشار وباء الحمى الذى أطاح باثنين من أشقائه لوالده وهما على وأحمد ، وكان والده يفضلهما عليه إذ كانت أمهما حرة ، فى حين كانت والدة محمد من الإماء وربما كانت من أصل مسيحى ، ولذلك كانت تجرى فى عروقه دماء غريبة جعلته شخصية مختلفة عن والده وجده ، ولذلك لم يكن السلطان يفكر فى إعداده ليصبح خليفة على العرش .

وبعد أن قامت إحدى المربيات على تنشئة محمد ، أرسل مع شقيقه على وهو فى سن الثانية من أدرنة إلى أماسيا حيث كان شقيقهما الثالث حاكماً عليها فى سن الرابعة عشرة . وأماسيا منطقة جبلية تقع فى شمال الأناضول بالقرب من ساحل البحر الأسود وكانت تسكنها عائلات عثمانية ذات نفوذ وتزوج والد مراد من إحدى بناتهن . كذلك كانت هذه المنطقة مركزاً دينياً وصوفيا مهماً ، ومركزاً أيضاً لبعض الحركات الشيعية القادمة من فارس ، وهى مسقط رأس مراد نفسه لذلك اعتاد أن يرسل أبناءه إلى هذه الولاية الآسيوية البعيدة عن العاصمة فى رعاية موظفين موثوق بهم حتى يشبوا بعيداً عن عامة الشعب وحتى لا يتعرضوا لأى ثورات محتملة . وقد تحول هذا التقليد بمرور الوقت إلى سجن للأشقاء منذ عهد بايزيد ، ثم أصبح قانوناً فى عهد الابن محمد (الثانى) نفسه . ولكن أشقاء محمد ماتوا فى سن مبكرة ؛ فقد توفى أحمد فى أماسيا وهو فى سن الشباب وخلفه محمد كحاكم على الولاية فى سن السادسة ، بينما انتقل على ليصبح حاكماً على مغنيسيا ، وبعد عامين تبادلا حكومة الولايتين فى عهد مراد ، ثم توفى على فى أماسيا بعد بضع سنوات وكانت صدمة قاسية لوالده الذى كان يعده أفضل أبنائه ، ولم يتبق سوى محمد كوريث للعرش ، ولذا استدعاه والده من مغنيسيا وهو فى الحادية عشرة . وكان محمد يعانى من مشكلات فى التعلم فهو لا يرغب فى تلقى العلم وبصفة خاصة العلوم الدينية ، ولذلك خصص له

والده شيخاً ليعلمه القرآن والعلوم الدينية يدعى الملا أحمد كورانى ، وكان من أصل كردى ودرس القرآن والشريعة الإسلامية فى القاهرة ، ثم أصبح معلماً فى المعهد الدينى فى بورصة . ويقال إن مراد أعطى المعلم عصا غليظة وطلب منه أن يستخدمها فى تأديب محمد إذا لزم الأمر ، وكان الملا يدارسه والعصا فى يده ويكرر عليه القول : « إن والدك أعطانى هذه العصا لأعلمك ولتطيعنى » ، وكان محمد يضحك ، ولكن الملا استخدم العصا بالفعل فى تهذيبه حتى ألف إحترام معلمه ونجح فى حفظ القرآن كله . وقد تتلمذ محمد أيضاً على يد عدد كبير من المعلمين المستنيرين حتى أصبح على قدر كبير من رجاحة العقل . وفى بلاط أدرنة أضاف محمد إلى تعلم القرآن فن إدارة شئون الحكم من والده ومن الصدر الأعظم خليل ومن رجال الحاشية ، وقد تأثر بمنهج خليل وسار عليه ، ولكنه قام بعد رحيل والده بتأييد إحدى الحركات الدينية فى أدرنة التى قام بها مبشر فارسى صاحب طريقة صوفية تهدف إلى التقريب بين الإسلام والمسيحية ، وقد استضاف محمد هذا المبشر فى قصره وسمح له باستقبال عامة الناس من المدينة للتحاور معه . وقد أثار هذا العمل غضب الهيئة الدينية وإستياءها بزعامة المفتى الأكبر والصدر الأعظم خليل الذى كان مسلماً متعصباً ، فألقى القبض على الفارسى بتهمة الإلحاد والهرطقة ، ولكنه تمكن من الهرب ولجأ إلى الأمير محمد فى قصر السلطان ، فلجأ إلى المفتى الذى أنقذه بتكذيب الأمر على منابر المساجد بعد أن ثار العامة . غير أن حدة الثورة لم تهدأ إلا بعد أن قام العامة بإحراق المهرطق وبحضور المفتى الذى احترقت لحيته وهو يقترب من النيران ويغذى لهيبها ، أما أتباع المهرطق فقد تم قتلهم جميعاً .

لقد أوضحت هذه الحادثة مدى ميول الأمير تجاه الفرس وتأثير ذلك على تصرفاته فى المستقبل ، كما كانت بداية سيئة من حيث علاقته بالمؤسسات الدينية والمدنية العثمانية حيث تعمق الشعور بالمرارة فى نفسه ولذلك لم يصفح عن خليل قط . وقد جعلت هذه الأزمات الأمير يبتعد عن الناس ويعيش فى عزلة إلى حد ما . وقد ساهم هذا الحدث أيضاً فى ثورة الإنكشارية التى رفضت إطاعة أوامر هذا الابن الصغير قليل التجربة ، وطالبوا بالمزيد من

العطايا ، ولما لم يجدوا إستجابة ثاروا وأضرموا النيران فى حوانيت أدرنة وقاموا بعمليات سلب ونهب واسعة النطاق وبمذبحة عامة ، وكان المستشار لخاص لمحمد وهو الطواشي شهاب الدين الهدف الأول لهذه الثورة ، وقد التجأ إلى القصر السلطانى طالبًا الحماية ولم تهدأ الثورة إلا بعد الموافقة على زيادة رواتبهم .

وهكذا بدأت الهوة تتسع بين خليل ومحمد ووجدت مصدراً جديداً للصراع منذ أن شرع مراد فى إعادة تنظيم فرق الانكشارية وسمح للعناصر الأخرى من السكان المدنيين غير المؤهلين بالانضمام إليها بعد أن كانت قاصرة على المسيحيين فقط ، وكان شهاب الدين نفسه أحد هؤلاء المسيحيين الذين وصلوا إلى أرفع المناصب الإدارية ، وهؤلاء حلوا محل الأسر الإسلامية الأولى التى اختارها خليل جندارلى ، ووجد هؤلاء الأخيرون أنفسهم يبتعدون بالتدريج عن السلطة ومناصبها . وربما كان خليل هو الذى دبر ثورة الانكشارية ضد شهاب الدين ليظهر قدراته الحقيقية وليلقن محمد درساً قاسياً ، وهنا ثار النزاع بين القديم والجديد بين المسلم الحر والأسير المسيحى ، والذى هدد بتقسيم الجبهة الداخلية فى إدارة البلاد .

لقد أثرت هذه الظروف على مراد وربما كانت الدافع وراء قرار إعتزاله الحكم وترك مقاليد الأمور فى يد خليل يتصرف فيها بحرية . وكان قرار الإعتزال الأول لمراد لفترة ثلاثة شهور وكان فى وقت حرج حيث جاءت حملة هونيادى المجرى التى اتخذت الطابع الصليبى وتطلب الأمر إيجاد حماية بحرية للمضايق بعد أن خرق المسيحيون الاتفاقية الموقعة مع مراد ، لقد دفع الإمبراطور البيزنطى بقواته إلى المورة بمشاركة لاديسلاس الذى استجاب لتوسلاته وتقدم مع الصليبيين للقضاء على المسلمين ، وكان متأثراً فى ذلك بالكاردينال جوليان المبعوث البابوى الذى أكد له بطلان أى تعاقد أو اتفاق مع أعداء المسيحية .

لقد جاء الصليبيون وأمامهم هدف واضح وهو الخلاص والمجد للمسيحية وساهم معهم بقوات لا بأس بها برانكوفيتش الصربى بعد أن كان على الحياد

في بادئ الأمر . لقد كان الأمل في تحقيق الانتصار على العثمانيين قوياً خاصة في غياب السلطان مراد ، غير أن الأمور تبدلت بظهور السلطان أمام الحملة فجأة في نوفمبر ١٤٤٤ في مدينة ڤارنا (١) حيث قام بتوجيه ضربة تأديبية للبنادقة الخونة الذين أمدوا الأعداء بالمؤن بمساعدة بطاريات السواحل .
وبرغم أن مراد كان يواجه قوة مسيحية فاقت قوته بنسبة الثلثين إلى الثلث ، إلا أن الانكشارية استطاعت رد الهجوم الصليبي بمهارة وحققت نصراً كبيراً بعد وقوع خسائر فادحة في الجانبين ، وقد سقط لاديسلاس من على صهوة جواده ومات في ميدان المعركة ورفع العثمانيون رأسه وهي مغطاة بالخوذة على الرمح ، ورفعوا على رمح آخر نسخة من المعاهدة التي حرقها الصليبيون لتكون عبرة لمن يفكر في تحدى قواتهم . أما الكاردينال جوليان الذى كان يمثل القوة الدافعة لهذه الهجمة الصليبية فقد هرب ولم يظهر على مسرح الأحداث ثانية ، كذلك هونيادى فقد فر من ميدان المعركة بصحبة ڤلاد دراكول القائد العسكرى الولاشي غير أن الأخير ما لبث أن انقلب عليه وأودعه أحد سجون ولاشيا . وبعد المعركة أرسلت رأس الملك لاديسلاس إلى العثمانيين في بورصا محفوظة في العسل ، ثم رفعت على رمح بعد تنظيفها في النهر وطافوا بها في الطرقات .

لقد استطاع مراد بهذا النصر إستعادة السيطرة على جميع المناطق الممتدة أعالي نهر الدانوب ، والآن أصبح قادراً على الاعتزال ، وبالفعل تنازل عن العرش في أواخر عام ١٤٤٤ م لابنه محمد وصار يتمتع بجميع صلاحيات السلطان وحاكماً على الولايات العثمانية الأوربية ، واحتفظ مراد لنفسه بثلاث مقاطعات في الأناضول حول مغنيسيا ، ثم شيد قصراً جديداً تحيط به الحدائق الفناء المطلة على واد فسيح . وتشير قصائد الشعراء وكتابات الأدباء

---

(١) ڤارنا : ميناء ومدينة في بلغاريا تقع على البحر الأسود ويرتبط إسمها بالموقعة الشهيرة التي هزم فيها الأتراك كل من المجر وبولندا ١٤٤٤م في عهد السلطان مراد الثاني .
أنظر La Rousse , p . 1758

والمفكرين إلى أن مراد كان ينشد الحياة المثالية القائمة على التدين والمحبة كما فعل أجداده الغزاة الذين قضوا حياتهم فى القراءة والكتابة والتصوف ، كما حاول تطوير اللغة التركية كوسيلة للتعبير الأدبى لتصبح متميزة عن اللغتين الفارسية والعربية ، وحاول إيجاد نهج جديد فى الدراسات التاريخية التركية التى كانت رومانسية الطابع بالعودة إلى أصل أجداد عثمان وقبائل الأوغوز . وقد لاحظ الساسة الأجانب الذين كانوا يقومون بزيارته في بعض المناسبات أنه كان يستقبلهم فى جناحه الخاص وليس فى قاعات الإستقبال الرسمية .

وفى ربيع ١٤٤٦م عاد مراد إلى أدرنة بسبب سوء العلاقات بين خليل ومحمد والتى وصلت إلى درجة كبيرة ، وقد استقبله سكان العاصمة إستقبالاً حافلاً ، ويبدو أن سبب هذه العودة كان تلك الخطة غير العملية التى وضعها الأمير الصغير للهجوم على القسطنطينية فى وقت إنشغال القوات العثمانية بعمليات عسكرية فى اليونان وعلى الحدود الألبانية . وقد أثار هذا الموقف النزاع من جديد بين رجال الطبقة الحاكمة ، حيث انقسمت إلى مؤيدى خليل وهم دعاة السلام ، ومؤيدى الأمير من القادة العسكريين الذين ينشدون الحرب ، ولكن فشل الفريق الثانى فى تجاهل خليل وقوته التى كان قوامها فرق الانكشارية ، وانتهى الأمر بعودة مراد مرة أخرى إلى العرش لخمس سنوات حتى وفاته ، وإنسحاب الأمير محمد عائداً إلى مغنيسيا بعد أن هدأت طموحاته العقيمة . وفى خلال هذه الفترة تجدد الخطر مرة ثانية منبعثاً من اليونان وليس من المجر التى كانت تنعم وقتذاك بالهدوء ، فقد استطاع البيزنطيون حفز سكان المورة على الثورة ، مما اضطر مراد إلى إيفاد حملة إليها ونجح فى اقتحام قلعة هكساميليون Hexamilion الحصينة التى شيدوها من أجل الدفاع عن خليج كورنثة ، ثم اتبع ذلك بحملة إنتقامية من سكان المدينة وأعمال السلب والنهب بها . وقد حققت الحملة أهدافها من حيث تقليل خطر المتمردين الإغريق وإستعادة بعض المناطق اللاتينية التى كان الإغريق قد استولوا عليها .

ثم برز خطر جديد من ألبانيا حين قامت حركات تمرد ضد السيادة

العثمانية شبيهة بحركة هونيادى فى المجر وكانت بقيادة جورج كستريوتا George Kastriota أحد أبناء الأمراء الألبان المسيحيين التابعين للعثمانيين ، والذى نشأ وتعلم فى بلاط السلطان كأسير ثم اعتنق الإسلام وخدم فى الجيش العثمانى وأصبح إسمه إسكندر بك أو اللورد إسكندر ، وبمرور الوقت أصبح من أكثر القادة العسكريين قوة وبأساً ، ولكنه هجر الأتراك وعاد للدفاع عن عقيدته وبلاده وقاد حركة مقاومة واسعة النطاق ضد العثمانيين . لقد تطابقت أهداف هذه الحركة مع حركة هونيادى لذلك انضمت فرق القائدين فى عام ١٤٤٨ فى حركة مقاومة مجرية ضد العثمانيين ودعمتهم البوسنة والصرب ، غير أن السلطان استطاع تحقيق النصر السريع عليهم فى كوسوفو kossovo أرض المعركة الشهيرة فى التاريخ التى لقى فيها جده مراد الأول حتفه منذ ستين عاماً بعد انتصاره على الصربيين والمجريين .

لقد أدى هذا الانتصار إلى إنهاء إستقلال الصرب وإنكماش القوة العسكرية للمجر إلى حين ، وأصبحت البوسنة ولاية تابعة للعثمانيين ، أما فى ألبانيا فقد تحصن إسكندر بك بقلعة جرويا Groia وشن حرب عصابات قوية ضد العثمانيين استمرت عشرين عاماً حتى عهد محمد الثانى .

وفى مغنيسيا تعلق الأمير محمد بفتاة من العبيد تدعى جولبهار من أصل ألبانى أو يونانى وأنجب منها إبنًا أصبح سلطاناً فيما بعد وهو بايزيد الثانى ، ولكن رفض والده الاعتراف بهذا الزواج غير المتكافئ ، وحينما بلغ الأمير سن السابعة عشرة زوجه من إبنة أحد أمراء التركمان وأقام له حفل زواج سلطانى . غير أن محمد لم يهتم بزوجته الجديدة ولم ينجب منها أولاداً ، وحينما أصبحت القسطنطينية عاصمة للبلاد وانتقل إليها ترك هذه الزوجة مهملة فى قصر الحريم فى أدرنة ، ولم تدخل أية إمرأة أخرى حياة الأمير منذ هذه الفترة وعاش حياة العزلة .

وفى الأيام الأخيرة من حياة السلطان مراد الثانى تزايد التقارب بينه وبين إبنه ، فقد خرج معه للجهاد فى موقعة كوسوفو حيث كان على رأس القوات الأناضولية ، كما شارك فى الحصار الفاشل لقلعة جرويا الألبانية فى عام

١٤٥٠ . وحينما توفى مراد فى العام التالى بالسكتة القلبية ، كان الأمير فى مغنيسيا ، ولما وصله الخبر امتطى صهوة جواده العربى وأسرع فى اتجاه المضايق قائلاً : « فليأت معى من يريدنى » ثم توقف ليومين فى غاليبولى لحين وصول زى السلطنة الرسمى ، ثم أكمل المسيرة إلى أدرنة حيث اعتلى العرش فى جمع كبير . وكان خليل والوزير الثانى إسحاق باشا وهما من المقربين لوالده فى حالة من القلق على مستقبلهم ووقفوا يترقبون الموقف ولكن السلطان الجديد دعاهم ليجلسوا فى أماكنهم وثبت خليل فى منصبه وعين إسحاق حاكماً على الأناضول ، ثم أصدر إليه التعليمات بنقل جثمان والده إلى بورصا .

جاءت أرملة السلطان مراد ، وهى إبنة أحد أثرياء العثمانيين لتقديم واجب العزاء لمحمد فى وفاة أبيه وللتهنئة بمناسبة إعتلائه العرش ، وبينما هى تقوم بهذا العمل قتل إبنها الصغير خنقًا فى الحمام بناء على أوامر من السلطان الجديد ، الذى كان إبنًا لإحدى الإماء ، ثم أرسلت الأم إلى الأناضول وأصبحت زوجة جبرية لإسحاق باشا .

وبعد فترة قصيرة من تولى عرش السلطنة واجه محمد ثورة من جانب فرق الانكشارية وصدها بكل عنف ، وطرد العديد من رجال الفرق ولكنه اضطر إلى زيادة رواتب الباقين ، وأصبح هذا تقليداً أو سابقة سارت عليها الانكشارية مع جميع السلاطين فى الفترة التالية . وفى الوقت نفسه كون السلطان وحدات جديدة من بين فرق صيد النسور السلطانية وجعلها نواة يحصل منها على الأغوات وعلى الرجال اللازمين للخدمة الداخلية فى القصر السلطانى . وبهذا التنظيم أصبحت الانكشارية قوة مؤثرة فى الجيش العثمانى بشكل أكثر وضوحًا ، وبدأ السلطان الجديد يعد العدة للمشروع العظيم الذى كان يخطط له منذ فترة طويلة وهو حصار القسطنطينية .

الفصل السابع

لم تتكون لدى القوى المسيحية رؤية طيبة عن السلطان الصغير الذى أصبح يحمل إسم السلطان محمد الثانى ، فقد اعتقدوا من خلال التجارب الفاشلة التى صادفها فى شبابه أنه قليل الخبرة والتجربة ، وأنه لن يستطيع أن يضيف كثيراً لغزوات والده ، ولكن كانت لمحمد شخصية متميزة ، فبرغم قصر قامته إلا أنه كان قويًا فى بنيته ويملك حضوراً وطابعًا متحفظًا ، وبرغم حدة ملامحه إلا أنه كان هادئًا ومليئًا بالأسرار ، وبرغم أنه كان يثير شعوراً بعدم الراحة لدى المحيطين به إلا أنه كان ينجح فى كسب إحترامهم وشد إنتباههم ، كما كان يشحذ كل قواه من أجل تحقيق طموحاته وظهرت نواياه الطيبة السلمية منذ بداية حكمه .

وقد كتب جيبونز عنه قائلاً : « تراه يتحدث عن السلام ولكن الرغبة فى الحرب كامنة فى قلبه » . وحينما استقبل السلطان الجديد المبعوثين الأجانب أظهر اتجاهاً يميل إلى تأكيد سياسة والده وخاصة مع البنادقة والجنونيين ومع هونيادى والصرب والأفلاق وراجوزا ومع الجزر الإيجية وفرسان رودس (الاستبارية) ورهبان آثوس (١) . لقد استقبل سفراء الإمبراطور قسطنطين البيزنطى إستقبالاً حاراً ووعدهم بإحترام سيادتهم وبمنع أورخان (الابن الأكبر لبايزيد) ومدعى العرش من التعدى على القسطنطينية وبتسديد الضرائب التى جمعها من بعض المدن اليونانية الواقعة فى وادى ستروما (٢) ، غير أن بعض

---

(١) آثوس اسم جبل فى اليونان يقع جنوب شبه الجزيرة ، تأسست به جماعة من الرهبان الأرثوذكس منذ القرن العاشر الميلادى وكونوا حكمًا ذاتيًا ثم جمهورية مستقلة وارادوا استمرار هذا الوضع فى ظل السيادة العثمانية .
أنظر La Rousse , p . 1146

(٢) ستروما منطقة فى اليونان تقع على بحر إيجة ، وكان هناك اتفاق بين العثمانيين والبيزنطيين على تحصيل عوائد الأراضى الواقعة فى ستروما نظير عدم إطلاق سراح أورخان مدعى العرش العثمانى .
أنظر Creasy , History of the ottoman Turks , p. 76 La Rousse , p 1714 .

الرسل الذين جاءوا إلى معسكره فى آسيا الصغرى كانوا غير حكماء وأكدا أن هذه الأموال لم تسدد وطالبوا بالمزيد ، ثم هددوا السلطان بأنهم سيولون بدلاً منه مدعى العرش إذا لم تتم إجابة مطالبهم ، ولكن الصدر الأعظم خليل حذرهم قائلاً كما ذكر جيبونز : « أيها الرومان التعساء الحمقى ، لقد مات مراد وأصبح هذا الشاب سلطانًا وهو لا يقهر ولا تقف العقبات فى طريقه فلماذا ترفعون تهديداتكم فى وجوهنا ؟ اتركوا أورخان ينصب نفسه سلطاناً على رومانيا ويستدعى المجريين من الدانوب ويوغر صدور الغربيين علينا ، وتأكدوا أن فى ذلك دماره المحقق » .

لقد كان السلطان رقيقاً مع رسل الإمبراطور ، ولكن الأخير أظهر ما يبين عدم إحترامه للحدود بين الدولتين ، ومن ثم أمر السلطان بطرد اليونانيين من منطقة ستروما ومصادرة ممتلكاتهم ، ثم أمر ببناء قلعة على الجانب الأوروبى للبوسفور عند أضيق منطقة فى المضيق وتقع فى مواجهة القلعة التى شيدها السلطان بايزيد من قبل فى أناضولى حصار ، وكان هذا البناء يضمن التحكم فى المضايق وإيجاد قاعدة هامة يمكن استخدمها فى الحصار المرتقب للقسطنطينية . وقد أرسل الإمبراطور سفارة للاعتراض على هذا التصرف واعتبره خرقاً للمعاهدة الموقعة بين الطرفين ، وذكّر محمد بأن السلطان بايزيد استأذنه قبل أن يشيد قلعته ولكن السلطان رفض إستقبال سفارة الإمبراطور . وعندما بدأ بناء القلعة أرسل الإمبراطور الهدايا والمواد الغذائية أملاً فى توفير الحماية للقرى الواقعة على البوسفور ، ثم كانت السفارة الأخيرة والتى طلبت من السلطان التأكيد على أن بناء هذه القلعة لا يحمل أى تهديد بالهجوم على القسطنطينية ، فما كان من السلطان إلا أن سجن السفراء وأمر بقطع رؤوسهم ، وكان هذا إيذاناً بإعلان الحرب ، وسيطر الخوف والهلع على سكان القسطنطينية وباتوا يرددون بأن النهاية قد اقتربت ومعها نهاية المسيحية .

وفى أثناء فصل الشتاء ١٤٥١م أمر السلطان بتعبئة قوة من العمال والبنائين تقدر بخمسة آلاف رجل من جميع الولايات ، وأمر بجمع مواد البناء من كل مكان ، وفى الربيع التالى صدرت الأوامر بهدم الأديرة

والكنائس والمناطق المحيطة بها لتوسيع الموقع ولإمداد البنائين بمواد البناء اللازمة ، ثم وضع السلطان بنفسه خطط بناء أسوار القلعة ، وكان يذهب بنفسه ليتفقد عمليات البناء التى تم الانتهاء منها خلال أربعة شهور ونصف الشهر ، وأصبح إسم هذه القلعة الجديدة بوغاز خزن وتعنى (قاطع الطريق) ، ويطلق عليها اليونانيون إسم روملى حصار أى (قلعة الروم) ، على عكس قلعة أناضولى حصار أى (قلعة الأناضول) السابق ذكرها .

اتجه السلطان بجيشه ، بعد اكتمال بناء القلعة ، إلى أسوار القسطنطينية ليتفقد تحصيناتها وقضى هناك ثلاثة أيام ، ثم عاد إلى قصره فى أدرنة ، وحصن القلعة الجديدة بخمسمائة مقاتل ، وأصدر أوامره بتحصيل رسوم عبور من جميع السفن العابرة فى المضايق والحصول على تصريح للمرور ، وفي حالة الرفض تقوم مدفعية القلعة بإغراق السفينة حيث زودت القلعة بثلاثة مدافع فى أماكن إستراتيجية ، وكل مدفع يحمل كرات من الحجارة تزن ٦٠٠ رطل . هذه المدافع كانت من صنع مهندس مجرى يدعى أوربان خبير فى سبك المعادن ومتخصص فى سلاح المدفعية ، وكان قد عرض إختراعه على الإمبراطور البيزنطى ولكنه عجز عن دفع ثمنه فلجأ إلى السلطان وعرض عليه صنع مدفع عملاق لا يستطيع دك أسوار بيزنطة فقط بل أسوار حصن بابيلون (١) ذاته . ولما كان السلطان يهتم بالتطورات الحديثة فى العلوم العسكرية ويعتزم تجهيز قواته بأحدث الأسلحة ، وكان دائم الإطلاع على الدراسات الفنية الخاص ببناء القلاع وآلات الحصار ، وطالما تشاور مع الخبراء الأجانب فى هذا المجال ، فقد منح أوربان مرتبًا كبيراً وطلب منه أن يصنع مدفعًا للبرج الخاصة بالقلعة الجديدة (بوغاز خزن) للدفاع عن البوسفور والتحكم فيه ، وأن يختبر هذا المدفع فى الموقع . وفى خلال ثلاثة

---

(١) حصن بابيلون وهو من آثار العراق القديم وشيده الأكاديون فى الألف الثالث قبل الميلاد فى جنوب شرق بغداد ، وتنسب إليه مدينة بابيلون .

أنظر La Rousse , op . cit . p . 1156

شهور أعد أوربان المدفع للاختبار حيث أجبرت سفينة بندقية محملة بالحبوب فى طريقها إلى القسطنطينية على التوقف وتم إغراقها فى الحال بضربة واحدة من المدفع الجديد . وبعد ذلك أمر محمد أوربان بأن يصنع مدفعًا آخر أكثر ضخامة من الأول فى مصنع المدافع الذى أقيم خصيصاً فى أدرنة ، وحينما تم الانتهاء من صنعه تشكلت فرقة من سبعمائة رجل وخمسة عشرة زوجًا من الثيران لنقله إلى الموقع فى الوقت الذى يحدده السلطان .

لقد بلغ طول هذا المدفع العملاق ٢٦ قدماً وقطره ٨ بوصات ، ويحمل ١٢٠٠ كرة من كرات المدافع ، وقد حذر السلطان السكان من صوت قذيفته ، وحينما أطلق من نقطة قريبة من قصر السلطان وصل صدى صوته إلى مسافة تزيد على عشرة أميال ووصل مدى قذيفته إلى أكثر من ميل وأحدثت حفرة فى الأرض بعمق ستة أقدام . وإبتهاجًا بنجاح التجارب المتعددة ، أمر السلطان بتمهيد الطريق وتقوية الجسور حتى يمكن نقل المدفع فى الربيع إلى نقطة تقع خارج أسوار مدينة القسطنطينية ، وفى الوقت نفسه تم صنع مدافع أخرى صغيرة فى المصانع السلطانية ، وتشكلت فرق المدفعية المسلحة بالبارود ، وكانت تعد فرقًا جديدة لم يشهدها الشرق من قبل ولكنها كانت معروفة فى الغرب لقرن مضى . أما أسوار القسطنطينية الحجرية فكانت مشيدة منذ العصور الوسطى (١) ولم يطرأ تغير على وسائل دفاعها .

وخلال شتاء عام ١٤٥٢ كان السلطان مشغولاً إلى حد كبير بإستعدادات الحصار ، إذ كان يقضى الليل ساهراً يراجع خطط الهجوم والموقف الذى يمكن أن تكون عليه قواته وأماكن وضع معدات الحصار والبطاريات والألغام . وكان يسير بالليل متخفياً فى زى جندى عادى ومعه اثنين من الرفقاء فى طرقات أدرنة ليتعرف على الروح المعنوية لشعبه وجنده ،

(١) لمزيد من التفصيلات عن تحصينات مدينة القسطنطينية . أنظر : د. محمود سعيد عمران ، تحصينات مدينة القسطنطينية ، مجلة المؤرخ العربى ، اتحاد المؤرخين العرب لعام ١٩٩٥ م .

وإذا خاطر أحد الرجال وتعرف عليه وقدم له التحية كان يأمر بقتله حيث عُرف عنه عدم إكترائه بحياة البشر . وفى إحدى الليالى استدعى السلطان الصدر الأعظم خليل باشا ، الذى كان دائم القلق على منصبه ، فأحضر معه طبقًا مليئًا بالعملات الذهبية ، ولما سأله السلطان عن سبب إحضار هذا المال قال : إن خدم السلطان اعتادوا على هذا العمل حين يتم إستدعاؤهم فجأة ، ولكن السلطان أزاح المال جانبًا وقال : « أنا أريد شيئًا واحدًا ، أريد القسطنطينية » ، ثم أعلم خليل بأن الحصار سيبدأ بأسرع ما يمكن ، وتركه وعاد إلى خططه .

إن الجيش الذى جمعه السلطان فى تراقيا من جميع الولايات ، بلغ نحو مائة ألف مقاتل من بينهم عشرون ألفًا من غير النظاميين ، وضم القلب اثنتى عشر ألفًا من الانكشارية ، وكان السلطان يتفقد بنفسه تجهيزات الجيش ، وأصدر أوامره بصناعة الدروع فى جميع أنحاء البلاد وكذلك السيوف والسهام ، كما قام المهندسون بصناعة المنجانيقات وقواعد البطاريات .

وفى المعسكر المقابل ، تناقص عدد سكان القسطنطينية إلى أقل من خمسين ألف نسمة ، ولم تتجاوز القوة الدفاعية فيها سبعة آلاف مقاتل من بينهم ألفان من الأجانب وخاصة البنادقة والجنونيين الذين هرعوا لمساعدة أهالى المدينة من أجل الله والمسيحية ، بالإضافة إلى عدد من السفن الرابضة فى القرن الذهبى لا تحمل سوى المدافع الخفيفة ، وكان على هذه القوات الدفاع عن أربعة عشر ميلاً من الأسوار .

لقد بُعثت الشجاعة فى أهالى القسطنطينية حينما وصل سبعمائة خبير من البندقية وعلى رأسهم چيوڤانى چوستينيانى الذى عينه الإمبراطور قائدًا أعلى للفرق المقاتلة وتسلم العمل فى الحال ، وكلفه بتقوية الأسوار وتنظيف الخنادق وتحسين وسائل الدفاع بشكل عام . وكانت البلاد تعانى من أزمة مالية وقلة أعداد المدافعين ولذلك ساهم الناس والأديرة والكنائس بتبرعات مالية ، كما تم صهر الأطباق الفضية الموجودة داخل الكنائس لسك العملة .

لقد كان السلطان على دراية كافية بالأسباب التى أدت إلى فشل

المحاولات السابقة لحصار المدينة والتى كانت تعتمد على مهاجمتها من جهة البر فقط ، وأن البيزنطيين كانوا يتحكمون فى وسائل الدفاع البحرى حيث كانت تصلهم الإمدادات عن طريق البحر ، ولذلك رأى ضرورة مهاجمة المدينة براً وبحراً ، وأولى القوة البحرية إهتماماً عظيماً ، فأمر ببناء سفن حديثة بشكل سريع فى ترسانات بحر إيجة وبلغ عددها مائة وخمسة وعشرون سفينة حربية ذات أحجام مختلفة . وعند حلول ربيع عام ١٤٥٣م قاد هذا الأسطول قائد بحرى بلغارى ، وأبحر من غاليبولى إلى بحر مرمرة ، فسيطرت الدهشة على اليونانيين وأدركوا أن العثمانيين أصبحوا يمتلكون أسطولاً يبلغ خمسة أضعاف ما لديهم . واستدعى السلطان مجلس الوزراء للاجتماع ليكشف عن خططه الحربية وليحصل على موافقة الوزراء عليها ، مؤكداً أنه أصبح قادراً على التحكم فى المدينة من جهة البحر ، وأعلن عن إصراره على مهاجمتها وأعلن أيضًا أنه لن يحكم الإمبراطورية بغير القسطنطينية ، فمنحه المجلس موافقة جماعية . وقد استند السلطان على مباركة الرسل لهذا العمل وتنبأ بأن الرسول محمد صلعم سيبارك أول جندى يدخل المدينة وسيجعل له مكاناً فى الجنة ، وأن المجد سيكون من نصيب الحاكم والجيش الذى سيقوم بهذا العمل ، وأعلن السلطان أنه سيكون هذا الحاكم وسينتصر على الكفرة باسم الإسلام .

أما اليونانيون فقد أصابهم الإحباط من جراء شتاء طويل قارس البرودة ، ومن بعض الزلازل التى وقعت ، والأمطار التى هطلت على هيئة السيول والفيضانات والنيازك التى سقطت والتى اعتبروها دلائل على زوال إمبراطوريتهم وعلى مجئ عصر مناهض للمسيح . وقبل يوم عيد الميلاد أقيمت الصلوات فى كنيسة أياصوفيا معلنة الاتحاد بين الكنائس اليونانية واللاتينية (أى خضوع الكنيسة الشرقية للكنيسة الغربية) ، برغم قبول اليونانيين هذا الأمر على مضض .

وبدأ السلطان فى توجيه جيوشه من ناحية تراقيا إلى أسوار مدينة القسطنطينية تسبقها المدفعية الثقيلة ثم جاء بنفسه على رأس آخر الفرق وذلك

فى الثانى من أبريل ١٤٥٣ يوم عيد الفصح . وضرب السلطان الخيام فى موقع مقابل للأسوار وعسكرت الانكشارية حوله ، ووضع المدافع العملاقة وبجانبه اثنين من المدافع الصغيرة بالقرب من خيمته ، واتخذ الإمبراطور موقعه فى مواجهة السلطان عند بوابة سانت رومانوس ومعه الفرق الجنوية بقيادة جوستنيانى ، ولكى يظهر قوته قام باستعراض ألف جندى من البحارة البنادقة فى أزيائهم المميزة عبر أسوار المدينة حتى يراها العثمانيون .

أما عن المراسلات الدبلوماسية بين الطرفين فلم تصل إلى شئ ، فقد كتب الإمبراطور إلى السلطان قائلاً : « كما هو واضح أنت ترغب فى الحرب أكثر من السلام ، وحيث أننى فشلت فى إرضائك وإظهار إخلاصى ، فإننى لن أتوجه إلا إلى الله ، وإذا شاءت قدرته أن تصبح المدينة ملكاً لك فلا اعترض على ذلك ، أما إذا ألهمك الله لتميل إلى السلام فسأكون أكثر سعادة . ومع ذلك فأنا أحلك من جميع وعودك ومعاهداتك التى وقعتها معى ، وسأغلق بوابات عاصمتى أمامك ، وسأدافع عن شعبى إلى آخر قطرة فى دمى ، إن السعادة الأبدية ستكون عند الله يوم نقف جميعاً أمامه فى الآخرة » . وهكذا أغلقت بوابات المدينة ودمرت الجسور المؤدية للخنادق ، وأقام الجنويون سلسلة ضخمة طافية عند مدخل ميناء القرن الذهبى للدفاع عن المدينة من جهة البحر ولحماية السفن الستة والعشرون الراسية به ، بعد أن غادره سراً سبع سفن أخرى (ستة من كريت وواحدة من البندقية) خشية الحصار وعلى متنها سبعمائة بحار إيطالى . وبدأ الناس فى إقامة الصلوات فى الكنائس طلباً للنجاة والخلاص فى هذا الأسبوع المقدس ، وبعد أن انتهى الأسبوع بدأ السلطان ، طبقاً للشريعة الإسلامية فى توجيه رسله إلى الإمبراطور حاملين علم المهادنة ومعهم آخر عروض السلام والتى طلبت الإستسلام فى مقابل منح العفو والأمان للسكان ولممتلكاتهم ، ولكن قوبل هذا العرض بالرفض ، ومن ثم بدأت المدفعية عملها فى السادس من أبريل واستمرت بدون توقف لستة أسابيع . لقد كان الاعتماد الأكبر فى خطة العثمانيين على سلاح المدفعية أكثر من القتال الفردى من أجل إحداث ثقوب فى أسوار

المدينة وساعد فى ذلك أيضاً المجانيق .

ولم تحرز المدفعية العثمانية تقدماً واضحاً برغم إحداث ثغرات فى الأسوار وتدمير بعض النقاط فيها وكذلك تدمير عدد من الأبراج ، كذلك نشبت معركة بين الطرفين استغرقت أربع ساعات ولكنها كانت غير حاسمة ، إذ كان اليونانيون بقيادة جوستنيانى يسارعون بإصلاح التلفيات وتقوية نقاط الضعف مستخدمين بالات الصوف وأغطية من الجلود ، وفى المناطق الأكثر خطورة كانوا يبنون ساتراً من ألواح الخشب والبراميل المملوءة بالرمال . ومن ناحية البحر لم يكن الهجوم العثمانى ناجحاً ، فقد فشلت السفن أكثر من مرة فى إختراق سلسلة القرن الذهبى ، وفوق ذلك استطاعت ثلاث سفن حربية جنوية محملة بالأسلحة والذخيرة وعدة سفن يونانية قادمة من صقلية دخول مضيق الدردنيل والرسو أمام المدينة فى منتصف شهر أبريل ، وحينما علم السلطان أمر قائده بأسر البحارة وإغراق السفن وإلا سيكون مصيره الموت ، ووقع اشتباك بحرى على مرأى من سكان المدينة وكانت نتيجته دحر العثمانيين ودخول السفن المسيحية بأمان إلى القرن الذهبى . وكان السلطان يراقب المعركة من ساحل البوسفور واستشاط غضباً للهزيمة حتى أنه قاد جواده فى الماء وصب جام غضبه على القائد والبحارة ، ثم أمر بجلد القائد وهدده بوضعه على الخازوق ، ثم خففت العقوبة واكتفى بعزله من منصبه ومصادرة ممتلكاته الشخصية وتوزيعها على الانكشارية .

لقد كان السلطان يدرك تمام الإدراك أن القسطنطينية لن تصبح فى قبضة يده عن طريق الهجوم البرى فقط ، خاصة بعد أن فشل هجومه البحرى ، ولإيجاد مخرج لهذا الوضع واتته فكرة بارعة ربما أشار بها عليه أحد الإيطاليين الذين يعملون فى خدمته ، وهى أن ينقل سفنه بالطريق البرى من البوسفور إلى القرن الذهبى متجنباً السلسلة الضخمة التى وضعت به ، وبالفعل قام المهندسون ببناء طريق لهذا الغرض فى الوادى الذى كان يرتفع بمقدار مائتى قدم فوق سطح البحر ثم ينحدر بعد ذلك ناحية الميناء ، وعلى طول هذا الطريق وضعت ألواح خشبية مدهونة بالزيت حيث إنزلقت عليها السفن

بسهــولة ثم أنزلت إلى الميــاه بواسطة بكرات ضخمة وكانت الثيران تجرها أرضًا . لقد عقدت الدهشة ألسنة البحارة المسيحيين والمراقبين وهم يشاهدون السفن العثمانية تتحرك من الهضبة ناحية الميناء وأعلامها ترفرف وسط هتافات البحــارة ، وبلغ عدد السفن التركية التى نزلت مياه القرن الذهبى سبعون سفينة ، وقد حاول البنادقة والجنويون إختراق صفوفها بواسطة بعض السفن المسلحة ولكنهم فشلوا أمام نيران البطاريات البحرية العثمانية التى تمكنت من إغراق هذه السفن .

وهكذا فقد اليونانيون السيطرة على القرن الذهبى وأصبح الأتراك فى وضع يمكنهم من السيطرة على مؤخرة دفاعاتهم وتطويق الجنويين فى بيرا خاصة بعد أن تمكنوا من بناء جسر عبر الميناء وتقوية طرق مواصلاتهم وتهديد أسوار الميناء والخطوط الدفاعية البحرية للعدو .

لم يعقب هذا النصر البحرى العثمانى أية معارك أخرى برية سوى بعض الإستفزازات من الجانبين ، وقل ورود الإمدادات إلى المدينة بعد أن فشل أسطول بندقى قادم فى إختراق الحصار ، وأدى ذلك إلى هبوط الروح المعنوية لدى المدافعين عنها . وأمام غياب المساعدة من الغرب المسيحى ترك الإمبراطور المدينة ونظم حركة مقاومة خارجها وانضم إليه بعض الأتباع ، وظل يرفض الإستسلام قائلاً : « من المستحيل أن أستسلم ، كيف لى أن أتخلى عن كنائس أجدادى وخدامها والعرش والشعب فى مثل هذه المحنة ؟ » ، وكان يكرر على أتباعه : « لا تقولوا سوى كلمة واحدة وهى : لا تتركنا ، وأنا لن أتخلى عنكم أبداً » ، إذ كان يفضل إتباع أسلوب الراعى الذى يفنى حياته من أجل الرعية .

ولم يستطيع جندى تركى واحد وضع أقدامه على أرض المدينة رغم حصار دام قرابة سبعة أسابيع استخدمت فيه أحدث الوسائل ، كما باءت محاولات إحداث ثقوب فى الأسوار بالفشل ، وكذلك العمليات العسكرية فى القرن الذهبى لم تكن حاسمة ، كل ذلك جعل الصدر الأعظم ، الذى فترت همته ، يحاول إقناع السلطان بأن يعقد سلامًا مع اليونانيين معارضًا بذلك

رأى زملائه فى الوزارة . وبالفعل وصلت سفارة عثمانية إلى الإمبراطور وعرضت عليه أن يختار بين أمرين : دفع جزية كبيرة سنوية أو التخلى عن المدينة مع جلاء سكانها عنها بأمتعتهم ، وأن يقيم له مملكة فى جزر البلوبونيز ، ولكن الإمبراطور رفض كلا العرضين ، وأدرك السلطان أن المدينة لن تدخل فى حوزة المسلمين إلا بأحد أمرين إما قتل من فيها أو إعتناق الإسلام .

لقد عرض السلطان خطة للهجوم الأخير وحدد له تاريخ الثلاثاء ٢٩ مايو ، وفى يوم الأحد السابق استعرض قواته وبصحبته كبار رجال الدولة من رجال الدين ، الذين أعلنوا للجنود أنه طبقًا للتقاليد الإسلامية سيباح لهم نهب المدينة ثلاثة أيام وسيقتسمون كنوزها ، وأن الفرق التى ستحقق النجاح فى إقتحام الأسوار ستمنح إقطاعات ومناصب رفيعة فى الإدارة ، وستكون المبانى والقلاع فقط من نصيب السلطان ، وعقب هذا تصاعدت صيحات الفرح من الجنود العثمانيين وأخذوا يرددون « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » . وفى الليل اجتهد الأتراك فى ملء المجانيق وإعداد الأسلحة على دقات الطبول ، وعندما لاحت الساعات الأولى من النهار أشعلوا النيران فى معسكرهم إدراكاً للنصر ، وتوقعوا أن يجبروا اليونانيين على الخضوع والسجود أمامهم ، وفى اليوم التالى كان السكون التام يحيط بالمدينة وأسوارها ، ثم علت أصوات دقات أجراس الكنائس والصنج والأيقونات والمقدسات التى حملها الناس فى الطرقات وحول الأسوار فى مواكب وصلوات . وبعد جولة تفتيشية قام بها السلطان ووزراؤه إستدعاهم إلى خيمته وقال لهم : إن الواجب المقدس والإخلاص للعقيدة يفرض عليهم الإستيلاء على العاصمة المسيحية وأن النصر سيتحقق ، وأنه سيرسل فى اليوم التالى الموجة تلو الأخرى من المقاتلين لمهاجمة المدينة حتى يستسلم المدافعون عنها ، وطلب من ضباطه التمسك بالشجاعة والإنضباط . أما الإمبراطور فقد خطب فى قادته قائلاً : « إن الإنسان ينبغى أن يكون مستعداً للدفاع والتضحية من أجل العقيدة والوطن والأسرة ومليكه ، وذكر أمجاد المدينة العريقة وتقاليدها ، وطالبهم بضرورة مقاتلة السلطان الكافر الذى يريد تدمير العقيدة الحقة وتنصيب نبى

مزيف محل المسيح ، ودعاهم إلى النظر لأمجاد الأجداد وأبطال اليونان القدامى والرومان ، وأن يتحلوا بالشجاعة والإقدام مما سيكفل لهم النصر بمشيئة الله » . وقد ذكر جيبونز فى وصف هذه الخطبة أنها « خطبة جنازة الإمبراطورية الرومانية » .

وفى الساعات المبكرة لصباح يوم الثلاثاء ٢٩ مايو ١٤٥٣ بدأ السلطان الهجوم المدفعى الذى أحدث دوياً هائلاً ، وتعالت الصيحات وسط ضجيج المدافع ودقات الطبول وأصوات المزامير من سور إلى آخر ، وفى الحال دق جرس الكنيسة معلناً للجميع أن المعركة قد بدأت ، فهرع المقاتلون إلى مداقعهم وخلفهم النساء يحملن الأحجار والعوارض الخشبية اللازمة للأسوار ، فى حين تزاحم الشيوخ والأطفال متجهين صوب الكنائس ليتضرعوا إلى الله أن ينقذ مدينتهم .

وقد حقق هجوم السلطان نجاحاً فى شكل ثلاث موجات ، الأولى قام بها المقاتلون غير النظاميين وهم « الباش بوزوق » بعصيهم الحديدية ، ثم تلاها ضربة من الشرطة العسكرية وكانت أفضل فى التدريب ، وواجهت عناصر أفضل منها فى التدريب والقتال ، واستمرت فى القتال قرابة الساعتين فقط ، ثم أمرهم السلطان بالتراجع بعد أن أدوا وظيفتهم وهى إنهاك العدو .

ثم جاء دور الفرق جيدة التسليح والمنظمة بدقة وهى فرق الأناضول ، ومرة أخرى أعلنت أجراس الكنيسة التحذير للناس ولكنها تلقت قذيفة من المدفع العملاق وتلتها ضربات المدفعية الثقيلة التى دكت الأسوار ، ودفعت الألواح الخشبية وبراميل الرمال فى اتجاه جوستنياني وحدثت عدة ثقوب فى الأسوار اندفع منها المقاتلون واشتبكوا فى قتال بالأيدى مع المدافعين الذين كانوا يستخدمون الحجارة . ولكن قبل الفجر بساعة تلقت الأسوار قذيفة من مدفع أوربان أحدثت دماراً واسعاً واندفعت فرقة من ثلاثمائة تركى بسرعة من الفتحات ولكن فرقة من اليونانيين بقيادة الإمبراطور نفسه اشتبكت معهم وأعملت فيهم القتل وتراجع الناجون منهم إلى الخنادق . وقد استشاط السلطان غضباً لهذه المعركة ، واستمر فى دفع المقاتلين بعصاه الحديدية مع

التهديد والوعيد ، وسار حسب الخطة ودفع بفرق الانكشارية إلى أرض المعركة وكانوا منضبطين متراصين يتقدمون على نغمات الموسيقى العسكرية حاملين رماحـهم تحت قيادته وتتابعوافى موجات متتالية وهم يرفعون صيحات التشجيع ، وبعد ساعة من القتال اليدوى أحرزوا تقدمًا بطيئًا بين صفوف المسيحيين الذين ظلوا يقاتلون بلا كلل . وقد وقع فى هذه الأثناء حادثان مصيريان ، الأول أن إحدى البوابات الواقعة فى الركن الشمالى من أسوار المدينة وتحمل إسم « بوابة كركوبورتا » تركت مفتوحة ، بعد أن خرج المقاتلون لملاقاة الأتراك ، فدخلت منها الفرق العثمانية وتسلقت البرج الخاص بها ، والثانى إصابة القائد چوستنيانى بجرح خطير فى الصدر فتوسل إلى المقاتلين أن يحملوه بعيداً عن ميدان المعركة ، وعبثاً حاول الإمبراطور التوسل إليه للبقاء فى أرض المعركة قائلاً : « لا تتركنى فى هذه اللحظة الحرجة ، إن خلاص هذه المدينة يعتمد عليك » ، ثم حملة رجاله عبر طرقات المدينة إلى القرن الذهبى حيث رحل على متن سفينة چنوية ورحل معه أتباعه الچنويين ، وبذلك خسروا المعركة . وهنا أعلن السلطان « لقد ملكنا المدينة » ، وأمر الانكشارية بشن الهجوم الأخير على بوابة سانت رومانوس التى كان يقود الفرق الخاصة بها عملاق أناضولى يدعى حسن ولكنه قتل مع نصف رفاقه ولحق النصف الآخر بالانكشارية وتمكنوا من إزاحة اليونانيين من طريقهم ووصلوا إلى السور الداخلى وتسلقوه بدون مقاومة ورفعوا الأعلام التركية على البرج والبوابة بينما تصاعدت الصيحات التى تقول « ضاعت المدينة » وحاول الإمبراطور الهروب بجواده من البوابة ولكن بعد فوات الأوان إذ اندفع الأتراك تجاهه وحينما أراد الرجوع إلى بوابة سانت رومانوس الرئيسية وجد أمامه الأتراك الذين كانوا قد دخلوا من خلال الثقوب التى أحدثوها بالأسوار ، وبذلك فشل فى اللحاق باليونانيين وأيقن أنه خسر المعركة فصاح قائلاً : « المدينة فقدت وأنا لازلت على قيد الحياة » ثم ألقى بنفسه من فوق ظهر جواده حيث تمزقت أوسمته أمام الانكشارية ، وذكر جيبونز نهاية قنسطنطين قائلاً : « لقد سقط صريعاً وسط ردائه الأرجوانى ولقى حتفه من ضربة

مقاتل مجهول ودفن جسده وسط جبل من القتلى » . وبعد أن دخل الجنود إلى البوابات تجول الجيش المنتصر عبر طرقات المدينة وسط الدماء وأعمل أفراده السلب والنهب المألوف لديهم في الكنائس والأديرة والأسقفيات والقصور والمنازل واستولوا على الأموال والأنفس . لقد فر آلاف اليونانيين تجاه كنيسة أيا صوفيا العظمى ، وقد وصف المؤرخ ميخائيل دوكاس هذا المشهد قائلاً : « امتلأت الكنيسة العظيمة في ساعة زمن واحدة بالرجال والنساء في تزاحم رهيب ، ثم جاء العثمانيون قبل الساعات الأولى من النهار ، وحينما وجدوا الأبواب مغلقة ضربوها بالفؤوس بلا هوادة » . وبينما ظل الرهبان ينشدون عند المذبح ، قيد المتعبدون مع بعضهم بالأغلال ومزقت ثياب النساء وأخرجن إلى الشوارع أمام الجنود الذين تنازعوا على إمتلاك الفتيات والشباب والشيوخ الأثرياء . ولم يصل موكب السلطان إلى المدينة إلا في عصر هذا اليوم حيث كان محاطاً بالحرس الخاص من الإنكشارية والوزراء ، وسار ببطء عبر شوارع المدينة ثم اتجه رأساً إلى كنيسة أيا صوفيا حيث ترجل من على جواده واستقبل القبلة وصلى راكعاً على الأرض تواضعاً لله ، وهي عادة شرقية ، ثم توجه إلى المذبح ، وفي الطريق وجد أحد الجنود الأتراك يحمل قطعة رخام من أرض الكنيسة فسأله لماذا يدمر الأرض فرد قائلاً : من أجل العقيدة ، فضربه السلطان بسيفه قائلاً : « ألا يكفيك الأموال والأسرى ، إن جميع مباني المدينة ملكاً لي » ، وركل الجندي بقدميه وأزاحه من طريقه .

وقد عثر السلطان على بعض اليونانيين مختبئين في بعض أركان الكنيسة فأطلق سراحهم ومعهم بعض الرهبان ، ثم أصدر أوامره بأن تتحول الكنيسة إلى مسجد ، وصعد أحد الشيوخ إلى المنبر وأقام الصلاة ، ثم صعد السلطان بنفسه إلى المذبح وأذن للصلاة وشكر الله على نعمة النصر .

وكانت شوارع المدينة تنعم بالهدوء حينما خرج السلطان من الكنيسة حيث اكتفى الجنود بيوم واحد لجمع الغنائم ، ثم سار وسط الخراب متجهاً إلى القصر الإمبراطوري الذي لحقه الدمار حيث ردد أبياتاً شعرية لشاعر فارسي تقول : « العنكبوت يغزل أستار قصر قياصرة الرومان والبومة تنادي على حراس أبراج أفراسياب » .

الفصل الثامن

لقد أصاب سقوط القسطنطينية الغرب المسيحى بحالة من اليأس والأسى، ووجهت الإتهامات إلى الذين تقاعسوا عن إنقاذ المدينة خاصة وأن المعركة لم تستغرق سوى إحدى عشرة ساعة فقط ، أما الأسطول البابوى البندقى فلم يفلح سوى فى إنقاذ سواحل بحر إيجة . والآن تتباكى المسيحية بعد فوات الأوان وبعد فقدان آخر حاضرة كانوا يحتمون وراءها طلبًا للأمان الزائف . لقد شكلت هذه الكارثة تهديداً للحضارة الغربية واهتزت المشاعر فى كل مكان وإمتلأت النفوس بالحزن الدفين ، إلا أنه من الناحية الفعلية كانت القسطنطينية مفقودة منذ أكثر من قرن مضى وليست معركة الإحدى عشرة ساعة الأخيرة هى سبب سقوطها ، ولكن لم تستطع شعوب الغرب المسيحى نسيان صدمة هذ الحدث الجلل الذى نتج عن الحامية غير المجهزة بالرجال والسلاح والإعتماد على أساليب العصور الوسطى القتالية فى الإحتماء خلف الأسوار فى مواجهة جيش عظيم حديث . إن السيطرة العثمانية على قلب جنوب شرق أوروبا أدت إلى عزلة المدينة من النواحى الجغرافية والسياسية والإقتصاديةو العسكرية والثقافية ، وجعلتها مجرد جزيرة مسيحية وسط محيط إسلامى .

إن تاريخ سقوط المدينة فى ٢٩ مايو ١٤٥٣ حُفظ فى ذاكرة التاريخ ، ويعد حداً فاصلاً بين العصور الوسطى والعصور الحديثة ، ويعد من العوامل التى ساهمت فى التغير التاريخى الذى بدأ يتضح بنهاية الإمبراطورية البيزنطية وموت آخر أباطرتها العظام ، وببزوغ إمبراطورية جديدة من الغزاة العثمانيين على مدى مائة وخمسين عامًا وتحركها خارج حدودها وتحولها من إمارة قبلية إلى إمبراطورية مسئولة عن حكم مساحات شاسعة من الأراضى دامت على مدى أربعمائة وخمسين عامًا وتحكمت فى بقعة مركزية بين قارتى أوروبا وآسيا .

منذ أن تولى السلطان محمد الثانى عرش السلطنة وهو يعتبر نفسه وريث الإمبراطورية الرومانية وحاكمها المسيحى ، وتأكد هذا الإدعاء بغزو

القسطنطينية ، والآن أصبحت هناك إمبراطورية بيزنطية ولكن باصطلاح جديد . إن السلطان الشاب الذى إمتلك موهبة الإدارة من خلال تجاربه السابقة ، وتمتع بسعة الأفق من خلال الإطلاع على المؤلفات التاريخية ، وتميز بالقدرة على الإنجاز ، إمتلك أيضًا مقومات الغازى العالمى مثل الإسكندر الأكبر والقياصرة العظام ، فكما ذكر چورچ ترابذو نتوس ، المؤرخ الكريتى الذى عين مؤخراً فى قصر السلطان موجهاً القول لسيده : « لا يشك أحد فى أنك أصبحت إمبراطور الرومان ، فأنت الآن السيد الشرعى لعاصمة الإمبراطورية ، إذن فأنت إمبراطور ، والقسطنطينية كانت عاصمة الإمبراطورية الرومانية » . ومن ثم أصبح محمد يحمل ألقاب قيصر الروم ، والإمبراطور الرومانى ، وخليفة أوغسطس ، وقسطنطين ، والبادشاه وهى كلمة فارسية تعنى نائب الإله . وبالوصول إلى هذه المرتبة من السيادة ، ورث محمد التقاليد العثمانية فى الحكم وحقق حلمًا إسلاميًا بإتساع ملكه ، وتحدى الغرب بأن أصبح سيد الأرضين وسيد البحرين ، الرومللى والأناضول والبحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود . لقد نجح السلطان فى تحقيق ما عجز عنه الخلفاء القدامى ، وظهر أمام العالم كأعظم حكام المسلمين منذ إنتهاء عصر الخلفاء الراشدين ، وقام بمهمة دينية مقدسة كسليل أسرة حاكمة تنتمى إلى العظمة الإسلامية الغابرة وتشبه بالخان والغازى والقيصر ، ففى شخصه وحكمه تجتمع التقاليد التركية والإسلامية والبيزنطية ، وعليه أن يجعل هذه المدينة قلب عالم واحد وإمبراطورية واحدة .

لقد اعتبر السلطان أن مهمته هى بعث الإمبراطورية البيزنطية من جديد وليس تحطيمها ، ولكن على النسق العثمانى ، ولذلك قام بإعادة بناء العاصمة لإستعادة أمجادها القديمة وجعل إسمها استانبول . وهى تعكس ، كما فى كلمات پول وتك Paul Wittek الصورة الحقيقية لجوهر هذه الدولة ، فهى تحمل التقاليد البيزنطية الثقافية العريقة والمؤثرات الغربية ممتزجة مع تقاليد الإسلام القديمة .

لقد أصبحت هذه الإمبراطورية تحت حكمه علمانية ودينية وعالمية في ذات الوقت ، كما لو كانت بيزنطة من قبل ، لقد ضمت بين جنباتها سكان من جميع الأجناس والمعتقدات يتعايشون فى وئام ووفاق بعد أن زالى حكم آخر الأباطرة الذى كان يجمع بين يديه سلطة الكنيسة والدولة . لقد خضعت الكنيسة المسيحية لدولة إسلامية فرضت على الرعايا دفع الجزية في مقابل التمتع بحرية العبادة والحفاظ على عاداتهم وأساليبهم المعيشية . لقد كان هذا النظام متبعاً فى المناطق الإسلامية التى تعيش فيها أقليات دينية ، وتم تنظيمهم على أساس الملل التى مثلت مجتمعات تتمتع بالحكم الذاتى وتحتفظ بقوانينها الخاصة ومصالحها فى ظل رئيس دينى مسئول عن إدارة مصالح أهل الملة ، وكان سائداً فى ظل الخلافة الإسلامية العربية وعملت به الإمبراطورية العثمانية إذ أصبحت البطريركية الأرثوذكسية في القسطنطينية هى المسئولة عن شئون الأقليات سواء فى آسيا أو فى أوروبا من الذين يعيشون فى ظل الحكم الإسلامى ، فهذه الشعوب المغلوبة التى كانت تحت الحكم البيزنطى لم تتمتع بحق المواطنة من الدرجة الأولى أو بالحرية السياسية الكاملة ، ولكن كانت أمامهم فرصة التمتع بمزايا السلام والرخاء ولكن فى حدود معينة ظهرت بشكل خاص فى المجال التجارى . قد طلب السلطان من علماء الدين الذين يمثلون السلطة الإسلامية الإقامة فى استانبول أسوة ببطريرك الأرثوذكس والبطريرك الأرمينى وحاخام اليهود حتى يكون هناك توازنًا بين السلطات الثلاث .

وكان السلطان يميل إلى اليونانيين المقيمين فى المدينة والذين كانوا يمثلون أغلبية السكان وأكثرهم ثراء وثقافة ، ووجد أنهم يمكن أن يكونوا عونًا لإمبراطوريته من خلال تفوقهم فى مجالات الصناعة والتجارة والملاحة التى كان لا يجيدها الأتراك آنذاك ، كما كان السلطان يحترم التعليم اليونانى ويقرأ فى تاريخ الإغريق وربما كانت تجرى فى عروقه دماء يونانية من جهة والدته . ومن هذا المنطلق أظهر السلطان إحتراماً خاصاً للسيدة مارا زوجة والده مراد التى كانت من أصول صربية ويونانية ، والتى كان من المحتمل أن تصبح

زوجة للإمبراطور قنسطنطين بعد وفاة زوجها .

لقد عين السلطان بطريركًا جديداً للكنيسة اليونانية لأن البطريرك السابق هرب إلى إيطاليا فى عام ١٤٥١ متخليًا عن منصبه ، وقد وقع اختياره على الراهب جيناديوس نقيض البطريرك السابق چورچ سكولاريوس والذى كان يتمتع بمكانة علمية رفيعة ، وقد عارض جيناديوس اتحاد الكنيستين اليونانية واللاتينية الذى كان شرطاً لتقديم الغرب المساعدة للقسطنطينية وقت محنتها ، ولم يكن من الذين يشاركون فى دسائس الغرب المسيحى ، وحينما عينه السلطان أخرج من صومعته الديرية لأنه أصبح بعد الغزو عبداً لأحد الأثرياء الأتراك ثم اعتقه متأثراً بعلمه . وقد استقبل السلطان البطريرك الجديد إستقبالاً طيبًا وعامله باحترام وطلب منه أن يقبل منصب البطريركية ، وناقش معه نظام المجتمع الأرثوذكسى ، ثم أقر له عدة ضمانات وهى الحرية الدينية والتعليمية والدنيوية بدون تدخل أو اضطهاد من الدولة ، ثم بارك السلطان تعيين جيناديوس بطريركاً على رأس البطريركية الأرثوذكسية .

وفى يناير ١٤٥٤ تُوج جيناديوس بصفة رسمية بطريركًا يونانيًا تحت رعاية السلطان الذى مارس صلاحيات الأباطرة البيزنطيين وقام بالمراسم الخاصة بهم واستقبل جيناديوس بالملابس الرسمية ومعه الهيئة الكنسية ومنحه شارة المنصب والصولجان وصليب جديد من الفضة ليضعه محل الصليب القديم الذى بلى ، ثم قال له : « تمنياتنا بالمنصب الجديد ، تأكد من صداقتنا وستحتفظ بجميع إمتيازات البطاركة السابقين » . وهكذا تمتع جيناديوس بسلطة كاملة على ملة الروم الشرقيين ، ثم حصل على رتبة باشا بثلاثة أطواغ (١) ، وخصص له بلاط خاص وصومعة خاصة فى حى الفنار

---

(١) أطواغ جمع طوغ ويقال طوخ أيضاً وهى تعنى ذنب الحصان ، وكان عدد الأطواخ رمزاً لمنصب الشخص أى يتفاوت من منصب لآخر حسب أهميته فى الدولة العثمانية. حول هذا الموضوع .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، الإسكندرية ٢٠٠٠ م .

اليوناني . وكان من الحقوق التي تمتع بها البطريرك الجديد حق إجراء المراسم القديمة في كنيسة أيا صوفيا ولكن بعد أن حولها السلطان إلى مسجد أصبحت كنيسة الرسل المقدسين التي لم تتعرض للدمار هي مقر البطريركية ، وبعد أن تسلم البطريرك هدية ذهبية ثمينة من السلطان تجول في المدينة على ظهر جواد أبيض حاملاً هدية السلطان ، ثم توجه إلى مقر إقامته الجديد بجوار الكنيسة بعد أن وضع الهدية بها .

وكانت هذه الكنيسة من بين الكنائس المسيحية التي استمرت تؤدي دورها في العبادات بعد الغزو بعد أن أصبحت الأبرشيات التابعة لها خاضعة للسلطان والبعض الآخر تحول إلى مساجد . أما كنيسة أيا صوفيا فقد أصبح إسمها مسجد أيا صوفيا الكبير وحل الهلال محل الصليب الذي كان يعتلي قبتها ، وأصبح يتجه ناحية القبلة التقليدية للأتراك في مكة ، ثم أضيفت إليه نجمة في وقت لاحق . وقد أضاف الفاتح إلى مسجد أيا صوفيا مئذنة إظهار للوجه الإسلامي وكانت مغطاة بالفسيفاء .

وقد تطلع البطريرك الجديد إلى السلطان بثقة وشجاعة كحامي للكنيسة اليونانية الأرثوذكسية في مناهضة البابوية ، وتزايدت قوته ومكانته بشكل أكثر مما كان عليه في العصر البيزنطي ، وأصبح بمثابة « بابا اليونانيين » ، وكان يدافع عن العثمانيين ويقول أنهم أفضل من اللاتين ، ومن ثم توثقت العلاقات بين جيناديوس والسلطان الذي كان يحاوره في مسائل العقيدة رغبة في معرفة الكثير عن الديانة المسيحية ، وبناء على طلب السلطان ألف جيناديوس كتاباً عن المذهب الأرثوذكسي ، وترجم إلى اللغة التركية .

لقد أدت هذه الصداقة إلى انتعاش بعض الآمال لدى الغرب بأن السلطان يمكن أن يعتنق الديانة المسيحية ، فبعد سقوط القسطنطينية كتب أحد الإيطاليين وهو فرنسيسكو فيلفلو إلى السلطان الفاتح يلتمس إطلاق سراح والدة زوجته ، وكانت زوجة لأحد فلاسفة اليونان وأسرت أثناء الغزو ، وأخذ يثني على السلطان ويمتدحه ثم عبر عن أمله في أن يصبح مسيحياً . ويقال أن البابا نيقولا الخامس أدى الصلاة من أجل اعتناق السلطان العثماني للديانة

المسيحية بعد أن تبادل الرسائل معه ووصفه بأنه خليفة هكتور (منتقم الإلياذة) .

أما البابا بيوس الثانى فقد أعرب عن غضبه من أن يصبح السلطان مسئولاً عن المذهب الأرثوذكسى ، وكتب إليه شارحاً حقيقة المذهب الكاثوليكى ، ثم عرض عليه تعميده على أن يصبح أعظم الحكام المسيحيين تحت حماية البابا . وفى القسطنطينية نفسها نشر الفيلسوف اليونانى جورج أميروتزس دراسة عن الأسس المشتركة بين الإسلام والمسيحية وقدمها للسلطان ، ثم اقترح مزجهما فى عقيدة واحدة أو على الأقل اعتراف كل دين بالأخر بشكل متسامح وأخوى .

على أن هذه التكهنات لم يكن لها أى تأثير على السلطان الذى اعتبر نفسه خليفة الله فى الأرض ووريث خلفاء المسلمين وكرس نفسه سياسيًا وروحيًا لخدمة الإسلام ، غير أن هذا لم يمنعه من بعث الحضارة المسيحية الأرثوذكسية والتسامح مع المسيحيين ، وظل مثل والده يجند المرتدين عن المسيحية ولم يفرق بينهم وبين المسلمين الأحرار وخاصة من التمس فيهم سعة الأفق والإستنارة .

ورغم أن السلطان الفاتح كان متسامحًا فى مسائل العقيدة فإنه فى المواقف السياسية والشخصية كان فظاً وغليظاً كما لو كان فى ميدان القتال ؛ فبعد احتلال المدينة فك أسر بعض وزراء الإمبراطور ومن بينهم ميجادو ولوكاس نوتاراس الذى تردد عنه أنه قال أنه قريباً سيرى عمامة السلطان فى القسطنطينية بدلاً من قبعة الكاردينال وذلك أثناء محاولة التوحيد الكنسى الفاشلة . وقد عامله السلطان فى بادئ الأمر بكل إحترام وجعله حاكماً على المدينة برغم تحذيرات مستشاريه من إمكانية خيانته ، ولكى يختبر ولاءه فقد أرسل إليه فى إحدى الليالى وهو على مأدبة تحفها الخمر ، أحد الطواشى يطلب إليه أن يرسل معه إبنه الجميل ذا الأربعة عشر ربيعاً ليضحك السلطان ويسليه ، ولكن نوتاراس رفض ، فما كان من السلطان إلا أن أمر بشنقه هو وابنه وابن صهره ، ووضع رؤوس الثلاثة على المنضدة أمامه . ويقال أن

نوتاراس طلب أن تقطع رؤوس الغلمان قبله حتى لا يؤثر عليهم منظر بنفه وبعد فترة قصيرة قام السلطان أيضاً بقطع رؤوس عدد من نبلاء الإغريق وطلب التخلص من جميع كبار موظفى الإمبراطورية السابقين . وكان نوتاراس قد تسبب فى وقوع مشكلات بين السلطان والصدر الأعظم خليل باشا ، إذ عرض على خليل رشوة فى مقابل الضغط على السلطان لتوقيع الصلح مع البيزنطيين ، وحينما تأكد السلطان من ذلك ألقى القبض على خليل وعزله من منصبه وتم نقله إلى أدرنة . ويقال أن السلطان شاهد ثعلبًا مقيداً على باب قصره ، فقال له بسخرية : لماذا لا تطلب من خليل أن يطلق سراحك ؟ ، وهنا أدرك خليل خطورة مصيره فأعلن عن إعتزامه أداء فريضة الحج ، ولكن السلطان أرسل إليه رسالة تؤكد أنه لا يعتزم قتله ، فأمن خليل ولم يخرج للحج ، ولكنه سرعان ما أعدم ، وبذلك كسب محمد الجولة وتخلص من عدو طالت كراهيته له منذ كان غلاماً .

لقد كان خليل رابع أعضاء أسرة الجندرالية ممن شغلوا منصب الصدر الأعظم فى قصر السلطان ، وكما تخلص منه السلطان تخلص أيضًا من الوزراء الآخرين الذين كانوا فى خدمة والده من أنصار العهد القديم ، وأحاط نفسه بمستشارين من الجيل الجديد من الطبقة الحاكمة المسيحية والذين اعتنقوا الإسلام ، وكان تعيينهم وعزلهم يعتمد بشكل كلى على رضا السلطان عليهم ، وكان الصدر الأعظم الجديد هو القائد زجانوس باشا وهو من أصل ألبانى ، وجعل السلطان مهمته الأساسية هى بعث الحياة من جديد فى مدينة استانبول حتى تصبح عاصمة عالمية ، وقد تطلب ذلك إعمارها بالسكان لأن هجرة السكان من المدينة ساهمت فى عزلتها إذ تناقص عددهم إلى حوالى ٣٠ أو ٤٠ ألف نسمة فقط ، وكانت أحياء كثيرة فيها خالية من السكان تماماً وشملها الدمار والخراب نتيجة الغزو ، كذلك تعرض الكثير من قصورها ومبانيها المهمة للانهيار ، وأصبح من الضرورى إزالة المخلفات وإصلاح الأسوار وتعيين إدارة عثمانية جديدة لها ، وتشجيع من ترك المدينة على العودة إليها وبصفة خاصة المسيحيين الأرثوذكس مع الوعد بحماية

بممتلكاتهم وعقيدتهم وإعفائهم من الضرائب ، والمساعدة فى إعادة بناء منازلهم وحوانيتهم . كذلك قرر السلطان إطلاق سراح الأسرى الذين كانوا لدى العثمانيين وتم تسكينهم فى حى الفنار مع إعفائهم من الضرائب .

كما صدرت الأوامر إلى حكام منطقى الروملى والأناضول بإرسال أربعة آلاف أسرة إلى استانبول مسلمين أو مسيحيين لتعمير الديار المهجورة ،و٣٠ ألف فلاح من الذين أسروا فى الحملات العسكرية السابقة ليستقروا فى الأراضى الواقعة حول مدينة استانبول حتى يزودوا المدينة بحاجتها من المواد الغذائية . وبناء على أوامر السلطان أيضًا تقرر اختيار عدد من التجار الأثرياء وأصحاب الحرف من المناطق المفتوحة ونقلهم إلى استانبول للمساهمة فى التنمية التجارية والصناعية ، وكان من بين هؤلاء مهاجرين من سالونيك وغالبيتهم من اليهود الأوروبيين ، وقد استطاع هؤلاء اليهود فى غضون خمسة وعشرين عامًا أن يصبحوا ثالث أكبر الملل التى تسكن المدينة بعد المسلمين والمسيحيين – وفى المرحلة التالية أرسلت خمسة آلاف أسرة من طرابزون والمناطق المحيطة بها ومن الأناضول والمورة والجزر الإيجية لتسكن العاصمة ، وكان لكل منها الحى الخاص بها ، وأطلقوا على هذه الأحياء الأسماء الأصلية للأماكن التى قدموا منها مثل أقساريا وقرمانيا . وكان من بين هؤلاء عائلات من أصحاب المتاجر وأصحاب الحرف والبنائين لتقديم المساعدة فى عملية إعادة الإعمار ، وبمرور الوقت بدأ اليونانيون يعودون إلى المدينة بمحض إرادتهم ورغبة فى الكسب مثل يهود أرمينيا .

وفى الوقت نفسه أصلحت تحصينات مدينة بيرا الواقعة على الطريق إلى القرن الذهبى والتى تعرضت تحصيناتها للدمار خلال الغزو ، كما تم إصلاح ميناء جالاطة وتحول إلى منطقة تركية بعد أن كان يسكنه الجنويون واللاتين . وقد عبر الكتاب الأتراك عن دهشتهم لسرعة إزدهار المدينة فى كتاباتهم ، فلم نكد نصل إلى نهاية حكم السلطان محمد الفاتح حتى كانت المدينة قد إمتلأت بالحوانيت والمتاجر الكبيرة ، وأصبحت تعج بالنشاط الصناعى ، وزاد عدد سكانها المختلطين ثلاث مرات أو أربع عن بداية الغزو ، وخلال قرن من

الزمان أصبح عـددهم حوالى نصف مليون نسمة أكثر من نصفهم من الأتراك .

لقد كان السلطان نشطاً فى النهوض بالحياة الإقتصادية للمدينة ، وأدخل كذلك تطوراً على الطراز الإسلامى التقليدى فى مجال العمارة والذى كان سائداً فى العواصم السابقة مثل بورصة وأدرنة ، وقد ساهم هذا التطور فى تعمير استانبول وتزويدها بالأسواق الجديدة العديدة ومبانى الخدمات العامة التى كانت فى الحقيقة بمثابة مؤسسات مختلطة دينياً وثقافياً وتجارياً وتقوم على نظام الوقف الذى كانت تديره الدولة من الناحية المالية وتشرف عليه من خلال نظام الوقف الفردى . وكانت الأوقاف تضم عدداً من المبانى العامة المقامة حول المسجد مثل المعهد التعليمى والمستشفى وفندق للمسافرين ، كما كان هناك خان وسوق تجارى وأسبلة وحمامات ومغاسل ومخازن ومجازر ومطابخ وكلها تعتمد على الأوقاف الدينية من الناحية المالية .

كذلك أمر السلطان ببناء سوق تجارى مغطى ضخم كجزء من أوقاف مسجد أيا صوفيا ، أكبر مساجد استانبول ، وكان يضم آلاف المحلات والأسواق المقامة حولها ، وكانت بمثابة مركز تجارى صناعى حيث كان فى إستطاعة التجار تخزين بضائعهم فى أمان . وحينما شيد السلطان المسجد الكبير الذى حمل إسمه فيما بعد أقام حوله ثمانى مدارس ومكتبة وفندقان لإيواء المسافرين ومطعم ومطابخ لإطعام الفقراء ومستشفى بها أخصائيين فى العيون والجراحة وصيدلى ومطابخ لإعداد طعام للمرضى وكل ذلك بالمجان ، إذ كانت مجانية التعليم والخدمة الصحية من الدعائم التى قامت عليها دولة الإسلام فى العصور الوسطى .

وأمر السلطان كبار رجال الدولة ، الذين اتخذوا من المدينة مركزاً جديداً لإقامتهم ، بتشييد المبانى فى جميع أنحاء المدينة ، كما تم إقامة مراكز للبضائع العامة على طرق القوافل التى كانت تسير فى خطوط مستقيمة عبر المدينة . ولما تزايد النشاط التجارى فى استانبول فقدت كلاً من بورصة وأدرنة أهميتهما كمراكز تجارية فى الإمبراطورية وأصبحتا مجرد مراكز للتجارة العابرة إلى البحر الأسود والبحر الأبيض والتجارة الآسيوية . وبالإضافة إلى ذلك

قام السلطان بتشجيع طوائف الحرف أو الاتحادات التى كان ينتمى إليها أصحاب الحرف ، حيث كانت تشكل إحدى دعائم الحياة الاقتصادية التقليدية فى هذا الوقت ، وربما عرف العثمانيون هذا النظام الذى كان سائداً فى العصور الوسطى نقلاً عن اليونان والإغريق ، والذى كان معمولاً به أيضاً فى ظل الإسلام ، ولكنه اتخذ طابع الإخاء الدينى والإجتماعى فى هذا الوقت فى ظل الحكم العثمانى . لقد لعبت طوائف الحرف دوراً مهماً تحت قيادة الأخوة فى المجتمع العثمانى المبكر ، حيث لم تكن هناك سلطة مركزية واضحة فقاموا بتوفير الحماية السياسية لطوائف الحرف وللحرفيين . لقد نظمت هذه الطوائف بشكل خاص حيث كان لكل منها شيخ ينتخبه رجال الطائفة للحفاظ على الطائفة والدفاع عن مصالحها أمام الحكومة ، وللمحافظة على التقاليد الخاصة بكل حرفة . وبرغم ذلك فإن نظام طوائف الحرف كان بعيداً كل البعد عن مراقبة الدولة لأن أفرادها كانوا لا يتعاملون معها إلا من خلال بعض الإجراءات التجارية التى تخص تكاليف السلع والعوائد وكميات البضائع ومنع التلاعب فى الأسعار فى الأسواق ، وفيما عدا ذلك لم تتدخل الدولة فى الشئون الداخلية للطوائف وصرفت كل اهتمامها للحفاظ على الأمن والنظام ومصالح الخزينة والأعمال العامة .

إن تطور نظام طوائف الحرف الذى تزامن مع التطور الحضارى للبلاد يعكس مرحلة جديدة من التطور الاقتصادى اتخذت شكل التوسع التجارى مع الغرب منذ العقود الأخيرة للقرن الخامس عشر وأصبح عاملاً جوهرياً فى العلاقات مع الدول الأوربية ، فبعد أن انتهى الوجود البيزنطى ولم يعد يمثل تهديداً قادماً من الشرق الصليبى كما كان فى الماضى ، أصبحت الإمبراطورية العثمانية تمثل قطباً تجارياً مركزياً فى التبادل التجارى مع آسيا وأوروبا ، ولا شك أن هذا التبادل التجارى كان له تأثيره فى العلاقات الإجتماعية والثقافية بين قارتين متضادتين ، وفى حين كانت الإمبراطورية البيزنطية ترتكز فى تعاملاتها الإقتصادية على البندقية فإن العثمانيين بمجتمعهم المتعدد الجنسيات تعاملوا تجارياً مع جميع الدول فى إطار نظام الحماية الجمركية ، وجاب

تجارهم الشرق وأقصى شمال أوروبا ونجحوا فى السيطرة على مداخل المدن وطوروا نظام التعامل التجارى بالشكل الذى يتلاءم معهم حيث كانوا يبادلون المنتجات الزراعية والمصنوعات اليدوية الشرقية بالأسلحة والمعادن وغيرها من المواد الخام الغربية .

وهكذا تحولت الجماعات القبلية المتوطنة إلى إمبراطورية إسلامية فى نطاق البناء الشرقى التقليدى للدولة حيث كان نظامها الإدارى يرتكز على مبادئ ومؤسسات إقتصادية لها كيانها وأهميتها ، فقد كانت وظيفة جميع الطبقات الإجتماعية تكريس جميع موارد الثروة للحفاظ على السلطة الحاكمة . وكانت الدولة تضم طبقتين أساسيتين إحداهما تتمثل فى السلطان والجهاز الإدارى والجيش ورجال الشريعة ، والأخرى ضمت الرعايا والفلاحين ورجال طوائف الحرف ، وهؤلاء هم فقط الذين كانوا يدفعون الضرائب ، وكان إنتاجهم وأرباحهم فى يد الدولة ويوجه لصالح النظام الإجتماعى والسياسى ، وكان الجميع يسيرون وفق نظام الطبقات . ولكن الآن ظهرت طبقة ثالثة أخذت فى النمو والصعود وهى طبقة التجار الذين تمتعوا بالحرية وكانوا بعيدين عن القيود الإجتماعية والقانونية ، وهؤلاء كان الطريق ممهداً أمامهم ليصبحوا رأسماليين ، وهؤلاء كانوا يختلفون عن صغار التجار ورجال الحرف ، فهم رجال الأعمال الذين حققوا عوائد تجارية ضخمة من التعامل التجارى بين المناطق المختلفة ومن بيع السلع المستوردة بعيداً عن سلطة الدولة . وقد عبر سنان باشا فى كتابه المعنون بـ « المرآة العثمانية للأمراء » عن مدى اهتمام الحكومة العثمانية بالتجارة فى القرن الخامس عشر فقال : « أنظر إلى التجار وراقبهم فلن تجد عليهم أى سلطة وباب النجاح مفتوح على مصراعيه أمامهم ، إن السلع الرخيصة تجوب العالم من خلال تجارتهم وتنقل معها الشهرة الممتازة للسلطان إلى المناطق المحيطة بنا ، ومن خلال تجارتهم يتزايد الثراء » .

لقد بدأ السلطان فى إعادة بناء أسوار المدينة وتقويتها لأنه اعتزم جعلها عاصمة للإمبراطورية وجعلها متميزة فى الطراز المعمارى كما كانت زمن

الإمبراطورية البيزنطية ولكن على النسق العثمانى الذى انبثق من سلطنة سلاجقة الروم ، فشرع فى بناء مسجده الذى حمل إسم «الفاتح» ، ولم يستغرق هذا العمل وقتاً طويلاً حيث إستعان بمهندس معمارى يونانى وجعل موقعه كنيسة الرسل المقدسين التى أزيلت ونقل البطريرك اليونانى محتوياتها إلى دير باماكاريستوس Pammakaristos فى حى الفنار اليونانى الواقع على القرن الذهبى . وكان مسجد الفاتح يشبه كثيراً مسجد أيا صوفيا فى تفصيلاته المعمارية ، ويعد أول مسجد تميز بقباب ترتفع فى سماء استانبول ، وهو مأخوذ من الطراز المعمارى البيزنطى لأيا صوفيا ولكن بأسلوب إسلامى يعكس عظمة الإمبراطورية والجنس الجديد من المعماريين الذى أثبت بالفعل التفوق من خلال هذا الطراز الإسلامى القائم على طراز الفن المسيحى .

كذلك قام السلطان بوضع حجر الأساس لمسجد أيوب الأنصارى الصحابى الجليل الذى مات قرب أسوار المدينة ، وعثر على مقبرته أثناء الحصار . أما قصور الأباطرة التى دمرت فقد أقام بديلاً عنها قصراً خاصاً به فى وسط المدينة على أنقاض دير بانتوكريتر ، وجعله مقر إقامته وترك قصره فى أدرنة ، وقد زين السلطان هذا القصر بكل ما هو جديد وأنشأ حوله العديد من الطرق الممهدة الجديدة ، وكان يتنقل بينه وبين المبانى الأخرى التى شيدها حوله خلال شهور الشتاء وخلال فترت الراحة بين الحملات الثانوية التى قام بها طوال الخمسة والعشرين عاماً المتبقية من حكمه .

الفصل التاسع

كانت المهمة العسكرية الملقاة على عاتق السلطان محمد تجاه العاصمة الجديدة المفتوحة هى تأمين حدودها من جهة الشرق والجنوب ، وقد أيقن أن ذلك لن يتحقق إلا بتقوية الإمبراطورية وتوسيع حدودها . فمن جهة البحر كان لدى السلطاء ميناء حصينًا متسعًا وقوة بحرية كبيرة ، ثم قام ببناء قلعة جديدة على الجانب الآخر للدردنيل بين منطقتى سستوس وأبيدوس حتى يحكم السيطرة على المضايق من جهة الجنوب ، حيث سبق له أن شيد قلعتى الروملى وأناضولى حصار فأحكم السيطرة عليها من جهة الشمال . وكان السلطان يخرج بنفسه على رأس جيوشه ويحكم القبضة على قادته العسكريين وفرض عليهم عدم عقد أية مجالس حربية إلا برئاسته وهو الذى يضع الخطط العسكرية الدقيقة لخط سير الجيوش المنظمة والمدربة والتى كان يحشدها كل عام فى أوروبا وآسيا ، ولا يسمح لأحد غيره بمعرفة خط سيرها أو أهدافها ، فحينما سألة أحد القادة ذات مرة عن هدف إحدى الحملات أجابه بأنه إذا عرفت شعره من لحيته نواياه أو أهدافه لانتزعها وألقى بها فى النار .

لقد ورث السلطان أعداء والده وهم هونيادى فى المجر وجورج برانكوفيتش المعزول فى الصرب وإسكندر بك فى ألبانيا والبنادقة فى اليونان وبحر إيجة ، وللذلك وجه إليهم عدة حملات فى الأعوام التى تلت فتح القسطنطينية فى ١٤٥٤ و١٤٥٥ وكللت بالنجاح . ففى الحملة التى وجهت إلى الصرب ، وهى الدولة التى تنازع عليها المجريون والعثمانيون ، نجح فى الإستيلاء على جزء كبير من المنطقة التى استعادها والده مراد بعد معركة ڤارنا ، ومن ثم أصبحت مناجم الفضة الموجودة بها من ممتلكات الدولة العثمانية ، ولكن كانت العقبة الكؤود فى طريق تقدمه إلى المجر هى مدينة بلجراد الواقعة على نهر الدانوب والتى فشل والده من قبل فى الإستيلاء عليها ، ولذلك حشد السلطان فى عام ١٤٥٦ جيشًا مدربًا تدريبًا جيدًا ومجهزًا بأحسن التجهيزات قوامه ١٥٠ ألف جندى ، بالإضافة إلى أسطول من السفن الخفيفة وأرسلها من الدانوب إلى منطقة وادين ، أما السفن الكبيرة فكانت تحمل مدفعية

الحصار الثقيلة ، وقام العمال الأجانب بوضع المدفعية الخفيفة فى الصرب . ونقل السلطان بقية الأسلحة والذخيرة والمؤن براً على ظهور الجمال وغيرها من دواب الأحمال ، وحتى يتمكن السلطان من إغلاق المدينة من جهة الدانوب وضع عند مدخل القناة المؤدية إلى قلعتها سلسلة من القوارب لتشكل عائقاً عبر النهر ، ومن ضفاف النهر أصبحت المدفعية الثقيلة فى مواجهة الأسوار الغربية للمدينة .

وفى أوائل شهر يونية فصل نضوج محصول القمح ضرب السلطان خيمته على قمة أحد التلال وحوله قوات الانكشارية وجعل البعض منها أسفل التل ، ولم يتوقع السلطان أن تصادفه أى عقبات فى هذه الحملة خاصة وأنه كان يمتلىء ثقة وإعتداداً بالنفس بعد الغزو الناجح لمدينة القسطنطينية . وكانت أول مهمة قامت بها الفروسية التركية هى تخريب المنطقة المحيطة ببلجراد ، وكان ذلك فى أوائل شهر يولية ، ثم بدأ القذف المدفعى الذى استمر لأربعة أسابيع ونجح فى تدمير أسوار المدينة إلى حد ما ثم ظهر أسطول هونيادى عبر نهر الدانوب واصطف فرسانه على ضفاف النهر لتعزيز التحصينات وقطع خط الرجعة على القوات العثمانية .

وقد نشبت المعركة المرتقبة بين الطرفين واستمرت لما يقرب من خمس ساعات وقد قاوم العثمانيون مقاومة يائسة وإمتلأت مياه الدانوب بالدماء بعد أن استطاع المجريون إختراق سلسلة الزوارق التى أقامها الأتراك وأغرق ملاحوهم حوالى ستة زوارق عثمانية واستولوا على أسلحتها ، فأمر السلطان بإحراق بقية الزوارق حتى لا تقع فى أيدى الأعداء . لقد استطاع المجريون تحقيق النصر الحاسم على العثمانيين بفضل القائد الصليبى المحنك كابستراتو الذى تمكن من تعزيز وتدعيم القوات المحاصرة وأصلح جميع التلفيات التى أصابت الأسوار بسرعة وأعاد المدافع إلى مواقعها . غير أن السلطان الذى استاء من الهزيمة ، صمم على الإستيلاء على القلعة فقاد الانكشارية ليلاً واستطاع دخول المدينة من طرفها الجنوبى ووجدها خاوية بعد أن انسحب هونيادى وقواته من خلف

الأسوار ، ولما انتشرت الانكشارية فى دروب المدينة بحثًا عن الغنائم وهم يصيحون بهتافات النصر انقض عليهم المجريون وأعملوا فيهم القتل . أما من تبقى من الانكشارية أحياء فقد حوصروا ووضع هونيادى وكابسترانو أكواماً من الحطب أمام خنادقهم وأشعلوا فيها النيران فى صبيحة اليوم التالى فمات الكثيرون منهم محترقين بعد أن عجزوا عن الفرار . وهكذا تشتت شمل فرق العثمانيين أمام العدو وتركت مدفعية الحصار وتراجعت إلى خط الدفاع الثالث أمام خيمة السلطان الذى تلقى ضربة سهم فاضطر إلى الإنسحاب من أرض المعركة بعد أن أمر بقتل أغا الانكشارية على الفور ، وبعد أن غنم العدو عدداً كبيراً من المدافع والذخيرة والمؤن .

لقد ابتهجت أوروبا كلها لهذا النصر العظيم للمسيحية ، ولكن ما لبث هونيادى وكابسترانو أن قضيا نحبهما على إثر الوباء الذى اجتاح بلجراد بعد الحصار ، وبعد عدة شهور عشية عيد الميلاد مات أيضاً جورج برانكوفيتش وهو فى ريعان شبابه . أما الصرب فقد أصبحت مقسمة بين العثمانيين والمجريين وقامت بين الطرفين النزاعات الدينية والسياسية ، ولكن استطاع السلطان ضمها إلى الإمبراطورية العثمانية بعد أن أنفذ إليها حملتين متواليتين ، ووضع بذلك أساس قاعدة ترتكز عليها توسعاته تجاه الشمال ، وظلت فى أيدى العثمانيين قرابة خمسة قرون .

وخلال عام ١٤٥٧ وفى أعقاب نفاذ ذخيرته فى أثناء الإنسحاب المهين من بلجراد ، لم يخرج السلطان على رأس حملات عسكرية جديدة وظل فى القصر الذى شيده حديثاً فى أدرنة فى جزيرة نهر ماريتزا حيث كان قصره فى استانبول لا يزال فى مرحلة البناء . وقد أقام السلطان احتفالاً ضخماً فى هذا القصر بمناسبة ختان إبنيه بايزيد حاكم أماسيا ومصطفى حاكم مغنيسيا حضره جمع كبير من السفراء الأجانب ورجال الدين والأدب من جميع أنحاء البلاد .

وفى العام التالى ١٤٥٨ خرج السلطان على رأس أولى الحملات لإخضاع اليونان حيث لجأ إليها عدد كبير من الطبقة الحاكمة البيزنطية وأقاموا حكمًا استبداديًا فى المورة بزعامة اثنين من حكام أسرة باليولوج وهما ديمتريوس وتوماس وهما أشقاء الإمبراطور قنسطنطين آخر أباطرة بيزنطة ، وكان هذا الحكم غير الشرعى يشمل المنطقة الممتدة من باتراس فى الغرب إلى ميسترا فى الشرق ، وتعهد الشقيقان بدفع الجزية للسلطان ، ولكن سرعان ما دب النزاع بينهما فتقدم السلطان بحملته وعبر خليج كورنثة ووصل إلى غرب المورة بدون مقاومة تذكر من الأهالى حيث فشل هذا الحكم الضعيف فى استثارة شعورهم القومى . وقد استطاع السلطان الإستيلاء على جزء كبير من غربى المورة وواصل سيره إلى الشمال ثم عرض على السكان أن يسلموا دون أن يعتنقوا الإسلام ، وحينما رفضوا حاصر أسوار قلعة كورنثة وسلط نيران مدافعه عليها وعلى المدينة ، وبعد أن دمر اثنين من الأسوار الثلاثة للقلعة اضطرت الحامية إلى التسليم ، وأصبحت القلعة تحت سيطرة الانكشارية مما اضطر أمراء باليولوج إلى توقيع معاهدة مع العثمانيين تنازلوا فيها عن الأقاليم التى كانت تحت سيطرتهم باستثناء مناطق محدودة مع إستمرار دفع الجزية .

وقام السلطان فى أعقاب هذه الحملة الناجحة بزيارة لمدينة أثينا التى كان الأتراك قد انتزعوها من الدوق فلورنتين منذ عامين سابقين ، وكانت تعرف عند العثمانيين بمدينة الحكمة ، وكان السلطان من المعجبين بتراثها الكلاسيكى وبآثارها وخاصة الأكروبولس (١) ، ولذلك عامل الاثينيين بسماحة وترك لهم الحريات المدنية وأعفاهم من الضرائب ، وبعد تدهور

---

(١) الأكروبولس أو الأكروبول هو إحدى قلاع أثينا القديمة وقد أقيم على ربوة عالية وكان هناك قصر يتبع هذه القلعة ولكن دمره الفرس فى الحروب الميدية .
أنظر : La Rousse , p . 1095

الكنيسة اللاتينية أصبح لهم وضعية خاصة وتمتعت الطبقة الكهنوتية الأرثوذكسية بإمتيازات كثيرة .

وبعد فترة قصيرة عاد النزاع مرة أخرى بين الأميرين المخلوعين من أسرة باليولوج بعد رحيل السلطان ، إذ كان ديمتريوس يؤيد العثمانيين والمعاهدة الموقعة معهم ، في حين كان توماس يرفضها وصمم على طلب معونة عسكرية من البابا ، فاضطر السلطان في ١٤٦٠ إلى الخروج على رأس حملة جديدة إلى اليونان . وكانت الحملة ناجحة وسلم ديمتريوس مدينة ميسترا إلى السلطان باستثناء بعض المناطق المحيطة بها وفيها مدينة مونمفاسيا التي ظلت تقاوم العثمانيين بمساعدة القوات البابوية ، أما عن مصير الشقيقين ديمتريوس وتوماس فقد هرب الأول ولجأ الثاني إلى الغرب بعد أن نجح في النجاة من مطاردة قوات السلطان تاركاً شعبه فريسة للغزاة . وهكذا بسط العثمانيون سيطرتهم على جميع شبه الجزيرة اليونانية باستثناء بعض المواقع الساحلية التي ظلت في أيدي البنادقة .

لقد أصبحت اليونان منذ هذه الحملة خاضعة للحكم العثماني الذي حل محل نظام الإقطاع الغربي ، وقد عامل العثمانيون اليونانين بكل تسامح ولم يثقلوا كاهلهم بالضرائب ، كما تم إعفائهم من ضريبة الغلمان وتمتعوا بحرية التجارة وبحرية اختيار الحكم المحلي الذي يرغبونه . وبرغم ذلك كانت المسيحية الغربية تفضل أن ترى اليونانيين في وضع سيء في ظل الكفرة العثمانيين وكانت ترغب في عودتهم إلى حكم اللاتين ، وبمرور الوقت أصبحت اليونان هي هدف التعصب اليوناني الصليبي الأوروبي وحلت محل القسطنطينية والأراضي المقدسة .

لقد كان السلطان محمد الثاني يرغب في بعث الإمبراطورية البيزنطية من جديد ولكن في ظل الحكم العثماني وعلى النسق العثماني ، فقرر ألا يترك أي يوناني بيزنطي من أفراد الأسرة الحاكمة السابقة على قيد الحياة ، ونجح

فى التخلص من أسرة باليولوج ثم استدار إلى أسرة آل كومنين (١) وقرر القضاء على إمبراطورية طرابذون التى أقامها الإمبراطور جون الرابع والذى كان يدفع جزية سنوية للسلطان العثمانى ، ولكن عند وفاته خرق ابنه الأصغر داڤيد هذا الاتفاق وقرر إقامة تحالف ضد العثمانيين من البندقية وجنوة والبابوية وأمير التركمان أوزون حسن زعيم قبيلة الشاه البيضاء المسلم ذو الأصل المسيحى ، والذى كان على صلة مصاهرة بآل كومنين وكان من أشد المعارضين للحكم العثمانى فى شرق الأناضول ، وقد استطاع أوزون حسن ضم جميع الأمراء الأتراك الآخرين إليه فى سينوب وقرامان وملوك چورچيا المسيحيين .

وقد طلب داڤيد من السلطان إلغاء الجزية التى كان والده يدفعها وذلك عن طريق بعثة من سفراء أوزون حسن إلى استانبول والذين كانوا قد تقدموا فى ذات الوقت بطلبات مبالغ فيها للسلطان ، وهنا شعر الأخير بأن الوقت قد حان للقضاء على هذا التحالف غير المقدس ولإعادة الاستقرار إلى منطقة الأناضول بضمها للحكم العثمانى ، فأرسل فى عام ١٤٦١ حملة تأديبية إلى آسيا برية وبحرية ، ونجح فى البداية فى الإستيلاء على ميناء أماستريس وهو آخر موانئ جنوة التجارية على البحر الأسود ، ثم استولى على سينوب بدون قتال ، ثم واصل سيره إلى إقليم أوزون حسن الذى لم يتمكن من الحصول على أى مساعدة عسكرية من حلفائه القرمانيين فتراجع فى اتجاه الشرق ، وذهبت والدته الأميرة سارة ، وهى مسيحية من أصل سورى ، إلى السلطان محملة بالهدايا وعقدت معه معاهدة سلام تعهد فيها أوزون حسن بألا يمد يد المساعدة لأمراء آل كومنين فى طرابذون ، ولكنها حينما حاولت إثناء السلطان عن عزمه لمهاجمة المدينة كان رده : « أيتها الأم ، إن

---

(١) آل كومنين هى أسرة حاكمة بيزنطية حكمت فى الفترة من ١٠٥٧ إلى ١١٨٥م ، ومن أبرز أباطرتها الكسيس الأول وچون الثانى ومانويل الأول والكسيس الثانى وأندرونيقاس الأول آخر الأباطرة .

أنظر : La Rousse , p . 1262

سيف الإسلام فى يدى » . وواصل السلطان سيره بعد ذلك على رأس الحملة العسكرية وعبر ممر جبل بونتيك ، بينما كان أسطوله يحاصر طرابذون بحراً ولكن دون جدوى . وبعد ثمانية عشر يوماً من السير وصل الجيش العثمانى بقيادة محمود باشا الصدر الأعظم إلى أسوار المدينة ، ولكن الجيش لم يكن مجهزاً بمدفعية الحصار ولا بالعدد الكافى من الفرسان ولا بما يلزم من الإمدادات ، كذلك كان الإمبراطور داڤيد الذى افتقد القدرة القتالية والحليف القوى يخشى فى ذات الوقت أن تتحول مدينته إلى خراب كما حدث للإمبراطور قسطنطين من قبل ، ولذلك فضل السلام والعيش الآمن واستجاب لعروض الصدر الأعظم التى أرسلها مع شخصية يونانية كبيرة ، كما أظهر السلطان تعاطفاً كبيراً مع توسلات الأميرة سارة . وكانت النتيجة هى التوصل إلى معاهدة سلام مهينة لليونانيين ، ودخل الجيش العثمانى بمقتضاها إلى طرابذون بدون مقاومة ، ورحل عنها آخر الأباطرة مع أسرته وموظفى البلاط حاملين معهم الذهب والمقتنيات الشخصية الثمينة على متن سفينة خاصة تحت رعاية السلطان إلى استانبول ، وكافأ السلطان الأميرة سارة على دور الوساطة الذى قامت به بمنحها هدية ثمينة من المجوهرات .

هذا وقد تعرض سكان المدينة لمعاملة غير متسامحة من جانب الجيش العثمانى إذ تحول الشباب الذكور والإناث إلى عبيد واقتسمهم السلطان وكبار رجال الدولة ، وأدرج الغلمان ضمن فرق الانكشارية ، وصودرت ممتلكات أعداد كبيرة من الأسر ثم تم ترحيلهم إلى استانبول للمشاركة فى تعميرها . وفى خلال العامين المتبقين لآل كومنين قام الإمبراطور داڤيد بتدبير الدسائس والمؤامرات سراً ضد العثمانيين بالتعاون مع أوزون حسن لذلك سجنه السلطان فى الأبراج السبعة داخل استانبول ، وبعد عدة شهور قُتل هو وأسرته المكونة من شقيقه وأبنائه السبعة وصهره ، وأمر السلطان بأن تظل جثثهم مطروحة للكلاب الضالة والطيور لتنهشها .

وهكذا استطاع السلطان من خلال حملته على طرابذون أن يضم غالبية

الساحل الشمالى لآسيا الصغرى بالإضافة إلى ثلاثة موانئ مهمة على البحر الأسود .

وفى عام ١٤٦٤ أنفذ العثمانيون حملة أخرى إلى إقليم قرامان بعد وفاة حاكمه إبراهيم بك وتفرق حكمه بين سبعة من أبنائه ، ونجح العثمانيون فى ضم منطقة قرامان كلها بعد أن ظلت تشكل منافسًا خطيراً لهم على مدى ١٥٠ عامًا ، كما أدى هذا النجاح إلى إمتداد السيطرة العثمانية على مدينة سلوقية (أطنة حاليًا) الواقعة على الساحل الآسيوى للبحر الأبيض المتوسط .

وبعد أن ضمن السلطان تأمين حدوده من جهة الشرق عاد إلى الاهتمام بالغرب مرة أخرى ، وكانت شبه جزيرة البلقان هى الهدف هذه المرة ، وكان لابد من إحكام السيطرة عليها من جميع الجهات لكى تتم السيطرة العثمانية عليها كما حدث فى شبه الجزيرة اليونانية ، فكانت الخطة السلطانية تقوم على مهاجمتها من جهة غرب أوروبا ، من ولاشيا الواقعة شمال نهر الدانوب والتى كانت تحت حكم ڤلاد دراكول ، وليس المقصود هنا دراكولا أحد عجائب التاريخ المشهور بوحشيته والذى صورته الأساطير المعاصرة كأنه الشيطان . ولم تكن هناك مشاكل بين دراكول وبين العثمانيين طالما كان يدفع الجزية المقررة ، وطالما لم يتعرض لجيرانه بالأذى ، إلا أنه فى عام ١٤٦١ قام بتكوين تحالف ضد الأتراك مع الملك ماتياس كورڤيناس الذى خلف هونيادى فى حكم المجر ، وامتنع عن دفع الجزية المقررة ، فأصدر السلطان تعليماته إلى الصدر الأعظم محمود لإغراء دراكول بالحضور إلى استانبول حتى يتمكن من أسره ، ولكن الأمور سارت بشكل عكسى إذ إستطاع الحرس الخاص لدراكول القبض على الرسول التركى والقائد ووضعوهما على الخازوق ، ثم عبر دراكول الدانوب إلى بلغاريا على رأس جيش اجتاح به بعض المناطق العثمانية وقتل الكثير من سكانها .

وقد قاد السلطان جيشاً ضخماً وتوجه إلى ولاشيا للانتقام من دراكول ، وفى الطريق شاهد غابة من الجماجيم وبقايا ٢٠ ألفًا من البلغاريين والعثمانيين من الذين وضعهم دراكول على الخازوق حتى يجعلهم عبرة

للناس ومبعثًا للسرور الشخصي وتهذيبًا لجيرانه ، واستطاع السلطان برغم إستيائه من هذه الأمور غير المألوفة لديه أن يهزم العدو وساق دراكول إلى المنفى في مولداڤيا ، كما استطاع قائد الحملة قتل ألفين من أتباع دراكول وأرسل رؤوسهم إلى سيده السلطان . وقد حل رادو شقيق ڤلاد دراكول كحاكم على ولاشيا ، وكانت تصرفاته الطيبة مثار إعجاب السلطان ولذلك اعتبره من أفضل الحكام التابعين له ، وأصبحت ولاشيا في ظل حكمه ولاية تابعة للعثمانيين ولكنها لم تعامل كولاية عثمانية .

على أن الأمور تأزمت مرة أخرى في ولاشيا حينما ظهر منافس لرادو يدعى ستيفن في مولداڤيا ، وكان على شاكلة هونيادى ، ونجح فى طرد رادو وقضى على أكثر من محاولة لإعادته إلى السلطة من جانب العثمانيين ، غير أن السلطان استطاع القضاء على ستيفن بواسطة جيش من التتار جمعه من شبه جزيرة القرم بعد أن استولى أسطوله على مستعمرة جنوية في البحر الأسود . وبرغم أن العثمانيين رحلوا عن مولداڤيا فإن خطرهم تجدد مرة أخرى من ناحية دلتا نهر الدانوب وشكلوا خطراً على المجر ، ولكن التهديد المجرى لترانسلڤانيا جعل السلطان يتراجع عن مولداڤيا ولا يمد سيطرته عليها .

وخلال عام ١٤٦٣ وجه السلطان حملاته إلى شمال غرب البوسنة ، وكانت من المناطق التى تدفع الجزية للسلطان ثم تحالفت مع الصرب ، وقد أراد السلطان أن يتخذها قاعدة لهجوم جديد تجاه الغرب . وكانت البوسنة تعانى من إنقسامات داخلية بسبب الخلافات الدينية السائدة بها ، فقد كانت أرثوذكسية ثم تحولت إلى الكاثوليكية فحظيت بدعم قوى من البابوية ، كذلك قامت بها جماعة من الهراطقة المعروفين باسم Bogomils (١) وقد حاول البابا إصلاحهم من خلال بعثات الفرنسيسكان الإرسالية ولكنهم

---

(١) البوجوميل مجموعة من المنشقين على الكنيسة الكاثوليكية ، وظهروا فى المجر والبوسنة واتخذوا مذهباً يشابه الكلفينية ، ولذلك أطلق عليهم الهراطقة .

أنظر : La Rousse , p . 1760

دخلوا فى علاقات صداقة مع العثمانيين وطلبوا حمايتهم فى ولاياتهم ، ومن ثم صار العثمانيون يعلمون كل شئ عما يجرى داخل البوسنة من خلالهم وتوددوا إلى الفلاحين البوسنين ووعدوهم بالحرية . ومنذ عام ١٤٦١ والملك ستيفن Stephen البوسنى يتوقع هجومًا من السلطان الذى كان يمتلئ شراهة لضم أقاليم جديدة وأطماعه لا تقف عند حد ، ولذلك طلب مساعدة البابا وأوضح له الخطر المحدق بولايته وبالمجر والبندقية وأجزاء أخرى من إيطاليا بل وبروما نفسها التى طالما تحدث عنها السلطان وود إمتلاكها .

وقد أرسل البابا مبعوثًا بابويًا توج ستيفن ملكًا ومارس ضغوطه على ملك المجر لتسوية خلافاته مع البوسنة ثم طلب من ستيفن عدم دفع الجزية للعثمانيين مما أثار غضب السلطان ، فأرسل جيشًا إلى البوسنة ونجح فى الإستيلاء على قلعة بوبوفاتس المهمة ، ثم قام بتقسيم السكان إلى ثلاث مجموعات : الأولى تظل فى المدينة والثانية توزع على الولايات العثمانية الأخرى والثالثة ترسل إلى استانبول للمساهمة فى زيادة عمرانها البشرى . وبعد ذلك أرسل السلطان الصدر الأعظم محمود باشا مع قوة من الحرس لأسر الملك ستيفن والإستيلاء على القلعة التى احتمى بها مع قواته ، ولكن الأخير سلم نفسه وقبل شروط محمود على أن يبقى على حياته . غير أن هذا الوعد أزعج السلطان لأن سياسته كانت قائمة على استئصال أسرة أى أمير حاكم يهزمه ، ولكنه استشار رجل دين فارسى فأفتى بأنه بمقتضى الشرع الإسلامى لا يوجد ما يبرر الإبقاء على حياة الكافر بناء على وعد من قبل شخص تابع للسلطان ، وأن السلطان نفسه غير ملزم بتنفيذ هذا الوعد ، فقطعت رأس ستيفن آخر ملوك البوسنة وقام بتنفيذ هذه المهمة رجل الدين الفارسى بنفسه ، وأصبح الوالى العثمانى هو الحاكم فى البوسنة وحظى بقبول الهراطقة البوجوميل واعتنق عدد كبير منهم الإسلام .

أما المنطقة الجبلية المجاورة والمعروفة باسم الجبل الأسود والتى كانت تتمتع بإستقلال مؤقت تم ضمها بصفة نهائية إلى الإمبراطورية العثمانية بواسطة بايزيد ابن السلطان محمد . ولم يتبق خارجًا على سلطة السلطان

سوى ألبانيا فى المنطقة التى أصبحت تشكل الممتلكات العثمانية فى البلقان والواقعة بين ساحل دالماثيا والجزر الإيطالية ، وكان عليها إسكندر بك الذى لقبه البابا بـ « حامى المسيح » ، وكان يستعين بالمجريين والبنادقة والدويلات الإيطالية ضد العثمانيين لعشرين عامًا مضت . وكانت الطبيعة الجبلية الوعرة لألبانيا وخشونة طباع سكانها قد جعلتها قادرة على التمتع بالإستقلال لفترة طويلة . وإذا أضفنا إلى ذلك تحالف السكان مع إسكندر بك واختياره زعيمًا عليهم لأدركنا أسباب فشل الحملات العثمانية المتعددة عليها فى عهد السلطان محمد الثانى . ولكن السلطان صمم على قهر ألبانيا فقاد بنفسه جيشًا ضخمًا فى عام ١٤٦٦ وقامت قواته الإستطلاعية بتخريب المنطقة المحيطة بها ، ثم تقدم لمحاصرة قلعة كروا الصخرية Croia ، وعندما طال أمد الحصار بفضل مناعة القلعة وشجاعة حاميتها ، تقدم إسكندر بك على رأس قوة ضخمة وشتت شمل المحاصرين العثمانيين وكبدهم خسائر فادحة وقطع عليهم خط الإمدادات ، فرحل السلطان وترك قادته ليكملوا المهمة ولكنهم أجبروا على الإنسحاب بعد فترة قصيرة . ولكن السلطان عاد إلى مهاجمة ألبانيا فى العام التالى بعد أن شيد قلعة فى منطقة قريبة داخل حدوده تعرف بـ إلباسان ، ونجح فى السيطرة على منطقة دوراز بعد أن هرب سكانها بالآلاف إلى إيطاليا ، وبرغم ذلك ظلت قلعة كروا عقبة فى طريق تقدمه إلى البلاد ، وظل الحال كما هو حتى توفى إسكندر بك فى عام ١٤٦٧ وانقسمت القبائل الموالية له ، وتذكر الرواية التاريخية أن السلطان صاح حينما علم بنبأ وفاة إسكندر بك قائلاً : « لقد أصبحت أوروبا وآسيا ملكًا لى ، تعسًا للمسيحية ، لقد فقدت السيف والدرع » .

والآن أصبحت الإمبراطورية العثمانية فى حرب مفتوحة مع جمهورية البندقية التى أورثها إسكندر بك ممتلكاته ، حيث تنازعت الدولتان حول السيادة البحرية واستمر العداء بينهما لست عشرة سنة . وخلال هذه الحرب كان السلطان يقوم بحملات موسمية على آسيا لأن الضغوط زادت عليه بعد قيام تحالف بين البندقية وبعض الولايات البابوية وغيرها من الولايات المسيحية

من خلال العلاقات الدبلوماسية مع أوزون حسن زعيم قبيلة الشاه البيضاء ، لقد كان الغرب يستجدى الشرق ليتحدا ضد الزحف العثمانى ، وكان أوزون حسن على إستعداد تام لتلبية نداءات الغرب حيث كان يرغب فى الإقتداء بتيمورلنك فأعد العدة للقيام بحملة ضخمة على وسط الأناضول بمساعدة الأناضوليين والقرمانيين الذين طردهم السلطان محمد من ممتلكاتهم والذين كانوا يرغبون فى إستعادة حكمهم . وقد نفذ أوزون خطته وجمع جيشه فى أرزنچان وهاجم حلفاؤه طوقات وهدموها ثم هاجموا آماسيا التى كان يحكمها بايزيد ابن السلطان ولكنهم فشلوا فى الإستيلاء عليها ، ثم استولوا على قيسارية واجتاحوا إقليم أنقرة وخربوه ثم اتجه غربًا إلى اسكيشهر . وأصبحت الفرصة مهيأة الآن أمام العثمانيين للانتقام ، وكما سبق الصراع مع تيمورلنك تبادل رسائل التهديد بين الحاكمين ، كان التهديد والوعيد بين أوزون حسن والسلطان محمد الثانى فقد أرسل الأول إلى الثانى ما يفيد أنه لا يخشى أحدًا وأنه الحاكم الأوحد لفارس ، ورد السلطان بالتوبيخ والتحذير من السقوط فى الهاوية . وفى خريف عام ١٤٧٢ استطلع السلطان رأى الفلكيين – كما هو مألوف– قبل اتخاذ قرار الخروج للقتال ، ثم عبر آسيا بجيش جرار متجهًا ناحية الشرق ، وقضى فصل الشتاء فى أماسيا ثم تحرك فى الربيع تجاه ارزنچان ، وقد بهت أوزون حسن أمام الشلال العثمانى الهادر ولم يكن أمامه إلا الإستعداد للمواجهة فجعل الجناح الأيمن لقواته فى أعالى الفرات ، والمؤخرة جهة الجبال ، بينما وضع السلطان فى تراچان أفضل قادته مثل مراد باشا حاكم الروملى ، وهو من أسرة باليولوج ، على رأس قوات الفرسان التى تخيرها بعناية ، ولكنه فشل فى مواجهة العدو ولقى حتفه غرقًا فى مياه الفرات . وقد استاء السلطان من هذه الهزيمة ووجه اللوم للصدر الأعظم محمود الذى أصدر أوامره بالإنسحاب فى أعقاب مقتل القائد مراد باشا ، ويقال أنه اشتبك فى معركة فردية مع أوزون حسن الذى سقط على الأرض ، ولكنه استرد قوته ووجه له ضربة قوية فى الصدر . على أية حال انسحب محمد بجيشه فى اتجاه الجبال شمال ارزنچان ثم ظهر أوزون حسن وبدأت المعركة فى

بشقند واستمرت ثمانى ساعات انتهت بهزيمة زعيم قبيلة الشاه البيضاء وتشتت جيشه وبلغت خسائره عشرة إلى واحد بالنسبة لخسائر العدو ، ثم استولى العثمانيون على معسكر أوزون حسن وجميع أمتعته وقضى السلطان ثلاثة أيام على أرض المعركة ليراقب قتل الأسرى ، ولم يبق إلا على مجموعة من العلماء وأصحاب الحرف وأرسلهم إلى استانبول ، ويذكر أنه كان يتم قتل ٤٠٠ أسير كل يوم .

على أن هزيمة أوزون لم تكن حاسمة ، فقد عاد رجال قبيلة الشاه البيضاء إلى الانتشار فى منطقة واسعة بعد فترة قصيرة وتجددت علاقاتهم الدبلوماسية مع البندقية مرة أخرى ، ولكن السلطان لم يسمح بتجدد الاضطرابات بشكل أو بأخر حتى وفاة أوزون فى عام ١٤٧٨ م .

ومن جديد توجه السلطان إلى ألبانيا بعد أن علم بوفاة إسكندر بك ، وقد جعل قيادة الجيش للطواشى البوسنى سليمان باشا الذى نصب معسكره فى مواجهة قلعة مدينة سكوتارى فى منطقة صخرية معزولة ترتفع ٤٠٠ قدم عن سطح البحر على ساحل البحر الأدرياتيكى وذلك حتى يؤمن عملياته العسكرية . وكان كل شئ فى هذا البحر تابعاً للبندقية بالإضافة إلى عدد من زوارق الصيد فى بحيرة سكوتارى خصصت لتوفير المواد الغذائية للمدينة . واستمر حصار السلطان للموقع لستة أسابيع ، وقامت المدفعية بدورها فى ضرب الأسوار التى تحول جزء كبير منها إلى أكوام من التراب ، أما المعركة الرئيسية فقد كانت شرسة وتكبد فيها العثمانيون آلاف القتلى ومن بينهم عدد كبير من القادة العسكريين بالإضافة إلى آلاف الجنود الذين ماتوا من العطش والحمى التى انتشرت بينهم ، وانتهت برفع الحصار وتدمير المدافع وحمل بقاياها على ظهور الإبل وعودة الجيش العثمانى من حيث أتى . أما سكان سكوتارى الذين مات منهم الكثير من جراء شرب الماء الفاسد فقد أيقنوا أن المعركة لم تنته وأن عودة العثمانيين مرة أخرى مؤكدة . وبالفعل عاد العثمانيون إلى ألبانيا بعد ثلاثة أعوام وضربوا الحصار من جديد حول قلعة كروا التى اشتهرت باسم « وكر الصقر » وسقطت بعد عام من الحصار نتيجة

انتشار المجاعة بين سكانها الذين تناقصت أعدادهم بشكل واضح حيث كانوا يلجأون إلى أكل لحوم الكلاب والقطط ، ثم أبيحت المدينة للعثمانيين وقطعت رؤوس عدد كبير من السكان بناء على أوامر السلطان . ولم يتبق أمام السلطان في المنطقة الغربية سوى مدينة سكوتاري بعد أن أحرق العثمانيون قراها وقلعتها بواسطة الفرق غير النظامية وشوهدت ألسنة اللهب وأعمدة الدخان تتصاعد منها ، ثم أكملت المدفعية مهمتها وقذفت المدينة بقذائف متوهجة صنعت من خرق مبللة بالزيت والقطران ، وكانت تحدث دماراً هائلاً ، وأمام هذا الهجوم لجأ شيوخ المدينة وأطفالها إلى الإحتماء بمخازن منازلهم ، بينما قام القادرون بمقاومة هذه النيران بتنظيف أسطح المنازل حتى لا تنتشر . وقد خاض الأتراك معركتين رئيسيتين ولكن لم يحالفهم النجاح ، ولذلك قرر السلطان أن ينسحب بجيشه الجرار بعد أن ترك قوة لمحاصرة قلعة المدينة ، وظل السكان يعانون من الجوع نتيجة الحصار الذى فرض عليهم فكانوا لا يجدون سوى الخبز والماء ولم يجد البعض الآخر فى المناطق الأخرى سوى لحوم الفئران والجرذان .

وقد ترك وصول العثمانيين إلى ساحل دالماشيا صدى هائلاً فى الأراضى الإيطالية حيث ساد الهلع والفزع السكان ودقت أجراس الكنائس وخاصة فى كنيسة القديس مارك بالبندقية معلنة التحذير ، وكان العثمانيون قد انتشروا فى هذه الأثناء من أودية البوسنة وخربوا فى طريقهم المناطق الجبلية فى المجر ، ثم اتجهوا غرباً خلال عام ١٤٧٧م عن طريق قوة من الفرسان إلى فريولى Friuli (١) الواقعة عند رأس شبه الجزيرة الإيطالية حيث أعملوا السلب والنهب فى المدن والقرى الواقعة فى إيسونزو وتاجليامنتو وأوقعوا الهزيمة بالبنادقة فى منطقة سهلية فى شمال البندقية ، ثم واصلوا تقدمهم إلى ضفاف نهر بياڤا

(١) فريولى مدينة فى البندقية خضعت لفترة طويلة للنمسا ، وكانت فى بعض الفترات وخاصة خلال القرن السابع عشر تنعم بالإستقلال ومعها منطقة تريستا .

أنظر : La Rousse , p . 1355

Piava (١) حيث تركوا آثار الدماء والخراب فى القرى القريبة من كنيسة القديس مارك ، وفى الخريف انسحبوا محملين بالغنائم وتركوا خلفهم النيران مشتعلة فى القصور والمباني والقلاع .

وفى العام التالى تجددت الغارات على نطاق واسع فى منطقة أيسونزو وقت نضوج المحصول حيث نشر عشرات الآلاف من الجنود العثمانيين غير النظاميين الرعب فى البلاد مرددين الهتافات « بسم الله ، محمد ، محمد ، روما ، روما » . وكان التقدم العثمانى فى إيطاليا يمثل خطورة هائلة على المسيحية لأن الأتراك كانوا فى عنفوان قوتهم ، ولم يكن من سبيل أمام البنادقة سوى اللجوء إلى طلب السلام عارضين بعض الشروط التى قبلها السلطان فى عام ١٤٧٩م وتضمنت إمتلاك العثمانيين لسكوتارى وكروا وجزر لمنوس والجبل الأسود ومانى وهى شبه جزيرة جبلية تقع جنوب المورة . كما استرد العثمانيون مناطق أخرى من البندقية كانت قد أخذتها منهم بطريق الحرب التى دامت ستة عشر عامًا بين الدولتين ، وفى المقابل منح العثمانيون البنادقة حق سحب حامياتهم وأسلحتهم وذخائرهم بحرية تامة ودون تدخل ، كذلك أعاد العثمانيون للبنادقة المناطق التى استولوا عليها فى المورة وألبانيا ودلماشيا ، ثم فرضوا عليهم جزية سنوية كبيرة فى مقابل التمتع بحرية التجارة ، وأقيمت لهم قنصلية فى استانبول لحماية الحقوق المدنية لرعاياهم . وهكذا نجح السلطان محمد فى إجبار أقوى وأعظم قوة بحرية فى البحر المتوسط على التصالح معه ، ونجح فى تطهير البحر المتوسط بالأسطول العثمانى وإعداده لحملة تالية عن طريق تجهيز جيش بقيادة جديك أحمد باشا . وبعد عدة شهور من التصديق على اتفاق السلام مع البنادقة تمكن السلطان من الإستيلاء على بعض الجزر الأيونية وجعلها قاعدة بحرية لأى هجوم محتمل

---

(١) نهر بيافا من الأنهار الهامة فى إيطاليا فى البندقية وينبع من جبال الألب ويصب فى الإدرياتيكى ويبلغ طوله ٢٢٠ كيلو مترًا .

أنظر : La Rousse , p . 1663

على السواحل الإيطالية .

وتجدد الهجوم العثماني بالفعل في عام ١٤٨٠م وكان على مدينة أوترانتو هذه المرة وهي تقع في مضيق جنوب شبه الجزيرة الإيطالية وقد وقع الاختيار عليها بدلاً من مدينة برانديزي التي كان السلطان يخطط للإستيلاء عليها في البداية ليجعلها خط دفاع ساحلي ، وقد أدى الهجوم الخاطف من جانب الفروسية العثمانية إلى انتشار الحرائق وبحار الدماء ، وإلى الإستيلاء على المدينة وقتل ثمانمائة من السكان لأنهم رفضوا اعتناق الإسلام وقد اعتبرتهم البابوية من القديسين بعد ذلك ، واستباح العثمانيون سلب ونهب المناطق المحيطة ودخلوا برانديزي وليسي وتارانتو ولكنهم واجهوا مقاومة شرسة في نابولي . أما أوترانتو التي كان السلطان يعتزم اتخاذها قاعدة للهجوم على إيطاليا فقد هجرها سكانها حتى لا يحصل المحتلون على الإمدادات من المواد الغذائية ، ولذلك انسحبوا منها ولم يتركوا سوى حامية صغيرة تصلها الإمدادات البحرية من الساحل الأدرياتيكي وربما كان ذلك بالاتفاق مع البنادقة .

وقد انتشرت الشائعات التي تقول بأن السلطان محمد سيقود جيشاً بنفسه ويأتي إلى إيطاليا فتملك الخوف من البابا وهرب لاجئًا إلى أفينيون (في جنوب فرنسا) ثم حشد المساعدة العسكرية من جنوة وأسبانيا والبرتغال . على أن السلطان وجيشه فشلا في تحويل هذه الشائعات إلى حقيقة لأنه صرف اهتمامه إلى جهة أخرى شرقية وهي جزيرة رودس وانسحب من الأراضي الإيطالية .

كان يسكن قلعة جزيرة رودس الفرسان الاستبارية أو فرسان القديس يوحنا بقايا الحروب الصليبية ، وتعتبر هذه الجزيرة خط الدفاع الأول عن الأناضول والقوات البحرية العثمانية شرقي البحر المتوسط ، وكان يقود هؤلاء الفرسان قائد مغوار يدعى بيير دوبوسون حصّن القلعة بشكل قوي لأنه كان يتوقع الهجوم العثماني منذ عدة أعوام ، فزودها بإمدادات تكفي لثلاثة أعوام وعقد تحالفات مع الحكام المسلمين في مصر وتونس ، واتخذ السكان إحتياطيات دفاعية كافية ، وبالفعل قام الأسطول العثماني بقيادة مسيح باشا ،

وهو سليل أسرة باليولوج ، بدفع قوة استكشافية من الفرسان إلى شمال غرب الجزيرة فى شتاء عام ١٤٧٩ ، ولكنها تعرضت لهجوم مفاجئ من حامية القلعة مما أصابها بخيبة الأمل ، فعاد مسيح بقواته إلى سيخوس (مارماريز) الواقعة فى الجهة المقابلة لينتظر قدوم القوات العثمانية الرئيسية فى الربيع ، وبالفعل وصل فى الموعد المحدد جيش قدر بسبعين ألف مقاتل قادمًا من المضايق وتبعه أسطول بحرى مكون من خمسين سفينة تحمل المدفعية الثقيلة .

وبعد عدة أسابيع من القذف المدفعى والمقاومة الشرسة بدأت المعركة الرئيسية فى الأسبوع الأخير من شهر يولية ، فى نفس اليوم الذى نزل فيه العثمانيون إلى أوترانتو من قبل ، واستمر القتال الذى كان يبدأ من الفجر حتى الغروب ، وكما هو مألوف عند العثمانيين كان يتم الإعلان عن المعركة فى اليوم السابق عن طريق المزامير ودقات الطبول لرفع الروح المعنوية للجنود وللتأثير السلبى على العدو ، وكان فرسان الإستبارية يردون بدقات الطبول وأجراس الكنائس ، ثم أطلق العثمانيون الرسائل إلى العدو فى القلعة تعلن عن أن الباشا رفع العلم الأسود وأن المدينة ستباح للسلب والنهب وأن سكانها سيتعرضون للقتل أو الإستعباد ، وعلى إثر ذلك انطلقت موجات الباشبوذوق (الجنود غير النظاميين) وسط الأطلال وصعدوا إلى البرج ونصبوا العلم العثمانى ثم تبعتهم فرق الانكشارية التى كانت تسير فى صفوف متراصة . لقد اعتقد مسيح باشا أن النصر قريب وحظر على قواته القيام بعمليات السلب والنهب لتكون الجزيرة ملكًا للسلطان بكنوزها ، وقد أثر ذلك فى الروح المعنوية للجنود فاستغل الفرسان الاستبارية الفرصة وانطلقوا رافعين الراية المقدسة وراية العذراء وراية القديس يوحنا المعمدان وأغلقوا الطريق المؤدى إلى البرج ، ودخلوا فى معركة شرسة مع العثمانيين وقتلوا الكثيرين منهم حتى إمتلأت الأسوار والخنادق بالجثث ، ونجحوا فى النهاية فى الوصول إلى البرج وقتلوا من فيه وألقوا بالعلم العثمانى إلى الأرض ، وتشتت الجنود العثمانيون وتعقبهم الفرسان وساقوهم أمامهم مثل « الخنازير » كما ذكر أحد المراقبين . وبذلك فشل الهجوم العثمانى ورفع الحصار وتجمعت القوات العثمانية فى

مارماريز تمهيداً للعودة إلى استانبول ، وعُزل القائد العام من منصبه وتولى منصباً أدنى فى غاليبولى ، ولكن بعد أن تحولت مدينة رودس إلى أطلال وظل فوقها الصليب الأبيض صليب القديس يوحنا المعمدان الذى يمثل راية العقيدة المنتصرة ، والذى ظل يرفرف على المدينة لنصف قرن من الزمان .
وهكذا وبعد هذه الحملات المتواصلة التى قام بها السلطان الفاتح أصبح رحيله من الدنيا وشيكاً .

الفصل العاشر

كانت مهمة السلطان محمد الثانى هى خلق إمبراطورية إسلامية جديدة ليس فقط عن طريق تقوية إقليم بيزنطة وتوسيعه ، ولكن من خلال إقامة دولة جديدة فى مؤسساتها وإدارتها وتشريعها وإقتصادها وأوضاعها الإجتماعية . إن الأقاليم المفتوحة والتى تمتعت بنوع من الإستقلال الذاتى فى ظل الحكم العثمانى ومن خلال الولاة العثمانيين والتى كانت تختلف فى أنظمتها أدمجت الآن فى البناء السياسى والإجتماعى للسلطة العثمانية المركزية . لقد كان الحكم العثمانى يمثل حكماً ثيوقراطياً عسكرياً ، كما كان فى بيزنطة ، قائمًا على مبدأ « الحق الإلهى فى السلطة » إذ كان السلطان يتمتع فيه بسلطات مطلقة من خلال جهاز بيروقراطى على أعلى مستوى ، وكان السلطان محمد يحكم قبضته على أجزاء الإمبراطورية حتى لا يستشعر أى تهديد أو منافسة لسلطته الشخصية ، فهو مستخلف من قبل الله فى الأرض ، وهو وحده صاحب الحق فى الحكم والسيادة ، ومن هذا المنطلق الدينى للسلطة وضع نظامًا لقتل الأخوة وقننه وبرره بتحقيق السلامة للدولة والرفاهة للرعية ، وأصبح من حق أبنائه من بعده قتل أشقائهم بشكل قانونى ، وقد لقى هذا التبرير استحساناً من رجال الدين .

ولقد كان الصدر الأعظم نائباً للسلطان وأداة لتنفيذ أوامره السلطانية ، ولكنه حرم ممن حق اتخاذ القرارات المهمة فى الدولة ، وإنما كان يؤدى واجباته فى إطار محدد برغم أن سلطته كانت أكبر من سلطة من سبقوه فى هذا المنصب ، فقد ظل السلطان ، حتى هذه الفترة ، يعقد جلسات الديوان بنفسه ويجلس على المقعد المخصص له كما كان يفعل أجداده فى النظام القبلى داخل الخيام منذ قرون مضت . ولكن بعد فترة معينة تنازل السلطان للصدر الأعظم عن بعض سلطاته وخاصة فيما يتعلق برئاسة جلسات الديوان ، واكتفى بمراقبتها من نافذة صغيرة أطلق عليها « عين السلطان » ، ومن ثم أصبح هذا النظام سابقة عامة لخلفائه .

إن تغيير هذا النظام ارتبط بوقوع حادثة معينة حينما دخل أحد التركمان بشكل خطأ إلى الديوان وسأل بطريقة فيها بلاهة عن من يكون السلطان وأشار

إلى السلطان والصدر الأعظم ، فأثار بذلك غضب السلطان والصدر الأعظم ، ومن ثم تقرر أن تكون شئون الديوان من اختصاص الصدر الأعظم وأصبح يحمل خاتم الدولة وله صلاحيات واسعة ومسئول عن جميع فروع الإدارة المدنية ويشرف على تعيين الموظفين الرسميين وعلى أعمالهم .

وكان البناء المدني الذى على قمته سلطة الصدر الأعظم يقوم على أربعة أعمدة ، وهذا الأمر مأخوذ من الأوتاد الأربعة التى كانت تقام عليها الخيام زمن الأمراء العثمانيين القدامى ، كما أن الرقم (٤) له دلالة مقدسة ، فهو يرمز إلى الملائكة حاملى العرش - كما جاء فى القرآن - ، وإلى صحابة الرسول (ﷺ) وهم الخلفاء الراشدين وإلى الجهات الأربعة الأصلية - وكان الصدر الأعظم يمثل العمود الأول ، ويحمل لقب « باشا » مثل بقية كبار رجال الدولة ، وكلمة باشا تعنى « قدم السلطان » ، فكثير من موظفى البلاط الفارسى القديم كانوا يعينون فى مناصب تحمل أسماء مثل عين الحاكم أو يد الحاكم . وقد تمتع الصدر الأعظم بما يميزه عن بقية الباشوات فى الإمبراطورية وهى أنه كان يضع شارة بها خمسة أذناب للخيول فى حين كان الوزراء الثلاثة الذين يأتون بعده فى الدرجات يضعون ثلاثة أذناب فقط ، وكان هذا الشعار مأخوذاً من الفروسية القبلية فى البرارى التركية القديمة . وتمتع هؤلاء الوزراء الثلاثة بنوع من الإستقلالية فى إداراتهم التى شملت الشئون العامة والقضائية والمالية وكانوا مسئولين مسئولية مباشرة من السلطان نفسه .

أما العمود الثانى فكان يتمثل فى المسئولين عن القضاء فى الإمبراطورية وهم قاضيا العسكر وهم المكلفين بتعيين بقية القضاة ، وكان أحدهم مسئولاً عن القضاء فى الأناضول ، والثانى عن القضاء فى الرومللى . وضم العمود الثالث الدفترداريين أى المسئولين عن حسابات الدفاتر ، وكانوا أربعة من أمناء صناديق الأموال ومسئولين عن الإدارة المالية للبلاد . ويأتى بعد ذلك العمود الرابع والأخير والذى ضم النشانجية وهم مستشارو الدولة وأمناء سرها ، وكانوا يوقعون على القرارات التى يصدرها السلطان ويمهرونها بالطغراء أو النيشان .

ويلى هؤلاء الأغوات وهم القادة من الضباط وانقسموا إلى فريقين : أغوات الخدمة الخارجية العسكرية مثل أغا الانكشارية ، وأغوات الخدمة الداخلية داخل بلاط السلطان . وقد تم تعديل هذا النظام وزيادته وترتيبه فى عهد السلطان محمد الفاتح وأصبح يحمل اسم « قانون - نامة » ، وهذا الاصطلاح مأخوذ من كلمة قانون اليونانية وكلمة قانون العربية وتعنى « كتاب القوانين والأنظمة الخاصة بالدولة والمعمول بها طوال فترة حكمه ، وقد تضمن نظام السلطنة وتقاليدها ومهام السلطان والمؤسسات والعوائد المالية والجزاءات التى توقع على المخالفين . لقد كان قانون نامة يعكس العادات والتقاليد الإسلامية والتركية أيضاً للدولة العثمانية ، وهو يتقيد بالقرآن والشريعة الإسلامية ، والعثمانيون شأنهم فى ذلك شأن الدول الإسلامية الأخرى .

ولكن حينما اتسعت رقعة الدولة وزادت أمورها تعقيداً اقتضى الأمر توفيق القوانين مع القرآن ومد صلاحياتها للتناسب مع الظروف العصرية المتغيرة ، وكان أول من بدأ هذا التغيير مراد الأول ثم توسع فيه السلطان مراد الثانى ، ثم كان القرن التالى بمتطلباته الإدارية الجديدة ومشاكله مما حتم على السلطان محمد الثانى إدخال الكثير من التعديلات ، وبمرور الزمن أصبح من حق السلطان سن القوانين وإصدار الأوامر لمختلف مؤسسات الدولة دون الرجوع إلى المؤسسة الإسلامية الشرعية أو رجال الدين ، وعرفت هذه التعديلات والأوامر بالعرف ، أى الأمر المتعارف عليه ، وكان السلطان من خلالها يوفق بين قيود التشريع الدينى والمصادر الإسلامية كما وردت فى القرآن والسنة وأفعال السلف الصالح وبين متطلبات العصر والنظام الإدارى الجديد ، أما القوانين السياسية التى كان يصدرها السلطان فكان لابد من صدور فتوى شرعية بها من المفتى الأكبر الذى يمثل أعلى سلطة إسلامية تشريعية فى البلاد . لقد تضمن قانون نامة أيضاً نظام البلاط السلطانى الذى كان ينتمى إلى الطراز البيزنطى فى ترتيب سلطاته والأبهة والفخامة ونظام المراسم الذى أخذ عن النظام الذى وضعه قنسطنطين بورفيروجنيتاس Constantine Prophyrogenitus فى القرن العاشر الميلادى ، والذى كان

يستخدم بشكل خاص عند استقبال السفراء الأجانب ، وقد طبق بكل تفصيلاته في الدولة العثمانية كما كان يحدث عند الأباطرة البيزنطيين . كذلك الصيحة التقليدية لتحية السلطان كانت مأخوذة من صيحة التحية للإمبراطور بازيلوس Basileus ، ويندرج هذا على الألقاب المأخوذة من الأباطرة الإغريق والرومان ، والرعايا الذين كانوا عبيداً للسادة ، وقد أشارت الحوليات البيزنطية المعاصرة لهذه الفترة إلى السلطان باسم « بازيلوس المسلم » .

لقد اقتبس العثمانيون من البيزنطيين نظام البلاط والزى والذوق العام بكل تفصيلاته الدقيقة ، فقد أصدر السلطان أمراً بأن يكون لكل موظف من موظفى البلاط السلطانى زيًا له لون خاص مميز ، فالوزراء كانوا يرتدون زياً أخضر اللون فى حين ارتدى المفتون من أعضاء الهيئة الإسلامية الزى الأبيض ، وكان زى العلماء بنفسجى اللون ، وارتدى الملا ملابس زرقاء اللون . وكانت ألوان الأحذية أيضًا ذات أهمية عند العثمانيين ، فكانت أحذية موظفى الحكومة خضراء اللون بينما كانت أحذية موظفى القصر حمراء . وإلى جانب الألوان كان طراز الملابس له دلالة خاصة مثل فتحة الأكمام والفراء الذى يزين الثوب وشكل العمامة وشكل اللحية ، ففى المجتمعات الإسلامية تمثل العمامة رمزاً خاصًا وهى تميز المسلمين عن غير المسلمين ، أما غير المسلمين سواء كانوا من الفرنجة أو اليونان فكانوا يضعون قبعة حمراء اللون أو سوداء أو صفراء ، كما كانت أحذيتهم تختلف فى ألوانها عن أحذية المسلمين ، فكانت نعال اليونانيين والأرمنيين واليهود سوداء وبنفسجية وزرقاء اللون .

وهكذا هجر السلطان محمد الثانى عادات وتقاليد أجداده العثمانيين واتخذ له طابعاً خاصاً يعتمد بشكل مباشر على النسق البيزنطى ؛ ففى الماضى كان السلاطين يتعاملون مباشرة مع رعاياهم ويختلطون بهم بشكل ودى ، ولكن بعد خروج الغزوات إلى أوروبا زادت عملية تقديس شخصية الحكام وإجلالهم بما يليق بمكانتهم وهذا مأخوذ عن النظام البيزنطى ، فكانت هناك حراسة خاصة من جانب الخصيان لشخص السلطان ولحريم السلطان أيضاً بعد

أن كان الأجداد الأوائل يتناولون طعامهم مع رعاياهم بحرية تامة ، فكان والده السلطان مراد الثاني يتناول الطعام دائماً مع عشرة أشخاص من القائمين على خدمته وعلى منضدة واحدة ، ولكن السلطان محمد كان يتناول الطعام بمفرده وأصدر أمراً بمنع جميع الوزراء وكبار الموظفين من تناول الطعام على مائدته ، ولم يسمح بذلك إلا للأمراء أو أفراد الأسرة الحاكمة . غير أن السلطان لم يكن معزولاً تماماً عن الناس عندما شيد أول قصر له على الهضبة الثالثة لأن موقع القصر كان فى أحد أحياء المدينة المزدحمة ، كما أن الأسوار المحيطة به لم تكن كافية لحجبه عن أعين الناس ، وكان هذا من العوامل التى جعلته يتنبه عند اختيار موقع القصر الجديد الثانى وهو قصر بوابة المدفع أو سراى السلطان .

لقد بدأ السلطان فى بناء هذا القصر فى عام ١٤٦٥ فى موقع الأكروبول عند ملتقى ثلاثة بحار هى القرن الذهبى والبوسفور وبحر مرمرة ، وأصبح هذا المكان يعرف بنقطة السراى ، وقد شارك فى التخطيط له مهندسون معماريون من الفرس والغرب واليونانيين . وكان من الضخامة بحيث كان من المخطط أن يستغرق تشييده خمسة وعشرين عاماً ، ولكن بفضل الأجور العالية التى كان يدفعها السلطان والبقشيش وإشرافه الشخصى على العمل تم الانتهاء منه فى ربع هذه المدة . وكان لهذا القصر ثلاثة بوابات فى الأسوار الحصينة المحيطة به وفناءين كبيرين وبداخلهما عدداً لا يحصى من المبانى التى صمم أغلبها على شكل أكشاك أنيقة حولها الحدائق الواسعة الجميلة المزروعة بالنباتات وأشجار الفاكهة وتنساب بينها جداول المياه النقية والطيور الغناء تغرد على أشجارها ، بالإضافة إلى قطعان الحيوانات الأليفة والبرية ترعى فى هدوء . وفى هذا المكان وخاصة فى فصل الشتاء كان السلطان يقضى فترات الراحة بين الحملات العسكرية مبتعداً عن أعين العامة ، وكان لا يظهر فى شوارع المدينة إلا فى المناسبات الرسمية وحوله حراسة مشددة . وبإقامة السلطان فى هذا القصر وضع أساس البلاط السلطانى لقرون تالية . لقد كان القصر مقسماً إلى قسمين رئيسيين هما : البلاط الخارجى ويضم الوظائف الخدمية وموظفى

السلطان والديوان ، والبلاط الداخلى ويضم غرفة العرش والغرف السلطانية وغرف الطواشى والخدم ، وبعد قرن من الزمان أصبح هذا القصر يحمل اسم « دار السعادة » وضم أقساماً للحريم السلطاني . وكان السلطان محمد يفضل الإقامة فى القصر القديم (أول قصوره) المقام على الربوة الثالثة والذى ظل مركزاً لحياته الخاصة وكان به عدداً كبيراً من الطواشى بلغ عددهم ٣٧٠ شخصاً . وكان للقصر السلطاني ثلاث بوابات مؤدية إليه ، الأولى وتصل رأساً إلى المدينة وتسمى « البوابة السلطانية » أو « باب همايون » ، وكتب عليها عبارات تذكارية عن السلطان المؤسس وهى : « السلطان محمد ظل الله على الأرض ، حاكم الكون ، سيد البرين والبحرين ، سيد الشرق والغرب ، فاتح مدينة القسطنطينية » . واستخدام البوابات فى القصور هى عادة قديمة عند الأتراك ، وربما كانت عائدة إلى التقليد القديم الذى كان سائداً عند نصب خيمة السلطان بإقامة أربعة أوتاد لها ، وهذه البوابات هى الى أعطت الحكومة التركية إسم الباب " Porte " ، أو كما أطلق عليها الأوربيون إسم الباب العالى " The Sublime Porte " .

وكان حارس البوابة هو الأغا وكانت مهمته تنظيم الاتصالات بين القصر والعالم الخارجى ، وكان يتولى هذه الوظيفة فى الأصل أحد الطواشى البيض المسئولين عن الشئون الإدارية فى القصر ، ثم أصبحت للأغا وهو رئيس المراسم السلطانية والنائب الشخصى للسلطان وتحت يده هيئة من الطواشى البيض المسئولين عن الشئون الخاصة لغرف القصر ، ويتساوى مع هذه الوظيفة رئيس الطواشى السود وهو الأغا المكلف بمراقبة جميع من يقومون بالخدمة في أجنحة الحريم الموجودة داخل القصر السلطانى. ولم يعرف العثمانيون الأوائل نظام استخدام الطواشى وإنما أخذوه عن الإمبراطورية البيزنطية التى أخذته بدورها من الشرق . ومنذ أن حرم الإسلام عملية الخصاء أصبح إستيراد هؤلاء الطواشى يتم من القوقاز من خلال وكالة تجارية كانت فى أيدى اليهود مثلها مثل تجارة العبيد .

وكان رئيس الطواشى البيض المشرف على جميع ما يخص الخدمة الداخلية فى بلاط السلطان يعمل تحت يده ٣٥٠ شخصاً غالبيتهم من

المسيحيين وكذلك الحال بالنسبة للوظائف المدنية والعسكرية فى الدولة بدءاً من الصدر الأعظم والوزراء حتى حكام الولايات وحائزى الإقطاعات وجباة الضرائب وأعضاء الجهاز التنفيذى بمختلف درجاته ، وكان الجميع عبيداً للسلطان ، ولكن تواجد عبيد يعملون كحرس شخصى للسلطان فى القصر السلطانى وهؤلاء ظلوا عبيداً مدى الحياة وكانوا لا يطمعون فى أى منصب أو مركز آخر ، وكان « نظام الدفشرمة » أو كما أطلق عليه الأوروبيون « ضريبة الغلمان » الذى انبثقت منه المؤسستين العسكرية والمدنية فى الدولة ، هو المسئول عن تكوين فرق الانكشارية التى أدخل عليها السلطان مراد الثانى عدة تعديلات وجعلها أداة عسكرية ومدنية حاكمة فى ذات الوقت . ومراد هو المسئول عن هذا التطور الذى حل بالمؤسسة الإدارية فى الدولة العثمانية وجعلها تحت محل المؤسسة الإدارية القديمة ، وقد ورث ابنه محمد عنه هذا النظام وتوسع فيه وأدخل عليه بعض التحسينات . وتعتمد أهمية هذا النظام الجديد وقوته على أنه غير متوارث ولا يضم أبناء الطبقة الأرستقراطية ولا أبناء الطبقة الحاكمة ومن ثم كان فى مأمن من التنافس السياسى وقوة السلطنة المطلقة ، فلو طبق هذا النظام على المسلمين وأصبحوا عبيداً للسلطان فمن المحتمل أنهم كانوا سيرفضون هذا الامتياز ، أو يضغط أتباعهم فى الولايات المختلفة على الفلاحين ويحثونهم على عدم دفع الضرائب والتمرد على السلطات المحلية ، ولذلك اتجهت الأنظار إلى الأطفال المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام لإخلاصهم للعقيدة وتفانيهم فى خدمة السلطان ، وقد عبر عن هذا الوضع أحد الأجانب الذين زاروا استانبول وهو البارون فنزيلاس راديسلو قائلاً : « لم أسمع عن أى باشا سواء فى القسطنطينية أو فى أى مكان آخر فى الدولة تركى المولد بل على العكس كان إما مخطوفاً أو أسيراً أو من أصل غير تركى ثم أصبح تركياً » .

إن المصدر الأساسى لأفراد هذا النظام كان مدرسة القصر السلطانى للغلمان والتى أقيمت داخل القصر ذاته ، وكان هدفها اختيار أفراد هذه الطبقة غير المتوارثة وتأهيلهم لخدمة سلطان يتوارث سلطته ، وذلك وفق معايير

المساواة فى الكفاءة أو الأهلية فقط . لقد خلقت الدولة العثمانية بالفعل أرستقراطية مؤهلة وفريدة فى نوعها بالنسبة للأرستقراطيات التى كانت سائدة فى هذا العصر .

ولما كان السلطان محمد يتطلع إلى تطوير وتوسيع هذه المدرسة فقد شيد قصراً سلطانياً جديداً من أجل هذا الغرض ، فهو يحترم التعليم واستخدام العقل ، وكان يشعر بالحاجة إلى موظفين مستنيرين فى المجالين المدنى والعسكرى ، ولذلك تكونت مدرسة رسمية كبيرة منظمة تنظيماً دقيقاً ومحكماً تحت إدارته عندما اتسعت حدود الدولة بشكل واضح . إن فكرة تكوين نخبة من الإداريين من بين الرعايا العثمانيين مسيحى المولد جاءت من تأثره بالإخلاص والتفانى الذى كان عليه العبيد الموجودين داخل القصر السلطانى ، وإمكانية إيجاد قوة مماثلة لكبح جماح الانكشارية الثائرة دائماً ، لقد كان يهدف إلى إيجاد نظام يضم رجالاً ذوى فضائل وآداب وقيم أخلاقية رفيعة ، كما ذكر كاتب إيطالى فى القرن السادس عشر . وكان هذا هو الهدف الأساسى من إنشاء مدارس القصر السلطانى التى أصبح خريجوها يمثلون أربعة من بين كل خمسة من الوزراء العثمانيين ، وقد حققت هذه المدارس نجاحاً لثلاثة قرون ونصف القرن منذ أن أسسها السلطان محمد الثانى وظلت الأداة الفعالة والمصدر الأساسى لأجهزة الدولة العثمانية .

لقد خضعت هذه المدارس لإدارة رئيس الطواشى البيض وكانت مقامة فى فناء دار الخزينة السلطانية وفى دار الإمداد والمؤن ، وضمت مدرستين واحدة للإعداد والأخرى للتدريب الفنى ، وكان يتم التمييز منذ الصغر بين الطلاب ذوى الميول العقلية الخاصة والميول الحرفية ، غير أن الجميع خضعوا لفترة تعليم لا تقل عن أربعة عشر عاماً تبدأ منذ سن السابعة أو الثامنة . ولم يكن العدد الأكبر من هؤلاء العبيد يخصص كخدم شخصى للسلطان ، ولكن كان منهم من يشغل مناصب صغيرة فى المجال الحكومى والمجال العسكرى أى بعد قضاء فترة معينة من التدريب .

وقد أقام السلطان محمد فى أواخر عهده مدرسة تدريبية ثالثة فى فناء

القصر السلطانى ، وكانت تضم ٤٠ من العبيد تحت إشراف أربعة من الموظفين وهم : حامل السيف وراعى الجياد وحافظ خزانة الثياب وحامل العمامة ، وكان لكل موظف مسئولاً عن النظام والانضباط ويعاونه موظف ثان ومدير مسئول عن المكتبة ومسجل ومخزنجى وإمام وثلاثة من المؤذنين . وكان السلطان يولى عناية خاصة للفضائل الشخصية للعبيد وتنمية مداركهم وميولهم والقدرة على القيادة وتشجيعهم على دراسة المواد التى يرغبونها . وهذا النظام التأهيلى القائم فى مدرسة القصر كان يقوم على فكرة الثواب والعقاب ، فالعبيد يكافئون لأقل خدمة يؤدونها لسيدهم ويعاقبون لأقل خطأ يرتكبونه . إن نظام مدرسة القصر، بخلاف تعليم القرآن ومبادئ الشريعة الإسلامية ، كان علمانيًا فى جوهره حيث كان يرتكز على التعليم الحرفى والعسكرى أكثر من التعليم الدينى وهو فى ذلك لا يحمل الطابع الإسلامى ، فقد كان المعلمون الأوائل فى هذه المدرسة من طبقة علماء الدين وأساتذة الشريعة ، ثم أضاف إليهم السلطان محمد الثانى معلمين وعلماء وأدباء من رجال القصر ، ومن خلالهم كان يتم تدريس موضوعات عن اللاتين والإغريق ، وهذا جعل البعض يقارن هذه المدرسة بجمهورية أفلاطون ، وبتلك المدرسة التى أقامها البيزنطيون الإغريق الذين هربوا إلى إيطاليا فى أثناء غزو القسطنطينية .

لقد كان المنهج الدراسى لمدرسة القصر السلطانى والذى وضعه السلطان محمد قائمًا على الدراسات الحرة والتدريب البدنى والتدريب اليدوى والحرفى . وقد شملت الدراسات الحرة اللغات التركية والعربية والفارسية مع التركيز على اللغة التركية بكل تعقيداتها ، وتدريس الأبجدية العربية والنحو والصرف والأدب الفارسى وخاصة الشعر الفارسى الملئ بالفروسية والرومانسية . كذلك كان يتم تدريس التاريخ التركى والرياضيات وربما علم الجبر ، وكان يقوم بالتدريس نخبة من الأساتذة المتميزين حتى يصل التلاميذ إلى درجة عالية من المقدرة والكفاءة . ومن المناهج الدراسية أيضًا الموسيقى التركية بنوعيها العسكرية والإنشادية ، وكانت الفرق الموسيقة السلطانية تقدم عروضاً موسيقية

منتظمة للسلطان بالإضافة إلى تقديم أنشودة لتحيته على مدى نصف الساعة قبيل الفجر ، وأخرى بعد غروب الشمس على مدى نصف الساعة أيضاً ، هذا بخلاف تقديم الموسيقى لتحيته فى المناسبات المختلفة .

أما التدريب البدنى الذى كان يقدم فى هذه المدارس فكان على شكل تدريبات رياضية لجعل أجسام العبيد قوية وصحية ورشيقة ، وتضمنت رمى القوس والمصارعة والمبارزة اليدوية بالسيف ورمى الحراب وشكل بدائى للعبة البولو عن طريق كرة مثبتة فى حبل . كذلك كانت الفروسية تشكل أهمية خاصة حيث كان العديد من العبيد يعد للخدمة فى سلاح الفرسية وكان الهدف تحقيق المهارة فى قيادة الفرس واستخدام السلاح أيضاً بمهارة . وكان على أفراد الانكشارية اختيار حرفة للتدرب عليها كما هو متبع فى جميع المدارس الحرفية وكذلك فعل السلاطين ؛ فقد كان السلطان محمد الثانى بستانياً ماهراً ، وكان يقضى الكثير من أوقات الفراغ فى العناية بحدائق القصر الخاصة حيث كان يحب زراعة الأزهار والأشجار والخضروات ، ويحكى أنه أنتج فى إحدى المرات قثاءة عملاقة وأنه ظل يتفاخر بها حتى اختفت فظن أن أحد البستانيين أكلها فبقر بطنه فوجد بقاياها بها . أما السلطان سليم الأول وسليمان الأول فقد كانا ماهرين فى صياغة الذهب ، بينما تخصص السلطان عبد الحميد الثانى فى صناعة الخزائن معقدة الزخارف ، وأجاد البعض الآخر من أفراد الأسرة الحاكمة حرفة التطريز وصنع السهام وسن القواطع وبصفة خاصة السيوف . وكان يتم تدريب العبيد على إعداد المشروبات والأطباق المفضلة لدى السلطان وغسل الملابس وترتيب العمامة والحلاقة لشعر الرأس واللحية وتهذيب الأظافر ومختلف الوظائف الخاصة بالحمام التركى .

وخارج العاصمة والقصر السلطانى كانت الإدارة العثمانية ترتبط ارتباطاً وثيقًا بتنظيم الجيش وتطويره ، فكان قادة الجيش أو الأغوات والذين كانوا يعرفون بالقادة الخارجيين تمييزاً لهم عن القادة الداخليين الموجودين فى القصر السلطانى ، يمثلون السلطة التنفيذية للسلطان ، وعلى رأسهم القضاة الذين كان يتم اختيارهم من بين العلماء ممثلى السلطة الشرعية . وكان وضع

عناصر عسكرية على الولايات العثمانية يهدف إلى إحكام قبضة السلطة المركزية عليها ، وكان هناك ولايات الأناضول وولايات الروم‌للى وعلى رأس كل منها حاكم عام أو بيلر بك أو باشا يضع ذنبين للخيول ، وقسمت هذه الولايات إلى سناجق أو أحياء عليها حكام عسكريون وهم بكوات السناجق ، أما السنچاق فكان باشا يضع ذنباً واحداً ، ومهمته قيادة فرق السلطان فى دائرته ورئاسة الشرطة لضمان الأمن العام وجباية الضرائب . وفى عهد السلطان الفاتح كان هناك عشرون سنجقاً فى آسيا وثمانية عشر سنجقاً فى أوروبا .

وكانت جميع هذه الولايات مقسمة إلى مساحات من الأراضى على شكل قطاعات كبيرة وصغيرة ، الكبيرة تحمل اسم الزعامت والصغيرة تعرف بالتيمار كما كان الحال فى عهد السلاطين الأوائل ، وكانت هناك حقوق خاصة يؤديها هؤلاء الفرسان الأتراك المولد الذين يعرفون بالسباهية ، والذين شكلوا القوة العسكرية الرئيسية فى الدولة العثمانية ، فكان عليهم الاستعداد فى أى لحظة وتجهيز رجالهم بالأسلحة وفق أعداد محددة وبناء على أوامر السنچاق بك ، وفى حالة الفشل فى التجهيز يحرم السباهى من الإقطاعية . ولم يكن هذا النظام وراثياً كما كان الحال فى الغرب الأوروبى وإنما فى حالة وفاة السباهى يتحول جزء من الإقطاع إلى ابنه الذى يمكنه من خلال قدراته العسكرية ومواهبه أن يحصل على إقطاع أكبر . وكانت غالبية الأراضى الزراعية ملكاً للدولة وتخضع لإشراف الحكومة المركزية ولا تخضع لحقوق الملكية الخاصة ، وقد قام السلطان محمد الثانى بتحويل مساحات كبيرة من أراضى المناطق المسيحية إلى تيمارات ومن بينها أراضى الأديرة ، وكان يضم بعضها إلى الأراضى السلطانية ويوزع البعض منها كإقطاعات على الوزراء وبعض موظفى الدولة بنظام توارث محدود للغاية ، ولكن الغالبية العظمى كانت تخصص كإقطاعات للفروسية لزيادة الحاجة إليها .

إن التوسع فى نظام التيمار جاء نتيجة الحاجة الماسة إلى تزويد الجيش بالعناصر اللازمة له ، وكان هذا النظام سائداً فى العصور الوسطى ، ومن ثم تطلب الأمر إيجاد إدارة للشئون المالية والإجتماعية والزراعية لهذا النظام

العسكرى ، فهو يمثل نظام ملكية غير مكتملة يتقاسم فيها الفلاح والسباهى والدولة مسئوليات الأرض الزراعية وتظل ملكيتها فى يد الدولة فقط .

وقد مُنحت السباهية سلطة جباية ضرائب معينة من الفلاحين فى مقابل تقديم الخدمات العسكرية والعناية بشئون الفرسان ، أما الفلاح – الرعية– فقد كان يفلح الأرض وله حق الاستغلال مقابل الضريبة التى يدفعها ، وكان هذا الحق يوؤل إلى أبنائه من بعده . وكان هذا النظام بشكل عام جيد التنظيم والإحكام فى عهد السلطان محمد الثانى ، وكان ذا فائدة مزدوجة للدولة والقوات المقاتلة .

وكان السباهية حائزو التيمارات وفرسانهم يقتنون أسلحة تنتمى إلى العصور الوسطى مثل السهم والسيف والدرع والرمح والهراوة ، وبلغ عددهم فى أواخر عهد السلطان محمد حوالى ٤٠ ألف رجل وشكلوا قسماً رئيسياً فى الجيش العثمانى ، وهؤلاء كانوا يختلفون عن الفروسية الخاصة التى تعمل فى قصر السلطان . وفى حالة الحرب كانت تضاف إلى هذه الفرق فرق أخرى من الفروسية غير النظامية ، كما كان الحال فى عهد عثمان ، وتعرف باسم « الاكنچى » ، وكان يتم جمعهم من بين جماهير الشعب ، وكانوا يتعيشون على سلب المناطق المفتوحة ، وتضاف إليها أيضاً فرق خاصة من المشاة أدخلها أورخان وتعرف باسم « العزب » .

ولكن القوة الرئيسية فى الجيش العثمانى كانت تتمثل فى فرق الانكشارية أو المشاة العبيد وهم من أصول مسيحية ، وهؤلاء بلغ عددهم فى عهد السلطان محمد الثانى عشرة آلاف جندى ، وكانوا يحصلون على مرتبات كبيرة ويتسلحون بأسلحة حديثة ، وكانت هذه الفرق من المشاة لا مثيل لها فى الشرق فى هذه الفترة التى كان الاعتماد الأساسى فيه على الفروسية وخاصة فى الغرب الأوروبى ، وبالفعل لم تواجه القوات العثمانية فى

المعارك العسكرية مع أوروبا أنداداً لهذه الفرق . وفى العاصمة العثمانية كانت الانكشارية هى الفرق النظامية الوحيدة بقيادة رئيسهم الأغا ، وكانوا ينتشرون كذلك فى المناطق المفتوحة فى شكل حاميات تقيم فى القلاع وكانوا يتلقون أوامرهم رأسًا من السلطان الذى كان يعين رؤسائهم بصفة شخصية ، ولكنهم لم يشاركوا فى أى شكل من أشكال السلطة التشريعية داخل الولايات وصلاحياتهم لم تتجاوز أسوار قلاعهم . كما لم يكن لهم أى دور فى التمردات المحلية التى تنشأ فى الولايات العثمانية ، وبذلك قاموا بدور الخدم المخلصين للسلاطين العثمانيين وذلك منذ عهد أورخان ، وقد شبه البعض قوة هذه الحاميات بنبلاء الإقطاع فى أوروبا فى العصور الوسطى .

وبقيام السلطان بعملية إحلال لهذه العناصر الجديدة محل العناصر القديمة فى الجهاز الإدارى فى جميع أنحاء السلطنة ، من خلال الوزراء الذين كانوا بمثابة العبيد الشخصيين له ، أصبح هناك درجات وظيفية وفرص واسعة للترقى . لقد كان هذا المجتمع يتمتع بدرجة من المرونة تسمح للخادم أن يرقى إلى رتبة أعلى من سيده ، ويسمح للسيد بأن يرقى إلى رتبة أعلى من رئيسه ، أى أن الحرفى يمكن أن يصل إلى منصب الصدر الأعظم ، والعكس صحيح فيمكن للصدر الأعظم أن ينحدر إلى مستوى الحرفى مرة أخرى . ولا شك أنه كانت هناك مجازفة لأن هذا النظام كان يعتمد على الحظوة السلطانية ومكافأة ذوى الأهلية والمقدرة . وعلى ذلك كان هذا التنظيم الإدارى والإجتماعى السائد فى هذه الإمبراطورية الإسلامية يختلف عن نظيره فى الغرب المسيحى ، فهو لا يقيم وزنًا لإمتياز النشأة أو المولد ، والجميع فى ظل السلطة المطلقة للسلطان سواسية أمام القانون ، وهو بذلك يمثل الأرستقراطية القائمة على الأهلية والكفاءة .

أما عن العوائد المالية للدولة فكانت تأتى فى المقام الأول من ضريبة الرؤوس التى كان يدفعها الرعايا غير المسلمين فقط ، وكان هؤلاء يشكلون غالبية السكان من الفلاحين فى المدن وخاصة فى الولايات العثمانية

الأوروبية ، أما المسلمون الأتراك أحرار المولد والذين اعتنقوا الإسلام فكانوا يتمتعون بالإعفاء من هذه الضريبة ولكنهم كانوا يدفعون ضرائب أخرى وهى العشور التى فرضت على السلع التجارية مثل قطعان الماشية ومحاصيل الحبوب والأرز وعلى المناحل . وفى حالة الحرب فإن المناطق الواقعة على حافة البحر أو عند مداخل الممرات أو الغابات والتى كانت تشكل موقعًا إستراتيجيًا مهمًا ، كان يفرض على سكانها ، سواء كانوا من الرعايا أو من غيرهم ، العمل بنظام السخرة تحقيقاً للنفع العام ومن أجل مساعدة القوات المحاربة ، وذلك فى مقابل إعفائهم من الضرائب . كذلك اشتملت المصادر الضريبية للدولة على تلك التى كان يؤديها سكان ولايتى الأفلاق والبغدان وجمهورية راجوزا .

ولكن النسبة الكبيرة من العوائد السلطانية كانت تأتى من مؤسسات مختلفة فى الدولة مثل عوائد المشروعات المختلفة والرسوم الجمركية التى كانت تفرض فى الموانئ ورسوم عبور البحار والأنهار ، وعلى الموازين وعلى إحتكارات بعض السلع مثل الملح والصابون والشمع . أما الضرائب الخاصة ببعض الصناعات والموارد الطبيعية مثل مناجم الفضة والنحاس والرصاص فقد تركتها الحكومة فى أيدى الملتزمين لجبايتها ، وبرغم وجود منفعة متبادلة بين الطرفين فى هذا النظام إلا أنه كان يحمل الكثير من المساوئ الإجتماعية والمالية والإستغلال السيئ لوسائل الإنتاج .

وقد استخدم السلطان وسائل أخرى لزيادة العوائد الضريبية فى بعض الفترات التى تتطلب المزيد من الأموال مثل تجهيز القوات العسكرية للحرب ونقص قيمة العملة أو ضرب عملات جديدة ناقصة القيمة والذى كان يستلزم فرض ضرائب على العملات الفضية وتكليف موظفين رسميين لجمع العملات الموجودة لدى الناس فى الولايات المختلفة . وقد اتخذ السلطان إجراءات بناءة لضمان التمويل طويل الأجل لحملاته العسكرية وذلك عن طريق التنمية الإقتصادية والتجارية والزيادة المطردة للضرائب المفروضة فى الدولة ؛ فقد قام أسلافه بمحاولة لوضع نهاية للإمتيازات السياسية التى كان يتمتع بها الفرنجة فى منطقة الليڤانت ، فألغيت الإعفاءات الجمركية التى

كانوا يتمتعون بها والتى كانت سارية منذ أخريات الدولة البيزنطية ، وفُرضت عليهم ضرائب قدرها ١٠ ٪ على البضائع الواردة ، وحينما تولى السلطان محمد الثانى الحكم ضاعف هذه الضريبة فأثار بذلك غضب التجار الفرنجة وإستياءهم ، لأن تجارتهم كانت رائجة فى ظل الأمان السائد فى ممتلكات السلطان ولكن بفضل إيجاد وسائل الإتصال الآمنة بين الأحياء المختلفة ،كان التفوق الإقتصادى متزايداً بشكل عام . ولكن فيما يتعلق بالتجارة الداخلية فكان التجار غير المسلمين وبصفة خاصة اليونانيين والأرمنيين واليهود يسعون بكل الطرق ليحلوا محل التجار الإيطاليين .

وهذا الرواج التجارى الذى شهدته الإمبراطورية العثمانية ، لم يكن قاصراً على استانبول وحدها بل امتد ليشمل بورصة وأدرنة وميناء غاليبولى بفضل إزدهار صناعة القطن فى غرب الأناضول ، وصناعة الموهير فى أنقرة والمناطق المحيطة بها ، وصناعة الحرير فى استانبول وبورصة ، والتى كانت مراكز للتصدير للأسواق الغربية وكانت بورصة على وجه الخصوص تمثل آخر محطة فى طريق قوافل الحرير القادمة من فارس وأصبحت أيضًا مستودعًا للسلع التجارية مثل التوابل الواردة من دمشق من الهند والجزيرة العربية ، وكانت هذه السلع تسير فى طرق التجارة البرية القديمة عبر الأناضول وأطنة وقونية ، وفى الطرق البحرية عن طريق موانئ مصر وسوريا إلى أضاليا وألانيا ، ومن الأناضول كانت تتجه بعض السلع الهامة مثل معدن الحديد إلى مصر ، ومن بورصة كانت الأصواف الأوروبية تتجه إلى الشرق .

لقد بذل السلطان محمد الفاتح جهوداً جبارة فى سبيل تنمية وتطوير مصادر الدخل فى الإمبراطورية وكرس لهذا الهدف الكثير من الجهد والوقت وإستعان بمستشارين من الغرب فى مجال التجارة والشئون المالية ، ومنذ بداية حكمه وهو يعمل على إعادة تنظيم الشئون الإدارية والنواحى المالية بشكل خاص ، وتمكن بالفعل من إصلاح نظام الضرائب بشكل عملى وتفوق بذلك على والده . وإذا كان السلطان قد تأخر فى مطلع حياته فى المجال التعليمى فإنه نجح فى تخطى هذه المرحلة ووصل إلى أعلى درجات التعليم ،

فأجاد ست لغات وهى التركية واليونانية والعربية واللاتينية والفارسية والعبرية ، كما نال قسطاً وافراً من الدراسات الفلسفية على أيدى معلمين متخصصين فى الآداب الإسلامية واليونانية .

ومنذ فتح القسطنطينية والسلطان يعمل جاهداً على النهوض بالآداب الشرقية والغربية ، وكان يستقدم إلى بلاطه أساتذه إيطاليين ولاتين فى العلوم الإنسانية وغيرهم من المتخصصين فى فروع العلوم الأخرى ، وعمد إلى تثقيف نفسه عن العالم الذى كان يعتزم غزوه فقرأ عن تاريخ وجغرافية الغرب الأوروبى وعن شبه جزيرة أبنين بصفة خاصة حيث عرف الكثير عن نظم حكمها ومعتقداتها الدينية وصراعاتها الداخلية والدسائس السياسية وقوتها المسلحة وإستراتيجيتها العسكرية .

كما جلب السلطان بعض المستشارين لإستطلاع آرائهم فى النواحى التجارية والمالية ، وبمساعدتهم تمكن من أن يقتنى فى مكتبة القصر عدداً من المخطوطات القديمة وجعل منها أساسًا لدراساته ، ومنها بعض المخطوطات الإغريقية التى تُرجمت إلى التركية خصيصًا له وكانت تدور حول العقيدة المسيحية .

وفى أواخر حكمه كان قد تحرر من مسألة تحريم الإسلام لرسم الصور البشرية وسمح للفنانيين الغربيين والإيطاليين بزيارة بلاطه ، وكان على رأسهم الفنان البندقى چنتيل بلليني (١) الذى طلبه السلطان من الدودج لمهارته الفائقة ، وكان ذلك فى عام ١٤٧٩ ، وقضى خمسة عشر شهراً فى استانبول حيث عامله السلطان بكرم وقام برسم صور نصفية للسلطان وغيره من رجال البلاط . وهناك رواية تقول أن بللينى أطلع السلطان ذات مرة على

---

(١) چنتيل بللينى فنان بندقى ينتمى إلى عائلة بللينى التى منها الكثير من الرسامين أشهرهم والده لاكوبو الذى توفى فى ١٤٧٠ وولداه بللينى وچيوڤانى ، وچنيتل ولد فى ١٤٢٩ وتوفى ١٥٠٧ وله العديد من اللوحات عن المسيح .

أنظر La Rousse , p . 1172

لوحة قطع رأس چون بابتسيت (١) فتأملها طويلاً ثم انتقد الرقبة التى ظهرت أقصر بعد القطع ، وذلك من خلال تجربته الشخصية . وقد زين بللينى الأقسام الداخلية للقصر السلطانى بعدد من اللوحات الزيتية ، ولكنها أزيلت بعد وفاة السلطان وكانت تمثل عصر النهضة ، حيث كان إبنه بايزيد الثانى يكره التصوير وعرف باسم « محطم اللوحات » ، وقام ببيعها فى السوق العام فتمكن أحد التجار البنادقة من شرائها ومن بينها صورة نصفية للسلطان ، وقد عرضت بعد عدة قرون فى القاعة الفنية بلندن . وقد طلب السلطان محمد أيضاً مثالاً للبرونز فجاءه كوستانزو من فيرارا وصنع له صورة بالنحت البارز .

ورغم كل ذلك لا يعتبر السلطان محمد الثانى من أمراء عصر النهضة ، بل كان من حكام العصور الوسطى إذ نشأ على تقاليد الإسلام المقدسة وتمسك بها تحقيقاً للسلام العثمانى فى الدولة وفى العاصمة التى كانت مهداً للمسيحية الأرثوذكسية ، ومن الناحية الثقافية أيضاً كانت إتجاهاته ناحية الشرق أكثر من الغرب وبصفة خاصة ناحية فارس ، حيث كان يميل إلى المذهب الشيعى والمتطرفين فى فارس إرضاء لميوله التصوفية ، غير أنه لم يستطع التوفيق بين الإتجاهات الإسلامية السنية والإتجاهات الشيعية ، وهو بذلك يؤكد العبارة العثمانية الشائعة التى تقول : « من يقرأ بالفارسية يفقد نصف دينه » .

وبرغم ذلك كان السلطان يقرأ كثيراً فى الآداب الفارسية وأخذ عن الفرس الكثير من التقاليد الثقافية والإدارية ، وعاش الفرس فى تركيا فى عهده ونعموا بالأمان وكتبوا الكثير عن الدولة العثمانية ، ومنهم القضاة والشعراء ، وكان الشعر الفارسى هو النموذج المحتذى عند الشعراء الأتراك ، ونقل الكثير منه إلى اللغة التركية وبصفة خاصة دواوين الفردوسى وقصائد حافظ . وقد نظم السلطان محمد الفاتح بنفسه قصائد شعرية باللغة التركية ، وبرغم أنها

---

(١) چون بابتيست قديس ويعرف بيوحنا المعمدان وقد أعدم شنقاً بناء على أوامر هيرودس .

أنظر La Rousse , p. 1442

كانت دون المستوى فقد لقب بـ « السلطان الشاعر » ، كما شجع الأدباء والشعراء وأجزل لهم العطاء وعامل أساتذته بكرم بالغ وكان دائماً يجالس الأدباء والعلماء .

ومن الطبيعي في مثل هذه البيئة الأدبية أن يكون تقدم العلوم الطبيعية بطيئًا رغم أن السلطان كان يهتم بالفلك وكان على دراية بأساسيات علم الفلك والتنجيم ، ولم يكن يقدم على أى خطوة عسكرية إلا بعد إستشارة علماء الفلك فى بلاطه ، فتاريخ خروج الحملة ينبغى أن يكون متوافقاً مع أوضاع الكواكب .

كذلك لم تكن العلوم الطبية ذات شأن عند العثمانيين ، وكان أطباء السلطان من يهود إيطاليا ومنهم يعقوب جايت الذى أصبح يحمل إسم يعقوب باشا بعد أن عين وزيراً ، واستمر يشغل منصبه ثلاثين عامًا ، وكان يتمتع بنفوذ واضح فى بلاط السلطان فى مجال الطب وفى الشئون المالية أيضًا وكان يرافق السلطان فى العديد من الحملات العسكرية . وقد حاول البنادقة أكثر من مرة إغراء يعقوب باشا لمساعدتهم فى اغتيال السلطان بدس السم له ولكنهم فشلوا ، وفشلت محاولاتهم الأربعة عشرة من خلال عملائهم .

ومنذ أن كان السلطان فى الثلاثين من عمره وهو يعانى من المرض وظهرت عليه بوادر الإعتلال بعد أن أصيب بداء المفاصل الوراثى والذى كان يمنعه من ركوب الفرس فى أثناء الحملات العسكرية . وبرغم تسامح السلطان فقد كان مثالاً سيئًا للمسلمين ، إذ كان يشرب الخمر حتى الثمالة ، وكان يعانى من البدانة وتهاجمه نوبات مرض النقرس وداء المعدة وأحيانًا كان لا يستطيع التحرك من مكانه . ويمثل السلطان محمد الأجيال الحديثة من السلاطين العثمانيين الذين تميزوا بقصر مستوى العمر ، ففى خلال القرن ونصف القرن السابق لم يصل لسن الخمسين منهم سوى سلطان واحد . وفى عام ١٤٧٩م كان السلطان محمد فى أواخر الأربعينيات من عمره وأصيب بجلطة فى الساق أثارت حيرة الأطباء ، وبنهاية العام التالى اشتد عليه المرض

وتزامن هذا مع انتهاء بلليني من رسم الصورة النصفية له .

وفي ربيع عام ١٤٨١م خرج السلطان على رأس الجيش إلى آسيا وسار في اتجاه الجنوب دون هدف محدد ، كما هو مألوف لديه ، ومن المحتمل أنه كان يريد الذهاب إلى رودس ومنها إلى المماليك في مصر ، ولكنه توقف في الطريق حيث انتابته نوبة آلام معوية حادة زادت من آلام النقرس والمفاصل فأعطاه طبيبه الفارسي علاجاً ولكنه فشل في تهدئته وكان عبارة عن جرعة مضاعفة من الأفيون بناء على تعليمات من بايزيد إبن السلطان ، وحينما وصل يعقوب باشا وعلم بكمية الجرعة قال أنها قاتلة وأنها أدت إلى حدوث إنسداد في الأمعاء ، وفشلت معها كل محاولات الإنقاذ وتوفى السلطان في وقت صلاة العصر عن عمر يناهز واحداً وأربعين عاماً وكان ذلك في ٤ مايو ١٤٨١ م .

وكانت الرسالة التي حملت نبأ الوفاة إلى جمهورية البندقية تقول : « مات النسر العظيم » ، وآن الأوان لأن يتنفس الغرب ثانية ويتحرر من الرعب القادم من الشرق ومن تهديداته على مدى الأربعين سنة التالية .

لقد ظل السلطان محمد يخرج على رأس الحملات العسكرية على مدى جيل من الزمان ، ولكنه لم يحقق نجاحاً كبيراً في توسيع حدود دولته ، فقد فشل في بلجراد ورودس وأوترانتو ، ولم يصبح سيد البرين والبحرين كما أدعى ، ولكنه كغازى نجح في إقامة دعائم إمبراطورية إسلامية عظيمة وكسياسى أقام مؤسسات الدولة وأرسى تقاليدها وسياستها التي سار فيها على خطى الإمبراطوريات القديمة الرومانية والإغريقية ، ونجح أيضاً في أن يصبح حامياً غيوراً عن المسيحية الأرثوذكسية . ومن أجل جميع هذه الإنجازات فهو يستحق أن يكون في مرتبة الحكام المحافظين على طابع العصور الوسطى .

القسم الثانى

عظمة الإمبراطورية

الفصل الحادى عشر

لقد شهد القرن السادس عشر أعظم السلاطين العثمانيين وهو السلطان سليمان الأول الذى عرفه العالم أجمع باسم سليمان العظيم بينما أطلق عليه رعاياه سليمان المشرع أو القانونى . والسلطان سليمان هو حفيد السلطان محمد الثانى ، وقد استطاع النهوض بالدولة وتوسيع حدودها أكثر من السلطان محمد الفاتح نفسه ووصل بها إلى أوج قوتها وعظمتها . على أن نظام قتل الأخوة المتوارث فى الأسرة الحاكمة ثار بعد وفاة السلطان محمد وقذف بالدولة فى أتون صراع طويل بين أبناء السلطان وهما بايزيد الثانى والأمير چم الإبن الأصغر .

كان السلطان بايزيد يتمتع بشخصية مناقضة تماماً لشخصية والده ، فكان محباً للسلام وغامضاً فى معتقداته ومتصوفاً ومتسامحاً ولم يكن يسعى للقيام بغزوات جديدة ، وقد اشتهر بلقب « حارس القانون » عند الكتاب المعاصرين . ويعد بايزيد أول سلطان عثمانى يتخلى عن عادة قيادة الجيوش العثمانية فى ميدان المعركة . أما چم الذى كان يصغره باثنى عشرة سنة فقد كان على النقيض ، فهو رجل نشط وله وجه حالم ولكنه عنيف ومقدام فى ذات الوقت ويحرص على تذوق جميع متع الحياة ، واهتم بالفنون وخالط الشعراء حتى أصبح شاعراً موهوباً ، وقد ذكر مؤرخ سيرته الذاتية عنه :

« فى يده حل كأس جامشيد (١) محل خاتم سليمان ومعه أصوات أناشيد النصر تقرع على الطبول » .

وعند وفاة السلطان الفاتح حمل چم سلاحه وأدعى أحقيته فى العرش لأنه كان صاحب الحظوة عند والده ، ولكن ولاية العرش العثمانى

---

(١) جامشيد ، هو جامشيد الكاشى من أكبر علماء الفلك فى سمرقند فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وهو مخترع آلة فلكية متطورة إسمها الطبق أو الكأس وله مؤلفات فى الرياضة التطبيقية ، وتولى رئاسة المرصد الفلكى فى سمرقند .
أنظر : لطف الله القارى ، الثقافة العربية الإسلامية فى مواجهة الثقافة الأوروبية (١٤٩٨ – ١٧٩٨) ، أى المؤرخين العرب ، نوفمبر ١٩٩٤ .

كانت قد بدأت تتجه تدريجيًا إلى الاعتماد على قوة الانكشارية ، وهؤلاء كانوا يفضلون بايزيد لتمسكه بتقاليد الغزاة الأوائل . وفى مناسبات سابقة اعترضت الانكشارية على قرمانلى محمد باشا الصدر الأعظم للسلطان محمد الثانى وعلى سياساته وكان چم مؤيداً له ، وكان وقتها حاكمًا على قرامان وكانت عاصمتها قونية التى تقع عند منتصف الطريق إلى استانبول بينما كانت أماسيا تحت حكم بايزيد . ولكن بايزيد استطاع الوصول إلى العاصمة قبل شقيقه ومعه مؤيديه من الانكشارية حيث قام بتوزيع الهبات والإمتيازات عليهم وبذلك ضمن ولاية العرش .

وقد سيطرت الانكشارية ، التى كانت تنتظر قدوم بايزيد ، على العاصمة وقاموا بتدبير عدة مؤامرات ضد بعض موظفى القصر ومنهم الصدر الأعظم الذى اغتالوه وطافوا برأسه فى الشوارع وهى معلقة على حربة ، ثم قبضوا على الرسل الذين كان يعتزم على إرسالهم إلى چم ووضعوهم على الخازوق ، وفى مقابل ذلك قام بايزيد بتنفيذ بعض السياسات التى استنكرها والده مثل إنقاص قيمة العملة وإستعادة الأراضى التى كان قد منحها كإقطاعات وتحولت إلى ملكيات خاصة والأراضى التى تحولت إلى مؤسسات الأوقاف . وبشكل عام فقد سار السلطان الجديد فى اتجاه مضاد لسياسات والده السابقة وانتهج سياسة جده مراد الثانى .

ولكن چم كان مقاتلاً ورفض الاستسلام ورفع لواء الثورة ضد بايزيد وتلقى دعمًا وتأييداً من قبائل التركمان فى طوروس ، ونجح فى الإستيلاء على مدينة بورصة وأعلن نفسه سلطانًا وسك عملة عليها إسمه وطلب ذكر إسمه على المنابر وظل حاكمًا لثمانية عشرة يومًا ، ثم اقترح على شقيقه تقسيم الإمبراطورية إلى قسمين : بايزيد فى أوروبا وچم فى آسيا ، ولكن بايزيد أرسل قواته لملاقاة چم ، وكان أحمد باشا چديك على رأسها وهو القائد السابق لقوات والده وزعيم الانكشارية والذى سبق أن عارض تجديد حملة عسكرية ضد إيطاليا .

وقد هُزم چم فى معركتين عسكريتين ولكن فشل أحمد باشا فى أسره

وتمكن من الهروب ولجأ إلى المماليك فى مصر عن طريق حلب ودمشق وأورشليم حيث منح الأمان وعامله السلطان قايتباى بكرم بالغ وسمح له بأداء فريضة الحج ، ولكنه عاد إلى الأناضول وجمع المؤيدين القرمانيين حوله مرة أخرى ودخل فى معركة جديدة مع بايزيد ولكنه هزم بعد أن تخلى عن جيشه بالقرب من أنقرة ثم هرب إلى أطنة .

وقد حاول بايزيد مصالحة شقيقه فعرض عليه أن يتسلم عوائد إقليم قرامان الذى يحكمه إذا عاد مسالمًا إلى أورشليم ، وكرر رفضه لمسألة تقسيم الإمبراطورية قائلاً : « إن الإمبراطورية مثل العروس لا يمكن تقسيمها بين متنافسين » ، ولكن جم رفض ولجأ هذه المرة إلى فرسان القديس يوحنا فى رودس حيث استقبل بحفاوة بالغة من قائدهم أوبوسون . وبعد فترة قصيرة وقع بايزيد معاهدة مع هؤلاء الفرسان تقضى بأن يدفع لهم منحة سنوية مقدارها ٤٥ ألف قطعة ذهبية مقابل بقاء شقيقه محتجزاً لديهم .

ولم يدرك جم أن تمسك الفرسان به كان من أجل دوافع سياسية بحتة ، وأنه بمثابة رهينة ثمينة فى أيدى المسيحية تستخدمها لشن إعتداء على العثمانيين ، فكان مضيفوه فى فرنسا وفى الفاتيكان بروما ليس أكثر من سجانين ومستغلين وينتظرون الوقت المناسب لإطلاق سراحه ضد العدو العثمانى اللدود . وهكذا أصبح جم يستخدم كرهان فى الدسائس الدبلوماسية للأمراء المسيحيين المتنازعين ، وأخيراً مات فى نابولى ، ربما مسموماً ، كما أشيع على يد البابا بورجيا (١) ، الذى كان على نزاع مع ملك الفرنجة ، وبالتعاون الخفى مع السلطان بايزيد والذى اتخذ من قانون قتل الأخوة حجة شرعية لأى جريمة مشابهة .

---

(١) بابا بورجيا : بورجيا هو إسم أسرة إيطالية من أصل أسبانى من بين أفرادها عدد من البابوات والحكام مثل البابا الكسندر السادس ، وإبنه قيصر الذى اتخذه مكيافللى مثالاً لقسوته وبطشه فى كتابه « الأمير » والبابا بورجيا هنا هو الكسندر السادس (١٤٣١ - ١٥٠٣) .

أنظر La Rousse , p. 1189

وقد تسببت ميول بايزيد السلمية فى وقوع بعض المشكلات بسبب المناورات الدبلوماسية الأوروبية قبل وبعد موت جم ، فقد أصبح استغلال الخطر العثمانى من ممارسات الدول الأوروبية والقوى السياسية فى إيطاليا ، وباتت الدولة العثمانية قوة يحسب حسابها ليس فقط فى المجال البرى ولكن فى المجال البحرى وفى حوض البحر الأبيض المتوسط .

وحتى يضع بايزيد حداً للمغامرات الصليبية استمر فى دعم الأسطول العثمانى كما فعل والده من قبل ، واستخدم هذا الأسطول فى تجديد الحرب ضد البندقية وفى تحقيق السيطرة فى البحر المتوسط ونجح فى الإستيلاء على ليبانتو ومودون وكورون وناڤارينو فى اليونان . كما عرض تقديم المساعدة على ميلان ونابولى أملاً فى التنازل عن أوترانتو ، ولكنه لم يخاطر بعبور الإدرياتيكى لأن البندقية كانت قادرة على استجداء المساعدة البحرية من الفرنسيين والأسبان والبرتغاليين ، ومن ثم عقد معاهدة سلام مع البنادقة فى ١٥٠٣ وضمن بها الحفاظ على الحالة الراهنة فى المنطقة ، ولكن قوة البنادقة البحرية كانت قد ضعفت إلى حد كبير مما أعطى الفرصة للبحرية العثمانية لتظهر قوتها وتدخل فى صراعات فى شرق البحر المتوسط وغربه .

وفى غرب البحر المتوسط وشمال أفريقيا كان الترحيب بالقوة البحرية العثمانية وبصفة خاصة من مسلمى أسبانيا واعتبار نشاطهم جهاداً بحريًا . وبالإضافة إلى ذلك سار بايزيد فى طريق توسيع النشاط الإقتصادى والتجارى للإمبراطورية ، وراجت تجارته مع الولايات الإيطالية ، وفتحت الأبواب لهجرة المزيد من اليهود الذين طردوا من أسبانيا إلى ممتلكاته فى نهاية القرن الخامس عشر . وفى آسيا ، عاد التركمان إلى إثارة القلاقل والفتن ضد السلطة المركزية العثمانية وتمردوا على دفع الضرائب ، وأرادوا العودة إلى حياتهم القبلية الأولى ، ولما كانوا من الشيعة فقد لقوا الدعم والتأييد من المقاطعات السورية والفارسية ، وقد أرسل السلطان حملات ضدهم على مدى ست سنوات متتالية وضد سلطنة المماليك فى سوريا ونجح فى إعادة الهدوء إلى المنطقة

وإلى منطقة الحدود السياسية بين العثمانيين والمماليك . وكانت العناصر الشيعية فى المناطق الآسيوية تعرف بالقزل باش أو ذوى الرؤوس الحمر وهؤلاء كانوا يعيشون على حدود فارس تحت الزعامة السياسية والروحية لإسماعيل الذى حكم فارس باسم شاه فارس من ١٥٠٢ م .

وقد سار الشاه إسماعيل على نهج التحالف مع البندقية كما كان يفعل أوزون حسن زعيم قبيلة الشاه البيضاء وكان يثير الفتن فى المناطق العثمانية ، وبتحريض منه وصلت قوات القزل باش المتمردة إلى أسوار مدينة بورصة وقتلوا فى إحدى المعارك على باشا الصدر الأعظم لبايزيد . وقد إدعى إسماعيل نسبه إلى على زوج إبنة الرسول (ﷺ) وأيد المذهب الشيعى الذى ينادى بشرعية على للخلافة لأهليته وفطرته ، واتخذه الإيرانيون تبعاً لذلك مذهباً لهم ، وذلك على عكس السنين الذين سارو على نهج الأمويين ، وبشكل عام أصبحت السنة هى النهج القويم للمجتمع الإسلامى .

وأصبح إسماعيل يعرف بالصوفى الأعظم ووجدت أراؤه الشيعية تأييداً واسعًا فى شرق الأناضول وجنوبه ، وبايزيد نفسه ، مع كل ميوله الصوفية ، أظهرت تعاطفاً مع الأصول الفلسفية للصوفية ، ولكنه نبذها حينما استخدمها هذا الحاكم الفارسى كأدة للدمار السياسى داخل الحدود العثمانية . وهكذا عارضت الجيوش العثمانية الشاه وبرغم أنها لم تدخل فى معركة معه إلا أن وصوله إلى السلطة كان من الأمور التى خلقت أزمة فى داخل الأسرة الحاكمة العثمانية ذات أبعاد دينية . وكان من بين أبناء السلطان الثلاثة الأحياء ، والذين كانوا يشغلون مناصب حكام الولايات ، سليم وهو الأصغر سنًا والأكثر نشاطًا وحباً للحرب ومن ثم كان على النقيض من والده وشبيهاً بجده الفاتح ، أما الإبن الثانى وهو أحمد فكان المفضل لبايزيد وكانت موهبته واضحة فى مجال الإرداة . ولما كان سليم يدرك أن والده مريض ، وحرصاً منه على تأكيد إدعاءه فى ولاية العرش قام بزيارة خاطفة لاستانبول حيث حصل على تأييد الانكشارية له خاصة وأنهم كانوا مستائين من تصرفات بايزيد وحرمانه لهم من أسلاب الغزوات ، غير أن بايزيد استطاع الوقوف فى وجه

سليم بمعاونة رجال الحاشية واستمر فى تأييد أحمد ، وهرب سليم إلى القرم حيث كان إبنه سليمان حاكماً عليها (وهو سليمان العظيم فيما بعد) ، وجمع جيشًا وسار حول شمال البحر الأسود واستولى على أدرنة . وكان شقيقه أحمد قد تحول إلى مهرطق فى الأناضول وارتدى غطاء الرأس الأحمر الخاص بالقزل باش وحشد قوة للإستيلاء على بورصة ، غير أن سليم تقدم بمعاونة الانكشارية إلى استانبول وأجبر والده على التنازل عن العرش ، وبعد أن انتهت المراسم السلطانية لتولى سليم العرش طلب السلطان المخلوع إعادته إلى مدينة ديموتيقا مسقط رأسه ، ولكنه مات فى الطريق ، ومن المحتمل أن إبنه أمر بدس السم له .

وهكذا بدأ سليم الأول حكمه وقد اشتهر بسليم يوفوز أى الشرس ، وكان أول ما فعله هو أن أمر بقطع رأس شقيقيه ، ثم وسع مبدأ قتل الأخوة ليشمل أولاد أخيه الذكور الخمسة والذين بدأت أعمارهم من خمس سنوات فما فوق بينما جلس فى حجرة مجاورة يستمع إلى صرخاتهم . وبعد أن أمن مركزه فى الداخل اتجه خارجياً إلى شرق آسيا تاركاً أوروبا لحين .

ولما كان سليم يتميز بالتعصب الدينى فقد انصرف إلى محاولة وضع نهاية لإمبراطورية الشيعة الهراطقة وكان عدوه اللدود هو شاه فارس إسماعيل الصفوى ، وقبل أن يشن حرباً دينية عليه ، رأى أن يبدأ بالتخلص من أربعين ألف شيعى من أتباع إسماعيل فى الأناضول فى مذبحة تقارن بمذبحة القديس بارثلميو (١) فى أوروبا المسيحية ، وقد أضاف إلى ألقابه « العادل » بسبب قضائه على هؤلاء الهراطقة .

ولقد أرسل سليم مجموعة من الرسائل الإستفزازية للشاه مدعياً أن حملته كانت موجهة ضد المهرطقين ، ولكنه فشل فى استثارته لأن الشاه كان

---

(١) مذبحة بارثلميو هى المذبحة التى أقيمت للبروتستانت فى عهد كاترين دى ميدتش وآل جيز فى فرنسا فى ٢٣ أغسطس ١٥٧٢ وراح ضحيتها ثلاثة آلاف مسيحى .
أنظر La Rousse , p 1622 ، عمر عبد العزيز عمر ، التاريخ الأوروبى الأمريكى .

يفضل العلاقات السلمية ، وكلما تقدم سليم فى حملاته تراجع إسماعيل داخل حدوده واتبع سياسة حرق الأراضى ، غير أنه أجبر فى النهاية على الدخول فى معركة مع العثمانيين فى وادى چالديران ، وكان النصر حليفهم واستولى سليم على تبريز وقام بذبح الأسرى ، ثم أرسل إلى استانبول ما يقرب من ألف من الحرفيين الذين كانوا يتمتعون بشهرة واسعة فى المدينة ، بهدف استخدامهم فى إثراء التجارة العثمانية والعمارة . وبعد عدة حملات أخرى استطاع سليم الإستيلاء على العديد من المدن والأراضى وضم إلى إمبراطوريته السهول الواسعة الواقعة فى شرق الأناضول وأقام بذلك خطاً إستراتيجياً طبيعياً ضد كل الهجمات القادمة من الشرق مما ساهم فى تغيير توازن القوى فى آسيا . كذلك قام سليم بالقضاء على تجارة الحرير فى فارس متبعاً أسلوب الحرب الإقتصادية فحرمها من المصدر الرئيسى للفضة والذهب ، وأبعد إلى البلقان تجار الحرير الفرس الذين كانوا يقيمون فى بورصة ، وبأسلوب مشابه أوقف تجارة المماليك فى العبيد الچراكسة القادمة من القوقاز .

وبعد أن حقق سليم النصر على فارس توجه إلى المماليك فى عام ١٥١٦ ، وكانوا يعتمدون على الدعم العثمانى لمواجهة تهديد الشاه إسماعيل الصفوى من ناحية ، ومن ناحية أخرى من أجل مواجهة التهديد البرتغالى للبحار الجنوبية وللرحالة الأفريقيين . وكان المماليك فى حاجة إلى الأخشاب اللازمة لبناء السفن من العثمانيين بالإضافة إلى الأسلحة والبارود لمواجهة التهديد البرتغالى . ولكن عندما توغلت قوات سليم فى المناطق الحدودية لسوريا لم يستطع السلطان المسن الغورى أن يظل محايداً وقاد قواته العسكرية وخرج من مصر فى إتجاه شمال الشام ، وبذلك استثار سليم الذى اتجه بجيشه أيضاً تجاه حلب وسدد ضربة قاتلة للسلطان المملوكى فى ميدان المعركة ثم تقدم إلى دمشق وبيروت وغزة فى فلسطين ونجح فى الإستيلاء عليهم وزار مقابر الرسل وصخرة إبراهيم فى القدس . وقد عين سليم الولاة العثمانيين فى المدن الجديدة ، وعامل الأمراء اللبنانيين كحكام تابعين وتسامح مع المسيحيين

واليهود وخفض الرسوم الجمركية وتكاليف الحج إلى القدس ، وبذلك كان سليم أكثر تسامحاً مع المسيحيين من المسلمين الشيعة .

وتوقف سليم عند حدود مصر ومعه الخليفة العباسي المتوكل الذى كان فى صحبة الجيش المملوكى الذى خرج لمحاربة العثمانيين ، وقد عامله سليم بالاحترام المشوب بالحذر ، وأرسل إلى طومان باى خليفة الغورى فى القاهرة يعلمه أن الخليفة وقضاته أقسموا له بالطاعة ومن ثم فهو السلطان الحقيقى على جميع الممتلكات المملوكية ، وكان مستعداً للإعتراف بالحكام المماليك فى القاهرة على أن يعترفوا بسيادته ويدفعوا الجزية لاستانبول . وعندما رفض طومان باى أن يستسلم وأعلن نفسه سلطاناً مملوكيًا عبر سليم صحراء سيناء على رأس جيشه ، وبعد معركة أولية ناجحة أرسل الخليفة إلى القاهرة متعهداً بمعاملة الشعب المصرى برفق بخلاف حكامه حتى يهدئ من روعهم ، وفى اليوم التالى ذكر إسمه فى خطبة الجمعة منهياً بذلك الحكم المملوكى . وبعد عدة أيام من القتال المتواصل فى القاهرة وضواحيها لحقت الهزيمة بطومان باى فى موقعة بالقرب من الأهرامات ، وشنق على بوابة المدينة والتى طالما استخدمها كمقصلة . وقضى سليم ما يقرب من ستة شهور فى القاهرة ينظم شئونها ومسألة دفع المال الميرى ، ثم غادرها فى الخريف بعد أن ترك عليها أحد الولاة ، وأمر فى ذات الوقت بحبس الخليفة فى بلاطه وبذلك انتقلت الخلافة إلى السلاطين العثمانيين ، ومعها بعض الآثار المادية للرسول (ﷺ) مثل العباءة التى كانت ذات مغزى مدعم لوضع السلاطين كحماة للأماكن المقدسة فى مكة والمدينة ولطرق الحج إلى الحجاز وللإسلام بشكل عام .

وهكذا أدعى سليم سيادته على العالم الإسلامى كما فعل المماليك من قبل ، وأصبح جميع حكام العالم الإسلامى يتطلعون إليه وإلى سيادته المطلقة .

وبعد عامين توفى سليم إثر إصابته بداء السرطان وكان فى طريقه إلى أدرنة . لقد كان رجلاً عظيم البنية ذو شخصية قاسية وعيون ثائرة ووجه شرس ، وكان لا يكترث بحياة البشر وإمتلأت حياته بقصص وحشية ومن أعماله أنه قطع رأس أحد الولاة بالسيف لأنه طلب منحة مالية لنفسه بعد أن

كان السلطان كان قد قدم المنح للانكشارية . وكان سليم على إستعداد لإصدار أوامر الإعدام فى أى لحظة من خلال الحرس الذين كانوا فى رفقته لأى شخص يخالفه فى الرأى أو يضايقه .

وهذا كانت حياة الصدور العظام فى عهده قصيرة للغاية ، فقد قطع رؤوس سبعة منهم بالإضافة إلى عدد منُ الموظفين والقادة العسكريين ، وشاعت فى عهده عبارة « هل تريد أن تكون وزيزاً لسليم ؟ » كناية عن القتل ، وكإجراء إحتياطى كان وزراؤه يحملون معهم وصاياهم عندما يطلب مقابلتهم ، وذات مرة سأله أحدهم بروح الدعابة أن يعطيه إشارات أولية عن موعد موته حتى يستطيع أن يرتب أموره ، فرد سليم ضاحكاً « لقد كنت أفكر فى قتلك ، ولكننى لا أجد من يحل محلك الآن » .

وبرغم هذه التهديدات فلم يكن هناك عجز فى موظفى بلاطه لأن المكافآت كانت كبيرة بالإضافة إلى أن الحياة فى بلاط السلطنة كانت شيقة ومشجعة . لقد كانت قسوته تمثل الطابع العام لذلك العصر وكانت على النقيض مع الحسابات الباردة لجده الفاتح . وبرغم هذه الوحشية كان سليم مثقفاً وأديباً وشاعراً وكتب الكثير فى الشعر الغنائى الفارسى ، وكان يصحب معه فى كل حملاته المؤرخين والشعراء لتسجيل الأحداث ولترديد البطولات العثمانية . وعلاوة على ذلك كان محارباً مقداماً ونجح فى مضاعفة مساحة الإمبراطورية فى فترة قصيرة حيث أصبحت تمتد من ضفاف الدانوب إلى ضفاف النيل ومن سواحل الإدرياتيكى إلى المحيط الهندى ، وبذلك ترك ميراثاً لإبنه سليمان يمتد عبر قارتين .

الفصل الثانى عشر

كان تولى السلطان سليمان عرش السلطنة متزامناً مع نقطة تحول هامة فى الحضارة الأوروبية ألا وهى إنتهاء فترة العصور الوسطى المظلمة وإضمحلال مؤسساتها الإقطاعية ومجئ الشعاع الذهبى لعصر النهضة التى سادها الإزدهار وقيام الدول المتحضرة التى حكمها ملوك يمثلون عهد الإستنارة . لقد كان القرن السادس عشر هو عصر شارل الخامس وإمبراطورية الهابسبرج (١) وفرنسوا الأول وأسرة الفالوا (٢) فى فرنسا ، وعصر هنرى الثامن وآل تيودور فى إنجلترا (٣) . لقد كانت هذه الملكيات الثلاث القوية فى موضع الندية مع السلطان سليمان الذى كان يبلغ من العمر ستة وعشرين عاماً .

وبالنسبة للغرب الأوروبى كان السلطان سليمان عاملاً أساسيًا فى توازن القوى بين الدول المسيحية ، وبالنسبة للمشرق الإسلامى فقد نسب إليه الكثير من الأمجاد العظيمة . لقد جاء ترتيبه العاشر بين السلاطين الذين حكموا الإمبراطورية ، وكان حكمه فى بداية القرن العاشر الهجرى ، ويعد هذا الأمر موضع مباركة من وجهة النظر الإسلامية لأن رقم (١٠) يمثل عدد أصابع الأيدى والأقدام والحواس أيضًا ، كما أن العدد (١٠) يمثل عدد صحابة الرسول (ﷺ) المبشرين بالجنة ، والتقليد الشرقى يعتقد أنه عند بداية كل قرن

---

(١) الهابسبرج أسرة حاكمة فى النمسا نجحت فى حكم الإمبراطورية المقدسة فى عهد مكسميليان الأول وشارل الخامس وفرديناند وذلك منذ عام ١٤٣٨ .

أنظر : La Rousse , p 1152 ؛ عمر عبد العزيز عمر ، التاريخ الأوروبى الأمريكى ، الإسكندرية ١٩٩٩ م .

(٢) الفالوا أسرة حاكمة فرنسية فى الفترة من ١٣٢٨ إلى ١٥٨٩ وبدأت بحكم فيليب السادس فى (١٣٢٨) وانتهت بحكم هنرى الثالث فى عام ١٥٨٩ ، ومن أبرز ملوكها فرنسوا الأول الذى امتد حكمه من ١٥١٥ إلى ١٥٤٧ م .

أنظر : La Rousse , p 1755

(٣) التيودور أسرة حاكمة فى إنجلترا فى الفترة من ١٤٨٥ إلى ١٦٠٣م وملوكها هم : هنرى السابع وهنرى الثامن وإدوارد السادس ومارى الأولى وإليزابيث .

أنظر : La Rousse , p 1744

من الزمان يظهر رجل عظيم يتولى زمام الأمور ويصبح المهيمن والمسيطر وأن هذا الرجل تجسد فى شخص السلطان سليمان فاعتبروه ملكًا من السماء لتوافق السلطان العاشر مع الرقم (١٠) .

ومنذ سقوط القسطنطينية والفتوحات التى اعقبتها فى عهد الفاتح أصبح لزامًا على الدول الغربية أن تقيم وزنًا للقوة العثمانية ولتقدمها فى أوروبا وأن تستعد لمواجهتها ليس فى المجال العسكرى فحسب بل فى المجال الدبلوماسى أيضًا . وقد ظلت المخاوف تساور الحكام الأوروبيين من الخطر العثمانى ومن احتمال قيام تحالف مع العثمانيين بطريقة سرية ، وكانت هذه المخاوف تشكل سلاحًا ديلوماسيًا فى أيدى الدويلات الإيطالية . كما عمت معتقدات دينية قوية لدى الناس بأن الغزو العثمانى لأوروبا هو قصاص عادل لخطايا البشر وأن الأجراس العثمانية التى تدق كل يوم فى أماكن عديدة تدعو إلى التوبة وطلب المغفرة . كذلك اعتقد سادة الصليبيين اعتقاداً راسخًا بأن الغزوات العثمانية التالية ستتقدم إلى مدينة كولون (١) المقدسة وأن النصر سيتحقق عليهم بواسطة الإمبراطور وليس البابا وأن قوى المسيحيين ستطرد من أورشليم نفسها ، وقد إمتلأت الأساطير الصليبية بمثل هذه المعتقدات .

وكان الإمبراطور شارل الخامس قد أعلن نفسه حاميًا للمسيحية عند إعتلائه عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وكانت حدود إمبراطوريته قد اتسعت بفضل زيجاته السياسية وأصبحت تمتد من بحر البلطيق إلى البحر الأبيض المتوسط ومن الأراضى المنخفضة إلى أسبانيا مروراً بألمانيا والنمسا ، وضمت كذلك مملكتى نابولى وصقلية وبعض الممتلكات فى المكسيك وبيرو ، وقد واجه الإمبراطور التهديد العثمانى من خلال الأراضى التى ورثها

---

(١) كولون مدينة تقع فى غرب ألمانيا على نهر الراين وكانت مركزاً دينيًا منذ القرن الثالث عشر الميلادى وعاصمة للإمبراطورية الرومانية المقدسة ، كما كانت مدينة حرة .

أنظر : La Rousse , p 1259 : عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق .

فى النمسا وتعاظم هذا التهديد فى عهد السلطان سليمان .

ومن الأمور التى زادت من حجم هذا التهديد العداوة القائمة بين الإمبراطور وبين فرنسوا لأول ملك فرنسا منافسه الذى هزم فى انتخابات عرش الإمبراطورية المقدسة والذى أصبح فى حالة حرب معه عند إعتلاء سليمان العرش . لقد كان شارل يتطلع إلى توحيد الغرب المسيحى فى ظل حكم الهابسبرج للإمبراطورية المقدسة ، ولكن فرنسا كانت العقبة الكؤود فى طريق تحقيق هذا الحلم ، فهى تقاسم شارل أملاكه فى ألمانيا وأسبانيا ، وتضع العقبات أمامه فى شمال إيطاليا ، ولذلك دخل العاهلان فى نزاع حدودى فى هذه المنطقة ، كما شكلت فرنسا تهديداً لوسائل الإتصال البحرية التى كان الإمبراطور يعتمد عليها فى تحقيق الأمان والتفوق التجارى ، وكانت نتيجة هذا النزاع هى إنقسام دولتين عظميين مسيحيتين ، وأصبح العثمانيون فى ظل هذه الظروف يمثلون العدو المشترك والحليف المرغوب فيه فى ذات الوقت .

إن فرانسوا الأول الذى ساهم من قبل فى الدعوة لحملة صليبية ضد العثمانيين هو نفسه الذى تقدم لطلب مساعدتهم لمواجهة العدو المشترك وهو إمبراطور الهابسبرج ، وقد قام بهذا العمل فى سرية تامة واستخدم أسلوب الرياء والضغط على المصالح السياسية الهامة لإقامة التحالف بين الصليب والهلال ، والذى استمر على مدى قرون ثلاثة ، وقد حاول إخفاء هذا الأمر أولاً عن العالم المسيحى بالتنصل منه فى بعض الأحيان ، وبتركه لتقلبات الزمان فى أحيان أخرى . وقد قدم له السلطان سليمان عوناً ماليًا فى مناسبات عديدة ، ففى عام ١٥٣٣ أرسل له مائة ألف قطعة ذهبية لمساعدته فى تكوين تحالف ضد شارل الخامس ضم إنجلترا وألمانيا إلى جانب فرنسا ، وبعد عامين طلب فرنسوا عونًا ماليًا جديداً قدره مليون من الدوكات ، وقد اعترف بقيمة هذا التحالف لسفير البندقية مؤكداً أن الدولة العثمانية هى القوة الوحيدة التى تضمن الدول الأوربية فى مواجهة إمبراطور الهابسبرج .

وحينما وجه شارل اللوم والتوبيخ لفرانسوا لتعاطفه مع المسلمين ، وعد بالإنضمام للحملة الصليبية ضدهم ، وأرسل فى ذات الوقت مبعوثاً خاصاً إلى

استانبول ليشرح أبعاد الموقف للعثمانيين حتى يقتنع السلطان بمدى حاجته للدعم والتأييد ، وكان سليمان من جانبه يشعر بالرضى ويعتبر هذا التحالف ركناً أساسياً فى سياسته الخارجية . وهكذا كان الدور العثمانى واضحاً خلال القرن السادس عشر كقوة مؤثرة فى التوازن الدولى والذى اعتمد أساساً على التفوق العسكرى والسياسى للدولة العثمانية .

ومع تعاظم القوة الدولية للعثمانيين ابتكروا أسلوباً ذكياً يجعلهم على علم بأحداث الغرب الأوروبى وإتجاهاته ، فجعلوا من البنادقة المصدر الرئيسى للمعلومات ، إذ كانوا سفراء دائمين فى البلاط العثمانى ، وهؤلاء بدورهم نقلوا للغرب تقارير عن شخصية السلطان ونشاطاته . ويعتبر أقدم وصف للسلطان سليمان ما جاء على لسان السفير البندقى بارثلميو كونتارينى وذلك بعد أسابيع من جلوسه على العرش إذ قال : « يبلغ السلطان الجديد من العمر خمسة وعشرين عاماً ، ويتميز بطول القامة وقوة البنية والوقار ، وله وجه نحيف وأنف معقوف ولحية قصيرة وبشرة صافية ، كما أنه حكيم ومولع بالقراءة والجميع يتوسمون الخير فى حكمه » . وقد تلقى سليمان تعليمه فى مدرسة القصر السلطانى فى استانبول ، ونشأ على التقاليد المتحضرة وكان موضع إحترام من الشعب فى مدينتى استانبول وأدرنة ، كما مارس السلطان أيضاً العمل الإدارى إذ تولى إدارة ثلاثة ولايات منذ كان أميراً وأثبت نجاحه التام فى هذا المجال . وهكذا كان سليمان رجل دولة جمع بين قوة البصيرة والمواهب العملية والمروءة والشهامة ، وهذه الصفات جعلت شخصيته تتوافق مع عصر النهضة الذى حكم فيه . ومن الناحية الدينية كان يتميز بالعقيدة الراسخة ولم يحمل روح التعصب التى كانت لدى والده ومن ثم قام بواجبه الدينى كحامى للإسلام على أكمل وجه ، وأثبت أيضاً تفوقه فى المجال العسكرى متبعاً سنة أجداده فى حماية حدود البلاد ومنازلة القوى المسيحية فى الغرب ، واتسع نطاق عملياته العسكرية فى الغرب أكثر من السلطان محمد الفاتح وتأثر فى ذلك بتاريخ الإسكندر الأكبر الذى كان هدفه الأساسى هو التوحيد والمزج بين شعب الشرق والغرب .

لقد وصل سليمان فى تقدمه العسكرى إلى قلب أوروبا وأصبح لزاماً عليه أن يحتك بالمناطق التى يحكمها الإمبراطور شارل الخامس وشكل تهديداً له بالفعل ، كما وُصل إلى ممتلكات الهابسبرج فى البحر الأبيض المتوسط لأنه كان دائمًا يشن المعارك فى الجبهتين البحرية والبرية فى آن واحد ، ونجح فى الوصول إلى سواحل أسبانيا وشمال أفريقيا ، ووضع خطة تهدف إلى الوصول إلى المناطق التى فشل الفاتح فى السيطرة عليها وهى بلجراد ورودس .

وبالنسبة لبلجراد ، فقد استطاع سليمان الإستفادة من ضعف المجر كحلقة هامة فى سلسلة دفاعات الهابسبرج ، وقام بحصار بلجراد ثم وجه إليها قذائف المدفعية الثقيلة من إحدى جزر الدانوب ، وقد سجل هذا الحدث فى مذكراته قائلاً : « بعد أن فشل المدافعون عن المدينة فى الحفاظ عليها أشعلت بها النيران فإنسحب المدافعون إلى القلعة » ، وبالفعل تراجع المدافعون خلف الأسوار ورفعت الحامية لواء الإستسلام بعد أن فشلت الحكومة المجرية فى إرسال أى مدد إليها .

وقد عاد السلطان إلى استانبول بعد أن ترك حامية عسكرية عثمانية من الانكشارية فى بلجراد ، وإستقبله الشعب إستقبال الظافرين ، وبات واثقًا أن سهول المجر والحوض الأعلى لنهر الدانوب قد أصبح فى قبضة العثمانيين ، إلا أنه بعد مرور أربعة أعوام اضطر إلى إرسال حملة جديدة إلى هذه المنطقة .

ثم تحولت أنظار السلطان من وسط أوروبا إلى شرق البحر المتوسط حيث سار بخطى واسعة فى تقوية وسائل الاتصال البحرية بين استانبول والمناطق العثمانية الجديدة فى مصر وسوريا والتى كانت فى حاجة إلى التحصين ضد القوى المسيحية القابعة قريبًا فى جزيرة رودس ، وهم فرسان القديس يوحنا الذين كانوا على درجة عالية من الكفاءة القتالية ، وشكلوا منافسًا قويًا وخصمًا للأتراك وكانوا يعملون بشكل خاص فى مجال القرصنة وقطع الطريق على السفن فى البحار . وكانت السفن التجارية العثمانية المتجهة إلى الإسكندرية تتعرض لهجمات هؤلاء القراصنة ، وطالما سلبوا شحنات التبغ فى طريقها إلى مصر ، كما شنوا هجماتهم على سفن الحجاج فى طريقها إلى

مكة من السويس ، ودعموا بعض الثورات ضد السلطات العثمانية فى سوريا ، ومن أجل ذلك قرر السلطان مهاجمة رودس وأعد أسطولاً من ٤٠٠ سفينة ، وجيشًا بريًا قوامه ١٠٠ ألف مقاتل تحت قيادته شخصيًا وسار به من آسيا الصغرى حتى وصل إلى الساحل قبالة الجزيرة .

وقد كان على رأس قوات الفرسان فى رودس ڤيليه Villiers وهو قائد قدير تميز بالشجاعة وقوة الإرادة والإخلاص للعقيدة المسيحية ، ووضع الخطط السريعة للدفاع عن قلاع الجزيرة ودعم أسوارها التى كانت قد تهدمت منذ حصار الفاتح ، كما دعم الحامية الموجودة بها بـ ٧٠٠ فارس من أوروبا و٥٠٠ قواس من كريت وهؤلاء قدموا إلى الجزيرة على السفن المحملة ببراميل النبيذ الكريتى حيث اختبئوا بينها وبين شحنات الإمدادات الغذائية الأخرى ، كما ضمن حياد البندقية . ومنذ بداية الحصار والمدفعية العثمانية تقوم بدورها على أكمل وجه حيث كانت المدفعية العثمانية من أفضل أنواع المدفعيات فى العالم ، كما برع العثمانيون فى وضع الخطط الهجومية ضد المواقع الحصينة ، وحفروا الخنادق وزودوها بحملة البنادق وفرق قاذفى النيران على نطاق واسع . وبعد أن وصل الأسطول العثمانى إلى الجزيرة وتحددت مواقع المدفعية ، كان هذا العمل قد انتهى فى أواخر شهر يولية ١٥٢٢ م ولحق السلطان بجيشه الذى ضم خمسة فرق عسكرية سرعان ما اتخذت مواقعها الأمامية قبالة الأسوار على شكل هلال فى مواجهة الفرسان الفرنسيين والألمان والإنجليز والإيطاليين وغيرهم من العناصر القادمة من بروڤانس وأراجون . وفى اليوم التالى بدأ القذف العنيف الذى استمر شهراً وواجه مقاومة شرسة من المدافعين مما أصاب السلطان بخيبة الأمل . غير أن الخنادق التى حفرها العثمانيون جعلت من السهل وضع المدافع فى نقاط هامة أمام الأسوار وكان الفضل فى هذا العمل يرجع إلى جهود رعايا السلطان المسيحيين من ولايات البوسنة وبلغاريا والأفلاق .

وعند بداية شهر سبتمبر تمكنت القوات العثمانية من الإقتراب بشكل كاف من أسوار القلعة وبدأت عملية إحداث الثقوب بها ، ولكن سرعان ما جاء الفرسان المسيحيون بخبير خنادق إيطالى سبق له الخدمة عند البنادقة

ويدعى مارتيننجو Martinengo ، وبدأ حفر خنادق وصل بها إلى خنادق العثمانيين واخترقها في عدة نقاط ، واستطاع إقامة محطات للتنصت عليهم بأسلوب من إبتكاره وهو عبارة عن طبول من الرق تحدث صوتاً لأقل حركة تصدر من الأتراك ، ثم قام بتدريب فريق من الروديسيين عليها .

وفى فجر يوم ٢٤ سبتمبر شن العثمانيون عدة هجمات من المدفعية التى نصبتها الانكشارية في عدة مواقع والتى غطت سحب دخانها الأسود السماء ، وبعد حوالى ست ساعات من القتال الضارى الذى لم تشهد مثله ساحات القتال بين المسلمين والمسيحيين تقهقر المهاجمون إلى الخلف وسط خسائر جسيمة قدرت بآلاف الرجال . ولم يخاطر السلطان بعد ذلك بهجوم جديد لفترة تقترب من الشهرين ، وشغل نفسة بعمليات حفر الخنادق التى امتدت لأعماق كبيرة أسفل المدينة ، وعند حلول الشتاء كانت الروح المعنوية للجنود العثمانيين قد بلغت أدنى درجة . وفى الجانب المقابل كان الفرسان فى الجزيرة فى حالة من الإحباط برغم أن أعداد الجرحى منهم لم تصل إلى عشر الجرحى عند العثمانيين لكن ذلك كان يشكل نقصاً خطيراً فى صفوفهم ، كما كانت الإمدادات والذخيرة فى تناقص واضح ، ومن ثم فقد أيقنوا أن رودس لن تعمر طويلاً . كذلك ساد أوروبا ، منذ سقوط القسطنطينية ، حالة من التخاذل والتقاعس عن تقديم العون لإنقاذ هذه الجزيرة ، فقد بات واضحاً أن الدولة العثمانية منذ أن سيطرت على مصر أصبحت القوة الإسلامية الوحيدة فى شرقى البحر المتوسط ولم تضارعها قوة أخرى ، وقوتها البحرية آخذة فى التنامي ومدفعيتها أصبحت من القوة بحيث لا تستطيع الدول الأخرى الوقوف في وجهها ، فمن الأفضل فى مثل هذه الظروف عقد هدنة مشرفة معهم لإعطاء الفرسان فرصة البحث عن موطن آخر يعيشون فيه ، غير أن قائدهم ڤيلييه كان من الصليبيين أتباع مدرسة القديس لويس (١) وكان

(١) القديس لويس هو لويس التاسع ملك فرنسا من ١٢٢٦ إلى ١٢٧٠ وهو قائد الحملة الصليبية على دمياط ١٢٤٩ وأسر فى المنصورة فى العام التالى .

أنظر : La Rousse , p . 1490

على إستعداد للتضحية والمقاومة حتى الموت لينير الطريق أمام المسيحية وليحقق النصر على الأتراك الكفرة .

وبالفعل تجدد القتال مرة أخرى ولكن كان مصيره الفشل ورُفعت رايات الإستسلام على القلاع المسيحية خارج أسوار المدينة ، وكانت تعنى الدعوة لمناقشة شروط الإستسلام غير المهين ، ثم أعلنت الهدنة بعد ثلاثة أيام ووصلت مقترحات السلطان وتضمنت الآتى :

- السماح للفرسان ومن يرغب من السكان بمغادرة الجزيرة بأمتعتهم فى أمان تام .

- من يفضل البقاء من السكان يسمح لهم بالبقاء فى ديارهم والإحتفاظ بملكيتها وبحرية أداء الشعائر الدينية وبإعفاء ضريبى لمدة خمسة أعوام .

وبعد مناقشات ساخنة فى المجلس الذى عقده فرسان الجزيرة ، تقرر قبول شروط السلطان إرضاء للرب وحماية لأرواح البسطاء والأطفال والنساء . وكان القائد الأعلى يفضل الإستمرار فى المقاومة برغم أن الحامية كانت عاجزة عن الإستمرار فى القتال وهددت بإشعال ثورة عامة بالتضامن مع مواطنى الجزيرة . وهكذا وبعد حصار دام مائة وخمسة وأربعين يومًا ، أعلن الفرسان تسليم الجزيرة فى يوم عيد الميلاد ، ونفذ السلطان شروطه ، ثم أصدر وعداً آخر يقضى بالسماح للسفن العثمانية بنقل السكان الذين يرغبون فى الرحيل ، كما أقر بتبادل الأسرى بين الطرفين ، غير أن فرقة من الانكشارية دخلت المدينة ونقضت شروط السلطان بدون علمه وأعملت فيها السلب والنهب وارتكبت الفظائع فى شوارعها .

وقد أقيم إحتفال لتسليم المدينة للعثمانيون ، وقدم فيه قائد الفرسان فروض الطاعة والولاء للسلطان الذى عامله بدوره معاملة كريمة ، وفى ١ يناير ١٥٢٣ غادر الجزيرة مع فرسانه وأتباعه وحملتهم سفينة كانت راسية بعيداً فى جزيرة كريت ولم يستطيعوا مواصلة الرحلة إلى صقلية أو إلى روما

بعد أن فقدوا الكثير من ممتلكاتهم ، وظلوا بلا وطن لخمسة أعوام ، وأخيراً استقروا فى جزيرة مالطة وعادوا لمحاربة العثمانيين من جديد . وكان خروج هؤلاء الفرسان من رودس ضربة موجهة للمسيحية التى دخلت فى مواجهة مع أخطر تهديد بحرى عثمانى فى منطقة جزر بحر إيجة وشرق البحر المتوسط .

الفصل الثالث عشر

وهكذا أثبتت القوات العسكرية للسلطان سليمان كفاءة قتالية عالية فى حملتين متواليتين ، ثم قرر بعدها قضاء فترة للراحة فى قصوره المنيفة . ولم يبدأ الاستعداد للحملة الثالثة إلا بعد مرور ثلاثة أعوام ، وقد شغل نفسه فى هذه الفترة بإدخال تحسينات على نظام الإدارة الداخلية للبلاد ، وقام بزيارة أدرنة للمرة الأولى منذ جلوسه على العرش حيث استمتع برحلة صيد برى ، ثم واجه مشكلة فى مصر حينما أعلن الوالى العثمانى أحمد باشا (١) الثورة على الدولة وتمرد على سلطة السلطان ، فكلف الأخير إبرهيم باشا الصدر الأعظم بالتوجه إلى مصر وإعادة الأمن والنظام إليها وإعادة تنظيم شئونها الإدارية . كما واجه السلطان ثورة مشابهة من الانكشارية عند عودته من أدرنة إلى استانبول حيث طالبوا بنصيبهم فى غنائم الحملات السنوية على المناطق المختلفة ، وأثاروا بذلك سخط السلطان عليهم ، وقد استمرت هذه المشكلة طوال عهود جميع السلاطين تقريباً بعد أن تزايدت قوة الانكشارية وصاحبها شعورهم بمدى أهميتهم وإعتماد السلاطين عليهم فى الفتوحات المختلفة وبأنهم يشكلون ركنًا أساسيًا فى جيوش السلطنة ولكنهم برغم ذلك كانوا يجتمعون فى فترة الحرب على الطاعة والإخلاص لسيدهم . كما كانت الانكشارية تقوم ببعض حركات العصيان فى المناطق المفتوحة مثل النهب والسلب ، وأحيانًا كانوا يرفضون الخروج للحملات اعتراضًا على مدى أهميتها أو للرغبة فى الراحة ، ولكن فى فترات السلم ظلوا على انضباطهم الواضح ، ولم يلجأوا إلى القلاقل إلا عند وفاة أحد السلاطين وإعتلاء آخر للعرش حيث كانوا يطالبون بمبالغ مالية (٢) محددة .

وفى شهر ربيع من عام ١٥٢٥م أعلنت الانكشارية التمرد وقاموا بنهب الحوانيت فى أحياء اليهود وكذلك منازل كبار موظفى الدولة وقتلوا عدداً من

---

(١) حول المزيد عن ثوة أحمد باشا والى مصر .
أنظر عمر عبد العزيز عمر، تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، الإسكندرية ١٩٩٦ م .

(٢) عرفت هذه المبالغ فيما بعد بالبخشيش أو البقشيش وقد جعلتها الانكشارية تقليداً عند إعتلاء كل سلطان جديد للعرش .
أنظر : عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ ١ .

الأشخاص وكانوا يرغبون فى قتل المزيد لولا أن سدد زملاؤهم الرماح إليهم وألقى القبض على المتمردين ، غير أن الثورة لم تهدأ إلا بعد إعدام أغا الانكشارية (١) وعدد من الضباط الثائرين وعزل البعض الآخر من مناصبهم . وهكذا فإن النظام العسكرى فى الدولة العثمانية كان يكلف الخزينة السلطانية أموالاً طائلة فى شكل منح مالية مستمرة وحملات للقضاء على تمردات الانكشارية المتوالية .

لقد استدعى السلطان إبراهيم باشا من مصر وعينه قائداً عامًا للفرق العسكرية السلطانية وأصبح بذلك القائد الثانى لجيش ضخم تحت إمرة السلطان ، ثم بدأ تحركه للمرة الثانية إلى المجر بعد أن أدى الإستيلاء على بلجراد إلى فتح الطريق للدانوب . ويمثل إبراهيم باشا الكثير من الجوانب المضيئة لعصر السلطان سليمان ، وكان يبلغ من العمر واحداً وثلاثين عامًا وهو من أصل يونانى مسيحى فوالده كان أحد البحارة من جزيرة بارجا Parga فى البحر الأيونى ، ويقول إبراهيم أنه ولد فى نفس العام ونفس الأسبوع الذى ولد فيه السلطان سليمان ، وأن أحد القراصنة الأتراك أسروه فى طفولته وباعوه لأرملة فى إقليم مغنيسيا تولت تربيته وتعليمه وذربته على العزف على بعض الآلات الموسيقية ، ثم أصبح فى شبابه من عبيد السلطان ثم حاكمًا على أقليم مغنيسيا نظراً لكفاءته وموهبته ، وتدرج فى الوظائف حتى أصبح من أفضل مستشارى السلطان ومن أصحاب الحظوة لديه ، وذكر أنه كان ينام فى أحد أجنحة السلطان ويتناول الطعام معه ويقاسمه أعماله ويتبادل معه الرأى أثناء خلواتهما ، إذ كان السلطان فى حاجة إلى من يخرجه من صمته ويجادله بذكاء ويحاوره فى خططه وأفكاره نظراً لأنه كان هادئ الطباع ومحافظًا فى سلوكه وصامتاً ويميل إلى الحزن بعض الشئ .

ولقد تزوج إبراهيم من إحدى قريبات السلطان وبرعايته حيث أقام له

---

(١) أغا الانكشارية يعتبر من أكبر الشخصيات فى العاصمة ، وهو القائد العام لفرق الانكشارية وبمثابة رئيس شرطة استانبول .
أنظر : جب ، بوون ، المجتمع الإسلامى والغرب ، جـ ١ .

احتفالاً ضخماً تميز بالفخامة ، ثم تدرج في المناصب الإدارية بسرعة كبيرة لدرجة أنه كان يخشى على نفسه من هذه السرعة التي قد يكون فيها الدمار والنهاية القريبة ، ولذلك توسل إلى السلطان أن يتريث في ترقيته ، ولما أدرك سليمان هذه المخاوف أقسم ألا يتعرض إبراهيم للقتل طوال فترة حكمه ، غير أن أحد مؤرخي القرن التالي أشار إلى تغير مجريات الأحداث بقوله : « إن أحوال السلاطين الذين هم من البشر عرضة للتغير والتبدل وقد يصيبهم الغرور والقسوة ، وهذا ما جعل سليمان يحنث في قسمه ويعرض إبراهيم للغدر والخديعة » .

إن ثورة الانكشارية التي حدثت في المجر جعلت السلطان يسارع باتخاذ قرار إنفاذ الحملة إليها ولكنه تأثر بعض الشئ لخبر وقوع الملك فرنسوا الأول ملك فرنسا في الأسر بواسطة الهابسبرج في موقعة بافيا Pavia (١) في عام ١٥٢٥ ، حيث وصله مبعوث خاص من فرنسوا من سجنه في مدريد حاملاً رسالة سرية وضعها في قاع حذائه يتوسل فيها إلى السلطان أن يرسل حملة ضد شارل الخامس وإلا سيصبح سيد العالم . وقد صادف هذا النداء توافقاً مع خطط سليمان تجاه المجر ، تلك الدولة التي ليس لها ولاء لأحد ولا تصادق أحداً وتعاني من الانهيار الداخلي والانقسام بين حزب الملك الضعيف لويس الثاني وحاشيته والذين كانوا يتمتعون بتأييد الإمبراطور ، وحزب چون زابوليا حاكم إقليم ترنسلفانيا القوى والذى يدعمه نفر من الأثرياء من طبقة ملاك الأراضي ، وهؤلاء نظروا إلى العثمانيين كمنقذين ، ومن ثم كان السلطان يستطيع دخول المجر كعدو لملكها وللإمبراطور وكصديق لملاك الأراضي الأثرياء .

وكان النزاع قائمًا بين العثمانيين والمجريين حول الحدود منذ سقوط مدينة بلجراد ، ولذلك أمر السلطان في ٢٣ أبريل ١٥٢٦ ببناء جسرين عبر نهرى سافا ودرافا الواقعين شمال غرب المجر على نهر

---

(١) بافيا مدينة إيطالية في منطقة لمبارديا وفيها وقعت أحداث المعركة التي حملت إسمها وكانت بين فرنسا وأسبانيا في ٢٤ فبراير ١٥٢٥ وأسر فيه فرنسوا الأول .
أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، التاريخ الأوروبي الأمريكي ، ص ١٠١ .

الدانوب ، ثم بدأ سيره تجاه الغرب على رأس جيش جرار ضم مئات الآلاف من الجنود نصفهم تقريبًا من القوات النظامية من البيادة (الانكشارية) والسباهية التى تعيش على نظام الإقطاع العسكرى ، وفرق المدفعية ، والنصف الثانى ضم فرق غير نظامية وهى المعروفة باسم « العزب » وفرسان « الاكنجى» الذين لا يتقاضون مرتبات ثابتة ويعيشون على أسلاب الحرب ، وهؤلاء عادة كانوا يستخدمون كطلائع فى الصفوف الأمامية عند بدء الهجوم أو يقومون بعمليات غزو للأراضى وبث الرعب فى نفوس السكان ، وكانت جميع هذه الفرق النظامية وغير النظامية تمثل وحدة واحدة أثناء المعارك العسكرية تحت قيادة السلطان فهو القائد الأعلى للجيوش وحاكم البلاد ، وكان السلطان عادة يتخذ موقعاً متوسطاً بين جنده ويحيط به الوزراء من كل جانب .

لقد كان الطقس قاسيًا حيث اجتاحت السيول والعواصف العاتية والفيضانات الشديدة الطرق أمامها وجرفت الجسور ولذلك كان تقدم قوات السلطان بطيئًا ، ولم تلتحم مع قوات العدو إلا بعد ثلاثة شهور، وبرغم أن الجيش العثمانى كان مدعماً بأسطول فى الدانوب من مئات من القوارب الصغيرة إلا أن شدة التيار أعاقته عن الوصول إلى اليابسة بسهولة . لقد كان الانضباط واضحاً فى المعسكر العثمانى كما هو مألوف ، وقد سجل السلطان فى مذكراته أخبار الحملة فى حوادث عام ١٥٢٦ قائلاً : « فى ١٠ مايو تم قطع رأس أحد الجنود لأنه حاول دهس الحصاد فى منطقة بالقرب من قرية كمال . وفى يوم ١١ مايو قطعت رؤوس اثنين من الجند لاتهامهم بسرقة بعض الأجياد . وفى٥ يونية قطعت رؤوس اثنين من حاملى السلاح (سلاح دار) لأنهما أطلقا جواديهما فى مراعى بعيدة عن تجمعات الجند » .

وفى أثناء سير الحملة كان السلطان يعتمد إعتماداً كبيراً على إبراهيم باشا إذ كان على رأس فرقة تمهيد الطريق أمام الجيش وأتم بناء الجسور على نهر سافا ليجدها الجيش مكتملة عند وصوله إلى بلجراد ، وقد تراجع العدو أمام العثمانيين إلى شمال الدانوب تاركاً حامية على الضفة الجنوبية فى قلعة بيتر واردين Peter wardein فأمر السللطان إبراهيم باشا بالإستيلاء على المدينة والقلعة وأكد له أنه يرغب فى تناول إفطاره فى اليوم التالى فى مدينة فينيا حتى يستثير حماسته ، وبالفعل نجح إبراهيم فى شن عدة هجمات على جدران القلعة حتى فتح ثغرة بها وساعده فى ذلك الخنادق العديدة التى

حفرها حولها . وقد سجل السلطان هذا الحدث فى مذكراته قائلاً : « تم قطع رؤوس حوالى ٥٠٠ جندى ممن كانوا فى القلعة وتحول ٣٠٠ آخرون إلى عبيد » .

وهكذا تحرك جيش السلطان جهة الغرب بطول نهر درافا حيث كان من المتوقع الاشتباك مع المجريين عند هذه النقطة ، ولكن أثار دهشة العثمانيين أن المجريين تركوا الضفة الشمالية للنهر بدون دفاع مما أدى إلى سقوط القلاع تباعًا فى أيديهم ، واضطر العدو لوضع خطة جديدة أكثر تعقلاً ولكن بعد أن سقطت مدينة إيشك Essek فى يد السلطان قرر بناء جسر عبر هذا النهر وكان مقدراً لهذا العمل ثلاثة شهور كما جاء فى كتابات المؤرخ التركى كمال زادة ، ولكن بفضل مهارة وذكاء الصدر الأعظم تم إنجازه فى ثلاثة أيام ، وبعد أن عبر الجيش أمر السلطان بتدمير الجسر حتى يتوفر الأمان الكامل من جهة العدو وحتى لا يفكر الجند فى التراجع .

لقد جمع المجريون قواتهم فى سهل موهاكس Mohacs الذى كان يقع على مسافة ثلاثين ميلاً جهة الشمال ، ثم وصل الملك الصغير لويس على رأس جيش قوامه ٤٠٠٠ مقاتل ثم لحقت به فرق البولنديين والألمان والبوهيميين فأصبح المجموع النهائى ٢٥ ألف مقاتل . وكانت المجر قد صادفت الكثير من العقبات من أجل الحصول على العون العسكرى من الإمبراطور شارل الخامس لأنه كان مشغولاً فى الصراع مع البروتستانت الذين كانوا يرون أن البابا هو العدو وليس الأتراك العثمانيين ولم يدركوا خطورة الصراع بين الهابسبرج والعثمانيين ، وفى عم ١٥٢١ رفض دايت ورمس (١) تقديم العون والمساعدة للدفاع عن بلجراد ، وأخيراً وبعد فوات الأوان وافق دايت سبير فى عام ١٥٢٦م على تدعيم جيش موهاكس (٢) .

---

(١) عقد الإمبراطور شارل الخامس مجلس ورمس worms فى ١٥٢١ بألمانيا بإيعاز من البابا لتنفيذ قرار الحرمان فى مارتن لوثر .
أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، التاريخ الأوروبى الأمريكى ، ص ١٥٧ .

(٢) عقد الإمبراطور شارل الخامس دايت سبير فى بفاريا ١٥٢٦ لبحث المسألة الدينية وتقرر فيه منح كل أمير الحرية الدينية فى إمارته .
أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص ١٦٧ .

وكانت خطة المجر تقوم على استدراج العثمانيين إلى المواقع الحصينة باتجاه مدينة بودا Buda (١) ثم قطع خطوط اتصالاتهم والإستفادة من التحصينات التى أقامها زابوليا ومن مهارة الفرق البوهيمية ، ولكن غالبية المجريين كانوا يشعرون بالغرور وبإمكانية تحقيق النصر السريع على العدو وعلى رأسهم أحد القادة من النبلاء يدعى ماجيار والذى كان لا يثق فى الملك لويس ولا فى زابوليا وكان يحلم بهجوم خاطف يحقق النصر السريع . وكان ميدان المعركة هو منطقة السهول الواقعة غرب الدانوب وعلى مسافة ستة أميال منه وهى منطقة صالحة تمامًا لحركة الفرسان المجريين وكذلك الفرسان العثمانيين ، وكان العدو ينتظر وصول المدد الإضافى وهو ٢٠ ألف فدائى مجهزين بأسلحتهم بعد أن يباركهم البابا . وعند بدء المعركة ظهر القصور فى نزول الفرسان المجريين بأسلحتهم الثقيلة بقيادة الملك لويس إلى ميدان القتال ، وكانت خطوط الدفاع العثمانية الرئيسية مركزة فى القلب وممثلة فى الانكشارية الملتفة حول السلطان وحاشيته ، ولذلك وقع تشابك بالأيدى بين الطرفين وتعرض السلطان نفسه لخطر السهام والرماح التى أصابت درعه ، غير أن سلاح المدفعية العثمانية الممتاز قام بدور فعال وتمكن من حصد آلاف المجريين وتشتيت صفوفهم ، وسارع الناجون منهم بالهروب من أرض المعركة بشكل عشوائى فى اتجاه الشمال والشرق ، وفى خلال ساعة ونصف الساعة من الزمن كانت المعركة قد حسمت لصالح العثمانيين . أما ملك المجر فقد لقى حتفه أثناء محاولته الهروب من أرض المعركة بعد أن أصيب إصابة قاتلة فى الرأس ، وكان يغطى جسده وخوذته كمية كبيرة من المجوهرات بعد أن عثر عليه أسفل جواده ، وبموته انتهت دولته لأنه لم يترك وريثًا للعرش ، كما مات فى المعركة عدد غير قليل من النبلاء وثمانية من الأساقفة ، ويقال أن السلطان شعر بالحزن على وفاة الملك وعبر عن ذلك قائلاً : « فليرحمه الله ويجازى من غرروا به ، لم يكن قصدى قتله خاصة وأنه لم يتذوق بعد طعم الحياة والسلطة » .

---

(١) بودا هى مدينة بودابست الآن عاصمة المجر والتى أقيمت على أنقاض مدينة بودا القديمة وهى تقع على الضفة اليمنى للدانوب .

أنظر : La Rousse , p . 1204

وبدافع الشهامة أصدر السلطان أوامره بعدم أخذ المزيد من الأسرى من المجريين ، وكان أمام خيمته هرمًا من الآلاف من رؤوس القتلى ومنهم عدد كبير من النبلاء ، وقد ورد في مذكراته ما يأتي : « في يوم ٣١ أغسطس ١٥٢٦ ، وهو اليوم التالي للمعركة ، جلس السلطان على العرش الذهبي مستقبلاً الوزراء والبكوات الذين قدموا له فروض الطاعة والولاء ، ثم أقيمت مذبحة لحوالي ٢٠٠٠ أسير ، وهطلت الأمطار بغزارة . وفي يوم ٢ سبتمبر كان في موهاكس حوالي ٢٠ ألفًا من المشاة المجريين و٤ آلاف من الفرسان وهؤلاء تم قتلهم جميعًا ودفنهم ، ثم أضرمت النيران في موهاكس بواسطة فرق الاكنجي ، ولازال هذا المكان يحمل إسم « مقبرة الأمة المجرية » وكان الهدف هو أن يتذكر المجريون أن موهاكس فقدت كل شئ في يوم من الأيام » .

لقد كان القضاء التام على مقاومة المجر في موقعة موهاكس من الأمور التي رفعت من شأن العثمانيين في أوروبا وأصبحوا في نظر أهلها قوة لا تقهر لقرنين تاليين من الزمان . أما چون زابوليا الذي كان قد وصل إلى ميدان المعركة في اليوم التالي ، فقد انسحب عائدًا من حيث أتى بعد أن علم بالهزيمة وفي ١٠ سبتمبر دخلت قوات السلطان إلى بودا وفي الطريق أمر بقتل جميع الفلاحين باستثناء النساء وحظر على الاكنجي القيام بعمليات السلب والنهب » .

وقد أضرمت النيران في مدينة بودا بأكملها ولم يتبق سوى القصر الملكي الذي أقام به السلطان ، وجمعت الكنوز الخاصة بها في معسكر إبراهيم باشا ثم نقلت بالطريق النهري إلى بلجراد ومنه إلى استانبول . وقد ضمت هذه الكنوز المكتبة العظيمة التي ذاع صيتها في أرجاء أوروبا والتي كانت ملكًا لماتياس كورڤيناس (١) ، وثلاثة تماثيل برونزية من إيطاليا لهرقل وديانا وأبوللو .

(١) ماتياس كورڤين الأول هو ملك المجر في الفترة من ١٤٥٨ إلى ١٤٩٠ م ، وكان مقاتلاً قديرًا ومشرعًا وراعيًا للآداب ، وأسس جامعة بوسوتي وتحمل الآن اسم جامعة براتسلافا .

أنظر : La Rousse , p . 1519

وكان أهم هذه الكنوز اثنان من المدافع الضخمة التى تركها السلطان محمد الفاتح بعد حصاره لبلجراد ، وكان المجريون يفتخرون بملكيتهم لها كدليل على شجاعتهم .

وبعد أن استمتع السلطان بصيد الصقور فى البرارى وبحفلات الموسيقى فى القصر راودته الأفكار حول مستقبل هذه الدولة التى هزمها بسهولة غير متوقعة ، فقد كان من المفروض أن يضم المجر إلى ممتلكاته كما فعل من قبل مع بلجراد وردوس ولكنه فضل أن يستمتع بهذا النصر لبعض الوقت . ولما كان الجيش العثمانى قد عانى الكثير أثناء الحملة وبصفة خاصة من قسوة الطقس فى وادى الدانوب فى فصل الصيف ، ولما كان فصل الشتاء على الأبواب حاملاً معه مقدمات الطقس السئ فقد وجد السلطان أنه من العسير الاحتفاظ بالعنصر البشرى الذى يكفى لمراقبة وحماية حدود هذه البلاد . كذلك كانت المواصلات بين بودا واستانبول طويلة ولذلك فقد أرجأ اتخاذ القرار فى مصير المجر فى الوقت الراهن خاصة بعد أن وصلته أنباء قيام حركات للتمرد فى الأناضول وقليقية وقرامان وذكر المؤرخ كمال باشا زاده فى كتابه أن السلطان قال : « لم يحن بعد وقت ضم هذه المنطقة لديار الإسلام ، وسنرجئ هذا الأمر لفرصة أخرى مناسبة » . ثم قام ببناء جسر من القوارب عبر الدانوب إلى مدينة بست [1] وبعد أن أحرق المدينة بأكملها عاد بقواته باتجاه الضفة اليسرى للنهر .

وبعد جلاء السلطان بقواته عن المجر تنافس عليها اثنان من الأدعياء لعرش الملك لويس هما : الأرشيدوق فرديناند من أسرة الهابسبرج وشقيق الإمبراطور شارل الخامس وشقيق رضاع للملك لويس وكان له حق شرعى فى العرش ، والثانى چون زابوليا أمير ترانسلڤانيا الذى كان يمكنه إصدار قانون يبيح طرد الأجانب والإنفراد بالسلطة لأنه مجرى ويحكم قسماً كبيراً من البلاد وتحت يده جيش كبير يمكنه استخدامه فى تحقيق أغراضه . وقد عقد

---

(١) بست هى الجزء الجنوبى من بودا بست وتقع على الضفة اليسرى لنهر الدانوب .
أنظر : La Rousse , p . 1599

نبلاء المجر مجلسًا انتخبوا فيه زابوليا ملكًا على البلاد ودخل بودابست وتُوج ملكًا بالفعل ، ولقى هذا الإجراء قبولاً من جانب السلطان لأنه كان يعتمد على زابوليا فى تحقيق أهدافه كما كان فرانسوا الأول ملك فرنسا يدعم زابوليا ماديًا وكذا حلفائه من المناهضين للهابسبرج . ولكن بعد عدة أسابيع عقد نبلاء الألمان إجتماعًا ورشحوا فرديناند ، منافس زابوليا والمنتخب على عرش بوهيميا ، ملكًا على المجر ، مما أدى إلى قيام حرب أهلية بين فرديناند وزابوليا انتهت بإنتصار الأول وخروج الثانى منفيًا إلى بولندا . ودخل فرديناند بودا وتوج ملكًا على المجر وشرع فى تكوين دولة أوروبية مركزية تحت سيطرة الهابسبرج تضم النمسا وبوهيميا والمجر .

وكانت جميع المخططات فى حاجة إلى الاعتماد على دعم وتأييد الأتراك العثمانيين الذين كان لهم تأثيرهم على مجريات الأحداث فى التاريخ الأوروبى ؛ فقد أرسل زابوليا من منفاه فى بولندا مبعوثًا إلى استانبول يطلب تكوين حلف هجومى دفاعى مع السلطان ، وقد قوبل هذا المبعوث بحفاوة بالغة فى البداية من إبراهيم باشا ووزرائه ، وفى النهاية وافق السلطان فقط على منح زابوليا لقب ملك على الأراضى التى احتلتها جيوشه ووعده بالحماية ضد فرديناند وضد جميع أعدائه .

وتضمنت المعاهدة أيضًا أن يدفع زابوليا للسلطان جزية سنوية وأن يضم إلى حكمه عشر سكان المجر كل عشر سنوات من الجنسين ، وأن يضمن للقوات العثمانية حرية المرور فى أراضيه . وهكذا أصبح زابوليا حاكمًا تابعًا للسلطان ، وأصبح القسم الذى يحكمه من المجر عبارة عن ملكية تابعة للعثمانيين وتحت حمايتهم . أما فرديناند فقد أرسل بدوره سفارة إلى استانبول بهدف توقيع هدنة ، ولكن قوبل مبعوثيه ببرود ورفض السلطان تحقيق مطالبهم المبالغ فيها وزج بهم فى السجن .

وبعد فترة قصيرة خطط السلطان لإنفاذ حملة ثالثة إلى وادى الدانوب بصفته حاميًا لزابوليا ضد فرديناند ، وإظهاراً للتحدى للإمبراطور شارل الخامس ، وبالفعل غادر استانبول فى ١٠ مايو ١٥٢٩ على رأس جيش جرار وجعل القيادة هذه المرة لإبراهيم باشا ، وقد تأخر وصول الحملة لمدة شهر عن المحدد بسبب هطول الأمطار الموسمية فى المناطق المجاورة لڤينا ، ثم جاء زابوليا

إلى موهاكس لتقديم التحية إلى سيده ومعه ستة آلاف جندى ، وقد استقبله السلطان إستقبالاً لائقًا ووضع على رأسه التاج المقدس للقديس ستيفن . وتمكن زابوليا بعد ذلك من حصار مدينة بودا واستولى عليها ودخلها فى إحتفال كبير حيث جلس على العرش تحت اسم الملك چون . وفى ٢٧ سبتمبر وصلت قوات الإكنچى التابعة للسلطان إلى أسوار مدينة ڤينا ، وفى الحال وصلت ألسنة اللهب الأحمر إلى عنان السماء من جراء القرى المحترقة وشهد السكان فى المناطق المحيطة بڤينا عشرات الآلاف من خيام المسلمين البيض .

لقد واجه فرديناند عقبات كبيرة في سبيل إرسال المدد للدفاع عن ڤينا ، أمام الإمبراطور فقد كان مشغولاً بحروبه فى الغرب ولذلك طلب من شقيقه أن يتوصل إلى اتفاق مؤقت مع زابوليا حتى تواتيه الفرصة لإرسال القوات لمواجهة الخطر العثمانى فى الشرق . وبدلاً من أن يعمل فرديناند بهذه النصيحة قرر أن يدعو إلى حملة جديدة للدفاع عن الإمبراطورية على مسئوليته الشخصية ، وجمع بالفعل مقاتلين من بلاده ومن النمسا التى جندت عشر رجالها ومن ألمانيا بعد تردد .

كذلك وجه فريناند نداءً عامًا فى مجلس دايت سبير لطلب المساعدة ، وكنوع من التأثير أكد على قول السلطان بأنه لن ينازله فى ڤينا قبل أن يحقق النصر عليه على ضفاف الراين وأنه سيقيم نصباً تذكارياً بهذه المناسبة ، وكان لهذا القول بالفعل أثره إذ قررت غالبية المناطق المسيحية المساهمة فى الدفاع عن الإمبراطورية ضد العثمانيين حتى البروتستانت تعاطفوا مع الكاثوليك بدعوة سطحية من لوثر . وقد تأخر وصول الجيش العثمانى بسبب هطول الأمطار ، وقبل ثلاثة أيام من ظهورهم أمام أسوار مدينة ڤينا تقرر زيادة رجال حاميتها من ١٢ إلى ٢٠ ألفًا ، ولم يكن هذا العدد مجرد أقنان الإقطاعيين بل كان يضم المشاة المدربين تدريبًا جيداً والمحنكين الذين سبق لهم الاشتراك فى حملة الإمبراطور على إيطاليا بقيادة نيكولاس ڤون سالم الذى قضى وحده

أكثر من نصف قرن فى المجال العسكرى .

وبعد أن وصلت التعزيزات إلى ڤينا كانت مهمة المدافعين هى نقلها إلى القلعة نصف المدمرة والتى تحيط بها الأسوار المشيدة من العصور الوسطى والتى بلغ سمك جدرانها ستة أقدام وكان حولها سياج يطلق عليها سياج المدينة ، ولما كانت المنازل ملتصقة بأسور القلعة فقد تم إزالتها تمامًا حتى لا يستفيد المهاجمون من أى ثغرة ، وعلى ذلك تم التضحية بجميع المبانى التى تقع على مرمى المدفعية فى الضواحى وبلغ عددها ٨٠٠ منزل ومستشفى وكنائس وأديرة وقلاع كانت على الربى العالية والتى كان يمكن للأتراك الاحتماء بها . كذلك تم بناء خطوط دفاعية جديدة حول المدينة حيث شيد سور بإرتفاع عشرين قدمًا وحوله خندق ، ودعمت تحصينات الدانوب ، وكلفت جميع أجهزة المدينة بتقديم الإمدادات الغذائية ، وأقيمت الإستعدادات ضد الحرائق فأزيلت جميع المخلفات القابلة للإشتعال من على أسطح المنازل ، وحصنت بوابات المدينة بكتل خرسانية باستثناء بوابة واحدة خصصت لإستقبال الإمدادات . كما تم إخلاء المدينة من الشيوخ والنساء والأطفال والرهبان حتى لا يتكبدوا مشقة إطعامهم ، وقد وقع عدد كبير من المتبقين فى المدينة فى أيدى الإكنجى . ولم يكن فرديناند موجوداً فى المدينة عند بدء الحصار لأنه كان قد توجه إلى مدينة لينز يلتمس مساعدة الأمراء الألمان .

وكان من حسن حظ المدافعين عن المدينة أن السلطان ، بسبب الأمطار ، أضطر إلى ترك جزء كبير من المدفعية الثقيلة التى قامت بدور فعال ومؤثر فى حصار رودس واكتفى بالمدافع الخفيفة التى كان تأثيرها ضعيفاً على الأسوار ، ومن ثم كان اعتماده الأساسى على الخنادق . وقد أساء سليمان التقدير حينما عرض شروط التسليم على الحامية معلناً أنه ما جاء إلا ليتعقب الملك فرديناند وأنه سيدخل المدينة خلال ثلاثة أيام فى عيد القديس ميخائيل وأنه سيدمرها ويمحوها من الوجود ولن يبق على أحد من سكانها ، فقد مر أربعة عشرة يوماً والأهالى صامدون ، ثم هطلت الأمطار يوم العيد فجعلت الأتراك يستشعرون البرودة فى خيامهم الخفيفة ، وقد وصلت السلطان رسالة مع أحد

الأسرى المفرج عنهم تقول إن صباحه أصبح بارداً وليعلم أن الإمدادات وضربات المدافع لن تنقطع من خلف الأسوار .

لقد كان حملة البنادق الأتراك على درجة عالية من المهارة واليقظة حتى أنهم كانوا يوجهون طلقاتهم لأى مدافع يظهر خلف الأسوار ، كذلك كان رماة الأقواس يختبئون بين أطلال الضواحى ويسددون سهامهم بقوة حتى أحدثوا تلفيات فى الأسوار وجعلوا السكان يخشون الخروج إلى الشوارع وسط السهام التى تنطلق من جميع الجهات ، وقد احتفظ أهالى فينا ببعض هذه السهام كتذكرة وكانت جيدة الصنع ومرصعة بالأحجار الكريمة .

وبرغم وجود خط دفاع قوى عن المدينة وبرغم خنادق العثمانيين فقد لحق التلف بالأسوار إلا أن الغلبة فى كل مرة كانت للمدافعين الذين كانوا يسارعون إلى إعلان النصر على دقات الطبول والموسيقى العسكرية ، وكانوا يخرجون بين الحين والآخر ليتصيدوا الأسرى والحصول على المغانم ، وبلغ ما حصلوا عليه فى إحدى الهجمات ثمانين أسيراً وخمسة جمال

لقد كان السلطان يدير المعارك العسكرية من خيمته المفروشة بالبسط الفاخرة والمزينة بالثريات الرائعة والتى خصص جزءاً منها لعقد جلسات الديوان وزينه بالمجوهرات وأقام أمامه قمماً ذهبية عالية ، ومن هذا المكان كان يناظر الأسرى المسيحيين ثم يعيدهم إلى مدينتهم مع التهديد والوعيد ، وكان يمنحهم بعض العطايا من الثياب والدوكات التركية دون أن يلحق بهم أدنى ضرر إذ كان يعتبرهم أرواحاً شريرة . وقام إبراهيم باشا أيضًا بدور هام فى إدارة عملية الحصار وكان يوزع المكافآت والهدايا الذهبية على الجنود تشجيعًا لهم بعد قطع رأس أحد الأعداء أو بعد القيام بهجوم ناجح ، وحينما كان يشعر بانخفاض روحهم المعنوية كان يسوقهم بالعصى والسيوف .

وفى مساء ١٢ أكتوبر عقد السلطان مجلساً للديوان فى الخيمة السلطانية للوصول إلى قرار حول إستمرار الحصار من عدمه ، وكان رأى إبراهيم باشا

يمثل وجهة نظر الأغلبية وهو تفضيل الانسحاب لأن الشتاء على الأبواب والإمدادات فى تناقص والانكشارية متذمرين والعدو يواصل تعزيز قواته . وبعد طول نقاش تقرر أن يشن الأتراك هجومًا رابعًا جديداً مع بذل الوعود للجنود بمكافآت مجزية فى حالة الإنتصار . وفى ١٤ أكتوبر بدأ هجوم الانكشارية ولكنهم واجهوا مقاومة شرسة من المدافعين استمرت لعدة ساعات وفشلوا فى اختراق الأسوار من ثغرة قطرها ١٥٠ قدم وكانت الخسائر فى الجانب العثمانى فادحة مما أصابهم بخيبة الأمل . لقد كان الجيش العثمانى أساسًا جيشاً صيفياً وكانت فرق السباهية الإقطاعية لا تقوم بحملاتها شتاء حتى لا تهلك الجياد وكانت الحملات فصلية كل ستة شهور ، كذلك كان السلطان والوزراء المرافقين لا يستطيعون التغيب عن استانبول أكثر من ذلك . وفى منتصف أكتوبر شن العثمانيون الهجوم الأخير الفاشل ورفعوا الحصار وأعلنوا الإنسحاب العام بعد أن أشعلوا النيران فى معسكرهم وذبحوا وأحرقوا جميع الأسرى الأحياء باستثناء الشباب من الجنسين ممن يصلحون للبيع كعبيد . وأثناء رحلة العودة واجه الجيش مناوشات فروسية العدو وسط ظروف جوية قاسية ، ثم دقت أجراس الكنائس معلنة الانتصار على العدو مصحوبة بطلقات المدافع وأصوات الشكر لله من كاتدرائية سان ستيفن وأناشيد النصر .

لقد أُنقذ قلب أوروبا المسيحية من الأتراك العثمانيين وكابد السلطان سليمان أول هزيمة ورحل عن أسوار أكبر عاصمة استطاعت أن تنتصر عليه بقوة لا تزيد على ثلث قواته العسكرية ، وعند مدينة بودا خرج تابعه زابوليا ليقدم له التهنئة على « الحملة الناجحة » ، وكذلك أظهر سليمان الإنطباع لدى رعاياه فأعلن – حفظًا لماء الوجه – أنه لم يقصد الإستيلاء على فينا ولكن محاربة الأرشيدوق فرديناند الذى لم يجرؤ على الاشتباك معه فى معركة وأنه لا يستحق لقب ملك وأنه ليس أكثر من حاكم ضعيف لا يذكر . وقد استرد سليمان كرامته أمام العالم عندما وصلت سفارة ثانية إلى استانبول من فرديناند تطلب توقيع هدنة مقابل دفع منحة سنوية للسلطان ، كما أرسل سفارة أخرى إلى الصدر الأعظم بنفس المعنى فى مقابل الاعتراف به ملكًا على المجر مع طرد زابوليا من بودا ودخول فرديناند إليها ، وهنا أشار إبراهيم باشا بغرور إلى قلعة الأبراج السبعة حيث تتوارى كنوز السلطان ، وقال أنه لن

يخون سيده أبداً ورفض استخدام لقب أرشيدوق لفرديناند ولقب إمبراطور لشارل مؤكداً أن هذا اللقب من حق السلطان سليمان فقط .

وهكذا تأكد المبعوثون أنه لا يمكن التوصل إلى اتفاقية سلام مشروعة إلا مع السلطان غير أن الأخير كان يكن كراهية شديدة للإمبراطور ورغبة فى الانتقام منه لم يطلق عليه غير لقب « ملك أسبانيا » فقط ، ومن ثم أرسل قواته البرية من جديد إلى الدانوب فى ٢٦ أبريل ١٥٣٢ ودعمها بأسطول نهرى كبير . وقبل أن يصل الجيش إلى بلجراد قابله أكثر من مبعوث من فرديناند وجددوا عروض السلام وفق شروط معقولة مع زيادة فى قيمة المنحة والإستعداد للإعتراف بإدعاءات زابوليا بشروط خاصة ، ولكن السلطان عقد إجتماعًا مع هؤلاء المبعوثين بحضور مبعوث ملك فرنسا حتى يوضح لهم أن العدو ليس فرديناند ولكن ملك فرنسا ثم قال بتحدى : « إن شارل ملك أسبانيا أعلن مراراً أنه يرغب فى محاربة الأتراك ، ولذلك سأتوجه فى رعاية الله لمحاربته على رأس جيش ضخم ، فإذا كان شجاعًا فليتقابل معى فى ميدان القتال وسيقضى الله أمراً كان مفعولاً ، وإذا لم يكن لديه الرغبة فى لقائى فليرسل المنحة إلى بلاطى » .

وفى هذه الأثناء عاد الإمبراطور من ممتلكاته فى ألمانيا بعد أن عقد صلحًا مع فرنسا ، وحينما تنبه إلى خطورة التهديد التركى وجد من أن من واجبه الدفاع عن أوروبا ضده ، فأعد قوة إمبراطورية ضخمة وجهزها بشكل لم يعهده الأتراك من قبل مؤكداً على أن هذه المعركة ستكون الفاصلة فى الصراع بين المسيحية والإسلام ، واندفع الجنود إلى حلبة الصراع من جميع أنحاء بلاده ، من مناطق الألب فى إيطاليا ومن أسبانيا مكونين جيشًا ضخمًا لم تشهده أوروبا من قبل .

ووجد الإمبراطور أنه ينبغى أن يصل إلى صلح سريع مع اللوثريين حتى يضمن سلامة الجبهة الداخلية وتوفير الأموال والمؤن لهذا الجيش الضخم ، فعقد معهم هدنة فى ١ يونية ١٥٣٢ م فى نورمبرج قدم فيها الكثير من التنازلات وأجل بذلك الحل النهائي لهذه المشكلة الدينية ، وهكذا وبشكل عكسى أصبحت الدولة العثمانية حليفًا للإصلاح الدينى فى أوروبا ، حيث

كان الدعم العثمانى المباشر قائماً للبروتستانت ضد الكاثوليك فى الأراضى المسيحية التى فتحها العثمانيون ، ويعزى ذلك إلى توافق بعض أفكار المصلحين البروتستانت مع الإسلام مثل تحريم عبادة الصور .

الآن أرسل السلطان قواته غير النظامية من الفرق الإستطلاعية لتعلن قدومه إلى المدينة ولتقوم بنهب المناطق المحيطة بها ، ثم توجه بعد ذلك بجيشه جنوباً بهدف استدراج العدو خارج المدينة إلى منطقة السهول الواسعة المناسبة لحركة الفروسية العثمانية النظامية ، وبعد أن سار مسافة ستين ميلاً توقف أمام قلعة جونز Güns ، وهى قلعة صغيرة فى المجر بالقرب من الحدود النمساوية ، وصادف فى هذا المكان مقاومة عنيدة غير متوقعة من الحامية الصغيرة التى كان على رأسها نبيل كرواتى يدعى نيقولا چوريستيش Nicholas Jurisitch ، وكانت هذه المقاومة من عوامل تأخر وصول جيش السلطان لشهر أغسطس بأكمله . وقام الجنود بتشييد مصاطب خشبية لوضع المدافع عليها وجعلوها قبالة المدينة أمام أكثر أسوار القلعة أهمية ، وبرغم أنهم نجحوا فى إحداث ثقوب كثيرة بها إلا أن المدافعين صدوا اثنى عشر هجوماً مضاداً ودمروا خنادق العدو التى تعرضت فيما بعد للغرق بفعل الأمطار الغزيرة . وقد وجه العثمانيون نداءات عديدة لرجال الحامية للإستسلام غير أنهم رفضوا ، فاضطروا حفظاً لماء الوجه إلى إصدار منشور قرأه إبراهيم باشا يعلن عفو السلطان عن المدافعين لشجاعتهم وإستبسالهم ، ثم استقبل قائد الحامية بحفاوة ووقع معه على شروط الإستسلام وسلمه مفاتيح المدنية كدليل على الوجود العثمانى الإسمى ، وسمح ببقاء فرق صغيرة العدد لإصلاح الثقوب فى أسوار القلعة .

وبرغم سوء الأحول الجوية فإن سليمان صمم على التوجه إلى ڤينا معلناً أنه لا يقصد المدينة ذاتها ولكنه يقصد الإمبراطور ويأمل فى لقائه على أرض المعركة ، وكان الأخير فى مدينة راتسبون Ratisbon التى تقع على بعد مائتى ميل من الدانوب ولم يكن لديه النية للدخول فى معركة مع السلطان الذى كان يعانى من نقص واضح فى المدفعية الثقيلة ، وأدرك أن حامية ڤينا أقوى من حامياته لذلك سار باتجاه الجنوب عائداً إلى بلاده واكتفى بالغارات

الخاطفة المدمرة التى شنها على نطاق واسع فى أودية وجبال ستيريا Styria والتى أثارت الرعب فى نفوس الفلاحين وخربت مساحات شاسعة من أراضى جنوب النمسا .

ولقد دون السلطان مذكراته عن هذه الحملة بعد عودته لاستانبول بشهرين فقال : « أقيمت الاحتفالات والزينات لمدة خمسة أيام ، وظلت الأسواق مفتوحة طوال الليل وكنت (أى السلطان) أتجول فيها متنكراً حتى أعرف هل يعتبر الرعايا الحملة الثانية ضد فيينا نصراً أم هزيمة ، ففى حالة الهزيمة فإن المبرر أن السلطان كان فى حملة خاطفة ضد عدوه الإمبراطور المسيحى ولكنه (أى الإمبراطور) لم يجرؤ على الدخول معه فى معركة عسكرية وفضل البقاء فى مخبأه » ، وحتى لا يفقد السلطان مكانته أدعى أنه لم تكن هناك قوة متكافئة بين الطرفين ، وأن الإمبراطور أدرك ذلك فتخير عدم اللقاء ، ومن ثم عاد الجيش العثمانى إلى استانبول على أمل أن يحارب فى يوم آخر .

لقد حان وقت العمل من أجل السلام بين الهابسبرج والعثمانيين بعد أن أصبح الطرفان على إستعداد له ، وبالفعل تم التوصل إلى اتفاق مع فرديناند بعد قبول المذكرة التى قدمها إلى إبراهيم باشا والتى رفعها بدوره إلى السلطان كإبن لوالده ، والتى كانت كافية لإرضاء غرور العثمانيين ولإعادة هيبتهم . وبمقتضى هذا الاتفاق وعد سليمان بمعاملة فرديناند معاملة طيبة وأن يسود السلام بينهما إلى الأبد وليس لمدة سبعة أعوام أو خمسة وعشرين عامًا أو حتى قرن أو قرنين من الزمان طالما لن يخرقه الإمبراطور . وعلى ذلك أصبحت أراضى المجر وقلاعها مقسمة بين فرديناند وزابوليا . ولم يكن من السهل تنفيذ هذا الاتفاق لأن السلطان كان يعتبر زابوليا عبداً له ويستخدمه ضد فرديناند ، ويصر على أن المجر كلها ملك يمينه ، ولأن إبراهيم باشا كان يفضل أن تتم التسوية على أساس احتفاظ كل طرف بما تحت يديه من أراضى . وفى النهاية عقد زابوليا وفرديناند اتفاقًا مستقلاً ، من وراء ظهر السلطان ، مؤداه أن يحكم كل منهما ، كملك على نصيبه من المجر ، وبعد وفاة زابوليا يكون الحكم لفرديناند على المجر كلها . وحتى هذه الفترة لم توقع

معاهدة سلام بين السلطان والإمبراطور لأن كل طرف رفض التنازل عن الألقاب الرنانة والكرامة والمهابة .

وهكذا فشل السلطان سليمان فى إختراق قلب أوروبا بعد إخفاق حملته أمام أسوار مدينة ڤينا ، ويعد هذا الموقف من المنعطفات الهامة فى التاريخ ويشبه فشل المسلمين فى أسبانيا فى معركة تورز Tours منذ ثمانية قرون . وتعد المقاومة الشرسة التى أبداها المدافعون الأكفاء الذين قدموا من مختلف أنحاء أوروبا من أهم العوامل التى أدت إلى فشل حملة السلطان ، فقد تميز هؤلاء المقاتلون بالمهارة القتالية والتدريب الجيد الذى جعلهم يظهرون بشكل اختلف كلية عن الفرق الإقطاعية التى واجهت العثمانيين من قبل فى البلقان والمجر . كذلك ساهمت العوامل الجغرافية والمناخية بدور هام فى هذا الفشل ، إذ قطع السلطان مسافة تقدر بـ ٧٠٠ ميل من البوسفور إلى قلب أوروبا وسط ظروف مناخية قاسية فى وادى الدانوب الذى تميز بأمطاره الدائمة والفيضانات والأعاصير ، مما شكل عقبة فى طريق الجيش الذى كان فى حاجة إلى الإمدادات الغذائية وبصفة خاصة للجياد والتى كان من العسير توفيرها فى فصل الشتاء وفى هذه الأراضى الخربة المدمرة ، وقد اعترف سليمان نفسه بأنه توجد نقطة فى قلب أوروبا من العسير تجاوزها على أى حملة . ومن وجهة النظر العسكرية تعد مدينة ڤينا صعبة المنال بالنسبة لسلطان قادم من استانبول . وبرغم ذلك سادت أوروبا حالة من الفزع من الخطر التركى ، وتزايد التقدير والإحترام للجيوش التركية التى تميزت بالتدريب الجيد على أعلى المستويات والتى لم تكن مجرد فرق بدائية قادمة من أحراش آسيا كما كان الاعتقاد السائد ، فهى جيوش قوية منظمة لم يتواجد مثيلاً لها فى الغرب الأوروبى آنذاك .

لقد كتب أحد المراقبين الإيطاليين عن الجنود العثمانيين قائلاً : « لقد تميزت الجيوش التركية بالنظام والحزم بشكل فاق الجيوش الإغريقية والرومانية القديمة ، وتركزت أسباب تفوقها فى ثلاثة نقاط هى : الطاعة العمياء من الجند لقادتهم ، وإنكار الذات فى ميادين القتال ، والقدرة على التحمل لفترة طويلة بدون خبز أو نبيذ والإكتفاء بالماء والشعير » . كما تعددت أقوال

الأوروبيين حول الفضائل العسكرية للجنود الأتراك مثل االإستبسال فى المعارك وضبط النفس وتآلف القلوب على هدف واحد . لقد أصبحت الدولة العثمانية بهذا الجيش المتحد عاملاً مؤثراً فى شئون الغرب الأوروبى بشكل أكثر من أى وقت مضى ، فقد نجح سليمان فى أن يجعل منها عاملاً أساسياً مؤثراً فى نظام الاتحاد الأوروبى الذى سارت عليه أوروبا فيما بعد .

الفصل الرابع عشر

قدم لنا الكاردينال ولسى Wolsey وصفاً للسلطان الشاب سليمان عند إعتلائه عرش السلطنة ، وذلك فى معرض حديثه مع سفير بندقى فى بلاط الملك هنرى الثامن (١) ، فقال : « يبلغ السلطان الخامسة والعشرين من العمر ويتميز بالعدل ، وإن كنت أخشى أن تكون سياسته مثل أبيه سليم الأول » . كذلك كتب الدوج (٢) إلى سفيره قائلاً : « هذا السلطان شاب وقوى ومتطرف فى كراهيته للجنس المسيحى » ، وهكذا كان سلطان الأتراك فى نظر البنادقة شخصية تملأ حكام الغرب الأوروبى بالخوف والكراهية ويعدونه العدو الحقيقى للمسيحية .

لقد كانت المعلومات عن شخصية السلطان شحيحة بخلاف المعلومات التى تتعلق بالنواحى العسكرية ، أما المعلومات التى تخص الجانب الدبلوماسى فقد حصلنا عليها من السفراء الأجانب فى بلاط السلطان والذين كانوا فى الغالب من البنادقة وهؤلاء خدموا الأتراك بإخلاص وتعودوا تقبيل أياديهم بعد أن هزم العثمانيون البندقية وقضوا على قوتها البحرية فى البحر المتوسط منذ قرن من الزمان تقريباً . وقد توطدت العلاقات الدبلوماسية بين البندقية والدولة العثمانية منذ هذه الفترة وأصبحت الهيئة الدبلوماسية البندقية تتمتع بمكانة خاصة وكان يرأسها وزير على درجة عالية من الكفاءة الدبلوماسية ، واعتاد الدبلوماسيون البنادقة إرسال تقارير إلى الدوج وحكومته عن أحوال السلطنة مما جعل أوروبا على علم تام بالتطورات التى تحدث فى بلاط السلطان ، وهذا الأمر جعل فرنسوا الأول ملك فرنسا يردد دائماً أن أصدق المعلومات الواردة عن القسطنطينية هى تلك التى ترد عن طريق البندقية فقط .

ولكن زيادة الاحتكاك بين الدولة العثمانية وأوروبا بعد أن أقام عدد كبير من الأجانب فى العاصمة استانبول ، ومع زيادة البعثات الدبلوماسية

---

(١) هنرى الثامن ملك إنجلترا فى الفترة من ١٥٠٩ إلى ١٥٧٤ .

(٢) الدوج هو رئيس حكومة البندقية الجمهورية الأرستقراطية التى تأسست فى القرن العاشر الميلادى .

أنظر : La Rousse , p . 17 62

الجديدة من فرنسا والمجر وكرواتيا بالإضافة إلى ممثلى الملك فرديناند والإمبراطور شارل الخامس عن ممتلكاتهم الواسعة ، أصبحت الفرصة مهيأة لقدوم العديد من الرحالة الأجانب والكتاب المسيحيين من أجل الكشف عن الجوانب الشخصية للسلطان وأسلوب حياته والمؤسسات التى حكم البلاد من خلالها ، وطبيعة البلاط السلطانى بمراسيمه المعقدة ، وحياة وأحوال الرعايا العثمانيين وسلوكياتهم وتقاليدهم .

وهكذا أصبحت صورة السلطان أمام الغرب واضحة فهى تمثل السلطنة الشرقية المتحضرة على النسق الغربى بالمقارنة بصورة أجداده ، لقد سما بالأصول القبلية والبدوية والدينية إلى قمة التحضر الشرقى ، وأثراها بالأبهة والعظمة ، ومن ثم أطلق عليه الغرب لقب « العظيم » The Magnificent .

إن الحياة اليومية للسلطان داخل القصر كانت تسير على نفس النسق الذى كانت عليه حياة الملوك الفرنسيين فى قصر ڤرساى ، فحينما يستيقظ السلطان فى الصباح تتولى مجموعة من رجال الخدمة الداخلية فى الجناح الخاص به شئون الملبس الذى كان مكونًا من رداء « قفطان » يلبس لمرة واحدة فقط وبداخل أحد جيوبه مبلغاً من المال عبارة عن عشرين قطعة ذهبية من الدوكات ، وفى الجيب لآخر ألف قطعة من العملات الفضية ، وفى نهاية اليوم يصبح الرداء والنقود المتبقية فى عهده رئيس البلاط السلطانى . أما الوجبات اليومية الثلاثة فكانت تقدم له بواسطة طابور طويل من الغلمان حيث يجلس بمفرده أمام مائدة منخفضة من الفضة والأطباق مصنوعة من البورسلين النقى والفضة ويقدم له الماء المحلى والمعطر ونادراً ما يقدم له الخمر ، ويجلس بجانبه طبيب كإجراء إحتياطى ضد أى حالة تسمم محتملة . وفى المساء ينام السلطان على ثلاث مراتب ذات لون أحمر مكسوة بالمخمل ، إحداها ممتلئة بالريش الناعم والأخريان مملوءتان بالقطن ، وفى الصيف تكون الأغطية خفيفة ، أما فى الشتاء فتوضع أغطية من الفراء الناعم للسمور أو الثعلب الأسود حيث تستند رأسه على وسائد خضراء ناعمة ، وفوق المخدع كان هناك قبة ذهبية وحولها أربعة شمعدانات موضوعة على حوامل من الفضة ويقف

عندها أربعة حراس مسلحين طوال الليل يوجهون الشمع ناحية السلطان ويحرسونه حتى إستيقاظه . وكان السلطان ينام كل ليلة فى غرفة مختلفة يختارها بنفسه ، وذلك كإجراء أمنى فيقوم خادمه الخاص بإعدادها فى الحال .

وكان السلطان يقضى غالبية اليوم فى المقابلات والمشاورات مع الموظفين الرسميين ، وحينما لا يكون الديوان منعقداً يشغل وقت فراغه بقراءة كتاب عن الاسكندر الأكبر به أساطير عن مآثره دونها كاتب فارسى ، أو بقراءة كتب دينية وفلسفية أو يستمع إلى الموسيقى أو يشاهد الألعاب الهزلية التى يؤديها الأقزام أو الراقصين على أنغام المزمار ، وأحياناً كان يبحث عن المتعة والتسلية لدى مضحكى البلاط . وفى فترة ما بعد الظهيرة ، وبعد فترة من الراحة على الأرائك المطرزة بالخيوط الذهبية والفضية ، كان السلطان يتخير أحد الرفاق ليذهب إلى الجانب الآسيوى على البوسفور ليستمتع بحدائق القصر التى كانت مزروعة بالنخيل وأشجار السرو والغار وحولها أكشاك ذات واجهات زجاجية يتدفق من فوقها الماء على شكل شلالات فيؤدى إلى الانتعاش فى الطقس الحار .

وتعتبر وسائل التسلية العديدة التى أوجدها السلطان من العوامل التى ساهمت فى شهرته ونعته بصفة العظمة ، فحينما أراد عدم جذب الانتباه إلى أول فشل صادفه أمام أسوار فينا أقام احتفالاً ضخماً لختان أبنائه الخمسة فى صيف عام ١٥٣٠ استمر لثلاثة أسابيع تحولت فيها العاصمة إلى مدينة للخيام وأقيمت فى وسطها مقصورة عالية جلس فيها السلطان على كرسى العرش محمولاً على أعمدة من اللازورد وفوقه قبة من الذهب مرصعة بالجوهرات وتحته البسط الناعمة الثمينة تغطى الأرض كلها . وكانت الخيام حوله متعددة الألوان ، وأكثرها بريقًا كانت المقصورة الخاصة بالأمراء الذين انتصر عليهم العثمانيون . وقد أقيمت المآدب الفاخرة وقدمت للعامة وسائل التسلية المتعددة مثل الألعاب والمسابقات والتمثيليات والاستعراضات العسكرية والرقص والعزف الموسيقى وخيال الظل ، وكذلك عروض مسرحية تمثل عمليات الحصار فى المعارك العسكرية ، واستعراضات للسيرك والمهرجين وأكروبات هوائية وألعاب

نارية فى السماء بشكل لم تشهده العاصمة من قبل .

وعندما انتهت الإحتفالات سأل السلطان إبراهيم باشا بكل فخر أى احتفال كان أفضل ذلك الذى أقيم لأبناء السلطان أم الذى أقيم لزفاف الصدر الأعظم ؟ فرد قائلاً : لا يوجد احتفال يعادل الزفاف الذى شرفه السلطان بالحضور ، السلطان سيد الزمان وحامى حمى الإسلام وسيد مكة والمدينة ودمشق ومصر وخليفة المسلمين وسيد المقام العالى ، هل يوجد ما يعادل هذا الشرف !! .

وقد حصلنا على الوصف التفصيلى لهذه الاحتفالات من كتابات أربعة من السفراء البنادقة الذين تميزوا بالدقة وهم فقط الذين سمح لهم بالحضور كممثلين عن الغرب الأوروبى ، وقد قدم أحدهم وهو بيترو براجادينو Pietro Bragadino ، الوزير البندقى ، وصفًا دقيقًا لشخص السلطان فقال : « يبلغ السلطان من العمر اثنتين وثلاثين عامًا ، ويتميز بوجه شاحب وله أنف معقوف ورقبة طويلة ، ولا تبدو عليه مظاهر القوة ، ولكنى لاحظت قوة في يده وأنا أقبلها ، ويقال أنه لا يدانيه أحد فى رمى الرمح ، كما أنه يميل إلى الكآبة والتفاخر ومتسرع ولكنه أحيانًا يبدو رقيقًا للغاية » .

وبمرور الوقت أصبح للبلاط السلطانى أهمية دبلوماسية ، وأصبح هناك ممثلين أو سفراء آخرين غير البنادقة ، وهؤلاء سجلوا انطباعاتهم عن الدولة وعن السلطان ، ومن بينهم الهولندى الأصل أوچير چيسلين دى بوسبك Ogier ghiselin de busbeq والذى تميز بالتحضر والتفتح ، وكان منذ عام ١٥٥٤ مبعوثًا فوق العادة للإمبراطور شارل الخامس فى استانبول . لقد كتب بوسبك مجموعة من رسائل وصفية وأرسلها إلى صديق له ساهمت فى تقديم صورة واضحة للغرب عن السلطان وبلاطه وشعبه ، وقد أعرب فيها عن تقديره لملامح التحضر التى سادت عالم الشرق البدائى ، وفور وصوله إلى أماسيا ليتولى مهام منصبه ، كتب عن بهو الاستقبالات السلطانى قائلاً : « تعال معى لتجول بنظرك فى الزحام الشديد بين الرؤوس المعممة لترى الأشخاص الذين يرتدون الملابس الحريرية ناصعة البياض ، وغيرهم ممن يرتدون أزياء من كل نوع ولون ، ولتشاهد بريق الذهب والفضة والعقيق والحرير والساتان ،

إنه مشهد جميل لم تقع عيني عليه من قبل . وبرغم كل هذه الأبهة فقد كان هناك نوع من البساطة والإقتصاد ، فالملابس كلها من طراز واحد بصرف النظر عن شخصية صاحبها ووظيفته ، كما أنه لا توجد أشياء إضافية توضع فوق الزي الأصلي لتزينه كما هو الحال عندنا ، والشئ اللافت للنظر هو ذلك الهدوء التام والنظام الجيد في هذا الخليط الكبير ، فلم تكن هناك الأصوات العالية أو الهمهمات التي تصاحب عادة هذه التجمعات ، كما لم أشاهد تزاحمًا فكل شخص يعرف مكانه المحدد ويقف فيه بأسلوب هادئ » .

وكان بوسبك سريع الملاحظة في تسجيل العادات المتوارثة في هذا المجتمع الذي حكمه السلطان ، فذكر أنه مجتمع على درجة عالية من الديمقراطية المستترة خلف هذا الحكم الأوتوقراطي المطلق ، وقال في هذا الصدد : « لا يوجد رجل يشغل منصبه في هذا المجتمع إلا بحكم فضائله الشخصية وشجاعته ، وليس هناك تفرقة أو تمييز بين شخص وآخر بحكم المولد وإنما التمييز يتوقف على طبيعة العمل والأعمال الرسمية المكلف بها هؤلاء الأشخاص . لا يوجد صراع على المناصب لأن كل شخص يشغل وظيفة محددة والسلطان شخصياً يحدد واجبات الجميع وأعمالهم الرسمية ولا يلتفت في ذلك لثراء الشخص أو أي إدعاءات زائفة أو القوة أو النفوذ وإنما يهتم فقط بالأهلية والكفاءة وقوة الشخصية والاستعداد الشخصي . وهكذا يثاب كل شخص وفق فضائله ، وإمتلأت الوظائف بالرجال الأكفاء القادرين على الإضطلاع بأعبائها » .

لقد استقبل السلطان بنفسه بوسبك في احتفال خاص ووصف هذا المشهد قائلاً : « كان السلطان جالسًا على أريكة منخفضة لا يزيد إرتفاعها على قدم واحد ومغطاة بعدة أغطية وعليها وسائد مطرزة تطريزاً دقيقًا للغاية ، وبجانبه رمحه وسهامه ، والتعبير الوحيد الذي ظهر على وجهه هو الابتسام والجدية ومسحة الحزن الممتزجة بالوقار . وقد قدمني له خادمه الخاص وبعد أن قبلت يده تراجعت إلى الجدار المقابل له » .

وتحدث بوسبك بعد ذلك عن الهدف من بعثته وهو إقناع الترك بإيقاف

هجماتهم على المجر ، وكان هذا الطلب لا يتمشى مع سياسة السلطان ، ولذلك أظهر تعبيراً بعدم الرضى ، وأجاب بكلمات مختصرة : حسناً ، حسناً ، ثم طلب من مبعوثى الإمبراطور مغادرة المكان إلى أجنحتهم على وجه السرعة . ولم يندهش بوسبك لهذه المقابلة الفاترة من جانب السلطان ، فقد ألف السفراء الأجانب هذا الأمر وكانوا يعلمون الفارق بين مقابلة سفراء دولة صديقة مثل البندقية أو فرنسا وبين تلك التى تتم مع سفراء دولة معادية . لقد تزامن وصول بوسبك إلى بلاط السلطان مع مجئ مبعوث فارسى يحمل الهدايا الفاخرة ، والذى أجيب إلى طلبه للسلام فى الحال ، فكتب قائلاً : « أتبعت مع المبعوث الفارسى جميع وسائل الحفاوة الممكنة لذلك لم يساورنى الشك فى إمكانية تحقيق مطلبه . لقد ألف الأتراك المبالغة فى الحفاوة مع الأصدقاء وإظهار الإحتقار للأعداء . وبعد أن وقع السلطان على اتفاق السلام مع المبعوث الفارسى ، منح موافقته لبوسبك على هدنة لستة شهور فقط ، وقد فضل أن يحصل على رسالة من السلطان بهذا المعنى ويعود بها إلى فيينا ولذلك حظى بمقابلته مرة أخرى ، وقدم وصفًا لهذه المقابلة الثانية على النحو التالى : « وضعوا على ثوبين فضفاضين طويلين مطرزين حتى الأقدام ، وكانا ثقيلين للغاية ، وكان الحضور جميعاً يرتدون الملابس الحريرية مختلفة الألوان حتى الأقدام أيضاً ، ورافقونى وكنت أشبه بمن هو مقدم على أداء دور أجاممنون أو أى بطل مشابه فى مسرحية تراجيدية ، ثم ركعوا للسلطان بعد أن تسلموا منه رسالة ملفوفة فى قماش مذهب » . وقد غادر بوسبك ومرافقوه القصر السلطانى دون تناول الإفطار الرسمى الذى يقدم عادة عند مغادرة السفراء ، وذكر أن سبب ذلك يرجع إلى أن هذا التقليد أتبع مع الدول الصديقة فقط بينما كانت العلاقات بين الإمبراطور والسلطان عدائية إلى حد كبير .

ويمكننا التعرف على طبيعة العلاقات الدبلوماسية للسلطان من خلال الصدر الأعظم إبراهيم باشا الذى كان على صلة وثيقة به طوال فترة صدارته العظمى حتى عام ١٥٣٦ . وعند تعيين إبراهيم باشا خرج السلطان على القاعدة المألوفة وهى تعيين الصدر الأعظم من بين القضاة أو حكام الولايات من سلك الموظفين الرسميين ، واتجه إلى رجال الخدمة الداخلية فى القصر

السلطانى وتخير إبراهيم من بينهم لأنه امتلك مؤهلات أدركها السلطان من خلال خبرته الشخصية ، وهو بذلك وضع أساس سابقة مهمة سار عليها خلفاؤه من بعده .

لقد كان نفوذ إبراهيم باشا ومكانته فى التعامل مع الحكام الأجانب ومبعوثيهم قويًا ، ويرجع هذا إلى أصله المسيحى بلا شك ، ويبدو أنه حقق درجة رفيعة فى هذا المجال حتى أن الملك فرنسوا وفرديناند كانا يكاتبانه بصفة شخصية ، كما كان أغلب السفراء القادمين إلى القسطنطينية مزودين بتعليمات لمقابلة إبراهيم قبل أى شخص آخر حتى أطلق البنادقة عليه لقب « العظيم » إذ كان يكلفهم بالأعمال الهامة كأنه السلطان ، وكان دائماً يردد عبارة « أنا الذى أحكم » ، وكانت أسلحته فى العمل الدبلوماسى هى العناد والفصاحة والحدة والعنف والتخطيط الفعال وكانت كلها كافية للتأثير والضغط على سفراء الدول المنافسة . وبرغم تزايد غروره على مر الأيام فإن السلطان كان يشعر بالفخر تجاهه ، وهذا يجعلنا نقول أن السلطان وإبراهيم يكمل كل منهما الآخر ، فإذا كانت السياسة الخارجية للسلطان تقوم على بسط نفوذه على أوروبا على حساب الهابسبرج وبالتحالف مع فرنسا فإن إبراهيم دعم هذه السياسة بكل قواه معتمداً على تفهمه للأوضاع الأوروبية جملة وتفصيلاً . كذلك كان إبراهيم يمتلك القدرة على قراءة أفكار سيده ومن ثم ساهم بدور فعال فى العلاقات الدبلوماسية بين العثمانيين والغرب الأوروبى ، وكانت آخر إنجازاته هى التفاوض مع الفرنسيين وكتابة مسودة معاهدة عام ١٥٣٥ م مع فرنسوا الأول الصديق المخلص للسلطان ، والتى منحت الفرنسيين حق الاتجار فى جميع ممتلكات الدولة العثمانية مقابل رسوم جمركية مماثلة لتلك التى يدفعها الأتراك ، وفى المقابل تمتع العثمانيون بإمتيازات مماثلة فى فرنسا ، كذلك منح الفرنسيون حق التقاضى أمام المحاكم القنصلية الفرنسية ، وحق التمتع بالحرية الدينية الكاملة داخل الدولة العثمانية وحق حماية الكنائس فى الأماكن المقدسة وجميع الكنائس الكاثوليكية فى منطقة الليڤانت .

لقد وضعت هذه المعاهدة نهاية للتفوق التجارى للبندقية فى البحر

المتوسط ، وألزمت جميع السفن المسيحية برفع العلم الفرنسى كضمان للحماية الفرنسية باستثناء سفن البنادقة . وتعتبر هذه المعاهدة أيضاً على درجة عظيمة من الأهمية لأنها أسست نظام الإمتيازات الأجنبية المعروفة بـ Capitulations فى الدولة العثمانية ، وسمحت للفرنسيين بتبادل السفراء مع العثمانيين وأصبحت فرنسا الدولة صاحبة النفوذ المفضل لدى السلطان . إن هذا التحالف الفرنسى - العثمانى الذى اتخذ من التعاون التجارى ستاراً له أدى إلى تقوية دور السلطان فى حفظ التوازن السياسى والعسكرى بين الملك والإمبراطور والذى انتقل محوره إلى البحر المتوسط ، ولكن هذا الوضع خلق سابقة محملة بالمشكلات فى القرون التالية . على أية حال فإن هذه المعاهدة كانت آخر إنجاز دبلوماسى لإبراهيم باشا حيث اقتربت ساعة سقوطه .

لقد كانت صفة « العظيم » هى الغالبة على صفات السلطان بالنسبة للغرب الأوروبى ، ولكن بالنسبة لرعاياه فقد عرف بالقانونى أو المشرع تمييزاً له عن والده وإضافة إلى كفاءته العسكرية وكونه من أرباب السيف أنه من أرباب القلم أيضًا . لقد كان مشرعًا عظيمًا وتميز بالاستنارة وسعة الأفق ونصرة العدالة ، وقد ظهرت جميع هذه الفضائل فى تصرفاته الشخصية وأثناء الحملات العسكرية ، كما كان مسلمًا مخلصاً للعقيدة وثبت ذلك على مر السنين حين ارتفع بمكانة المؤسسات الإسلامية إلى درجة عالية ، وبهذه الروح تأكدت حكمته ودفاعه عن القوانين .

إن أول سلطان سن القوانين فى الدولة العثمانية هو محمد الفاتح ، وبناء عليها قام سليمان بتوسيع قاعدتها وتدعيمها بتنظيمات جديدة مدونة وغير مدونة ، وبرغم أنه لم يحدث تغييرات جذرية فى الدولة ولم يتطلب الأمر منه أن يكون مجدداً ، فإن ما فعله هو تحديث للقديم وتطويع للقوانين لتتمشى مع متطلبات العصر ومع اتساع مساحة الدولة . لقد استطاع التوفيق بين الأعراف والعادات وبين الواقع الفعلى ، وكان لا يزال يعتمد على المؤسستين الأساسيتين فى الدولة وهما : الهيئة الحاكمة والتى تمثل المؤسسة العلمانية التنفيذية والهيئة الإسلامية وتمثل المؤسسة الدينية الشرعية ، وتعلو فوقهما سلطة السلطان المطلقة ، ومن خلال الوظائف العديدة لهاتين الهيئتين وإتحادهما

مع سلطة السلطان تواجد أسلوب مختلف تماماً عن نظام الفصل بين الدولة والكنيسة المتبع فى الغرب الأوروبى .

إن الهيئة الحاكمة التى كانت تضم إلى جانب السلطان الموظفين ورجال البلاط هى المسئولة عن تنفيذ سياسة الحكومة ، وكذلك الجيش النظامى الذى تألف من أعداد ضخمة من الشباب الذين تلقوا تعليماً خاصاً للخدمة فى إحدى هذه الهيئات الثلاث ، وهؤلاء عادة كانوا أبناء لآباء مسيحيين وبالتالى عبيداً للسلطان .

وقد قدم لنا البندقى بايلو موروزينى Bailo Morosini وصفاً لهؤلاء الشباب وذكر أنهم كانوا يشعرون بالفخر لكونهم عبيداً للسلطان طالما سيصلون إلى أعلى السلطات فى النهاية . وفى تعليق لبندقى آخر يدعى بربارو Barbaro قال : « من الحقائق التى تستحق الاهتمام أن أثرياء الدولة وذوى النفوذ وأعضاء الحكومة الذين يمثلون دعامتها كانوا جميعًا من أصول مسيحية » .

ويتعادل مع هذا الجهاز الإدارى الهيئة الإسلامية التى ضمت الرجال المسلمين أحرار المولد فقط ، والقضاة والمفتون والشيوخ والمعلمون حماة الشرع الإسلامى ، ثم العلماء وهم الرجال الذين تلقوا قدراً كبيراً من التعليم الدينى ومسئولين عن التشريع الإسلامى والتعليم الدينى فى جميع أنحاء البلاد . ولم يمتلك السلطان سلطة تغيير مبادئ الشريعة الإسلامية أو تجاهل القرآن المنزل من الله على يد الرسول (ﷺ) والذى يعد السند الإلهى للسلطة الدنيوية ، برغم أنه كان يشعر بمدى الحاجة إلى التغيير فى القوانين تمشياً مع التغيرات السريعة فى العالم حتى ينعم شعبه بحياة طيبة فى ظل تعاليم الإسلام السمحة ، وفى ظل الاتساع الهائل الذى حققته الدولة التى غزت الكثير من المناطق المسيحية مع بداية القرن ، ومع توسعاتها فى آسيا وضمها لمدن هامة كانت مراكز قديمة للخلافة الإسلامية مثل دمشق وبغداد والقاهرة ، بالإضافة إلى بسط حمايتها على المدن المقدسة (مكة والمدينة) ، كان لابد وأن تظل هذه الإمبراطورية الشاسعة حامية للإسلام ولشريعته . إن أربعة أخماس سكان الدولة ، او الذين قدروا بخمسة عشرة مليون نسمة فى أواخر عهد السلطان سليمان ، كانوا يتألفون من عشرين جنساً مختلفة ويخضعون لإحدى وعشرين

حكومة مختلفة فى آسيا وحدها ، وهذا منح السلطان حق التمتع بمزايا الخلافة وأن يصبح حامياً للإسلام ومدافعًا عنه ومنفذاً لشريعته ومن ثم كانت نظرة العالم الإسلامى إليه كزعيم للجهاد الدينى . على أية حال إكتسبت الدولة طابعًا إسلاميًا واضحًا وتتطلب الأمر أشكالاً تشريعية تتمشى مع المتطلبات الجديدة المختلفة عن العهود السابقة بسبب الاتساع الهائل الذى حققته .

لقد اختص السلطان قاضى حلب الملا إبرهيم ، لعلمه وكفاءته ، بوضع لائحة حملت إسم « ملتقى الأثر » ، وقد ظلت قائمة حتى ظهور إصلاحات القرن التاسع عشر . وفى ذات الوقت وضعت لائحة قانونية جديدة خاصة بالنظام الإدارى فى مصر ، وحرص السلطان على أخذ مشورة القضاة ورجال الفقه الإسلامى والعلماء فى هذه اللوائح حتى لا يكون هناك مساس بجوهر العقيدة الإسلامية ، فقسمهم إلى مجموعات مختلفة للنظر فى جميع النواحى وبذلوا أقصى الجهود فى إيجاد تفسيرات تتميز بالمرونة .

وهكذا اعتمد السلطان على القرآن والشريعة الإسلامية فى بسط سيادته وسلطانه على البلاد ، ومن هذا المنطلق نظر بعين الرعاية لرعاياه المسيحيين ، فزود الحكام المحليين فى جميع أنحاء البلاد بتعليمات واضحة بعدم التفرقة فى المعاملة بين المسلمين وغير المسلمين . كما كانت هناك بعض الثغرات التشريعية التى أهملها اثنان من السلاطين السابقين عليه لمدة أربعين عامًا ، والتى تختص بنظام الإقطاع واستغلال الأراضى والضرائب والتى طبقت فى عهد السلطان الفاتح ، وكانت فى حاجة إلى الإصلاح فأعاد السلطان النظر فيها . ففى الإقطاعات الكبيرة المعروفة بالزعامات أراد إصلاح بعض عيوبها والتى كانت تسمح بإنتقال الأرض تلقائيًا إلى الورثة منذ عهد بعيد ، فجعل استغلال الأرض مدى الحياة فقط مما أدى إلى تحكم الولاة ورؤساء الإقطاع فى توزيعها على المحاسيب وهؤلاء بدورهم كانوا نوعية سيئة من ملاك الأراضى ، وكان هذا التغيير فى نظام استغلال الأراضى يمثل توافقاً مع حق السلطان الذى كان يعد خليفة الله فى الأرض والمالك لكل شئ . وقد أكد السلطان هذا المبدأ بإصدار فرمان يبيح لحكام الولايات التحكم فى توزيع

الإقطاعات الصغيرة فقط وهى التيمارات ، أما الإقطاعات الكبيرة وهى الزعامات فقد اختصت بها الحكومة المركزية فى استانبول أو السلطان بنفسه . وكان الهدف من ذلك هو وضع كبار موظفى الدولة تحت المراقبة ، وعدم إعطاء الفرصة لتجميع مساحات كبيرة من الأراضى فى أيدى الأشخاص ، كذلك أكد السلطان على ضرورة قيام ملاك هذه الأراضى بتقديم الخدمة العسكرية المنتظمة والكافية لقاء التمتع بهذه الإقطاعات . وفى ذات الوقت وضع السلطان خطة شاملة للتخلص من الولاة والمسئولين المتهمين بالقسوة والتجاوز والفساد والظلم وعدم الكفاءة تطبيقاً للعدالة الخالية من التحيز .

وقد اهتم السلطان أيضاً بأحوال الرعايا المسيحيين وخاصة الذين يعملون فى فلاحة أراضى السباهية فنظم لهم تشريعاً حدد طريقة جباية ضريبة الرؤوس ودفع العشور مما جعلهم يشعرون بأنهم أعضاء منتجين فى المجتمع وارتفع بهم من مرتبة العبيد أو أقنان الأرض إلى ما يعرف فى المصطلح العثمانى بالمتحكم فى الأرض . لقد عومل غالبية الرعايا فى ظل القوانين العثمانية بشكل أفضل من العبيد المسيحيين تحت حكم السادة المسيحيين لدرجة أن سكان المناطق المجاورة فضلوا هذه الأوضاع على ما هو سائد فى بلادهم فكانوا يهجرونها ويعبرون الحدود إلى الأقاليم العثمانية ، وقد عبر عن ذلك أحد الكتاب المعاصرين فقال : « لقد شاهدت جماعات من المزارعين المجريين يشعلون النيران فى بيوتهم ويهربون مع زوجاتهم وأبنائهم ومواشيهم وآلاتهم الزراعية إلى المناطق التركية حينما علموا أنهم لن يتعرضوا لأية ضغوط أو لدفع أى ضرائب وأن ما يؤدونه فقط هو العشور . وقد انتشر نفس الشئ بين سكان المورة الذين فضلوا الحكم العثمانى على حكم البنادقة » .

وقد امتدت إصلاحات سليمان إلى مجالات أخرى مثل الشرطة والجريمة والأضرار الأدبية التى تقع على البعض والعنف والتدمير والسرقة وقطع الطريق فجعل عقوباتها أكثر ردعًا من ذى قبل . كما وضع السلطان نظامًا لدفع الغرامات لقاء بعض الجرائم بدلاً من نظام العقاب البدنى ، وأصبحت عقوبة الإعدام قليلة الاستخدام ، ولكن ظلت عقوبة شهادة الزور والنهب وتزييف النقد هى قطع اليد اليمنى حتى المعصم . واستخدمت وسائل مستنيرة بالنسبة

لجرائم الوشاية والنميمة مثل التعويض ، واتبعت أساليب فيها الكثير من الرأفة مع الدائنين فلم تتجاوز الفائدة على القروض ١١٪ . أما بالنسبة لنظام الضرائب فقد كان فى حدود الشريعة الإسلامية واشتملت على ضرائب الأراضى وضرائب الرؤوس ، وهذه الأخيرة كانت متعددة مثل ضرائب العزاب وضرائب المقبلين على الزواج . كذلك كان التغيير فى نظام البلاط السلطانى محدوداً واقتصر على نظام الاستقبالات الرسمية والاحتفالات .

كما أصدر السلطان مجموعة من التشريعات لتنظيم التجارة الداخلية فى الأسواق وطوائف الحرف والأسعار والأجور والصناعات المختلفة ، وأصبحت بفضلها التجارة الداخلية جيدة وتوفرت المواد الغذائية بشكل دائم . وكانت الضرائب تجبى على التصدير والإستيراد . وقد ضمنت الحكومة أيضاً دخلاً مهماً تمثل فى مصادرة ممتلكات كبار الموظفين وغيرهم من الأثرياء الذين كانوا يرتكبون جرائم تتعلق بالشرف ، فكانت ثرواتهم تؤول إلى الخزينة السلطانية ، بالإضافة إلى أسلاب الحرب من المناطق المفتوحة والجزية التى كانت تؤديها الولايات المسيحية .

لقد كانت الدولة فى ثراء متزايد من الناحية المالية وضاعف سليمان من إيراداتها بإضافة دخل ممتلكاته الخاصة وضرائب أراضى الرعايا ، وتجاوزت الدولة بذلك إيرادات أى دولة مسيحية معاصرة . ويضاف إلى ما سبق ذكره تنامى الإيراد فى عهد سليمان نتيجة للتوسع الإقليمى والمبالغ الضخمة التى كانت تدفعها الطبقة البيروقراطية لشغل الوظائف المختلفة .

وبرغم الطابع المتحرر الذى تميزت به إصلاحات سليمان فإنها كانت محدودة التأثير لأنه كان يصدر تشريعاته من أعلى بناء على مشورة طبقة صغيرة من كبار الموظفين ورجال القانون ، فعزلته فى العاصمة عن السواد الأعظم من رعاياه وعدم اتصاله بهم إتصالاً مباشراً جعلته عاجزاً عن إدراك ظروفهم الحقيقية وإحتياجاتهم ، وعاجزاً أيضاً عن التعرف بشكل مباشر على مدى تأثير تشريعاته عليهم . وهكذا كانت المركزية بأشكالها المختلفة ذات مردود سئ على أوضاع الولايات العثمانية ، فظهر فيها الفساد الإدارى فيما بعد ، ولكن فى عهد سليمان كان العدل والحق سائدين والحكومة المركزية

مهابة ولم تكن الأعباء تثقل كاهل الرعايا لأن الهدف الأساسى للتشريعات كان تخفيف هذه الأعباء .

لقد دعم السلطان سلطات الدولة فى جميع أنحاء البلاد ، وبالنسبة للهيئة الإسلامية فقد اتسعت قاعدة إمتيازات هيئة العلماء (رجال الدين) فجعل على رأسها شيخ الإسلام أو المفتى الأكبر وأصبح منصبه مساوياً لمنصب الصدر الأعظم وضمن بذلك حفظ التوازن بين السلطتين التشريعية والتنفيذية فى الدولة . كما أعاد تنظيم أوضاع المفتون والقضاة الذين كانوا بمثابة مستشارين فى جميع أنحاء البلاد ، فأصبح الجميع يتمتعون بالإعفاء الضرائبى وعدم مصادرة الممتلكات فامتد ميراثهم من الأب إلى الإبن ، وعلى ذلك أصبحت هناك هيئة تضم العاملين فى الوظائف التعليمية الدينية وفى القضاء يمكن أن نطلق عليها « أرستقراطية الفكر » وهذه كانت تختلف عن أرستقراطية الأرض التى أدت إمتيازاتها إلى الكثير من المشكلات بمرور الزمن . كذلك لحق التطور بنظام التعليم الدينى وبمدارسه التى كانت تعتمد على الدعم المالى من الأوقاف ، وكانت هذه المدارس ملحقة بالمساجد وتزود الصبية بالتعليم الدينى وحققت تقدماً ملموساً لم يتوفر فى الدول المسيحية المعاصرة ، فإذا كان السلطان محمد الفاتح قد أدخل بعض التطورات على هذا النوع من التعليم فإن سليمان أكمله حين أسس الكثير من المدارس والمعاهد التعليمية ، فبلغ عدد المدارس الابتدائية فى عهده والمعروفة بالمكاتب أربعة عشرة مدرسة فى العاصمة وحدها وكانت تلقن الأطفال القراءة والكتابة ومبادئ الإسلام ، وبعد انتهاء الدروس كان هؤلاء الأطفال يقدمون عروضاً جميلة فى الطرقات فى بعض المناسبات مثل احتفال الختان . وكانت الفرصة مهيأة لمن يرغب من هؤلاء الصبية فى إكمال تعليمه بالتقدم لأحد المعاهد الثمانية الملحقة بالمساجد الثمانية الرئيسية فى البلاد والتى كان يطلق عليها « جنات المعرفة الثمانية » والتى كانت تقدم برنامجاً دراسياً ضم عشرة مواد دراسية تماثل العلوم الحرة فى الغرب الأوروبى وهى النحو الصرف والمنطق والفلسفة والميتافيزيقا والإنشاء والجغرافيا والفلك والرياضة والتنجيم .

كذلك كانت هناك مدارس عليا تابعة للهيئة الإسلامية يعمل خريجوها

فى وظائف الأئمة والمعلمين ، وكانت تشغل المبانى المحيطة بأفنية المساجد والتى كانت تضم أيضاً الخزينة والبنوك وخانات المسافرين والمطاعم والمكتبات والحمامات العامة والنافورات وجميع وسائل الخدمات الأخرى مثل المستشفيات العامة ومستشفيات الأمراض العقلية .

لقد مثل سليمان العصر الذهبى للدولة العثمانية فهو خليفة المسلمين والسلطان الأعظم كما ساير تقاليد النهضة الأوروبية فى ذات الوقت فأصبح يجمع بين السيادة الدينية والعظمة الغربية ، وكان يرغب فى أن تصبح استانبول من أعظم عواصم القرن السادس عشر فى الأبهة المعمارية ، وبتزايد غزواته وثرواته انتشرت القباب والمآذان الشاهقة التى لم يكن لظلالها مثيل فى هذه المدينة الواقعة على بحر مرمرة شاهدة على إزدهار العمارة البيزنطية التى أخذها السلطان محمد الثانى عن الإمبراطورية البيزنطية والتى أصبحت تمثل مجد الإسلام وعظمته وإمتداده لمناطق كانت تجسد فى الماضى عظمة الديانة المسيحية .

ويعد المعمارى سنان هو المسئول عن إيجاد قناة الاتصال بين الحضارتين المتناقضتين وهو أعظم المهندسين المعمارين فى التاريخ ، وكان إبناً لأحد البنائين المسيحيين من الأناضول ، وانضم إلى فرق الانكشارية فى شبابه وشارك فى حملات كثيرة مع السلطان كمهندس عسكرى حيث تخصص فى بناء التحصينات والترسانات والجسور على المجارى المائية ، وفى سن الخمسين ألحقه السلطان بخدمته وأصبح كبير المهندسين المعماريين واستخدم مهاراته الفنية فى مجال الهندسة العسكرية فى بناء المنشآت الدينية الرائعة ، وأثرى التراث المعمارى للقرن السادس عشر عن طريق تشييد مئات المساجد والأضرحة بشكل متناسق وبسيط فى ذات الوقت ومجسداً للطابع العثمانى . ومن بين المساجد التى شيدها مسجد السلطان سليمان المعروف بالسليمانية وضريحه الذى استخدم فيه سنان طراز كنيسة الإمبراطور جستنيان فى صوفيا (الذى أصبح مسجد أيا صوفيا) . لقد استطاع سنان تطويع الأسس المعمارية لتتمشى مع متطلبات العبادات الإسلامية ونجح بذلك فى أن يجعل الطرز المعمارية السائدة فى القسطنطينية وسطاً بين الشرق والغرب .

أما فى الطراز الداخلى للمنشآت العثمانية سواء كانت دينية أو علمانية فقد غلب عليها الطابع الشرقى أكثر من الغربى حيث زينت جدرانها بالسيراميك الذى ضم تصميمات للأزهار بألوان بديعة ، وكان السيراميك يأتى من فارس فى القرون الأولى ثم أصبح يصنع فى مصانع مدينة أزنيق (نيقيا القديمة) واستانبول بواسطة الفنانين الفرس الذين جلبوا من طرابذون خصيصاً لهذا الغرض . إن التأثير الفارسى تواجد أيضاً فى المجال الأدبى منذ عهد السلطان محمد الفاتح ووصل إلى مستوى رفيع فى عهد سليمان الذى كان يرعى الشعر والشعراء العثمانيين الذين يسايرون النسق الفارسى ، ولذلك بلغ الشعر الفارسى فى عهده درجة عالية من الرقى . كذلك أنشأ السلطان وظيفة المؤرخ الشعرى السلطانى وجعل له مكانة عالية وكانت وظيفته هى نظم الشعر عن الأحداث الجارية على نسق الفردوسى وغيره من شعراء فارس الذين أرخوا للمناسبات التاريخية عن طريق الشعر .

الفصل الخامس عشر

اضطر السلطان سليمان إلى تغيير سياسته واستراتيجيته ، فبعد أن وصل امتداده إلى أقصى اتساع له أمام أسوار مدينة ڤينا لم يعد بالإمكان إرسال حملات أخرى إلى قلب أوروبا ، وظل سعيداً بوجود ممتلكات له فى جنوب شرق أوروبا تصل إلى شمال الدانوب وتضم المجر ، ولذلك قرر بعد عودته من أوروبا توجيه عملياته العسكرية إلى آسيا حيث أرسل ثلاثة حملات متتالية إلى فارس .

إن معاركه ضد الهابسبرج والتى تطلبت منه أن يواجه ملك أسبانيا استمرت بنفس القوة ولكن بشكل مختلف ، كما أصبح مجالها هذه المرة البحر المتوسط الذى قرر العثمانيون التحكم فى مياهه بعد أن وصلت سيطرتهم عليه إلى أقصى مدى لها فى عهد محمد الفاتح .

وحتى هذه الفترة لم يخاطر الإمبراطور بمغامرة فى شرق المتوسط وكذلك السلطان لم يحاول الدخول فى صراع فى غربه ، ولكنه ظل يبحث عن الإمبراطور ليحاربه فى عقر داره فى إيطاليا أو صقلية أو أسبانيا . ومنذ أن صار المحيط هو وسيلة الاتصال الجديدة وحل محل الطرق البرية بفضل جهود المكتشفين فى القرن السادس عشر ، حدث تغير فى مجال التجارة بعد أن ظل الأتراك لفترة طويلة يعتمدون على الطرق البرية التقليدية التى كانت تغطى ممتلكاتهم وتصب فى استانبول ، وأجبروا على إرتياد هذه الطرق البحرية الجديدة التى حلت محل الطرق البرية القديمة ، وأصبح غزاة قارة آسيا هم غزاة البحر المتوسط .

لقد كانت الظروف مواتية للعثمانيين لأن سقوط الخلافة الفاطمية وإنهيار الأسرات الإسلامية التابعة لها جعل ساحل شمال أفريقيا يسقط فى أيدى زعماء ضعاف ، وهؤلاء استخدموا موانيه كمراكز للقرصنة وتلقوا الدعم من جانب المسلمين الذين لجأوا إلى الشمال الأفريقى فى أعقاب هزيمتهم وسقوط معاقلهم فى أيدى الممالك الأسبانية المسيحية فى موقعة غرناطة ١٤٩٢ . وفى غمرة الرغبة فى الانتقام انتشرت القرصنة ضد المسيحيين فى السواحل الجنوبية لأسبانيا واستطاعت الملكة إيزابيلا أن تنقل ميدان الحرب إلى الشمال الأفريقى ونجحت فى السيطرة على بعض موانيه ولكنها واجهت

مقاومة من جانب الشقيقين عروج وخير الدين باربروس الذين تميزا بالقوة البدنية وباللحية الحمراء ، وكان والدهما خزافاً مسيحياً ممن كانوا ينتمون إلى فرق الانكشارية ثم أحيل إلى التقاعد وتزوج من أرملة راهب اغريقى ، وهم جميعًا رعايا أتراك من جزيرة لبسوس إحدى مراكز القرصنة المسيحية التى تتحكم فى مدخل الدردنيل . لقد أصبح الشقيقان قراصنة وتجاراً فى ذات الوقت وجعلوا من جزيرة جربة الواقعة بين تونس وطرابلس مركزاً لنشاطهم حيث كانوا يشنون الهجمات على السفن المسيحية ، وكان عروج يتمتع بحماية حاكم تونس كما سيطر على عدد من حكام المناطق المحلية فى الجزائر وعلى عدد من الموانى التى استولى عليها من الأسبان ، ولكن حينما حاول تأسيس زعامة له فى تلمسان هزم وقتله أهل المدينة .

وبعد وفاة عروج فى ١٥١٨ أثبت شقيقه خير الدين كفاءته فى مجال القرصنة ثم دخل فى خدمة الأتراك فى البحر المتوسط وقام بتقوية التحصينات الساحلية وتحالف مع القبائل العربية فى المناطق الداخلية وتوثقت علاقته بالسلطان سليم الأول الذى سيطر على سورية ومصر وأراد أن يضمن السيطرة على ساحل الشمال الأفريقى عن طريق أتباعه فى هذه الجهات . لقد أرسل باربروس سفينة إلى استانبول محملة بالهدايا الثمينة للسلطان فأصدر فرماناً بتعيينه بيلر بك على أفريقيا ودعمه بالحامية التقليدية فى الجزائر ، وكانت تضم فرق الفرسان وحاملى السيوف والضباط من الذين يضعون طوغين اثنين من أذناب الخيل ومعهم أسلحتهم وترافعتهم قوة من الجنود ، وسمح لهم بجباية الضرائب من السكان .

وحتى عام ١٥٣٣ ظل سليمان خليفة سليم مشغولاً بحملاته البرية فى أوروبا ، غير أن علاقاته توثقت بباربروس بعد أن شاع أمر نزاعه مع قوات الإمبراطور فى غرب المتوسط . وقد انزعج سليمان حينما علم أن القوات البحرية المسيحية قد نقلت نشاطها من غرب المتوسط إلى شرقه تحت قيادة قائد جنوى ماهر يدعى أندريا دوريا Andrea Doria دخل فى خدمة الإمبراطور بعد أن تخلى عنه ملك فرنسا ، وأنه نجح فى الإستيلاء على جزيرة كورون الواقعة فى جنوب غرب اليونان ، وكانت تابعة للعثمانيين ، وذلك أثناء عبوره مضيق ميسينا قاصداً بهذا العمل جذب انتباه السلطان الذى كان

يحاصر قلعة جونز Güns فى ڤينا ، وبالفعل أرسل العثمانيون قوة برية وبحرية لإستعادة كورون ولكنهم فشلوا برغم تفوقهم العددى ، غير أن المسيحيين اضطروا فيما بعد إلى إخلائها . فأتيحت الفرصة للعثمانيين لتأمين قواتهم البرية والبحرية فى هذه المناطق لضمان عدم عودة المسيحيين إليها مرة أخرى .

وقد تطلب الأمر أن يتخذ السلطان الوسائل الكافية لتأمين غرب البحر المتوسط بسرعة حتى يتفرغ للحملة التى كان قد اعتزم إرسالها إلى فارس وليطمئن على دفاعاته البحرية فى غيابه . فأرسل إلى بارباروسا يأمره بالمثول أمامه فى استانبول ، وجاء الأخير بصحبة أسطول يضم أربعين سفينة وقام باستعراض ضخم فى الدردنيل فى ميناء القرن الذهبى أمام القصر السلطانى ، وكان يحمل معه الهدايا الثمينة للسلطان وهى كميات كبيرة من الذهب والمجوهرات والمصنوعات الثمينة ومجموعة من الأسود والحيوانات الأفريقية وعدد من الشابات المسيحيات لينضموا إلى الحريم السلطانى ، وكانت كل واحدة منهن تحمل هدية من الذهب أو الفضة . أما باربارسا نفسه الذى أصبحت لحيته رمادية بفعل الزمن والذى تميز بقوة جسمية واضحة . فقد قدم فروض الطاعة والولاء للسلطان فى احتفال رسمى أقيم فى الديوان بمصاحبة ثمانية عشرة قبطاناً من قادة السفن الماهرين والذين اصطفوا فى ملابس الشرف ، ثم أصدر السلطان فرماناً بتعيين باربروس قائداً أعلى للبحرية العثمانية « قبطان باشا » ، وأمره ورفاقه ببناء بعض السفن ليختبر مهاراتهم ، وظهرت جهودهم واضحة فى هذا المجال وبفضل الأساليب التى أدخلوها على بناء السفن امتدت السيادة البحرية العثمانية على قسم كبير من مياه البحر المتوسط وساحل الشمال الأفريقى .

لقد شارك باربروس السلطان العمل فى البحر المتوسط مع حليفته فرنسا ، وكان يشعر بالإرتياح لهذا التحالف لأنه أقام توازناً فى البحر المتوسط أمام أسبانيا وقوتها البحرية ، وكان السلطان قد خضع لرغبة الملك الفرنسى الذى طلب إعداد قوات بحرية وبرية لمواجهة خصمه الإمبراطور ، ثم أسفر التقارب العثمانى الفرنسى عن توقيع المعاهدة التركية - الفرنسية فى عام ١٥٣٦ والتى تضمنت بنوداً سرية للدفاع المشترك .

وقبيل رحيل السلطان إلى فارس فى صيف ١٥٣٤ توجه باربروس

بأسطوله من مياه الدردنيل إلى البحر المتوسط وكان يضم عدداً كبيراً من السفن الحربية وعليها العبيد الذين تم أسرهم فى المعارك العسكرية ، وكذلك عدداً من المدمرات (الغاليون) الصغيرة والسريعة ، وعدداً من السفن الشراعية والسفن ذات المجداف ، وتقدم غرباً ناحية سواحل وموانئ إيطاليا وبصفة خاصة حول مضيق ميسنيا وحول ممتلكات نابولى ، غير أن هدفه الأساسى كان تونس التى أصبحت تعانى من الضعف فى عهد الأسرة الحفصية ، وكان قد وعد السلطان بالإستيلاء عليها ضمن سياسته الرامية إلى فرض السيطرة العثمانية على سلسلة موانئ الشمال الأفريقى الممتدة من مضيق جبل طارق إلى طرابلس . وقد نزلت قوات باربروس من الانكشارية فى منطقة جولتا (حلق الوادى) ، وهى منطقة ضيقة تؤدى إلى ميناء تونس ، وكان هو وشقيقه عروج يتخذان هذه المنطقة مرسى لسفنهما أثناء إشتغالهما بالقرصنة ، وحينما أكمل باربروس استعداده للهجوم سارع مولاى حسن بالفرار من المدينة لخشيته من قوة باربروس ، ومن ثم خضعت تونس للسيادة العثمانية وكسب العثمانيون موقعاً استراتيجياً يتحكم فى شرق المتوسط وغربه وقريب فى ذات الوقت من جزيرة مالطة حيث يتواجد فرسان القديس يوحنا الذين جاءوا من رودس ، وقريبة أيضاً من صقلية وهى الجزيرة التى غزتها قرطاج من قبل ثم غزاها العرب ، والتى أصبحت هدفاً للعثمانيين فى البحر المتوسط .

لقد تنبه الإمبراطور شارل إلى الخطر العثمانى الذى أصبح يهدد صقلية ، وحاول أن يواجه هذا الخطر باستعمال أسلوب الدسائس ، فأرسل مبعوثاً من جنوة إلى تونس للتجسس ولإشعال الثورة ضد العثمانيين بالاتفاق مع مولاى حسن الباى المخلوع ، وفى حالة فشل الثورة أن يلجأ إلى تدبير اغتيال باربروس أو محاولة استمالته بالرشوة ليبعد عن مولاى حسن ، غير أن باربروس اكتشف الأمر وقتل الجاسوس الجنوى . وهكذا أصبح العمل العسكرى هو الخيار الوحيد أمام الإمبراطور ، ولذلك أعد أسطولاً ضخماً خرج من الموانئ الإيطالية والأسبانية حاملاً ٤٠٠ من البحارة بقيادة أندريا دوريا ، بالإضافة إلى قوات أخرى من الأسبان والألمان والإيطاليين ، ورسا الأسطول فى صيف ١٥٣٥ بالقرب من أطلال قرطاج ، وكان من المقرر قبل الوصول إلى تونس الإستيلاء على قلاع حلق الوادى التى كانت تحرس المدخل المؤدى إلى المدينة

وميناءها ، وقد استمر الحصار لمدة عشرين يوماً وتكبدت القوات خسائر فادحة أمام المقاومة العثمانية الشرسة بقيادة قائد يهودى محنك من سميرنا وبمساعدة المدفعية التى تم نقلها من السفن إلى الميناء ، ولكن استطاعت القوات الإمبراطورية إحداث ثقوب فى جدران القلاع بفضل القذائف التى أطلقتها سفن فرسان القديس يوحنا وكان عددها ثمانية من الأحجام الضخمة والتى كانت تعد أفضل سفن بحرية مسلحة فى ذلك الوقت ، وسقطت القلاع فى أيديهم فى نهاية الأمر ، وأصبح الطريق إلى تونس مفتوحًا أمام الأسبان واستطاعوا الإستيلاء على أكبر عدد من سفن باربروس ، غير أن الأخير رفض الاستسلام وأرسل جزءاً من أسطوله إلى عنابة الواقعة بين تونس والجزائر واستعد لمقابلة الإمبراطور فى معركة برية بعد أن فشل فى الجولة الأولى ، وتحصن خلف أسوار تونس تدعمه قوات من الترك والبربر . ولكن كان فى المدينة عدة آلاف من المسيحيين بقيادة فرسان القديس يوحنا وهؤلاء قاموا بالإستيلاء على الترسانة البحرية والأسلحة الموجودة بها ودخلوا فى معركة مع الأتراك بعد أن تخلى عنهم البربر ، ثم دخل الإمبراطور المدينة بعد مقاومة لا تذكر وأقام جنده المذابح وأعمال السلب والنهب فى المدينة لمدة ثلاثة أيام ، ثم أعاد مولاى حسن إلى العرش وجعله تابعاً له وزوده بحامية أسبانية لضمان السيطرة على حلق الوادى . وفى الغرب المسيحى أقيمت الاحتفالات للإمبراطور المظفر وأنشأ بهذه المناسبة فرقة جديدة للفروسية أطلق عليها « صليبية تونس » وهى من البربر ، واحتفل راعى الشعر والموسيقى فى نورمبرج هانز ساكس Hans Sachs بهذا النصر بإقامة نموذجًا للحصار والقلعة وبداخلها الدمى التى تمثل الأتراك وقائدهم ذا اللحية الحمراء وهو يصيح وحوله النيران المشتعلة .

ولكن لم يكن باربروس من هؤلاء القادة الذين يستسلمون للهزيمة ، فقد هرب بعد سقوط تونس وتعرضها للنهب ومعه بضعة آلاف من الأتراك إلى عنابة حيث كان جزءاً من أسطوله المحتجز فى انتظاره ، ولم يضيع الوقت واستخدم خطة عسكرية جديدة حيث اتجه بأسطوله إلى جزر البليار فى غرب المتوسط لمقابلة الإمبراطور بدلاً من الاتجاه إلى مدينة الجزائر ، وكانت المفاجأة أمام الإمبراطور وأسطوله العائد رافعًا رايات النصر ، فقد نجح باربروس فى

دخول ميناء ماجو فى مينورقا واستولى على عدد من السفن وقبض على عدد من الملاحين البرتغاليين وحول الهزيمة إلى نصر ودخل إلى المدينة وسمح لقواته بنهبها وأسر الآلاف من المسيحيين ودمر دفاعات الميناء وحمل معه الكنوز الأسبانية وعاد بها إلى مدينة الجزائر . وهكذا كان الإستيلاء على تونس من أعقد المشكلات السياسية التي واجهت الإمبراطور طوال فترة سيطرة باربروس على البحار .

وفى عام ١٥٣٦ عاد باربروس إلى استانبول لمقابلة السلطان الذى كان عائداً لتوه من بغداد ، فطلب منه بناء أسطول جديد يضم مائتى سفينة إستعداداً لحملة ضخمة على إيطاليا ، ومرة أخرى إمتلأت ترسانات المدينة بالعمل والحركة . ولكن استثار أندريا دوريا السلطان حينما شن هجوماً خاطفاً على مسينا Messina وقبض على عشرة من التجار الأتراك ، ثم اتجه شرقًا ناحية البحر الأيونى وأوقع الهزيمة بأسطول تركى خارج جزيرة باكسوس Paxos ، وقد أقنعت هذه الأعمال السلطان بوجهة نظر باربروس بضرورة تأسيس قوة بحرية عثمانية في شرق البحر المتوسط بعد أن أقيمت دعائم الوجود العثمانى البحرى فى وسط المتوسط وغربه .

وفى عام ١٥٣٧ أبحر باربروس بأسطوله الجديد خارج القرن الذهبى لشن هجوم على الساحل الجنوبى الشرقى لإيطاليا ثم يتبعه بتمشيط للبحر الأدرياتى ، وكان هذا الهجوم بأمر السلطان الذى وضع خطة للمرور بألبانيا والحصول على قوة برية تركية داعمة ثم يعبرها ويتجه إلى الشمال الإيطالى ، وكان للملك الفرنسى فرانسوا الأول دوره فى هذه الخطة التى دبرت مجئ القوات التركية فى فصل الشتاء إلى ميناء مرسيليا إظهاراً للتحالف الفرنسى – التركى . ورسا باربروس بالفعل فى أوترانتو وأوقع الرعب فى نفس أندريا دوريا بحجم أسطوله الجديد وجعله لا يفكر فى الدخول إلى مسينا مرة أخرى ، غير أن الملك فرانسوا فضل توقيع هدنة مع الإمبراطور فى هذا الوقت .

أما قوات السلطان التى كانت فى ألبانيا فقد اتجهت إلى الجزر الأيونية التى كانت تحت سيطرة البندقية والتى كانت مصدر نزاع دائم بين العثمانيين

والبنادقة ، بالإضافة إلى حقد البنادقة على المزايا التجارية التى منحها العثمانيون للفرنسيين والتى ارتكبوا بسببها الكثير من الأعمال العدائية ضد السفن العثمانية وكان آخرها الإستيلاء على سفينة عثمانية خارج جزيرة كورفو وكان على متنها والى غاليبولى وقتلوا كل من عليها باستثناء شاب نجح فى الهروب على بعض الألواح العائمة وقدم تقريراً عن الحادثة للصدر الأعظم ، ولذلك تقدمت قوات السلطان من ساحل ألبانيا وحاصرت كورفو ونهبت القرى ولكن صمدت قلعتها لفترة طويلة وتم رفع الحصار عند حلول فصل الشتاء .

وفى محاولة للانتقام لهذه لهزيمة تقدمت قوات باربروس إلى الجزر الأيونية ورست فى البحر الإيجى وقامت بعملية سلب ونهب واسعة النطاق فى الجزر التابعة للبندقية واستعبدت سكانها واستولت على سفنهم وأجبرتهم على دفع جزية سنوية ضخمة للسلطان الذى عاد منتصراً إلى استانبول محملاً بالذهب والملابس الحريرية وآلاف الفتيات و١٥٠٠ غلام ، وقدرت هذه الغنائم بـ ٤٠٠ ألف قطعة ذهبية كما ذكر المؤرخ التركى حاجى خليفة . وفى اليوم التالى قدم باربروس فروض الطاعة والإحترام للسلطان ومعها الهدايا المحمولة بواسطة مائتين من الغلمان فى ملابسهم القرمزية حاملين السلال المملوءة بالذهب والفضة ، ويتبعهم ثلاثون أخرون يحمل كل منهم على ذراعيه صرة من الذهب ، ثم أعقبهم مائتين من الرجال يحمل كل منهم صرة من المال ، وأخيراً مائتين من الكفرة يرتدون القلائد ويحمل كل منهم لفافات من الأقمشة الحريرية على ظهره . وقد أنعم السلطان على باربروس بالمكافآت المجزية لأنه يعد القبطان باشا الأوحد الذى أدى هذه الخدمات الجليلة للدولة ، وعلى حد وصف مؤرخ أسبانى « هو مؤسس البحرية العثمانية وقائدها الأعلى وروحها الدافعة » .

لقد أصبح باربروس الآن يشكل تهديداً للمسيحية ، ولذلك قررت الدول المسيحية والبابوية والإمبراطور تكوين تحالف مع البندقية لمحاربته ، وبالفعل أرسلت كل منهم فرقة بحرية وضعت تحت قيادة أندريا دوريا ، وبلغ عدد السفن المجهزة ٢٠٠ سفينة عليها نحو ٦٠ ألف مقاتل يصاحبها ترسانة ضخمة

من سلاح المدفعية ، وقد فاق هذا الأسطول أسطول باربروس لأنه كان يضم أحدث خمسين سفينة حربية من السفن المعروفة فى العالم الجديد والتى كانت غير مألوفة فى منطقة البحر المتوسط ، وكان دوريا واثقاً من قدرة نيران هذه السفن الضخمة على سحق سفن القراصنة الصغيرة والقضاء تماماً على القوة البحرية التركية .

تجمعت هذه السفن المسيحية خارج جزيرة كورفو بينما ابتعد باربروس عن الجزر اليونانية الرئيسية واتخذ لنفسه موقعاً استراتيجياً جهة الجنوب ، ثم أبحر فى قناة بريڤيزا Pervesa الحصينة حول نقطة أكتيوم التاريخية الواقعة عند خليج أرطا Arta ، وسلك نفس الطريق الذى سار فيه أوكتاڤيوس منذ ١٥٠٠ عام حينما استعد للمعركة مع كليوباترا وأنطونيوس فى أكيتوم ، ثم توقف فى هذا الموقع الحصين فى إنتظار دوريا وأسطوله الضخم ، ولكن لم يتحرك أى من الطرفين من موقعه لمنازلة الطرف الآخر ، وكانت الفرصة الوحيدة أمام دوريا هى أن يتقدم بقواته ومدافعه للإستيلاء على قلعة بريڤيزا ويغلق بذلك مدخل الميناء ويحتجز الأسطول التركى فى مياهه ويوجه إليه ضرباته من جهة البر ، وناقش بالفعل مع قادته بعض خطط الإنزال البرى ولكن تراجع لأن الوقت كان فى أواخر العام (شهر سبتمبر) وهو موعد هبوب العواصف القوية التى قد تجبر الأسطول على الانسحاب وتجعل القوات البرية تحت رحمة انكشارية باربروس . وهكذا كان دوريا يحاول إغراء باربروس بالابتعاد عن البحر والأخير يحاول دفع دوريا إلى الخليج ولم يحدث الصدام المباشر بين الطرفين حتى تلك اللحظة . وأخيراً تحرك أسطول دوريا تجاه الجنوب بعيداً عن بريڤيزا كما لو كان ينسحب على أمل أن يتعقبه أسطول باربروس فيجد السفن المسيحية فى انتظاره على طول الساحل .

لقد كانت الظروف مهيأة أمام دوريا ليجمع أسطوله ويتحرك فى اتجاه الشمال مستفيداً من الرياح المناسبة آنذاك وليتقابل مع الأتراك ولكنه فشل فى اتخاذ هذه الخطوة ، وكذلك باربروس لم يغامر بالأسطول الضخم الذى كان تحت يده ، غير أنه اشتبك فى معركة قصيرة مع السفينة البندقية الضخمة التى كانت تشبه القلعة العائمة والتى كانت تعد أقوى السفن الحربية فى ذلك

الوقت ، ثم طلب قائدها من دوريا اللحاق به لمواجهة الأتراك ولكنه رفض وفضل أن يرسو على مقربة من الساحل . واستمر باربروس فى مناوراته واستطاع الإستيلاء على سفينتين حربيتين كبيرتين وخمسة قوارب صغيرة ولم يفقد سفينة واحدة من أسطوله . وأخيراً أصدر دوريا الأوامر لأسطوله بالاتجاه شمالاً ناحية البحر وليس فى اتجاه الأتراك لعلهم يتعقبونه ، وتحرك بالفعل عائداً إلى كورفو وإلى الموانئ الأصلية التى قدم منها .

وكان هذا الفشل فى المواجهة فى عام ١٥٣٨ يعنى الهزيمة الساحقة للمسيحيين وكان يرجع إلى مشكلات قيادة الأساطيل المتعددة أو المختلطة والتى كانت تضم أنواعًا مختلفة من السفن فمنها السفن ذات المجاديف والسفن ذات الشراع والتى جعلت دوريا يعجز عن السيطرة عليها ، ويرجع أيضًا إلى المشكلات السياسية القائمة بين القادة القادمين من مناطق مختلفة والذين كانت تحكمهم مصالح متعددة ، فكان البنادقة يتميزون بالشراسة فى القتال والأسبان تحدوهم الرغبة فى تحقيق المكاسب ، أما الإمبراطور شارل فقد تركزت مصالحه فى غربى البحر المتوسط وأدرك أنه لن يحقق أدنى مصلحة فى المياه الشرقية ، ولذلك سعى قبل بدء الحملة لتقديم رشوة لباربروس ليتخلى عن السلطان ولكن مساعيه باءت بالفشل ، وكرر هذه المحاولة مرة أخرى ولكن دون جدوى . وهكذا ومن جديد فشلت المسيحية فى الاتحاد والتلاحم وانتصر الأتراك المتحدين وتحول البحر المتوسط إلى بحيرة عثمانية وهذا بفضل إنجازات باربروس والذى استمر لعدة أجيال سيد البحار بلا منازع .

انسحبت البندقية من الحلف الإمبراطورى ووقعت صلحًا منفرداً مع الأتراك بمساعدة الدبلوماسية الفرنسية ، ومن ثم لم يعد هناك ما يمنع الأساطيل العثمانية من التجول بحرية فى البحر المتوسط من شرقه إلى غربه ، وأبحرت الأساطيل المنتصرة من صقلية إلى أعمدة هرقل واتجهت إلى جبل طارق بعد أن نجحت فى إقامة قاعدة بحرية للقرصنة فى الجزائر . وفى خريف ١٥٤١ حاول شارل الخامس الإستفادة من غياب باربروس فى استانبول وشن هجوماً فاشلاً مع حلفائه للإستيلاء على مدينة الجزائر ، وكان الفشل بسبب العاصفة الهوجاء التى شتتت شمل قواته مما جعله يشعر بالمهانة لأول هزيمة

شخصية تلحق به .

وهكذا أصبحت البحار مهيأة للتعاون البحرى بين أعداء شارل الكفرة المتحدين فى التحالف الفرنسى - التركى والذين حاول القضاء عليهم فى حملة الجزائر . وفى عام ١٥٤٣ أرسل السلطان حملة جديدة بقيادة باربروس إلى غـرب المتوسط ضمت أسطولاً من مائة سفينة حربية بصحبة مبعوث فرنسى ، ونزل إلى سواحل نابولى وصقلية وقام بعملية تمشيط لإقليم ريجيو فى كالابريا وأسر زوجة الحاكم البالغة من العمر ثمانية عشرة عامًا ثم أطلق سراح والديها فى مقابل السماح له بالزواج منها ، وفى روما إمتلأت الطرقات ليلاً بالضباط حاملى المشاعل لتبديد الخوف والرعب الذى عم سكانها ، ثم وصل الأسطول التركى إلى سواحل الريڤيرا الفرنسية ورسا فى مرسيليا واستقبل دوق انچين الشاب باربروس وسمح له بالمبيت فى ميناء طولون وجعله مركزاً لقيادته بعد أن تم إخلائها من بعض السكان ، ووصفها الفرنسيون المعاصرون بأنها مدينة القسطنطينية الثانية بعد أن إمتلأت ببكوات السناچق . وكان مشهداً مثيراً وغريباً فى الميناء ومهيناً فى ذات الوقت للكاثوليك الفرنسيين لأنه إمتلأ بالمسلمين المعممين الذين كانوا يسيرون على ظهور السفن بينما العبيد المسيحيين من الإيطاليين والألمان وبعض الفرنسيين مقيدين بالسلاسل فى مقاعد السفن وعندما تناقص عددهم بسبب انتشار وباء الحمى بينهم قام الأتراك بشن غارات على القرى الفرنسية وأجبروا الفلاحين على الخدمة فى السفن الحربية ، كما قاموا ببيع الأسرى المسيحيين علنًا فى السوق ، بينما كان المؤذنون يؤذنون للصلاة والأئمة يتلون القرآن كما يحدث تمامًا فى أى مدينة إسلامية .

لقد تناقصت شعبية فرنسوا الأول لأنه طلب مساعدة الأتراك وتأييدهم وأصبح يواجه معارضة لتجاوزه حدود هذه المساعدة ، وقد برر هذا العمل بأنه كان فى حاجة لمساعدة بحرية ليواجه بها خصمه الإمبراطور لأن إمكاناته البحرية غير كافية ، وحتى يخفى تبرمه من مطالب باربروس الذى أراد ممارسة مغامراته البحرية على نطاق واسع سمح له بالعمل فى منطقة محددة فقط بأن يقوم بشن هجوم على ميناء نيس Nice الذى يعد البوابة المؤدية إلى إيطاليا

والذى كان حليف الإمبراطور دوق سافوى قد استولى عليه . وبرغم أن قلعة نيس التى تحصن بها فرسان القديس يوحنا ظلت تقاوم لفترة إلا أن المدينة سقطت فى أيدى الأتراك بعد أن نجحت مدفعيتهم فى إحداث ثغرة واسعة فى أسوارها فطلب قائدها التسليم وأضرمت فيها النيران وسويت بالأرض ، وكان هذا العمل يعد خرقًا لشروط معاهدة الامتيازات الموقعة بين فرنسا وتركيا ولذلك تبادل الطرفان اللوم بشأنه . وفى ربيع عام ١٥٥٤ أراد الملك الفرنسى التخلص من حليفه المزعج عن طريق الرشوة فقام بتوزيع مبالغ طائلة على القوات التركية وهدايا ثمينة للقبطان باشا لأنه كان على وشك الوصول إلى اتفاق مع الإمبراطور شارل الخامس ، وبذلك رحل باربروس وأسطوله عائدًا إلى استانبول ، وكانت هذه آخر حملاته حيث توفى بعد ذلك بعامين من جراء حمى أصابته وهو فى عنفوان الشباب فى قصره بمدينة استانبول ، ورثاه العالم الإسلامى أجمع بعبارة « مات زعيم البحار » .

الفصل السادس عشر

كان السلطان سليمان يحارب دائمًا فى أكثر من جبهة فى آن واحد فبينما كان يدفع بقواته البرية إلى آسيا ، كانت قواته البحرية تعمل جاهدة للسيطرة على البحر المتوسط ، كما قاد بنفسه ثلاثة حملات عسكرية متتالية ضد فارس فى الفترة من عام ١٥٣٣ إلى ١٥٣٤ ، لقد كانت فارس هى العدو التقليدى للأتراك ليس فقط من الناحية القومية ولكن من الناحية الدينية أيضاً لأن الأتراك كانوا سنيين متعصبين والفرس شيعة متعصبين ، ولكن منذ أن حقق سليم والد سليمان النصر فى موقعة تشالديران على الشاه إسماعيل أصبحت العلاقات هادئة نسبيًا بين الدولتين برغم عدم توقيع معاهدة صلح بينهما وبرغم أن السلطان ظل يتبع سياسة التهديد حيالهم . ولما توفى الشاه إسماعيل وخلفه طهماسب إبن العاشرة تجدد خطر التهديد بالغزو مرة أخرى غير أنه لم يدخل حيز التنفيذ قبل مرور عشر سنوات ، واستغل طهماسب هذه الفترة فى محاولة إخضاع حاكم إقليم بتليس له ، وهى منطقة واقعة على الحدود التركية ، كما قتل حاكم بغداد لأنه أعلن ولاءه للسلطان سليمان ووضع مكانه أحد الأتباع الموالين له ، ولذلك استهل سليمان انتقامه من الفرس بإعدام عدد من سجنائهم الذين كانوا فى غاليبولى ، ثم أرسل الصدر الأعظم إبراهيم باشا على رأس قوة إستطلاعية للتمهيد لإرسال حملة آسيوية لتأمين الحدود التركية على الجانب الفارسى والإستيلاء على عدد من القلاع الهامة .

دخلت القوات العثمانية تبريز فى صيف ١٥٣٤ بعد أن غادرها الشاه مفضلاً عدم الدخول فى معركة كما فعل والده من قبل ، وبعد أربعة شهور لحق السلطان بالصدر الأعظم فى منطقة تقع قبل تبريز ، ثم تحركت القوات المزدوجة جنوباً فى اتجاه بغداد وسط ظروف مناخية قاسية فى الأراضى الجبلية فى فصل الشتاء . وأخيراً ، وصل سليمان إلى بغداد فى نهاية نوفمبر ١٥٣٤ وحررها من الحكم الشيعى الفارسى بصفته حامياً للإسلام . وقد لقى سكان المدينة معاملة متسامحة كما فعل إبراهيم من قبل مع سكان تبريز ، ثم طلب السلطان من أتباعه حفر الأرض بحثًا عن رفات الإمام أبو حنيفة أحد أئمة السنة وأحد صحابة الرسول (ﷺ) العظام والذى كان شيعة الفرس قد دمروا قبره ، وقد استدلوا عليه من رائحة المسك التى انبعثت منه وتم بناء مقبرة

جديدة فى الحال وأصبحت منذ هذا التاريخ مزاراً دينياً . وأصبح تخليص بغداد من أيدى هؤلاء الشيعة الكفرة والعثور على قبر الإمام أبى حنيفة يقارن بكشف رفات الصحابى الجليل أبى أيوب الأنصارى بعد إنتزاع القسطنطينية من أيدى المسيحيين الكفرة .

وفى ربيع ١٥٣٥ غادر سليمان بغداد مستخدماً طريقاً أقصر من تلك التى قدم منها ، بعد أن مكث فى تبريز عدة شهور وإطمأن إلى استقرار الأوضاع بها وأمن الوجود العثمانى ثم غادرها لأنه كان يدرك أن بعد المسافة بينها وبين العاصمة لن تمكنه من السيطرة الكاملة عليها ، وتعرضت مؤخرة جيشه لمناوشات القوات الفارسية فى طريق العودة حتى وصل فى يناير ١٥٣٦ إلى استانبول ودخلها مظفراً . لقد بدأ نجم إبراهيم باشا فى الأفول عقب الحملة الأولى إلى فارس بعد أن قضى ثلاثة عشرة عاماً فى خدمة السلطان فى منصب الصدر الأعظم وقائداً لقواته العسكرية فى ميادين القتال ، إذ أثار نجاحه وصعوده السريع وقوة نفوذه وثرائه حقد الكثيرين من حوله ، كما أثار أيضًا أولئك الذين كانوا يكرهون ميوله المسيحية واستخفافه بالمشاعر الإسلامية . ويبدو أن إبراهيم باشا تجاوز الحدود فى فارس ؛ فقد لقب نفسه بالسلطان بعد إنتزاع تبريز من الفرس وقبيل وصول السلطان ، وكان يفضل أن يخاطب بالسلطان إبراهيم ، برغم أن سليمان لم يتجه بتفكيره إلى اعتبار هذا الأمر يمثل نوعًا من الخيانة أو عدم الإخلاص ، إلا أن إسكندر شلبى العدو اللدود لإبرهيم والذى كان يشغل منصب الدفتردار ، ورافقه فى حملة فارس اعترض على تصرف إبراهيم وأقنع السلطان بعزله ، غير أن النزاع اشتعل بين إسكندر وإبراهيم ودبر الأول الدسائس للثانى واتهمه بالتآمر ضد سيده وبسوء استخدام المال العام فأعدم على المقصلة .

وقد ذكرت الحوليات التركية أن الاتهام الذى دبره إسكندر لإبراهيم أنه كان يخطط لقتل السلطان وأن الأخير اقتنع بذلك حتى أنه رأى رؤية فى منامه ظهر فيها إبراهيم وهو يحاول قتله ، كما تأثر بنفوذ الحريم السلطانى وبصفة خاصة جاريته الروسية الأوكرانية الأصل روكسلانه والتى كانت تحقد على إبراهيم وعلى علاقته الحميمة بالسلطان وعلى النفوذ الذى كان يتمتع به وكانت تطمع فيه لنفسها . على أية حال قرر السلطان أن يتصرف بسرعة وفى

سرية تامة ، فدعا إبراهيم لتناول العشاء فى جناحه الخاص بالقصر السلطانى وللمبيت معه كما كان مألوفًا فى ربيع ١٥٣٦ ، وفى صباح اليوم التالى وجدت جثته معلقة على بوابة القصر وبدا عليها أنه مات مخنوقًا ، ثم حمل الجثمان على ظهر جواد عليه سرج أسود ودفن فى مقبرة أحد الدراويش فى حى جالاطة ولم توضع حجرة واحدة كشاهد عليه ، ثم صودرت ممتلكاته الكثيرة وأعيدت إلى السلطان . وهكذا تحققت التكهنات التى عبر عنها إبراهيم منذ فترة مبكرة فى حياته حينما توسل إلى السلطان ألا يصل به إلى أعلى المناصب حتى لا ينهار بسرعة .

لم يخاطر السلطان بحملة جديدة على فارس إلا بعد مرور عشرة سنوات لأن الأحداث التى وقعت فى المجر جعلته يوجه نشاطه إلى الغرب الأوروبى مرة أخرى . فقد توفى فجأة چون زابوليا شريك فرديناند ملك المجر بمقتضى المعاهدة السرية التى وقع عليها بإقتسام أقاليم المجر بينهما ، والتى كانت تنص على أنه فى حالة وفاة زابوليا يؤول نصيبه فى المجر إلى الهابسبرج إذا لم يكن له وريث ، غير أن زابوليا ترك وريثًا رضيعًا يحمل اسم ستيفن Stephen بعد أن تزوج من إيزابيلا إبنة ملك بولندا بناء على نصيحة الراهب المجرى مارتينوزى Martinuzzy الذى كان وطنيًا غيورًا ويمقت الهابسبرج ، وقد أوصى زابوليا عند احتضاره بطلب المساعدة من السلطان عند الضرورة .

وكان رد فعل فرديناند السريع هو الاتجاه بقواته وأمواله إلى بودا ليعلن نفسه ملكًا على المجر كلها ويجعل من بودا عاصمة شرعية له ، ولكن عجزت قواته عن حصار المدينة فانسحب تاركًا حامية فى مدينة بست Pesth واحتفظ ببعض المدن الصغيرة . وأمام هذا التصرف لجأ مارتينوزى وفريقه المناهض للهابسبرج نيابة عن الملك الرضيع إلى السلطان وأطلعه على المعاهدة الغادرة والأفعال المشينة التى وقعت فقال السلطان فى غضب : « لا يستحق هذان الملكان وضع التيجان على رؤوسهما لأنهما خائنين » . ثم طلب المبعوثون المجريون الدعم العثمانى للملك الصغير ستيفن فاعترف به السلطان مبدئيًا فى مقابل دفع جزية سنوية ، ولكنه أراد أن يتأكد من أن إيزابيلا أنجبت فعلاً هذا الطفل فأرسل مبعوثًا رفيع المستوى لهذا الغرض ، وقدد استقبلته ووليدها بين

يديـها ثـم أرضعته أمامه فانحنى أمامها وقبل أقدام الطفل الوليد ابن الملك چون .

وخلال فصل الشتاء أعد سليمان العدة للقيام بحملة ضد المجر ، ودخل بودا فى ١٥٤١ بعد أن تعرضت لهجوم جديد من جانب فرديناند وتولى مارتينوزى وقواته الدفاع عنها ورد العدوان . وواصل السلطان سيره وعبر نهر الدانوب واستولى على مدينة بست Pesth وقضى على جنود فرديناند ، ثم استقبل مارتينوزى ورجاله الوطنيين ، وأدعى أن الشرع الإسلامى يمنعه من إستقبال إيزابيلا ، ولذلك طلب إحضار الملك الطفل إليه ، وقد جاءوا به فى المهد الذهبى بصحبة ثلاثة مربيات والمستشار الأول للملكة ، وبعد أن تفحصه طلب من بايزيد ابنه أن يحمله بين ذراعيه ويقبله ثم أعاده إلى والدته .

وبعد أن تم التأكد من بنوة الطفل تقرر أن يحمل ألقاب أجداده چون سجسموند ، وأن يصبح حاكماً على المجر فى السن المحددة ، ثم توجهت الأم بطفلها إلى مدينة ليپا Lippa فى ترنسلڤانيا . وهكذا كان الملك الصغير حاكماً تابعاً للسلطان ويؤدى له جزية سنوية وكان هناك إحتلال عثمانى دائم للبلاد وأصبحت بودا وضواحيها ولاية عثمانية يحكمها باشا عثمانى وتخضع للإدارة التركية التامة وتحولت كنائسها إلى مساجد .

وقد أثار هذا الوضع الجديد فى المجر قلق النمساويين وسادهم شعور بعدم الأمان من جديد تجاه ڤينا ، ولذلك أرسل فرديناند رسله إلى السلطان فى معسكره وهم يحملون الهدايا طلباً للسلام ، وكان من بينها ساعة ضخمة محكمة الصنع لا تشير فقط إلى الساعات بل إلى الأيام والشهور وإلى تحركات الشمس والقمر والكواكب وكانت تتوافق مع رغبات السلطان الذى كان يهتم بالظواهر الفلكية والأجرام السماوية ، ولكن لم تفلح هذه الهدية فى إقناع السلطان بمطالب الرسل التى كانت تطالب بأن يصبح سيدهم ملكاً على المجر كلها ، فبعد أن سأل السلطان وزيره عن مطلبهم وأدرك أنهم لا يحملون جديداً أعادهم من حيث جاءوا ووبخهم الوزير قائلاً : « أتعتقدون أن السلطان البادشاه يمكن أن يتخلى عن شئ كسبه بقوة السيف للمرة الثالثة » ؟

ولم يعد أمام فرديناند إلا العودة إلى ميدان القتال مرة أخرى فى محاولة لإستعادة مدينة بست ، ولكنه فشل فى حصارها وتشتتت قواته ، وبعد أن سار سليمان إلى المجر مرة أخرى واستطاع الإستيلاء على مدينة جران Gran بعد حصار قصير الأجل وحول كاتدرائيتها إلى مسجد فى ربيع ١٥٤٣ ، ثم ضم المدينة إلى باشوية بودا التركية وحصنها من جهة شمال غرب أوروبا . كما تقدمت جيوشه وقامت بمجموعة من العمليات العسكرية وألحقت الهزيمة بالنمساويين واستولت على عدد من قلاعهم المهمة ، وضمت مساحة واسعة من أراضيهم للحكم العثمانى قسمت إلى ١٢ سنجق . وهكذا أصبحت غالبية المجر خاضعة للحكم التركى من الناحية العسكرية والمدنية والمالية وشكلت بالفعل جزءاً من الإمبراطورية العثمانية لقرن ونصف من الزمان .

تلك كانت ذروة إنتصارات سليمان فى الدانوب ، غير أن مفاوضات السلام كانت ضرورية لجميع الأطراف المتنازعة ، فقد كان الإمبراطور شارل الخامس نفسه يرغب فى تحقيق السلام حتى يتفرغ لنزاعه مع البروتستانت ، ولذلك توحدت جهوده مع شقيقه فرديناند وتوصلا إلى شروط للتفاوض مع السلطان ، وأرسلا مجموعة من السفارات إلى استانبول لهذا الغرض بعد أن تم التوقيع على هدنة مع باشا بودا .

واستغرقت المفاوضات من أجل التوصل إلى اتفاق نهائى حوالى ثلاثة سنوات وفى عام ١٥٤٧ تم التوقيع على معاهدة أدرنة التى نصت على : استمرار الهدنة بين الطرفين لخمس سنوات ، والمحافظة على الحالة الراهنة ، وبقاء المناطق التى استولى عليها سليمان تحت سيطرته باستثناء منطقة صغيرة فى المجر وضعت تحت يد فرديناند على أن يدفع الجزية السنوية للباب العالى .

وقد وقع على المعاهدة الإمبراطور وملك فرنسا وجمهورية البندقية والبابا پول الثالث ، وكانت بنود المعاهدة سيئة من وجهة نظر الإمبراطور إلا أنه قبلها لأنه كان فى قمة نزاعه مع البروتستانت .

وفى ربيع ١٥٤٨ أصبحت الظروف مهيأة لأن يرسل سليمان حملته الثانية إلى فارس ، حيث نجح فى الإستيلاء على مدينة ڤان وظلت فى أيدى الأتراك . ومرة أخرى عاد السلطان إلى الاهتمام بالأحداث الخاصة بالمجر بعد

أن فشلت معاهدة أدرنة بسبب شعور فرديناند بعدم الرضا عن نصيبه فيها وعن أراضيها التى أصبحت مقسمة إلى ثلاثة أقسام حيث فصلت الباشوية التركية فى بودا أراضى فرديناند عن ترنسلفانيا ، وفى مدينة ليپا كانت الملكة إيزابيلا تعد إبنها الصغير للحكم الوراثى فى دولته الصغيرة ولكن كان مارتينوزى الكاهن الطموح يسيطر على البلاد ولذلك تقدمت الملكة بشكوى إلى السلطان فطلب إعفاء الراهب من منصبه وإرساله مكبلاً إلى الباب العالى ، غير أن مارتينوزى اتفق سراً مع إيزابيلا فى ١٥٥١م أن تترك ترانسلفانيا لفرديناند فى مقابل منحها أراضى أخرى فى منطقة أخرى حتى تصبح ترنسلفانيا داخل الممتلكات النمساوية ، وقد كوفئ على هذا العمل بمنحه رتبة كاردينال . وحينما وصلت هذه الأخبار إلى السلطان ألقى بالمبعوث النمساوى فى البرج الأسود الموجود فى قلعة أناضول حصار ، وهو أحد السجون الواقعة على البوسفور ، حتى أصابه المرض لمدة عامين وبدا كأنه الميت الحى . وأخيراً تقرر إرسال حملة جديدة إلى ترنسلفانيا بقيادة قائد جديد موثوق به والذى أصبح صدراً أعظماً فيما بعد وهو مجمد صوقللو ، واستطاع الإستيلاء على ليپا ثم انسحب منها بعد أن ترك فيها حامية عثمانية .

وبرغم أن مارتينوزى تحالف سراً مع فرديناند وقررا محاصرة ليپا واستردادها إلا أنه حاول مصالحة الأتراك فتعامل مع حاميتهم بكل رفق ومودة على أمل الحصول على عفو السلطان ، غير أن فرديناند علم بخيانته وكلف قادته بقتله وبالفعل اتفقوا مع سكرتير الكاهن على تسديد طعنة خنجر له وهو جالس على مكتبه ، ثم لحق به مجموعة من الأسبان والإيطاليين المسلحين وأطلقوا النيران عليه فصرخ قائلاً « اليسوع » بعدها تلقى ثلاثة وستون طعنة فى جسده . وفى عام ١٥٥٢ هاجمت القوات التركية البلاد من جديد واستولت على بعض القلاع وتزايدت تبعًا لذلك مساحة الأراضى المجرية التابعة لها ، ثم تقابلت مع قوة عسكرية تابعة لفرديناند وتمكنوا من أسر ما يقرب من نصفهم وعادوا بها إلى بودا حيث تم بيعهم بأبخس الأثمان كعبيد فى السوق . ولكن فى الخريف واجه الأتراك مقاومة شرسة فى أقليم إرلاو Eralau الواقعة شمال بودا ، وأجبروا على الانسحاب بعد حصار طويل .

وأثناء مناقشة شروط الهدنة ، أرسل السلطان حملته الثالثة والأخيرة إلى فارس فى عام ١٥٥٣ ، لأن الشاه استغل فرصة انشغال العثمانيين بأمور المجر ، وبناء على نصيحة الإمبراطور شارل الخامس وبادر بمهاجمتهم فى حملة بقيادة ابن الشاه ، ونجح فى الإستيلاء على أرضروم بعد هجوم مفاجئ على الباشا التركى ، وحقق انتصارات أخرى متعددة ، وانتشرت التقارير فى أوروبا تؤكد إستيلاء الفرس على ممرات جبال طوروس وتهديد جميع أجزاء سوريا ، ومن ثم استعد السلطان للأخذ بالثأر فتقدم بقواته إلى حلب وقضى بها فصل الشتاء ثم اتجه فى الربيع إلى أرضروم وإستردها ، وعبر منطقة أعالى الفرات على مقربة من فارس حيث خرب الأراضى الفارسية متبعاً أساليب أكثر وحشية لم تستخدم فى أى حملة سابقة .

وهكذا أثبت السلطان تفوقه العسكرى ، وأدرك الفرس أنهم عاجزين عن مواجهته وعن إسترداد المناطق التى فقدوها ، كما أدرك الأتراك أنه لا يمكن تجاهل هذا العدو المزعج . وبعد أن أنهكت قوى الطرفين فى هذه المعارك ، وصل رسول فارسى إلى أرضروم فى خريف ١٥٥٤ لمناقشة أمر الهدنة ، وتمت الموافقة عليها ثم وقعت معاهدة سلام بين الطرفين فى العالم التالى .

تلك كانت حملات سليمان الآسيوية والتى انتهت بتخليه عن أى إدعاءات فى تبريز وما حولها ، وبفشله فى اختراق الطرق المؤدية إلى قلب فارس كما حدث من قبل وفشل فى الوصول إلى قلب أوروبا ، ولكن السلطان نجح فى توسيع حدود دولته من جهة الشرق حيث أصبحت تضم بغداد وجنوب ميزوبوتاميا ومداخل دجلة والفرات ووضع أقدامه عند الخليج الفارسى ، وبذلك زادت مساحة بلاده وأصبحت تمتد بين المحيطين الهندى والأطلنطى .

لقد كانت أولى الحملات الثلاث إلى فارس بقيادة إبراهيم باشا صاحب الحظوة لدى السلطان ، أما الحملة الثالثة فد صاحبها أفعالاً مشينة أكثر من أى حملة عثمانية أخرى كما ورد فى حوليات الأسرة الحاكمة . وخلال العقدين التاليين صار سليمان أسيراً لمحظيته السلافية روكسلانة التى عرفها الأوروبيون باسم « الوردة La Rossa » ، وكانت فى الأصل أسيرة من إقليم

غاليسيا وإبنة كاهن أوكراني ، وأطلق عليها الأتراك خورين Khurren أى الباسمة بسبب روحها المرحة وإبتسامتها الدائمة لذلك ملكت على السلطان قلبه وعقله وصار لقبها وردة الربيع . ومنذ أن حلت روكسلانة محل جلبهار محظية سليمان السابقة وهى تشاركه مجالسه بدلاً من إبراهيم باشا الذى تخلصت منه ، فكانت تتميز إلى جانب جمالها بالذكاء ورجاحة العقل وسرعة البديهة ، كما كان لديها القدرة على قراءة أفكاره السلطان وعلى توجيهها إلى الاتجاه الذى يتمشى مع طموحاتها ، ومن ثم أصبحت السيدة الأولى فى الحريم السلطانى بعد السلطانة الوالدة ، ونجحت فى إبعاد جلبهار إلى مغنيسيا لتقضى بها ما تبقى من العمر .

وبعد أن أنجبت روكسلانة طفلاً ذكراً من السلطان أصبحت زوجته الشرعية وفق الشريعة الإسلامية ولم تعد جاريته كما كان الأمر سابقًا . وفى عام ١٤٥١م اشتعلت النيران فى الأقسام الداخلية فى القصر القديم الذى ضم حريم السلطان فانتقلت روكسلانة إلى السراى السلطانى الكبير مسجلة بذلك سابقة جديدة فى التقاليد العثمانية ، وأصبح لها مخصصات وحاشية تضم مئات من النساء الخادمات ووصيفة خاصة ورئيس للخدم تحت يده ثلاثين من النساء العبيد الذين لم يكن مسموحًا لهن بالمبيت فى القصر السلطانى من قبل . وقد قضت روكسلانة بقية حياتها فى القصر السلطانى إلى أن تم بناء قصر جديد للحريم فيما بعد فى أفنية القصر الكبير ليحل محل القصر القديم .

وأخيراً وبعد مرور سبع سنوات على إعدام إبراهيم باشا وصلت روكسلانة إلى مكانة كبيرة لدى السلطان وتزايد تأثيرها عليه ونجحت فى تعيين رستم باشا صدراً أعظمًا ، وكان زوجًا لإبنة السلطان مهرماه Mihrimah أى صهره كما كان إبراهيم من قبل زوجًا لشقيقة السلطان . وكان رستم باشا يمتلك مقدرة فائقة فى الشئون الإدارية وخاصة فى النواحى المالية ، وحينما بدأ ممارسة مهام منصبه بدأت روكسلانة تتحرك لتحقيق مصالحها . وبرغم أن السلطان كان يتميز بالتسامح فى تصرفاته وبالعدل فى مبادئه وبالنبل والهدوء الشديد ، فإنه كان يميل فى ذات الوقت إلى الحكم المطلق وعدم ترك مقاليد

الأمور فى يد شخص ينافسه ، وأدركت روكسلانة كل ذلك وتحركت بذكاء فأنجبت له ثلاثة أبناء هم : سليم وبايزيد وجهانجير وقررت أن تجعل كبيرهم وريثًا للعرش ، ولكن السلطان كان يرغب فى أن يكون خليفته هو مصطفى إبنه الأكبر من جلبهار زوجته التركية ، والذى كان يتميز بالعقل والحكمة وسنه مناسبة لتولى الحكم ، وكان قد تلقى التدريب الكافى على الإدارة منذ أن عين حاكمًا على أماسيا الواقعة على الطريق المؤدية إلى فارس ، كما أنه نجح فى أن يكسب ثقة الانكشارية لكرمه وشجاعته واعتبروه جديرًا بخلافة والده .

ومنذ أن بلغ السلطان سليمان سن الستين وكان ذلك عند نهاية الحملة الفارسية الثالثة بدأ يفقد حماسه للعمل ولقيادة الجيوش بنفسه وأوكل جميع الأمور لرستم باشا ومنها قيادة قائد الجيش الذى بلغه نبأ اعتزام الانكشارية تأييد مصطفى ليصبح سلطانًا ويحل محل أبيه ، وكان الصدر الأعظم يعارض هذا الأمـر ، فطلب من السلطان المجئ سريعًا ليتولى بنفسه قيادة الحملة إنقاذًا لعرشه . وكانت الفرصة مواتية لروكسلانة لتقوم بدورها فى إيغار قلب السلطان على مصطفى الذى يتحالف مع من يرغبون فى عزل أبيه وتقارن بين ما حدث من قبل حيث قام السلطان سليم بعزل والده بايزيد الثانى بإيعاز من المحيطين به . وقد ساورت الشكوك سليمان لذلك تأخر فى التوصل إلى التصرف الذى ينبغى أن يتخذ ضد إبنه ، وأخيرًا وحسمًا للمشكلة قرر طلب فتوى من شيخ الإسلام قائلاً كما ذكر بوسبك Busbeq .

« يوجد لدى تاجر فى القسطنطينية عبد مقرب إليه ومحبب إلى نفسه ، وكلما سافر التاجر إلى خارج البلاد ترك ثروته ومتاعه أمانة لديه ، بل وأمنه على زوجته وأولاده . ولكن العبد بدأ فى خيانة الأمانة والتآمر على زوجة سيده وأولاده وفى السعى لتدمير سيده ذاته » . وكان السؤال الذى طرحه سليمان على المفتى هو : « ما هو الحكم الشرعى الذى يستحقه هذا العبد ؟ فأجاب المفتى : « إنه يستحق الموت » .

وبذلك أصبح لدى السلطان سندًا دينيًا يعتمد عليه فسار حتى بلغ مركز الإدارة فى منطقـة أرجلى Eregli فى شهر سبتمبر وأصدر فرمانًا بعزل مصطفى من حكم أماسيا ، وقد فكر الإبن فى عدم تنفيذ هذا الأمر بناء على

نصائح رفقائه ، ولكنه كان يدرك أن القتل سيكون مصيره فى هذه الحالة ، وفى الحقيقة كان الأمير أمام خيار صعب فإذا تحدى والده فإنه سيدخل فى مخاطرة مجهولة العواقب ويعد خائنًا ولذلك أثر الشجاعة وتوجه إلى معسكر والده وأثار وصوله نوعًا من البلبلة ولكنه ضرب خيمته بجوار خيمة السلطان ، وبعد أن تقبل ولاء وإحترام الوزراء تقدم وحوله لفيف من القادة والانكشارية إلى الخيمة السلطانية وتوقع أن يقابل بحفاوة كما ذكر بوسبك حيث أضاف :

« بدا كل شئ هادئًا ، لم يكن هناك سوى عدد قليل من الحراس الأتراك الصامتين الذين أعدوا العدة لقتل الأمير ، فما أن دخل إلى الخيمة الداخلية حتى انقضوا عليه وطرحوه أرضًا ، وكان مصطفى قوى البنية فدافع عن نفسه بقوة ، وبلا شك إذا استطاع الفرار والخروج إلى الانكشارية لناصرته ونادت به سلطانًا وقدمت له الحماية الكافية ، وكان السلطان يخشى من هذا التصرف ، ولذلك كان يراقب الموقف من خيمته المنفصلة ويرمق القتلة بنظرات التهديد من حين لآخر حتى أجهزوا على الأمير وخنقوه بوتر القوس ، ثم وضعت الجثة على سجادة أمام الخيمة حتى يراه الجيش كله ، وفى الحال علا النحيب والعويل من رجال الانكشارية على قتل قائدهم المختار ، وحتى يهدئ السلطان من روعهم قام بعزل رستم باشا وعدد من كبار رجال الدولة من مناصبهم وأعادهم إلى استانبول ، غير أنه استطاع العودة إلى منصب الصدر الأعظم بعد عامين بعد إعدام أحمد باشا خليفته وذلك بناء على تصميم روكسلانة » .

وقد توفيت روكسلانة بعد ثلاثة أعوام من هذا الحادث وحزن عليها السلطان حزنًا شديداً ودفنت فى المقبرة التى أعدت لها بجوار مسجده الضخم الجديد (السليمانية) ، وذلك بعد أن حققت أهدافها ونجحت فى تولية عرش السلطنة لإبنيه الأكبر ثم الأوسط على التوالى . وكان سليم الإبن الأكبر والمفضل لديها سكيراً ، أما بايزيد الأوسط فقد كان محبوبًا من الانكشارية بفضل الصفات الحميدة التى ورثها عن والده كما كان يشابهه فى الشكل ، والإبن الأصغر جهانجير كان ضعيف البنية والعقل وأحدبًا ،

وكان مولعاً بشقيقه مصطفى ولذلك أصيب بلوثة بعد مقتله وما لبث أن مات بعد فترة قصيرة .

وقد اشتعلت الكراهية بين الشقيقين وحتى يفصل السلطان بينهما جعلهما على ولاية مناطق بعيدة عن بعضهما البعض ، ولكن سرعان ما نشبت الحرب الأهلية بينهما واستخدم كل طرف القوات العسكرية التى تحت يده ضد الآخر ، غير أن سليم نجح بفضل قوات والده فى إلحاق الهزيمة ببايزيد فى قونية ١٥٥٩ فخرج مع أبنائه الأربعة إلى فارس لاجئًا عند الشاه طهماسب الذى استقبله بكل ترحاب وإحترام وعامله المعاملة اللائقة به كأمير عثمانى . وقد قدم بايزيد هدايا عديدة إلى الشاه الفارسى ومن بينها خمسون جواداً تركمانياً مجهزة تجهيزاً فاخراً مما أثار دهشة وعجب الفرس وخاصة ما تمتع به الفرسان التركمان من مهارة قتالية عالية .

وقد أرسل السلطان الرسائل والسفراء إلى طهماسب وطلب منه قتل بايزيد ولكنه رفض من منطلق كرم الضيافة ، ولكن الحقيقة أنه كان يرغب فى المساومة بالأمير من أجل إسترداد ميزوبوتاميا التى كان سليمان قد استولى عليها فى أولى حملاته على فارس ، غير أن جهوده باءت بالفشل فى هذا المجال . وقد مرض بايزيد مرضًا شديداً فى ذات الوقت واضطر الشاه فى النهاية للخضوع للعثمانيين لقوتهم ووافق على مطلبهم وهو إعدام الأمير فى فارس بواسطة رجال السلطان مقابل مبلغ مالى ضخم ، وبالفعل صار مبعوث من استانبول لهذا الغرض ، وحينما طلب الأمير أن يعانق أبناءه الأربعة قبل الوفاة رفض المبعوث وسرعان ما وضع وتر القوس حول رقبته وشنقه ، ولقى بعد ذلك أحد أبنائه نفس المصير . وهكذا أصبح الطريق مفتوحًا لتولى عرش السلطنة أمام سليم الفاسد الذى حمل معه بذور الانهيار للإمبراطورية العثمانية .

الفصل السابع عشر

لقد أدت غزوات السلطان سليمان إلى اتساع نطاق نفوذه وإمتداده إلى مياه البحر الأبيض المتوسط ، ففي خلال صيف عام ١٥٣٨ كان باربروس يضارع بأسطوله قوات الإمبراطور شارل الخامس في البحر المتوسط ثم منحت جبهة بحرية ثانية بتكوين أسطول عثماني آخر في السويس على البحر الأحمر ، وكان قائد هذا الأسطول هو سليمان باشا الخادم والي مصر الذى جعل وجهته المحيط الهندي حيث النفوذ البرتغالي الذى ترسخ على سواحله . لقد كانت أهداف البرتغاليين هي تحويل التجارة الشرقية من الطرق القديمة في البحر الأحمر والخليج الفارسي إلى طريق رأس الرجاء الصالح . وكان الوجود البرتغالي محل إهتمام خاص من السلطان سليمان ، ووالده من قبل ، ولذلك بدأ في التحرك تجاهه تلبية لطلب أحد الحكام المسلمين وهو بهادور شاه حاكم إقليم جوجارات الواقعة على ساحل ملبار شمال بمباى والذى اضطر للخضوع للبرتغاليين بعد أن غزا همايون (١) إمبراطور المغول أراضيه بالتحالف مع سلطان دلهي ، وقد شيد البرتغاليون قلعة حصينة في جزيرة ديو وكان بهادور يرغب في طردهم من أراضيه فتوجه إلى السلطان طالباً العون .

وقد تعاطف سليمان مع هذا الحاكم المسلم من منطلق ديني ، فالسلطان العثماني حامي حمى الإسلام والمسلمين في نزاعهم مع المسيحين في أى مكان ، ومن ثم قرر طرد الأعداء المسيحيين من المحيط الهندي ، ويضاف إلى ذلك اعتراض البرتغاليين لطريق التجارة العثمانية مما أثار البغضاء في نفس السلطان ، حيث قاموا بالإستيلاء على جزيرة هرمز التي تتحكم في مدخل الخليج الفارسي ، كما خططوا للإستيلاء على عدن حتى يتحكموا في البحر الأحمر ، وأرسلوا فرقة بحرية لمساعدة الإمبراطور شارل الخامس لمعاونته في ضم تونس . وهكذا تجمعت الظروف المواتية للسلطان لإنفاذ حملة آسيوية ضد البرتغاليين والتي طالما أرجأها لعدة سنوات من قبل .

---

(١) هو محمد همايون ابن بابر مؤسس دولة المغول في الهند ، وحكم من ١٥٣٠ إلى ١٥٣٩ ، ثم ١٥٥٦ م .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، محاضرات في تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث ، دار المعرفة الجامعية ١٩٩٩ م .

لقد جعل السلطان والى مصر سليمان باشا الخادم قائداً لهذه الحملة ، وكان هذا لرجل كهلاً ويعانى من بدانة مفرطة حتى أنه كان لا يستطيع النهوض من مكانه إلا بمساعدة أربعة رجال ، ولكن أسطوله كان جيداً ومجهزاً تجهيزاً حسناً وضم سبعين سفينة بالإضافة إلى قوة برية من خيرة الانكشارية .

وقد أبحر سليمان الخادم بأسطوله جنوباً فى البحر الأحمر الذى كان يسيطر على سواحله الغربية عدداً من الشيوخ (١) دائمى التمرد والتى سبق وأن تعرضت لحملات القرصنة أثناء محاولة السلطان تهدئة الوضع فى مصر ، وحينما وصل إلى عدن أعدم شيخها ونهب المدينة وحولها إلى سنجق تركى (٢) ، وبذلك أمن مدخل البحر الأحمر لصالح العثمانيين . وفى ذات الوقت وصل نبأ وفاة بهادور شاه حليف الأتراك ، وكان قد ترك أمانة إلى السلطان فى مكة وهى عبارة عن خزينة مملوءة بالذهب والفضة فأرسلها الخادم إلى السلطان فى استانبول .

وبدلاً من أن يواجه سليمان باشا الأسطول البرتغالى فى المحيط الهندى كما أمره السلطان ، فضل أن يتجه شرقاً إلى الساحل الغربى للهند حيث أنزل قواته فى جزيرة ديو وحاصر القلعة البرتغالية وكان معه عدداً من المدافع الضخمة التى أحضرها من السويس ، وقد واجه مقاومة من جنود الحامية بمساعدة نساء الأهالى الذين قدموا لهم كل عون . وفى جوجارات خضع خليفة بهادور شاه للأتراك حيث كان يخشى تهديدهم أكثر من البرتغاليين ،

---

(١) كان عامر بن داود الطاهرى يحكم الساحل اليمنى ومركزه عدن . وقد أمر سليمان باشا الخادم بشنقه فى ٣ أغسطس ١٥٣٨ بعد أن علم بخيانته للعثمانيين وعين بدلاً منه أحد سناجق الحملة وهو الأمير بهرام .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربى ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٤ .

(٢) سنجاق تقسيم إدارى أوجده العثمانيون وكان يحكمه الصنجق بك وهو من أصحاب الإقطاعات العسكرية ، وكان البكلر بك يرأس الصناجق أول الأمر :

أنظر جب ، بوون ، المجتمع الإسلامى والغرب ، جـ ٢ ، ترجمة أ.د أحمد عبد الرحيم مصطفى .

ولكنه رفض الصعود إلى سفينة القائد ، كما امتنع عن تزويده بالإمدادات التى وعده بها .

وأثناء الحصار وقعت رسالة فى أيدى الأتراك تفيد أن البرتغاليين يحشدون أسطولاً ضخماً فى جوا Goa لإنقاذ ديو ، وهنا تراجع سليمان ورفع الحصار وأبحر عائداً إلى المحيط الهندى فى طريقه إلى البحر الأحمر . وفى الطريق قام بذبح حاكم اليمن [1] كما فعل مع حاكم عدن من قبل وجعل عليها والياً عثمانياً . وأخيراً وحتى يظهر أمام السلطان بمظهر الحامى للدين الإسلامى وليخفى فشله فى الهند قام بأداء فريضة الحج إلى مكة قبل العودة إلى القاهرة واستانبول . وقد تلقى مكافأة من السلطان نظير إخلاصه بمنحة عضوية الديوان السلطانى مع الوزراء . ومنذ هذه الحملة لم يحاول الأتراك المخاطرة مرة أخرى بتوسيع حدودهم شرقاً ناحية سواحل الهند .

وبرغم ذلك استمر السلطان فى تحدى البرتغاليين فى المحيط الهندى خاصة بعد أن واجه الكثير من العقبات من جانبهم فى الخليج الفارسى بحكم سيطرتهم على مضيق هرمز . وقد عدل السلطان من الخطط البحرية الخاصة بهذه الأماكن بعد أن سيطر على بغداد وميناء البصرة وعلى دلتا نهرى دجلة والفرات ، ففى عام ١٥٥١ أصدر أوامره إلى بيرى رئيس قائد البحرية فى مصر بالخروج على رأس أسطول من ثلاثين سفينة إلى البحر الأحمر ثم إلى هرمز ليطرد البرتغاليين منها . وكان بيرى رئيس بحاراً من أعيان غاليبولى ، ونشأ فى المياه مثل التماسيح ، كما يقول أحد المؤرخين الأتراك ، فالقارب مهده ، وينام ويستيقظ ليلاً ونهاراً فى البحر وبين السفن ، وقد قضى شبابه فى حملات القرصنة فى البحر مما جعله جغرافياً متميزاً ، كما كتب عدة مؤلفات فى الملاحة البحرية منها مؤلف عن الملاحة فى بحر إيجة والبحر المتوسط ، وكان من أوائل الذين قاموا برسم خريطة مبكرة للعالم والتى تضمنت جزءاً من أمريكا . وقد نجح بيرى فى الإستيلاء على مسقط فى خليج عمان والتى تقع

---

(١) كان حاكم اليمن هو الناخودة أحمد .
أنظر : عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق .

فى مواجهة الخليج المزعج ، ولكنه عجز عن الإستيلاء على القلعة التى تحمى الميناء ، فسار فى اتجاه الشمال الشرقى فى الخليج الفارسى محملاً بالكنوز التى سلبها من السكان المحليين ، ثم اتجه إلى البصرة حيث سار بسفنه ، والبرتغاليين يتتبعونه على أمل إغراق أسطوله ، ولكنه تمكن من الهروب من ملاحقة السفن البرتغالية وترك أسطوله خلفه فيما عدا ثلاثة سفن من طراز الغليون محملة بالنفائس . وعند عودته إلى مصر بعد أن فقد إحدى هذه السفن الثلاث وسجن ثم وصل فرمان سلطانى بإعدامه فى القاهرة وأرسلت الكنوز إلى استانبول ، وكان من بينها أوانى ضخمة من البورسلين مملوءة بالذهب .

وقد أمر السلطان بإنفاذ حملة جديدة بقيادة مراد بك خليفة بيرى من البصرة إلى مضيق هرمز ليعود ببقية الأسطول إلى مصر ، ولكنه فشل فتم تكليف بحار آخر محنك يدعى سيدى على رئيس كان أجداده رؤساء الترسانة البحرية فى استانبول ، وكان له مؤلفات فى الرياضيات والملاحة والفلك وعلم أصول الدين وكان يستخدم توقيع « كابتى رومى » ، كما كان شاعراً معروفاً . وقد نجح سيدى على فى إعادة خمسة عشرة سفينة إلى البصرة ، ثم توجه لملاقاة الأسطول البرتغالى الضخم الذى فاق أسطوله ، وبعد عدة مناوشات خارج مضيق هرمز وصفها بأنها أعنف من الحرب بين باربروس وأندريا دوريا فى البحر المتوسط ، فقد ثلث سفنه وتحطمت السفن الباقية فى المحيط الهندى بسبب العواصف الشديدة التى قارنها بعواصف البحر المتوسط قائلاً : « إن الأخيرة مثل حبة الرمل بالنسبة للأولى ، وأن النهار لا يمكن تمييزه عن الليل ، وأن أمواج المحيط فى إرتفاعها مثل الجبال » . وأخيراً تمكن من الوصول إلى ساحل جوجارات فى حالة سيئة فاستسلم لسلطان جوجارات الذى أرسل معه عدداً من الرفقاء فى رحلة العودة الطويلة عبر الهند وأوزبكستان وفارس .

وقد دون رئيس أخبار هذه الرحلات فى كتاب بالزجل وبالعامية وكافأة السلطان بزيادة راتبه وبمكافأة تشجيعية له ولرفاقه ، كما كتب مؤلفات بحرية مفيدة ونافعة عن بحار الهند مستقاة من تجربته الشخصية ومن مصادر عربية وفارسية .

لم يخاطر السلطان سليمان بإرسال أساطيله إلى هذه البحار مرة أخرى ، وتركزت عملياته فى المرحلة التالية فى تأمين السيطرة العثمانية على البحر الأحمر ، وفى منع البرتغاليين من وضع قواتهم عند مدخل الخليج الفارسى ، وهو يشابه فى ذلك الإمبراطور شارل الخامس الذى استرد وهران ولكنه عجز عن الحفاظ على مركزه فى الحوض الغربى للبحر المتوسط .

برغم ذلك أجبر السلطان على إرسال حملة صغيرة إلى مملكة الحبشة الجبلية المنعزلة لأن حكامها المسيحيين طلبوا مساعدة البرتغال ضد التهديد التركى منذ إستيلاء العثمانيين على مصر ، والذى اتخذ شكل الدعم المتواصل للحكام المسلمين فى المناطق الواقعة على ساحل البحر الأحمر والتى كانت فى حالة حرب دائمة مع المسيحيين ، ونجحوا بفضله فى انتزاع شرق الحبشة بأكمله . وفى عام ١٥٤٠ إستجاب البرتغاليون لنداء الأحباش وأرسلوا قوة بقيادة أحد أبناء الرحالة المعروف ڤاسكودى جاما (١) ، وكان على عرش الحبشة آنذاك الشاب القوى كلوديوس Claudius والذى يعرف أحياناً بجرا ديوس Gradeus ، وقد دخل فى صراع مع الأتراك . وبفضل المساعدة البرتغالية أجبر العثمانيين على تجنب قوته لخمسة عشرة سنة . غير أن السلطان نجح فى استقطاب القبائل الحبشية وأرسل حملة لغزو النوبة ليتمكن من تهديد الحبشة من جهة الشمال ، ثم نجح فى الإستيلاء على ميناء مصوع على البحر الأحمر فى ١٥٥٧ والذى كان مركزاً للعمليات العسكرية البرتغالية . ومن ثم أصبح كلوديوس وحيداً ومعزولاً ثم قتل فى إحدى المعارك بعد ذلك بسنتين ، وانهارت على إثر ذلك المقاومة الحبشية ولم تعد هذه البلاد المسيحية تشكل تهديداً لجيرانها المسلمين حتى بعد إستعادة إستقلالها .

وعودة إلى البحر المتوسط ، فبعد وفاة باربروس دخل جميع القراصنة تحت حماية السلطان ومنهم دارجوت أودارغوت الأناضولى الأصل

---

(١) ڤاسكودى جاما (١٤٦٩ - ١٥٢٤) هو الرحالة البرتغالى مكتشف طريق رأس الرجاء الصالح فى ١٤٩٧ الموصل إلى الهند .

أنظر : La Rousse , p . 1360

الذى تلقى تعليمة في مصر وخدم المماليك كمدفعجى ، ثم أصبح خبيراً فى سلاح المدفعية قبل أن يتجه إلى البحر بحثًا عن المغامرة والثروة . وقد جذب نشاط هذا القرصان السلطان فعينه قائداً للغليون الخاص به ، ثم صار قرصاناً يعمل تحت حماية علم السلطان فى الأسطول العثمانى وتحت إمرة القائد الأعلى للبحرية العثمانية . وكان العدو الذى دخل معه دارغوت فى صراع فى عام ١٥٥١ هو فرسان القديس يوحنا الذين جاءوا أصلاً من أورشليم وبعد أن طردهم العثمانيون من رودس استقروا فى جزير ة مالطة ، ولما نجح دارغوت فى انتزاع طرابلس من أيديهم جعله السلطان والياً عليها . وفى عام ١٥٥٨ توفى الإمبراطور شارل الخامس وخلفه إبنه فيليب الثانى الذى جمع أسطولاً مسيحياً ضخمًا فى مسينيا لإستعادة طرابلس ، ورسا بقواته فى جزيرة جربة واستولى على قلعتها التى كانت مركزاً حصينًا لباربروس من قبل ، ولكنه فوجئ بأسطول عثمانى ضخم قادم من القرن الذهبى مما أشاع البلبلة فى نفوس رجاله المسيحيين فارتدوا إلى سفنهم بعد أن غرق منها الكثير بينما عاد الباقون إلى إيطاليا . أما الحامية الموجودة فى القلعة فقد تعرضت للمجاعة والعطش واضطرت للتسليم ، وبذلك نجحت خطة دارغوت التى قامت على الإستيلاء على جميع آبار المياه الموجودة فى المنطقة .

لقد كانت هذه الكارثة المسيحية أعظم من أى هزيمة وكانت تقارن بفشل الإمبراطور شارل الخامس فى الإستيلاء على مدينة الجزائر ، وترتب عليه سيطرة العثمانيين على قسم كبير من ساحل الشمال الأفريقى فيما عدا وهران التى ظلت فى أيدى الأسبان . كما خاطر العثمانيون وقاموا بمغامرة جريئة حينما أبحروا فى المحيط الأطلنطى عبر مضيق جبل طارق فى محاولة للوصول إلى جزر الكنارى سعيًا وراء السفن الأسبانية الضخمة التى كانت تحمل الكنوز من العالم الجديد (١) (أمريكا) .

وقد أصبح الطريق مفتوحًا الآن أمام العثمانيين للقضاء على فرسان القديس يوحنا الذين تمركزوا فى جزيرة مالطة الحصينة وشنوا الإغارات على

---

(١) أطلق على أمريكا العالم الجديد تمييزاً لها عن العالم القديم وهو قارة أوروبا .

جنوب صقلية والمضايق الموجودة بين الشرق والغرب وشكلوا عقبة أمام السيطرة العثمانية الكاملة على البحر المتوسط . وقد أدرك السلطان أن الوقت قد حان للقضاء على وكر الأفاعى كما ذكر دارغوت ، وقد تحمست مهرماه إبنة السلطان من روكسلانة وأرملة رستم باشا للقيام بحملة ضد هؤلاء الفرسان وإعتبرتها جهاداً دينيًا ، وكانت ذات تأثير واضح على والدها فى أعوامه الأخيرة . وقد وجدت دعوتها هذه صدى واسعًا فى القصر السلطانى خاصة بعد أن استولى الفرسان على سفينة تجارية ضخمة وهى فى طريقها من البندقية إلى استانبول وكانت محملة بالسلع النفيسة ، وكان لكبريات نساء الحريم نصيب فيها .

ولما كان السلطان قد وصل إلى سن السبعين آنذاك ، ولم تمكنه ظروفه الصحية من قيادة الحملة ضد مالطة كما فعل من قبل فى شبابه وقاد حملة ضد هؤلاء الفرسان فى رودس ، فقد قرر تقسيم القيادة بين قائدين محنكين هما : بيالة باشا القائد الشاب وجعله على رأس القوات البحرية العثمانية ، ومصطفى باشا القائد العجوز على رأس القوت البرية ، وحثهما على التعاون والتآزر لأنه كان يدرك حجم الخلافات القائمة بينهما ، فطلب من بيالة أن يعتبر مصطفى والداً له ، وطلب من مصطفى أن يعتبر بيالة إبنًا له ، وحمل الإثنين لواء السلطان الرسمى وهو الكرة الذهبية الموضوعة على سارية وحولها أذناب الخيل . وقد كتب على باشا المكلف بحراسة القائدين على ظهر السفينة قائلاً : « لدينا رجلان لطيفان من أصحاب المزاج ، فهما دائماً على استعداد لشرب القهوة وتعاطى الأفيون ، ويعتبران هذه الحملة مجرد نزهة إلى الجزر ، ولاحظت أن سفنهم محملة بكميات كبيرة من البن العربى والحشيش » . لما كان السلطان يكن إحترامًا كبيراً لدارغوت ولعلوج على لخبرتهما ومهارتهما فى منطقة البحر المتوسط فقد عينهما كمستشارين لحملة مالطة ، وطلب من بيالة ومصطفى أن يثقا بهما وألا يقدما على أى خطوة دون مشورتهما وموافقتهما .

وكان چان دى لاڤالت Jean de la Valette هو القائد الأعلى لفرسان القديس يوحنا ، وتميز بالقوة والتعصب للعقيدة المسيحية ، وولد فى نفس

السنة التى ولد فيه السلطان ، وسبق أن دخل فى صراع مع السلطان أثناء حصار رودس ، فهو يجمع بين مهارة المقاتل والتعصب الدينى ، ولذلك وجه كلمة للفرسان بعد أن ضرب الحصار حول الجزيرة قائلاً : « إن عقيدتنا تمر الآن بمرحلة حرجة وخطر محدق ، فإذا حكمت الظروف واستسلم الإنجيل للقرآن فعليكم أن تعاهدونى على التضحية وتقديم أرواحكم للرب ، فالسعادة لمن يضحون بأرواحهم من أجله » .

وكانت مدينة مالطة تتميز بالحصانة ، وكذلك ميناءها الضخم حيث تغطيه التلال الصخرية وألسنة الصخور الممتدة فى المياه من جهة الجنوب والتى يقع بينها عدد من الموانئ الصغيرة . وكانت أكثر مناطقها حصانة تلك التى تقع فى القلب حول البورجو سنجليا Il Burgo - Senglea حيث كانت بها قلعتان حصينتان هما قلعة سانت أنجلو وقلعة سانت ميخائيل . وتحسباً للهجوم التركى تم بناء قلعة جديدة سميت بإسم سانت إلمو Saint Elmo فى مواجهة الميناء من جهة الشمال لحماية مدخل الميناء الكبير والميناء الأوسط ومرسى مسكت Marsa Muscet الواقع إلى الشمال منه .

وفى ١٨ مايو ١٥٦٥ ظهرت قوة العدو فى الأفق بدون السلطان القائد ، ولذلك كانت عملياتها مشتتة بين الفرق البرية والفرق البحرية بقيادة مصطفى الأب وبيالة الإبن ، فقد أراد القائد البرى أن يستولى على جوزو Gozo وشمال الجزيرة وعاصمتها مدينة Mdina ليؤمن ظهره ، ثم يتجه بعد ذلك إلى قلعة سانت إلمو ويوجه ضرباته المباشرة إلى أقوى النقطتين الحصينتين فى الميناء وهى البورجو وسنجليا ، ولكن اعترض قائد البحرية على هذه الخطة وأراد أن يؤمن رسو أسطوله أولاً . ولم يكن هناك سوى الميناء الأوسط وهو مرسى مسكت الذى يصلح لرسو السفن ، وحتى يتم ذلك ينبغى أولاً الإستيلاء على قلعة سانت إلمو ، أى لابد من إنزال القوات البرية ثم تبدأ عملية الحصار .

وفى هذه الأثناء وصل دارغوت بأسطوله الخاص بعد الموعد المحدد بأسبوعين ، وبدأ بعد يوم واحد من الوصول فى توجيه قذائف المدفعية ضد قلعة سانت إلمو ، وكان يضاعف من توجيه الضربات طوال فترة الحصار .

أما الفرسان فى القلعة فقد كان عددهم لا يتجاوز المئات وقد استبسلوا فى الدفاع عنها أمام الهجمات المتتالية للعدو الذى تجاوز الآلاف . وقد بدأ سوء الطالع يحيط بمصير القلعة عندما سقط المتراس فى يد الأتراك وحدثت مناوشات دامية بين الطرفين ، ثم تحركت موجات متتالية من الانكشارية فى مواجهة المقاتلين المتعصبين الذين تزاحموا فى أحد الخنادق مصوبين بنادقهم إلى باب القلعة ، وحينما حاولوا الصعود إلى أسوار القلعة سقطوا متعثرين فى ملابسهم الواسعة حيث أمطرهم المسيحيون بالنار الإغريقية .

لقد كانت خسائر الأتراك جسيمة فى عملية الإستيلاء على القلعة سواء على أسوارها الخارجية أو على داخلها ، إذ كانوا يعتقدون أن هذا الأمر لن يستغرق سوى أيام قلائل ، ولكن لم يتحقق النجاح إلا بعد ما يقرب من الشهر نظراً للتعصب الدينى الذى تميز به المقاتلون والطاعة العمياء للقادة وليسوع المسيح ، كما كان الجانب التركى لا يقل تعصبًا عن الجانب المسيحى . وكانت أوامر القائد الأعلى للفرسان لرجاله بأن يقاتلوا حتى آخر جندى وحتى آخر حجر فى المدينة ، وكانت سانت إلمو صخرية وحصينة ، وبفضل مهارة الفرسان أمكن صد أكثر من هجوم تركى وتكبيد الأتراك خسائر فادحة .

وحتى يغطى دارغوت فشله قرر التعاون مع القائد مصطفى والقيام بأعمال حصار إضافية ، ولكنه أصيب بقذيفة فى الرأس من أحد مدافع المسيحيين فى سانت أنجلو طرحته أرضًا فى الحال . وخوفًا من التأثير على الروح المعنوية للجند ألقى مصطفى عباءة على دارغوت وحمله إلى مقر القيادة معتقداً أنه مات ، ولكنه كان على قيد الحياة ، وظل يعانى من غيبوبة متقطعة حتى وصلت أنباء سقوط سانت چون وسانت إلمو بعد معركة دامية ، وقد عبر عن سعادته لهذا الخبر بإشارات معينة ورفع عينيه إلى السماء ليشكر الله على نعمه ثم لفظ أنفاسه ومات . ولم يعثر إلا على تسعة فرسان أحياء داخل سانت چون ، بينما فقد الأتراك الآلاف من رجالهم فى هذه المعركة ، وقد قام مصطفى بحصر القتلى المتساقطين بين الأطلال والدمار وتضرع إلى الله قائلاً : « فقدنا كل هؤلاء فى هذا الساحل الصغير فماذا سنفعل فى البقية ؟ » .

ولذلك عرض شروطًا للإستسلام على الفرسان كما تم مسبقًا فى جزيرة رودس ، ولكن جاءه رد القائد الأعلى من خلال الخندق فى ال بورجو Il Burgo بأنه سيملأه بجثث الانكشارية . وقد أثارت هذه الإهانة مصطفى ؤ وفعل ما فعله الفاتح عند فتح استانبول ، إذ نقل أسطولاً من ثمانين سفينة من طراز الغليون عن طريق البر من الميناء الأوسط إلى الميناء الكبير ، واستعد لغزو الموقعين المحصنين (ال بورجو وسنجلا) وقلعتيهما المتبقيتين وهما سانت أنجلو وسانت ميخائيل . وكان الفرسان قد أغلقوا الخليج الصغير الواقع بين القلعتين بسلسلة ضخمة كإجراء دفاعى بحرى ، ولكن عجز الأتراك عن تحطيمها بواسطة الفئوس حيث خرج عليهم من الماء مجموعات من المقاتلين واشتبكوا معهم فى معركة شرسة مستخدمين الخناجر والسكاكين فى أفواههم ، واستمر الأتراك فى شن الهجمات على النقاط الحصينة المختلفة فى ميناء مالطة الكبير لمدة شهرين تقريبًا ، ولم تتحقق نتيجة حاسمة ، إذ ظل الفرسان على إصرارهم وتعصبهم برغم الخسائر التى لحقت بهم مما ساعد على الاحتفاظ بالروح المعنوية العالية . وقد تعرض المحاصرون الأتراك لنقص حاد فى الإمدادات بسبب الغارات التى شنها القراصنة على السفن ، وانتشرت الأمراض بين الفرسان والأعداء وساد الخوف من إنتشار الوباء ، مما ساهم فى هبوط الروح المعنوية لدى الأتراك ، خاصة وأن الطقس السئ كان على الأبواب فى شهر سبتمبر مما أثار النزاع بين القيادتين البرية والبحرية .

وكان مصطفى باشا يخطط لقضاء فصل الشتاء فى الجزيرة عن طريق تعريض حامياتها لخطر المجاعة ثم الإستيلاء على العاصمة القديمة المسماه مدينة Mdina وليجعلها قاعدة لقواته . بينما كان بيالة باشا مصممًا على عدم المخاطرة بأسطوله فى مياه مالطة قبل ضمان مرسى ملائم وآمن ، ولم يكن هناك من يعمل على إزالة أسباب الخلاف بين القادة الأتراك بعد رحيل دارغوت .

وفى هذه الفترة فوجئ الأتراك بوصول أسطول مسيحى من صقلية ومعه قوة قوامها عشرة آلاف مقاتل بقيادة دون جارشيا دى توليدو Don garcia de Toledo خليفة أندريا دوريا القائد الإمبراطورى فى منطقة حوض البحر

الأبيض المتوسط . وقد اتجه هذا الأسطول إلى قلعة سانت أنجلو وأطلق ثلاثة طلقات مدفعية تحية لها وسط دهشة بيالة باشا الذى لم يحاول ملاحقته أو مهاجمته حتى رسا شمال الجزيرة ، وهنا رفع القائد مصطفى الحصار وأصدر أوامره بالجلاء عن مالطة بعد أن تعرض معسكره للنهب ، وحمل جنده المدافع إلى السفن وعادوا أدراجهم . وبرغم أن بيالة كان يفكر فى مواصلة القتال إلا أن جنده كانوا فى حالة سيئة لا تسمح لهم بتلبية ندائه ورحلوا إلى سفنهم فى اتجاه الشمال إلى خليج سانت پول Saint Paul .

وهكذا أبحرت السفن العثمانية الضخمة فى اتجاه البوسفور ولم يكن صالحًا منها للعمل سوى الربع تقريبًا . وقد رفض القائدان إرسال أية رسائل للسلطان عن طريق الغليون الذى كان يسبقهم حتى لا يؤثر خبر الهزيمة عليه ، وحينما دخلوا المياه التركية وصلتهم الأوامر بعدم دخول السفن إلى ميناء استانبول إلا بعد حلول الظلام . وقد استاء سليمان من هذه الهزيمة الثانية على أيدى المسيحيين (فى ڤينا ومالطة) ، إذ كانت هذه بداية النهاية لمحاولات إقامة قوة عثمانية ضاربة فى البحر المتوسط كله .

وقد عبر السلطان عن هذا الفشل قائلاً بمرارة : « أنا فقط الذى أقود الجيوش إلى النصر » . وبالفعل كانت هذه حقيقة فقد وقع الفشل فى مالطة لأنه لم يخرج على رأس الحملة لكبر سنه بينما انتصر فى رودس لأنه قاد الحملة فى سن الشباب ، فهو القادر وحده على تحقيق أهدافه بقوة الإرادة والقيادة الحكيمة والقرارات الصائبة فقد ظل طوال خمسة وأربعين سنة يحقق الانتصارات المتوالية ولكنه اقترب الآن من النهاية .

لقد اعتزل سليمان الحياة تقريباً منذ وفاة روكسلانة وظل صامتاً أكثر من ذى قبل وكئيبًا ، وابتعد عن الناس حتى أن أخبار النجاح لم تعد تثيره ، فحينما عاد بيالة باشا بأسطوله إلى استانبول بعد أن حقق انتصاراته التاريخية فى جربة وطرابلس ، والتى أكدت السيادة الإسلامية على البحر المتوسط لم تؤثر فيه الأخبار ولم يظهر أى تأثير على وجهه ولم يبد أى علامة للزهو والتفاخر ، وقد ذكر بوسبك فى مذكراته أن التعبير المألوف وهو الكآبة ظل مسيطراً على ملامح السلطان ، وأضاف أنه ربما كانت هذه حالة مرضية ،

وليست كما ذكر البعض من أنه تعمد إظهار هذا الإنطباع أمام السفراء الأجانب حتى يهابونه ، وأن التأثير الحقيقى كان يظهر عليه بعد خروجهم من حضرته . وفى وصفه للسلطان قال بوسبك : « كان السلطان يعانى ضعفاً جسدياً معظم شهور السنة وكان يعانى أيضاً من الاستسقاء وتورم القدمين وفقدان الشهية وشحوب الوجه . وفى شهر مارس الأخير انتابته أربعة أو خمسة نوبات من الإغماء من أثر الحمى التى أصابته ، وكان أقرب إلى الموت فى إحداها ، ولم يتوقع الأطباء له الشفاء بل توقعوا الموت السريع » .

وحينما أصبح السلطان مسناً إزداد اهتمامه بالخرافات ، فكتب بوسبك : « كان السلطان يقضى وقته مستمتعاً بأناشيد الأطفال والتمثيليات التى قدموها له ، ولكنه توقف عن هذه المتع حينما ذكرت له إحدى العرافات أنه سيناله العقاب فى الآخرة إذا استمر فى هذا الأمر ، ولذلك أمر بإحراق كافة أدوات التسلية . وإستجابة لنداء الزهد فى الحياة لجأ إلى تناول طعامه فى الأطباق الفخارية بدلاً من الفضية ، ومنع إستيراد الخمور ودخولها إلى المدينة لأن الرسول (ﷺ) حرمها .وحينما اعترض أهل الذمة على هذا القرار وأدعوا أن تغيير نظامهم الغذائى سيؤدى بهم إلى الوقوع فريسة للأمراض وربما الموت ، ترفق بهم الديوان السلطانى وسمح لهم بالحصول على حصة أسبوعية من الخمور من الميناء على ألا تدخل من البوابة البحرية إلى المدينة » .

ولكن هزيمة السلطان فى مالطة جعلته يشعر بمرارة فى النفس بلا شك ، فبعد الحياة الحافلة بالانتصارات يتعرض لجرح الكبرياء وهو فى هذه السن الحرجة والصحة المتردية ، ولذلك أقسم أن يعيد الكرة ويغزو مالطة على رأس حملة بقيادته الشخصية فى الربيع المقبل ؛ كما فكر فى توجيه حملة جديدة إلى المجر والنمسا لأن مكسميليان الثانى خليفة فرديناند من الهابسبرج رفض دفع الجزية السنوية للأتراك ، وشن عدة هجمات ضدهم فى المجر فى مدينتى زيجت Sziget وإرلاو Erlau .

وفى أول مايو ١٥٦٦ خرج سليمان للمرة الأخيرة من استانبول على رأس أكبر جيش قاده فى حياته وأكبر حملة من بين الحملات الثلاثة عشرة التى قادها ، وكانت هذه الحملة هى السابعة على بلاد المجر ، ولكن دمرت

الفيضانات العاتية فى حوض نهر الدانوب خيمته السلطانية عند بلجراد ، فاضطر إلى الانتقال إلى خيمة الصدر الأعظم ، كما لم يكن قادراً على الجلوس على ظهر الجواد فسافر محمولاً على محفة مغطاة بالستائر . وفى سملين Semlin تقابل مع جون سجسموند زابوليا الإبن الصغير الذى اعترف به من قبل وبحقه فى وراثة العرش المجرى حينما كان وليداً ، وقد ركع الإبن ثلاث مرات أمام السلطان لأنه تابعه وقبل يديه فى كل مرة كما لو كان إبناً غالياً ، ووعده السلطان بتقديم كل العون ليحصل على حقوقه فى عرش المجر وأراضيه .

ومن سملين اتجه السلطان إلى قلعة زيجت للإنتقام من حاكمها الكرواتى الكونت نيقولاس زرينى Count Nicholas Zrinyi ، وكان عدواً لدوداً للأتراك منذ أيام حصار ڤينا حيث قتل الصنجق بك المفضل لدى السلطان وإبنه واستولى على أمواله ومتاعه كغنيمة . غير أن الهجوم على زيجت لم يستغرق سوى يوماً واحداً ، وإنتهى بفشل الأتراك فى السيطرة عليها مما أثار غضب السلطان وسخطه فأمر بقطع رأس القائد التركى ، ولكن الصدر الأعظم محمد صوقللو تشفع له وأنقذه ، كما أمر بإعدام حاكم بودا لتقصيره فى العمل . وفى محاولة جديدة حاصرت قوات السلطان زيجت واستولت عليها فتراجع زرينى إلى القلعة ورفعت حاميتها الراية السوداء وصممت على التضحية حتى آخر رجل ، ولما طال الحصار عرض السلطان شروطاً للإستسلام ومنها أن يدخل زرينى فى خدمة العثمانيين ويصبح تابعاً لهم كحاكم على أقليم كرواتيا ، ولكن زرينى رفض فعاد القتال من جديد وقام العثمانيون طوال أسبوعين بحفر خندق ضخم لا يقاس بما سبق حفره من خنادق استعداداً للهجوم الأخير . وفى الخامس من سبتمبر أشعلت النيران فى الخندق فأدت إلى تحطيم الأسوار وأصبح من المستحيل الدفاع عن القلعة غير أن القدر لم يمهل السلطان لكى يسمع نبأ انتصاره ، فقد مات فى خيمته فى هذه الليلة على إثر أزمة قلبية ، أو من جراء الشلل الذى كان يعانى منه ، وقبل وفاته بساعات قال للصدر الأعظم « لم أسمع بعد دوى طبول النصر » .

وقد أخفى صوقللو نبأ وفاة السلطان وأشاع أنه ملازم للخيمة بسبب نوبة

نقرس ، وزيادة فى السرية أمر بخنق طبيب السلطان . وواصلت الفرق العثمانية هجومها على القلعة لمدة أربعة أيام حتى دمرت حاميتها ماعدا ٦٠٠ شخص بقوا على قيد الحياة بقيادة زريني الذى زينهم بالحلى والملابس الفاخرة كما لو كان يوم العيد ، وظهر بهم بمظهر الأبطال ، ولكن شنت الانكشارية هجوماً عنيفاً عليهم فقاتل مع رفاقه ببسالة فائقة إلى أن سقط صريعاً ولم يتبق جندى واحد من الـ ٦٠٠ مقاتل الذين كانوا حوله . وكانت آخر أعماله هى أنه وضع فتيلاً أسفل مخزن البارود الموجود فى القلعة فانفجر ونتج عنه مقتل ثلاثة آلاف تركى .

كان اهتمام صوقللو منصباً على إعتلاء سليم ابن سليمان العرش فى هدوء وأمان حيث كان قد أرسل له نبأ وفاة والده مع رسول سريع إلى كوتاهية ، بعد أن ظل يخفيه لعدة أسابيع ، وأمور الحكم سائرة كما لو كان السلطان على قيد الحياة ، فالأوامر تصدر من الخيمة السلطانية وعليها توقيعه ، واستمر أيضاً تعيين الضباط فى الوظائف الشاغرة وتوزيع المكافآت والمنح بالطرق المألوفة ، كما كان الديوان يعقد جلساته بشكل مستمر ، ولما وصل نبأ الانتصار على العدو أرسلت رسائل بهذا المعنى إلى الولايات السلطانية وعليها توقيع السلطان . واستمر الحال على هذا المنوال حتى بعد سقوط زيجت واستمر الجيش فى عمله ، ثم انسحب تدريجياً بعد إتمام مهمته فى اتجاه الحدود التركية . وفى ذات الوقت تم تحنيط جثمان السلطان ، ووريت أمعاؤه وحمل على المحفة المغطاة فى طريق العودة إلى بلاده وأحاط به الجنود وكانوا يؤدون له طقوس الاحترام المألوفة كما لو كان على قيد الحياة .

وحينما تسلم صوقللو رسالة تفيد وصول الأمير سليم إلى استانبول ليتولى عرش السلطنة بصفة رسمية ، أذاع على الجند نبأ وفاة السلطان ، فتوقفوا عن السير فى إحدى الغابات القريبة من بلجراد ، واستدعى الصدر الأعظم مقرئى القرآن ليحيطوا بالسلطان ويرفعوا له الدعاء بالرحمة والمغفرة ، ثم تجمع الجنود فى شكل مجموعات وأخذوا ينوحون ، فتحدث إليهم الصدر الأعظم مذكراً إياهم بأعمال السلطان العظيمة من أجل الإسلام ، ثم طلب منهم إحترام ذكراه ليس عن طريق النواح ولكن عن طريق طاعة إبنه سليم السلطان

الجديد . وواصلت الفرق العسكرية سيرها فى هدوء ، وعند وصول الجثمان إلى استانبول دفن فى مسجد السليمانية العظيم كما خطط السلطان .

وهكذا مات سليمان فى خيمته بين جنوده وجيشه فى ميدان المعركة ، وبذلك دخل فى عداد الشهداء فى أعين المسلمين ، وقد نظم الشعراء القصائد فى هذه المناسبة خاصة وأن وفاته تواكبت مع لحظات الانتصار . هذا هو السلطان سليمان القوى الذى وسع حدود دولته وأمنها ، سليمان المشرع الذى أرسى قواعد العدل والحكمة من خلال مؤسساته المستنيرة وحكومته القوية ، سليمان السياسى المحنك الذى احتل مكانة عظيمة فى العالم بأسره ، وهو السلطان العاشر فى سلسلة سلاطين آل عثمان الذى نجح فى أن يصل بالدولة إلى ذروة العظمة والقوة . ولكن عظمة إنجازات سليمان لم تستمر من بعده حيث اعتلى العرش سلاطين ضعاف بدأوا يسيرون بهذه الدولة إلى بدايات الإنهيار والسقوط .

القسم الرابع

بذور الإنهيار

الفصل الثامن عشر

لقد كان السلطان سليمان العظيم أميراً لعصر النهضة بحق وذلك بسبب الأبهة والفخامة التى تميز بها بلاطه ، وأسلوب المعيشة الذى فاق ما هو معروف فى العصر الذهبى للحضارة المسيحية الغربية ، لقد تميز بشخيصة عظيمة وحكمة تفوقت على ما عداه من شخصيات السلاطين الآخرين ، واتبع أسلوباً مغايراً غير تقليدى فى إدارة شئون دولته ، فكان يختار موظفى حكومته بدقة شديدة ويمنحهم ثقته المطلقة كممثلين لسلطته ، وتسامح مع الكثيرين منهم برغم علمه بثرواتهم الطائلة التى كونوها عن طريق الفساد ، وبحياة البذخ والإسراف التى عاشوها ، فقد كان الفساد سمة أساسية من سمات هذا العصر ، كما كان البذخ والأبهة من العناصر الأساسية التى اتصف بها حكم سليمان وبهرت أعين الغرب .

لقد تولى الصدارة العظمى فى عهده اثنان من أصول مسيحية ، وظلا فى هذا المنصب لفترة تقارب ثلثى عصره ، وحققا شهرة واسعة وساهما فى تحقيق عظمة الدولة وهما : إبراهيم باشا اليونانى الأصل الذى كان قائداً عسكرياً محنكاً ودبلوماسياً ماهراً فى ذات الوقت ، ورستم باشا البلغارى الأصل الذى كان إقتصادياً عظيماً وتولى مسئولية الخزينة السلطانية بكل تعقيداتها فى الفترة التى تضاعف فيها حجم الإمبراطورية وتزايدت إيراداتها . أما صوقللو باشا السلافى الأصل من إقليم البوسنة والذى كان فى صباه خادماً فى كنيسة صربية ، كان فى الفترات الفاصلة الذراع اليمنى القوية المؤثرة لسيده . ولكن هذه العناصر التى تعودت على قوة وعظمة نظام سليمان لم تدرك ما يحمله المستقبل مع هذا السلطان الجديد الضعيف . غير أن ما حدث بعد وفاة سليمان كان مسئولاً عنه ؛ فهو الذى قتل ورثة العرش : مصطفى إبنه الأكبر وبايزيد الذين امتلكا المؤهلات الكفيلة بالسير على نسق السلاطين العشرة العظام الأوائل وضمان إستمرار الإمبراطورية كقوة محترمة ومهابة فى العالم الراهن . ولكن بهذه التصرفات العمياء البعيدة عن الرحمة ، وإتباعاً للتقليد السلطانى السئ وهو قتل الأخوة أفسح الطريق لحاكم فاسد منحط هو سليم خليفته . لقد مثل عهده بداية لسلسلة من السلاطين بلغ عددهم خمسة وعشرين سلطاناً ساروا بالدولة فى طريق الانهيار والتأخر عبر القرون .

لقد وقع سليمان تحت تأثير زوجته روكسلانة بشكل أفقده صوابه وحكمته وجعلته يرتكب خطأ قبل وفاته أدى إلى تدمير كل ما شيده لهذه الدولة العظيمة . لقد كان سليمان يمثل أصالة وقوة سلالة آل عثمان ، ولكن دخلت دماء جديدة بين السلاطين العثمانيين فى المرحلة التالية جعلت الكثير من المؤرخين يرتابون فى أصول سليم ويتساءلون هل هو بالفعل من نسل والده أم هو نبت غير شرعى من أمه السلافية ؟ وذلك لإختلافه التام عن السلاطين العثمانيين السابقين .

لقد كانت هيئة سليم الثانى موحشة وكئيبة ، فكان قصير القامة وبديناً وحاد المزاج واشتهر بلقب السكير لإدمانه الخمر وكسولاً وفظ الطباع وأنانياً لا يعمل إلا على إرضاء شهواته ، ولم يرث أى فضائل من والده بل كان مكروهًا من الوزراء والرعية ، وليس له أدنى اهتمام بالحرب أو بإدارة شئون الدولة ، فكان يخاصم السيف والخيمة ويقضى كل وقته داخل القصر السلطانى وعاش ليومه ولم يفكر فى الغد أو المستقبل .

لم يكن سليم موهوبًا إلا فى نظم الشعر بطلاقة باللغة التركية ، ودخل فى منافسة فى هذا المجال مع الشاعر الفارسى « حافظ » (١) ، وعلى سبيل المثال فقد ذم الخمر ووصفها بأنها سبب جميع الرذائل ، بينما وصفها حافظ بأنها أعذب من قبلة فتاة شابة ، كما نظم سليم شعراً فى الحب وشجونه . وحتى يبرئ ذمته ويظهر إحترامه لتعاليم الرسول (ﷺ) أمر بتحريم الخمر وجعل شيخ الإسلام يصدر فتوى شرعية لا تبيح شرب الخمر حتى إذا شربها السلطان نفسه . ويعتبر هذا المرسوم هو الأول للسلطان الجديد ، وقضى بمنع تداول الخمر أو شربها أو بيعها . وكان هذا المرسوم مثار سخرية للعامة فكانوا يطلقون عبارة شهيرة تقول « أين سنذهب بالخمر اليوم إلى المفتى أم إلى القاضى ؟ » .

---

(١) هو الشاعر الفارسى الشهير شمس الدين محمد حافظ المولود فى شيراز ١٣٢٠ وتوفى ١٣٨٩ .

أنظر : La Rousse , p . 1365

لقد انصرف سليم كلية عن تصريف شئون الحكم وترك الأمور كلها فى يد صوقللو (١) زوج إبنته الذى كان يحترمه ويجله ، وإحترم أيضًا عدالة وحكمة والده فى إختيار الصدور العظام من الثقات ، وكان يعلم أنه على مدى السنوات السابقة لم يظهر من الصدور العظام من هو فى قوة صوقللو برغم أصله المسيحى ، كما كان يدرك قدرته على مساعدته فى تخطى فترات الأزمات . وقد استمرت السياسة السابقة لسليمان فى ظل صدارة صوقللو قائمة لفترة اثنتى عشرة سنة .

وكان صوقللو رجلاً قوياً وطموحاً كما تميز بسعة الأفق ، فبدأ أولاً فى إنهاء حملة سليمان على المجر بعقد سلام مشرف فى عام ١٥٦٨ مع إمبراطور الهابسبرج (٢) لثمانى سنوات أدى إلى إستقرار الأوضاع الحدودية فى هذه المنطقة . ثم وجه صوقللو الجيوش العثمانية لأول مرة ناحية روسيا بعد أن تحولت دوقية موسكو إلى دولة قوية متحدة . وكانت العلاقات التجارية قائمة بين الأتراك والروس منذ عام ١٤٩٢ بعد أن سمح السلاطين للروس بحرية التجارة فى الأراضى العثمانية . وبعد أن ظهر إيفان الرهيب (٣) على مسرح الأحداث وحصل على لقب قيصر فى ١٥٤٧ قرر أن يحول الدوقية إلى إمبراطورية ، وحينما تزوج جده إيفان الثالث من صوفيا إبنة شقيق آخر أباطرة بيزنطة إدعت موسكو ميراث الإمبراطورية الرومانية الشرقية ذات الشعار البيزنطى الذى يحمل نسراً مزدوج الرأس . وكان إيفان قد توسع جنوبًا على

---

(١) صوقللو ، كلمة سلافية تعنى الباز .

أنظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى ، فى أصول التاريخ العثمانى ، دار الشروق ١٩٩٨ .

(٢) هو فيليب الثانى (١٥٢٧ - ١٥٩٨) إبن الإمبراطور شارل الخامس وإيزابيلا البرتغالية .

أنظر : La Rousse , p . 1601

(٣) هو إيفان الرابع (١٥٣٣ - ١٥٨٤) حاكم موسكو واستولى على أراضى نهر الفولجا وبحر أزوف .

أنظر : La Rousse , p . 1658

حساب خانات التتار واستولى على استراخان الواقعة على بحر قزوين ، ثم شن غارة على أزوف وعلى ساحل القرم وبذلك اعتدى على المناطق العثمانية وعلى دولة التتار التابعة للعثمانيين فى القرم ، وكانت هذه هى الذريعة التى دفعت صوقللو للتدخل وكانت تحمل البعد الدينى والبعد السياسى فى آن واحد ، فهى تهدف إلى حفظ ماء وجه السلطان حامى الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة لأن مسلمى تركستان الذين كانت تربطهم بالإمبراطورية العثمانية روابط التجارة والحج واجهوا خطر إغلاق الحدود الفارسية فى وجوههم من جانب الغزاة الجدد ، كما واجهوا عقبات فى طريق التجارة العابرة فتوسلوا إلى الباب العالى أن يقوم بغزو استراخان حتى يتم إعادة فتح طريق الحج التقليدى .

وقد أعد صوقللو مشروعًا ضخمًا يهدف إلى إيقاف التوسع الروسى فى اتجاه الجنوب ، ويدفع بالتوسع التركى جهة الشرق ، وكان واثقًا من مقدرة بلاده المادية والعسكرية فى هذا الصدد . وقام هذا المشروع على شق قناة بين نهر الدون الذى يصب فى بحر آزوف من جهة الشمال الغربى وبين نهر الفولجا الذى يصب فى بحر قزوين من جهة الشمال الشرقى عند نقطة لا تزيد فيها المسافة بين النهرين على ٣٠ ميلاً ، وكان هذا المخطط يهدف إلى جعل البحر الأسود بحيرة عثمانية ، وعن طريق دفع أسطول فى بحر قزوين يمكن للأتراك دخول فارس والإحاطة بها وفتح طريق بين القوقاز وطرق سط آسيا من خلال مدينة تبريز . وكان صوقللو يهدف إلى إحياء الطريق التاريخى عبر القارات وهو طريق وسط آسيا – استراخان – القرم وبذلك تنتعش التجارة وينتشر الإسلام ويمكن القضاء على الروس . ويعتبر هذا المشروع مشابهًا للمشروع الذى فكر فيه سلوقس Seleucus (١) خليفة الإسكندر الأكبر منذ ثمانية عشرة قرنًا من الزمان .

---

(١) سلوقس الأول المقدونى (٣٥٥ – ٢٨٠ ق . م) وهو مؤسس الأسرة السلوقية التى استمرت تحكم من (٣٠٥ إلى ٩٥ ق . م) .

أنظر : La Rousse , p . 1693

وفى عام ١٥٦٨ أرسل صوقللو قوة كبيرة عبرت البحر الأسود إلى آزوف التى كانت تحت سيطرة العثمانيين بهدف الإستيلاء على استراخان وقد تم نقل هذه القوة الكبيرة إلى النقطة التى كان من المقبرر حفر القناة فيها بمساعدة قوة محلية من التتار ، وبعد أن بدأ العمل بالفعل وتم حفر ثلث القناة توقف لمشكلات فنية ، فانسحب الأسطول إلى نهر الڤولجا وعبره لضرب الحصار حول استراخان ، ولكن واجه الحصار الفشل بسبب الحاجة الماسة لسلاح المدفعية وغزارة الأمطار وهبوط الروح المعنوية للقوات العثمانية ، كما واجه العثمانيون معاناة قاسية فى طريق العودة عبر جبال الإستبس .

لقد كان خان القرم دولت جيراى Devlet Ghirai رجلاً ذا طموحات إستقلالية كبيرة ، ولم يشجع العثمانيين على التوسع فى ممتلكاته حتى لا يدخلوا فى مشاكل مع سكان المناطق الشمالية ، لذلك كان يضع العقبات فى طريقهم ، كما أن المناخ القاسى وزمهرير الشتاء والذى أدى إلى موت عدد كبير من الجنود العثمانيين ، جعل صوقللو يجزم بأن الشمال القارس البرودة ليس للمسلمين ، فتخلى عن مشروعه .

وفى واقع الأمر كان لجيراى إدعاءات وراثية قوية فى موسكو ، ولذلك شن عليها هجومًا لحسابه فى الوقت الذى كان فيه إيڤان الرهيب يواجه الكثير من المشكلات ، ونجح بقوة ضئيلة فى من فرسانه فى إحراق الضواحى المحيطة بالمدينة . وهكذا اندثر مشروع قناة الدون – ڤولجا الخيالى الذى سعى إليه صوقللو ولم يعد له ذكر خاصة بعد أن نبه السلطان إلى فداحة التكاليف والخسائر فيه .

وبعد فترة قصيرة أرسل القيصر الروس سفيراً إلى الباب العالى ، وتم التوصل إلى معاهدة سلام بين الطرفين إستعاد السلطان بمقتضاها سيادته على خانية القرم ، وتخلى عن إدعاءاته فى استراخان . وهكذا أصبح الروس والخانات يقاتلون بعضهم بشكل مباشر ، واتسعت حدود القيصر الروسى شرقاً إلى سيبيريا . وبفضل هذا السلام الذى استمر لقرن من الزمان انتهت أولى مراحل القتال بين الإمبراطوريتين التركية والروسية .

وبرغم ذلك عاد صوقللو إلى التفكير فى مشروع آخر عظيم يختص

بتجارة الشرق وهو شق قناة عبر خليج السويس لربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر والمحيط الهندى ، ولكنه انشغل بالثورة التى اشتعلت فى اليمن والتى تطلبت تدخلاً سريعًا ونجح فى إخمادها . وقد وجه صوقللو إهتمامه فى المرحلة التالية جهة الغرب فى تونس حيث كان علوج على حاكم الجزائر وقائد أسطولها قد نجح فى الإستيلاء على مدينة تونس بعد أن طرد منها نائب الإمبراطور شارل الخامس الذى كان يحكمها ولكن استمر بقاء الحامية الأسبانية فى القلعة . وكان صوقللو من القادة الذين حافظوا على السياسة التقليدية للدولة العثمانية القائمة على اعتبار أسبانيا العدو الرئيسى للدولة ، لذلك طلب من فرنسا التعاون معه فى إنفاذ حملة ضد الأسبان فى البحر المتوسط رغبة فى بعث الدور العثمانى الحامى للإسلام ضد العدوان المسيحى ، والتجاوب مع ثورة الموريسيكيين (١) فى غرناطة ضد فيليب الثانى الأسبانى . وكان الموريسكيون فى حاجة ماسة إلى العون أكثر من أشقائهم فى الشمال الأفريقى ، وقد أرسلوا إستغاثة إلى استانبول طالبين من السلطان التدخل لإنقاذهم .

ولأول مرة حاول السلطان إتخاذ قرار شخصى حينما طلب إرسال الحملة ضد البندقية بدلاً من تونس والتى كانت ترتبط بمعاهدة سلام مع الدولة العثمانية . وكان البنادقة يمتلكون جزيرة قبرص الغنية بالثروات الزراعية مثل القطن والسكر فضلاً عن أجود أنواع النبيذ ، وكان تحرك السلطان إستجابة لصديقه المفضل البرتغالى اليهودى المصرفى المسمى جوزيف ناسى والذى أصبح إسمه فيما بعد دون ميجوز Don Miguez ، وكذلك الصديق المفضل لا لا مصطفى الذى كان يكره البندقية فنصح ناسى السلطان بغزو قبرص وأغراه بالغنائم من الدوكات الذهبية البندقية والنبيذ الجيد ، فوافق وعانقه وهو فى حالة سكر بيّن ، ووعده بأن يتوجه ملكًا على قبرص إذا نجحت الحملة . وإظهاراً لحسن النية عين السلطان جوزيف ناسى دوقًا على ناكسوس وباروس

(١) الموريسكيون هم مسلمى الأندلس .

وأندروز وعشرة جزر أخرى من جزر سكلاديس Cyclades (١) والتى كانت عوائدها وعوائد بيع النبيذ فيها تمثل عائداً ضريبياً معتدلاً . وهكذا وللمرة الأولى والأخيرة يجد صوقللو نفسة فى حالة تعارض تام مع رغبات السلطان ومشروعاته ؛ فقد أرسل الأخير رسولاً إلى البندقية يتوعدها بمجموعة من المصائب وخيرها بين قبول إحتلال الجزر أو التنازل عنها ، ولكن مجلس السناتو البندقى رفض بقوة ، فتوجه صوقللو فى عام ١٥٧٠ إلى قبرص على رأس الحملة التى كانت معدة لمساعدة الموريسكيين .

وكان البنادقة قد أهملوا هذه البقعة الواقعة شرق البحر المتوسط لفترة طويلة ، وكان غالبية سكانها من فلاحين يونانيين على المذهب الأرثوذكسى عبيداً للسادة الفرنجة من الطبقة الحاكمة ، وكان من المتوقع أن يسارع حوالى خمسين ألفاً من هؤلاء الأقنان للإنضمام إلى الأتراك ، ولذلك أصدر السلطان فرماناً إلى باشا السنجق المجاور ليبذل قصارى جهده ليكسب قلوب الأهالى وأن يعدهم بأنه فى حالة نجاح الإستيلاء على الجزيرة فإنهم لن يتعرضوا لأية أضرار ولن تصادر ممتلكاتهم ، وكان هذا الأسلوب مألوفًا من جانب الأتراك فى المرحلة السابقة على إرسال أى حملة .

وقد نزلت القوات العثمانية إلى أرض الجزيرة بقيادة لا لا مصطفى فى عام ١٥٧٠ ، وكان يمثل الشخصية المنافسة لصوقللو وصاحب الحظوة لدى السلطان . أما الأسطول فكان بقيادة بيالة باشا . وقد أدرك البنادقة بثاقب نظرهم أن اليونانيين سيشعلون الثورة ضدهم بعد أن ظهرت بوادرها فى أحد أحياء الجزيرة ، وحتى يقضوا على الفتنة فى مهدها قاموا بقطع رقاب ٤٠٠ يونانى . أما العثمانيون فقد عاملوا سكان الإقليم الثائر بكل مودة وكرم وأصدروا أمراً بإعفائهم من الضرائب لفترة محددة ، وسرعان ما ظهر الأثر سريعًا على اليونانيين فامتنعوا عن القتال وتعاونوا مع العثمانيين وأمدوهم بالمواد الغذائية

---

(١) جزر سكلاديس هى مجموعة جزر يونانية فى بحر إيجة وهى تكون ما يشبه الدائرة وهى تضم جزر أندروس وناكسوس وباروس وسانتورين وسيرا وميلو .

أنظر : La Rousse , p . 1281

وبالمعلومات الخاصة بسياسة الدولة في الجزيرة ، كما عاد من لجأ من السكان إلى الجبال وأعلنوا خضوعهم للغزاة .

ولم تواجه القوات العثمانية مقاومة تذكر في الجزيرة ، وكانت المهمة الرئيسـية أمامها هـي السيطرة على القلعتين البندقيتين فى نيقوسيا وفاما جوستا . ولما وصلت التعزيزات من شمال أفريقيا والأناضول أصبح لدى الأتراك قوة قوامها ٥٠ ألف مقاتل للتقدم إلى نيقوسيا . وفى نفس الوقت استعد البنادقة واستقدموا خبيراً عسكرياً لتحديث تحصيناتهم غير أن وسائل الدفاع عن نيقوسيا كانت غير محكمة فوقعت فى أيدى الأتراك فى غضون ستة أسابيع وقتل رجال حاميتها وتم إعمال السلب والنهب في المدينة التى كانت تزخر بمئات الكنائس ، وتحولت الكاتدرائية الموجودة بها إلى مسجد ، كما تم تجهيز أجمل شبابها من الجنسين للبيع فى سوق العبيد وحملهم غليون خاص إلى استانبول ، ولكن قامت سيدة مسيحية غيورة بوضع فتيل فى مخزن السفينة فاشتعلت بها النيران قبل الإبحار .

أما قلعة فاما جوستا فقد بدأ القتل حولها في الربيع التالي ، وكان يتولى أمرها البندقى مارك أنطونيو براجادينو Marc Antonio Bragadino ، وقاومت ببسالة لثلاثة شهور ، برغم أن لا لا مصطفى أشاع تشجيعاً لجنده ، أن الأعداء لا خبرة لهم بالحرب ولا حول لهم ولا قوة . ثم وصلت رسالة إلى استانبول تقول أن هناك عمالقة يدافعون عن نيقوسيا . وقد شن الأتراك عدة هجمات بعد أن حفروا الخنادق ولكنهم واجهوا مقاومة شرسة حيث قام الأعداء بوضع الأخشاب والحطب ومواد أخرى قابلة للإشتعال فى الأخدود أمام المتراس وكانت الأخشاب المستخدمة من أنواع خاصة تنمو فى الجزيرة وتصدر عنها أبخرة سامة عند الإشتعال . وبعد حصار دام ثلاثة شهور نفذت ذخيرة القبارصة ولم يتبق معهم سوى سبعة براميل من البارود ، واضطروا إلى أكل الجياد والحمير والكلاب ولم يكن أمام براجادينو سوى الإستسلام وفق شروط غير مهينة .

وكانت الشروط التى إقترحها مصطفى هى تسليم القلعة فى مقابل تسريح جميع الأحياء المتبقين بداخلها ، وأن يتم نقل الحامية بأسلحتها على

متن سفن عثمانية إلى كريت ، على أن يمنح سكان المدينة الأمان ويختاروا المكان الذى يرغبون العيش فيه . وحينما توجه براجادينو إلى المعسكر العثمانى بصحبة ثلاثة من القادة والحرس العسكرى لتسليم مفاتيح المدينة عامله مصطفى فى بادئ الأمر بكرم واضح وتحادثا سوياً بكل مودة ، ولكن سرعان ما بدأت المشاكل بعد أن اتهم مصطفى براجادينو بقتل الأسرى الأتراك ، وطلب الأخير رهينة لضمان عودة السفن بأمان . ولم يتم فى النهاية التوصل إلى معاهدة سلام لأن براجادينو رفض هذه الشروط فأصيب مصطفى بنوبة هياج هستيرية وقيد براجادينو بالسلاسل وساقه محنى الرأس ثم أمر بقطع أذنه اليمنى وأنفه ، وبعد أن خارت قواه لمدة أسبوعين فى السجن قام بربطه فى صليبية فى الميدان الرئيسى فى فاما جوستا ، ثم عرض عليه إعتناق الإسلام ولما رفض سلخ جلده وهو حى وقطع جسده إرباً أمام الجميع ، ثم أمر بوضع الجلد فى الملح وملأه بالتبن ووضعه على ظهر بقرة ليطوف به فى المدينة .

وبعد عامين تنازلت البندقية عن الجزيرة للسلطان وفق معاهدة السلام الموقعة بينهما ، وذلك فى مقابل تعويض يكفى لتغطية خسائرها . وقد تميزت الإدارة العثمانية فى قبرص بالإعتدال والإستنارة وسارت وفق النظام العثمانى المعمول به فى هذه المناطق ، فبعثت إمتيازات الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية على حساب الكاثوليك اللاتين ، وإستعادت ممتلكاتها ، كما تم القضاء نهائيًا على نظام رقيق الأرض ، بعد أن أصبحت الأراضى التى كانت فى حوزة النبلاء ملكًا للعثمانيين ، وبذلت المساعدات لتحسين أحوال السكان والعمل على تنمية المصادر الإقتصادية والمالية ، وإستقدم العثمانيون عدداً كبيراً من المهاجرين من قلب الأناضول بقطعان ماشيتهم وأدوات الزراعة للإستقرار فى الأراضى الخالية .

لقد أثار إحتلال قبرص حقد الغرب الأوروبى وأخذ يسعى للإنتقام والقصاص فدعا إلى تكوين عصبة مقدسة تحت رعاية البابا بيوس الخامس بهدف توحيد قوى المسيحية فى ظل روح صليبية جارفة ، ولكن لم تظهر هذه العصبة إلى الوجود إلا بعد عام من الدعوة إليها نتيجة الخلافات والمنازعات والشكوك وتعارض المصالح بين أعضائها ؛ إذ كانت البندقية تخشى من تفوق

نفوذ أسبانيا على حساب إيطاليا ، كما كانت أسبانيا تخشى من البندقية وتقلباتها ومن تحول ولائها مرة أخرى إلى السلطان العثمانى . ومن ناحية أخرى كانت فرنسا لا تثق فى النمسا وتحقد على تفوقها فهى العدوة التقليدية لها ، وكان من المحتمل أن تتحول فرنسا بطريقة سرية إلى جانب السلطان وتسعى إلى تكوين حلف سرى معه ، لذلك لم تشارك فرنسا فى العصبة المقدسة وسعت إلى معارضتها وطالبت بمنع تكوينها .

وانتهى الأمر بأن أصبحت العصبة المقدسة تحالفًا ثلاثيًا ضم البابوية وأسبانيا والبندقية ، وذلك فى عام ١٥٧١ أثناء الحصار التركى لفاما جوستا . وتكون الأسطول الموحد من فرق من الولايات الإيطالية ومن فرسان مالطة . وكان لابد من البحث عن قائد محنك لقيادته فوقع الاختيار على دون چون النمساوى إبن الإمبراطور شارل الخامس وهو أخ غير شقيق للملك فيليب الثانى . وقد حقق دون چون شهرة واسعة فى أثناء الصراع ضد الموريسكيين فى غرناطة ، وهو شاب يتمتع بشخصية حادة وأظهر حماسًا لقيادة هذه العناصر المتنازعة التى تجمعت فى شكل حملة صليبية تشبه حملات القرن الثالث عشر ضد الأتراك العثمانيين .

كانت القوة البحرية لدون چون أصغر من قوة الأتراك ، وتألفت من ٢٠٠ غليون من بينها ستة غليونات من البندقية تميزت بالضخامة والتسليح الثقيل بشكل لم يظهر من قبل فى منطقة البحر المتوسط ، وقد حمل عليها دون چون حوالى ثلاثين ألف مقاتل . أما الأسطول التركى فقد كان فى نفس المستوى تقريباً ، وكان بقيادة محسن زادة باشا وتحت إمرته علوج على السابق ذكره الذى اشتهر فى الغرب بلقب أوتشيالى Ochiale (١) ، بالإضافة إلى قائدين آخرين من قادة القراصنة ومعهم خمسة عشرة من بكوات السناچق البحرية يحمل كل منهم لقب « أمير البحر » .

تجمع هذا الأسطول الضخم للعصبة المقدسة فى مسينيا فى شهر سبتمبر

---

(١) كلمة يونانية تعنى الجسور .

١٥٧١ ، إستعداداً للإبحار بحثاً عن الكفرة فى شرقى المتوسط ، وكان يشبه غابة من أشجار البلوط التى ترفرف عليها الرايات والأعلام ، وقد بارك نائب البابا هذا الحشـد ثم واصل سيره إلى منطقة المضايق خلف السفينة حاملة الراية ، وعندما رسا فى جزيرة كورفو (١) بعد رحيل الأتراك عنها لفشل الحصار ، وصلت التقارير إلى دون چون عن مصير فاما جوستا وما جرى فيها من تدنيس ، وقد زادت هذه الأخبار الصليبين حقداً وسخطًا على الأتراك وأمدتهم بقوة حديدية وإصراراً لا حدود له على منازلتهم والإنتقام منهم .

وفى ذات الوقت تراجع الأسطول التركى جنوباً من كورفو إلى باتراس ورسا فى خليج ليپانتو (٢) ، وعند مرور الأسطول المسيحى عبر المضيق بين كيفالونيا وإيثاكة شاهده قائد البحرية العثمانية فسارع إلى عقد مجلس حربى على ظهر السفينة الحربية حاملة الراية المسماة (السلطانة The Sultana) وظهر فيه إنقسام الرأى والإختلاف بين القادة ، وحدث نفس الشئ فى المعسكر المسيحى فكان هناك فريق يفضل الحذر والتريث وفريق يطالب بالهجوم السريع . وقد اعترض علوج على وثار على رفاقه الذين آثروا البقاء فى خليج ليپانتو قائلاً : « تريدون أن نبقى لرعاية النساء والأطفال ؟ » . واتفق فى الرأى مع برتاو باشا Pertau Pasha قائد القوات البرية والذى فضل قضاء بعض الوقت فقط للإستعداد والتدريب قبل بدء الهجوم . وبرغم ذلك فقد التزم على باشا القائد الجسور الحريص بأوامر السلطان وهى الإستيلاء على الأسطول المسيحى والعودة به إلى القرن الذهبى ، فأصدر أوامره بالهجوم الفورى ، وذكّر برتاو باشا المقاتلين بأعداد المدن المسيحية التى لا حصر لها والتى فتحها العثمانيون وبتفوقهم فى البر والبحر ، وحقر من شأن العدو الذى سيلاقونه .

وهكذا تقدم الأسطول العثمانى من خليج ليپانتو ليشتبك مع المسيحيين فى المياه المفتوحة عند مدخل الخليج ، وصار الهلال والصليب على

---

(١) كورفو هى إحدى الجزر الأيونية .

(٢) يصل خليج ليپانتو بين باتراس وخليج كورنثة فى اليونان .

أنظر : La Rousse , p . 1477

وشك الدخول فى أعظم معركة بحرية فى تاريخ أوروبا ، وكانت الراية البابوية التى حملها دون چون هى الصليب فى مواجهة الراية المقدسة التى أحضرت من مكة خصيصًا وكانت مطرزة بآيات من القرآن الكريم . وفى يوم الأحد الموافق ٧ أكتوبر ١٥٧١ ، وكان يوماً مشمساً ، أقام دون چون قداساً عاماً فى جميع سفن الأسطول إلى أن لاح فى الأفق الأسطول التركى . وقبل بدء المعركة وقف الأسطولان فى مواجهة بعضهما البعضُ وأحاط الأسطول التركى بالأسطول المسيحى على شكل هلال واسع مع وجود تقسيمات داخلية إلى ثلاثة فرق بحرية لكل فرقة قائدها . وكان دون چون يقود أساطيل البندقية والبابوية وقاد علـى باشا وبرتاو قلب القوة العثمانية فى مواجهة الأسطول الجنوى ، بينما كان قائد الجناح الأيسر هو محمد شولوك باشا الإسكندرية الذى اشتهر باسم سكيروكو Scirocco فى مواجهة أسطول البندقية . ولما وجد على باشا أن الأسطول المسيحى أقوى من أسطوله عدّل من شكل الهلال وجعل السفن على هيئة مستقيم وتقدم لبضعة آلاف من الياردات من خط القتال المسيحى حيث سفن دون چون القوية .

وقد ظل الطرفان بلا إشتباك لفترة قصيرة فى محاولة متبادلة للتعرف على القدرة القتالية لكل منهما ، ثم أطلق العثمانيون أول قذيفة بارود فرد المسيحيون بقذيفة مدفعية ثقيلة إخترقت الخطوط القتالية للسفن ، فاصطف الأتراك وأطلقوا دقات الطبول والمزامير وحمى الوطيس واشتبك الأسطولان بكامل تشكيلاتهم من الجانبين . وسرعان ما تشتت تشكيل الأتراك بفعل القذائف الضخمة لسفن الأعداء ثم تجمعوا مرة أخرى ، وبالتدريج تطورت المعركة وانقسمت إلى ثلاثة معارك فرعية منفصلة إحداها بقيادة سكيروكو باشا الإسكندرية والذى تفوق عليه البنادقة بفضل بحارتهم المهرة وسفنهم القوية إذ استطاعو دفع الأتراك إلى الساحل وذبحوا البحارة ودمروا أسطولهم بالكامل ، كما قتل بارباريجو Barbarigo قائد سفن البندقية على إثر سهم اخترق رأسه ، وكذلك جرح سكيروكو وسقط فى البحر فانتشله البحارة البنادقة وقطعوا رأسه . أما المعركة الرئيسية فكانت فى القلب بين السفينة لاريال La Real والسفينة السلطانة وعليهما كبار القادة العسكريين من الطرفين ، حيث اشتبكت السفينتان بشكل مباشر حتى أن مقدمة السلطانة المدببة إلتحمت بالسفينة لاريال وبدأت المعركة الفعلية مع

سفن البندقية والبابوية .

استمر القتال لساعتين بين الانكشارية المسلحة بالأقواس والبنادق القديمة وبين الجنود المسيحيين المسلحين بالبنادق والذين كانت تصلهم الإمدادات من السفن الراسية . وفى النهاية رجحت كفة المسيحيين بسبب تفوق مدفعيتهم وقصور الوسائل الدفاعية التركية ، وبعد الهجوم الذى شنه مقاتلو دون چون على السفينة السلطانة أصيب قائدها على باشا بطلقة رصاصة فى الجبهة فأردته قتيلاً على ممر السفينة ، فقطعت رأسه وأرسلت إلى دون چون ، وبرغم أنه تظاهر بالحزن على عدوه فإنه علق رأسه على حربة على السفينة حاملة الراية . أما السفينة العثمانية حاملة الراية فقد تم الإستيلاء عليها وفشلت محاولة إستعادتها من جانب العثمانيين ، وتحطم بذلك خط دفاعهم فى القلب ، وفى السفن التركية التى استولى عليها المسيحيون أطلق سراح العبيد المسيحيين من الأغلال وحملوا السلاح واشتركوا فى مقاتلة العدو .

وبعد ثلاثة ساعات من القتال الضارى بين الطرفين انتهت معركة ليبانتو لصالح المسيحين بعد إغراق الأسطول العثمانى المكون من ٢٣٠ سفينة والإستيلاء عليه ، ولم تزد خسائر الجانب المسيحي على خمسة عشرة سفينة ونصف عدد الرجال الذين فقد هم الأتراك غير أن غالبية القتلى كانوا من خيرة النبلاء الأسبان والإيطاليين مثل سرفانتس الأسبانى Cervantes (١) الذى جرح أثناء مهاجمة السفينة العثمانية بقيادة سكيروكو وشوهت يده اليسري ، فكتب يقول : « برغم أن منظر يدى قبيحًا فإنها محببة إلى نفسى لأنها جرحت فى أشرف معركة لم تشهد القرون الماضية مثيلاً لها » .أما عن الجناح الأيسر للأتراك فقد استمر القتال فيه برغم فشل القلب لأن القرصان الماهر فى التكتيكات القتالية علوج على لجأ إلى الخديعة وحاول

---

(١) هو ميجل دى سرفانتس الكاتب الأسبانى الشهير (١٥٤٧ - ١٦١٦) وهو مؤلف قصة « دون كيشوت » الشهيرة وغيرها من المؤلفات الدرامية والكوميدية . وقد جرح فى معركة ليبانتو وظل أسيراً عند المسلمين لخمسة أعوام .

أنظر : La Rousse , p . 1237

التركيز على الجانب الأيمن لقوات العدو بقيادة چيان أندريا دوريا Gian Andrea Dorea ، إبن شقيق أشهر البحارة الأوربيين ، الذى تحرك جهة الجنوب ليتجنب علوج بعد أن تمركزت العمليات القتالية فى الشمال فأحدث فجوة فى خط القتال المسيحى ، فأراد علوج إستغلال هذه الفرصة ومهاجمة دون چون من الخلف ، ولكن باءت محاولته بالفشل أمام هجمات فرسان القديس يوحنا الذين اشتبكوا مع الجند الجزائريين وكذلك السفن الصقلية والمالطية ، فاتجه دوريا إلى الشمال مرة أخرى لينضم إلى المعركة الرئيسية ، وحينا أدرك علوج نجاح الجانب المسيحى وإنتصاره هرب فى جنح الظلام ومعه أربعون سفينة هى كل ما تبقى من الأسطول العثمانى لعلها تخفف من وطأة الهزيمة .

وقد كتب سرڤانتس فى دون كيشوت Don quixote يقول : « لقد كان هذا اليوم من أسعد أيام المسيحية بعد أن قهرت الأتراك الذين أشاعوا الرعب فى العالم ، وظن الجميع أنهم لن يهزموا » . لقد ابتهجت أوروبا كلها لهذا النصر ، ووصلت أخباره إلى البابا بيوس الخامس فى نفس اللحظة التى قتل فيها على باشا ، لذلك سجد شاكراً لله أمام الصليب ، وكانت رسالة النصر مذيلة بعبارة « چون رسول الرب » .

أما البندقية فقد كانت أول من علم بأخبار الإنتصار فأقامت إحتفالات صاخبة حينما ظهرت فى الأفق أول سفينة فى منطقة بيازا Piazza فى سان ماركو ، وأطلقت المدافع وجعلت الأعلام التركية مدلاة فى المياه والبحارة الأتراك فى مؤخرة السفينة كنموذج للتباهى والتفاخر . كذلك عاشت أسبانيا حالة من الفرح والبهجة لهذا النصر الصليبى على الأتراك الكفرة ، وفى فرنسا أمر الملك شارل التاسع بإقامة ترانيم دينية تعظيماً لهذه المناسبة ، وفى إنجلترا أقيمت الإحتفالات والألعاب النارية ودقت أجراس كنيسة سانت مارتن بهذه المناسبة ، كما ساهم الملك الصبى چيمس السادس ملك إسكتلندا فى هذه المناسبة بإنشاد آلاف الأبيات الزجلية . لقد ظلت معركة ليپانتو لعدة قرون بمثابة الأسطورة فى جميع أنحاء أوروبا فتغنى بها الشعراء والزجالون ورسم معاركها الفنانون التشكيليون ، وتألفت الأناشيد التى تغنى بها العامة لتمجيد

دون جون قاهر الأتراك الغزاة .

وبينما كانت أوروبا تعيش فى نشوة أفراح النصر كانت العاصمة العثمانية تموج بحال من الكآبة والحزن لهذه الهزيمة الساحقة ولفقدان الأسطول وللهوان الذى لقيه الجيش العثمانى فى ليپانتو ، وقضى السلطان سليم ثلاثة أيام صائمًا متضرعًا إلى الله أن يتلطف بشعبه ، وفى محاولة لتهدئة سخط وهياج العامة أمر بإقامة مذبحة لجميع الأسبان والبنادقة المقيمين فى بلاده ، ولكن بفضل جهود صوقللو لم تنفذ هذه المذبحة حيث نجح فى تحويل غضب السلطان إلى اتجاه آخر .

وعند نهاية العام وصل علوج على إلى القرن الذهبى عائداً بأسطول من ٨٠ سفينة نصفه كان عبارة عن السفن التى تمكنت من الفرار من ميدان المعركة ، والنصف الآخر جمعه من السفن التركية الراسية فى موانئ البحر المتوسط ، وقد ترقى إلى رتبة قبودان باشا أى القائد العام للأسطول العثمانى بدلاً من محسن زادة على الذى مات فى المعركة الأخيرة ، ثم غير السلطان إسمه إلى قليج Kilij وتعنى السيف . وقدم قليج جزءاً من ماله الشخصى كمساهمة فى إعادة بناء أسطول جديد ليحل محل الأسطول المدمر ، وخصص له جزءاً من حديقة قصره ، وذلك بالتعاون مع بيالة باشا وبموافقة السلطان .

وفى نهاية ربيع عام ١٥٧٢ وبعد ستة شهور من تاريخ معركة ليپانتو تكون أسطول عثمانى جديد من ٢٥٠ سفينة من بينها ثمانى سفن حربية ضخمة قادرة على حماية القوات التركية ومجهزة بشكل لم تشهده من قبل دولة مسيحية فى هذه الفترة . وكان لظهور هذا الأسطول خارج جزيرة قبرص فى عام ١٥٧٢ أثره فى إصابة الدول المسيحية المتحالفة بالإحباط والتراجع عن محاولة إستعادة الجزيرة ، بينما واصلت السفن الجديدة رحلتها فى المياه اليونانية رافعة العلم التركى كدليل على إستعادة القوة البحرية العثمانية لهيبتها مرة أخرى ، ثم حاولت تهديد جزيرة كريت ولكنها تجنبت فى ذات الوقت الدخول فى صدام مباشر مع الأعداء فى هذه المرحلة . أما المسيحيون فرغم إمتلاكهم أسطولاً أكبر من أسطول الأتراك فإنهم فشلوا فى دفع قليج على

للإشتباك معهم فى معركة فطردوه بعيداً عن الساحل الأيونى .

وقد أدى هذا التطور الجديد فى الجانب التركى إلى توقيع معاهدة سلام مع البندقية تنازلت فيها عن قبرص بصفة شكلية حتى تستأنف نشاطها التجارى مع الأقاليم العثمانية الواسعة . وحينما طرح الوزير البندقى تصوراته عن هذا السلام فى استانبول أمام صوقللو رد قائلاً : « هناك فرق شاسع بين خسارتكم وخسارتنا ، فنحن حينما استولينا على قبرص قطعنا لكم ذراعًا ، ولكن أنتم حينما هزمتم أسطولنا كأنكم حلقتم لحيتنا ، والذراع المبتورة لا تنمو مرة أخرى ، ولكن اللحية المحلوقة تنمو أقوى من ذى قبل » .

وقد لقيت مفاوضات معاهدة السلام دعماً وتأييداً من السفير الذى أرسله الملك الفرنسى شارل التاسع (١) إلى الباب العالى ، والذى سعى بالتعاون مع البندقية إلى منع تعاظم قوة النمسا على حساب فرنسا فى منطقة الليڤانت ، كم طالب بحل العصبة المقدسة . وبرغم تفاخر الدول المسيحية بنصر ليپانتو والخطط السرية التى طمحوا إلى تحقيقها فى أعقابه ، فإنهم دخلوا فى نزاعات كثيرة حول المصالح الخاصة لكل منهم ، ولكن ظل هذا النصر البحرى الكبير يحمل إرضاءً نفسيًا وأدبيًا كبيراً لهم بعد أن أثبتوا تفوقهم على عدوهم ، وتحطمت الأسطورة العثمانية فى أعين الأوربيين ، ولم يعد للأتراك العثمانيين الذين استعبدوا أوروبا بعد إستيلائهم على القسطنطينية منذ قرن مضى قوة يحسب حسابها أو خطراً يخشى منه ، وأصبحت أوروبا تتنفس بحرية تامة . وإذا كان هـذا النصر المسيحى يمثل منعطفًا هامًا بالنسبة لمكانة الأتراك وهيبتهم ، فإن إمبراطورية سليمان القانونى كانت لا تزال شامخة ، فمواردها المادية قوية ومهاراتها العملية صلبة وبدت بعيدة عن القهر والسقوط ، فبصرف النظر عن فساد السلطان سليم ، فإن مقدرة وكفاءة صوقللو جعلت هذه

---

(١) شارل التاسع هو ملك فرنسا من ١٥٦٠ إلى ١٥٧٤ وهو المشهور بتدبير مذبحة سانت بارثليمى للبروتستانت .

أنظر : La Rousse , p . 1239 ، عمر عبد العزيز عمر ، التاريخ الأوروبى الأمريكى الحديث .

الدولة قادرة على إثبات وجودها كدولة إسلامية لعشرين عاماً أخرى وبدت أمام المسيحية كمثل يحتذى .

لقد ظلت أسبانيا هى العدو التقليدى الرئيسى للعثمانيين ، وكان المحك بين الدولتين هو تونس التى استردها العثمانيون فى أعقاب حملة قبرص ثم سرعان ما فقدوها بعد عام واحد من هزيمتهم فى ليبانتو بعد أن دهمها الأسطول الأسبانى بقيادة دون جون . ومن ثم هاجم قليج على بأسطوله الجديد تونس واستولى عليها وعلى قلعة جولتا Goletta (حلق الوادى) بعد أن دامت فترة طويلة فى أيدى الأسبان ، وبذلك استعاد زعيم القراصنة عظمة الأسطول العثمانى وانتصاراته فى القرن الذهبى بعد ثلاثة سنوات من هزيمة ليبانتو .

لقد أصبحت تونس والجزائر وطرابلس ولايات عثمانية ، وظلت السيادة العثمانية ماثلة فى هذه المناطق البعيدة من ساحل أفريقيا البربرى لعدة قرون ، وكادت أن تمتد إلى مراكش فى عام ١٥٧٨ عندما طلب شريف فاس مساعدة الأتراك العثمانيين ضد البرتغال التى أرسلت أسطولاً ضخماً للإستيلاء عليها ، فكانت وقعة وادى المخازن (Alcazarquivi) (١) الهامة التى سجلت هزيمة البرتغال ومقتل ملكها سباستيان وضياع أكثر من ربع جيشه ، ونتج عنها بداية إنهيار البرتغال واستغل الملك فيليب هذه الفرصة وقام بإحتلالها .

وبعد إستعادة تونس بفترة وجيزة توفى فجأة السلطان سليم السكير نتيجة إسرافه فى الملذات ، وقد انتشرت عدة خرافات فسرها البعض على أنها تحمل نهاية السلطان مثل الزلزال المدمر الذى حدث فى القسطنطينية ، والسيول التى هددت الأماكن المقدسة فى مكة ، والحريق الهائل الذى شب فى مطابخ القصر السلطانى والذى نتج عنه تحطم جرار النبيذ الخاصة بالسلطان ، وكان سليم من المؤمنين بهذه الخرافات منذ أن سبق وفاة جده إندلاع حريق ضخم

---

(١) حدثت معركة وادى المخازن فى أغسطس ١٥٧٨ وتعرف بمعركة القصر الكبير .
أنظر : على محمد الصلابى ، الدولة العثمانية ، القاهرة ٢٠٠١ ، ص ٢٦٠ .

فى القصر السلطانى فى أدرنة . وفى غمرة الاكتئاب الذى سيطر عليه ذهب لزيارة أحد الحمامات الجديدة ، وحتى يتخلص من الحزن والمخاوف التى ملأت نفسه شرب زجاجة كاملة من النبيذ القبرصى دفعة واحدة ، فتمايل وترنح وسقط على الأرض ثم أصابته الحمى القاتلة وقضى نحبه .

لم يكن حكم سليم مثمراً وكانت وفاته بشكل فجائى ، ولكن تمكن محمد صوقللو من القيام بإجراءات تولية السلطان الجديد للعرش فى هدوء تام وهو السلطان مراد الثالث (١) ابن سليم الذى سار على سياسة الحد من نفوذ صوقللو وقوته وهوى بالدولة العثمانية إلى الدرك الأسفل من الدمار . وفى خلال السنوات الأربع التى قضاها صوقللو فى منصب الصدارة العظمى فى عهد السلطان الجديد كابد من دسائس الحريم السلطانى ومحظيات السلطان ما أفسد دوماً العلاقة بينه وبين سيده .

وقد أمر السلطان الجديد ليلة وصوله إلى استانبول قادماً من مغنيسيا بقتل أشقائه الخمسة ، ثم استقبل موظفى الدولة فى الصباح التالى بشكل مألوف . وكانت أول كلمة تفوه بها بعد أن شفى من دوار البحر وبعد صمت طويل واستعاد شهيته « أنا جائع ، أريد طعاماً » . ولم يساهم مراد الثالث فى إستمرار بعض الأمور المكروهة من جانب والده ، فكان أول فرمان يصدره هو حظر شرب الخمر ، وقد أثار هذا الفرمان مجموعة من الانكشارية فرفعوا الكئوس ليشربوا نخب السلطان معلنين معارضتهم ، وهددوا الصدر الأعظم وأهانوه فتراجع وسمح لهم بشرب الخمر بشرط أن يعودوا إلى الهدوء والسكينة . وكان من أبرز صفات مراد الشخصية ولعه بالنساء والذهب ، وكان ذهب البلاد وأموالها يحفظ فى أحد قلاع الأبراج السبعة حتى وفاة السلطان سليمان ، فقد خصص إحداها للذهب والثانية للفضة والثالثة للدروع الذهبية والفضية والمجوهرات والرابعة للمقتنيات الأثرية والخامسة للتحف والنفائس الواردة من فارس ومصر والسادسة للأسلحة والسابعة لوثائق الدولة . فقام

---

(١) حكم السلطان مراد الثالث من ١٥٧٤ إلى ١٥٩٤ .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ملحق ١ .

السلطان الجديد بالإستيلاء على ما تبقى من الكنوز والأموال بعد الحرب المكلفة الأخيرة ونقلها إلى خزينته الخاصة وحول الأبراج السبعة إلى سجن .

وكانت هذه الخزينة عبارة عن قبو خاص له أقفال ثلاثية الأبعاد ينام عليها السلطان طوال فترة حكمه ولا يفتحه إلا أربعة مرات فى العام ليضع فيه الإيرادات الجديدة التى قدرت بملايين الدوكات . وقد أحاط مراد نفسه بحاشية لا تحصى وعاش بينها حياة صاخبة متراخية ، وكان من نساء القصر أربع بمثابة الأعمدة الرئيسية للدولة وتحكمن فى حياته وهن : السلطانة الوالدة علي رأس الحريم السلطانى ، وشقيقته زوجة صوقللو ، وصفية زوجته وكانت إمرأة ذات جمال فائق من أصل بندقى أسرها قرصان تركى فى طريق عودته من جزيرة كورفو ، وكان والدها من عائلة من النبلاء تسمى بافو Baffo ، وهى والدة محمد الإبن الأكبر للسلطان وظل مخلصاً لها ، ولكن السلطانة الوالدة كانت تغار من علو مكانتها لديه فسعت لتصرف السلطان عنها فعاش حياة كلها إباحية مع الجوارى مما أدى إلى إرتفاع أثمانهن فى سوق استانبول ، وأصبح أبًا لأكثر من مائة طفل . وكان من بين الجوارى إمرأة مجرية ملكت قلب السلطان فإزداد نفوذها وكانت هى المرأة الرابعة فى حياته التى شاركته المجالس الإستشارية ، وكانت تدعى چنفيدا Janfeda ، وهذه أخذت مكانة السلطانة الوالدة بعد وفاتها وأصبحت على رأس الحريم السلطانى . ولكن ظلت السلطانة صفية بافو البندقية الأصل هى صاحبة النفوذ الأعلى والحظوة لدى السلطان ، وهى التى أقنعته بالعدول عن مهاجمة مسقط رأسها جمهورية سانت مارك ، ونعمت البندقية فى هذه الفترة بإستقرار واضح وتجددت إمتيازاتها القديمة لدى الباب العالى كما حصلت على إمتيازات تجارية جديدة ، وامتد نفوذ صفية بافو أيضاً إلى ابنها الذى أصبح السلطان محمد الثالث بصفتها السلطانة الوالدة .

وكان ولع السلطان بالذهب يعادل ولعه بالنساء ، ولذلك كانت الوظائف الرسمية لا يتم التعيين فيها إلا من خلال الذهب ومبالغ مالية محددة ، فاستشرى الفساد فى الدولة وأصبح السلطان نفسه يتقاسم الرشى مع موظفى البلاط والوزراء ، وكانت الشخصية التى لعبت دوراً رئيسيًا فى هذا المجال هى

شخصية شمسى باشا الذى أطلق عليه قناص الإلتماسات " Falconer of Petitions " ، وهو فى الأصل من أمراء السلاجقة ولذلك كان يعتبر العثمانيين أعدائه ، وقد اتضح من العبارات التى كتبت فى التراجم الخاصة به مدى كراهيته لهم مثل : « أخيراً انتقمت لأسرتى الحاكمة من آل عثمان الذين تسببوا فى انهيار دولتنا ، وأنا الآن أعدهم لهذه النهاية ، فأنا أقنعت السلطان بمقاسمتى فى المزادات الخاصة به وقدمت له طعامًا مغرياً ، فمبلغ أربعة آلاف من الدوكات ليس صغيراً أو تافهًا ، ومن يومها أصبح السلطان نفسه نموذجاً للفساد ، وهذا هو طريق الدمار لهذه الإمبراطورية » .

وكان شمسى باشا مثل لا لا مصطفى باشا عدواً لدوداً لصوقللو ، فعندما تقدم الأخير بشكواه من النفوذ القوى للقصر وتأثيره على شئون الدولة كانت الإجابة أن عليه الطاعة العمياء للقصر حتى إذا كان مخطئًا . وقد انتهى دور صوقللو كصدر أعظم بعد تولى مراد العرش بأربع سنوات ، وبعد أن حقق عدة إنتصارات للدولة فى قبرص وتونس واليمن وفى مناطق أخرى مثل فارس التى تعرضت للفتن والدسائس الداخلية بعد وفاة الشاه طهماسب (يقال أن زوجته دست له السم) ، فاستغل صوقللو هذه الفرصة وشن عليها هجومًا فى ١٥٧٨ بقيادة مصطفى باشا ، وبفضل مساعدة القوات التتارية لحقت الهزيمة بجيشيين فارسيين بشكل سريع ، كما تمكن من غزو القسم الأكبر من مملكة چورچيا المسيحية التى كانت متحالفة مع فارس ضد العثمانيين ، ثم دخل تفليس وحول كنائسها إلى مساجد ، وعين الزعماء الچورچيين المقهورين فى مناصب السناچق ، وأقام ولاية عثمانية قسمها إلى أربعة أقسام إدارية على رأس كل منها بيكلر بك .

كما اتجه العثمانيون إلى داغستان ثم إلى سواحل بحر قزوين حيث خطة صوقلو الأولى التى كان يرغب فى تنفيذها فى عهد السلطان سليم الثانى وهى شق قناة بين نهرى الدون والڤولجا ، فقاد باشا أزوف طليعة الحملة من سهول الإستبس الباردة إلى شمال البحر الأسود ، ولذلك كوفئ بمنحه القلب الرنان « قابودان باشا » أى القائد الأعلى للبحرية العثمانية فى بحر قزوين . ولكن عندما بدأ الفرس فى مقاومة الوجود العثمانى تجددت الحرب بين

الدولتين ودامت حوالى اثنتى عشرة سنة ، ثم وقعت بعدها فارس معاهدة سلام مع العثمانيين تنازلت بمقتضاها عن جورجيا وأذربيجان وشروان وتبريز ومقاطعات أخرى . وفى نفس الوقت استطاع العثمانيون تأسيس قاعدة حصينة ضد فارس فى منطقة قارص وظلت تشكل حصنًا منيعًا للدولة من جهة الشرق لعدة قرون تالية .

وكان من العسير على الحكم العثمانى الاستمرار فى هذه الأقاليم الجديدة لأن غالبية السكان كانوا من الشيعة وظلوا على ولائهم لفارس ، كما كانت الإدارة العثمانية بنظامها الضريبى ونظام الإلتزام المطبق على الأراضى مصدر كراهية وإستياء من جانب القبائل البدوية التى فضلت الحكم غير المركزى للشاه على الحكم المركزى للسلطان العثمانى . ويضاف إلى ذلك المشكلات الكثيرة التى واجهها العثمانيون فى هذه البلاد البعيدة والمتمثلة فى عملية النقل والإمداد من العاصمة أثناء الحملات العسكرية ، والتكاليف المالية التى كان يستلزمها ضمان الحفاظ على الأمن فى هذه المناطق البعيدة وعلى ذلك أصبح من العسير إنفاذ الحملات المنتظمة إلى هذه الجهات خلال الخمسين عامًا التالية .

وأثناء هذه الفترة كان أعداء صوقللو يكيدون له فى البلاط السلطانى وتآمروا على أصدقائه الذين كانوا مصدر حماية له ودبروا المبررات الكافية لإعدامهم ، وأخيرًا دخل شخص يرتدى ملابس الدراويش على صوقللو نفسه فى قصره وطعنه بخنجر فى قلبه فأرداه قتيلاً . ولم يعاقب القاتل البوسنى الجنسية (مثل صوقللو) حيث اعتبرت الجريمة انتقامًا لمصادرة إقطاعًا خاصًا به . وفى الليلة السابقة على مقتل صوقللو كان الراوى يقرأ عليه قصة السلطان مراد الأول الذى قتل بطعنة خنجر أثناء معركة كوسوفو ، فصاح صوقللو قائلاً : « قد يكون مصيرى مثله » ، وكان بالفعل . وقد رثاه سفير البندقية قائلاً : « دفنت الفضيلة التركية مع محمد صوقللو فى القبر » ، وبمقتله بدأت مرحلة طويلة من الإنهيار العثمانى .

الفصل التاسع عشر

كانت فترة الإنحدار الطويلة التى تعرضت لها الإمبراطورية دليلاً مباشراً على ضعف سيادة السلطان ، فقد تأكد عجزه عن الإهتمام الجاد بشئون البلاد وعجز الحكومة عن القيام بأعبائها ، وعدم الإلتفات للمبادئ التى قامت عليها مؤسساتها . ففى هذه الدولة كان الإعتماد على القوة الشخصية المطلقة للحاكم المدرب جيداً والقادر على السيطرة على شئون البلاد والتحكم فى الإدارة الداخلية القائمة على نظام العبودية ، ومن ثم كان ضعف شخصية الحاكم من عوامل انتشار الفوضى فى جميع أنحاء البلاد . ويضاف إلى ذلك عدم مقدرة الإمبراطورية على القيام بالفتوحات الإقليمية فى أوروبا والتى كانت بمثابة القوة الدافعة لها مما عجل بإنهيارها .

ولقد أدت القرون الطويلة من الحروب إلى تحقيق وحدة الهدف لدى العثمانيين ومنحتهم ثروات فى شكل غنائم وأقاليم استقروا فيها ، ولكن عندما قلت منافذ المكافآت وفرص السلب والنهب قام رجالها بنهب بعضهم البعض وتزاحموا فى المدن مما أدى إلى انتشار الاضطرابات بها . والآن اتضحت مساوئ الإصلاح الذى قام به سليمان فى مجال الأراضى ، فقد تركز توزيع الإقطاعات الرئيسية فى العاصمة وليس كما حدث من قبل حيث تواجدت بطريقة غير مركزية فى الولايات ، ولم يكن هذا التوزيع قائماً على العدالة بقدر ما كان يعتمد على الدسائس ومحاسيب القصر السلطانى وقد أدى هذا الوضع إلى تطور الملكيات الزراعية بشكل تعارض تماماً مع هدف السلطان وأدى إلى نمو مبدأ الوراثة ، وقد تواكب هذا مع النهاية التدريجية لفترة التوسع التركى المستمر ولعوائد إمتلاك الأراضى فتزايدت عمليات الإبتزاز للفلاحين وإغتصاب الأراضى .

والأكثر من ذلك أن السباهية Sipahia (١) الذين كانوا يشكلون الدعامة الرئيسية للدولة والذين كانوا يعيشون على ريع الأراضى الممنوحة لهم وعلى

(١) سباهية كلمة فارسية تعنى الفرسان واستخدمت للدلالة على الفروسية أو الخيالة العثمانية التى تتمتع بنظام الإقطاع العسكرى .
أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ المشرق العربى .

فلاحتها توقفوا عن أداء دورهم الأساسى كقوة عسكرية ، ونظراً لتأثرهم بالتقاليد العثمانية وإعتيادهم على الحملات العسكرية قصيرة المدى لم يتكيفوا مع أساليب القتال الحديثة التى تعتمد على الجنود الشاة المدربين على استخدام الأسلحة النارية والفصائل المتخصصة المدربة على تقنيات أخرى فعجزوا فى أوروبا عن مواجهة الفرق الألمانية المسلحة بالأسلحة الثقيلة ، وبالتالى أصبحوا طبقة متغيرة تميل إلى التمرد وإثارة الفتن . وغالباً ما رفضوا الإشتراك فى غزوات تعرضهم للخطر دون الحصول على غنائم وأسلاب كما كان يحدث فى الماضى ، وصاروا يتركون ميدان القتال عندما يشاءون ، وهذا ما حدث فى موقعة ميزو – كيرشتز Mezo - Keresztes فى المجر عام ١٥٩٦ . والتى أعقبها فقدان ٣٠ ألف سباهى لأملاكهم ، وفى هذا دليل واضح على أن هذا النظام استنفذ أغراضه ، فقد كان خرق القانون يعرض هؤلاء السباهية للحرمان من إقطاعياتهم وبالتالى تزايدت أعداد المتذمرين منهم ووزعت أراضيهم على آخرين إما بالطرق القانونية أو عن طريق تقديم الرشى للقضاة الذين يحكمون ذلك .

ونشأت تبعًا لذلك طبقة جديدة من حائزى الأراضى الذين كانوا فى الأصل موظفين أو عبيداً فى البلاط السلطانى أو خدمًا فى القصر السلطانى ومقيمين فى المدن . وباستخدام الرشوة والفساد كان يمكن لأى شخص أن يمتلك أى عدد من الإقطاعيات ويصبح صاحب ملكية زراعية كبيرة . كذلك عمد بعض السباهية إلى جعل إقطاعياتهم وراثية لأبنائهم وهؤلاء لم يلتزموا بأداء الواجبات العسكرية ، وقضوا أوقاتهم فى المدينة ، فتزايد تبعاً لذلك وجود ملاك الأراضى بالوراثة والذين يعيشون بعيداً عن إقطاعياتهم ، وهذا النظام يتعارض كلية من ناحية النظرية والتطبيق مع النظم التى أسسها السلاطين السابقين ، كما تواجدت فجوة واسعة بين حياة ومصالح الفلاحين وسكان الحضر والمدن .

وفى العاصمة نفسها حدث تغير جوهرى فى طبيعة نظام الخدمة الحكومية ؛ فقد كان الجهاز الحكومي يعتمد على العبيد المسيحيين أو الفلاحين فى الأراضى والقرى ، ومنذ أواخر عهد سليمان فى نهاية القرن السادس عشر انضم لهذا الجهاز رعايا مسلمين من العبيد المحررين الذين كانوا يقيمون فى المدن وذلك عن طريق شراء الوظيفة أو نفوذ المحاسيب ، وهؤلاء

أصبح من حقهم توريث مناصبهم لأبنائهم عن طريق الوصية ، وبالتالى تأسس نظام الوراثة أيضًا فى الحكومة ، وأصبح الباب مفتوحًا أمام أى مسلم شاب طموح يتمتع بإتصالات جيدة وموارد مالية كافية وروح منافسة وحس سياسى عالى أن يدخل إلى الطبقة الإجتماعية المتميزة . وهكذا لم تعد الكفاءة والأهلية هما معيار الوصول إلى القمة كما كان فى الماضى حيث كان السلطان هو الذى يختار النخبة العاملة معه بدقة .

وبالإضافة إلى ذلك تواجدت بعض عوامل الإنهيار العثمانى فى التدهور الإجتماعى والإقتصادى . فكان تزايد السكان يفوق أى زيادة فى مساحات الأراضى المنزرعة ، كما كان إرتفاع الأسعار الناتج عن تدفق الذهب والفضة الأسبانية والأمريكية من العالم الجديد من عوامل إنخفاض قيمة العملة الفضية العثمانية ، وأدى ذلك إلى درجة عالية من التضخم ، وكان هذا من الأمور الشائعة آنذاك فى عدد كبير من الدول الأوروبية الواقعة على البحر المتوسط .

ونتيجة للأزمات الإقتصادية المتتابعة اضطرت الحكومة العثمانية إلى إتباع النموذج الفارسى فى عام ١٥٨٤ فى علاج مشكلة العملة وفق أسس جوهرية ، فتم تخفيض العملة الذهبية إلى ٥٠٪ من قيمتها ، أما العملة الفضية فقد تم صهرها وإعادة إصدارها بشكل أقل سمكًا وبنحاس أكثر ، وكانت الأسبرة (العملة الفضية) تمثل أساس رواتب الجنود ، وقد شبه مؤرخ تركى معاصر وزن العملة الجديدة بخفة أوراق شجر اللوز وإنعدام قيمتها بقطرات الندى . وقد استمر التخفيض فى قيمة العملة إلى الدرجة التى جعلت السفير الأسبانى فى البندقية يصرح لفيليب الثانى قائلاً : « إن الإمبراطورية العثمانية فقيرة جداً ومرهقة جداً إلى درجة أن العملة الوحيدة السائدة هى الأسبرة المصنوعة بالكامل من الحديد » . ومع إستمرار الأزمات على طول القرن ضعف إقتصاد الدولة ووصل إلى حد الإفلاس حتى أنها أصبحت عاجزة عن دفع مرتبات الجنود مما أدى إلى انتشار التذمر والمظاهرات والفوضى وفشلت السلطة المركزية فى مواجهتها .

وخلال القرن السادس عشر تضاعف عدد السكان فى الإمبراطورية ، وتواكب هذا الضغط السكانى مع تناقص الأراضى الناتج عن توقف التوسع فى أوروبا وترتب على ذلك هجرة صغار الفلاحين من أقاليمهم إلى مناطق

أخرى طلباً للرزق . كذلك كان نظام طوائف الحرف Guild System (١) المتبع فى الدولة والمتوارث عن العصور الوسطى لا يعمل على تطوير المصادر الإقتصادية أو منتجات الزراعة . ومع غزو قبرص فقط أتيحت الفرصة لمزيد من الإستقرار والإنفراج ، أما المناطق الأخرى فقد وصلت إلى قمة الإزدحام مثل الأناضول التى أصبحت تفض بأعداد كبيرة ممن لا مأوى لهم من الفلاحين الذين لا أرض لهم والموظفين الرسميين بشكل أدى إلى إنتشار الفوضى والسرقات . ومما ضاعف من مشكلة البطالة تخفيض قيمة العملة وزيادة الأسعار وغش وتزييف العملة وإرتفاع الفوائد والربا ولكى تقابل الخزينة السلطانية هذا العجز أصبحت ملزمة بالبحث عن مصادر جديدة للدخل من خلال زيادة الضرائب ، وكان الفلاحون أول من عانى من الإرهاق الضريبى من جانب الحكومة المركزية أو حكومة الولايات كما أصبحت الطبقات ذات الدخل المحدد أى الرسمية تعانى من التضخم سواء كان هذا فى المجال العسكرى أو المدنى أو القضائى وقادها هذا إلى الرشوة والفساد وإبتزاز الفلاحين بطرق غير مشروعة .

وقد ظهرت هذه الممارسات التى سادت خلال القرن السادس عشر فى مرسوم العدل الذى وجهه السلطان أحمد الأول إلى الموظفين الرسميين فى ١٦٠٩ وجاء فيه :

« إنك لا تجعل مفتشى أقاليمك يقومون بالمهام الموكولة إليهم وتقوم بجمع المال من الناس بطريقة غير قانونية ، ومن خلال النظام الذى تسميه « العسس » فإنك ترتكب الأخطاء التالية : إذا سقط شخص من فوق شجرة تعتبر ذلك جريمة قتل وتذهب إلى القرية وتضع الحديد فى أيدى الناس وترهقهم وأخيراً تأخذ منهم مئات القطع الفضية والذهبية ، ثم تجمع من

---

(١) يعنى نظام طوائف الحرف أن ينتظم أصحاب كل حرفة فى طائفة تتولى شئونهم على رأسها رئيس وعدد من المعاونين ويعد الواسطة بين أعضاء الطائفة والحكومة .
أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، دار المعرفة الجامعية ٢٠٠٠ م .

الفلاحين الخيول والبغال والعبيد والشعير والتبن والخشب والذرة والأغنام والماشية والدجاج والزبد والعسل وغيرها من المأكولات . إنك تمنح إلتزام جمع الضرائب إلى من يدفع أكثر ، وهؤلاء يجمعون الإتاوات ومعهم الجنود والفرسان ، وبدلاً من أن يجمعوا الأموال بشكل قانوني وكما هو مسجل ، فإنهم يحاولون الحصول على أكبر قدر من المال لإرضاء أنفسهم » .

وكان القضاة فاسدين كباقى موظفى الدولة ، إذ كان يتم تعيينهم كمفتشين لينصتوا لشكاوى الفلاحين وليقضوا على أسباب الإضطرابات ، ولكنهم كانوا يقومون بتفسير المراسيم السلطانية لصالحهم وإستخلاص الرشاوى من المتهمين . وعند عمل قوائم الضرائب ، كانوا يبالغون فى عدد الأشخاص المفروض عليهم ضرائب لإغتصاب الأموال لأنفسهم . وعند تعيين النواب كانوا يستخدمون سلطتهم فى تعيين الأشخاص الذين يدفعون أموالاً أكثر للحصول على الوظيفة . وكل هذه التجاوزات قادت الفلاحين إلى الإقتراض من المرابين بمعدل فائدة ٥ ٪ ليستطيعوا الوفاء بالضرائب والإلتزامات ثم تحولوا إلى العمل لديهم بنظام السخرة ثم إلى عبيد .

وقد اضطرت الحكومة العثمانية إلى زيادة قواتها النظامية لتواجه النقص فى أعداد السباهية الإقطاعيين وذلك بزيادة أعداد الجنود الإنكشارية والمجموعات الأخرى التى كانت تتقاضى أجوراً من رجال الخدمة السلطانية وهم سباهية الباب العالى ، وهنا كانت الحاجة إلى مصادر جديدة للتجنيد لأن الأسرى المسيحيين لم يكونوا كافيين لهذا الغرض . وللمرة الأولى تم تجنيد عدد كبير من الرعايا المسلمين فى القوات المسلحة العثمانية وهؤلاء كانوا فى السابق محرومين من الإلتحاق بصفوف الجيش ، وسمح لهم بالإنضمام إلى صفوف الإنكشارية وإلى القوات الإحتياطية المعروفة بالقابى – قولو Kapi - Kulus . وكان هذا يعنى طوفانًا من الفصائل والوحدات العسكرية التى ضمت عناصر جديدة مختلطة مما أثر بعمق فى نظام التدريب وروح العمل فى الفرق العسكرية التى هى أساس الدولة .

ومنذ أن سُمح للانكشارية بالعمل كحرفيين أصبح من حقهم إستبدال مرتباتهم بالمنتجات الحرفية ، كما اندمجوا للمرة الأولى مع الحرفيين المدنيين

فى استانبول وغيرها من المدن ، وأصبحوا تبعًا لذلك من رجال المدن وفقدوا كثيراً من انضباطهم وحماسهم للحرب والقتال . وفى عهد سليمان سمح لهم بالزواج فانتشر بينهم نظام الوراثة مثلهم مثل الإداريين وملاك الأراضى ودخل أبناؤهم إلى الفيالق . وهكذا بعد أن كانت هذه الفرق قاصرة فى البداية على العبيد لجأوا إلى مراوغة قانونية لا تبيح ذلك لأن الشرع الإسلامى لا يسمح بإستعباد المسلم حر المولد . وفى عهد سليم الثانى حددت حصة رسمية لهؤلاء الأبناء ، وفى عهد مراد الرابع انتهى تمامًا التجنيد التقليدى للعبيد المسيحيين سواء للإنكشارية أو لباقى أفراد الخدمة الداخلية للسلطان .

ومنذ نهاية العقد الأخير للقرن السادس عشر فصاعداً أصبحت الانكشارية أكثر ضعفًا مثل السلاطين ، وزادت تمرداتهم وأثاروا القلاقل فى عهد مراد الثالث حينما اعترضوا على العملة الجديدة المخفضة التى كانوا يتقاضون بها مرتباتهم ، واندفعوا لأول مرة فى التاريخ إلى سراى السلطان أثناء انعقاد الديوان وطالبوا بقطع رؤوس الوزراء المسئولين عن هذا الانخفاض . وخلال السنوات الثلاثة التالية قامت الانكشارية بتمردين كبيرين وحققت فيهما مطالبها وهى عزل اثنين من أنجح الصدور العظام فى الدولة . وفى عام ١٥٩٣ قام حرس السلطان من سلاح الفرسان السباهية بثورة واستخدم السلطان الانكشارية هذه المرة لإخمادها حيث كانت السلطات العثمانية تسير على سياسة إثارة المنافسة بين القوتين . ولا شك أن هذه الثورات أثارت الاضطرابات فى أقاليم عديدة فى البلاد . ففى ولاية مولدافيا Moldavia فرضت الانكشارية إرادتها على الحكومة عن طريق الرشوة ، ولما امتنع الوالى عن تسليمهم الجزية السنوية قتلوه وسرقوها .

وفى الأناضول قامت مشكلات عديدة منذ عام ١٥٩٦ بسبب العناصر المتمردة التى عرفت باسم الجيلالية Jelalis (١) ، وكانت هذه المنطقة تزخر بقوة كبيرة من الفرق العسكرية التى كان قوامها عناصر السيخان Sekhans

---

(١) حول الجيلالية . أنظر : محمد فؤاد كوبريلى ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمة د. السعيد سليمان ، القاهرة ١٩٨٠ .

المحلية ، وهم فرق من المشاة والفرسان غير النظاميين والذين تم تسليحهم بالبنادق القديمة وأصبحت تحت سيطرة حكام الولايات ليشكلوا الجيش الرئيسى للولاية . ولما لم يكن لهذه الفرق دخل فى أوقات السلم ومع شعورهم بالغيرة من الإمتيازات التى تحصل عليها الفرق السلطانية ، تحولوا مصدراً للفوضى فى البلاد وطالما أشاعوا الرعب بين الفلاحين وهاجموا أراضيهم فى شكل عصابات من اللصوص .

وقد جذبت عناصر أخرى وهى الجلالية إلى هذا الجيش الإقليمى من العناصر غير النظامية (السيخان) والتركمان والأكراد وغيرهم من القبائل الآسيوية وبعض عناصر من السباهية الإقطاعية ، وقوة كبيرة من الفرق غير النظامية من الفارين من الجيوش فى أوروبا والذين كان يتم معاملتهم كهاربين فى الأناضول . ثم تدعمت قوة الجلالية أكثر حينما انضمت إليها الفرق العسكرية التى أرسلتها السلطات العثمانية الإقليمية لقمع الثورة ، وفى محاولة للقضاء على هذا التمرد قامت الحكومة بتعيين اثنين من القادة من بين قواتها فى المجر ، ولكنهم قاموا بالإنضمام للفصائل المتمردة واغتصبوا الأموال والمتاع من السكان .

وكان أكثر هؤلاء القادة المتمردين كفاءة قرة يازيجى Kara Yaziji الذى جمع حوله قوة كبيرة من الجلالية وصلت إلى عشرات الآلاف من المتمردين ، وهؤلاء أجبروا سكان المدن على دفع الجزية ونجحوا فى السيطرة على عدد من الأقاليم فى وسط الأناضول ، ولما حاولت القوات الحكومية السيطرة عليهم تمركزا فى جنوب شرق الأناضول وقاوموا ببسالة من قلعة أورفا Urfa . وبعد وفاة قرة يازيجى انتشرت الثورة فى الأناضول تحت حكم أخيه دلى حسن Deli Hassan الذى تفاخر بنفسه وحمل لقب شاه وعرف أيضاً « بحسن المجنون » ، وأخذ يردد عبارات تفيد فرضه السيطرة الكاملة على البلاد بعد هزيمة القوات العثمانية ، وعلى إثر ذلك قامت حركة هجرة واسعة عرفت بالهجرة العظمى من جانب الفلاحين الذين فروا من رجال حسن المجنون الذين انتشروا فى جماعات كبيرة فى كل مكان وقاموا بنهب القرى والبحث عن اللاجئين فى القلاع ، كما فر أثرياء الأناضول إلى استانبول والروملل

والقرم . وأخيراً استطاعت الحكومة المركزية إغراء دلى بإلقاء سلاحه فى مقابل أن يصبح حاكماً على البوسنة ، وقد مكنه ذلك من استخدام الفصائل الكبيرة فى أوروبا للقيام بغزوة جديدة ضمت الآسيويين البرابرة ذوى الشعور المسترسلة وأنصاف العراة فنهبوا الروملى وقتلوا المسلمين والمسيحيين على السواء ، ولكن أخيراً تم إبادتهم فى ١٦٠٣ على ضفاف نهر الدانوب بواسطة قوة مجرية .

وبرغم ذلك استمرت الثورات فى الأناضول وفشلت الحكومات المتعاقبة فى إعادة تأكيد سلطاتها عليه ، ونتج عن ذلك انتشار الدمار فى مساحات كبيرة من الأراضى وتحولت إلى أراضى بور مما أدى إلى انتشار المجاعات . فقام قادة الجيش بتملك الأراضى التى هجرها الفلاحون وحولوها إلى إقطاعيات خاصة كبيرة لتربية الماشية ، وبالتالى أحدثوا تغييراً فى النظام التقليدى لإستخدام الأراضى فى الأناضول . وهكذا أجهضت ثورات الجلالية كل الجهود العثمانية لتكوين جيش سلطانى لاستخدامه فى تجديد الحرب ضد فارس ، وقد انتهز الشاه عباس هذه الفرصة وشن هجوماً سريعاً على العثمانيين فى عام ١٦٠٣ ونجح فى إسترداد تبريز ، العاصمة السابقة لوالده ، وكذلك إريفان Erivan وقلعة قارص العثمانية . وخلال خمس سنوات استطاع السيطرة على الأقاليم التى استولى عليها الأتراك فى عهد أسلافه وبذلك انكمش الحكم العثمانى فى القوقاز ، وأعيد السلام إلى هذه المناطق بعد أن تخلى العثمانيون عن غالبية الأقاليم التى كانت فى حوزتهم منذ سلام ١٥٩٠ .

والآن تولى العرش السلطان الرابع منذ وفاة سليمان وهو السلطان أحمد الأول الذى كان يبلغ من العمر أربعة عشرة عاماً ، وهو حفيد مراد الثالث وإبن محمد الثالث . وكان مراد قد شعر بمقدمات الموت عندما أصيب بتقلص حاد فى أمعائه ، فجلس مستلقياً على أريكة فى أحد الأكشاك المطلة على البوسفور يشاهد السفن العابرة ، وفى إحدى المرات أطلقت سفينتان مصريتان النار تحية له فتحطم زجاج قبة الكشك وتناثرت الشظايا حوله ، فاعتبر ذلك طالعاً سيئاً وأذرف الدمع قائلاً : « إن تحية الأسطول العثمانى كله لم تستطع تحطيم هذا الزجاج من قبل » . فأعادوه إلى قصره وتوفى فى

اليوم التالى .

وكانت أول أعمال الإبن محمد الثالث الذى خلف مراد هى شنق أشقائه التسعة عشرة ، وهى أكبر تضحية فى التاريخ العثمانى ، ثم أقام لهم جنازة رسمية مهيبة ودفنهم بإكرام بجانب والدهم فى أكفان مرصعة بالأحجار الكريمة . وفى هذه الأثناء قام أتباع السلطان بقتل ستة من النساء العبيد الحبالى ووضعوهم فى أجولة وألقوهم فى البوسفور حتى لا ينجبن مطالبين بالعرش . والسلطان محمد نفسه قام بقتل إبنه المفضل محمود لأنه توسل إليه أن يجعله على قيادة الجيوش التى تحارب المتمردين فى الأناضول فأثار شكوكه . كما قام السلطان بوضع والدته ووصيفتها فى السجن ليلقوا نفس المصير . وعندما توفى هذا السلطان بعد وقت قصير ، كتبت على شاهد قبره الآية التالية :

قال الله تعالى : « كل من عليها فان إلا وجهه ، وإليه ترجعون » .

وكان محمد الثالث هو الوريث الأخير للعرش ، وتدرب على إدارة شئون الدولة أثناء عمله كحاكم لإحدى الولايات فى حياة والده . ومنذ البداية قام بإبعاد كافة الأمراء إلى القصر السلطانى seraglio ، لخشيته من الثورات ، حيث انعزلوا عن العالم فى مبنى أطلق عليه القفص Cage (١) . وقد وقع هذا السلطان تحت سيطرة والدته وهى محظية والده البندقية بافو . وكان الوزراء يخشون أن يحذو حذو أسلافه ويسير بجيوشه لمحاربة المجر التى امتلكت ثروات متنوعة ، خاصة بعد فقدان مدينة جران Gran وغيرها من المدن العثمانية ، ولكن السلطانة الوالدة قضت على هذا القلق ، وفضلت أن تصرف انتباه إبنها بعدد من المحظيات المختارات بعناية حتى لا يترك استانبول ويخرج من نطاق سيطرتها .

---

(١) تطلق كلمة القفص على القصر الذى يقيم فيه الأمراء مع الجوارى ورجال الحاشية فى عزلة تامة .

أنظر : عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٨١ .

وبرغم ضعف السلطان فقد كانت له مواقف حازمة ؛ ففى صيف عام ١٥٩٦ قرر مواجهة مطالب الانكشارية المتزايدة ، وعدم الإذعان لتحذيرات وزرائه وقاد جيوشه بشجاعة إلى أوروبا حيث خرج وسط جنوده فى موكب عظيم حاملاً راية الرسول (ﷺ) المقدسة التى أحضرت من دمشق خصيصاً لهذا الغرض . وقد حاصرت القوات العثمانية مدينة إلارو Erlau واستولت عليها ، ثم هاجمت قوات العدو فى معركة ميزو - كيرتس - Mezo Keresztes ، وكانت من المعارك الطويلة المتقلبة التى أثارت مخاوف السلطان وجعلته يفكر أن يطلب الانسحاب مع جنوده من موقعه على ظهر جمل ، أو على الأقل ينسحب هو ، ولكن بعد التشاور مع المجلس العسكرى عدل عن رأيه وقرر مواصلة القتال ورفع الراية النبوية ولبس المسوح المقدسة ، ثم إنقلب التيار عندما اخترق المسيحيون الصفوف لسلب معسكر العدو فقام سلاح الفرسان العثمانى بالإنقضاض عليهم وشتت شملهم ، ولحقت لهزيمة بالمسيحية حيث قتل فى هذه المعركة أكثر من ٣٠ ألف ألمانى ومجرى ، وغنم العثمانيون مئات المدافع من خيرة الصناعات . وكان هذا النصر حاسماً إذ حفظ للإمبراطورية العثمانية بلغاريا ومقدونيا ونصف المجر بإستثناء ترانسلفانيا التى ضمت قسماً كبيراً من شمال الدانوب ، وظلت هذه المناطق فى أيدى العثمانيين لعدة قرون .

وبعد عودة السلطان الذى شهد هذا النصر المؤزر فى موكب حافل إلى استانبول ، استرخى وسط الحريم وترك إدارة شئون البلاد لوالدته . وفى نهاية شهر أكتوبر ١٦٠٣ تقابل مع درويش تنبأ له بأنه فى خلال ٥٥ يوماً قد يقع له مصاب ، وفعلاً توفى بعدها بـ ٥٥ يومًا ، وخلفه السلطان الشاب أحمد الذى أحجم عن قتل أخيه مصطفى لأنه كان مجذوبًا والمسلمون يكنون إحترامًا كبيراً لمثل هذه النوعية من البشر . وكان أحمد ، كما ذكر أحد الشعراء الأتراك ، هو الأول من أبناء عثمان الذى تجرى له عملية ختان بعد جلوسه على العرش ، كما أنه أصيب بمرض الجدرى بعد فترة قصيرة ، مما أدى إلى اختصار الاحتفالات المعتادة لعيد الفطر . وبعد شفائه أظهر بعض العناد والصلابة فى شبابه ، فعندما رفض الصدر الأعظم أن يخرج على رأس حملة عسكرية إلى المجر إلا بعد الحصول على منحة مالية كبرى من الخزينة

السلطانية ، أرسل له السلطان رسالة قال فيها : « إذا كنت حريصًا على حياتك فاخرج فوراً بالحملة » . وعندما اشتكت الانكشارية والسباهية من تأخر رواتبها وسوء معاملة قادتهم ارتدى السلطان الشاب ثياباً قرمزية اللون - كما فعل الخليفة هارون الرشيد من قبل - وجمع كبار الضباط أمامه وساق المذنبين منهم وقال لهم : « لماذا لا تصدقونني ؟ لماذا تسمحون لأنفسكم بإهانة بابى العالى ؟ وبعد فترة صمت أجاب أحد الأغوات قائلاً : إن هؤلاء المذنبين ليسوا عبيد السلطان ولكنهم من الغرباء الذين جندوا فى القوة العسكرية لأغراض الحماية وبناء على أوامر السلطان . وبالفعل تم التعرف عليهم وإعدامهم فوراً ، ثم أمر السلطان رؤساءهم بنقل الجثث وهدد من يخرج على طاعته بالإعدام » .

وأمام هذه المواقف تراجع السلطان عن وعده بإرسال حملة عسكرية إلى فارس وإقتراح تأجيلها أمام الديوان فى مايو ١٦٠٦ بعد أن تجمعت الجيوش العثمانية بالفعل فى سكوتارى Scutari . وقد أصاب هذا الإقتراح أعضاء الديوان بالصمت الممزوج بالدهشة ثم اعترض المفتى قائلاً : « كيف تنسحب القوات العسكرية بعد أن شاهدها العالم وهى على السواحل الآسيوية ، فاقترح السلطان أن تقوم حملة محدودة بجزء من الجيش بقيادة فرهاد باشا ، فطلب المفتى أن يوفر السلطان المال اللازم للحملة من أمواله الخاصة ، كما فعل السلطان سليمان فى حملته الأخيرة إذ كانت الخزينة العامة خاوية ، ورد أحمد بأن الزمن قد تغير وأن ما كان ضرورياً فى الماضى لم يعد مناسباً الآن ، ثم انصرف الديوان . وبناء عليه تقدم فرهاد باشا المعروف بفرهاد الأرعن بقوة عسكرية إلى آسيا ولكن بدون أموال كافية للإمدادات ، ولذلك واجه تمرداً بين صفوف الانكشارية الذين تأثروا بعصابات المتمردين التى اخترقت صفوفهم . وبخلاف ذلك لم يقم السلطان أحمد بأعمال مهمة خلال فترة حكمه ، وكان يسئ إختيار مستشاريه ، وكثيراً ما بدل وزراءه ومستشاريه بناء على وصية الحريم ، وكما سجل أحد الإيطاليين المعاصرين « لا يعلم أحد حقيقة من هو السلطان » . وكان تأثير موظفى القصر قوياً عليه وخاصة رئيس الطواشى السود الذى كان له قصراً يشابه قصر سيده ، كما تزوجت كثيرات من الجوارى من أسرة السلطان ومن الموظفين الرسميين ، ومن خلال هذه

العلاقة تمكن من اغتصاب الأراضي والسيطرة على مرافق الخدمات العامة فى الإمبراطورية .

وتوفى السلطان أحمد الأول فى عام ١٦١٧ عن سبعة وعشرين عاماً ، ويعد آخر الأجيال الأربعة عشرة من السلاطين العثمانيين الذين توارثوا حكم الإمبراطورية من الأب إلى الإبن ، وخلفه أخوه الأحمق مصطفى الأول الذى أحضر من محبسه فى سراى السلطان بعد أن قضى به أربعة عشر عاماً تحول خلاله إلى درويش أو إلى حالة بين الجنون والحماقة . ومن حماقاته خلال فترة الحبس أنه كان يلقى النقود الذهبية للأسماك فى البوسفور بدلاً من الخبز ، ولكن أبطل الديوان هذه العادة بناء على رغبة رئيس الطواشى السود الذى اقترح توفير الذهب للانكشارية عند إعتلائه العرش . وكان السلطان أحمد يرغب فى الاحتفاظ بالخلافة المباشرة لإبنيه الذين أنجبهما من صلبه ، ويخبرنا المؤرخ ريتشارد نولز Richard Knolles أنه حاول مرتين قتل شقيقه مصطفى ولكنه فشل . وكانت المرة الأولى عندما رأى فى ليلة القتل أحلاماً مزعجة ، والمرة الثانية عندما أثارته رؤية شقيقه يسير فى حديقة السراى وسط الحرس فرفع القوس والوتر إستعداداً للقتل ولكنه دهمته آلاماً عظيمة فى ذراعه وكتفه جعلته يمتنع عن القتل ، وانتهى إلى أن الرسول (ﷺ) لا يريد موت مصطفى . وعندما اعتلى السلطان الجديد العرش بعد أن أفسده سجنه الطويل بدا واضحاً للوهلة الأولى أنه ليس كفؤاً للحكم ، فتم تنحيته وإعادته إلى مكانه ، وخلفه إبن أخيه أحمد البالغ من العمر أربعة عشرة سنة وإسمه عثمان . وقد استاءت الانكشارية لعزل مصطفى لأنهم كانوا يتحكمون فى العاصمة فى عهده واستفادوا من منحتين ماليتين كبيرتين خلال ثلاثة أشهر .

وكان السلطان الشاب عثمان يحلم بإعادة أمجاد الإمبراطورية بالسير على نهج جده السلطان سليمان القانونى ، وكان ماهراً فى استخدام الأسلحة وفى استعراض مهاراته فى الرمى باستخدام أسرى الحرب أو العبيد كأهداف بشرية . وبرغم أن السلام النسبى كان متوفراً فى الجبهات الأوروبية ، فإن السلطان الجديد صمم ، بخلاف مشورة وزرائه ، على شن الحرب ضد بولندا . وكانت الأسباب هى تكرار المنازعات الحدودية وسرقة العبيد والماشية من جانب أتباع

السلطان التتار والقوچاق فى أوكرانيا وهم من الرعايا البولنديين . وعندما تحقق النصر العثمانى المبدئى تشجع عثمان وجمع جيشاً أكبر من أى جيش آخر منذ حكم سليمان ، وارتدى لباساً يخص أجداده وقاد الجيش من أدرنة وعبر الدانوب متوجهاً إلى ضفاف نهر الدنيستر ، وكان مساراً شاقاً تخلله الطقس الشتوى السيء وهجمات المرتزقة المتمردين وغيرها من الكوارث . وبعد أن أقام السلطان جسراً عبر النهر شن مجموعة من الهجمات غير الناجحة على قلعة خوتزيم Choczim الحصينة التى كانت مجهزة جيداً للدفاع . وكما عبر نولز عن المعركة قائلاً : « كان جند السلطان يفضلون الموت جوعاً على مواجهة العدو » . حتى السلطان نفسه ، برغم إستعداده التام للمخاطرة بحياته في المعركة ، فإنه لن يتمكن بخلاف أسلافه من دفع الجنود على مواصلة القتال ، وبالتالى أجبر على الانسحاب بخسائر ثقيلة ، والدخول فى مفاوضات السلام مع البولنديين . وعندما عاد إلى استانبول أعلن أنه انتصر ، ولكن ذكر التقرير المرسل إلى لندن أن السلطان دخل المدينة في أول يناير مرتدياً الثياب العادية وبدون أى مظهر من مظاهر الاحتفال . وكانت الخسائر فادحة فى الجانب العثمانى وخاصة فى الخيول .

وقد ابتعد عثمان عن الانكشارية ، ليس فقط لفشلهم فى المعركة ولكن للخطأ الجوهرى الذى ارتكبوه وهو الجشع الذى تميزوا به ومحاولتهم استنزاف موارد الخزينة مدعين تدني مستويات الأجور التى يتقاضونها ، فقد اشتكو على سبيل المثال من أن المكافأة التى كانوا يحصلون عليها نظير قتل أحد الأعداء (على كل رأس) لا تزيد على دوكاً واحداً ، وفى مقابلها كان الجندى معرضاً لقطع رأسه .

كذلك ساءهم أن يتعسس السلطان فى شوارع المدينة متنكراً مع قلة من موظفى القصر ، وهم فى ذلك مثل بقية الرعية ، فى محاولة لإكتشاف الخارجين على القانون فى شرب الخمر والتدخين ، آمراً بالقبض عليهم وفرض العقوبات على المعترضين ، وكما ذكروا كان يحدق في البيوت والحانات مثل الضابط التافه وفي إحدى جولاته ضبط رئيس البوستناجية الذى كان قد هرب إلى ثكنات الانكشارية والسباهية الواقعة على البوسفور وأخذ يحتسى الخمر معهم فعاقبهم بأن جعلهم جميعاً عبيداً فى السفن الراسية هناك.

لقد كانت الانكشارية لقرون عدة السلاح الفعال فى القوات العثمانية وفى غزوات الإمبراطورية ، ولكنهم أصبحوا الآن يتميزون بالجشع والفساد وعدم الانضباط فى الحروب الخارجية وبالرغبة فى التدمير داخل البلاد . وقد اكتسبوا أيضاً شهرة سيئة فى ميادين القتال مع الجيوش الأجنبية الحديثة من حيث الضعف والجبن والتراخى . وقد لاحظ الأعداء أن فرق الانكشارية لازالت تتميز بحدة البصر وبسرعة التحرك ولكن فقط لإدراك اللحظة التى يظهر فيها السباهية التردد فيفرون بأقصى سرعة ممكنة من ميدان القتال ، وفى العاصمة حيث السلاطين غير الأكفاء يتتابعون ويقعون فريسة للحريم السلطانى الفاسد ، يتعاظم دور الانكشارية وتصبح قوة جبارة محرضة على العصيان .

وقد اتجه السلطان عثمان ذو الثمانية عشر عامًا إلى إبداء الرغبة فى التخلص من نفوذ هؤلاء العبيد ، فلجأ إلى بعض المستشارين المعروفين بدعمهم للإصلاح فنصحوه بإتباع خطة محكمة تعتمد على تكليف حاكم إقليم دياربكر وهو دلاوار باشا ، المشهور بالشجاع ، والذى كان يتمتع بإحترام كبير فى الأقاليم الآسيوية ، بتجنيد عدداً من السكان الأقوياء بمعاونة حكام الأقاليم من أجل تكوين جيش آسيوى ضخم يصبح ميليشيا جديدة للسلطان . ولكى يقيم التوازن بين الجيش الجديد وقوات استانبول جند السلطان كان المفروض ألا يقل هذا الجيش عن أربعين ألف رجل من بينهم عناصر من الأكراد وقوات محاربة من القبائل المختلفة بالإضافة إلى وحدات مدربة تدريباً جيداً من المرتزقة من مصر وسوريا . وعند إنتهاء جمع هذا الجيش كان على السلطان أن يتوجه إلى آسيا ثم يعود به إلى العاصمة لقمع الانكشارية والسباهية .

وكتغطية لهذه العملية أعلن فى ربيع ١٦٢٢ أن السلطان سيرحل مع حاشيته إلى مكة لأداء فريضة الحج ، بينما كان مزمعًا التقدم إلى دمشق فى سوريا لقمع عصيان الدروز . ولكن لسوء حظ عثمان ولعدم خبرته وعدم اتخاذ الحيطة الكافية لمثل هذه المغامرة الطموحة والتى كان ينبغى أن تعتمد على السرية التامة ، إنقسمت آراء وزرائه حولها ، كما اعترض المفتى الأكبر على سفر السلطان إلى مكة ، وارتابت الانكشارية والسباهية فى الدوافع البعيدة

للرحلة خاصة بعد أن صدرت الأوامر بنقل الخيام السلطانية إلى آسيا . وفى الحقيقة كان السلطان يستعد بالفعل لنقل كافة مجوهراته وكنوزه وكل ما يمكن تحويله إلى سبائك . وهنا قرروا القيام بثورة فاجتمعوا فى ميدان الخيل وأرسلوا طلبًا إلى السلطان بتسليم الوزراء ، وعندما رفض اقتحموا قصور الصدر الأعظم والوزراء ونهبوها ، وقد أذعن لهم السلطان ووعدهم بالتخلى عن رحلته إلى آسيا ، ولكنهم دخلوا إلى القصر السلطانى نفسه الذى دافع عنه الحراس بهدف مهاجمة شخص السلطان العالى ذاته . ثم صاحوا بعد أن تجمعوا بالحبال فى فناء القصر مطالبين بمصطفى سلطانًا عليهم ، وأيدهم الباقون ، ودخلوا إلى جميع أجنحة القصر بحثًا عنه ، ثم اقتحموا بوابات الحريم السلطانى بالحبال فوجدوا مصطفى الأحمق فى سرداب حيث كان لثلاثة أيام بدون طعام أو شراب بصحبة اثنين من العبيد السود . وبعد أن أحضروا له الماء حملوه ليعتلى العرش كسلطان ، ولكن سرعان ما اندفع الصدر الأعظم ورئيس الطوشى السود إلى أبواب الحريم السلطانى لقمع المتمردين ، ولكن كان مصيرهم القتل . ثم أخذت السلطانة الوالدة تسترضى إبنها مصطفى وتشجعه ثم شكلت حكومة جديدة بإسمه .

وواصلت الانكشارية والسباهية الثائرة بحثها عن السلطان عثمان الذى كان قد فر من القصر وعثر عليه فى مخبأه فى هيئة مثيرة للشفقة حيث كان يرتدى سترة تحتية وقلنسوه خفيفة ، أعطاه أحد السباهية عمامته وأركبته فرساً صغيراً وساروا به وسط إهانات الانكشارية الساخرة . وفى الطريق مروا فوق جثة الصدر الأعظم السابق حسين المفضل لديه والذى قطع الثوار رأسه ، وهنا صاح عثمان : « إنه برئ ، وإذا كنت اتبعت مشورته ما وقعت فى هذه المحنة أبداً . ثم خاطب المتمردين قائلاً : ماذا تريدون أن تفعلوا معى ؟ إنكم ستدمرون الإمبراطورية وتقضون على أنفسكم ثم أزاح عمامته والتفت ناحية قواده وتوسل إليهم قائلاً : « سامحونى إذا كنت قد أسأت إليكم بغير قصد ، بالأمس كنت سلطانًا واليوم أنا ذليل . فأنتم أيضًا قد تعانون من تقلبات الدهر » . وفى حضور السلطانة الوالدة والصدر الأعظم الجديد دافع عن نفسه عندما هددوه بالقوس وطلب السماح له بمخاطبة رجاله والمتمردين ، ففتحت النوافذ وألقى السلطان الشاب خطابه الرسمى الأخير قائلاً : « أغوات

السباهية ، قادة الانكشارية يا من كنتم أبائى ، مع حماقة شاب صغير استمعت لنصائح سيئة وأخطأت فلماذا تحقرونني بهذه الطريقة ؟ ألا تريدونني ؟ » فصاح الجميع لا نريد حكمك ولا دمك ، ثم قادوه إلى سجن الأبراج السبعة حيث سقط من شدة الإعياء . وبعد فترة قصيرة أيقظه داود باشا بقسوة مع ثلاثة من رجاله حيث أجهزوا عليه . وقد كان قوياً ودافع عن نفسه ، ولكنه كما ذكر سيرتوماس رو Sir Thomas Roe : « تلقى ضربة قوية فى الرأس ووثب الباقون فوقه وخنقوه فى الحال » وبعد ذلك قطعت إحدى أذنيه وأرسلت إلى السلطانة الوالدة التى فوضتهم فى إعدامه. ودفن فى مساء نفس اليوم ، وبرغم أن قتل الأخوة كان شيئاً مألوفًا فإن هذه هى المرة الأولى التى يقتل فيها سلطان وتلطخ دماؤه الحوليات العثمانية الإمبراطورية . وكما ذكر رو Roe « إنه أول إمبراطور يقتل وهذه علامة على إنحدارهم » .

الفصل العشرون

ساد الانكشارية والسباهية شعور بالحزن بعد مقتل عثمان ، وكادوا يشعلون ثورة هادرة وهم يندبون السلطان لولا أن وجهوا بمقاومة وأبعدوا ففقدوا سيطرتهم على الثورة وهدأو ، وبدأوا فى البحث عن مصالحهم مع السلطان الجديد الأحمق . وقد أدرك مصطفى الحقيقة ببطء واضح ثم عبر عن حزنه على موت عثمان ، وأصدر قراراً بضرورة معاقبة القتلة ، ولكنه بعد وقت قصير نسى أن عثمان قد مات وأخذ يبحث عنه فى السراى السلطانية طارقًا الأبواب وطالبًا من ابن أخيه أن ينقذه من عبء السلطنة . ونظراً لعجزه عن إدارة دفة الحكم لم يلبث فى السلطة سوى خمسة عشرة شهراً . وقد ألهم هذا الوضع السير روكى يتنبأ : « لا أستطيع القول أكثر من أن المرض الذى تفشى داخلياً سيقوض بنيان هذه الإمبراطورية ، فنحن نتوقع يومياً تغيرات أكثر مع إراقة للدماء . فالرجال الحكماء لا يستطيعون الوقوف فى وجه العاصفة والحمقى يفعلون ما يحلو لهم ، إلا إذا ظهرت يد قادرة على اغتنام الفرصة فلن تكون هناك فريسة سهلة بعد اليوم » . وكتب ثانية : « لقد أصبحت الإمبراطورية مثل الجسد العجوز المليئ بالأمراض من كثرة النوائب ، وتظل مثل هذه التصدعات مع انتهاء عصر الشباب والقوة » . ومع ذلك فقد مر قرنان ونصف قبل أن يوصف هذا الجسد العجوز برجل أوروبا المريض The Sick Man of Europe (١) .

والآن أصبحت الأداة المؤثرة فى الحكومة العثمانية هى السلطانة الوالدة ، إذ كانت القوة المحركة لعرش إبنها ، بالإضافة إلى الجند المنقسمين على أنفسهم . وأصبحت الوظائف الرسمية الكبرى لا تأتى إلا عن طريق الدسائس من أحد الحزبين القائمين ، أو عن طريق الأهواء الشخصية أو الشراء . كما أصبح الوزراء مسرفين فى عروضهم ورشاويهم للحزب ، وفى المبالغ المقدمة

---

(١) يعتبر القيصر الروسى نيقولا الأول (١٨٢٥ - ١٨٥٥) ، هو أول من أطلق هذا التعبير على الدولة العثمانية خلال القرن التاسع عشر .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر ، دار المعرفة الجامعية ٢٠٠٠ م ، ص ٢١١ .

للانكشارية والسباهية . وقد تعاقب كبار الوزراء فى المناصب الواحد بعد الآخر بعد عزل داود باشا الذى اتهمته القوة العسكرية بتدبير إعدام عثمان ، ثم خلفه مير حسين باشا الألبانى والذى اشتهر بالطغيان والاستبداد وكان فى بدء حياته طاهياً ثم صار حاكماً مغتصباً فى مصر ، وفى فترتى حكمه قام بتأليب الانكشارية على السباهية بمنحهم إمتيازت كثيرة وحصص فى النفقات العامة ، وأخيراً فتح لهم مخازن السلطان قائلاً : « خذوا ما تريدونه من اللحوم والحلوى وكل ما تحتاجونه ، إن السلطان ثرى بما يكفى » . ثم قامت السباهية بدورها بالتمرد وطالبت حسين باشا بصهر كافة الأوانى الذهبية وإعطائها لهم ، وأصبحت العاصمة استانبول تموج بالفتن وعمليات السلب والنهب والاغتيال بعد أن كانت تحكم بيد من حديد .

وعندما اجتمعت الانكشارية والسباهية ضد حسين ، ظهرت السلطانة المنقبة أمامهم بشكل يخالف تعاليم القرآن لتسألهم عن أى هؤلاء المرشحين يفضلون ليصبح الصدر الأعظم ، ولكنهم اعترضوا عليهم جميعًا فتم تولية أحد الأشخاص كانت زوجته تعمل مربية للسلطان ، فثاروا وطالبوا بعزله بحجة أنه كان يعمل سائقاً للحمير ومؤذناً فى مسجد أياصوفيا ومسجد السلطان وتم استبداله بآخر ، ويعد ثالث صدر أعظم خلال أربعة شهور يتم عزله عن طريق النزعات الاستبدادية للجند . وكان فى هذا التصرف دلالة على عودة نفوذ حسين الذى استهلك الكنوز العامة سريعًا وابتز أموال رجاله بشكل صارخ حتى يرضى حزبه من الانكشارية والذين شعروا بالقلق من هذه الأموال وخشوا من أن يكون فيها دمارهم .

وبعد وقت قصير من إعدام عثمان حدثت أزمة نتيجة التمرد الذى وقع فى آسيا من جانب والى أرضروم Erzurum ، أباظة محمد باشا ، بهدف الانتقام لموت السلطان ، إذ كانت الانكشارية تعتبره حليفًا للسلطان وصاحب خطة إنشاء جيش آسيوى لقهرهم . وقد استطاع أباظة بما تحت يديه من قوة كبيرة من الجند غير النظاميين وبمساندة القوات المتمردة فى المدينة ، السيطرة على معظم وسط وشرق الأناضول ، وأقام مذابح عديدة للقوات التابعة للسلطان لخمس سنوات تالية . وفى استانبول حاول رجال الدين (العلماء)

القيام بثورة ، فعقدت السلطات المدنية والعسكرية مجلساً للتشاور فى أمر تعيين صدر أعظم جديد ، واستقر الأمر على على باشا الذى اشتهر بالنزاهة والأمانة ، ثم طالب أعضاء المجلس مصطفى المجنون بالتنازل عن العرش ، وتنازل وهو سعيد جداً ، كما قالوا ، واختير شقيقه الأصغر مراد ليصبح سلطانًا ، وقد لقى هذا الاختيار قبولاً من جانب الانكشارية والسباهية ويستدل على ذلك من تنازلهم عن المنح المخصصة لهم عند إعتلاء السلطان الجديد العرش بسبب عجز الخزينة العامة للبلاد .

وفى عام ١٦٢٣ دخل السلطان الجديد مراد الرابع استانبول فى احتفال مهيب ، وكان يبلغ من العمر أربعة عشرة عاماً وتنقصه الخبرة ، وتميز بالبدانة وحسن المحيا . وحينما يسود الهدوء والانضباط تكون الإمبراطورية فى حاجة إلى سلطان قوى وقادر على الحفاظ على سيادتها ومجدها ، ولكن فى أوقات الشدة تكون الحاجة ماسة إلى طاغية يستطيع مواجهة تمرد القوات المسلحة ويؤكد إحترام سيادة القانون . وكان مراد الرابع عند نضوجه كما تصوره الشعب العثمانى مثالاً للقوة أو كما أطلق عليه نيرون عثمانى An Ottoman Nero(١) . ووصفه أوليا چلبى Evliya Chelebi ، الكاتب والرحالة العثمانى اليقظ والذى كان مفضلاً فى البلاط السلطانى ، بقوله : « كان مراد هو أكثر السلاطين العثمانيين دموية » . وقد تضرع مراد إلى الله ، أثناء وجوده فى جامع أيوب (٢) لإتمام مراسم تقلد السلطة وقبل التوجه إلى القصر السلطانى ، أن تكون خدماته مقبولة من الله ومن الناس ، ثم توجه بعد ذلك ، وفقًا للتقليد المتبع إلى الخزينة السلطانية ، وكما سجل لنا أوليا الأمر :

---

(١) نيرون هو الإمبراطور الرومانى الذى حكم من عام ٥٤ إلى ٦٨ م ، وتميز بالقسوة والعنف وقتل والدته أجريفين ، واضطهدت زوجته أوكتافيا المسيحيين ، واتهم بحرق روما ، ومات منتحراً فى أعقاب ثورة عسكرية ضده .

أنظر : La Rousse , p . 1556

(٢) جامع أيوب نسبة إلى الصحابى أبى أيوب الأنصارى الذى أقيم بالقرب من استانبول ، وكانت المراسم السلطانية تقام فيه فى بداية الدولة .

أنظر : عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ ١ .

« لم تكن هناك أوعية ذهبية ، ولكن وجدت ستة أكياس من النقود أى (٣٠,٠٠٠ قرشاً) ، وحقيبة بها مرجان ومجموعة من الخزف الصينى . وهنا أجهش السلطان بالبكاء ، وتضرع إلى الله قائلاً : إن شاء الله ، وبإذنه سوف أعيد ملأ هذه الخزينة من ثروة الذين اغتصبوها ، وسأنشىء خمسين خزينة أخرى إضافية » .

وكانت الاعتمادات المالية متدنية لدرجة جعلت الوزراء يحاولون التقرب لبعض السفراء الأجانب لطلب القروض بعد أن كانوا يجبرون على دفع لجزية فى الماضى . وقد تبرع مراد بمبلغ ٣,٠٤٠ كيساً من النقود من خزينته الخاصة لتوزع على الانكشارية بعد شهر من توليه العرش ، بغض النظر عن حقيقة أنهم وافقوا من قبل على التنازل عنها . وقد مر عقد من الزمان تقريباً ليصبح السلطان الجديد قادراً على إدارة شئون السلطنة ، وكانت والدته خوتزيم Kösem اليونانية الأصل ، تدير هذه الشئون فى صغره بقدرة وكفاءة . وبرغم إدارتها الحازمة ، إلا أنها عجزت عن كبح جماح الجنود المارقين والقضاء على فساد الموظفين الرسميين .

وفى الخارج ظلت آسيا تتنازعها القلاقل والحرب الأهلية ، واستولى الفرس على بغداد وإقليم أريفان ، وتمردت القبائل فى لبنان ، واهتز ولاء حكام مصر وأقاليم أخرى وتدعم إستقلال ولايات البربر (الشمال الأفريقى) وثار تتار القرم وأسروا العديد من العثمانيين وباعوهم فى الأسواق بسعر متدنى مثل البوظة Boza (١). بينما قام القوچاق الغزاة بغارات على سواحل البحر الأسود ودخلوا إلى البوسفور وهددوا الحدود الخارجية للعاصمة نفسها . وبقيت بعض المظاهر الخارجية للسلطة التقليدية أمام الصبى مراد الذى وصل إلى مرحلة كافية من النضوج جعلته قادراً على التعرف على دقائق الأمور وملاحظة نمو الأحداث بعين ثاقبة متطلعة إلى مستقبل بلاده .

ويقول أوليا چلبى أن الأمير أصبح رجلاً صلبًا قوى الإرادة بشكل لم يعهد فى أمير من قبل ، كما كان مهاباً من أعدائه إلى درجة كبيرة ، وأن

---

(١) نوع من النبيذ شاع عند القبچاق .

هناك أساطير تحدثت عن قوته البدنية ، فقيل أنه يقذف السهم فى قوة طلقة الرصاصة ليستقر فى لوحة معدنية سمكها أربعة بوصات ، وأنه كان رماحًا ماهرًا لدرجة أنه كان يستطيع بسهولة أن يخرق ترسًا مصنوعًا من جلود عشرة جمال . كما أثبت كفاءته فى رمى الحربة حتى أنه قتل غرابًا يقف على مئذنة على بعد ميل . وفى مجال الفروسية كان ماهرًا فى القفز من جواد لآخر أثناء العدو وكان يتدرب على هذه المهارات يوميًا فى الاستاد متباهيًا بقوة عضلاته ، وكان مصارعًا قويًا مثل الرسول (ﷺ) . وأضاف أوليا أنه رأى السلطان ذات مرة يلتقط اثنين من حاملى السيوف ويرفعهم فوق رأسه ثم يدفعهم بقوة واحدًا ناحية اليمين والآخر ناحية اليسار . وفى إحدى المرات ، وقع أوليا نفسه كضحية له على سبيل المرح فقال : « لقد أمسكنى كالصقر من حزامى ، ورفعنى فوق رأسه ، وأخذ يدور بى بسرعة كطفل » ، وأخيرًا تركه وهو يضحك وكافأه بـ ٤٨ قطعة ذهبية .

وسرعان ما انقلبت هذه الألعاب الأكروباتية لتأخذ منحى القتل ؛ ففى عام ١٦٣٢ ظلت السباهية السلطانية تعقد إجتماعات لثلاثة أيام متوالية بينما أغلقت الحوانيت أبوابها وساد الفزع فى المدينة والقصر السلطانى ذاته . ثم اندفع المتمردون مطالبين برأس سبعة عشرة موظفًا من المفضلين لدى السلطان من بينهم الصدر الأعظم حافظ باشا والمفتى . وكان حافظ صهرًا لمراد وملازمًا له ، وقام بتعظيمه ببعض القصائد الشعرية فى الحملة الأخيرة . وقد قذفه المتمـردون بالحجارة وأجبروه على الترجل أثناء ذهابه إلى حضور جلسة الديوان ، ولم ينقذه سوى بعض أصدقائه فقام بتسليم أختامه إليهم ، وهرب مستقلاً قاربًا من بوابة المياه فى القصر السلطانى متوجهًا إلى سكوتارى . ثم توجه المتمردون بعد ذلك إلى ساحة القصر وتسلقوا الأسوار حتى وصلوا إلى بهو الديوان ، وصمموا على أن يعقد السلطان جلسة الديوان أمامهم . وقد وقف السلطان بشجاعة لمواجهة المتمردين وسألهم عن مطالبهم ، فالتفوا حوله مطالبين بتسليم الخونة السبعة عشرة لتمزيقهم ، وهددوه بإثارة الاضطرابات إذا رفض . وأمام الهرج والمرج الواقع أجابهم السلطان : بشموخ : « أنتم غير قادرين على سماعى ، لماذا جئتم إلى هنا ؟ » . وكان حول السلطان عبيده فانسحب وتبعه الجند إلى بوابة الساحة الداخلية وسط الضجيج والتهديد . وقد حث الوزير الجديد ، رجب باشا ، السلطان على الإستجابة لمطالب الثوار

حتى تهدأ الثورة قائلاً : « من الأفضل تسليم رأس الصدر الأعظم بدلاً من رأس السلطان » . وتقبل مراد الهزيمة على مضض ، وأرسل في طلب صديقه حافظ الذى قابله عند بوابة المياه ، واعتلى المنصة وألقى خطبة أمام الانكشارية والسباهية وتوسل إليهم ألا يدنسوا شرف الخلافة بأعمالهم المتعطشة للدماء . ثم توجه إلى السلطان قائلاً : « سيدى السلطان ، دع آلاف العبيد مثل حافظ يموتون من أجل سلامة عرشكم ، ولكنني أتوسل إليك ألا تقتلنى بيديك ، ولكن سلمنى إلى هؤلاء الحمقى حتى أموت شهيداً ويسقط دمى البرئ فوق رؤوسهم » . ثم جثا على الأرض وقبلها وصلى ، وتقدم بخطى جادة ناحية قاتليه ، وقاوم أول مهاجم بضربة في الرأس ، ثم انقض الآخرون عليه بخناجرهم ، وقفزت الانكشارية فوق صدره وطعنته سبعة عشرة طعنة ، ثم قطعت رأسه ، وبعدها قام العبيد في السراى بتغطية الجثة بكفن من الحرير الأخضر تمهيداً لدفنه .

ودمعت عينا السلطان عندما رأى الأداء البطولى لصديقه وعاد إلى قصره ، وأعلن للجميع : « إن شاء الله ، سوف تعانون انتقاماً مريراً أيها القتلة المغمورون لأنكم لا تخشون الله ولا تخجلون من الرسول ﷺ » . وبعد أن انتهى من كلمته طالب المتمردون بعزل المفتى ، ثم استمروا غلناً فى مناقشة عزل مراد نفسه . ولكن انقسمت صفوفهم ليس فقط كما حدث فى الماضى بين الانكشارية والسباهية ، ولكن بين المتطرفين وفرقة صغيرة من المعتدلين ، واصطدموا بعدد من عصابات قطع الطرق الذين سرعان ما جمعوا سيوفهم ووقفوا إلى جانب السلطان .

وقد إعتزم مراد أتباع سياسة « قاتل أو مقتول » بعد أن هزته الإهانة والتعطش إلى الانتقام ، ولكنه خشى أن يلقى مصير عثمان . وقد أدرك أن القوة الغادرة وراء الثورة كانت ممثلة فى شخص رجب باشا الصدر الأعظم خليفة حافظ والذى دبر عملية استسلامه . وفى أحد الأيام بينما كان رجب عائداً إلى بيته بعد جلسة الديوان قابله مسئول حجرة السلطان (١) ، واستدعاه

---

(١) هو أحد رجال الخدمة الداخلية فى القصر السلطانى .

أنظر : جب ، بوون ، المجتمع الإسلامى ١٩٧١ / جـ٢ ، القاهرة .

للقصر ، وهناك حيث توقع أن يقابله السلطان ، فوجئ بنفسه فى حجرة مليئة بالطواشى السود فقط ، ثم اقتيد إلى حجرة ملحقة . وسار ببطء وهو يعرج نتيجة معاناته من مرض النقرس ، حتى دخل ، فأمره السلطان قائلاً : « تعال هنا أيها الأعرج المتمرد.» ، ودون الالتفات إلى دفاعه عن نفسه ، أكمل قائلاً : « أبحث عن مياه الوضوء أيها الكافر » ، وقبل أن يسمع الرد ، أمر الخصيان : « أقطعوا رأس الخائن بسرعة » ، ثم دفعت جثته خارج بوابة القصر ليراها المتمردون المصاحبون لرجب باشا فتفرقوا يصاحبهم التحذيرات .

وبمقتل رجب باشا استقر حكم مراد الرابع ، وأصبح محرراً من قيد وزرائه ووالدته ، فقد قضى على رأس السلطة المدنية ، وأصبح عليه أن يتجه ناحية الفرق العسكرية ليقضى على طغيانها . ومن أجل هذا استدعى الديوان للإنعقاد فى الكشك الواقع على حافة البوسفور ، واعتلى العرش محاطاً بحرسه الأوفياء وبحضور المفتى والقضاة وكبار موظفى الدولة والقادة العسكريين الذين ساندوه ضد المتمردين ، ثم استدعى وفداً من السباهية ، وتحدث إلى الانكشارية الذين وقفوا أمامه حديثًا مستوحيًا من القرآن ، طالبهم فيه أن يكفوا عن حماية المتمردين من فرق السباهية ، وهنا صرخوا مظهرين ولاءهم : « نحن عبيد السلطان ، نحن لا نحمى المتمردين ، وأعداؤهم أعداؤنا » . وأقسموا يمين الولاء على المصحف الشريف الذى انتقل من يد لأخرى . ثم وجه السلطان خطابه بعد ذلك لكبار السباهية الذين وصلوا كمندوبين أمام الديوان قائلاً : « أنتم أيها السباهية ، أنتم فرق منفصلة ، مما يجعل من الصعب عليكم فهم معنى العدالة . إن عددكم ٤٠ ألفًا ، وأنتم جميعًا تريدون مناصب ، رغم أن عدد المناصب المتاحة لا يزيد على ٥٠٠ فى جميع أنحاء الإمبراطورية كلها ، لقد أرهقت طلباتكم البلاد ، وأدت إبتزازاتكم إلى التقليل من خيراتها . وقد زادت أعداد الساخطين بينكم من الذين رفضوا الإستماع لنصائح الكبار وحكماء الفرق ، وبالتالى صرفوا إهتمامهم لإثارة الناس ، فخلقتم لأنفسكم سمعة سيئة بين الناس كطغاة ومتمردين » .

وبعد سماع الخطبة أصر كبار السباهية أنهم كانو يدينون بالولاء للسلطان ، ولكن ليس فى مقدورهم التحكم فى كافة المراتب والطبقات

فطلب السلطان منهم تسليم رؤوس المتمردين إليه ، وأن يقسموا يمين الولاء كما فعلت الانكشارية ، فأطاعوا أوامره . وأخيراً استدعى السلطان القضاة للمثول أمامه ، وقال لكبرائهم : « أنتم مهتمون ببيع العدالة بالأموال ، وبتدمير رعايا الدولة » ، وهنا أجابوا بأنه لا يوجد منهم من قام بتدمير الناس ، ولكنهم عجزوا عن تأمين العدالة بسبب عنف السباهية وقسوتها فى جمع الضرائب . ثم أعلن أحد القضاة من الروملِّلى بأن محكمته تعرضت للهجوم العنيف ، وكذلك تعرض منزله للنهب لأنه حاول منع إبتزازات السباهية . ثم وقف أحد القضاة العرب من آسيا ، وسحب سيفه قائلاً : « سيدى السلطان ، إن العلاج الوحيد لهذه الفوضى هو السيف » . وتأكدت هذه الشجاعة بالقسم ، ووقع الجميع على مرسوم يلزمهم بقمع الفوضى وإعادة الأمن العام .

وتبعت الأقوال الأفعال ، وأدى حكم مراد المليئ بالإرهاب إلى وضع حد للفوضى العسكرية ، فكان يأمر رجاله الأمناء والعيون المدربين جيداً بالتجول فى مدينة استانبول للقبض على الخونة ومثيرى الفتن ، ويتم إعدامهم بالسيوف ، ثم تلقى جثثهم فى مياه البوسفور ثم توضع على الشاطئ ليراها العامة . وكانت الوحدات العسكرية التى تفقد قادتها وحلفائها تلزم الصمت وتعيش فى رعب . لقد أصبح مراد حريصاً على جيشه القوى أكثر من أى سلطان آخر ، ولذلك كان يسير راكباً بين جنده صباحاً أو مساءً متنكراً ويقتحم الإجتماعات غير المشروعة ويقبض على الخارجين على أوامره وسياسته . وبعد فترة قصيرة أغلق كافة المقاهى والحانات فى الدولة حتى يقضى على أماكن التجمعات المشبوهة المثيرة للفتن ، ثم حرّم تدخين التبغ ، وكان كل من يتم ضبطه وهو يدخن أو يشرب النبيذ يشنق أو يوضع على الخازوق .

وبمرور الوقت أصبح مراد متعطشاً للدماء . وفى البداية كانت أحكام الإعدام التى يصدرها ناتجة عن اتهام مؤكد ، ثم تحولت إلى أحكام تعتمد على الشك فى الاتهام ، ثم أصبح القتل يتم دون أدنى شك . وفى تبرير ذلك يقال أن السلطان نشأ على عدم إحترام الحياة البشرية . وقد خلق مسلكه هذا

صمتًا جامدًا ومفزعًا فى كل مكان ، حيث أصابت البلاهة الجميع وأصبحوا يتصرفون بالصمت ويتكلمون بالإشارات أو حركات الشفاة أو طقطقة الأسنان . وقد روى الكثير من الأساطير عن عنف مراد ؛ فيقال أنه انزعج فى إحدى المرات لضوضاء صادرة من حفل تراقصت فيه النسوة حول المياه فى إحدى الرياض ، فألقى القبض عليهن جميعًا وأغرقهن ، وأنه قتل طبيبه الخاص بإجباره على تعاطى جرعة كبيرة من الأفيون ، وأنه وضع على الخازوق الرسول الذى أبلغه أن السلطانة أنجبت ذكرًا ، ثم تبين له أنها أنجبت أنثى ، وأنه قطع رأس الموسيقى الخاص به لأنه أنشد أغنية فارسية بما يعنى تعظيم أعداء الإمبراطورية . وأخيرًا يقال أن مجموع من أمر تقبلهم فى خلال خمس سنوات بلغ ٢٥ ألف شخص ، وأن نسبة كبيرة منهم قتلها بيديه .

وقد أنقذت سياسة مراد الطاغية الإمبراطورية من الفوضى ، فلم يعد الطغاة المحليون يسيطرون على مقدرات الأمور . ولم يكن ينزل العقاب بالناس ولكن بمن هم فى السلطة التى تحكمهم كما نجحت قبضته الحديدية فى إعادة النظام وتقوية الجيش سواء النظامى أو غير النظامى ، ومن ناحية أخرى وضع عدة خطط إصلاحية للجيش ، وأدخل بعض الإصلاحات فى القضاء ، وعمل على زيادة الإيرادات السلطانية ، وحرم السباهية من إمتيازاتهم فى إدارة المؤسسات الدينية وغيرها من الوظائف الحكومية ، وأصلح الفساد فى صفوف الإقطاعات وشرّع فى الأراضى الزراعية ، وشرع مجموعة من القوانين لحماية الفلاحين .

ونتج عن أحكام قبضة مراد على قوة الجيش أن تحققت أهداف الإمبراطورية فى آسيا . وكانت مغامرته الأولى عبر البوسفور قصيرة ومختصرة ، فعندما تقدم إلى بورصا وجد الطرق فى حالة سيئة وغير ممهدة فأمر بشنق قاضى نيقوميديا ، فأثار هذا التصرف غضب العلماء فى استانبول ، فسارع عائدًا حيث أمر بإعدام المفتى الأكبر ، وهو أول مفتى يقابل مثل هذا المصير على أيدى سلطان .

وفى آسيا الصغرى تم قمع الثورة أخيرًا بعد خمس سنوات ، وأعفى السلطان قائدها أباظة من منصبه ولما كان يقاسمه الكراهية للانكشارية ، فقد عينه حاكمًا على البوسنة ، ثم استدعاه إلى استانبول بعد فترة وجعله أغا

للانكشارية . وقد تميز أباظة بالعنف والقسوة فكاد له أعداؤه ونجحوا فى الوقيعة بينه وبين السلطان فأمر بإعدامه . وفى ربيع ١٦٣٥ ، قام مراد الأول بأول حملة له فى آسيا ، وكانت حملة دموية فى ممتلكاته الآسيوية حيث أقام مجزرة للمشتبه فيهم من موظفيه الذين تدافعوا لتقبيل سراج فرسه . ثم دخل فى احتفال مهيب وسط الانكشارية والسباهية إلى مدينة أرضروم ومنها تقدم إلى مـدينة أريفان ليحررها من الفرس . وكان الانضباط واضحًا وقويًا بين الجند ، وكان الاحترام لشخص السلطان قويًا أيضًا وكان يشارك الجند بشخصه فى جميع أعمالهم ، وحث قادته على تشجيع الجند فى مختلف الوحدات العسكرية بتقديم أكياس الذهب والفضة ، وكان يستنفرهم قائلاً : « لا تقلقوا يا ذئابى ، قد حان وقت نشر أجنحتكم يا صقورى » .

وبعد سقوط أريفـان أرسل مراد إلى موظفيه لإعداد الاحتفال بالنصر لدخول استانبول ، كما أمرهم فى ذات الوقت بشنق إثنين من أشقائه ، بعد أن وجد الوقت مناسب لتنفيذ هذا الأمر ، حيث كان يأمل أن تغطى طبول النصر على صرخات الموت ، وأن يتوارى موكب الجنازتين أمام أنوار الاحتفالات فى المدينة . ومرة ثانية ، فى صيف ١٦٣٨ أعد السلطان الجيش السلطانى وعلى رأسه سبعة قادة من حاملى الأذناب السبعة (١) للتوجه إلى مرتفعات سكوتارى ، وتقدمهم بشخصه فى ثانى وآخر حملاته ؛ لإسترجاع مدينة بغداد . وقد وصلت الحملة وفق الخطة المعدة لها إلى المدينة فى ١١٠ يومًا مع ما تخللها من محطات التوقف .

وكان هناك تقليد عثمانى بأن بغداد التى ضمها السلطان سليمان ، لابد وأن يستردها سلطان بشخصه . وكانت المدينة حصينة ومحكمة الدفاع وحوصرت لـ ٤٠ يومًا ، ثم سقطت فى يوم الاحتفال السنوى لغزو سليمان لرودس . وقد قدم مراد نموذجًا ثابتًا لجنده فى هذه الحملة ، بأن ارتدى زى الانكشارية وحفر الخنادق ونصب المدافع بيديه . وعندما تحدى أحد عمالقة

---

(١) تعتبر هذه الفئة من كبار رجال الدولة وأصحاب الوظائف العليا بها تمشيًا مع نظام حاملى الأطواغ .

الفرس شجاعة الأتراك وطلب المبارزة الفردية ، كان السلطان هو الذى قبل التحدى واستطاع قتل خصمه بضربة سيف واحدة (هكذا تذكر الأسطورة) وتبع ذلك إحتلال المدينة وإقامة مذبحة عامة للعسكريين والمدنيين بها .

وعاد مراد إلى استانبول فى احتفال النصر الكبير للمرة الثانية وكان يتفاخر هذه المرة بدرع فارسى وجلد نمر على ذراعيه ، ويصاحبه ٢٢ زعيماً فارسياً مقيدين بالسلاسل . وسرعان ما عقدت معاهدة سلمية (١) مع فارس بشروط مشابهة لتلك التى وقعها سليمان منذ قرن مضى ، وهو آخر سلم يقوم به سلطان عثمانى قاد الجيش بنفسه . وهكذا تم استعادة بغداد ، ولكن ظلت أريفان مع الفرس الذين نجحوا فى استعادتها . وبعد العودة من بغداد هاجمت نوبات النقرس وعرق النسا السلطان ، وبرغم أنه كان منهكاً إلا أنه قرر إخماد الثورة التى شبت فى ألبانيا ، وشغل نفسه بمحاولات بعث القوة البحرية العثمانية ، ويقال أنه كان يخطط لمحاربة البندقية ، وللقيام بإصلاحات عسكرية جوهرية بإنشاء جيش نظامى أصغر على أيدى متخصصين . ولكنه توفى فى أوائل عام ١٦٤٠ فى سن الثامنة والعشرين بعد معاناة من المرض .

وقد عجل بنهاية مراد الإسراف فى شرب الخمر مع أصدقائه من الفرس فى تناقض ملئ بالسخرية مع تحريمه للخمر على رعاياه ، وتشاؤمه من خسوف الشمس . وفى مرضه الأخير ، أمر بإعدام آخر أشقائه المتبقين إبراهيم ، وهو الوريث الوحيد الذكر فى سلالة بيت عثمان ولكن تدخلت السلطانة الوالدة وأنقذت حياته ، بعد أن تم التأكيد على السلطان بأن أوامره قد نفذت ، وأن شقيقه قد مات ، ولكن عندما طلب مشاهدة الجثة وحاول النهوض من فراشه مات وسط الصلوات الخاصة بالإحتضار التى كان يتلوها الإمام الذى كان ينتظر نهايته .

---

(١) تعرف هذه المعاهدة بمعاهدة قصر شيرين ووقعت فى (١٧ مايو ١٦٣٩) ، ورسمت فيها الحدود بين العثمانيين والفرس وظلت دون تغيير كبير حتى الوقت الحاضر ، كما ظل العراق فى أيدى العثمانيين حتى الحرب العالمية الأولى .
أنظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى ، فى أصول التاريخ العثمانى ، دار الشروق ١٩٩٨ ، عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ المشرق العربى .

وبعد هذه الفترة من الطغيان ، انتكست الإمبراطورية مرة أخرى ، وعاشت فى حالة من الاضطراب والإنحدار فى عهد السلطان إبراهيم الذى وصل الانحطاط فى عهده إلى أدنى درجة . فقد قضى السلطان الجديد حياته معزولاً فى السراى أو بالأخرى سجيناً منشأ ضعيفاً قاسياً ، ولم يرث أياً من فضائل والده ، بل كان متقلب المزاج مستهتر وخضع لإرادة الحريم والميول المنحرفة . فقد أمر بتنظيف حمامات المدينة لوضع وسائل التسلية لإمتاعه ، كما أمر بنهب حوانيت الصاغة والتجار الأجانب لإشباع ميوله ومتعه . وكان مسموحًا لمحظياته من النساء أن يأخذن ما يحلو لهن من المخازن التجارية دون أن يدفعن شيئًا . وأمر أصحاب الحوانيت بالإبقاء عليها مفتوحة طوال الليل إرضاء للمحظيات اللاتى لا يستطعن التسوق نهاراً ، وعندما أخبرته إحداهن أنها تتمنى أن ترى لحيته مرصعة بالجواهر حقق أمنيتها وظهر هكذا للعامة ، وساد الاعتقاد لدى الكثير من الأتراك أنها عادة مستوحاة من الفراعنة . ومن أجل محظية أخرى أمر بصناعة مركبة صغيرة مرصعة بالأحجار الكريمة تكلفت مبالغ طائلة . وقد كان مولعًا بالكهرمان والفراء لذلك فرض على رعاياه ضرائب لكل منهما حتى يستطيع شراءها ، وقد ألهمته بذلك سيدة عجوز كانت تروى قصصاً للحريم مستدعية أسطورة لملك قديم كان يرتدى رداء كاملاً من فراء السمور ويغطى أريكته به أيضًا ويفرش به الأرضيات والحوائط ، فقام السلطان بالإقتداء به فى جناحه الخاص بعد أن ظل يحلم به طوال الليل ، وفى الصباح أصدر أوامره إلى الديوان بأن ينظم جمع جلود السمور من كافة أقاليم الإمبراطورية ، وإلى الموظفين المدنيين والعسكريين فى العاصمة . وقد استاء أحد قادة الانكشارية العائدين من ميادين القتال من هذه الأمور المتعلقة بالكهرمان والفراء ، وأعلن بغضب لموظف الضرائب أنه لم يحضر معه سوى الرصاص والبارود ، ولا يمتلك الأموال اللازمة لهذا العبث .

وفى البداية حاول الصدر الأعظم للسلطان قرة مصطفى المعروف بقاهر بغداد ، أن يصلح نقاط الضعف فى سيده ، ويكبح نزواته وينظم شئونه المالية ، ويحد من التأثير الجارف للحريم عليه وخاصة فى مسألة بيع الوظائف والألقاب الشرفية . وكان مصطفى نفسه قد أهمل ذات مرة فى إطاعة أوامر إحدى نساء الحريم لشراء ٥٠٠ لوح من الحطب لاستخدام النساء ، فأمره السلطان

بمغادرة الديوان على الفور والمثول بين يديه ليشرح له أسباب تجاهله للأمر ، فوعده بإرسال المطلوب ثم انفجر فيه قائلاً : « سيادة السلطان ، هل كان من الضروى أن تجعلنى أؤجل جلسة الديوان من أجل البحث عن ٥٠٠ لوح من الحطب لا تزيد قيمتها بأى حال عن ٥٠٠ أسبرة ؟ (١) لماذا تسألنى عن الحطب ولا تسألنى عن أحول رعاياك أو عن حالة الحدود أو الخزينة العامة ؟ » . وعندما حذر المفتى مصطفى مما قاله حيث إن حديثه لم يعجب السلطان أجاب قائلاً : « أنا أؤدى خدمة للسلطان حيث أبلغه الحقيقة ، هل ينبغى أن أنافقه ؟ أنا أفضل الموت حراً على أن أعيش عبداً » . ولأجل هذا الكلام ولتصرفه بما لا يرضى السلطان حين أفسد مكيدة قام بها موظف من أصحاب الحظوة لدى السلطان ، قتل ، ولكن ليس مستسلماً بوداعة كما فعل سابقوه ، بل سحب سيفه للقتال حتى الموت مع قاتليه .

وخلف قرة مصطفى فى منصب الصدارة العظمى سلطان زادة باشا ، وكان منافقًا كبيراً ، حتى عاجله السلطان بسؤال : « كيف توافق دائمًا على تصرفاتى سواء كانت جيدة أو سيئة ؟ فرد قائلاً : « أنت الخليفة ، أنت ظل الله فى الأرض ، وكل فكرة تلهمك بها روحك هى من السماء . وأوامرك حتى لو بدت غير معقولة ، فإن بها عقلانية فطرية ، ولكن لا يفهمها عبيدك دائماً » .

ولم تؤثر استهتارات إبراهيم فى مكانته لدى قواته المسلحة ، التى كانت تحارب فى حملات باسم الإمبراطورية وتحت قيادات قوية . وكانت أولى هذه الحملات موجهة لإسترداد أزوف Azov ، التى كانت تسيطر ببحرها الداخلى على شبه جزيرة القرم وعلى الساحل الشمالى للبحر الأسود ، والتى وقعت فى أيدى القوقاز . وكان أول حصار تركى لها بمساعدة جيش من تتار القرم ، ومنى بالفشل مع خسائر فادحة للانكشارية . والحصار الثانى كان بواسطة جيش ضم مئات الآلاف من التتار المؤيدين للقوات التركية النظامية ،

---

(١) الأسبرة عملة عثمانية قديمة تعادل ثلث البارة .

أنظر : La Rousse , p . 1016

وتم طرد القوقاز بعد تدمير المدينة ، ثم أعاد الأتراك بناءها ووضعوا بها حامية عسكرية . وقد رفض العنصر الروسى مديد العون للقوقاز وتبرأ من تبعيتهم له ، وسعى إلى إعادة علاقات الود والصداقة مع فارس عن طريق سفارة أرسلها إلى إبراهيم . وبرغم ذلك ظل القتال قائماً بين القوقاز والتتار ، كما قاتل الأتراك الروس عدة مرات غير أن خان القرم كان أكثر إزعاجاً للروس من السلطان ، وكثيراً ما كتب إلى الأخير محذراً من الروس قائلاً : « إذا تركناهم يتنفسون ، فإنهم سيغزون سواحل الأناضول بأساطيلهم . لقد أرسلت إلى الديوان أكثر من مرة محذراً من موقعين حصينين على الحدود أهملهما السلطان وكان ينبغي علينا إحتلالهما ، والآن أصبح الروس سادة عليهما » .

وكانت الحملة التركية الثانية موجهة إلى كريت ، أى ضد جمهورية البندقية التى كانت تملك الجزيرة ، وذلك بسبب قيام قراصنة مالطة بالإستيلاء على سفينة تركية فاخرة التجهيز ، محملة بالبضائع إلى مصر وبالحجاج إلى مكة ، وكانت تسير مع قافلة حراسة ، وكانت ملكاً لرئيس الخصيان السود الذى قتل أثناء مقاومة القراصنة . وكان على متن السفينة سيدة ذات مكانة عالية بين الحريم السلطانى مرتدية أزياء فاخرة وجواهر ثمينة ومعها طفل هو إبن السلطان (ولكنه كان فى الحقيقة شقيقه فى الرضاع والذى أصبح فيما بعد السلطان محمد الرابع) . وعندما علم السلطان بأنباء الأسر اشتاط غيظاً ، وأمر على الفور بذبح جميع المسيحيين فى الإمبراطورية ، كما قام بسجن كافة السفراء المسيحيين فى منازلهم ، وأمر بإغلاق مكاتب التجار الفرنجة . وعندما علم أن النظام فى مالطة كان يقوم بالكامل على أكتاف الفرنسيين ، فكر فى القيام بأعمال عدائية ضد فرنسا . وبدلاً من ذلك ، اقترح الصدر الأعظم مهاجمة جزيرة كريت بحجة أن السفن المالطية رست فيها عند عودتها من عملية القرصنة ، دون النظر إلى أن هناك صلحاً قائماً بين الباب العالى والبندقية .

وكانت الجزيرة هى آخر الممتلكات اليونانية للبندقية التى تشكل حاجزاً قوياً عبر جنوب بحر إيجة . وفى عام ١٦٤٥ أحدث الأسطول البحرى مفاجأة عندما قام بمحاصرة مدينة كانيا Canea الواقعة فى الطرف الغربى من الجزيرة ثم الإستيلاء عليها . وفى العام التالى أعقب هذا النجاح المبدئى إحتلال مدينة

رتيمو Retimo ، ثم شرع الأتراك في حصار العاصمة كانديا Candia . وقد إستمر هذا الحصار لمدة عشرين عامًا ، وهى ضعف المدة التى تمت فيها محاصرة مدينة طروادة Troy ، والتى أغلق فيها البنادقة موانيهم بالتحالف مع فرسان مالطة . وكانت عملية أسر المالطيين لهذا الطفل ، سواء كان ابن إبراهيم أو غيره ، قد جعلته يبقى لديهم حتى بلغ سن المطالبة بالعرش العثمانى ، وصار كاثوليكيًا يدعى الأب عثمان ، وكان يطمح فى لم شمل كافة الرعايا العثمانيين سواء مسلمين أو مسيحيين لإنشاء دولة شرقية جديدة ، تمتزج فيها المفاهيم البيزنطية مع المفاهيم العثمانية ، ولكن باءت محاولته بالفشل .

وفى هذه الأثناء ومع تزايد الصراع مع البندقية ، تصاعد الإستياء ضد السلطان فى الداخل ، ولم يكن مصدره هذه المرة قادة الانكشارية والسباهية فقط بل المفتى والعلماء أيضًا . وحان وقت تغيير السلطان ، لأن إبراهيم لم يكن الوريث الأخير للعرش ، ولكن كان له أبناء من صلبه ، فأمّن المتمردون عزل الصدر الأعظم وإخفائه ، ثم قاموا بإحلاله بآخر من بينهم ، وحاصروا القصر ، ولما أرسل السلطان أمرًا بتشتيت شملهم كان رد أحد أغوات الانكشارية هو تلاوة الوضع المؤسف الذى أصبحت عليه الإمبراطورية ، ثم قدم ثلاثة طلبات للسلطان وهى : إنهاء عملية بيع الوظائف ، والقضاء على محظيات السلطنة ، وقتل الصدر الأعظم . وفى اليوم التالى أحضروه من مخبأه وقتلوه . وعندما رفض السلطان لقاء وحداته العسكرية ، توجه مندوبون من الجيش والعلماء إلى السلطانة الوالدة ، والتى كانت قد نقلت من السراى نتيجة مكائد المحظيات ، وكانت مهددة بالنفى . وقد استقبلتهم وهى مرتدية نقابًا أسودًا وغطاءًا للرأس بحضور اثنين من الخصيان السود ، وعرضوا عليها عزل السلطان وأن يحل محله حفيدها محمد البالغ من العمر سبع سنوات ، وأعلموها أن المفتى قد أصدر فتوى بشرعية هذا العمل .

وقد حاولت السلطانة إقناع إبراهيم بتعديل مسلكه ولكنها فشلت ، ودافعت عنه مؤكدة أنه كان ضحية للوزراء الفاسدين ، متوسلة أن يسمح له بالبقاء على العرش تحت رعاية العلماء والصدر الأعظم الجديد . وظل قاضى قضاة الأناضول يقنعها بأن المشاكل قد استفحلت ، وأنه حان وقت القضاء

عليها ، ولكنها لم تنتبه لأى نصيحة . وقد انتشرت فى هذه الفترة عملية بيع الوظائف والمراكز على جميع المستويات بينما السلطان ذو العواطف المبتهجة يحيد عن القانون ، وأصبح الآذان للصلاة من مآذن مسجد أياصوفيا تغطيه أصوات النايات الصادرة من القصر السلطانى ، وأصبحت الأسواق معرضة للنهب ، وتعرض الأبرياء للقتل ، وتحكم عبيد السلطان فى شئون الدولة .

وتساءلت السلطانة كيف يمكن لصبى يبلغ من العمر سبع سنوات أن يعتلى العرش ، فأجاب القاضى ، أنه وفقاً للحكم الشرعى الذى جسدته الفتوى لا يجوز لرجل أحمق أن يحكم أياً كان سنه ، وتحت حكم مثل هذا الطفل يمكن لصدر أعظم حكيم أن يتحكم فى نظام البلاد ، لأن الملك البالغ دمر إمبراطوريته بالقتل والخزى والفساد . وأخيراً استجابت وقالت : « ليكن الأمر ، سوف أحضر حفيدى محمد وأضع العمامة على رأسه » ، وكانت كلماتها مليئة بالحماس . ثم وضع العرش عند بوابة التهانى ، وصعد إليه الأمير الصغير وأحاطت به حاشية القصر ليتلقى البيعة من كبار رجال الدولة . وانتظر الوزراء السلطان السابق إبراهيم ، وأخبره قاضى الروملى أنه وفقاً لقرار العلماء وكبار رجال الدولة قد تقرر أن يتنازل عن العرش . فصرخ قائلاً : « أيها الخونة ، ألست سلطانكم ؟ ماذا يعنى ذلك ؟ » ، فأجابه المفتى : « إنك لم تصبح سلطاناً منذ أن خالفت العدالة والدين ودمرت العالم من حولك ، وأضعت سنوات عمرك فى اللهو والمجون وأهدرت أموال الدولة على شهواتك وجعلت الفساد والقسوة نهجاً لحكمك . وبعدمناقشات حادة ، سأل ثانية عن سبب عزله عن العرش فكانت الإجابة : « لأنك لم تجعل نفسك أهلاً له عندما تركت الدرب الذى سار عليه أسلافك » . وبعد طوفان اللوم والتوبيخ نتيجة لهذه الخيانة ، عزل إبراهيم نفسه أمام الجمع قائلاً : « كان هذا الأمر مكتوباً على جبينى ، إنه أمر الله » ، ودون أى مقاومة سمح لهم أن يقتادوه إلى سجن السراى .

وكان المصير النهائى للسلطان قد تقرر على يد ثورة إحد فرق السباهية التى أعلنت إتهامها له أمام الجميع ، ثم طلب الصدر الأعظم من المفتى إصدار فتوى تبيح إعدامه ، وقد رد بالإيجاب تأسيساً على القانون الإسلامى

الذى يبيح القتل فى حالة وجود أكثر من خليفة . وتم تجهيز حجرة إبراهيم باثنين من منفذى الإعدام ، بينما كان القضاة والأغوات يشاهدون الأمر من النافذة . وكان السلطان يقرأ القرآن وعندما شاهد منفذ حكم الإعدام وكان من رجاله ، قال متعجباً : « ألا يوجد من يرحمني ويشفق على ممن أكلوا خبزى ؟ الرحمة ! الرحمة ! » . وعندما وضع المنفذون أيديهم عليه صرخ باللعنات على القوم الأتراك الذين تنكروا لسلاطينهم .

وهكذا وفى عام ١٦٤٨ ، كانت هذه ثانى عملية قتل لسلطان عثمانى ، وثانى مرة يتولى العرش سلطان طفل ، وفى مثل هذه الأزمات تظهر مواطن الضعف فى شخصية الحكام وتهتز أحد الأعمدة التى قام عليها بناء الدولة العثمانية . وكانت السلطة الدينية ممثلة فى الهيئة الإسلامية هى التى تتخذ القرار الحاسم لخلع السلطان الفاسد لتحقيق المصالح الإجتماعية والسياسية للبلاد . وفى هذه الأوقات تظهر قوة جديدة ممثلة فى الصدور العظام من أسرة كوبرولو الذين تولوا إرشاد السلطان الصبى حتى يصل إلى مرحلة النضوج ، وبفضلهم أمكن تعديل مسلك الحكومة العثمانية .

وهكذا تمكن العنصران الأساسيان وهما العنصر الدينى والعنصر العلمانى من تأمين درجة من الإستقرار الداخلى فى الدولة العثمانية ، ومن حسن الحظ أن كل ذلك حدث ولم تكن البلاد تتعرض لأخطار خارجية فى أوروبا . وفى خلال النصف الأخير من القرن السابع عشر أصبح الإنهيار العثمانى قوياً وواضحاً .

الفصل الحادي والعشرون

لقد مر الآن ما يقرب من قرن على موت سليمان ، آخر سلاطين العثمانيين العظام . وقد ظهرت المشكلات فى داخل الدولة ، وفى أوروبا لم يكن الوقت مناسبًا لإرسال حملات عثمانية ، بل سمحت الظروف بتأجيل أى تهديد بإعادة الغزو . وكان ذلك راجعًا إلى إنقسام أوروبا دينيًا وسياسيًا بسبب حركة الإصلاح الكنسى المضاد Counter - Reformantion (١) ، وحرب الثلاثين عامًا (٢). وأثناء هذه الحرب كانت أوروبا ، على النقيض ، تبحث عن مساعدة الأتراك سواء بريًا أو بحريًا ، وهذا الوضع أدى إلى إيجاد تنظيم لمستوى جديد من العلاقات مع القوى المسيحية ، وكانت أولى علاماته التوقيع فى عام ١٦٠٦ على معاهدة ستفاتوروك Sitvatorök (٣) بين العثمانيين وإمبراطورية الهابسبرج .

وكانت مثل هذه المعاهدات فى السابق تصدر عن القوة العظمى التى تدعى أنها السلطة الأقوى فى العالم ، وكانت منحة من السلطان ولفترات محدودة ، وذلك عن طريق مبعوث الأعداء الذى يصل إلى استانبول للتفاوض

---

(١) ويعرف بحركة الإصلاح الكاثوليكى وكان يهدف إلى تطهير الكنيسة الكاثوليكية مما لحق بها من فساد فى أنظمتها وسلوك رجالها ، وذلك فى مواجهة حركة الإصلاح البروتستانتى .
أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، التاريخ الأوروبى والأمريكى الحديث ، دار المعرفة ١٩٩٢ .

(٢) دامت حرب الثلاثين عامًا من ١٦١٨ إلى ١٦٤٨ وهى إحدى نتائج حركة الإصلاح الدينى فى أوروبا فى القرن السادس عشر وتميزت بوضع حد للصراع فى أوروبا حتى قيام الثورة الفرنسية فى ١٧٨٩ .
أنظر عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق .

(٣) تمثل معاهدة ستفاتوروك نهاية رسمية لحرب امتدت لثلاث عشرة سنة بين النمسا والدولة العثمانية . ويرى بعض المؤرخين أنها تعتبر بداية توقف التوسع العثمانى فى أوروبا . ويرى البعض الآخر أن العثمانيين بعد هذه المعاهدة لم يستطيعوا استئناف سياسة التوسع الإقليمى فى اتجاه الشمال .
أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ المشرق العربى .

بشأنها . وكانت هذه المعاهدات تبدأ عادة بالعبارة التالية : « المنح الكريمة من السلطان ، المنتصر دائمًا ، إلى ملك ڤينا الملحد المهزوم دائمًا » . والآن ، ولأول مرة تم توقيع المعاهدة بين الطرفين وهما على قدم المساواة ، وتحدد أن كلا من الإمبراطور والسلطان يجب أن يتعاملا بالتساوى . والسلطان الذى كان يشير باحتقار إلى إمبراطور الهابسبرج على أنه ملك أسبانى » وليس ملك ڤينا ، قد تواضع الآن واتبع الأسلوب الأوروبى الدبلوماسى المتعارف عليه واستخدم لقب القيصر ، أى لم تعد هناك تبعية . وتقرر التوقف عن الجزية السنوية التى كانت النمسا تدفعها للسلطان ، وإحلالها بمبلغ سنوى محدد مع تبادل اختيارى للهدايا بين سفراء الدولتين .

وقد امتدت هذه المعاهدة لعشرين عامًا بخلاف غيرها من الهدن قصيرة الأجل ، غير أنها فى الحقيقة ظلت سارية لخمسين عامًا . وقد خسر فيها الأتراك بعض الأقاليم ، ولكنهم أبقوا فى قبضتهم القلاع الحدودية مثل إرلاو وجران وكانيشا ، وكذلك الأقاليم المجرية التى كانت تحت حكمهم ، كما تم تشكيل إقليمين جديدين . كما تم القضاء على الإدعاءات التى طالبت ببعض أقسام المجر القديمة . ومنح أمير ترنسلڤانيا ، التى شكلت جزءًا من المعاهدة درجة كبيرة من الاستقلال والتحرر . وتشير هذه المعاهدة إلى بداية علاقات دبلوماسية جديدة بين الشرق والغرب ، برغم المهانة التى لقيتها الجيوش التركية . وتمثل أيضًا خضوعًا من الجانب التركى للمبادئ العامة للقانون الدولى مؤسسًا على وضع حدود للغزو العثمانى والمعرفة الحقيقية لقوة الهابسبرج .

وحتى الآن كانت العلاقات الدبلوماسية للباب العالى مع أوروبا المسيحية ترتبط بالحرب ، وبالنظر إلى التحالفات مع فرنسا ، العدو التقليدى للهابسبرج ، والتى كانت تمثل الخروج من العزلة العثمانية ، أصبح هناك فترات من السلام النسبى جعلت الإستفادة من المميزات التجارية التى لدى الغرب ممكنة . وكان وجود الرعايا غير المسلمين فى ممتلكات السلطان من

عوامل إتساع نظام الملل (١) الذى قام على أسس دينية لفئات تمتعت بقدر من الإستقلال الذاتى مقابل الجزية التى تؤديها . وكذلك اتسع نطاق الرعايا والتجار الأجانب المقيمين فى الدولة والذين تمتعوا برعاية سفرائهم وقناصلهم ومنحوا إمتيازات فائقة فى ظل معاهدات الإمتيازات الأجنبية Capitulations . وقد كتب الأستاذ توينبى Toynbee قائلاً : « نظر العثمانيون إلى الدول الغربية نظرة أسلافهم الذين كانوا يعيشون فى برارى الإستبس وتعودوا شراء ما يحتاجونه من سكان الواحات من الخامات الضرورية أو الكمالية والتى يستطيعون إنتاجها . ونتج عن ذلك أنه فى خلال القرن السابع عشر وما تلاه تغير نموذج العلاقات الأجنبية مع الإمبراطورية العثمانية » .

إن تمتع فرنسا بمزايا الإمتيازات الأجنبية يرجع إلى المعاهدة الموقعة مع السلطان سليمان فى عام ١٥٣٥ ، وتعد من أقوى المعاهدات لأنها قائمة على أسس ثنائية ، وهى بالتالى غير قابلة للإلغاء مثل غيرها من المعاهدات التى اعتمدت على مشيئة السلطان . ووفقًا لها احتفظت فرنسا لما يقرب من نصف قرن من الزمان بنفوذ قوى على الباب العالى لا ينافسها فيه أحد . وخلال حكم السلطان مراد الثالث (٢) وفى عام ١٥٧٩ فكر الملك هنرى الثالث (٣) الفرنسى فى تقوية هذه العلاقة فأرسل إلى استانبول سفيراً له مقام أعلى ممن سبقوه ، وهو البارون دى جرمينى De germigny الذى كسب ثقة

---

(١) نظام الملل اتبعه الأتراك العثمانيون مع الرعايا غير المسلمين (أهل الذمة)وتم تصنيفهم فيه على أساس المذهب الدينى . وكان لكل ملة رئيس دينى يفصل فى قضايا الأحوال الشخصية دون تدخل من الدولة . ويرجع هذا النظام إلى عام فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح ١٤٥٣ م . وكانت أكبر ملة فى الدولة العثمانية ملة الروم الأرثوذكس ، ثم يليها ملة الروم الكاثوليك ، ثم ملة الأرمن وأخيراً اليهود .
أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ المشرق العربى ، ص ٦٠ .

٢) تولى الحكم من ١٥٧٤ إلى ١٥٩٥ .
أنظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى ، فى أصول التاريخ العثمانى ، ص ٣١٩ .

(٣) حكم من ١٥٧٤ إلى ١٥٨٩ .
أنظر : La Rousse , p . 1404

الديوان ، ونجح في تجديد معاهدة التحالف الفرنسى - التركى ، التى أكدت الإمتيازات التجارية بالإضافة إلى تفوق السفير الفرنسى على غيره من السفراء الآخرين . كما أكدت المعاهدة على إمتيازات الحماية الفرنسية على الأماكن المقدسة فى أورشليم وسيناء ، وعلى الرعايا المسيحيين فى الإمبراطورية العثمانية بوجه عام ، بإستثناء البنادقة ، وهم تحديداً : « الجنويين والانجليز والبرتغاليين والأسبان والقطلان والصقليين والراجوزيين ، ويدخل ضمنهم كل من يتمتع بالحماية الفرنسية من قديم الأزل حتى الوقت الراهن » .

وقد تعرف دى چرمينى جيداً على الأسلوب الذى كان يتبعه السلطان وباشواته لتحقيق الصداقات والتحالفات مع كافة الأطراف ، وتأكد أن جميع العروض من الوكالات الأجنبية كانت تعتمد على الرشوة فى ظل الفساد السائد فى البلاد ، وأنها شكلت مصدراً كبيراً لدخول الوزراء وموظفى القصر والجيش ومحظيات السلطان من الحريم فى كل مكان . وفى خلال السنتين التاليتين على تجديد معاهدة الإمتيازات ، رفع السلطان الشعار القائل : « إن الباب العالى أصبح مفتوحاً لكل من جاء باحثاً عن الحماية » . وكانت هذه الفرصة مناسبة لملكة انجلترا إليزابيث (١) التى طلبت أن تبحر سفنها تحت حماية علم انجلترا وليس علم فرنسا كما كان سائداً من قبل ، وأن يمنح رعاياها الحرية التجارية والملاحية فى الإمبراطورية العثمانية . وكان التجار الإنجليز يعملون على نشر تجارتهم ببطء فى البحر المتوسط ، ثم دخلوا فى أوائل القرن السادس عشر فى علاقات وطيدة مع البنادقة مكنتهم من الوصول إلى مياهه الشرقية ، ولكن تزايد القوة البحرية التركية وأساطيل القراصنة المحاربين وضعت حداً لهذه المغامرات التجارية ، وتضاءلت التجارة الإنجليزية فى الجزء الشرقى من البحر المتوسط . وبدلاً من ذلك ، ومع تنامى النفوذ البرتغالى فى طريق رأس الرجاء الصالح ، عاد التجار الإنجليز إلى هولندا حيث

---

(١) الملكة إليزابيث الأولى حكمت من ١٥٥٨ إلى ١٦٠٣ . وتعد أعظم ملوك إنجلترا وتمثل نهاية حكم أسرة التيودور.

أنظر : La Rousse , p . 1313

حل ميناء انتورب Antwerp محل البندقية كمستودع للمنتجات الشرقية . غير أن هذا الوضع انتهى فى النصف الأخير من القرن السادس عشر بقيام الثورة فى هولندا وهدد غزو فيليب (١) الأسبانى ، عدو الملكة إليزابيث ، للبرتغال بنقل التجارة البرتغالية النفيسة مع الشرق إلى أسبانيا .

وعلى الصعيد السياسى ، ومع تزايد العداوة لأسبانيا ، أصبح واضحًا التعاون مع الأتراك ، واتخاذهم كحلفاء قد يؤدى إلى قيام توازن مع القوة الأسبانية فى البحر المتوسط . وبرغم أن الملكة إليزابيث كانت على النقيض من ملك فرنسا فرنسوا الأول لا تحبذ التحالف مع الكفرة (العثمانيين) إلا أن هذا لم يمنعها من أن تصف السلطان مراد قائلة : « السلطان الذى لا يقهر ، والمدافع عن العقيدة الحقة ضد الملحدين » ، وحددتهم بالذين يدعّون أنهم مسيحيين ، وكانت تقصد ملك أسبانيا . وهذا يفسر سبب فتح باب المفاوضات بينها وبين الأتراك وإرسال سفير إنجليزى إلى استانبول وكان أول من قام بهذه المهمة إثنان من كبار التجار فى لندن وهما السير إدوارد أوسبورن وزميله ريتشارد ستاپر ، الذين حاولا إحياء التجارة الإنجليزية فى منطقة الليڤانت . فقد أرسلا فى عام ١٥٧٥ وكيلين إلى استانبول ، نجح إحدهما ، بعد إقامة دامت ثمانية عشرة شهراً فى الحصول من السلطان عن طريق الوسيط وليام هاربورن على حق الدخول بدون رسوم إلى الممتلكات العثمانية ، ثم أصبح الأخير أول سفير لإنجلترا فى استانبول فى الصيف التالى ١٥٧٨ م ، قد جاء بحراً عن طريق هامبورج ثم اتخذ الطريق البرى إلى بولندا ، وقد أثبت أنه رجل ذو مهارة دبلوماسية لدى الباب العالى ، إذ سرعان ما حصل ، رغم معارضة فرنسا ، على وعد بحرية التجارة الإنجليزية فى تركيا ، ثم تم التأكيد عليه من خلال الخطابات المتبادلة بين السلطان مراد والملكة إليزابيث ، ثم

(١) اتبع فيليب الثانى ابن شارل الخامس سياسة متعصبة فى الأراضى المنخفضة أدت إلى انتشار كراهيته فى أوروبا كلها ، وأدت فى النهاية إلى ضياع هذه المنطقة من أسبانيا فى ١٦٠٩ .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، التاريخ الأوروبى الأمريكى .

تُرجم إلى معاهدة فى ١٥٨٠ لمنح إنجلترا الإمتيازات التى حصلت عليها فرنسا من قبل . وكان خطاب السلطان إلى الملكة مليئًا بالإجلال واستخدام المصطلحات العديدة مثل : « إليزابيث الأكثر شهرة ، الملكة الأكبر تقديساً ، سيدة السعادة والمجد فى مملكة إنجلترا » . وقد أخبرها السلطان أن فرماناً سلطانياً قد صدر للتأكيد على أن الإنجليز سيصلون بصورة قانونية إلى الممتلكات العثمانية ويغادرونها بكل حرية ، ولن يجرؤ أحد على إزعاجهم . وقال : « إن الرعايا الإنجليز سيتمتعون بنفس الحريات التى يتمتع بها أصدقاؤنا وحلفاؤنا الفرنسيون والبنادقة والبولنديون وملك ألمانيا وغيرهم من الجيران ، فالجميع لهم حق التجارة فى كافة أنواع البضائع كغيرهم من المسيحيين دون مضايقة من أحد » .

وعاد هاربورن إلى إنجلترا ليقدم تقريراً بالتقدم الذى أحرزه إلى وزراء الملكة والتجار . وقد أثار هذا الاتفاق مع الإنجليز غضب الفرنسيين لأنه تعارض مع اتفاقهم شبه الاحتكارى والذى كان يسمح بمقتضاه لكافة السفن التجارية فى المياه التركية ، بما فيها سفن الإنجليز بالإبحار تحت حماية العلم الفرنسى . وبعد رحيل هاربورن سعى السفير الفرنسى دى جرمينى لدى السلطان ووزرائه لإبطال هذه الإمتيازات ، ولكنه لم يحصل إلا على وعد مشروط بحصول الأتراك على الأسلحة والذخائر من الغرب والتى كانوا يعانون منها نقصًا بعد حربهم مع فارس ، فأجاب دى جرمينى بشكل سلبى ، موضحاً أن الحرب الأهلية (١) خلقت عجزاً ممثلاً فى فرنسا .

ومن الناحية الأخرى كانت إنجلترا فى وضع يسمح لها بإمداد الأتراك ببعض المواد الخام اللازمة للأسلحة مثل الحديد والصلب والقصدير والنحاس الأصفر وهذه كلها فى الحقيقة كانت عبارة عن بقايا الصور الكاثوليكية المحطمة والتى تطابقت مع دعوة الإسلام لتحطيم الصور والتماثيل ، وهذا ما جعل السلطان

---

(١) وهى الحرب التى نتجت عن اضطهاد البروتستانت فى فرنسا المعروفين بالهوجونوت وتعرضهم للمذابح من الكاثوليك .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص ٢٠٧ .

يعتبر الملكة حليفًا قويًا ضد أسبانيا . وعودة إلى إنجلترا حيث وجد هاربورن دعمًا قـويًا لمغامـرته من رئيس وزراء الملكة إليزابيث اللورد برجلى Burghley ، ومن السير فرنسيس والسنجهام Francis Walsingham ممثل الشئون الخارجية ، الذى كان يتنبأ باستخدم القوة ضد فرنسا والبندقية فى المستقبل ، إلا أنه عاد وأيد استخدام التجارة كوسيلة لتطوير البحرية التجارية الإنجليزية ، واعتبرها أيضًا من عوامل تقوية الأساطيل البحرية . وكانت النتيجة مباركة رسمية لجهود أوسبورن ومجموعته مع الأتراك ، ثم أصدرت الحكومة ميثاقًا للتعاون ، وهو إجـراء طبيعى للتنظيم التجارى كان يتبع فى هذه الأوقات ، مانحًا لهم احتكارًا للتجارة الإنجليزية فى الممتلكات التركية .

وبالرغم من المكائد الفرنسية ، فقد صدق الباب العالى على هذه الإمتيازات لمدة سبع سنوات فى سبتمبر ١٥٨١ ، على أن يتم تجديدها فى فتـرات متوالية . وهكذا ظهرت إلى الوجود شركة الليڤانت أو « شـركة التجـار الأتراك » . وإذا كان هناك نوع من التردد من الجانب التركى قبل التصديق ، فإنما يرجع فى جزء منه إلى نقص المكانة الرسمية لهاربون ، ولكنه أمكن علاج هذا التردد عن طريق التفاوض بين الملكة والشركة . وقد دفعت الملك إليزابيث بنفسها تكاليف أول رحلة إلى استانبول ، وكانت على إستعداد لتعيين هاربورن سفيرًا لها لدى السلطان ، ولكن لم يكن لدى الحكومة الإنجليزية آنذاك إمكانيات تأسيس بعثة دبلوماسية دائمة فى تركيا وما يتطلبه ذلك من وجود سفارة وعدة مستشارين تكون مهمتهم الإشراف على التجارة الإنجليزية ، وسفير يملك القوة اللازمة والهيبة التى تجعله قادرًا على توفير الحماية للإنجليز وتجارتهم مع السلطات التركية ، وأخيرًا تقرر أن تتحمل الشركة مصروفات البعثة ، وفى نوفمبر ١٥٨٢ تم تكريم وليام هاربورن كأول سفير إنجليزى فى بلاط السلطان ، وكانت مهمته مـزدوجة ؛ فهو يتولى مهمة التمثيل الملكى مع الواجبات الدبلوماسية من ناحية ، ومن ناحية أخرى فهو وكيل تجارى يؤدى واجبات تجاه الشركة التى تموله .

وقد رجع هاربون إلى استانبول بحرًا هذه المرة فى سفينة ضخمة تحمل إسـم Susan of London ، ويرشدها إلى الميناء سفن شراعية . وقد رسا السفير وسط إطلاق المدافع تحية له وأصوات الأبواق والطبول وإشارات أخرى

مبهجة قام بها سلاح الفرسان ، وتصادق أن يكون ذلك يوم الجمعة العظيمة (يوم مقدس عند المسيحيين) ، والمسيحيون ينشدون المزامير الخاصة بالمسيح . وقد ذكر سفير البندقية المنافس أن الأتراك لم يظهروا إعجابهم بهاربورن وأطلقوا عليه « اللوثرى » (١) ، وأنهم رفضوا حضور وليمة العيد التى أقامها في المساء . وبعد توزيع الهدايا على الباشوات ، تم إستقبل هاربورن الذى حمل معه هدايا أخرى وخطاباً من الملكة إليزابيث عن طريق علوج على فى سفينته الشراعية ، غير أنه لم يتلق أى تأييد منه أو من فرانسيس دريك Francis Drake الذى حظى بهدية عبارة عن عدة أوانى من الفضة . ثم استضاف السلطان فى قصره هاربورن ورجاله وأقام مأدبة لمائة وخمسين شخصاً ، وكان الشراب المقدم عبارة عن مزيج من ماء الورد والسكر والتوابل . وظهر هاربورن في ملابس مذهبة وسط حاشية تحمل الهدايا واستقبله السلطان بنفسه فى ملابس مطرزة بالفضة . وكان من بين الهدايا : ثلاثة كلاب حراسة جميلة عليها أردية حمراء ، وثلاثة كلاب صغيرة متدلية الشعر والأذان ، وثلاثة كلاب مفترسة ، وكلبان صغيران رماديان ، وكلبان صغيران آخران عليهما أردية من الحرير . وكانت أغلى الهدايا ساعة فضية مرصعة بالجواهر تعلوها قلعة صغيرة قيمتها خمسمائة جنيه استرلينى .

وكان دى چرمينى يذم هاربورن ويعتبره من أدنى فئات التجار ، واعترض بشدة على هذا الاستقبال الرسمى ، وهدد بفسخ التحالف الفرنسى – التركى إذا أبحرت السفن الإنجليزية تحت لواء العلم الإنجليزى . أما موروزينى Morosini سفير البندقية فقد حاول عن طريق الرشوة أن يقنع الصدر الأعظم بأن السماح للإنجليز بالدخول إلى مجال التجارة التركية قد يكون له تأثير مضاد على العوائد الجمركية للبلاد . وكما جاء فى تقرير هاربورن أن الفرنسيين والبنادقة قد ناقضوا أنفسهم وملأتهم الضغينة ، وأن الصدر الأعظم رد على چرمينى بحدة قائلاً : « لا داعى لكل هذه الضجة » ، وكرر أن الباب العالى سيظل مفتوحاً لكل من يرغب فى السلام .

---

(١) أى أنه من أتباع مذهب مارتن لوثر البروتستانتى .

وكان هابورن قادراً على مواجهة التحديات التى تعترضه ، حيث تميز بالبرود على عكس طابع الإثارة الذى تميز به چرمينى ، وقد نجح ليس فقط فى تجديد الإمتيازات المؤجلة بل وفى إدخال تعديلات عليها فيما يخص الرسوم الجمركية . وكان دائمًا على استعداد ، كمحب لوطنه ، للتفاخر بأمجاد بلاده ، وقد دافع عنه الصدر الأعظم عندما حط منافسوه من قدره ووصفوه بأنه مجرد تاجر قائلاً : « لقد كان من كبار النبلاء ، وأعظم من أى أحد هنا ، وأنهم ليس من حقهم النظر إلى وضعه الخاص ولكن إلى الملكة العظيمة سيدته » .

ومن الناحية العملية كان وضع إنجلترا أفضل من فرنسا ، لأن إمتيازاتها الأجنبية كانت قاصرة على الإمتيازات التجارية فقط ، بينما قام الفرنسيون بحماية المسيحيين جميعهم وكنائسهم ، وفى إحدى لحظات الحماس الدينى للسلطان وبإلهام من المفتى ، إنقلب على المسيحيين وهدد بتحويل كافة كنائس استانبول إلى مساجد ، وعندما اعترض چرمينى على ذلك وقدم اليونانيون الأرثوذكس الهدايا انتهى هذا التهديد ، وبرغم ذلك تم بالفعل إغلاق ثلاثة كنائس فى جالاطة ، ولم تفتح إلا بعد توزيع حكيم للهدايا . وبرحيل چرمينى خلفه السفير سافارى دى لانكوم Savary de Lan come وأثار نزاعًا فى الكنيسة الكبرى باغتصاب مقعد الشرف المحجوز للسفير الإمبراطورى ، فأغلقت الكنيسة ثانية بأمر من الصدر الأعظم الذى رفض إعادة فتحها حتى يكف لانكوم عن حماقاته . وقد حققت إنجلترا الكثير من المكاسب م نجراء التأثير الفرنسى السىء لفرنسا ، وعندما تم تحذير هاربورن من مكائد لانكوم المناهضة للإنجليز ، رد بهدوء قائلاً : « لا أعتقد أنه يمتلك القوة الكافية لإبعادى » .

ولكن كانت الفوائد العائدة على إنجلترا وفرنسا آنذاك إقتصادية أكثر منها سياسية ، كما أصبح واضحاً أن الإمبراطورية العثمانية بكل قوتها البحرية الهائلة تعارض فى الإشتراك فى أى عمليات حربية للدفاع عن المصالح السياسية الإنجليزية أو الفرنسية . ففى الوقت الذى كان فيه الملك فيليب يقوم

بيناء أسطول أسباني ضخم في موانيه على الأطلنطي ، أغلق الباب العالي أذنيه أمام طلبات هاربورن المتكررة للمساندة البحرية ، وكان على إستعداد للموافقة في حالة واحدة فقط وهي إذا اتخذت هذه المساعدة شكل الهجوم التركي على السواحل الأسبانية في البحر المتوسط . وعند رحيل هاربورن من استانبول ، بانتهاء بعثته ، اتخذ الطريق البرى إلى لندن متجنباً السفر عن طريق مضيق جبل طارق ، وكان ذلك قبل وقت قصير من إبحار الأرمادا الأسبانية . وكانت الأنباء تصل إلى الباب العالي بأن إنجلترا قد انتهت وأثيرت الشكوك حولها ، ولكن وصلت بعد ذلك أنباء هزيمة الأرمادا الأسبانية في ١٥٨٨ (١) ، وظهرت السفن الحربية الإنجليزية في البحر المتوسط لتعقب القراصنة البرابرة الذين انتشروا في مياهه بحجة التجارة ، وعندما عجزت سفن الحراسة عن القضاء عليهم طلبت المساعدة من الحكومة الإنجليزية .

وطلبت فرنسا أيضاً مساندة تركيا للبروتستانتي الهوجونوتي هنرى نافار الذى اعتلى العرش باسم هنرى الرابع ضد أعدائه الداخلين من الكاثوليك من آل جيز الذين كان يساندهم ملك أسبانيا . وهنا كتب السلطان إلى كل من الملكة إليزابيث والملك هنرى بتشجيعهم على توقع التعاون التركي الموجه ضد الأسبان وكان الجميع يحدوهم الأمل أن يعمل الأسطول التركي بالتعاون مع أساطيل إنجلترا وفرنسا لتتشكل جبهة متحدة بروتستانتينية ضد تهديد الأسبان الوثنيين . وقد كتب إدوارد بارتون ، خليفة هاربورن ، تقريراً عن هذه الخطة إلى وزراء الملكة ، ولكن لم يظهر هذا الأسطول التركي إلى الوجود إما لبخل السلطان الشديد أو لوجود عجز حقيقي في الاعتمادات المالية في خزينته .

ومع وصول السلطان محمد الثالث إلى السلطة في عام ١٥٩٥ ، استمرت الملكة إليزابيث في التودد إليه للحصول على مساندته ضد أعدائها الكاثوليك ، فأرسلت له سفينة محملة بالهدايا فيها صناعات خشبية

---

(١) أثرت هزيمة الأرمادا الأسبانية على أيدى الإنجليز في عام ١٥٨٨ على قوة أسبانيا وعظمتها ، وأصبحت إنجلترا سيدة البحار بلا منازع في القرون التالية .
أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص ٢٣٩ .

أقلقت البنادقة واعتبروها تهديداً لتجارتهم ، وكذلك بالات من الأقمشة ، وآلة موسيقية غاية فى الإبداع والتصميم نقلت إلى استانبول مع مصممها دوفاس دالام وهو رجل معروف بمهاراته وبراعته ، وقد أعجب بها السلطان بشده وبالطيور الصناعية الموضوعة عليها والتى كانت تهز جناحيها مع نهاية الموسيقى وكان السلطان مبهوراً أيضاً بالسفينة الإنجليزية المسلحة جيداً والتى حملت اسم The Hector ، والتى أحضرت دالام وآلته الموسيقية ، وقد علقت حاشيته على ذلك بأنه لم يسبق لهم أن رأوه بهذا السرور والإبتهاج من قوة السفينة وبراعة دفاعها ، حتى أنه فتح القرن الذهبى لجماهير الزوار لمشاهدتها ، وأثارت فضول الجميع مما جعل السفير البندقى يخشى من هذا العرض الذى قد يفتح عيون الأترك على أشياء لا يعرفونها . ولكن لم يكن هناك سبب للخوف لأن الباب العالى ظل يرزح فى الغليون القديم ولم تتفتح عيونه ، كما ذكر السير توماس رو . وبنهاية القرن السادس عشر ، وبعد وفاة علوج على ، لم يعد الأسطول العثمانى يشكل تهديداً للعدو ، ولا يصلح لمساندة أى حليف وبصفة خاصة بعد معركة ليبانتو ، وتعطلت الترسانة بالتدريج وانتهت القوة البحرية العثمانية ، والتى قيل « ليس بسبب الحرب ولكن بسبب السلم مع الأسبان » .

وقد ساءت العلاقات الإنجليزية والفرنسية مع الباب العالى مرة أخرى بعد أن قام هنرى الرابع بإستدعاء لانكوم المناصر للكاثوليك ، وعين سفيراً آخر أكثر حزماً هو سافارى دى بريف Savary de Brèves ليساهم فى إمتداد التأثير الفرنسى بشكل أقوى على الباب العالى تجارياً وسياسياً على حساب حلفائه الإنجليز . وكان خليفة بارتون السيد هنرى ليلو Henry Lello يردد دائماً الشكاوى قائلاً : « إن السفير الفرنسى يتلقى الرشاوى العظيمة من البابوية من أجل تدمير كل خططى » . وقد ساءت المشاعر بين الجاليتين الفرنسية والإنجليزية إلى حد أن السفير البندقى كتب تقريراً ذات مرة يقول فيه : « فى مساء الأمس ، ونتيجة لمباراة لكرات الجليد ، قامت مشاجرة بين رعايا السفيرين الإنجليزى والفرنسى ، وقد أصيب الكثيرون بجراح بالغة ، وكان من الممكن أن يحدث ما هو أسوأ من ذلك للسفراء أنفسهم » . وقد ثار النزاع للمرة الأولى بين الفرنسيين والإنجليز فى عهد محمد الثالث أثناء

حربه مع المجر (قبل توقيع معاهدة ستڤاتوروك) ، وقد حوله السيد دى بريف لصالح رئيسه هنرى الرابع الذى كان يطمح فى أن يصبح الإمبراطور الرومانى المقدس ، إذ كان يقول فى هذا الصدد : « لقد صنع منى التحالف الكاثوليكى ملكاً ، ومن يعلم ، قد يجعلنى الأتراك إمبراطوراً ؟ ، فمع الضعف الراهن للنمسا قد تمهد هزيمة المجر الطريق أمامى لذلك » .

ولكن الملكة إليزابيث كانت تبحث عن السلم ولا ترغب فى هذه الحرب غير المجدية . ويعد السبب الرئيسى للنزاع بين إنجلترا وفرنسا هو المصالح الإقتصادية ، حيث بذل دى بريف جهوداً مضنية من أجل إعاقة تجديد الإمتيازات الإنجليزية . بالإضافة إلى نقطة أخرى تخص الهولنديين ، وهم سكان الأراضى المنخفضة الذين استقلوا عن أسبانيا ودخلوا مؤخراً فى تنافس تجارى مع التجار الإنجليز والفرنسيين فى المياه التركية . وقد أصر الإنجليز ، الذين توطدت علاقتهم بالهولنديين أثناء مساندتهم فى الصراع من أجل الإستقلال (١) ، على أن تبحر السفن الهولندية التجارية تحت لواء العلم الإنجليزى ، بينما أدعى الفرنسيون أنهم لا يزالوا رعايا أسبانيين ويجب أن يظلوا تحت حماية العلم الفرنسى .

وفى عام ١٦١٢ منح الهولنديون معاهدة إمتيازات خاصة بهم مشابهة لتلك الممنوحة لإنجلترا وفرنسا ولكنها محددة بنطاق التجارة فقط ، وقد استخدموها بحرية لإدخال التبغ إلى تركيا ، وبرغم وجود معارضة عنيفة للتبغ من جانب المفتى ، فقد نال إعجاب العثمانيين بشدة لدرجة أنه فى خلال نصف قرن من الزمان كاد الغليون أن يكون الشعار القومى لهم . وكانت القهوة قد دخلت بالفعل منذ أيام سليمان ، وبالتالى فقط تمتع الأتراك

---

(١) تحالفت إنجلترا وهولندا وفرنسا ضد أسبانيا فى المراحل الأخيرة من ثورة الأراضى المنخفضة ، وأوقعوا الهزيمة بجيوشها فى الموقعة الشهيرة ترنهوت Turnhout فى ١٥٩٧ .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق .

بالوسائد الأربعة لأريكة المتعة ، كما يقول الشعراء ، وهى الأفيون والنبيذ والدخان والقهوة ، ولكن ظل الفقهاء المسلمون المتشددون يعتبرونه أحد « أعمدة الفجور الأربعة » . وهكذا وبنهاية عصر سليمان بدأت فترة النفوذ الإنجليزى والتنافس الإنجليزى - الفرنسى فى جميع أرجاء الإمبراطورية العثمانية .

الفصل الثانى والعشرون

لم تتحسن أوضاع الدولة منذ مقتل السلطان إبراهيم وحتى تولى إبنه الحكم فى عام ١٦٤٨ وهو الغلام محمد الرابع . ففى خلال الأعوام الثمانية الأولى من إعتلائه العرش ، استمر الإنقسام الداخلى بين الانكشارية والسباهية ، وبين السلطانة الوالدة طرخان والدة محمد ، والجدة القوية خوتزيم والتى لقيت حتفها فيما بعد بالقتل من منافستها . وقد صاحب هذا الانقسام الداخلى أخطاراً خارجية وتهديدات ؛ فقد أوضحت الحملة البحرية العثمانية على كريت أن الأتراك فقدوا سيطرتهم على البحار ، وأن السيادة عليها تحولت إلى أيدى البنادقة منذ أواسط القرن السابع عشر ، كما أن القراصنة المالطيين والتوسكانيين (١) تجولوا فى مياه البحر المتوسط بلا مقاومة وتحرر القراصنة البرابرة من السيطرة العثمانية ، وأصبح العثمانيون عاجزين عن الدفاع عن سواحلهم البحرية .

وبعد أن نزلت الحملة العثمانية إلى أراضى كانيا فى كريت ، فرض البنادقة حصاراً على المضايق وعلى ساحل بحر إيجة وموانئ المورة ، وتصاعدت الأمور إلى حد وقوع معركة خارج مياه الدردنيل هزم فيها البنادقة العثمانيين وحطموا أسطولهم الذى كان يحمل الإمدادات والتعزيزات إلى كريت ، ثم استولوا على جزيرتى تنيدوس ولمنوس اللتين تتحكمان فى المضايق . وقد اعتبر الأتراك هذه الهزيمة مشابهة لهزيمة ليبانتو ، وترتب عليها إغلاق البنادقة للمضايق ونقص الواردات إلى العاصمة التركية مما أدى إلى إرتفاع أسعار المواد الغذائية وانتشار السخط العام والرعب من إمكانية وقوع هجوم على المدينة نفسها .

وقد حاولت السلطانة الوالدة طرخان مواجهة هذه الأزمة ، فوقع اختيارها فى سرية تامة على أحد الرجال الأقوياء من موظفى القصر ممن لديهم القدرة

---

(١) التوسكانيون هم سكان إقليم تسكانيا الذى يقع فى وسط إيطاليا . وقد أقام به البابا بول الخامس دوقية تسكانيا الكبرى فى عام ١٥٦٩ واستمرت حتى قيام الثورة الفرنسية .

أنظر : La Rousse , p . 1738

على بعث الدولة من جديد ، وهو كوبريلى محمد وعينته صدراً أعظماً ، وهو من أصل ألبانى فقير من مدينة كوبرى (وتعنى الجسر) الواقعة شمال الأناضول ، وكان يعمل خادماً ثم ترقى إلى وظيفة طاهى فى قصر السلطان ، ثم شغل عدة مناصب إدارية ، وتولى إدارة عدة ولايات حتى بلغ عمره أكثر من سبعين عاماً ، أى أنه كان فى مرحلة الشيخوخة عندما أسند إليه منصب الصدارة العظمى . وكانت شروطُ كوبريلى لقبول هذا المنصب هى : عدم الاعتراض على أية إجراءات يتخذها ، وله مطلق الحرية فى تعيين موظفيه مهما كانت درجاتهم ، وعدم محاباة أى وزير أو موظف ، وأن تعرض عليه جميع التقارير التى ترد إلى البلاط . وهكذا أصبح كوبريلى فى مأمن من جميع المؤامرات التى تحاك ضده ، وتمتع بالثقة الكاملة للسلطانة الوالدة التى منحته لقب « صاحب العظمة » ، وأقسمت أمام إبنها على تنفيذ جميع شروط كوبريلى . وبعد أن حصل كوبريلى على الفتوى الشرعية بممارسة مهامه ، استقبله السلطان إحتراماً لأوامر والدته ، وعينه فى منصب الصدر الأعظم ، وكان هذا السلطان هو الحادى عشر بين السلاطين الذين يتولون العرش فى سن الثامنة .

وقد نجح كوبريلى فى عملية التجنيد العسكرى ، وفى نشر الإسلام فى منطقة البلقان المسيحية وخاصة فى المناطق القبلية فى ألبانيا مسقط رأسه وفى بلغاريا ، مما سمح بإمداد الجيش والإدارة بمصادر جديدة من العناصر النشطة المخلصة . وقد ترك السلطان محمد مقاليد الأمور فى يد كوبريلى وإبنه أحمد الذى خلفه ، ولكنه ساندهما ضد الدسائس والمؤامرات التى كان يدبرها الأعداء . وفى خلال العشرين عامًا التالية عند نهاية القرن السابع عشر استطاعت الدولة إستعادة قوتها الداخلية والخارجية بفضل هذه الأسرة التى أنجبت هؤلاء الصدور العظام الذين تميزوا بالذكاء والقوة والإدارة الجيدة .

وحدثت نقطة تحول فى الدولة بنهاية هذا القرن ، وهى أن مركز الحكم الأكثر أهمية أصبح قصر الصدر الأعظم وبوابته التى حملت إسم « الباب العالى » وليس قصر السلطان ، وأصبح يرمز إلى هذا القصر بالباب العالى The Subbime Porte . لقد كان كوبريلى محمد رجلاً محنكاً وعلى دراية

بشئون الحكم وخفاياه ، كما كان قاسياً وعملياً وليس ممن يجيدون الكلمات دون الأفعال ، ومتسلطًا حيث بدأ حكمه بتغيير فى هيئة كبار الموظفين والضرب بشدة على أيدى المفسدين ، وإنزال العقوبات على كل من يهدد أمن البلاد ورخاءها ، ويقال أنه أعدم فى خلال خمس سنوات ٣٥ ألف مذنب من بينهم أربعة آلاف تم إعدامهم دفعة واحدة .

لقد قام كوبريلى بهذه الأعمال بدون أى عاطفة وبقسوة تشابه قسوة سابقه مراد الرابع ، وقد طال بطشه الموظفين والجنود والقضاة ورجال الدين ، وكل من هو فى موقع مسئولية وتراخى عن دفع الخطر الذى يمكن أن يواجه الدولة أو السلطة . ولا شك أن هذا الأسلوب بعث الحياة فى الدولة من جديد وجعل القوانين لها قوة الإلزام ، وأدى إلى تقوية السلطة الحاكمة الداخلية والهيئة الخارجية . وفوق كل ذلك استطاع كوبريلى إعادة الانضباط للجيش العثمانى ، وأعده لتحمل المشاق فى الحملات الخارجية ولتجديد سياسة التوسع العثمانى القديمة . وبسرعة فائقة تمكن من تطهير الدردنيل من البنادقة واستعاد جزيرتى تنيدوس ولمنوس ، وأعاد الثقة المفقودة إلى قوة الأسطول العثماني ، وشيد قلعتين جديدتين دائمتين لحراسة مدخل المضايق ، وأوجد قوة عثمانية فى موانئ وجزر بحر إيجة مما أدى إلى إيجاد خطوط للإتصالات مع جزيرة كريت . وبرغم أن البحرية العثمانية لم تتمكن من إستعادة زعامتها فى البحر المتوسط إلا أن الاستعداد لمحاربة البندقية أصبح قائماً ، وأعيد حصار كانديا مرة أخرى بدون عقبات .

وقد واجه محمد تمرداً آخر فى آسيا الصغرى بزعامة شخص يدعى أباظة ، ونجح فى القضاء عليه وقطعت رقبته مع ثلاثين آخرين وأرسلت إلى العاصمة ليشاهدها الناس . كما قام بتقوية الدفاعات العثمانية عبر البحر الأسود ضد القفچاق عن طريق بناء قلاع على نهرى الدون والدنيبر ، وقاد حملة ناجحة إلى ترنسلفانيا ، وأقام ولاية جديدة لتقوية قبضة العثمانيين فى هذه الجهات ، ولفتح الطريق لحملة كبرى ضد المجر والنمسا أنجزها خليفته من بعده .

وتوفى كوبريلى محمد فى عام ١٦٦١ بعد حكم دام خمس سنوات ، وخلفه إبنه أحمد فى منصب الصدارة العظمى ، وكان عمره ستة وعشرون عامًا ، ولقب بكوبريلى الثانى ، واستمر يحكم الدولة بنفس قوة والده لخمسة عشر عاماً . وقد وضع محمد ، عند وفاته ، أربعة مبادئ ليسير عليها السلطان محمد الرابع الذى أصبح عمره الآن عشرين عامًا وهى : عدم الاستماع لنصيحة النساء وعدم إعطاء الفرصة لأحد من الرعية ليصل إلى درجة الثراء الفاحش ، وأن يجعل خزينة الدولة عامرة بالأموال ، وأن يظل فى حالة استعداد دائم هو وجيشه لمواجهة أى خطر .

ولقد ظل السلطان محمد بالفعل على أهبة الإستعداد الدائم على صهوة جواده ولكن من أجل الصيد واللهو وليس من أجل الحرب ، لأنه قام بتنمية مهاراته فى مختلف الألعاب ، بسبب ضآلة تعليمه ، حتى أصبح معروفًا باسم « القناص الساحر » . وقد كتب عنه المؤرخ بول ريكو Paul Rycaut قائلاً : « كان عظيماً مثل نمرود (١) ، ودائم التحرك بجواده فى الحقول لممارسة الألعاب الرياضية وخاصة فى أدرنة والبلقان ، وكان يستعرض مهاراته أمام رعاياه . وأنه طلب فى إحدى المرات تجنيد حوالى ٣٠ أو ٤٠ ألف فلاح من خمسة عشرة منطقة مختلفة لقطع الأخشاب لمدة ثلاثة أو أربعة أيام ، وفى يوم الصيد استعرض مهاراته فى الصيد بالكلاب وبالبنادق مما أحدث ضجيجًا واضحًا . فكان يعرض على سكان هذه المناطق قطع لأخشاب فى الشتاء القارص البرودة ، وكان الكثيرون منهم يدفعون حياتهم ثمنًا لرضاء نزوات السلطان » .

ولم تكن هوايات السلطان فى ركوب الخيل تلقى استحساناً من رعاياه ، ولا حياة النعيم التى كان يعيش فيها داخل القصر السلطانى حيث أحاط نفسه بوسائل ترفيهية عديدة ، واختلف فى ذلك عن أسلوب أبيه . فحينما طلبت منه

---

(١) نمرود هو ملك قديم مؤسس مملكة بابل ، وكتب عن شجاعته ومهارته فى القنص فى الأساطير العربية والفارسية .

أنظر : La Rousse , p . 1556

الحاشية ذات مرة ضرورة العودة إلى أدرنة ، أجبرهم على العودة خلفه وهو على الجواد لمدة عشرين ساعة متواصلة دون أن تطأ أقدامه الأرض . ومن أجل هواية القنص كان يستورد من الخارج سلالات الصقور وكلاب الصيد الممتازة وخاصة من روسيا . كما ظهرت هذه الهواية في الشعر العثماني ، مثلها مثل البطولات الحربية لأجداده والتي تسجلت في القصائد المختلفة ، فقد كتب بخط يده بيانات تفصيلية عن كل حيوان قتله وحفظت في السجلات . وقد استهوته المشاركة في الحملات المتوالية إلى الدانوب التي بدأ كوبريلي أحمد في إرسالها على نطاق واسع ؛ فبينما كان الصدر الأعظم يقاتل كان السلطان يقتنص الحيوانات . وكانت أولى هذه الحملات في صيف ١٦٦٣ ، وعندما ابتعد أحمد بجيوشه عن أدرنة سلمه السلطان راية الرسول المقدسة وذهب للقنص . وكانت الحملة التي قادها الصدر الأعظم إلى بلجراد أكبر وأعظم حملة تخرج منذ عهد سليمان القانوني لأنها اعتمدت على العون الذي قدمه الرعايا المسيحيين في ولاشيا ورومانيا والمجر للأتراك لتحريرهم من طغيان الهابسبرج .

وقد عبرت القوات العثمانية الدانوب ثم اجتاحت المجر وترنسلفانيا ، وعندما وصلت إلى مدينة دراڤا طلب العثمانيون من سكانها دفع الجزية المعهودة منذ حكم سليمان ولكنهم رفضوا ، فتقدمت القوات العثمانية إلى بودا ، ثم واصلت السير شمالاً إلى قلعة نوهوزل Neuhaüsel الحصينة واستولت عليها ، وكانت مفاجأة للنمساويين وتحقق النصر التركي الذي لم تشهده أوروبا منذ موقعة ميزوكيرتش من سبعين عاماً مضت . وبرغم أن هذا النصر كانت غنائمه قليلة فإنه شجع الأفكار الطموحة لكوبريلي أحمد ليمتلك ڤينا ذاتها ويكمل أعمال السلطان سليمان العظيم . فبعد أن قضى الشتاء في بلجراد تقدم غربًا في العام التالي تسبقه قوات غير نظامية من التتار قامت بتخريب الأرض ونشر الرعب مثلما كانت تفعل قوات الإكنجي في عهد سليمان ، ونجح في الإستيلاء على جميع القلاع الواقعة على الطرق المؤدية إلى ڤينيا ، ثم وصل إلى النقطة الحصينة وهي كورمند Körmend الواقعة على نهر رآب والقريبة من الحدود بين المجر والنمسا .

وتنبه النمساويون للخطر العثمانى عند منطقة ڤاسڤار Vasvar ، ولذلك قاموا بمحاولات لعقد سلام قبله العثمانيون بصفة مبدئية ، وقبل التصديق عليه تحرك أحمد بقواته لعبور نهر رآب ، ولكنه واجه مقاومة عنيدة ومنظمة من جانب قوة عسكرية إمبراطورية قليلة العدد ولكنها قوية التسليح ، وتكتيكاتها أكثر كفاءة من القوات العثمانية ، وهزم هزيمة سريعة ومهينة . وبرغم ذلك ظل كوبريلى مع النصف الثانى من قواته لعبور نهر رآب فى الصباح التالى ، ولكن العواصف الممطرة والفيضانات منعته من العبور ، وحفظًا لماء الوجه أرسل إلى السلطان يخبره بأنه عبر النهر بنجاح ليبدأ الاستعداد لإحتفالات النصر فى استانبول . ثم لقيت القوات العثمانية التى تقدمت هزيمة على أيدى الفروسية النمساوية بعد الانتصار المبدئى الذى حققته ، وتشتت شملها وعادت من حيث أتت تاركة تحقيق النصر للمسيحية .

لقد أصبحت معركة سان جوثار فى ١٦٦٤ نقطة مصيرية فى النزاع بين العثمانيين والهابسبرج حيث لقى العثمانيون « الكفرة » هزيمة منكرة على أيدى المسيحيين ، وقضت بذلك على سلسلة الإنتصارات العثمانية التى بدأت فى معركة موهاكس ١٥٢٦ ، واستمرت فى ميزوكيرتش بعدها بسبعين سنة ، فقد أوضحت هذه المعركة للعثمانيين أهمية الخبرة العسكرية والتنظيم العسكرى الجيد والتدريب والتجهيز والتكتيك الحربى المدروس والقيادة الحكيمة ، والتى تحققت فى الجيوش الأوروبية بعد حرب الثلاثين عامًا. إن العثمانيين ، برغم نجاح آل كوبريلى وبرغم التفاؤل الذى سادهم ، ظلوا يعيشون بعقلية القرن السادس عشر التى فشلت فى إستيعاب التطور الذى لحق بأسلحة القرن السابع عشر ، فجيوشهم ظلت متخلفة عن جيوش الغرب ، وظلوا يعتمدون على الأساليب القتالية التقليدية ، وهذا الأمر كان يثير القلق والمخاوف على مستقبل العثمانيين .

إن النصر الذى تحقق للنمساويين فى سان جوثار كان بفضل الإمدادات الإضافية التى أرسلتها لهم فرنسا ، وكانت من أكثر الدول الأوروبية تقدمًا فى

الفنون العسكرية آنذاك ، إذ كان لويس الرابع عشر (١) يؤيد الحلف البابوى المقدس برغم سياسة التحالف التركى – الفرنسى التقليدية . فمنذ عهد كوبريلى محمد ساءت العلاقات بين الدولتين بسبب استخفاف السفير الفرنسى بالصدر الأعظم فأصدر أمراً بتعليق الإمتيازات الفرنسية . كما أن المساعدون الفرنسيون واجهوا إحتقاراً من كوبريلى أحمد لأنه كان ينظر إلى وجناتهم ولحاهم المحلوقة وشعورهم المستعارة ، ويقول : من هؤلاء الفتيات ؟ فكانوا يهجمون على الأتراك صارخين « الله » بطريقتهم الخاصة ، كذلك نشر القادة العسكريون الفرنسيون الرعب بين الانكشارية ومنهم القائد دوق دى لا فوياد Duc de la Feuillade الذى اشتهر باسم « الرجل الفولاذى » .

وبرغم ذلك كانت خسائر النمساويين فادحة ولذلك عقدوا مع الأتراك سلمًا مبدئيًا بعد عشرة أيام من انتهاء المعركة ، ثم كانت المعاهدة النهائية فى ڤاسفار التى قضت بتجديد معاهدة سيتڤاتوروك (٢) ، واحتفاظ النمسا بالمناطق التى تم الإستيلاء عليه ومنها نيوهوذل ، وأقرت بضرورة دفع أمير ترنسڤانيا وهو أپافى Apafy للجزية السنوية مع الاعتراف به ، وإخلاء ترنسلڤانيا من الأتراك والنمساويين ، ومن ثم لم تعد النوايا النمساوية جهة الشرق تشكل خطراً على الدولة العثمانية ، وإنما كان الخطر فى الأجزاء الشمالية الغربية . وهكذا ساهم كوبريلى فى توسيع حدوده بلاده فى هذه المرحلة المتأخرة ، وكسب بالطرق الدبلوماسية ما خسره أثناء الحرب وعاد منتصراً ودخل استانبول وسط احتفال شعبى كبير .

كانت الخطوة التالية لكوبريلى أحمد هى إتمام السيطرة على جزيرة كريت التى أصبحت دفاعاتها ضعيفة بعد أن استمرت الحملات عليها

---

(١) لويس الرابع عشر (١٦٦١ – ١٧١٥) من أعظم ملوك فرنسا – تولى الحكم وهو فى الخامسة من عمره ، وكانت ملكيته مستبدة تجمع كل السلطة فى يدها .
أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، التاريخ الأوروبى الأمريكى .

(٢) وقعت معاهدة ستڤاتوروك بين النمسا والدولة العثمانية فى عام ١٦٠٦ .
أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ المشرق العربى .

لخمسة وعشرين عامًا . ففى عام ١٦٦٦ خرج على رأس حملة كبيرة حاصرت الجزيرة لثلاثة أعوام ، وقد مكنه من البقاء طوال هذه الفترة بعيداً عن استانبول محظية كريتية مؤيدة له ، كانت ذات نفوذ قوى على السلطانة ، وساهمت فى تقوية مركزه فى الجزيرة . وقد اشتد الحصار العثمانى على المدينة حيث وصفها ريكو بأنها كانت من أقوى حصون الدنيا بفضل التحصينات التى صنعها أحد أمهر المهندسين آنذاك حيث أقام الزوايا والتعاريج والخنادق التى وقف الأتراك أمامها عاجزين برغم مهارتهم وتفوقهم من قبل فى حصار رودس .

وكان على الأتراك الإستعانة بقوة بحرية للدخول إلى الجزيرة ، وليتمكنوا من مواجهة البنادقة الذين حصلوا على مساعدة صليبية جديدة ليس من جانب البابوية والإيطاليين والهابسبرج فحسب بل من جانب الفرنسيين أيضًا والذين مدوا لهم يد العون منذ البداية بطريقة سرية . فقد أبحرت الفتيات الصغيرات الشهيرات فى الفروسية الفرنسية مع القائد دوق دى لافوياد تحت حماية العلم المالطى إلى كانديا ، وبروح البطولة الرومانسية لم يطعن أوامر القائد البندقى موروزينى Morosini واخترقن القلعة بقيادة بعض الرهبان الحاملين للصليب ، وتمكن من قتل عدد لا بأس به من الأتراك وأجبروهم على التراجع . وفى العام التالى أبحرت قوة فرنسية إلى كانديا بقيادة دوق دبى نويل Duc de Nouilles الذى حمل العلم البابوى هذه المرة ، ورفض أى مساعدة من جانب قوات موروزينى ، ولما فشلت محاولته ، انضم الأسطول الفرنسى إلى الأسطول البندقى وقاموا بعملية قصف بحرى لإجبار الأتراك على الانسحاب ، ولكن باءت هذه المحاولة بالفشل بسبب إنفجار وقع فى سفينة فرنسية ، وبسبب النزاع الذى دب بين الفرنسيين والبنادقة ، وأسفر عن عودة الفرنسيين إلى بلادهم وترك البنادقة وحدهم وبعد أربعة أيام سلم موروزينى كانديا واعترف بأنه من العسير الدفاع عنها ، فقد كان حصارها أطول من حصار طروادة .

ثم وضع كوبريلى أحمد شروطًا كريمة للاتفاق بين الجانبين وهى : السماح للحامية البندقية بسحب جزء من مدفعيتها ، وإطلاق سراح الكريتيين والسماح لهم بالعودة إلى ديارهم ، وإحتفاظ البنادقة بموانئ المدينة التى أصبحت أقليمًا تركيًا حاجزًا عبر جنوب بحر إيجة مما جعل من منطقة شرق

المتوسط بحيرة تركية . وقد رحب السكان المسيحيون اليونانيون فى الجزيرة بالأتراك واعتبروهم محررين لهم من ضغوط اللاتين الكاثوليك ، واعتنق الكثيرون منهم الإسلام بمرور الوقت .

لقد أورث كوبريلى محمد إبنه أحمد مهمة وضع حد للحروب فى هاتين الجبهتين مع تنظيم عسكرى ناجح مشابه لتنظيم سليمان القانونى . وفى الحقيقة كان أحمد مقاتلاً من الطراز الأول ، وامتلك فى ذات الوقت مؤهلات رجل الدولة الناجح ، وهذا جعل المؤرخون يقارنون بينه وبين صوقللو آخر الصدور العظام فى عهد سليمان القانونى الذى استطاع توسيع رقعة الدولة ووقف انهيارها بعد وفاة السلطان . وقد منح كوبريلى محمد إبنه أحمد قدراً من التعليم الجيد ودراسة القانون برغم أميته ، وكان يجيد الإدارة لأنه كان حاكمًا على ولايتين من أنجح الولايات فى الدولة . وكان أحمد قوياً مثل والده ولكن بغير قسوة ، بل إنه نجح فى التخلص من قسوة آل كوبريلى عدما استشعر الأمان الكافى ، وأسس نظامًا إدارياً خاليًا من الفساد ، فكان يمقت الرشوة ويعاقب كل من يقدم له هدية أو هبة . وكان مسلمًا صارمًا ولكن بدون تعصب ، ويقدر آراء الآخرين ، وكان يحمى المسيحيين واليهود من الظلم وأزال القيود المفروضة على بناء الكنائس ، وهو فى هذا المجال يناقض أباه الذى كان يعزل الشيوخ غير المتعصبين ويذكر أنه ذات مرة شنق أحد بطاركة الإغريق لأنه أيد ثورة مسيحية . وتميز بالعدل والعقلية المنظمة فى تتبع جذور أى مشكلة ، كما كان قليل الكلام وحسن النوايا وله حضور ومؤدب ومعتدل فى تصرفاته وصادقًا فى كلامه ، ومن أجل هذه الصفات احترمه شعبه وبجله.

وكانت مهمة أحمد الرئيسية فى المجال المدنى هى أن يجنى ثمار الإصلاحات التى قام بها والده ، لذلك اتخذ الإجراءات الكفيلة بتأكيد قوة التشريع الإسلامى وقوانين السلطان ، فقلل من أعداد رجال الخدمة الداخلية لأنهم مثلو عبئًا ثقيلاً على الخزينة السلطانية ، وكانوا مصدر إزعاج للدولة . وأزال الكثير من الأعباء على الخزينة المركزية ، ووفر الحماية للفلاحين بالتقليل من الضرائب المفروضة عليهم ووفر الأمان العام . وأخيراً وبرغم مشاغله السياسية والعسكرية ، وجد الوقت المناسب لتكريم الأدباء والشعراء والمؤرخين الذين مجدوا انتصاراته وأعماله .

وفى عام ١٦٧٢ تطلع كوبريلى أحمد لتحقيق انتصارات جديدة فى منطقة البحر الأسود التى أصبحت تشكل مصدر خطر جديد على الأتراك من جانب الروس والبولنديين . وكان التركيز على أوكرانيا هذه المرة حيث كانت مصدر النزاع بين الدولتين . فقد قام الروس والبولنديون بتقسيم المناطق المستقلة للقفچاق فى أوكرانيا الواقعة جنوب نهر البوج والدنيبر ، وتحكم القيصر الروسى فى هذه المناطق كما تحكم من قبل فى منطقة نهر الدون فى الشرق ، وعندما ثار القفچاق فى أوكرانيا البولندية ضد سادتهم ، وأرسلوا قوة عسكرية كبيرة لقتالهم بقيادة چون سوبيسكى John Sobieski (١) ، فطلب قائد القفچاق المساعدة من السلطان وعرض عليه بسط السيادة العثمانية على إقليمه . وقد استقبله السلطان محمد بحفاوة فى استانبول ومنحه طوغاً باثنين من أذناب الخيل مثل السنچاق العثمانى فى إقليم أوكرانيا ، وأمر خان القرم بتقديم المساعدة للقفچاق . وقد أثار هذا المسلك بولندا وقيصر روسيا ، وهددوا بالاتحاد وإشعال الحرب ضد السلطان العثمانى . فاعترض السلطان بغرور ، وكتب الصدر الأعظم بخط يده إلى المبعوث البولندى قائلاً : « إن القفچاق شعب حر خضع للبولنديين ولكنه عجز عن تحمل قسوة وظلم وتجاوزات حكامهم ، ولذلك طلب الحماية من خان القرم ، وهم الآن تحت حماية الأتراك . فإذا طلب سكان أى أمة العون من سلطان قوى من أجل الحصول على الحرية ، فهل يعنى ذلك أن السلطان يسعى لفرض سيطرته عليهم ؟ » .

وعندا أهمل ملك بولندا هذه الرسالة ، خرج السلطان على رأس جيش من استانبول فى ١٦٧٢ ، وعبر مولداڤيا متوجهاً إلى ضفاف الدنيستر ، وهناك انضمت إليه قوة من التتار ومن الجدير بالذكر أن السلطان صاحب هذه الحملة ولكنه لم يتول قيادة القوات بنفسه ، وبعد عبور النهر استولت القوات

---

(١) چون سوبيسكى هو چون الثالث الذى أصبح ملكاً على بولندا ولتوانيا من ١٦٧٤ إلى ١٦٩٦ .

أنظر : La Rousse , p . 1442

المشتركة على قلعتين من أهم القلاع ، ثم تم توقيع صلح مهين فى بوزاق Buszacs تنازل بمقتضاه ملك بولندا عن بودوليا الواقعة بين الدنيبر والدنيستر إلى الأتراك ، كما تنازل عن نصيبه فى أوكرانيا للقفجاق ، ووافق على دفع جزية للباب العالى . ولكن خرق سوبيسكى هذه المعاهدة فيما بعد وحارب الأتراك ثلاثة مرات ، كان آخرها فى ١٦٧٦ حيث لقى هزيمة منكرة على أيديهم ، ووقع معاهدة جديدة فى زورانو Zurawno . وهكذا صار الوجود العثمانى قائماً فى شمال البحر الأسود للضغط على البولنديين ، ولعرقلة المشروعات الروسية فى أوكرانيا . وكانت هذه آخر إنجازات كوبريلى أحمد الذى استخدم المصادر الجديدة للدولة ولكنه لم يعش بعدها إلا لفترة قصيرة ، حيث مات بعد عدة أيام من نهاية هذه الحملة وهو فى سن الثانية والأربعين نتيجة إفراطه فى شرب الخمور ، وهى الصفة السيئة الوحيدة التى لازمت هذا الحكم القدير .

الفصل الثالث والعشرون

كانت الآمال معقودة على أن يخلف كوبريلي أحمد شقيقه مصطفى زاده في منصب الصدارة العظمى ، لأن ابن أحمد كان قاصراً ، وهذا من الأمور التي كانت بلا شك ستطيل من أمد حكم أسرة كوبريلي التي استطاعت خلال العقدين الأخيرين إحياء الإمبراطورية المنهارة داخليًا وخارجياً . ولكن حدث خلل في نظام « الخلافة » ، لأن السلطان محمد في لحظة غضب اختار شخصاً آخر لهذا المنصب ، وهو شقيق أحمد في الرضاع ويدعى قره مصطفى مما أحدث اضطراباً أضر بالإمبراطورية لثلاثة عشرة عاماً . فقد كان قره مصطفى أو مصطفى الأسود شخصاً مغروراً متعجرفاً واتبع أسلوباً في معيشته مليئاً بالتفاخر والتباهي ؛ إذ بلغ عدد الجواري في قصره ١٥٠٠ جارية بالإضافة إلى عدد آخر من النساء العبيد ، و ٧٠٠ من الخصيان السود القائمين على خدمتهن ، كما كان يذهب للقاء السلطان وحوله عدد لا يحصى من الجياد وكلاب الصيد والصقور . وفي عمله تسببت طموحاته في العديد من المخالفات والأعمال الفاسدة ، إذ كان يبيع المناصب على كافة أنواعها بدون فصال ، ويساوم المبعوثين الأجانب من أجل تجديد الإمتيازات ، وحدد لنفسه مبلغًا معيناً ليسمح للأشخاص في المثول بين يدى السلطان . وفوق ذلك راودته أحلام الشهرة العالمية ، وفكر في أن يصبح غازياً سلطانيًا خاصة وأنه كان يتميز بالتعصب ضد المسيحيين فكرر تهديد بايزيد الأول بأنه سيدخل بجواده إلى كنيسة القديس بطرس بروما ، وأنه سيستولى على ڤينا ثم يواصل السير إلى الراين لمقاتلة الملك لويس الرابع عشر ، ولم يكن في كل هذا يعتبر نفسه تابعًا للسلطان بل حاكماً مطلقًا على دولة أوروبية عظمى ، وهو بشكل عام ترك بصمة سيئة من خلال أخطائه قضت على المكاسب التي حققتها أسرة كوبريلي للدولة في المجال العسكري وفي مجال تنمية الموارد وتقويتها .

وفي خلال الخمسة أعوام التي قضاها في السلطة ، فقد العثمانيون نصيبهم في أوكرانيا الذي حصلوا عليه من الروس عن طريق آل كوبريلي ، بعد أن منيت القوات العثمانية بالفشل في الحملتين اللتين أرسلتهما إلى هذه المناطق ذات المناخ القاسي ، وفقدت فيهما رجالاً كثيراً وسلاحًا . واضطر قره مصطفى إلى عقد سلام مع الروس تنازل فيه العثمانيون عن جميع

إدعاءاتهم فى أوكرانيا ، وسحبوا قواتهم منها ، وتعهد الطرفان بعدم إقامة قلاع فى المنطقة الواقعة بين نهر البوج والدنيستر . وبذلك إنهار الحاجز الذى أقامه العثمانيون لمنع التوسع الروسى ، مما شجعهم على الدخول فى حروب طويلة مع العثمانيين فى القرون التالية .

ولم يهتم قره مصطفى بهذا الأمر كثيراً لأن طموحاته فى التوسع والغزو كانت تتجه إلى منطقة أخرى وهى قلب أوروبا حيث صمم على الإستيلاء على مدينة ڤينا كما حاول سليمان من قبل وفشل . وقد واتته الفرصة بنشوب الثورة فى المجر من جانب البروتستانت الساخطين على ضغوط الكاثوليك الهابسبرج ، وكان قائدها هو الكونت إمريك تكلى Count Emmerich Tekeli الذى نجح فى إلحاق الهزيمة بقوات الإمبراطور ، ورفض قبول الهدنة ، وطلب المساعدة من السلطان العثمانى فوافق على أن يصبح ملكاً على غرب المجر فى ظل السيادة العثمانية . كما طلب تكلى مساعدة الفرنسيين أيضاً ، ولأن الملك لويس الرابع عشر كان يرى ضرورة إيجاد توازن فى القوى مع الهابسبرج ، فقد مد يد العون من قبل لأبافى وجعله أميراً على ترانسلڤانيا ضد الهابسبرج ، وهو الآن يساعد تكلى لتحقيق نفس الهدف ، ولكنه فى نفس الوقت كلف مبعوثه فى الآستانة أن يعلن بأنه سيقف على الحياد . وقد شجع هذا الموقف العثمانيين على مهاجمة النمسا ، فعندما طلب مبعوث النمسا تجديد معاهدة ڤاسڤار الموقعة مع كوبريلى ، رفض الصدر الأعظم وبعث بمذكرة لتسليم قلعة جيور Györ المهمة كشرط لإستمرار السلام ، مع دفع جميع المبالغ التى تكلفها للإستعداد للحرب ، وهنا أجاب المبعوث : « تؤخذ القلعة بقوة السلاح وليس بقوة الكلمات » .

والآن أصبح إحتمال الحرب بين العثمانيين والنمسا قائماً . وفى خريف ١٦٨٢ نصبت شارة السلطان التى تحمل أذناب الخيل أمام القصر السلطانى فى استانبول تمهيداً للرحيل . وفى ربيع ١٦٨٣ خرج الجيش السلطانى إلى أدرنة وكان يضم قوة كبيرة من المهندسين ورجال سلاح المدفعية تصاحبهم وحدات للصيانة وعدد من فرق تتار القرم والفرسان غير النظاميين وعدد من أصحاب الحرف والتجار وعمال المعسكرات الذين وضعوا الأحمال على ظهور البغال والجاموس والجمال مما جعل منظر الجيش العثمانى يبدو أكبر من حجمه الحقيقى .

ويعد هذا أكبر وآخر جيش إسلامى يخرج للقتال باسم الدين حسب النظام التقليدى العثمانى ضد أوروبا المسيحية . وقد استعد الإمبراطور ليوبولد (١) لمواجهته بجيش هائل بقيادة أمهر القادة العسكريين وهو الدوق شارل حاكم اللورين ، مع وعد من البابا بإعانات مالية وإمدادات عسكرية من الأمراء الألمان ومن چون سوبيسكى ملك بولندا الذى نقض معاهدته مع الباب العالى . وقد أدى هذا التحالف إلى اضطراب فى مشروعات لويس الرابع عشر الذى كان يحاول منع أى تحالف يقوم به ليوبولد إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، ومن ثم فتر حماسه للمشاركة فى هذه الحرب التركية - النمساوية .

على أية حال سار الجيش العثمانى فى ربيع ١٦٨٣ بقيادة السلطان حتى وصل إلى بلجراد ، وهناك انتقلت راية الرسول المقدسة إلى قره مصطفى ليتولى القيادة . وعند إشك Essek انضمت قوات الصدر الأعظم إلى القوات المجرية بقيادة تكلى الذى كان معه فرقة مسيحية تحمل شارة باللاتينية ، كتب عليها عبارة « من أجل الله والوطن » ، وكلمة « رجال الصليب » . وهنا تكررت أحداث التاريخ أمام قره مصطفى حينما كان سليمان القانونى حليفًا لزابوليا . وحتى هذه اللحظة لم يجرؤ مصطفى على إعلان رغبته فى حصار ڤيينا ذاتها ، إذ كانت هناك عدة نقاط حصينة فى المنطقة الواقعة بين بودا وحدود النمسا ، وعدة قلاع تحمى مدخل العاصمة ، ومن بينها قلعتا جيور وكورمند وكان لابد من التقليل من المخاطر بالسيطرة عليها قبل التوجه إلى ڤيينا .

وقبيل الوصول إلى رآب عقد الصدر الأعظم مجلسًا عسكريًا لتبادل وجهات النظر مع قادته ، ومن بينهم خان القرم ، ويقال أن إبراهيم باشا بودا المحنك فى القتال نصحه بأن يتبع بعض الإجراءات العسكرية الإحتياطية قبل الإقدام على حصار ڤينيا ، وحتى يحصل على تأييد رأيه روى قصة الملك

---

(١) كان ليوبولد إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة من ١٦٥٧ إلى ١٧٠٥ . وكان فى الأصل ملكاً على المجر فى الفترة من ١٦٥٥ إلى ١٦٥٧ .

أنظر : La Rousse , p . 1476

الذى وضع كومة من الذهب وسط سجادة ثم أعلن أنها ستكون من نصيب من يصل إليها دون أن تطأ أقدامه السجادة ، وكان الرابح هو أحد الأشخاص الذى استطاع طى السجادة من حافتها حتى وصل إلى الذهب . ولذلك صمم إبراهيم على أن يحتاط قره مصطفى للأمر ويبدأ بفرض السيطرة على الحدود المضطربة بالتحكم فى قلاعها الحصينة ، وأن يؤجل أى هجوم على المدينة حتى الخريف أو الربيع التالى ، وبالتأكيد ستسقط فى قبضة يده . ولكن أجاب الصدر الأعظم قائلاً : « أنت رجل كهل فى الثمانيين من العمر ومخرف » . بينما أيده خان القرم سليم چيراى وآخرون مما أثار غضبه وصمم على السير مباشرة إلى مدينة ڤينيا ، وأمر المهندسين ببناء الجسور على نهر رآب وعبره واتجه غرباً ، وظل إبراهيم باشا فى الخلف يراقب المؤن ، ولم يترك سوى قوة صغيرة لضم قلعة جيور . أما فرق التتار غير النظامية فقد كان عليها أن تظل مع قوات تكلى لتخريب الأراضى أمامه وحوله لتمهيد الطريق لأجراس الأتراك لتدق مرة أخرى مثيرة للرعب فى قلب أوروبا .

وفى ١٣ يولية ظهر قره مصطفى بقواته الجرارة أمام أسوار ڤينيا ، وبعد أن نصب مدافعه ، وجه الطلب التقليدى للمدافعين وهو الاستسلام أو اعتناق الإسلام ، أو الجلاء مع تأمين حياة السكان . وقد سلم هذه الرسالة عبر الأسوار أحد الضباط الأتراك إلى جندى الإتصالات ليسلمها إلى كونت شتار مبرج Count Stahrembereg حاكم المدينة ، ولكنه لم يتلق رداً ، لأن الإمبراطور مع رجاله كانوا قد انسحبوا غرباً إلى مدينة بساو Passau ، بينما اتجهت القوة الرئيسية لجيشه بقيادة شارلز أوف لورين وهى تضم ثلثى الجيش النمساوى إلى مدينة لينز Linz على نهر الدانوب وترك الثلث الباقى لتقوية الحصون الموجودة حول أسوار المدينة وكان عددها حوالى ١٢ ألف مقاتل . أما الجيش العثمانى فقد نصب خيامه حول المدينة على شكل هلال ، مكوناً مدينة من الخيام التى بلغ عددها ٢٥ ألف خيمة بالإضافة إلى ٥٠ ألف حمالة لنقل الأمتعة ، وفى الوسط كانت مجموعة الخيام الفاخرة التى يدير منها الصدر الأعظم عملية الحصار وشئون الحكم ، وكانت تشبه إلى حد كبير الخيمة السلطانية العظيمة التى كان يقيمها السلطان سليمان القانونى . وكان ليوبولد يعتمد أساساً فى الزود عن العاصمة النمساوية على حلفائه الأوروبيين

مثل منتخب باڤاريا ومنتخب سكسونيا وملك بولندا چون سوبيسكى ، ولكنه لم يستدعهم إلا حينما أحدق الخطر بالمدينة . وفى ذات الوقت كان من العسير على قره مصطفى أن يدك أسوار المدينة بهجوم سريع وخاطف لأنه بدافع من طمعه وشراهته ، أراد أن يحصل على الغنائم وحده بصفته ممثلاً للسلطان عن طريق الحصار ، أما فى حالة الهجوم السريع فإن جنده هم الذين سينهبون المدينة ويحصلون على الغنائم .

وعندما بدأ الحصار ، كان جليًا أن المدافعين على درجة عالية من المهارة فى استخدام المدافع ، وأن مدافعهم أفضل من مدافع العثمانيين ، وفى الجانب العثمانى عجز مصطفى عن نقل المدافع الثقيلة إلى ڤيينا لبعد المسافة ، وهو بذلك كرر نفس الخطأ الذى وقع فيه السلطان سليمان من قبل ولذلك اعتمد على المدفعية الخفيفة والمتوسطة والتى لم تكن تناسب أسوار ڤيينا الحصينة . وفوق ذلك كانت ذخيرة العثمانيين التى صنعت فى مدينة بودا فقيرة والقنابل لا تنفجر ، كما كان الاعتماد العثمانى على المدفعية كسلاح مساعد والاهتمام الأكبر كان لحفر الخنادق التى برعوا فيها كما حدث فى كانديا . وقد أحاط مصطفى بالجزء الأكبر من مدينة ڤيينا وبالضواحى المحيطة بها بعد أن جلا عنها سكانها واتجهوا ناحية الدانوب ، ثم بدأ بمساعدة عامل مسيحى أسير فى بناء عدد من الخنادق حولها وجعل لها فتحات فى نقاط مختلفة ، غير أن المدافعين تميزوا بالقوة ، وقاموا بمناوشات مستمرة ، وكانوا يصلحون بسرعة التلفيات التى أصابت دفاعاتهم . كذلك ظهر عدم التكافؤ بين أسلحة الأتراك وهى السيوف العتيقة وبين أسلحة الألمان وهى البلط والمناجل والفئوس . ولكن تمكن الأتراك من إحداث ثقوب فى الأسوار ، وفى ٤ سبتمبر شنوا هجومًا رئيسيًا دفعوا به جنود شتارمبرج بعيداً عن معاقلهم ، وتسللوا من فتحة واسعة إلى مدينة بورج Burg مرددين هتافات « الله » وملوحين بأسلحتهم وشاراتهم . وبعد معركة دامت ساعتين ، تكبد فيها الطرفان خسائر فادحة أصبح مركز المدافعين حرجاً .

وفى هذه اللحظة ، وصلت الأخبار بوصول الجيش البولندى بقيادة چون سوبيسكى ، والذى تأخر بعض الشئ فى طريقه من وارسو عند مدينة كراكاو

Cracou ، وبعد عبوره نهر الدانوب انضم إلى الجيش النمساوى بقيادة دوق أوف لورين وفرق بافاريا وسكسونيا ، ثم عقدوا مجلساً عسكرياً ، وساروا لثلاثة أيام بين الغابات وممراتها الوعرة حتى وصلو إلى مرتفعات كهلنبرج Kahlenberg التى تتحكم في مدينة فيينا ، ووجدوها لدهشتهم غير محتلة ، ومنها أطل سوبيسكى على المدينة المحاصرة ونظر إلى معسكر الأعداء الذى أحاط بها بغير نظام وقال بكل ثقة :

« هذا الرجل نصب معسكره بطريقة سيئة ، أنه لا يعلم شيئًا عن فنون الحرب ، وسوف نهزمه بكل تأكيد » . وقد فشل قره مصطفى فى إحراز أى تقدم للدفاع عن جنده فى عملية الحصار ، كما كان المعسكر العثمانى ينقصه التحصين والحماية بنقاط المراقبة وفرق الفروسية فى السهول المحيطة ، وفوق كل ذلك لم يحاول منع المدد القادم وهو القوات البولندية أثناء عبورها نهر الدانوب ، وترك هذا العمل لخان التتار بدلاً من أن يقوم به بنفسه ثم لامه بعد ذلك على فشله ، كذلك لم يحاول وقف تقدم جيوش العدو فى ممرات كهلنبرج الصخرية الجبلية ، وكل ما فعله هو إرسال قوة إلى السهول المنخفضة فى انتظار قوات سوبيسكى أسفل السفح .

وقبل فجر يوم ١٢ سبتمبر وصلت القوات المسيحية فى كامل استعدادها للمعركة ، وظهرت أمام الأتراك كشلال أسود هادر من أعلى الجبل يدمر كل شئ يقابله ، وقد اعتقد مصطفى أن قوة من الفروسية كافية للمواجهة ، بينما أصر خان القرم على استخدام فرقه من الانكشارية تاركاً الجيش الرئيسى فى الخنادق أمام المدينة ، وحتى هذه اللحظة لم يستخدم الأتراك سلاح المدفعية .

وهكذا أصبح الأتراك بين نارين ؛ نار الحامية المنظمة بدقة ، ونار القوات المساعدة الممتازة . وفى البداية اتخذ القتال شكل المناوشات وسط أودية الهضبة ، ثم وقع قتال عنيف فى منطقة السهول بين الفروسية التركية والقوات البولندية والألمانية ، وقد أبلى سوبيسكى بلاء حسنًا ضد الأتراك ووصل إلى قلب معسكرهم حيث خيمة الصدر الأعظم ، وعندما رآه خان التتار صاح قائلاً : « يا الله ، الملك بيننا » وركض بعيداً عن ميدان المعركة ، وتشتت شمل الجيش العثمانى وترك ميدان المعركة ، وبه عشرة آلاف قتيل .

أما الانكشارية التى كانت فى الخنادق أمام المدينة ، فلم تستطع التراجع ومزقها المدافعون البولنديون . وهجر الأتراك معسكرهم تاركن المدفعية والجوهرات والأحجار الكريمة والثيران والسجاد والفراء والثريات والأسلحة وأصبحت كلها من نصيب سوبيسكي وجيشه ، ولكنه لم يعثر إلا على القليل من العملات العثمانية لأن الأتراك كانوا قد فروا بها فى زكائب ضخمة . وقد دفع الفضول البعض إلى التنقيب فى الغنائم فتم العثور على نعامة مقطوعة الرأس وببغاء على قيد الحياة وأقفاص ذهبية للطيور وكميات ضخمة من البن كانت السبب فى إقامة أول مقهى فى مدينة ڤيينا .

وقد هرب الصدر الأعظم فى ارتباك مع البقية من جنده حاملاً راية النبى (ﷺ) ومبلغًا ضخماً من المال ، تاركًا الخيمة الفاخرة لملك بولندا الذى أرسل إلى زوجته الملكة سرجًا ذهبيًا من مخلفات مصطفى ومعه رسالة تصف ما غنمه من كنوز من معسكر الكفرة وختمها بقوله : « نحن نسوق أمامنا الآن قطيعًا من الجمال والبغال وبعض الأسرى الأتراك » . ثم جاء الكونت شتارمبرج ليقدم التهنئة إلى سوبيسكى فى الخيمة لحسن بلائه فى الزود عن ڤينا والحفاظ عليها . وكان أمام الخيمة كمية ضخمة من الملابس المذهبة ومن بينها عصى مذهبة تحمل أذناب الجياد . وقد حمل المنتصرون هذه المخلفات إلى المدينة فى موكب نصر كبير تقدمه القادة المسيحيون .

منذ قرن ونصف من الزمان فشل سليمان القانونى فى حصاره لڤينا بسبب صعوبة نقل الإمدادات ونقصها ، ولكنه انسحب من أمام أسوارها بكامل جيشه دون أن يمسه أحد بينما مصطفى الأسود حارب وخسر المعركة العسكرية أمام أعدائه الذين كانوا أقل منه عدداً وتحول جيشه إلى رعاع مشتتين . ولا شك أن هذا النصر قضى على مكانة الأتراك العثمانيين وقوتهم فى أوروبا ووصفهم كدولة غازية . وبعد سقوط المدينة تعقبت الجيوش المسيحية بقيادة سوبيسكى ولورين بقايا الأتراك ، ثم توقف قره مصطفى فى رآب ليجمع بقية القوات ويملى عليهم أوامره . وقد اتهم إبراهيم باشا حاكم بودا لأنه عارض خططه وفر من ميدان المعركة بقواته وأمر بتتبعه ثم أمر بإعدامه مع عدد من كبار الضباط الذين فروا معه . وأثناء مواصلة الجيش العثمانى

السير إلى بودا تعرض لمناوشات من القوات النمساوية على طول الطريق حيث كانت القلاع المختلفة فى أيدى الأعداء بعد أن هرب قادتها التتار . وفى منطقة باركانى Parkany شن البولنديون هجومًا مفاجئًا على الأتراك ودفعوهم إلى ضفاف الدانوب ، فتزاحموا لعبوره على جسر من القوارب التى سرعان ما سقطت بهم من ثقل الوزن فغرق منهم نحو سبعة آلاف جندى . وقد حاصر الأعداء أيضًا مدينة جران حتى سقطت ولم تعد تمثل حصنًا يحتمى به الأتراك ، وكانت منذ عهد السلطان سليمان الذى استولى عليها من النمساويين والألمان فى حوزة الأتراك .

وأخيرًا انسحبت القوات التركية إلى بلجراد وسبقها السلطان إلى أدرنة ، ومنها أرسل رئيس الخدمة الداخلية فى القصر ومعه أمر بقتل الصدر الأعظم والعودة برأسه ، وبذلك أعدم قره مصطفى فى طريق العودة من المعركة . وهكذا كان مصير هذا الوزير المغرور الذى سيطرت عليه شهواته ونزعاته الصبيانية ، والذى ألحق الهزيمة الساحقة بالدولة العثمانية بسبب طيشه ورعونته . وكان هذا آخر حصار شهدته مدينة ڤيينا بعد ستة عشرة سنة من آخر معركة جرت على أرضها .

وقد استقبلت المسيحية نبأ انتصار المدينة الإمبراطورية بالبهجة والسعادة ، ورأت فيه نهاية العدوان الإسلامى ونهاية أبدية لأصوات الأجراس التركية فى أوروبا ، كما انتشرت النبوءات بقرب نهاية الدولة العثمانية فى ١٦٩١ .

واحتفل البابا بالنصر الذى كان يصلى من أجله ، ودعا إلى إرسال الحملة الصليبية الرابعة عشرة للقضاء على الأتراك ، وتعهد قادة التحالف بالدعوة إليها فى بلادهم . وبالفعل برز إلى الوجود تحالف مقدس فى ربيع ١٦٨٤ فى مدينة لينز (١) يضم النمسا وبولندا والبندقية ، وكان الأمل فى أن تنضم إليه فارس ، وكان الاتفاق هو أن تحارب كل دولة فى

---

(١) تقع مدينة لينز فى شمال النمسا على نهر الدانوب .

أنظر : La Rousse , p . 1482

المنطقة التي لها مصلحة مباشرة فيها ؛ فالنمسا مصالحها في المجر والحوض الأوسط للدانوب في اتجاه ممرات البلقان ، وبولندا مصالحها تجاه البحر الأسود وعلى سواحله ، والبندقية مصالحها في دلماشيا واليونان ومنطقة الجزر . وقد أصدر الحلفاء ميدالية تذكارية بهذه المناسبة تعبر عن الوفاق والتآلف بين الأبطال الثلاثة الإمبراطور ليوبولد وسوبيسكي ملك بولندا ودوج (١) البندقية . ولكن سرعان ما دب النزاع بين الأطراف الثلاثة ، كما حدث في الماضي ، حول الحدود المشتركة والمناطق ذات المصلحة لكل منهم ، ولم يكن هذا الحلف أداة عسكرية مؤثرة إلا لخمسة أعوام فقط .

وبعد أن اكتمل التخطيط من جانب البندقية في عام ١٦٨٤ أعلنت ، ولأول مرة في التاريخ ، حربًا مفتوحة ضد السلطان العثماني . فقام البنادقة بقيادة موروزوني وبمساعدة مالطة وتوسكانيا بالإستيلاء على بريڤيزا Revesa وساحل سانتامورا Santa Mora ثم نزلوا في دلماشيا بمساعدة أحد القراصنة ، وأرسلوا قواتهم إلى ألبانيا والبوسنة . وفي العام التالي أكمل موروزوني غزو المورة برغم نقص الإمدادات والمقاومة التركية الشرسة في إقليم ماني Mani و كسب بذلك لقب البلوبونيزي Peloponnesiaco (٢) وبعد عام آخر تقدم بقواته المؤلفة من المقاتلين الألمان وبقيادة سويسرية إلى الشمال تجاه كورنثة ثم استولى على أثينا ، ووجه قذيفة قنبلة إلى البارثينون (٣) الذى لم يصبه أذى لألفي عام من قبل ، وأدى ذلك إلى تفجير مخزن تركي للبارود

---

(١) دوج البندقية هو رأس حكومة الأقلية الفنية التي حكمت البندقية – وهو في الأصل ممثل الإمبراطور البيزنطي ، وكان يعاونه في الحكم المجلس الكبير ومجلس العشرة .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، التاريخ الأوروبي الأمريكي الحديث ، الفصل الثاني .

(٢) البلوبونيزى نسبة إلي جزر البلوبونيز الواقعة جنوب اليونان ، وتضم أرجوليد ولاكوني ومسينا وأليدا وأركاديا .

أنظر : La Rousse , p . 1549

(٣) البارثينون هو معبد أثرى شيد في القرن الخامس قبل الميلاد على جبل الأكروبول في أثينا ، ويبلغ ارتفاعه ٦٩م وعرضه ٣٠م .

أنظر : La Rousse , p . 1588

مما أحدث دوياً هائلاً ودمر جزءاً كبيراً من المعبد وأصبح مشوهاً . وبعد فترة ، جلا البنادقة عن أثينا لخشيتهم من انتقام الحامية التركية الموجودة فى طيبة Thebes وأزالوا أسد بيرايوس Piraeus وحملوه معهم وهو الآن يزين مدخل الترسانة البحرية البندقية .

أما العنصر الثانى من الأبطال الحلفاء وهم البولنديون فقد واجهوا الفشل فى بودوليا أمام قلعة كامينيك التى ظلت فى أيدى الأتراك . ولكن كان سوبيسكى يطمح إلى السيطرة على مولدافيا وترانسلفانيا ، ولذلك دخل فى نزاع مع الإمبراطور النمساوى الذى كان له إدعاءات ومصالح خاصة فى هذه المناطق ، ومن ثم فشل فى الحصول على أى مساعدة إمبراطورية فى مولداڤيا فى عام ١٦٨٦ ولم يجن شيئًا من القتال فيها . وفى ذات الوقت احتلت القوات النمساوية فى عام ١٦٨٤ جزءاً كبيراً من كرواتيا وأصبحت مقاطعة نمساوية ، ثم تقدمت إلى جران وأعادت إحتلال نيوهوذل برغم المقاومة العنيدة من الحامية التركية .

وبعد عام أخر جددت النمسا حصارها لبودا التى قام الأتراك بثلاثة محاولات لإستردادها ولكنهم فشلوا وسقطت فى أيدى القوات الإمبراطورية ، وقتل قادة حاميتها فى ١٦٨٦ وهكذا ، وبعد قرن ونصف من الزمان من خضوعها للحكم التركى وبعد أن تعرضت ست مرات من الحصار سقطت بودا فى أيدى الأوروبيين وخلصت بشكل نهائى للمجريين .

وفى العام التالى ، قام الصدر الأعظم الجديد سليمان بقيادة جيش عثمانى ضخم متجهاً إلى دراڤا ، وتقابل مع قوات شارلز أوف لورين فى سهل موهاكس التاريخى الذى انتصر فيه السلطان سليمان على أعدائه المجريين فى أول معركة ضد المسيحين ، والآن يعود التاريخ ولكن بهزيمة ساحقة للأتراك ، حيث فقدوا حوالى ٢٠ ألف جندى . وهكذا خضعت غالبية المجر للإمبراطور ليوبولد الذى توج إبنه الأكبر چوزيف (١) ملكًا عليها ، ثم أصبح

---

(١) توج چوزيف ابن ليوبولد ملكًا على المجر غى عام ١٦٨٧ ، ثم أصبح إمبراطوراً على النمسا من ١٧٠٥ إلى ١٧١١ .

أنظر : La Rousse , p. 1446

إمبراطوراً فيما بعد . وكان لابد من إستعادة بلجراد حتى قام حصن دفاعي عن المجر ، وبالفعل أنجز هذا العمل خلال العام بواسطة لودفيج Ludwig أمير بارڤاريا الذى لم يصادف مقاومة تذكر . وتبع الإستيلاء على بلجراد عمليات عسكرية فى حوض الدانوب ضد القلاع الحصينة التى كانت فى حوزة الأتراك ، ونجحت فى صد الهجوم التركى المضاد ودفعت بالأتراك بعيداً فى اتجاه نيكوبوليس ونيس .

وقد أدت هزيمة موهاكس إلى حالة من التمرد والعصيان فى الجيش التركى وثورة فى العاصمة ، كما تسببت أيضًا فى عزل السلطان محمد الرابع ، وليس إعدامه ، حيث ذهب إلى المنفى منزويًا فى أحد القصور ليقضى وقته فى ممارسة هواية القنص المفضلة لديه . وخلفه شقيقه الأكبر وهو سليمان الثانى ، بعد أن أخرج من القفص ، وأثبت أنه حاكم قادر على تحمل المسئولية ، فأعاد الانضباط إلى البلاد وقبل مشورة مستشاريه فى جلسة الديوان التى عقدها فوق العادة فى أدرنة بتعيين مصطفى زاده فى منصب الصدارة العظمى ، وهو الثالث من آل كوبريلى ، الذى تأخر تعيينه لثلاثة عشرة سنة بعد وفاة شقيقه كوبريلى أحمد ، وهى المدة التى قضاها قره مصطفى فى السلطة . وقد قبل مصطفى المنصب بالشروط التى وضعها والده وشقيقه من قبل ، وعين فى المناصب العليا أشخاصًا أكفاء ، وحذرهم من الأخطار التى تهدد الدولة ، مؤكداً أنه إذا استمر التهاون فقد يصل الأعداء إلى بوابات استانبول ، وسيراً على نهج آل كوبريلى ، بذل كوبريلى الثالث أقصى جهد فى إنعاش الخزينة السلطانية ، وإصلاح النظام الإدارى فى الدولة ، وتقوية الجيش لإنفاذ حملة جديدة من أجل إستعادة الأراضى المفقودة .

وإقتداء بتعاليم الرسول (ﷺ) ، استنفر مصطفى زادة الأتراك للجهاد ضد الهابسبرج ، حيث كان الإمبراطور مشغولاً فى عام ١٦٨٨ بأحداث الثورة الإنجليزية وظهور وليم أورانج (١) . ولذلك شرع فى تكوين حلف

(١) قامت الثورة الدستورية فى إنجلترا ١٦٨٨ ، وأبعد جيمس الثانى عن العرش ، واستدعى وليم أورانج زعيم البروتستانت فى هولندا لإنقاذ البروتستانت فى إنجلترا =

أوجزبرج (١) ودخل فى حرب مع الملك لويس الرابع عشر ، وبذلك أصبح مشغولاً فى جبهة ثانية وأرسل إليها بعض الفرق العسكرية بقيادة شارلز أوف لورين ولودفيج حاكم باڤاريا ، مما سمح للأتراك بالتقاط الأنفاس . وعندما نصح السفير الفرنسى كوبريلى بعدم الاعتراف بوليم أورانج رفض ، وأكد أن الأتراك الذين يعزلون سلاطينهم لا يعترضون على الانجليز ولا ينكرون حقهم فى خلع ملوكهم . وكان يأمل فى أن يقنع السفير الفرنسى بإعلان الحرب على الإمبراطور عندما كرر الطلب مرة ثانية .

وفى عام ١٦٩٠ حمل كوبريلى راية الرسول (ﷺ) المقدسة ، وقام بعدة مناوشات مبدئية معتمداً فيها على التتار ، ثم أرسل تكلى مرة أخرى إلى ترنسلڤانيا ، بينما اتجه هو بالجيش الرئيسى إلى الصرب وإسترد نيس وعدة قلاع أخرى وجزءاً كبيراً من المناطق المفقودة ، ثم ضرب الحصار حول بلجراد مستخدمًا أسلوبًا غير متوقعًا وهو إضرام النيران فى مخزن للبارود بالقلعة . ولما وجد أن المناخ غير ملائم لتوسيع نطاق العمليات العسكرية ، أرسل قوة صغيرة إلى ترنسلڤانيا لتعزيز تقدم تكلى ضد النمساويين ، ثم ترك حامية قوية فى بلجراد ، وعاد إلى استانبول حيث قابله السلطان وسط احتفالات النصر .

وفى شتاء عام ١٦٩١ جهز كوبريلى جيشًا أكبر من السابق ، وتقدم من بلجراد إلى الدانوب ووصل إلى سلانكامن Slankamen لملاقاة جيش لودفيج قادمًا من بيترواردين ، وهنا استشار قادته هل يقوم بالهجوم أم يظل فى موقف الدفاع ، فنصحوه بتأجيل الهجوم حتى تأتى تعزيزات التتار ، ولكنه صمم

= بعد أن حاول چيمس فرض الكاثوليكية على الشعب الإنجليزى ، ونصب وليم ملكًا على إنجلترا باسم وليم الثالث .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، التاريخ الأوروبى الأمريكى .

(١) تكون حلف أوجزبرج فى ١٦٨٩ وعرف بالمحالفة العظيمة La grande Ligue ، من إنجلترا والإمبراطورية وأسبانيا وهولندا والسويد وباڤاريا وسكسونيا وفرانكفورت والبلاتينات .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق .

على الهجوم واشتبك مع القائد الملتحى المحنك الذى اندفع كالصاروخ صائحًا : « دع المدفع يتقدم » . وكان المصير السئ ينتظر الأتراك منذ بدء المعركة ، برغم نجاحهم فى عبور النهر ، فقد وجدوا أمامهم عدواً ماهراً فى إطلاق النيران مستميتاً فى القتال . ولما أيقن كوبريلى من الهزيمة شن هجوماً أخيراً يائساً لعله ينقذ نفسه ، فصاح مردداً « الله » ، وشق طريقه بالسيف بين حراسه وبين صفوف النمساويين ، ولكنها كانت محاولة فاشلة ، فجرح فى جبهته ولقى حتفه بطلقة رصاص . وعندما شاهده الحرس مقتولاً تشتتت صفوفهم وفروا من ميدان المعركة وتفكك المعسكر العثمانى وساده الهلع والفزع وهرب الجيش كله من الميدان مخلفًا معسكره وراءه وكل مركبات المدفعية .

وهكذا فقد العثمانيون فى هذه المعركة آخر أمل لاح لهم بعد عامين من الهزيمة الأخيرة ومن النصر الحاسم الذى حققه النمساويون، وأصبح آل كوبريلى فى محنة عظيمة بعد أن ضاعت منهم المجر وترنسلفانيا فى أعقاب هزيمة تكلى . وقد توفى السلطان سليمان الثانى بعد خروج الحملة مباشرة بعد أن قضى فى الحكم أربعة أعوام ، وخلفه شقيقه السلطان أحمد الثانى ، الذى خرج من القفص ، واستمر فى الحكم أربعة أعوام ورث فيها تركة محملة بالخزى والعار عجلت بنهايته .

ولكن كانت العمليات العسكرية التى قام بها الأتراك فى بحر إيجة فى الفترة التالية من الأمور التى ساهمت فى إعادة الثقة إليهم ، إذ وجد البنادقة أنه من العسير الاحتفاظ بالمورة فى ظل الوجود الدائم للوالى التركى فى مدينة طيبة ، كما فشلوا فى محاولة استرداد كريت وجزر بحر إيجة ، وكذلك فشل الدوج الكهل موروزونى فى عام ١٦٩٣ ، والذى أصبح قائداً لجميع القوات المسلحة البندقية ، فى الإستيلاء على خيوس وجزيرة سميرنا التى كانت قاعدة مهمة للأتراك مثل الدردنيل ، لأنه توفى قبل تنفيذ مخططه . ولكن تمكن الأسطول البندقى فيما بعد من الإستيلاء على خيوس بمساعدة الأسطول البابوى والأسطول المالطى وظلت تحت سيطرة البندقية لمدة عام واحد ثم استردها الأتراك وطردوا الأسطول البندقى منها .

وقد أثار هذا الانتصار موجة من الفرح فى استانبول وأقيمت احتفالات النصر ، ولكن لم يقدر للسلطان أن يحضرها لوفاته بنفس الداء الذى توفى به شقيقاه وهو الاستسقاء ، وخلفه ابن شقيقه مصطفى الثانى .

ويرجع الفضل فى هذا الانتصار البحرى إلى قائد الأسطول العثمانى الجديد القرصان حسن وهو من شمال أفريقيا وكنيته ميزومورتو Mezzomorto والذى قضى شبابه فى الجزائر ولكنه لقى حتفه على أيدى البنادقة بعد أن بعث الحياة فى القوة البحرية التركية فى شرق البحر المتوسط بفضل إنتصاراته . ومن ناحية أخرى قابل هذا النجاح إخلالاً بالتوازن فى منطقة البحر الأسود نتيجة الهزائم التركية على أيدى الروس ، بعد أن كان الأتراك قد نجحوا ، بفضل التتار ، فى إلحاق الهزيمة بالبولنديين فى عام ١٦٨٨ ، وبالروس فى حملتين متواليتين فى القرم بايعاز من سوبيسكى الذى أراد القضاء على التتار . ولكن بعد وصول حاكم قوى عنيد إلى السلطة وهو بطرس الأكبر تجددت الحرب الروسية فى القرم على أسس استراتيجية جديدة . وكانت آروف هى هدف بطرس ، وقد تمكن من الإستيلاء عليها بعد السيطرة على أربعة قلاع تركية على نهر الدنيبر بمساعدة الأسطول الجديد الذى بناه وجعله تحت قيادة أمهر البحارة . وأعقب هذا النصر بتأسيس قاعدة بحرية بالقرب من منطقة تاجانروج Taganrog وبرنامج ضخم لبناء السفن على أيدى أمهر الفنيين والمهندسين وبنائى السفن من استراليا وهولندا وإيطاليا وإنجلترا . وقد ضم هذا الأسطول عدداً من البحارة الأجانب وخاصة السلاف ، وكان على نمط سفن القراصنة المسلمين فى الشمال الأفريقى . وقد وضع بطرس هذا الأسطول الجديد فى بحر آزوف أمام القلاع التركية فى البحر الأسود وفى مضيق كيرتش Kertchh ، وجعل هدفه الأساسى إمتلاك هذا المضيق . وهو بهذا العمل قد استطاع تأسيس قوة بحرية روسية قادرة على بث الرعب والتهديد فى قلوب الأتراك لأول مرة .

لقد كان السلطان الجديد مصطفى شابًا نشطًا متوثبًا ، ولم يكن مغرمًا بالقنص مثل والده محمد الرابع ، وكان يتوق إلى بعث التقاليد العثمانية التى تمجد عظمة الأجداد ، ولذلك أصدر خطًا شريفاً أو فرماناً ، بعد وفاة السلطان أحمد بثلاثة أيام ، أنكر فيه أفعال أسلافه وقرر أن يقود الجيوش العثمانية

بنفسه ضد إمبراطور الهابسبرج ، ثم عقد مجلساً للتشاور مع الصدر الأعظم والوزراء والقادة والعلماء وأغوات الفرق العسكرية ليقرر ما إذا كان سيبدأ هو شخصياً المناوشات ضد إمبراطور الهابسبرج أو يبقى فى أدرنة . وبعد مداولات استمرت ثلاثة أيام قرر الديوان عدم الموافقة على خروج السلطان بشخصه للحرب لما فى ذلك من خطورة عليه ولعدم خبرته العسكرية ، فكان رده أنه سيخرج وحده على رأس الحملة . وبالفعل بدأ فى عام ١٦٩٦ فى بعث التقليد القديم ، وهو خروج السلطان بشخصه على رأس الحملات ، بعد أن ظل خامداً لفترة طويلة ، وخرج الجيش من بلجراد واستولى على عدة قلاع واستخلص مدينة تمسفار Temesvar من دوق ساكسونيا ثم عاد إلى استانبول ، حيث استقبله كبار رجال الدولة إستقبالاً حسنًا بعد أن أظهروا عدم الحماس لحملته ، ثم دخل إلى القصر السلطانى وسط موكب النصر والموسيقى وطلقات المدافع ، كما تم استعراض الأسرى وكان عددهم ٣٠٠ شخص أمام العامة وكذلك الغنائم التى عاد بها الجيش .

وفى العام التالى ، قرر السلطان الخروج على رأس حملة جديدة أملاً فى تحقيق نصر جديد ، فسار بجيشه إلى بلجراد ، غير أنه واجه هذه المرة قائداً عسكرياً فذاً وهو الأمير يوچين حاكم سافوى ، وعلاوة على ذلك انقسم قادته فى المجالس العسكرية العديدة التى عقدها حول خط سير الحملة ، هل تتجه غربًا تجاه سلافونيا أم شمالاً تجاه المجر ، وهو حائر بينهم وعاجز عن اتخاذ القرار ، وفى النهاية تقرر السير فى اتجاه الشمال إلى وادى تيزا Tisza وعبوره ثم التوجه إلى مدينة زنتا Zenta . ولما علم الأمير يوچين من أحد الأسرى بقرار السلطان والموت الذى ينتظره ، قرر شن مجموعة من الهجمات لعرقلة خط سير السلطان ، ونجح بالفعل فى الوصول إلى مدينة زنتا بجيش ضخم قبل الأتراك الذين كانوا قد عبروا بنصف قواتهم ومدفعيتهم الضفة اليسرى للنهر ، بينما ظلت بقية قواتهم على ضفته اليمنى . ولو كان الأتراك شنوا هجومًا بالمدفعية على جيش يوچين فى هذه اللحظة وهو غير مستعد للدخول فى معركة عسكرية لاستطاعوا دحره والانتصار عليه ، ولكنهم لم يغنموا هذه الفرصة ، كما أن الانقسام كان يسود قوة المشاة مما أعطى الفرصة ليوچين ليستكمل إستعداداته . وقبل الغروب بساعتين وصلته رسالة من النمسا بعدم

الدخول في معركة الآن والإنتظار لوقت آخر ، ولكنه لم يمتثل للأمر ، وقرر في جرأة شن هجوم على الأتراك على شكل نصف هلال من جهة اليسار واليمين والقلب ، وكانت النتيجة كما وصفها : « حمام دم مرعب ، وهزيمة سريعة للأتراك » . وأعقب ذلك تشتت القوات التركية وقياداتها ، وقيام فرقة من الانكشارية بقتل قادتها . وقتل في هذه المعركة أكثر من ٢٠ ألف تركي من بينهم الصدر الأعظم وأربعة من الوزراء وعدد ضخم من الباشوات و٣٠ أغا من أغوات الانكشارية وغرق نحو عشرة آلاف جندي أثناء محاولة عبور النهر ، ولم ينج منهم سوى ألف جندي بالكاد .

وقد عبر يوچين عن هذه المعركة بقوله : « تكونت من القتلى جزيرة يمكن الوقوف عليها » . وفي المساء كان كل شئ قد انتهى ووقف السلطان على الضفة المقابلة للنهر يراقب انهيار جيشه وعجزه . ثم عاد أدراجه إلى تمسڤار ومنها إلى بلجراد ثم استانبول . أما الأمير يوچين فقد واجه نقصاً في الإمدادات وطقساً سيئاً حال بينه وبين إكمال النصر ، غير أنه غنم كمية ضخمة من الأسلحة والنقود تضمنت : ٩٠٠٠ عجلة حربية ، و٦٠ ألف جمل ، و١٥٠٠ رأس من الماشية ، و ٧٠٠ جواد علاوة على الختم الخاص (١) بالصدر الأعظم والذي يحمل شعار السلطان والذي لم يسقط من قبل في أيدي الأعداء . ومنذ هذا التاريخ لم يخرج السلطان الصغير سئ الحظ على رأس حملة حربية أخرى ، فقد باءت محاولته الجريئة بالفشل لنقص الخبرة العسكرية بمهارات الأجداد المتوارثة ، وعجزه عن مواجهة قادة أوروبا العظام ومسجلاً بذلك أخر محاولة لإنقاذ بلاده من الإنهيار .

عاد السلطان من جديد إلى أسرة كوبريلي لإستعادة المجد العثماني ، فعين كوبريلي حسين في منصب الصدر الأعظم ، وهو ابن الشقيق الأكبر لمحمد

---

(١) كان السلطان يعلن خلع سلطاته على الصدر الأعظم بأن يعهد إليه بخاتم توقيعه الذي كانت تختم به الشئون الهامة المختلفة ، كما كان يعلن عن فصله من وظيفته بأن يأمره بإعاته إليه . وكان وزراء العهد الأول يضعون هذا الخاتم في أصابعهم على حين كان وزراء الفترة المتأخرة يضعونه في جيوبهم في حافظة من القماش المذهب .
أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، المشرق العربي .

وابن عم أحمد كوبريلي ورابع صدر أعظم من آل كوبريلي . وقد حاول داخلياً إصلاح المركز الإدارى والإقتصادى للدولة ، أما خارجياً فلم يستطيع عمل شئ ذا جدوى ، فمنذ حصار ڤيينا استطاعت القوات العسكرية التابعة لإمبراطورية الهابسبرج تحقيق النصر فى تسعة معارك كبرى ، واستولت على تسعة قلاع رئيسية . وإذا كان حسين يتمتع بالحماس للحرب ، وهو حاكم بلجراد السابق وممن ألفوا رؤية تفوق الجيوش السلطانية ، فإنه لم يعد يفكر الآن سوى فى طلب السلام والذى كان بعيد المنال فى الفترة الأخيرة . ولكن حانت لحظة السلام لتنهى فترة طويلة من الحرب المليئة بالهزائم التركية أمام الأعداء الأقوياء ، إذ طلبه الأعداء الأوروبيون المنتصرون ، بعد أن انهكت البندقية من كثرة الحروب ، وبعد أن انتهى دور بولندا فى الشئون الأوروبية بوفاة سوبيسكى فى عام ١٦٩٦ ، وبعد أن انشغل الإمبراطور ليوبولد بأحداث حرب الوراثة الأسبانية (١) واكتفى بتقوية المناطق التى استولى عليها من الأتراك ، والتى ساهمت فى إثراء إمبراطوريته ، وتخلى عن طموحاته بتسيير حملة إلى البوسفور . أما بطرس الأكبر فقد كان الوحيد الذى وضع سياسة عدائية تجاه الأتراك جعلت الحرب سجالاً بين الطرفين .

ومن أجل ذلك قام بطرس بزيارة إلى ڤينا للضغط على الإمبراطور النمساوى لإقامة تحالف مشترك بينهما لتنفيذ سياسته العدائية ، ولكنه فشل لأن مباحثات السلام كانت قد بدأت بين انجلترا وهولندا . ومنذ هذه الفترة صارت العلاقات الإنجليزية مع الباب العالى ترتكز على المسائل التجارية فقط وبصفة خاصة حماية السفن الإنجليزية من هجمات

---

(١) إمتدت حرب الوراثة الأسبانية من ١٧٠٢ إلى ١٧١٣ وكانت بسبب وفاة شارل الثانى ملك أسبانيا ومطالبة كل من لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، والإمبراطور ليوبولد الأول النمساوى ، وجوزيف فرديناند ناخب باڤاريا بالعرش الأسبانى ، وعدم موافقة هولندا وإنجلترا على ذلك . وانتهت بتوقيع صلح أوترخت فى ١٧١٣ الذى اعترف بفيليب (انجو) الخامس حفيد لويس الرابع عشر ملكاً على أسبانيا ومستعمراتها بشرط أن يتنازل عن عرش فرنسا .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، التاريخ الأوروبى الأمريكى ، الفصل الثامن .

القراصنة المسلمين ، وتوثقت أثناء الحرب الكريتية حينما وقفوا إلى جانب الأتراك ضد البنادقة . وفى أثناء الحرب الأهلية الإنجليزية تضاءل الدور الإنجليزى فى الدولة العثمانية بسبب التنافس بين سفراء الدولتين . ولكن تغير الوضع عندما تولى وليم الثالث الحكم فى إنجلترا وتحالف مع هولندا ضد الملك لويس الرابع عشر ، فأخذ يسعى لطلب الصلح مع الأتراك حتى يتفرغ لهذه الحرب الجديدة .

وأصبح من مصلحة إنجلترا وهولندا على المستويين السياسى والتجارى وقف تفوق النفوذ الفرنسى ، ومنع فرنسا من أن تصبح خليفة للبندقية تجارياً ، فكان مندوبو لويس الرابع عشر لدى السلطان يطلبون طرد جميع البنادقة من ممتلكاتهم ، علاوة على ذلك فإن حرب الحلف المقدس كانت قد دمرت بالفعل التجارة الإنجليزية فى الليفانت بعد أن توقف البلاط السلطانى عن إستيراد سلع الرفاهية من إنجلترا . وهكذا أصبح الشغل الشاغل لكل من لورد باجت Lord Paget السفير الإنجليزى فى الأستانة والهولندى يعقوب كولير Jacop Colyer هو التوسط لعقد معاهدة سلام بين الباب العالى والدول المسيحية على أساس الحفاظ على الوضع الراهن ، أى أن يحتفظ كل طرف بالأراضى التى استولى عليها وتظل المناطق التركية فى حوزة الأوروبيين ،

وقد عقد كوبريلى حسين مجلساً للتشاور انتهى بوضع بعض التعديلات التى تختص باحتفاظ تركيا بإقليم ترنسلفانيا وطلب من باجت أن ينقلها إلى الملك الإنجليزى ، وبذلك نجحت الوساطة الهولندية - الإنجليزية . وفى الشهور الأخيرة من عام ١٦٩٨ عقد مؤتمر للسلام فى مدينة كارلوفتز فى كرواتيا الواقعة على الضفة اليمنى للدانوب ، وتجنبت المفاوضات إثارة الخلافات القديمة بين المنتصرين والمهزومين بحضور مندوبى الدول الأربعة الكبرى ، ثم أضيفت روسيا بناء على طلب الإمبراطور . ولم يكن بطرس الأكبر راضياً عن أى تسوية تمنحه أزوف فقط والمناطق التى فى حوزته لأن لديه مشروعات توسعية فى مضيق كيرتش ويرغب فى الوصول إلى البحر الأسود ، لذلك لم يوقع إلا على هدنة لمدة عامين فقط ، وكان يشعر بالمرارة لأن الهابسبرج لم يلتفتوا إليه واعتبروه « مجرد كلب » ، وتركوه يخرج من المؤتمر صفر اليدين .

وأخيراً توصلت الأطراف إلى معاهدة لمدة خمسة وعشرين عاماً ، أدخلت فيها تعديلات طفيفة على مبدأ « الحفاظ على الوضع الراهن » ، حيث احتفظ الهابسبرج بسلافونيا وترنسلفانيا وقسم كبير من المجر بدون تمسفار وجزء من شرق تيزا ، ولم يتركوا للأتراك سوى ثلث ممتلكاتهم في المجر . أما بولندا فقد استعادت بودوليا وكامينيك وغرب أوكرانيا وإقليم يقع شرق تيزا ، وانسحبت من مولداڤيا . واحتفظت البندقية بالمورة وجزيرة سانتامورا وغالبية دالماشيا وألبانيا ، وتنازلت عن المناطق الواقعة شمال خليج كورنثة . ورفض الأتراك التخلي عن تكلي الثائر المجري الذي لجأ إلى استانبول وتسليمه إلى النمساويين ، وتم نفيه إلى آسيا الصغرى في منطقة آمنة بعيدة عن الحدود الإمبراطورية حيث لحقت به زوجته مع كامل ميراثها بأمر من الإمبراطور . وفي ٢٦ يناير ١٦٩٩ تم التوقيع على معاهدة كارلوڤتز في ساعة معينة حددها الأتراك لأسباب فلكية ، وصاحب ذلك طلقات المدافع من قلعتي بيتروارديـن وبلجراد .

وهكذا وبنهاية القرن السابع عشر ، تنتهي حقبة من تاريخ الدولة العثمانية وصفها المسيحيون بالعدوانية والتوسعية أثارت الخوف في أوروبا لثلاثة قرون ، ولكن ظلت الدولة العثمانية قوية في آسيا ، برغم تراجعها في أوروبا وهزائمها المتكررة التي سجلتها مجموعة من المعاهدات المهينة ، وانتهى عصر العظمة الغابرة للغزاة الأوائل ، وحسب أقوال الساسة الأوروبيين « أصبح الانحطاط العثماني حقيقة واقعة سياسياً بتزايد استقلال أقاليمها عنها » .

لقد تزايدت قوة الغرب بتزايد نمو الدول القومية فيه وانحسرت قوة الشرق ، واتسعت الهوة بين الطرفين في المجال العسكري وفي المجالات الإقتصادية والإجتماعية أيضاً . وفي المجال الداخلي ، صارت الدولة العثمانية متخلفة وتعاني من زيادة التدهور والسقوط ، وخارجياً أحدقت بها الأخطار العسكرية والدبلوماسية وأغرى ضعفها القوى العدائية على محاربتها ، وعلى رأسها روسيا التي وصلت إلى إمبراطورية ببزوغ فجر القرن الثامن عشر .

القسم الخامس

المنافسة الروسية

الفصل الرابع والعشرون

كان بطرس الأكبر حاكماً مطلقاً يقارن بالسلطان محمد قاهر بيزنطة منذ قرنين ونصف من الزمان ، وقد اتخذ لنفسه عدة ألقاب مثل « إمبراطور روما الثالثة » و« حاكم روسيا المستبد » و« القيصر قنسطنطين الجديد لمدينة القسطنطينية الجديدة » ، كما اتخذ شعاراً عبارة عن نسر مزدوج الرأس (١) ، ليوضح رغبته في استخلاص القسطنطينية من أيدى العثمانيين . لقد كان حاكمًا مطلقًا مثل السلطان لدولة عسكرية قامت على الغزو الإمبراطورى واتخذت سياسة عدائية تعتمد على التوسع الإقليمي فى أوروبا وآسيا سار عليها القياصرة الذين خلفوه فى القرون التالية . ولقد أثبتت روسيا القيصرية أنها العدو الرهيب للأتراك الذى لم يشهدوا له مثيلاً من قبل ، فكانت دولة متحدة وقومية مثل بقية أوروبا المسيحية ولها مصالح قومية وسياسية ودينية متفاوتة ، ونجحت ليس فقط فى كونها دولة ذات مقومات بشرية وإقليمية واضحة بل فى أنها كانت تمارس سلطانًا قويًا على الرعايا الأوروبيين التابعين للعدو الكافر .

وفوق كل ذلك كان بطرس الأكبر رجلاً عصريًا بينما ظل الأتراك مرتبطين بالماضى فالسلاطين الأوائل نجحوا فى توحيد الدولة من خلال إقامة المؤسسات والأجهزة ذات الطابع الشرقى فى وقت تفوق فيه الشرق على الغرب ، واكتسبوا خبرتهم الأولية من نمط حياتهم الوثنى القبلى فى برارى آسيا ثم من حضارات العصور الوسطى . وقد نجحوا فيما بعد فى إدخال تحسينات على هذه المؤسسات وخلقوا نظامًا مركزيًا يعتمد على مصادرهم البشرية والطبيعة مكونين دولة مستنيرة منظمة وجيشًا نظاميًا منضبطاً ، بينما كانت أوروبا فى هذا الوقت لا تزال تعتمد على نظام « الدولة المدينة » وعلى التقسيمات الإقطاعية التى تميزت بالتفكك والتخلف ومن ثم عجزت عن مقاومة الأتراك .

ولكن الآن ومع مرور الزمن إزداد التطور وانعكست الأوضاع وأصبح الغرب أقوى من الشرق ، وصار هذا الإمبراطور الجديد ممثلاً لهذا الاتجاه الجديد ورائداً للإستنارة ، فكان بطرس الأكبر مفعمًا بالطاقة والنشاط

(١) كان النسر مزدوج الرأس هو شعار الدولة البيزنطية .

مصمماً على تحقيق النصر على الدولة العثمانية التى كانت قد وصلت إلى مرحلة الإنهيار . وقد اقتبس القيصر بطرس الأول الحضارة عن الغرب الأوروبى أو اتبع أسلوب « التغريب Westernization » . وكان أول درس تلقاه فى صباه هو معاناته فى انقلاب الموسكوفيين الذى قاموا به ضد فرقة تعادل الانكشارية تحمل اسم Streltsy وعندما قاموا بتمرد آخر بعد ستة أعوام تحديداً فى عام ١٦٩٨ ، دمر قوتهم بأسلوب وحشى ، إذ كان يراهم أتباعاً للشيطان وليسوا جنوداً ، وكان القضاء عليهم من العوامل التى فتحت الطريق أمام إعادة تنظيم شئون البلاد وتحديثها وتوسيع قاعدة الجيش الروسى عن طريق تأسيس فرق عسكرية جديدة . وقد سار الجيش الجديد على النسق الأوروبى فأصبح على درجة عالية من الكفاءة العسكرية واستطاع فى المجال السياسى تنفيذ أهداف القيصر . وخلال خمسة عشرة عاماً من العمل الشاق الذى يعادل ما قام به محمد الفاتح ، استطاع بطرس استغلال الموارد الأولية والمهارات العسكرية لبلاده إستغلالاً تاماً من أجل بناء إمبراطورية روسية عالمية . وفى مقابل ذلك كان العثمانيون يسيرون فى طريق الانهيار بعد أن فشل نظامهم العسكرى فى مواكبة الغرب . فقد كان الرواد الأوائل من العثمانيين يتميزون بالكفاءة القتالية واعتمدا على فرق الخيالة والمشاة والانكشارية وسلاح المدفعية ، وكانوا جديرين بالقيادة على عكس أعدائهم الذين لم تتوفر فيهم هذه الصفات .

لقد تفوقت دول الغرب الأوروبى بمرور الوقت فى مجال تطوير سلاح المدفعية وسلاح الفروسية والمشاة ، وانفقوا الكثير على التدريب والتسليح وإدارة الجيوش ، وأصبحت هناك فرقاً حديثة للمشاة مدربة تدريباً جيداً ، وفرقاً حديثة للفروسية الخفيفة ، كما أدخلوا التقنية العسكرية الحديثة فى مجالات تنظيم ونقل الإمدادات العسكرية والأسلحة والملابس والمواد الغذائية بعد أن ظلت تعتمد على الفنون العسكرية العتيقة التى تميزت بالقصور والتخلف . هذا فى الوقت الذى ظلت فيه الجيوش العثمانية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر تعتمد على الأساليب القاصرة فى عمليات الإمداد والتموين والتنظيم المالى ، فلا يعقل أن يظل الجيش العثمانى كبير العدد يعتمد فى تمويله على عمليات السلب والنهب وفى إمداده الغذائى على ما هو متوفر فى المناطق

المحيطة بميدان المعركة ، فقد تطلب الأمر وضع نظام جيد للإمداد وإيجاد تخطيط ملائم للإدارة الإقتصادية العسكرية .

لقد تطورت أساليب القتال فى أوروبا المسيحية خلال القرنين الأخيرين ، وتحررت أوروبا من قيود العصور الوسطى من خلال حركة الإصلاح الدينى وحركة النهضة ، وحدث تطور إقتصادى فى مجال التجارة والنواحى العلمية ، وهذه النواحى جميعًا تشكل الأسس التى قامت عليها الحضارة الغربية الحديثة . أما الدولة العثمانية فقد ظلت لقرنين من الزمان عاجزة عن التقدم تعانى من قيود البيروقراطية المتخلفة والإنهيار الإقتصادى والتجارى والصناعى ، كما ظهر لديها قصور فى المواد الخام أعاقها عن التطور ، كل ذلك مع استمرر اعتقادها بتفوق نظمها ومؤسساتها التقليدية .

وقد صاحب التدهور العسكرى العثمانى تدهور فى نظام الحرف التقليدى الذى كانت تعتمد عليه القوات المسلحة ، فنظام طوائف الحرف الذى لعب دوراً إجتماعيًا واضحًا فى الماضى وضمن الحماية للصناعة التقليدية أصبح الآن لا يتمشى مع متطلبات الصناعة الحديثة من المرونة والإختراعات الحديثة ، ومن ثم ظل رجال هذه الطوائف يعارضون أى محاولة للتحديث أو الإصلاح تعتمد على التقنية الحديثة ، وظلوا حبيسين لعاداتهم المتوارثة ونظام ساعات العمل المحدودة الذى ساروا عليه . والأكثر من ذلك ، أن نظام الضرائب والقيود المالية التى كبلت المواطنين العثمانيين وقفت فى طريق التقدم والنجاح ، وجعلت الصناعة العثمانية عاجزة عن منافسة الواردات الأوروبية . ومن ناحية أخرى تحالفت الانكشارية مع طوائف الحرف ، ورفضت أى محاولة للإصلاح العسكرى على حساب إمتيازاتها فى الوقت الذى قام فيه بطرس الأكبر ، عدوهم ، بكل هذا التحديث الذى أصبح ضرورة ملحة .

لقد كانت المشكلات التى تعانى منها الدولة العثمانية إقتصادية فى جوهرها ، فتجارة الحاصلات الزراعية التى كانت تشكل أساساً للموارد المالية للدولة كانت فى حالة سيئة مقارنة بمثيلتها فى دول أوروبا ، وقد نشأ هذا التدهور فى الحقيقة من تركز جميع المعاملات المالية للدولة فى أيدى

الأقليات ، حيث كان رجال البنوك والتجار من الإغريق واليهود والأرمنيين . وظل السلاطين العثمانيون ، بحكم كراهيتهم للكفرة ، يرفضون إقامة جسور من التعاون الإقتصادى بين هذه الأقليات ورجال المال والتجارة فى المؤسسات الحكومية بينما تواجد هذا النظام فى أوروبا وتمثل فى التآلف وتبادل المصلحة بين الحكومة ورجال المال والتجارة ، وكان سببًا فى انتعاش المجتمعات الأوروبية آنذاك . وطالما ظلت المؤسسات الحكومية العثمانية والمؤسسات التجارية الخاصة منفصلة عن بعضها البعض تواجد التدهور الإقتصادى ، وغاب التخطيط الطويل الأجل والواسع المدى للمشروعات المالية ، وظل خاضعًا للضغوط الأوروبية المتمثلة فى تغيير نمط التجارة أو سياسة العرض والطلب أو عدم الوفاء بإحتياجات الصناعات الحرفية ، كل هذا فى الوقت الذى أقامت فيه أوروبا مصانع للغزل والنسيج وغيرها من المنتجات المصنعة .

إن عدم القدرة على مواجهة المشكلات ترجع إلى اتجاه التفكير الإسلامى والقائم على الإيمان المطلق بتفوق الحضارة الإسلامية وعدم الإعتراف بأن القوة العثمانية بدأت تنهار بالفعل أمام التقدم الحضارى الغربى ، كما أنها ترجع إلى التعصب ، الذى خلقه التعليم الإسلامى القائم على الاعتماد على الماضى المتوارث ، وعلى أن مشيئة الله نافذة دون أدنى اعتبار للقدرة البشرية ، والتى قد يؤدى تدخلها إلى تغيير مجرى الأحداث . ولم يكن تيار الرجعية العثمانية قاصراً على الانكشارية وطوائف الحرف ، بل امتد إلى العلماء الذين مثلوا بدورهم اتجاهًا معاكسًا ومعارضًا لأى تغيير حفاظًا على الإمتيازات المتوارثة فى ظل النظام العسكرى والإقتصادى القائم . وعند بداية القرن الثامن عشر ، شاء الله أن يحدث تحول ، فى مركز القوة ، وانتقلت من الإسلام إلى المسيحية ، فتغيرت الدنيا من حول العثمانيين وظهر العدو الجديد وهو الدولة الروسية الناشئة المجسدة لهذه القوة الجديدة .

ولكن لم تتحطم البنية الأساسية التقليدية برمتها ، فظل الإسلام يمثل الروح الدافعة للدولة والقاعدة الصلبة لمؤسساتها برغم الفساد والتدهور ، واندثر حزب الأتراك المحافظين وظهرت قوة للبعث والإحياء من بين التابعين للسلطان والذين مثلوا فى ذات الوقت اتجاهًا جديداً لنخبة من رجال القلم أكثر من

رجال السيف ، أو من الأفندية أكثر من الباشوات أو البكوات ، وهى الطبقة الجديدة التى كانت تختلف عن الطبقة البيروقراطية القديمة ، وغالبية أفرادها لم يكونوا من الذين اعتنقوا المسيحية أو خريجى مدرسة القصر السلطانى القديمة بل من مسلمى الجيل الثانى والجيل الثالث الذين اتجهوا إلى توظيف اليونانيين والمسيحيين لقدراتهم الفائقة .

لقد هدأت العواصف الداخلية والخارجية بعد التوقيع على معاهدة كارلوفتز Karlovitz فمن الناحية الداخلية ، استغل كوبريلى حسين الصدر الأعظم المحبوب والذى اشتهر بلقب « كوبريلى الحكيم » ، على عكس سلفه الذى لقب بكوبريلى القاسى العنيف ، استغل فرصة هذا الهدوء للقيام ببعض الإصلاحات الإدارية الضرورية ، وكانت بصفة خاصة فى المجالات المالية والقانونية والتعليمية . وفى مجال القوات المسلحة نجح فى إعادة الانضباط لفرق الانكشارية ، وفى مجال البحرية العثمانية قام ببناء تحصينات جديدة ، وجعل وسائل الدفاع السلطانية على أهبة الإستعداد . كما شيد عدداً من الجسور والقنوات وشق الترع وأقام المساجد والأسواق على نفقته الخاصة كما فعل محمد الفاتح من قبل وغيره من السلاطين العظام . وفوق كل هذا ، اهتم بتحقيق الرفاهية للمجتمعات المسيحية التى ظلت مهملة لفترة طويلة ؛ فأعفى سكان الصرب وولاية تمسفار المجرية من ضريبة الرؤوس لمدة عام ، وفى منطقة الرومللى قلل من فوائد الديون التى كان يدفعها الرعايا ، وفى منطقة سوريا سمح بحرية إقامة مراعى للماشية .

وقد جاءت هذه الإجراءات لتحسين أوضاع الفلاحين المسيحيين فى الوقت المناسب لأن بطرس الأكبر كان يهدف من خلال حروبه مع الدولة العثمانية إلى التوسع الإقليمى على حساب الدولة والعمل على تدميرها داخليًا من خلال السيطرة على الأقليات المسيحية ، فقد أدعت الكنيسة الروسية فرض حمايتها على المسيحيين الأرثوذكس أى المسيحيين الشرقيين فى جميع المناطق العثمانية ، إذ كانت غالبية اليونانيين ترجع فى الأصل إلى العنصر السلافى ، ومن الناحية الدينية كان يساورهم الشك فى اللاتين فتطلعوا إلى الروس كمحررين ومن ثم لقى الوكلاء الروس كل ترحيب من

جانبهم ، وتوافق ذلك مع خطط بطرس فى نشر الدعاية المقرونة بالوعود بالمساعدة المالية وتحريض المسيحيين على التخلص من حكم الكفرة (العثمانيين) ، وقد وجد عناصر مؤيدة من ذوى النفوذ فى المؤسسات الكنسية مثل دوسيثيوس Dositheus بطريرك أورشليم الذى تعاون معه فى هذا المجال وكان من رجاله المخلصين .

ولكن فى البلقان كان الكهنة يتطلعون إلى حماية روسية ضد محاولات الكاثوليك النمساويين لتحويلهم من المذهب الأرثوذكسى إلى الكاثوليكى ، وليس ضد المسلمين الأتراك لأنهم لم يسعوا إلى ترغيبهم فى اعتناق الدين الإسلامى . وكانت التوسلات تتوالى إلى موسكو لتحريرهم من البابوية والجزويت (١) الذين تكتلوا ضد الأرثوذكس أكثر من التكتل ضد الأتراك واليهود . وفى واقع الأمر ، فإن بطرس الأكبر برغم حماسه لبسط الحماية على المسيحيين الأرثوذكس ضد الكفرة ، لم يسارع باتخاذ خطوة فعالة فى هذه الفترة لأن كل اهتمامه كان ناحية الهدف الإستراتيجى ، وهو تأسيس القوة الروسية على البحر الأسود .

لقد أصبحت الدولة العثمانية الأن تنعم بالسلام ، وأصبحت علاقاتها بالغرب المسيحى أقل تعقيداً من ذى قبل ، فبعد التصديق على معاهدة كارلوفتز بستة شهور ، أقيمت احتفالات ضخمة بهذه المناسبة أمام قصر السلطان فى استانبول مما ساهم فى إيجاد جو من الصداقة مع الدول الأوروبية ، وتم تبادل السفراء بين الباب العالى وأعدائه السابقين بشكل دائم أكثر من السابق . ومنذ بداية القرن الثامن عشر تكيف الدبلوماسيون العثمانيون مع الحضارة الأوربية ومع ثقافة الغرب بعد أن طالت إقامتهم فى العواصم الأجنبية ، وصاروا أكثر تفهماً للأساليب الحكومية وللإتجاهات السياسية الغربية .

وكان السفير العثمانى الجديد لدى النمسا هو إبراهيم باشا وهو من

---

(١) الجزويت أو اليسوعيون هم من أهم الجماعات التابعة للكنيسة الكاثوليكية والتى عملت على استرداد مكانتها فى القرن السادس عشر ، وتنسب إلى أجناتيوس ليولا الأسبانى .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، التاريخ الأوروبى الأمريكى .

القادة المتميزين الذين شاركوا فى حصار ڤينا مع قره مصطفى ، ولكنه دخل ڤينا هذه المرة محملاً بالهدايا القيمة للإمبراطور ، وشملت الجواهر وخيمة حريرية مثل خيمة السلطان تعلو أعمدتها تيجان مستديرة من الذهب ، كما أهدى الإمبراطور السلطان خزانة من الفضة الخالصة ونافورة صناعية وبعض المشغولات الفنية النمساوية الرفيعة . وفى استانبول أقيمت مأدبة غذاء للسفير النمساوى حضرها السلطان وقدم له وسام الشرف مع أطباق السمك المقلى القادم من مياه البوسفور ، وكُرم أيضاً المبعوثون الأجانب الآخرين ممن هم أقل درجة ومن بينهم ممثل بولندا .

وبعد فترة قصيرة ، عُين سفير جديد لانجلترا وهو السير روبرت ساتون Robert Sutton ليحل محل لورد باجت الذى قام بدور وسيط مع مندوب بولندا لتوقيع معاهدة كارلوفتز . وقد قابل السلطان ساتون بحفاوة نتيجة للخدمات التى أسدتها بلاده للسلام ، بينما كان يشعر بالعداء تجاه روسيا لأن بطرس الأكبر رفض التوقيع على معاهدة كارلوفتز واكتفى بالموافقة على هدنة لمدة عام فقط ، كما سبق الذكر ، وعندما حان وقت تجديدها ، كلف المبعوث الروسى بهذه المهمة .

وقد جاء هذا السفير إلى استانبول على ظهر سفينة حربية ومرتديًا الزى العسكرى ليستعرض إحدى السفن التى بناها القيصر فى ترسانته الجديدة ، مما أثار دهشة وضيق السلطان . ولم يكتف المبعوث الروسى بذلك ، بل قام بإطلاق ٤٠ طلقة مدفعية من مدافع السفينة الجديدة ، وكرر هذا العمل عند الاحتفال بأحد الأعياد الروسية وعند وصول بقية سفن الأسطول الروسى .

وفى ظل هذه الظروف ، بدأت المحادثات واستغرقت الستة شهور الأولى من عام ١٧٠٠ ، وتميزت بالتعقيد والصعوبة ، وفى النهاية قبل العثمانيون التوقيع على معاهدة ألزمتهم بإزالة القلاع الأربعة المقامة على نهر الدنيبر وليس التنازل عنها كما طلبوا ، وكانت هذه القلاع تشكل عقبة فى طريق المواصلات وفى مراعى تتار القرم فى أراضى الإستبس ، كما سمح لهم بتوسع محدود فى المناطق الواقعة حول آزوف ، ورسمت الحدود بين الدولتين

بإيجاد منطقة صحراوية عازلة تقع بين آزوف وخليج بيريكوب Perekop (١) ، مع الابتعاد عن شبه جزيرة القرم . كذلك أُلزم التتار بإيقاف غاراتهم على الأقاليم الروسية ، ولكنهم منحوا حقوقًا متساوية مع الروس فى المصايد والملاحات فى المناطق الواقعة حول دلتا النهر ، وأصبح لهم حقوق الصيد البرى في المناطق البرية الواقعة على ضفاف النهر وكذلك صيد الأسماك وقطع الأخشاب وإقامة المناحل ، ويتوقف القيصر عن دفع الضريبة السنوية للخان ، والتى كانت تمثل نوعًا من التفاخر والتعالى عليه ومن بنود هذه المعاهدة أيضًا ، أن أصبح لروسيا سفيراً دائمًا لدى الباب العالى يتبع نظام التمثيل الدبلوماسى المعمول به مع الدول المسيحية الأخرى .

وقد شغل هذا المنصب الكونت تولستوى Count Tolestoi . غير أن هذه المعاهدة لم تمنع الروس من الاستمرار فى تدعيم قوتهم البحرية وإقامة قلاع جديدة على بحر آزوف ، وقد أزعج هذا العمل خان القرم فحاول دون جدوى تجديد الحرب معهم . ومن ناحية أخرى ظل الروس يكررون مطالبهم على الباب العالى وهى حرية الملاحة فى البحر الأسود والتنازل عن قلعة كرتش ، ولكن قوبلت بالرفض وأثارت قلق الأتراك حول نمو الأسطول الروسى فى آزوف فصمموا على حماية البحر الأسود كشريان ملاحى هام وحاولوا إغلاق المضيق وقاموا ببناء قلعة جديدة بالقرب من تاجانروج أطلقوا عليها ينى كيل أوچنيكيل Yeni Kale ، والتى وضع تصميمها لاجئ من مودينا واكتمل بناؤها فى عام ١٧٠٣ . وقد تمكنوا بذلك من التحكم فى المدخل الشمالى للمضيق ، ووضعوا بطاريات قوية على المياه لتدمير أى سفينة تحاول اقتحام الممر .

وفى الداخل ، واجه كوبريلى حسين معارضة لإصلاحاته من العناصر الرجعية ممثلة فى المفتى ورئيس الخصيان السود وأجبرته دسائسهم على اعتزال

---

(١) خليج بيريكوب هو خليج واسع يبلغ عرضه ثمانية كيلو مترات ويربط شبه حزيرة القرم بقارة أوروبا .

أنظر : La Rousse , p . 1595

المنصب بعد أن سقط صريع المرض . وانتهت حياة الصدر الأعظم ، بعد خمسة أعوام من العمل المضنى ، للإقامة فى مزرعة على بحر مرمرة وألزم بإعادة جميع أملاكه وثروته للسلطان ، وعند رحيله أهدى السلطان ستين جواداً من أجود الأنواع وجميع مجوهراته ، وما لبث أن توفى بعد ثلاثة شهور إثر مرض عضال .

وفى عام ١٧٠٣ ، عادت الفوضى إلى الدولة مرة أخرى عن طريق ثورات الانكشارية والفرق الأخرى مطالبين بزيادة المرتبات . واستمر هذا الوضع المتردى لستة أسابيع وكاد يشعل حرباً أهلية . وعند تلكوء السلطان مصطفى فى العودة من أدرنة إلى استانبول ، سار المتمردون من الانكشارية ومعهم الطلبة رافعين راية الرسول (ﷺ) بقيادة المفتى إلى أدرنة حيث حاول جيش السلطان التصدى لهم وسحق التمرد ، ولكن انضم هذا الجيش المضاد إلى التمرد بفضل قيادته السيئة ، وطالب الجميع السلطان بالاعتزال ، وأمام عجزه عن المواجهة والفشل الذى كان يلاحقه منذ مرحلة الشباب وفشله فى ميادين القتال وفى إدارة شئون البلاد ، انحنى أمام العاصفة وابتعد عن الأضواء .

الفصل الخامس والعشرون

تولى السلطان أحمد الثالث (١) الحكم ، وهو شقيق السلطان مصطفى ، فى ظروف آمنة والدولة تنعم بثمار السلام . غير أن بعض المشكلات ظهرت فى الأفق الدولى تختص بحروب الملك لويس الرابع عشر المعروفة « بحرب الوراثة الأسبانية » ، والتى انهكته فأراد عقد تحالف مع الأتراك ، وحث سفيره دى فريول De Ferriol على القيام بهذا العمل حتى يتمكن من إرسال حملة عسكرية ضد الهابسبرج فى المجر . ولكن السلطان رفض الدخول فى حرب لمساعدة الكفرة الذين يحارب بعضهم البعض ، ولو أنه أبدى استعداداً للدخول فى تحالف مع فرنسا إذا داهمها الخطر أو تطورت الحرب لغير صالحها .

وعلى الجبهة الروسية ، طلب بطرس الأكبر استمرار السلام مع العثمانيين لأنه انشغل بتحقيق التوسع الاستعمارى الروسى فى المنطقة الواقعة بين البحر الأسود فى الجنوب وبحر البلطيق فى الشمال ودخل فى صراع مع الملك شارل الثانى عشر (٢) ملك السويد الذى حاول التوسع على حساب الروس ، وقد عقد من أجل ذلك تحالفاً مع الدانمارك وبولندا ، ودارت الحرب ضد السويد ، والتى عرفت بحرب البلطيق " War of the Baltic " ، وكانت هذه الحرب بمثابة فرصة للدولة العثمانية لالتقاط الأنفاس . وقد انتهت أيضاً مفاوضات السلام الروسية مع العثمانيين فى ١٧٠٥ بالاتفاق على ضمان الهدوء على حدود منطقة القرم ، واستغل الأتراك هذه الفرصة لتقوية خطوط دفاعاتهم الشمالية ومراقبة تحركات الروس ، فكانوا يرسلون أسطولاً حربيًا لعمل مناورات عسكرية سنوية فى البحر الأسود . وبعد أن هزم القيصر ملك

(١) حكم السلطان أحمد الثالث من١٧٠٣ إلى١٧٣٠ .
أنظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى ، فى أصول التاريخ العثمانى .

(٢) كان شارل الثانى عشر ملكًا على السويد من ١٦٩٧ إلى ١٧١٨ . وحقق عدة انتصارات عسكرية على ملك الدانمارك فى ١٧٠٠ ، ولكنه هزم أمام الروس فى بلطافا . ثم هاجم النرويج وقتل فى أثناء المعارك معها ... وقد ألف عنه ڤوليتر كتاباً بعنوان « تاريخ شارل الثانى عشر » وصدر ١٧٣١ .
أنظر : La Rousse, p . 1240

السويد في معركة بلطافا (بلطاوة) Poltava في عام ١٧٠٩ ، إزدادت قوة الروس ، ولجأ شارل الثاني عشر إلى العثمانيين طالبًا الحماية وعقد تحالف وإقامة علاقات دبلوماسية معهم ، ولكن السلطان رفض ، كما رفض مطلب الروس بتسليم الملك إليهم ، وأوضح أنه لا يعتزم خرق اتفاق السلام مع القيصر ، ولا يسعى لإعادة ملك السويد إلى عرشه . وبرغم ذلك سعى الروس إلى مضايقة العثمانيين واستفزازهم بنشر وكلائهم في إقليم مولداڤيا لإثارة القلاقل ، ثم جددوا اعتداءاتهم ضد السويد ، فأرسل السلطان قوة صغيرة لمساعدة الملك وحمايته في مدينة بندر Bender الواقعة على نهر الدنيستر . وقد أدت هذه الظروف إلى زيادة الضغوط على الباب العالى من جانب الفريق المؤيد للحرب بشن هجوم على الروس ، وأخيراً اقتنع وعبأ فريق الانكشارية وسجن السفير تولستوى في الأبراج السبعة ، واستعد للسير بجيوشه عبر الدانوب إلى نهر بروث في مولداڤيا .

ولم يكن وقت هذه الحرب مناسبًا للقيصر الروسى لأنه كان مشغولاً بتأمين نفسه من جهة الشمال في البلطيق ، ومن ثم لم يستعد عسكرياً بدرجة لائقة ، كما لم يتمكن من نقل قواته إلى البحر الأسود . فأخذ يسعى في بذل الوساطة لإنهاء النزاع مع الأتراك ، ولكنه فشل ، فخرج على رأس الحملة إلى ضفاف نهر بروث Pruth (١) معتزمًا عبوره على أمل أن تلحق به قوة مسيحية مساعدة ، ولكنه وجد نفسه في أرض جرداء ويعانى من نقص في الإمدادات ، لأن القوى المسيحية فقدت الثقة في قدرته على تحقيق النصر . كما فشل في إعاقة تقدم الجيش السريع الضخم الذى جاء عبر الدانوب والذى ضم التتار والأتراك وتميز بقوة التسليح وخاصة بسلاح المدفعية . وسرعان ما استطاع هذا الجيش إحتلال المرتفعات المطلة على نهر بروث ، ومنها تقدم لإغلاقه ، ومن ثم أصبح القيصر أمام أمرين لا ثالث لهما ،

---

(١) نهر بروث أحد فروع نهر الدانوب ، ويفصل بين رومانيا وروسيا ، ويبلغ طوله ٩٥٠كم .

أنظر : La Rousse, p . 1622

وهما : إما الهزيمة التامة وإما الإستسلام ، فأصيب بنوبة صرع وأنزوى داخل خيمته فى حالة من اليأس وخيبة الأمل ، وأشد ما كان يخشاه أن يقع أسيراً فى يد الأتراك ، ولذلك قرر أن يقبل أى شروط تعرض عليه تنقذه من عبودية الأسر ، ومن فقدان جنته فى سان بطرسبرج . وفى هذه اللحظة الحرجة أخذت زوجته كاترين التى كانت تصاحبه فى هذه الحملة ، والتى تميزت بقوة الشخصية ، تشجعه وتثير حميته وتعيد إليه عقله ، ثم اقترحت مع مجموعة من ضباط الجيش أن ترسل فى طلب الهدنة إلى الصدر الأعظم بلطجى Bataji ، ثم جمعت مجوهراتها وعدة آلاف من الروبلات الذهبية من الضباط ، وأرسلتهم هدية إلى المعسكر العثمانى كإغراء للتوصل إلى اتفاق بين الطرفين بدلاً من الإستسلام . وكانت الشروط التى قبلها بطرس هى : تسليم آزوف والمناطق المحيطة بها ، وتحطيم القلاع المقامة فى تاجا نروج وعلى نهر الدنيبر ، وانسحاب الروس من بولندا ، وعدم التدخل فى شئون القوچاق ، وضمان الأمان لعودة الملك شارل الثانى عشر إلى ملكه فى السويد . وهنا انتهت أحلام القيصر للسيطرة علي البحر الأسود ، وقد عبر عنها قائلاً : « لقد طردنى الله من هذا المكان كما طرد آدم من الجنة » . كما انهارت آماله فى إقامة أسطول بحرى فى البحار الجنوبية بعد أن تحطمت سفنه التى لم يكتمل بناؤها إثر اصطدامها بالصخور وأعيدت هياكلها الخشبية إلى ترسانات بطرسبرج .

وكانت هذه الشروط التى وقع عليها الصدر الأعظم ، الذى لم يكن على دراية بالنواحى العسكرية ، أفضل مما كان يتوقع القيصر ، لأنها كانت تحمل الطابع الدفاعى عن الدولة العثمانية أكثر من الطابع الهجومى ، فضلاً عن أنه لم يخسر شيئًا من أراضيه . ومن ناحية أخرى أثارت هذه الشروط استياء ملك السويد لأنه رأى جيش القيصر عائداً أمامه وسط دوى الطبول ورفرفة الأعلام وهو عاجز عن مهاجمته ، وقد حاول الحصول على مساعدة عسكرية لشن هجوم عليه ولكنه فشل ، وكل ما حصل عليه هو وعد من خان القرم بأن يعيد تحصيل الجزية السنوية من القيصر المهزوم .

وقد اتخذت سياسات أكثر أمنًا فى الفترة التالية بفضل نفوذ السفير

البريطانى السير روبرت ساتون ، والذى دون فى تقريره أن الأتراك كانوا سعداء بالأسلوب الذى تم به إقرار السلام ، بصرف النظر عن تصرفات ملك السويد وخان القرم ، فقد أدت الوساطة التى قام بها هو وزميله السفير البولندى إلى إعادة العمل بشروط السلام مرة أخرى وذلك فى أعقاب تجدد التهديد بالحرب من جانب الأتراك الذين وسعوا حدود إقليم آزوف ومنعوا الروس نهائياً من الدخول إلى البحر الأسود . وقد عقدت معاهدتان متتاليتان فى عامى ١٧١٢ و١٧١٣ ضمنتا تحقيق السلام وتحقيق أهداف العثمانيين وتعزيز وسائلهم الدفاعية تجاه روسيا .

أما ملك السويد فقد ظل على عدائه للروس ، ولكنه حينما أدرك تخلى الباب العالى عنه قبل أن ترافقه فرقة حراسة إلى الحدود ليواصل السير شمالاً إلى سواحل البلطيق .

وبفضل هزيمة بطرس الأكبر فى بروث ، مر ربع قرن من الزمان دون انتهاك للسلام القائم مع العثمانيين ، غير أن الأخيرين لم يقنعوا بمجرد التفاخر بالنصر الذى تحقق على الروس ، بل قاموا بتحديث قواتهم العسكرية وجعلوها تحت قيادة صدر أعظم من المحاربين وهو داماد على (١) ، الذى أعد العدة لمواجهة العدو التقليدى وهو البندقية بعد أن أغرته حالة الانهيار الذى وصلت إليه ، والذى كان أسوأ من الانهيار العثمانى ، فضلاً عن عزلتها السياسية . وقد اشتهر داماد عند اليونانيين بلقب "Coumourgi" وتعنى « الوزير المقدام ذو الفكر البيرونى » . وقد قرر الثأر واستعادة المورة التى سلبها القائد البندقى المسن مورزينى ، بعد وفاته ، وبعد أن أقرت ذلك معاهدة كارلوفتز . وفى عام ١٧١٥ ، أعد العدة وكما هو مألوف استطلع رأى الفلكيين ، وخرج بجيش ضخم وحصل على قوة بحرية من تثاليا ، وحاصر كورنثة لثلاثة أسابيع حتى استسلمت . وفى حقيقة الأمر ، فإن اليونانيين ، كما فعلوا فى قبرص وكريت من قبل ، كانوا على استعداد لإستقبال الأتراك كمحررين من طغيان اللاتين وسادتهم البنادقة ، ولذلك لم يقدموا لهم أى

(١) داماد كلمة تركية تعنى الصهر .

مساعدة . ومن ثم تقدم الجيش العثمانى فى سهولة ويسر إلى المورة ، وأعاد الإستيلاء على جميع القلاع البندقية بما فيها مودون وكورون ونفارين ، وانتهت حملتهم بعد بضعة أشهر دون أن يخاطر البنادقة فى الدخول معهم فى معركة حاسمة . وبنهاية عام ١٧١٤ كانت البندقية قد فقدت كل المورة وجزر الأرخبيل ، ثم اتبع العثمانيون ذلك بالإستيلاء على المينائين المسيحيين المتبقيين فى كريت وحتى يكملوا طرد البنادقة من المنطقة اليونانية بأسرها شنوا هجوماً آخر على كورفو وعلى الجزر الأيونية .

ولكن هذا النصر التاريخى الذى أحرزه داماد على قوبل بهزيمة عثمانية غير متوقعة فى جبهة أخرى ، لأنه لم يضع فى الحسبان رد فعل إمبراطور الهابسبرج شارل السادس (١) تجاه البندقية ، ولم يفكر فى إمكانية تدخله لصالحها ، خاصة بعد أن استجاب فى البداية لطلب الأتراك بالوقوف على الحياد ، وفوق ذلك بذل وساطة لإحلال السلام بين الطرفين . غير أنه حينما طلبت البندقية العون منه على أساس خرق العثمانيين لمعاهدة كارلوفتز ، استجاب وعقد معها حلفاً دفاعياً ، وكان واقعاً تحت تأثير الأمير الذكى يوچين أوف سافوى الذى خشى من النجاح السريع للأتراك وخطر تواجدهم فى الجزر الأيونية وإمتداده للممتلكات الإمبراطورية الإيطالية ، واحتمال اتباعهم سياسة عدائية فى شرق أوروبا قد تمتد إلى ممتلكاته الألمانية ،

ومن ناحية الباب العالى ، كان هناك اختلاف فى الرأى حول هذا الحلف وكيفية التعامل معه ؛ حيث اعترض الحزب المؤيد للسلام فى الديوان السلطانى على شن حرب جديدة مع الإمبراطورية النمساوية ، ولكن بعد مناقشات ساخنة نجح الصدر الأعظم المؤيد للحرب فى كسب تأييد بعض العلماء ، وصدرت فتوى من المفتى تؤيد الدخول فى حرب جديدة وهكذا خرج جيش عثمانى من جديد فى عام ١٧١٦ إلى بلجراد ، وأعاد التاريخ

---

(١) شارل السادس هو الابن الثانى لليوبولد الأول وكان إمبراطوراً على الإمبراطورية المقدسة من ١٧١١ إلى ١٧٤٠ .

أنظر : La Rousse, p . 1522

نفسه وحدث ما حدث عند أول لقاء بين السلطان مصطفى الثانى والأمير يوجين ، إذ اعترض القادة العثمانيون على التكتيكات العسكرية ، واختلفوا هل يسيرون شمالاً باتجاه تمسفار أم جنوباً باتجاه بيتروادين ولكن تغلب داماد على معارضيه ، ولم يلتفت للإستطلاعات الفلكية ، وعبر نهر سافا ، وسار بمحاذاة الضفة الجنوبية للدانوب ليحاصر بيتروادين .

وفى المعسكر النمساوى اعترض القادة أيضاً على التكتيكات المطروحة منذ البداية ، وكانوا يخشون القوات العثمانية كبيرة العدد ، واحتمالات الهزيمة أمامها وسادهم القلق من داماد على بعد أن ذاعت شهرة انتصاراته فى اليونان ، فحذر بعضهم من مخاطرة الدخول فى معركة مفتوحة ، وطالبوا باتباع سياسة التريث ، ولكن هذا الاتجاه تعارض مع خطط الأمير يوجين الذى كان يعلم جيداً الأتراك وطبيعة أسلحتهم التقليدية وإمكاناتهم القتالية عند مواجهة الهجوم المخطط وعجزهم عن اختراق صفوف العدو . ومن ثم قرر أن يبدأ بالهجوم فى صيف ١٧١٦ ، وكان اللقاء قرب قرية كارلوفتز التى شهدت توقيع المعاهدة التى خرقها العثمانيون ، التى صارت تشهد الآن مجيئهم لمقاتلة النمساويين .

وهكذا وصل داماد على إلى بيتروادين ليجد قوات الأمير يوجين فى انتظاره ، وفى البداية حققت الانكشارية بعض النجاح واقتحمت قلب المشاة النمساويين ، ولكن يوجين عززهم بالإمدادات فشنوا هجوماً على الانكشارية من جهة اليمين ونجحوا فى كسر شوكتهم . كما تشتت شمل قوات الفروسية من السباهية وتراجعت فى ارتباك ، برغم أن الصدر الأعظم ظل يضربهم بسيفه ليتقدموا ، وفى حركة يائسة تقدم هو بخيوله مع مجموعة من الضباط إلى قلب جيش العدو ، كما فعل كوبريلى محمد من قبل منذ أكثر من عشرين عاماً فى سلانكامن لحفظ ماء الوجه ، ولكنه أصيب ، مثل محمد ، بجرح قاتل فى الجبهة من رصاصة بندقية ، ونقل على ظهر جواد إلى كارلوفتز ، حيث أدت وفاته إلى هزيمة القوات العثمانية بشكل حاسم . واتبع يوجين هذا النصر بالإستيلاء على قلعة تمسفار ، وكانت آخر القلاع الإسلامية المتبقية فى المجر ، والتى ظلت خاضعة للعثمانيين منذ أن استولى

عليها السلطان سليمان العظيم وقد عامل حاميتها معاملة طيبة ، وسمح للسكان بالرحيل دون تدخل ، ثم نفذ مخططه بإحلال الألمان والنمساويين محلهم لإستعمارها ، وبعد أن أكمل هذا العمل أطلق على تمسڤار اسم « ڤيينا الصغيرة » Little Vienna .

وكان الإستيلاء على تمسڤار تمهيداً لحصار بلجراد فى العام التالى حين هب العثمانيون لإنقاذ حاميتهم وخرجوا على رأس جيش أضخم مرتين من الجيش السابق . وكان موقف النمساويين حرجًا ، ولم ينقذهم سوى التردد والتكتيكات العسكرية غير المتكافئة من جانب الأتراك . فقد كادت القلعة أن تسقط فى أيدى الأتراك أمام العجز النمساوى عن الهجوم على المحاصرين ، إلا أن يوچين استجمع قواه وشن هجومًا جريئًا مفاجئًا واقتحم صفوف المشاة والفروسية وأشاع الاضطراب فيها ، وواصل تقدمه رافعًا راياته الزاهية الألوان تحيط به فرسانه وسط دقات الطبول وبرغم استمرار طلقات البنادق العثمانية فقد التحم الطرفان فى معركة بالسلاح الأبيض ، وتفرقت الانكشارية فى هرج ومرج .

وهكذا استطاع هذا القائد الجرئ أن يقلب الميزان ، وعادت بلجراد إلى النمساويين مرة أخرى ، وكذلك بيتروواردين ، وتكبد العثمانيون خسائر فادحة فى الرجال والسلاح ، وجرح يوچين نفسه فى هذه المعارك . وقد وصف الإمبراطور هذا النصر بأنه الأعظم على مر العصور ، وقد أصبح خالداً فى الفن الشعبى النمساوى ، وظلت تشدو به الأجيال عند الخروج للمعارك العسكرية .

والآن جاء وقت السلام ، ومرة أخرى كما حدث فى كارلوڤتز ، قامت انجلترا وهولندا بدور الوسيط بين الطرفين على أساس مبدأ "Uti possidetis" (١) « ما تحت أيدينا ملك لنا » . وفى باساروڤتز ، وهى مدينة صربية صغيرة ، تم التوقيع على معاهدة فى ١٧١٨ ، وبمقتضاها تنازل

(١) Uti possidetis اصطلاح لاتينى يعنى الإبقاء على ما تم الإستيلاء عليه أثناء الحرب . أو الإبقاء على الوضع الراهن .

العثمانيون للهابسبرج عن كل ما تبقى فى المجر ، برغم عدم رضاء جميع السكان بذلك ، كما تنازلوا عن الجزء الأكبر من الصرب وبلجراد وسمندريا وولاشيا والبوسنة وقد منح هذا الوضع الجديد الإمبراطور شارل السادس الفرصة لتدعيم مركزه فى شرق أوروبا ، وهذا لم يتحقق من قبل لأسلافه العظام خلال حروبهم مع الأتراك . أما البندقية ، فكان وضعها سيئًا ؛ إذ تنازلت فى المعاهدة المنفصلة التى وقعتها مع الأتراك عن المورة كلها . ولم تحتفظ سوى بكورفو والجزر الأيونية وبضع موانئ فى دلماشيا وألبانيا . كما تنازلت عن جزء من إقليم كان بمثابة عون للسلطان لتدعيم تحالفه مع راجوزا . وهنا ، كان الفضل للإمبراطورية العثمانية ، برغم ضعفها ، فى القضاء على جمهورية البندقية وإنهاء دورها كقوة سياسية مؤثرة . وإذا كان هذا تعويضًا للأتراك ، فإنهم دفعوا ثمنه فى شرق أوروبا حيث وصل الإنهيار العثمانى إلى الدرك الأسفل ؛ فإذا كانت معاهدة كارلوفتز قد جعلت العثمانيين قوة لا يحسب حسابها ولم تعد تمثل تهديداً للغرب الأوروبى ، فإن معاهدة بساروفتز جعلتهم فى موقف الدفاع فقط ، ولم تعد تراودهم أدنى فكرة للهجوم على أوروبا .

الفصل السادس والعشرون

استفاد السلطان أحمد الثالث ، رجل السلام ، بحالة السلام التى سادت الدولة فى فترة الاثنتى عشرة عامًا الأخيرة من حكمه ، مؤسسًا اتجاهًا جاداً ناحية الاقتباس من الحضارة الغربية والإصلاح . وقد ولد هذا السلطان ونشأ بعيداً عن القصر السلطانى بناء على رغبة محظية والده ، وبذلك تجنب مساوئ الحبس فى القفص . وبرغم أنه تأثر بالنساء منذ شبابه ، إلا أنه كان محصناً ضد دسائس الحريم ، فكان حاكمًا قويًا ومحنكًا ومستنيراً ، ولديه الرغبة فى الاستجابة للمؤثرات الغربية والشرقية والمزج بينهما ، كما كان محباً للموسيقى والأدب والفنون ، فجمع حوله مدرسة من شعراء البلاط المميزين ، وأقام فى القصر السلطانى مكتبة جديدة زاخرة بالمخطوطات القيمة .

لقد تمتع هذا السلطان بموهبة تذوق الجمال ، ولذلك صمم وشيد عدداً ضخماً من المبانى ، وكان يحب الطبيعة وزراعة الأشجار والزهور وسماع أغاريد الطيور وصوت خرير المياه ، ولذلك اتخذ تقليداً جديداً لرجال البلاط والباشوات وهو الاستمتاع بقضاء فصل الصيف على الشواطئ فى منطقة رأس القرن الذهبى على الجانب الأوروبى ، حيث شق القنوات البديعة وأقام البحيرات الصناعية والشلالات والنافورات لتوفير المياه لرى الحدائق . وفى المركز قام ببناء قصراً صيفياً عرف بـ « باب السعادة » وجعله على طراز قلعة مارلى (١) الفرنسية التى شيدت فى القرن السابع عشر والتى أحضر خططها السفير العثمانى من باريس ، وشيد حوله مجموعة من القصور والساحات والأكشاك ، وبضع مئات من الفيلات ، وكلها بنيت بالخشب والجص ، ولم يستخدم الطراز القديم فى البناء القائم على الحجارة والرخام إقتصاداً فى النفقات . وكان هذا النموذج يتخذ طابع البناء الفرنسى التقليدى المنتشر فى باريس ولكن من منظور تركى . كذلك شيد عدداً من مدن الملاهى المزينة على سواحل آسيا العذبة ، وساحات واسعة على ضفاف البوسفور الآسيوية ،

---

(١) شيد لويس الرابع عشر قلعة مارلى ، وكانت محاطة باثنتى عشرة مقصورة ، وقد تعرضت للدمار أثناء الثورة الفرنسية .

أنظر : La Rousse ,p . 1514

وجلب لهذه المبانى مهندسين معماريين من أوروبا وآسيا ، فقد ذكر السفير الفرنسى لويس سوفير فيلونوف Louis Sauveur de Villeneuve أن بعضهم كان من فرساى والآخر من أصفهان . وهكذا بدأ البلاط التركى السير فى طريق التجديد والتغيير ، وظهر فى شكل جديد « أحيانًا تبدو أمواج البوسفور والقرن الذهبى متلألأة وعليها القوارب المغطاة بالمظلات الحريرية . وأحيانًا تظهر مواكب الفرسان فى منظر بديع يجمع بين جمال الخيول وفخامة سروجها التى تبهر الأنظار ، وبريق الذهب والفضة الذى يغطى رؤوسها ، واللجام المطعم بالأحجار الكريمة » .

لقد نعم السلطان بالأبهة والفخامة فى القصر السلطانى وقاسمه أعياده ومباهجه وحبه للفنون الجميلة صهره داماد إبراهيم الذى تولى منصب الصدارة العظمى الإثنتى عشرة سنة الأخيرة من حكم السلطان ، وكان يختلف عن الصدور العظام الثلاثة عشرة الذين شغلوا الخمسة عشرة سنة الأولى من حكمه وكان محبًا للأبهة والظهور والحفلات التى كانت تستغرق وقتًا طويلاً من الليل ، وقد أحضر خبراء خصيصًا لإبتكار أساليب جديدة لإضاءة استانبول حتى ظهرت من مرتفعات مدينة بيرا متلألأة فى المساء بمبانيها وحدائقها والنافورات الجذابة التى انتشرت بها .

وقد عبر عن هذا المشهد أحد السفراء الفرنسيين الجدد فقال : « لقد أحيطت قباب المسجد بالأنوار الساطعة فى المساء ، وتعالت بين مآذنها آيات القرآن فى السماء وقد أضاءت الأنوار حروفها » . وفى المناسبات الخاصة ، كان يتم إضاءة مدينة استانبول لثلاثة أيام وليالى متواصلة ، ففى مناسبة زواج ثلاثة من بنات السلطان ، واثنتان من بنات شقيقه ، وختان أربعة من أبنائه ، أمر الصدر الأعظم بأن تعم الأفراح جميع أنحاء البلاد ، وأحضر من ولايات الدولة أكثر من ٢٠٠٠ عازف و١٥٠٠ من المحاكين وعازفى المزمار والحواة ولاعبى الأكروبات ، بالإضافة لعدد ضخم من الطهاة ، ثم أمر السلطان مفتش المطابخ السلطانية بصنع حلوى على هيئة أربعة نخلات بأحجام خرافية للأمراء الصغار ، وآخر ذوات حجم أقل لبقية المدعوين . وقد تفانى الطهاة فى صنع نماذج خارقة من الحلوى مثل حديقة طولها خمسة ياردات وعرضها

أربعة ياردات لتعبر عن طلاوة الزواج .

وكانت أعياد الحلوى تقام فى القصر السلطانى شتاء حيث يتبارى الشعراء فى إلقاء القصائد ، مع الرقص وألعاب الظل الصينية ، وكان يصاحب توزيع الحلوى إقامة الصلوات . وفى الربيع أقام السلطان حفلات أخرى خصصها لزهرة التيوليب ، إذ كان مولعاً بالزهور مثل الياسمين والسوسن ، إلا أن زهرة التيوليب كانت ذات مكانة خاصة لديه ، وقد عرفت بالتركية بـ « زهرة اللالة » ، فحروفها هى حروف اسم الله مما جعل لها قدسية خاصة ، حتى أنها اقترنت بحكم السلطان وأصبح يعرف ب « عصر اللالة » أو « عصر التيوليب » والتيوليب زهرة برية تنمو فى برارى آسيا ، وجاءت مع الأتراك فى هجراتهم تجاه الغرب منذ قرون عدة ، وكان أول من أدخلها إلى الغرب هو بوسبك السفير النمساوى فى القرن السادس عشر ، بصفته أحد علماء النبات ، فقد كان يأخذ شتلاتها عند العودة أى إلى أقليم الفلاندرز (١) . وأصبحت تحمل فى أوروبا نفس الاسم الذى أطلقه عليها الأتراك وهو تولبند Tulbend أو توربان Turban كما فى اللغة الفارسية . وبعد فترة قصيرة بدأ التجار الأوروبيون فى استيراد هذه الزهرة على نطاق واسع ، ثم تمت زراعتها فى هولندا واشتق منها اثنتى عشرة نوعًا . وقد خلقت هذه الزهور نوعًا من الهوس بها بين الصفوة العثمانية خلال القرن السابع عشر ، فإنتشرت زراعتها فى مساحات واسعة ، وتسببت فى ثراء البعض كما أن ندرتها فى بعض الأحيان تسببت فى ضياع ثروات البعض الآخر حتى أنها عرفت « بذهب أوروبا » .

وكان السلطان محمد الرابع ، والد أحمد ، هو الذى أدخل هذه الزهرة إلى تركيا وأقام الحدائق التى ضمت أنواعًا عديدة منها فى القصر السلطانى ، أما السلطان أحمد الثالث فقد استورد منها أنواعًا عديدة من هولندا وفارس ، وزرعها بعناية فائقة فى حدائقه وخصص مساحات معينة لكل نوع على

---

(١) إقليم الفلاندرز يقع شمال فرنسا على بحر الشمال بين فرنسا وبلچيكا ، وهو الآن جزء من بلچيكا .

أنظر : La Rousse ,p . 1338

حدة . وكان عيد الربيع بالنسبة له هو عيد التيوليب The Tulip Fête وكان يقيم له احتفال فى القصر السلطانى أسوة بالأعياد الدينية الإسلامية فى شهر أبريل من كل سنة . وكان الاحتفال يستمر لأمسيتين متتاليتين فى ضوء القمر وفى حدائق القصر التى نظم فيها السلطان زراعة هذه الزهرة على شكل مدرجات مصنفة حسب النوع واللون ، وكانت توضع بينها الفوانيس ذات الزجاج الملون والكرات المليئة بالسوائل الملونة ، كما وضع أقفاص طيور الكنارى وغيرها من الطيور المغردة النادرة بين فروع الأشجار ، بينما يجلس هو على كرسى العرش فى الخيمة السلطانية ليتقبل فروض الطاعة والولاء من رجال الدولة . وتخصص الليلة الثانية للحريم السلطانى ومعهم السلطان بمفرده ، حيث تعزف الموسيقى وتنشد الأغانى وينظم الشعر وترقص العبيد ، وتسير السلاحف حاملة القناديل فوق ظهورها خلال الحدائق لإضاءة مزارع التيوليب ، وأحياناً كانت توضع أكياس من النقود مع الحلوى الملونة وبعض الحلى بين الأزهار ، تقليداً لشجرة عيد الفصح فى أوروبا ، وتنتقل الجوارى هنا هناك بحثًا عن هذه الأشياء الجميلة ، وقد وضع إبراهيم باشا فى إحدى المرات جوهرة زرقاء بين الأزهار ، وجعلها جائزة لمن يعثر عليها ، وكان يغطيها بقناع أبيض لحمايتها من الشمس فى الطقس الحار .

ولم تستخدم زهرة التيوليب على واجهات القراميد وغيرها من فنون الديكور العثمانية فقط ، بل أصبحت مادة للإلهام للشعراء العثمانيين الذين نظموا أشعارهم على النسق الفارسى ، مما يعد علامة جديدة فى الشعر العثمانى . وكان الشاعر الذى ذاع صيته فى هذا العصر هو « نديم » الصديق المخلص والشاعر الفيلسوف ، والذى عبر عن الأبهة والعظمة وتذوق الحياة بقوله : « دعونا نضحك ونمرح ونستمتع بمباهج الحياة » . لقد أصبحت هذه الزهرة رمزاً للشعر التركى ورمزاً للتحرر من القيود . وقد عبر عن هذا الاتجاه شاعر معاصر يدعى يحيى كمال فى إحدى قصائده قائلاً : « إن النصر هو الجمال الذى يظهر فى شكل الزهرة الجميلة وقبلات التيوليب » .

لقد كان عصر التيوليب يمثل مولد حقبة جديدة فى الدولة العثمانية ، وليس مجرد طراز عابر ، حقبة تعتمد على العالمية والإستنارة التى تعكس روح

الإصلاح المتحرر والتغيير الجذرى الذى يتطلع إلى الغرب بعلومه المتقدمة وثرائه الإقتصادى وقوته العسكرية حاملاً معه العلمانية لتدخل إلى مجالات القيم الدينية التقليدية للإسلام فى الشرق . لقد آمن العثمانيون بضرورة الإصلاح الإجتماعى والثقافى الذى يعتمد على الحضارة الغربية ، برغم أن هذا الاتجاه كان محدوداً فى البداية فى نطاق الصفوة العثمانية الحاكمة . وهكذا أصبحت زهرة التيوليب رمزاً لفجر نهضة تركية جديدة متأثرة بالحضارة الغربية .

وفى عام ١٧٢٠ ، أرسلت الحكومة التركية مبعوثاً خاصاً إلى بلاط الملك لويس الخامس عشر (١) يدعى شلبى محمد (٢) ، لطلب عقد تحالف مع فرنسا . وكانت التعليمات المكلف به ، إلى جانب مهمته الرسمية من الصدر الأعظم ، هى زيارة القلاع والمصانع الفرنسية والإطلاع على جميع الأعمال المتحضرة وكتابة تقرير عنها وعن إمكانية إقامتها فى تركيا . وبالفعل كتب شلبى تقريراً مطولاً عن زياراته أصبح قاعدة للمتغيرات المستقبلية فى تركيا ، وقد صحب محمد شلبى فى رحلته ابنه سعيد الذى كان من أوائل الأتراك الذين تعلموا اللغة الفرنسية . وكتب شلبى عن مدينة باريس التى بهرته وعن فنونها وعلومها وحدائق الحيوانات بها وحدائق النباتات والمسارح ودور الأوبرا والعادات الإجتماعية . وسجل دهشته وإعجابه بالنساء الفرنسيات وعلو مكانتهن عن الرجال والحرية التى تمتعن بها . كما اهتم بمرصد باريس الفلكى وبلوحات علوج بك الفلكية ، وهو من أشهر علماء الفلك فى

---

(١) تولى لويس الخامس عشر الحكم فى ١٧١٥ وهو فى سن الخامسة ، ويعد من أضعف ملوك فرنسا . وفقدت فرنسا فى عهده مستعمراتها فى كندا والهند بعد حرب السنوات السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٣) وتوفى فى عام ١٧٧٤ .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، التاريخ الأوروبى الأمريكى .

(٢) يعتبر شلبى محمد أول سفير عثمانى فى باريس . وحمل الكتاب الذى أصدره بعد عودته من فرنسا اسم « سياحتنامة » .

أنظر : ناهد إبراهيم دسوقى ، محاولات الإصلاح فى عهد السلطان سليم الثالث وأثر الغرب الأوروبى فيها (١٧٨٩ - ١٨٠٧) ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، آداب إسكندرية ١٩٨١ .

سمرقند فى القرن الخامس عشر . وتقابل مع سان سيمون (١) وكتب عن تجاربه وسجل ميله إلى النساء ، ثم أعرب عن أمله فى تأسيس مطبعة عند عودته إلى القسطنطينية . وقد اعتبرت القوى الرجعية العثمانية الطباعة بدعة وعارضتها بدعوى التخوف على مستقبل البلاد ، ومن ثم أخذ سعيد بن محمد شلبى على عاتقه مهمة إدخال هذا الفن إلى تركيا لأنه آمن به وبقيمته الثقافية . فأسس فى ١٨٢٧ أول مطبعة فى العالم الإسلامى بمساعدة إبراهيم متفرقة (٢) ، وهو أسير من المجر ، رأى أن إدخال الطباعة إلى الأتراك وسيلة فعالة لنقل أفكار وأساليب الغرب إليهم .

وقدم سعيد شلبى مذكرة إلى إبراهيم باشا ، وتعمد طباعتها ، ليرفعها إلى السلطان ، وتساءل فيها : « لماذا استطاعت الأمم المسيحية التى كانت ضعيفة فى الماضى ، مقارنة بالأمم الإسلامية ، الإستيلاء على أراضى العثمانيين وهزيمة جيوشهم المنتصرة أبداً ؟ وبعد الإجابة على هذا السؤال ، حث على ضرورة استيقاظ المسلمين من سباتهم ، ودعاهم إلى التعرف على أحوال الأعداء ، والأخذ بالأساليب الأوروبية الحديثة فى مجالات الإدارة والتنظيم والتكتيك العسكرى وأساليب القتال ، وطالب بتوسيع الآفاق العسكرية والسياسية عن طريق دراسة علم الجغرافيا وعلوم الملاحة البحرية التى أدت إلى نجاح المسيحيين فى اكتشاف العالم الجديد وهزيمة المسلمين ، كما طالب بأن يتعلم العثمانيون الدرس من الجيران الروس الذين استعان قائدهم القيصر بالخبراء فى هذه العلوم من الدول الأخرى وأصلح جيوشه باتباع نصائحهم

---

(١) لوى دى روفرى سان سيمون ، أديب فرنسى ولد فى باريس (١٦٧٥ - ١٧٥٥) وله إصدارات أدبية كثيرة ، ورسم العديد من الشخصيات الشهيرة فى هذه الفترة ، وتميز أسلوبه بالقوة والخيال .

أنظر : La Rousse ,p . 1671

(٢) ولد إبراهيم متفرقة فى ١٦٧٤ فى المجر ، وقد أسرته الجيوش العثمانية أثناء حروبها فى المجر فى سن الثامنة عشرة ثم بيع فى الآستانة واعتنق الإسلام . ثم شغل وظيفة مترجم للباب العالى من ١٧١٨ حتى ١٧٣٥ ، وتوفى ١٧٤٥ .

أنظر : دائرة المعارف الإسلامية ، جـ ٣ ، ص ١٧٢ .

وإرشادتهم ومساعدتهم . وكان يرى أن الأتراك فاقوا شعوب الأرض فى تطبيق القانون والنظام ، فإذا استطاعوا تعلم العلوم العسكرية الحديثة وفنونها لن تقهرهم أمة على وجه الأرض ثم طلب من شيخ الإسلام إصدار فتوى تبيح طباعة الكتب ، وصدرت ولكن مع تحريم طباعة القرآن الكريم وبعض الكتب الدينية الأخرى ، ولم تسمح إلا بطباعة بعض الكتب العلمانية مثل المعاجم وكتب العلوم .

وعندما اقترب عهد السلام من النهاية ، شعرت الانكشارية بقلق من الأساليب الحديثة التى اتبعها السلطان ، واتهمته بالسير على نهج الكفرة والخروج على المألوف والابتعاد عن الاهتمام بمصالح البلاد . وفى خريف ١٧٣٠ تجدد النزاع الحدودى بين العثمانيين والفرس بوصول نادر خان (١) إلى الحكم ، وكانت له ميول عدوانية تجاه الأتراك ، وتزامن مع قيام تمرد من جانب فرقة الانكشارية فى ألبانيا ، فتصدى لها الصدر الأعظم إبراهيم بنفسه بينما كان السلطان يتفقد حدائق التيوليب على الساحل الآسيوى للبوسفور . وانتهى الأمر بإذعان السلطان لمطالب الانكشارية الثائرة وسلم لهم الصدر الأعظم والقائد الأعلى للقوات المسلحة وبعض كبار الضباط حيث شنقوهم . وعندما استشعر دنو الخطر من حياته وحياة أبنائه تنازل عن الحكم لإبن شقيقه محمود الأول ، الذى أخرج من القفص وجعله سلطاناً ، وعاد هو إلى القفص مرة أخرى ليقض به بقية سنوات عمره .

لقد كان حكم السلطان أحمد الثالث بلا شك يمثل اتجاهاً إصلاحياً جديداً أخذ فى النمو فى الفترة التالية . فمذكرة إبراهيم متفرقة التى أوضحت مدى الحاجة إلى الإصلاح العسكرى طبعت من جديد وقدمت للسلطان الجديد محمود الأول (٢) الذى أثبت أنه يتمتع بشخصية قوية برغم أنه

---

(١) كان نادر خان حاكماً على فارس من ١٧٣٦ إلى ١٧٤٧ .

أنظر : La Rousse ,p . 1551

(٢) حكم السلطان محمود الأول من ١٧٣٠ إلى ١٧٥٤ .

أنظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى ، فى أصول التاريخ العثمانى .

كان مـن ضحايا القفص . واستطاع متفرقة إعادة الحياة إلى مطبعته مرة أخرى ، وطبع العديد من المؤلفات الأوروبية التى حملت الأفكار الحديثة والمكتشفات العلمية الحديثة فى أوروبا . وقد نشر بمعاونة لجنة مؤلفة من خمسة وعشرين مترجمًا عدداً ضخماً من المؤلفات التى تناولت أسرار علم الجغرافيا وفن رسم الخرائط ، والتى كان متخصصاً فيها ، وعلم الفلك والعلوم الطبيعية ، ومن بينها ترجمة لأرسطو ومعلومات عن التلسكوب والميكروسكوب والمغناطيسية والبوصلة ، ونظريات جاليليو فى الرياضيات بمختلف فروعها ، ونظريات ديكارت ومؤلفات طبية . وعندما توفى متفرقة فى ١٧٤٥ ، توقفت المطبعة عن العمل وظلت بعض الكتب المترجمة على هيئة مخطوطات ، ولم تبعث الطباعة مرة أخرى فى تركيا إلا فى ١٧٨٣ ، وقد أدى هذا العمل إلى توقف عصر التيوليب الذى كان يحمل طابع النهضة التركية .

الفصل السابع والعشرون

لقد أصبحت الدبلوماسية هى سلاح العثمانيين الفعال مع أوروبا أكثر من الحرب ، وانتهت أيام تعالى الهلال ورغبته فى القضاء على الصليب عن طريق الحماس الدينى والقوة العسكرية . انتهى ذلك العصر فى بيتر واردين بهزيمة داماد على ، آخر المجاهدين ، على يد الأمير يوچين القائد الماهر الذى كان على دراية بشئون الحرب الحديثة ، وأدرك غالبية الأتراك أن الدور العثمانى فى الشئون الأوروبية أصبح دفاعياً ويعتمد على الحلفاء ، وأن الهلال فى حاجة إلى الصليب ، ومن ثم أقام الباب العالى تنظيمًا لإيجاد تمثيل دبلوماسى دائم مع الدول الأوروبية . فمنذ قيام الدولة وحتى توقيع معاهدة كارلوفتز ، لم يكن هناك تبادل دبلوماسى بين المسلمين وأوروبا ، ولم تكن هناك دراية بالقانون الدولى ، فالعثمانيون يسيرون وفق نظمهم الخاصة ، فهم الدولة الوحيدة على وجه الأرض التى تستقبل مبعوثى الدول المسيحية «الكفرة» وتسمح بالإقامة للبعثات الدبلوماسية على أراضيها دون أن ترسل مبعوثيها فى المقابل . وقد أدى هذا الأسلوب إلى عزلة الأتراك عن النظام الأوروبى فى وقت تحولت فيه المناطق لأوروبية إلى دول برغم استمرارهم فى عملية التوسع الإقليمى على حساب أوروبا . وقد بدأ الاحتكاك بأوروبا مع توقيع المعاهدات مثل كارلوفتز وبساروفتز ، وروعيت قواعد القانون الدولى والدبلوماسية الأوروبية ، وأصبح هناك علاقات عثمانية ومفاوضات مع الغرب بعيدة عن المجال العسكرى ولكن من منطلق الضعف وليس القوة . على أن هذه العلاقات ظلت لفترة طويلة من طرف واحد فقط لعدم وجود بعثات دبلوماسية عثمانية دائمة فى الخارج ، وفى الداخل كانت هناك إدارة صغيرة فقط تتولى الشئون الخارجية .

وكان أعضاء البعثات الدبلوماسية الأجنبية فى تركيا يعانون من هذا الوضع ، فاضطروا إلى اللجوء إلى الدسائس لتنفيذ التعلميات والضغط والتحايل للتوفيق بين مصالح بلادهم والمصالح العثمانية ، ولذلك كانوا يعيشون فى إحباط مستمر وعزلة عن بلادهم لقلة الاتصال بسبب صعوبة المواصلات بل أصبحوا هم وزملاؤهم من الدبلوماسيين الآخرين يعانون من العزلة التامة فى الحى المخصص للأجانب فى مدينة بيرا Pera . وكانت قناة الاتصال الوحيدة عن طريق العاصمة استانبول عبر القرن الذهبى ، مما جعلهم

يخضعون للبروتوكول العثمانى القائم على الدسائس والخطط السرية التى كان يحيكها الصدور العظام والتى كانت تؤدى إلى التأجيل وتعطيل المفاوضات فى معظم الأحيان . ويضاف إلى ذلك ، أن الدبلوماسيين الأجانب واجهوا مشكلة اللغة فجهلهم باللغة التركية من جهة ، ومعرفة قلة من الأتراك باللغات الأوروبية من خلال احتكاكهم بالأسرى المسيحيين الذين استخدموا فى الوظائف الإدارية من جهة أخرى ، جعلهم يعتمدون على المترجمين الشخصيين الذين كانوا فى العادة من اليونانيين أو من ذوى الأصول اللاتينية من منطقة الليفانت . وكان هذا المترجم هو الوسيط مع موظفى الباب العالى ، وكثيراً ما كان يتحدث بالطريقة التى تناسبه ويظهر اهتماماته الخاصة على حساب زملائه من التراجمة الآخرين أو الأصدقاء . ولكن فى عام ١٦٦٩ ، أدخل تعديل وتحسين على هذا النظام عن طريق إنشاء إدارة للترجمة تابعة للباب العالى ضمت المسيحيين اليونانيين والأرمنيين أو الفئة المعروفة بالفناريين (١) ، ثم أصبح رئيسها يعادل وزير الخارجية وصار له إدارة بها عدد من الوظائف الهامة شغلها المسيحيون الذين يدينون بالمذهب الأرثوذكسى لأنهم بحكم معاملاتهم التجارية مع الغرب ، أجادوا اللغات الأوروبية ، كما كان أبناؤهم يتعلمون فى بعض جامعات الغرب مثل جامعة بادوا Padua (٢) ، وكان بعضهم ممن يشغلون مناصب سفراء أو حكام للولايات المسيحية التى تتمتع بالحكم الذاتى فى ظل السيادة العثمانية .

وهكذا صار العثمانيون يعتمدون على العناصر المسيحية ويستخدمونهم فى نظام الخدمة الداخلية دون اللجوء إلى التجنيد أو إجبارهم على اعتناق الدين الإسلامى ، وأصبح المترجم ضرورياً ولا غنى عنه كهمزة وصل مع أوروبا ، كما أصبحت هناك علاقات منتظمة مع المبعوثين

---

(١) الفناريون هم التراجمة اليونانيون من حى الفنار أحد أحياء مدينة القسطنطينية .

أنظر : La Rousse , p . 1600

(٢) جامعة بادوا ، جامعة إيطالية ، تعد من أقدم الجامعات فى أوربا ، وهى تقع غرب البندقية .

أنظر : La Rousse , p . 1851

الأجانب ، ولقاءات دائمة ينافشون فيها أعمالهم والترجمة للوفود الأجنبية التى تأتى للسلطان ، وتبادل للآراء وترجمة للمراسلات التى تأتى من الدول الأجنبية مما جعل السلطان على دراية مستمرة بالشئون الأوروبية .

وبرغم ذلك ظل السفراء الأجانب يعانون من الفشل الدبلوماسى ، ويحضرنا فى هذا الصدد تجربة النبيل فيلونوف Villeneuve سفير الملك الفرنسى لويس الخامس عشر فى بدايات القرن الثامن عشر ، والذى كان مكلفًا بتقوية النفوذ الفرنسى لدى الباب العالى بعد أن ضعف فى الفترة السابقة أمام النفوذ الإنجليزى . وكان فيلونوف يسعى عن طريق العلاقة الشخصية وإعتماداً على الصداقة الفرنسية – التركية التى أرسى دعائمها الملك فرنسوا الأول ، لإقامة علاقات مميزة مع الباب العالى وتفضيل فرنسا على ما عداها من الدول الأخرى ، حتى يمكن سد الفجوة التى ظهرت بين الضعف العثمانى والقوة الروسية التى هددت توازن القوى فى أوروبا . ولكن ، بعد أن وصل السفير إلى القرن الذهبى فى الزى الرسمى واستعرض القوة البحرية الفرنسية ، تأخرت مراسم الاحتفال بقدومه على شاطئ البوسفور ، كما تأجل موعد مناقشة المسائل السياسية ، وفى النهاية لم يحظ إلا بعشر دقائق فقط لمقابلة السلطان . وبعد عدة أيام تقابل مع الصدر الأعظم ورحب به مظهراً الاحترام الواجب ، إلا أنه أجبره على التدخين ، برغم أنه من غير المدخنين .

وعندما حاول ڤيلونوف مراراً مناقشة الموضوعين الأساسيين وهما : الإمتيازات الأجنبية ، وحماية الأقليات المسيحية باغته الصدر الأعظم بالسؤال عن حدائق ڤرساى الجميلة وعن نظائرها التى أقيمت فى تركيا ومياهها العذبة ، ثم أرسل مترجمه إلى السفارة الفرنسية لجمع المعلومات عن كيفية إستيراد النباتات والأعشاب من فرنسا . ومرت ثمانية أشهر وفيلونوف يتحلى بالصبر حتى يحظى بمقابلة الصدر الأعظم مرة أخرى ، وسبب ذلك أن الباب العالى كان يفضل مقابلة المقيم الإمبراطورى النمساوى على حساب السفير الفرنسى ، تمشيًا مع السياسة الدفاعية التى سارت عليها تركيا بعد هزيمة الأتراك المشينة فى بلجراد والتى جعلتهم يبحثون عن وسائل لتهدئة الإمبراطور وعدم تجديد النزاع معه ، لأنه بعد أن حصل على إمتيازات عديدة فى معاهدة

بساروفتز وامتلك شركة أوشتند الإمبراطورية Imperical Ostend company أصبح منافساً خطيراً للتجارة فى الليفانت ، وتوجه إليه قطاع من المسيحيين اللاتين لطلب المساعدة بعد أن خذلتهم فرنسا . ولكن ، تغير هذ الموقف بشكل جذرى فى عام ١٧٣٠ بعد عزل أحمد الثالث وإعدام الصدر الأعظم وانتهاء النظام الإصلاحى الذى سار عليه ، ونجح ڤيلونوف فى الحصول على الدعم العثمانى للسياسة الفرنسية . ففى خلال بضعة شهور حصل من القائد الأعلى للبحرية العثمانية على إعفاءات جمركية للتجارة الفرنسية ، كما أعاد الصدر الأعظم المتفرنس طوبال لفرنسا إمتيازاتها الدينية السابقة ، وأصبح المبشرون الذين تعرض وضعهم القنصلي للهبوط فى الفترة السابقة ، قادرين على ممارسة نفوذهم الدينى في جميع الولايات المسيحية بشكل أكثر حرية ، وعادت الإعفاءات الضريبية للآباء المسيحيين فى الأماكن المقدسة بعد إستبعاد السيادة التركية منها ، وسمح للمسيحيين باستعادة الكنائس التى أحرقها المسلمون بحجة أن أجراسها توقظ الملائكة فى المساجد ، وبتشييد كنائس جديدة . وبذلك يكون إمبراطور فرنسا قد استعاد مكانته كحامي للعقيدة المسيحية .

واستأنف فيلونوف دوره السابق من جديد وصار يسدى النصح والمشورة للباب العالى فى علاقاته الخارجية ، وقد خضع الصدر الأعظم لتأثيره التام حتى أصبح لا يخفى عنه سراً ويصارحه بوجهات النظر العثمانية تجاه الإمبراطور النمساوى والقيصرة آنّا Anna (١) التى خلفت بطرس الأكبر .

ولكن بعد عزل طوبال ، خلفه صدور عظام لا يميلون للسياسات الفرنسية مما عرض مركز فرنسا للحرج في بعض المواقف . ففى عام ١٧٣٣ دخل الإمبراطور النمساوى والقيصرة آنّا فى تحالف من أجل حرب الوراثة البولندية (٢) ضد فرنسا المنافسة لهم ، وضغطت النمسا وروسيا على

---

(١) آنّا Anna ، هى إبنة شقيق بطرس الأكبر وإمبراطورة روسيا من ١٧٣٠ إلى ١٧٤٠ .
أنظر : La Rousse , p. 1122

(٢) استمرت حرب الوراثة البولندية من١٧٣٣ إلى ١٧٣٥ وحصلت فيها فرنسا على دوقية لورين .
أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، التاريخ الأوروبى الأمريكى .

العثمانيين لإعلان الحياد ، وتم بالفعل ، وفى ذات الوقت مارست فرنسا ضغطها على السلطان من أجل التدخل فى الحرب بدفع القوات العثمانية من جهة القرم إلى أوكرانيا ثم إلى بولندا . وكان الثمن الذى طلبه الأتراك هو تكوين حلف دفاعى هجومى بين السلطان وملك فرنسا وبه العديد من الضمانات ، ونظراً لوجود معارضة داخلية لإقامة تحالف بين المسيحيين والكفرة ، تحولت فكرة التحالف إلى المصلحة المتبادلة وهو المبدأ الذى كان يحكم العلاقات الفرنسية - التركية منذ عصر فرنسوا الأول . ولكن ، فى فرساى ، رفض الكاردينال فلورى Fleury فكرة التحالف بشدة ، وكان يمثل القوة المحرضة للملك لويس الخامس عشر ، وتعلل بأنه قد يؤدى إلى إثارة النزاع مع الدول المسيحية فى أوروبا وبصفة خاصة إنجلترا وهولندا . وجاء هذا الرفض بعد مفاوضات بين الباب العالى وفرنسا استمرت لثمانية عشرة شهراً وأثبتت أن الأتراك لا يقلون صلابة فى المجال الدبلوماسى عن المجال الحربى .

وفى عام ١٧٣٤ ، قام الروس بتوجيه جيش ضخم ناحية أوكرانيا ، إعتماداً على حياد الباب العالى ، لحصار دانزيج Danzig (١) هدفهم الرئيسى ، وتمكنوا بفضل مساعدة أمير وارسو التابع لهم من التحكم فى غالبية بولندا . وقد جعلهم هذا الوضع قادرين على التحرك من البلطيق إلى سواحل البحر الأسود لينتقموا لهزيمة بطرس الأكبر أمام الأتراك فى موقعة بروث . وحتى يثير الروس القلاقل فى منطقة القرم ولقوات خانات التتار التابعة للسلطان ، تحركت جيوشهم باتجاه آزوف واستولوا عليها دون إعلان الحرب ، وفى ذات الوقت غزوا القسم الأكبر من شبة جزيرة القرم عن طريق خليج بيريكوب ،

---

(١) لمدينة دانزيج البولندية أهمية تاريخية ، فقد تمتعت بشبه استغلال ذاتى فى القرن الثامن عشر ، ثم أصبحت تابعة لبروسيا فى ١٧٩٣ . وخلال حروب الثورة الفرنسية خضعت للحكم الفرنسى فى ١٨٠٧ ، ثم تحولت إلى مدينة حرة من ١٨٠٧ إلى ١٨١٤ . وعادت لبروسيا مرة ثانية من ١٨١٥ إلى ١٩١٩ ، ثم مدينة حرة مرة أخرى فى ١٩١٩ . وضمت إلى الرايخ الألمانى الأول فى ١٩٣٩ ، وكان اجتياح الألمان لها فى نفس السنة افتتاحاً للحرب العالمية الثانية ، وفى عام ١٩٤٥ أصبحت بولندية .

أنظر : La Rousse , p. 1285

وهاجموا خطوط دفاعاتها وحصونها ، واستولوا عليها بعد مقاومة عنيدة من التتار ، ثم أعملوا فيها السلب والنهب والمذابح وخربوها بشكل لم يحدث من قبل لا من بطرس الأكبر ولا من أى جيش روسى آخر . ولكن ، برغم ذلك ، كانت النتيجة النهائية هى الانسحاب بعد معاناة الجوع والمرض والإنهاك فى برارى الاستبس المجدبة قبل حلول فصل الشتاء . وهكذا تعادل هذا النجاح المبدئى الذى حققه الروس مع هزيمة الانسحاب ، وقد ترك ذلك تأثيراً فى شكل الشعور بالأمان الزائف لدى العثمانيين ، ومن ثم استعدوا للحرب وتعبئة الجيوش للسير إلى مدخل الدانوب ، وكان من الممكن أن تحقق المقاومة العثمانية نتائج طيبة إلا أنه أعقب فقدان آزوف دخول الروس إلى البحر الأسود ومحاصرة القلاع الثلاثة التى تحرس مداخل أنهاره ، ثم إعلان القيصرة حرية الملاحة للسفن الروسية الحربية والتجارية ، ويعنى هذا تحويل البحر الأسود إلى بحيرة روسية وفتح الطريق إلى استانبول وإلى المضايق وشرقى البحر المتوسط حيث تجارة الليفانت المجزية على حساب الدول الغربية .

وطالب الإمبراطور شارل السادس بنصيبه فى الغنيمة مهدداً بالتدخل العسكرى ، ووقع على معاهدة سرية مع روسيا بالموافقة بهذا الشأن . أما عن الأتراك فقد أحجموا عن مواجهة الأعداء فى ميدان القتال ، وفضلوا بذل الوساطة عن طريق أحد سفراء الدول المسيحية ، وتبارى فى هذا المجال سفير إنجلترا وسفير هولندا والمقيم العام الإمبراطورى . فى صيف ١٧٣٦ واصل الصدر الأعظم الجديد ، الذى كان على علاقة غير وثيقة بفيلونوف ، الاستعداد العسكرى وعزم على التوجه إلى مدينة بندر فى بسارابيا بالقرب من مدخل الدانوب ، برغم أنه كان يتوقع البدء فى مفاوضات السلام وليس الحرب . ولما كانت القوات النمساوية الإمبراطورية منهكة من أثر الحروب البولندية ، وفى حالة لا تسمح لها بالدخول فى حرب جديدة ، فقد تقرر البدء فى المفاوضات بين النمساويين والروس من جانب وبين العثمانيين من جانب آخر من خلال الوساطة .

وفى صيف ١٧٣٧ ، وفى مدينة نيميروف Nemirov الواقعة فى أوكرانيا البولندية عقد المؤتمر ، وكانت القوات النمساوية والروسية على استعداد لإثارة القلاقل ضد الأتراك فى أى وقت فكانوا يتفاوضون والأسلحة فى أيديهم . وكانت المطالب الروسية تتمثل ليس فقط فى حرية

الملاحة في البحر الأسود ودخول الأساطيل إلى البوسفور ثم إلى البحر المتوسط بل توسيع الحدود الروسية لتصل إلى الدنيستر ، والتنازل عن كوبان وغيرها من أراضي التتار شمال البحر الأسود ، والاعتراف بمولدافيا وولاشيا ولاتين مستقلتين في ظل السيادة الروسية . أما النمسا فقد طالبت بالتنازل عن البوسنة والصرب ، وسارت بقواتها بالفعل إلى هذه المناطق واستولت على قلعة نيس في الصرب وأرسلت مذكرة بهذا المعنى إلى العدو المهزوم . ولم يكن أمام الأتراك سوى خيار واحد هو رفض هذه الشروط ورفض الإجتماع وحمل السلاح للدفاع عن بلادهم .

وكان الأمل الوحيد للخروج من هذه الأزمة هو تدخل فرنسا ، ولكن حكومة لويس الخامس عشر أظهرت تردداً في البداية ، وفضلت أن يتنازل العثمانيون عن آزوف للروس كبديل للحرب ، ثم عدلت عن هذه السياسة أمام التهديد الروسي بالدخول إلى البحر المتوسط ، وقررت ضمان سيادة الدولة العثمانية مهما كان الثمن ، ومن ثم أصبح هناك طرفان وجهاً لوجه الأتراك وبجانبهم فرنسا وروسيا وبجانبها النمسا ، ولما كانت منطقة الليڤانت مجالاً حيوياً للتجارة الفرنسية ، فقد أقر الكاردينال فلورى ضرورة الإبقاء على الدولة العثمانية برغم ضعفها وتصدعها لأنها تشكل عاملاً أساسياً في حفظ التوازن الأوروبي . وانطلقت من فرساى سياسة دبلوماسية هجومية جديدة تعتمد على الوكلاء الفرنسيين في ڤينا للقضاء على التحالف الروسي – النمساوي وعلى ممارسة الضغوط على الأتراك لإقناعهم بأن الحرب أفضل من قبول السلام بشروط مهينة . وحينما أدرك الصدر الأعظم خديعة النمسا وروسيا ، استجاب للفداءات الفرنسية ، وجهز جيشًا لدخول الحرب في جبهتين النمساية والروسية .

وكان التوقيت مناسباً على الجبهة النمساوية لأنه بعد وفاة الأمير يوچين ، تم تقليل أعداد القوات المقاتلة بالإضافة إلى هبوط معنويات الجنود ووجود عدد من القادة غير الأكفاء وقيام الخلاف بين النمساويين وحلفائهم الروس فضلاً عن عدم وجود خطة محددة للعمل العسكرى . وفوق كل ذلك واجهت النمسا من جهة الغرب مقاومة شرسة من جانب القوات المحاربة الإقطاعية في جبال البوسنة ، وتحول عدد كبير من السلاف المسيحين إلى

مسلمين ، وفى الشرق استعاد العثمانيون مدينة نيس وفتحوا الطريق من وادى موراڤا إلى بلجراد . أما الروس فقد كانوا أكثر نجاحاً من النمساويين وتمكنوا من الإستيلاء على قلاع أوتشاكوف Ochakov وكينبورن Kinburn عند مدخل البوج ولكنهم فشلوا أمام غابات الاستبس الحارة وعجزوا عن مواصلة التقدم إلى الدانوب .

كان النجاح العسكرى التركى راجعًا إلى اللاجئ الفرنسى كونت دى بونيڤال Counte de Bonneval (١) ، الذى كان قد خدم من قبل لدى الإمبراطور النمساوى ، ثم دخل فى خدمة السلطان العثمانى ، وأسس فرقًا من قاذفى القنابل ودربها على النسق الأوروبى ، وعمل جاهداً على إعادة تنظيم وتحديث وتحسين القوات المسلحة العثمانية بشكل عام . وأمام هذه الإنتصارات التركية المذهلة ، قبل فيلونوف القيام بدور الوساطة لدى الباب العالى من منطلق القوة ، غير أن شعور الكراهية التركية المشتعلة ضد الكفرة فشل فى منع التصميم على خروج حملة عسكرية جديدة ضد النمسا وروسيا ، ففى الوقت الذى التزم فيه النمساويون بسياسة دفاعية فى بلجراد ، استطاع الأتراك الإستيلاء على قلعتى سمندريا وأورسوڤا الواقعتين على الداتوب قبل بلجراد ، كما ألحقوا هزيمة بالقوات الروسية فى المناطق الداخلية حول البحر الأسود وعند نهر الدنيستر ، وأجبروهم على التراجع بعد أن انتشرت الأمراض بينهم وكابدوا نقصاً فى الإمدادات ، فقاموا بإخلاء قلعتى أوتشاكوف وكينبورن ، وهنا ، جاءت اللحظة المناسبة ، للتدخل الفرنسى فحصل فيلونوف على رسالة من الملك لويس الخامس عشر وصف فيها السلطان بـ « الصديق العزيز

---

(١) كونت دى بونيڤال من أسرة نبيلة من ليموزين ، وخدم بجدارة فى الجيش الفرنسى خلال حرب الوراثة الأسبانية ، ولكنه انضم للجيش المعادى بعد إهانة لحقت به ، وأصبح يعمل تحت إمرة الأمير يوچين صاحب ساڤوى . وفى عام ١٧١٧ اختلف معه فعرض خدماته على عدة دول معادية ولم يحالفه النجاح ، فاتجه إلى السلطان أحمد الثالث ودخل فى خدمته واعتنق الإسلام وأصبح إسمه « أحمد » ، واستمر فى خدمة العثمانيين فى عهد السلطان محمود الأول ، وبذل جهداً واضحًا فى إصلاح الفرق العسكرية العثمانية وحصل على رتبة باشا فى ١٧٣٥ وتوفى فى ١٧٤٦ .

أنظر : دائرة المعارف الإسلامية ، جـ ٣ ، ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .

المخلص » ، وقرر تسليمها إلى السلطان فى قصره وبرفقته وفد كبير ، وأقيمت له مراسم استقبال رسمية مصحوبة بطلقات المدفعية لإظهار مكانة فرنسا ، وحرص على إشاعة جو من الصداقة العثمانية لفرنسا بشكل لم يسبق له مثيل ونجح فى ذلك إذ تدفقت الهدايا على أعضاء السفارة الفرنسية ، وظلت فرقة الموسيقى السلطانية تعزف بلا توقف فى ساحة القصر ، وصاحبت فرقة حرس الشرف الانكشارية السفير الفرنسى فى جميع تحركاته .

وبعد ذلك غادر فيلونوف وبعثته الرسمية الكبيرة إلى أدرنة لمقابلة الصدر الأعظم ، وهناك علم أنه قد رحل على رأس الجيش إلى نيس ليتوجه بعدها إلى بلجراد ، فذهب إلى نيس ووصلته أنباء معركة هامة وقعت فى كروتشكا Krotzka جنوب بلجراد بين الأتراك والنمساويين حينما حاول الأخيرون الإستيلاء على أورسوڤا فحاصرهم الأتراك وأجبروهم على التراجع إلى بلجراد بخسائر فادحة ، وقد عظّم الأتراك هذا النصر بدرجة أثارت مخاوف فيلونوف ، لأنه كان يعلم أن قلعة بلجراد منذ أن استولى عليه الأمير يوجين أصبحت من أقوى القلاع فى أوروبا بعد أن قام المهندسون الألمان بأعمال تطوير وتحديث كبيرة فيها ، فخشى أن يندفع الأتراك فى غمرة النشوة بالنصر ويخاطروا بالهجوم عليها فيتعرضوا للهزيمة ، خاصة وأن الأنباء قد وصلت ببداية توجيه ضربات عشوائية إليها .

ومن حسن الطالع أن هبطت الروح المعنوية للنمساويين ، ووجد فيلونوف فرصته فى اللحظة التى أرسل فيها الإمبراطور بعثة برئاسة الجنرال ڤون نيبرج Von Neipperg إلى بلجراد وأمده بصلاحيات كاملة للتفاوض وتوقيع معاهدة سلام منفصلة ، بغير الروس ، مع الباب العالى . وأبدى الجنرال مهارة فى التفاوض ، وأعلن عن إستعداده للتنازل عن بعض الأقاليم باسم الإمبراطور ، ولكن حينما وصل الأمر إلى بلجراد طلب هدم تحصيناتها وتسويتها بالأرض مقابل التنازل عنها ورفض الصدر الأعظم تحقيق هذا الشرط إلا إذا حصل على مفاتيح بلجراد فى يده ، برغم أنه كان يرغب فى السلام ولم يفعل ذلك إلا لإرضاء جنده المقاتلين . وقد أدرك فيلونوف حقيقة الموقف من جهة الطرفين ، وأراد التوصل بسرعة إلى تسوية مرضية لهما مستغلاً تشوق النمساويين للسلام ، فاقترح أن يحطم النمساويون التحصيات التى شيدوها

بأنفسهم ويتركوا الأسوار التركية الأصلية للقلعة ، فوافق الإمبراطور وتم التصديق على المعاهدة بضمان فرنسا ، وبمقتضاها استرد العثمانيون كل ما فقدوه في الصرب والبوسنة وولاشيا في معاهدة بساروفتس ، وصار الدانوب وولاية تمسفار الجبلية يشكلان الحدود بين النمسا وتركيا .

كان لهذا الإستسلام المنفصل من جانب النمسا وقع سئ على الروس ، حيث حدثت مفاجأة في الجبهة الروسية وانتصر الروس على الأتراك بعد أن وضع القائد الروسي المارشال ميونخ Mûnnich خطة عسكرية جديدة تجنب فيها السير في مناطق الاستبس حول البحر الأسود واتبع طريقاً جديدة بالتحرك شمالاً إلى بولندا وعبور الدنيستر وبروث ، ثم توجه إلى مولداڤيا وتمكن من الإستيلاء عنوة على قلعة خوتزيم ثم جعل عليها أحد الأمراء الصغار الذى نجح في ضم المسيحيين حوله لتحريرهم من المسلمين ، ثم تقدم إلى چاسي ومنها إلى شمال الدانوب ، ثم سار إلى بسارابيا واتخذ من بندر قاعدة للعمليات العسكرية حتى يتمكن بعد ذلك من الإنطلاق إلى قلب تركيا الأوروبية واستانبول مباشرة . ولكن بعد التراجع النمساوى تغير الموقف ، وأصبح لدى الأتراك الاستعداد لمواجهة الروس على ضفاف الدانوب ، وكان جيشهم مكون من ٢٠٠ ألف من خيرة الجنود المتعطشين للنصر . وقد عبر ميونيخ عن هذا الموقف قائلاً : « فليشكر الأتراك محمد (ﷺ) وفيلونوف ونيبرج » . فلم يعد أمام الروس سوى التوقيع على معاهدة سلام منفصلة في بلجراد مع الباب العالى ، وبذلك تحقق النجاح للوساطة الفرنسية الثانية .

وفي هذه المعاهدة تخلى الأتراك عن آزوف بشرط تدمير قلعتها وتسويتها بالأرض ، وتحولت الأراضى المحيطة بها إلى صحراء جرداء وأصبحت حداً فاصلاً بين روسيا وتركيا . كما احتفظ الباب العالى بحق بناء قلعة على نهر الدون جنوب آزوف ومنع الوجود الروسي في مياهه ، وعدم السماح لأى سفينة روسية سواء حربية أو تجارية بالدخول إلى البحر الأسود ، ومنع إقامة استحكامات بحرية على سواحله في المستقبل . واحتفظ الروس بمنطقة منزوعة السلاح بين نهرى البوج والدنيبر ، واستعاد الأتراك جميع الأراضى التى فقدوها في القرم ومولداڤيا وبسارابيا باستثناء إقليم أوكرانيا الذى ظل في أيدى الروس . وعلى الصعيد الدبلوماسي ، وبناء على مشورة الوسيط الفرنسي ،

لم يصمم الباب العالى على تجديد شروط معاهدة بروث حتى لا يعطى الروس الفرصة للتدخل فى شئون بولندا الداخلية .

لقد وضعت معاهدة بلجراد حداً لحرب قصيرة الأجل ، مهينة للهابسبرج ومحطمة للروس ومربحة للعثمانيين على مدى جيل من الزمان . فقد بدأ الأتراك يستمتعون بالراحة من النزاع مع العدو التقليدى روسيا ، أما النمسا فقد استعادت مكانتها وتخلصت من النزاعات التى كانت تهدد أمنها بعد هزيمتها أمام الأتراك . وبرغم أن انتصار الأتراك فى المعركة كان عائداً إلى أخطاء القادة النمساويين ، فإن الجنود الأتراك اعتبروا أنفسهم مازالوا قادرين على القتال ومواجهة العدو فى أكثر من جبهة فى آن واحد . إن الفضل فى تحقيق النصر والسلام يرجع أولاً وأخيراً للدبلوماسية الفرنسية ولذكاء فيلونوف وبعد نظره ، فقد استطاع إقناع العثمانيين بالقتال فى اللحظة المناسبة ، وبتحقيق السلام مع النصر ، كما كان يستعمل أسلوب المناورات مع كل طرف على حساب الآخر أثناء المفاوضات ، وكانت هذه هى السمة الجديدة لعهد جديد فى العلاقات العثمانية الخارجية ، وتعنى أن القوة العسكرية وحدها غير كافية لحفظ السيادة العثمانية على ممتلكاتها ، وأنه لابد من الإعتماد على حلفاء مسيحيين لمواجهة المنافسة من جانب المسيحيين .

ومن خلال الوساطة الفرنسية ، ضمنت فرنسا تفوق نفوذها ومركزها لدى الباب العالى ، ووقعت على معاهدة للصداقة والتجارة فى عام ١٧٤٠ تضم أربعة وعشرين بنداً جددت الإمتيازت السابقة ولكن بشروط أفضل ولفترة أطول ، وفتحت آفاقًا أوسع للتجارة الفرنسية فى شرق المتوسط . وفى ذات الوقت حصن الباب العالى نفسه ضد التهديد الروسى بتوقيع معاهدة للصداقة والتجارة مع السويد مشابهة للمعاهدة الفرنسية ، كما وقع على حلف دفاعى هجومى مع فرنسا ، وكان الأول من نوعه توقعه الدولة العثمانية مع دولة مسيحية وأخيراً منح الفرنسيون حقوق حماية المسيحيين اللاتين فى الدولة العثمانية مما جعل نفوذ فرنسا قوياً على قطاع مهم فى البلاد . وهكذا حققت فرنسا مصالحها فى القرن الثامن عشر بشكل يتمشى مع رغبة العثمانيين فى الاعتماد على حليف من عالم الغرب المتحضر والمتطور .

الفصل الثامن والعشرون

ساد السلام لجيل من الزمان فى الممتلكات العثمانية الأوروبية لأن الدول الأوروبية كانت فى هذه الفترة فى حالة حرب ، فبعد وفاة شارل السادس إمبراطور الهابسبرج فى ١٧٤٠ ، قام نزاع حول الإرث النمسوى الذى أصبح فى يد ابنته ماريا تريزا (١) ، مما أدى إلى نشوب حرب الوراثة النمساوية (٢) ، ثم حرب السنوات السبع ، ثم بزوغ قوة بروسيا فى أوروبا بقيادة الملك فردريك العظيم (٣) . وقد لعبت فرنسا دور صانع السلام والحامى للدولة العثمانية ، وكانت على إستعداد لتقدم المزيد من أجل مصالحها وليس مصالح العثمانيين ، وهى بذلك جعلت من الأتراك عاملاً فعالاً ومباشراً فى توازن القوى خلال نزاعاتها فى أوروبا . وحينما وضعت خططها الخاصة بالنمسا ، وتحالفت مع بروسيا والأمراء الألمان ضدها ، مارست ضغوطها على الأتراك للقيام بغزو المجر ووعدتهم بإمتلاكها إذا نجحوا فى الحرب ، ولكن السلطان محمود الأول ، الذى خلف أحمد الثالث ، كان صلبًا وصمم على موقف الحياد بل وأصدر مرسومًا يطالب فيه الدول الأوروبية بالعدول عن الحرب ، ويبدى إستعداده لبذل الوساطة ، وهى وساطة من جانب «كافر» بين مسيحيين ،

---

(١) ماريا تريزا (١٧١٧ - ١٧٨٠) كانت ملكة على المجر فى ١٧٤١ ثم بوهيميا فى ١٧٤٣ ، وهى والدة جوزيف الثانى وليوبولد الثانى ومارى انطوانيت زوجة الملك الفرنسى لويس السادس عشر .

أنظر : La Rousse , p . 1513

(٢) امتدت حرب الوراثة النمساوية من ١٧٤٠ إلى ١٧٤٨ ، وتعرف بالحروب السيليزية بسبب مهاجمة ملك بروسيا لسيليزيا لإدعاءات فيها ، فتكون حلف من فرنسا وأسبانيا وبافاريا وسكسونيا ضد النمسا لحرمان ماريا تريزا من أملاكها التى ورثتها . وانتهت بعقد صلح اكس لاشابل ١٧٤٨ الذى نص على إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل الحرب .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، التاريخ الأوروبى الأمريكى .

(٣) فردريك العظيم هو فردريك الثانى ملك بروسيا من ١٧٤٠ إلى ١٧٨٦ . وهو مؤسس عظمتها وقوتها العسكرية حتى استطاعت إنجاز الوحدة الألمانية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

أنظر : La Rousse , p . 1354

من أجل أن يعم السلام ، غير أن هذه اللفتة لم يكن لها تأثير سوى إبتسامة صغيرة .

وكان السبيل الوحيد أمام فرنسا هو طلب المساعدة من اللاجئ بونيفال ليمارس تأثيره على الباب العالى ويقنعه بدخول الحرب مقابل الحصول على مكافأة مجزية ، ولكن باءت مهمته بالفشل أمام صمود السلطان والوزراء العثمانيين على موقفهم . وفى العقد التالى جددت فرنسا مساعيها لدفع الباب العالى للدخول في حلف مع بروسيا والسويد ، ولكنها قوبلت بالرفض ، وأصر السلطان على الوقوف على الحياد، غير أنه أيد مساعى ماريا تريزا ووساطة إنجلترا لعقد معاهدة سلام دائم بين بروسيا والنمسا .

وخلال هذه العقود غض العثمانيون النظر عن المخاطر التى هددت مستقبلهم وركنوا للجمود والكسل الذى تناسب مع طبيعتهم ولم يكن هناك سوى أقلية من الصفوة الحاكمة تدرك مدى الضعف الذى أصبحت عليه الدولة ونادت بإعادة تنظيمها وتسليحها وإعدادها للجولة القادمة مع روسيا التى ستأتى لا محالة . وكانت المؤسسة الحاكمة تعانى من قصور واضح على جميع المستويات ، وبرغم ذلك كان هناك تجاهل لهذا الوضع إنطلاقًا من التقليد المتوارث بأن العثمانيين ومؤسساتهم معصومين من الأخطاء ولا يحتاجون لمساعدة الكفرة المنحطين . ومن خلال التجارب السابقة ، حاول الصدور العظام القضاء على مفاسد الجهاز الإدارى الذى أصيب بالتلوث ، وتبينوا أن الانكشارية التى هى عماد الجيش العثمانى تحولت إلى عناصر غير محاربة منذ أن حصلت من السلطان محمد على إمتياز بإعفائها من الرسوم على الواردات فانشغلت بالعمل التجارى وخلدت إلى السلام مساهمة بذلك فى الفساد العام .

وعندما توفى السلطان محمود فى ١٧٥٤ ، خلفه شقيقه عثمان الثالث (١) ، ضحية القفص ، والذى أثر على تكوينه الجسدى فجعله محدبًا ،

---

(١) ظل عثمان الثالث فى الحكم من ١٧٥٤ إلى ١٧٥٧ م .

أنظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى ، فى أصول التاريخ العثمانى .

وقد سار على نهج شقيقه السلمى لثلاثة أعوام ، ثم خلفه السلطان مصطفى الثالث (١) الذى ترك أمور الدولة فى يد الصدر الأعظم راغب باشا شبيه آل كوبريلى . وكان الصدر الأعظم الجديد رجلاً مستنيراً ممن تلقوا تعليمهم فى أوروبا وأعجب باسحق نيوتن ، وطالب بالأخذ بالحضارة الغربية ، ولكنه رأى أنه من مصلحة البلاد فى المرحلة الراهنة اتباع نظام الإصلاح دون المساس بالمؤسسات التقليدية . وفى مجال السياسة الخارجية ، اتبع سياسة السلام القائمة على توازن القوى ، وحتى يوازن بين قوة النمسا وبروسيا وقع مع بروسيا معاهدة فى ١٧٦١ لتكوين حلف دفاعى هجومى تحسبًا لأى ظروف طارئة ولأن بروسيا كانت من الدول التى ليس لها أطماع إقليمية فى الدولة العثمانية .

ولما كان راغب باشا مدركًا لخطورة الروس وتهديداتهم فقد قرر ضرورة السير فى عملية إصلاح وتحديث القوات المسلحة العثمانية أولاً ، فأعاد تنظيم الترسانة البحرية وشيد مصنعاً للمدافع وكون فرقًا من بناة الجسور وشرع فى بناء سفن حربية جديدة . كذلك أقام مدارس للرياضيات والتدريب البحرى والهندسة والمدفعية ، وأدخل نظام التدريبات اليومية لفرق الانكشارية والسباهية والفروسية الإقطاعية فى الأناضول . وفى المجال الإدارى بذل جهداً فى إعادة تنظيم الإدارة والنظام المالى العثمانى ، وقضى على عصابات قطاع الطرق فى الأناضول . كما ضمن وصول إمدادات إضافية من الحبوب لسد إحتياجات السكان فى الأراضى المقدسة فى مكة والمدينة . وفى مجال أعمال المنافع العامة حاول بعث المشروع القديم لحفر قناة تربط بين البحر الأسود والبحر المتوسط عن طريق البوسفور لتمر فى آسيا الصغرى ثم إلى خليج أزنيق ثم إلى بحر مرمرة .

وقد نجح راغب باشا فى القضاء على الطبيعة القلقة للسلطان واتبع كل الأساليب لكسب ثقته منذ البداية ، غير أن مصطفى الثالث لم يكن رجلاً مسالمًا هادئًا ، وإنما تميز بالنشاط والحماس ، الذى كان من صفات

(١) حكم السلطان مصطفى الثالث من ١٧٥٧ إلى ١٧٧٣ م .
أنظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى ، فى أصول التاريخ العثمانى .

الأجداد العظماء ، ولذلك قرر أن يحقق مصلحة شعبه ويحكم بنفسه ، فكان يعقد الجلسات الطوال مع الانكشارية لمناقشة الخطط العسكرية وسط أكواب الشراب التقليدية ، وكان يخاطبهم « أصدقائي ، أتعشم أن نحتسي سويًا هذا الشراب في الربيع القادم خلف أسوار قلعة بندر » .

كان السلطان يرى أنه ينبغي أن يقوم الأتراك بدور أكثر فعالية في الشئون الأوروبية ، ولكنه لم يمارس شئون الحكم بنفسه إلا بعد وفاة راغب باشا في ١٧٦٣ ، وتزامن هذا مع وصول عدو جديد قوى إلى السلطة في روسيا ، وهي الإمبراطورة كاترين العظمى (١) ، التي اشتهرت بلقب « سميراميس الشمال » ، وذلك في أعقاب إنقلاب عسكري تخلصت فيه من زوجها الفاسد بطرس الثالث . وكانت كاترين تطمح إلى أن تصبح قيصرة على شواطئ البوسفور بعد الإطاحة بالدولة العثمانية . وكانت التطورات التي حدثت في بولندا أيضاً مثيرة للسلطان فبعد وفاة أوغسطس الثالث (٢) ، ملك بولندا ، تعرضت البلاد للإنهيار من جديد ، وتحالفت كاترين مع العدو القديم فردريك العظيم ملك بروسيا في ١٧٦٤ ، واقتسمت القوات البروسية والروسية بولندا بالتواطؤ مع النمسا ، ثم وضعوا عليها ملكاً كان العشيق السابق لكاترين .

وإزداد غضب السلطان لهذه التطورات ولتفاخر كاترين بقوتها وقال : « لابد من البحث عن الوسائل الكفيلة بالإطاحة بهؤلاء الكفرة » ، وصمم على مقاتلتهم ، ولكن اعترض الديوان لأن القوات العسكرية لم تكن في حالة استعداد تام . وفي ذات الوقت قررت كاترين الاحتفاظ بهدوء الباب العالي حتى تكمل إستعداداتها ، واستعملت أسلوب الذهب لكسب تأييد أعضاء الديوان لمنع الحرب ، وأخفت نواياها السرية تجاه العثمانيين ، وسارت وفق سياسة الاستفزاز في مناطق عديدة وهي الجبل الأسود وألبانيا

---

(١) كاترين العظمى هي كاترين الثانية إمبراطورة روسيا من ١٧٦٢ إلى ١٧٩٦ .

أنظر : La Rousse , p . 1226

(٢) كان أوغسطس الثالث ملكاً على بولندا من ١٧٣٣ إلى ١٧٦٣ .

أنظر : La Rousse , p . 1149

ومولداڤيا وولاشيا وچورچيا ومنطقة القرم . وفى منطقة « صربيا الجديدة » وهى الواقعة بين البوج وحدود أوكرانيا شيد الروس تحصينات فى المنطقة المحايدة بمقتضى معاهدة بلجراد حتى يتمكنوا من قطع الاتصالات بين الأتراك والتتار فى حالة وقوع الحرب . وكانت آخر أعمال الإثارة هى تتبع اللاجئين البولنديين فى المناطق التابعة للأتراك فى إقليم بلطة بالقرب من حدود بسارابيا ومحاصرتها وإشعال النيران فيها ثم إقامة مذبحة للبولنديين والأتراك معاً .

وكانت هذه الانتهاكات للمعاهدة السابقة من الأمور التى أشعلت غضب السلطان ، فأجمع الديوان السلطانى على إعلان الحرب على روسيا فوراً ، ولم يعترض سوى الصدر الأعظم محسن زادة باشا الذى رأى أن القوات العسكرية غير مستعدة وأنه من المخاطرة الدخول فى حرب قبل الربيع المقبل حتى لا تستفيد روسيا من هذا الوضع . ولكن السلطان العجول ، وجد أن الفرصة مناسبة للتخلص من محسن زادة فعزله وعين خلفاً له حمزة باشا الذى أرسل مذكرة إلى المبعوث الروسى أوبرشكوف Obreskov يطلب فيها أن تسحب القيصرة قواتها من بولندا ، وحينما رفض بناء على التعليمات الواردة إليه من سان بطرسبرج كان مصيره السجن فى الأبراج السبعة وإعلان الحرب على روسيا .

وقد قدمت فرنسا النصح للسلطان بصفتها الحليف القديم المخلص ، بالضغط على الديوان للتريث وعدم التسرع فى قرار الحرب ، ثم كلف شوازيل (١) من ڤرساى سفيره لدى الباب العالى دى ڤرچين بأن يبصر الوزراء العثمانيين بأخطار الروس فى بولندا والمناطق الأخرى ، ولكن دون جدوى وفشلت جميع المساعى معهم . فأرسل قصر ڤرساى البارون دى توت مبعوثاً فوق العادة ومستشاراً عسكرياً للسلطان ، وكلفه بتحديث الأسلحة والذخيرة العثمانية ، وقد أصيب دى توت بصدمة من القصور الشديد الذى كانت عليه ترسانة استانبول . ووجد أن تقاليد الحرب وفنونها قد غابت

---

(١) كان ايتين فرانسوا شوازيل وزيراً للحربية الفرنسية من ١٧٦١ إلى ١٧٧٠ .
أنظر : La Rousse , p . 1249

عن الجيش العثمانى ، والتحصينات ووسائل الإمداد والتدريب والتنظيم فى حالة يرثى لها . كما وجد الجهل قد خيم على الضباط حتى بأبسط المبادئ الجغرافية ، وعدم الانضباط واضح فى ميادين القتال ، ووحدات كثيرة من الجنود ترفض الخروج للقتال ، والسرقات متفشية فى دار الإمداد والتموين مما أدى إلى نقص حاد فيها . أما عن الفروسية الإقطاعية فقد توقفت عن القيام بواجبها العسكرى ، والانكشارية يعتدون على رؤسائهم ، وفرق المشاة ترفض الخروج للقتال إلا بصحبة الضباط ، أى أن الجيش العثمانى كان فى حالة فوضى شاملة .

أما السفن البحرية العثمانية التى أصلحها وطورها راغب باشا من قبل فقد أصبحت فى حالة سيئة ، وصارت من الطراز القديم المتخلف ، فقد ذكر دى توت فى تقريره ، أن السفن التى كانت تضع المدافع على الأسطح كانت مدافعها ضعيفة وارتفاعاتها مصممة لتناسب عمائم البحارة ، وأن عملية التجهيزات العسكرية للسفن كانت فى أيدى رجال جاهلين لا يدركون شيئاً ، وأنه كان من حق القائد الأعلى للبحرية العثمانية تعيين الأشخاص فى المناصب القيادية فى السفن لمن يدفع أكثر ، وهؤلاء منحوا حق إجراء المزادات على الوظائف التابعة لهم .

لقد كان دخول السلطان مصطفى فى رحى الحرب بدون استعداد من الأمور التى جعلته فى وضع سيئ أمام كاترين التى جاءت بخمس جيوش جيوش انتشرت من الغرب إلى الشرق على طول الدنيستر وفى مولداڤيا وأوكرانيا قبالة خليج بيريكوب فى الطريق المؤدية للقرم بين الدون والقوقاز ، وفى تفليس بين چورچيا والأناضول . أما فى الجبهة العثمانية ، فإن خان القرم كريم چيراى هو الوحيد الذى بدأ الهجوم فى فصل الشتاء القاسى فى يناير ١٧٦٩ بمصاحبة دى توت الذى ارتدى ملابس التتار واصطحب معه عشرة جياد من القوقاز ، وحينما مات جواده العربى الأصيل من قسوة البرد ، نقل إلى خارج المعركة وتحول لحمه إلى لحم مدخن فاخر يقدم مع الكاڤيار . وقد اندفع جيش الخان الضخم ، الذى كان فى أغلبه من الفرسان ، عبر الدنيستر والبوج إلى السهول الثلجية فى الصرب الجديدة ، وعاد ومعه آلاف

الأسرى ، ثم توفى فور عودته ، ولم يكن خليفته فى مستوى شجاعته . ونفس الشئ يمكن أن يقال عن الصدر الأعظم القائد الجديد للقوات المسلحة محمد أمين ، فقد كان من رجال القلم وليس له دراية بالأمور العسكرية ، وكانت تعيينه دليلاً على سوء اختيار السلطان ، فقد فاجأ القادة العسكريين عند وصوله إلى الدانوب فى ربيع ١٧٦٩ ، بالسؤال عن كيفية تنظيم الحملة ولم يتجاوب معهم ، ورغم ذلك عبر بقواته الدانوب إلى مولداڤيا بدون خطة محددة للعمليات العسكرية مما أدى إلى التراجع العام نتيجة نقص الإمدادات وتفشى وباء الملاريا لكثرة الناموس فى مناطق المستنقعات ، وكان ذلك من الأمور التى سهلت على الروس الإستيلاء على خوتزيم ثم التقدم إلى مولداڤيا وولاشيا . ولما علم السلطان استدعى محمد أمين وأعدمه . وكانت هذه النكبة هى الأولى فى سلسلة النكبات العثمانية فى المنطقة الواقعة بين الدنيستر والدانوب .

وعند نهاية العام طرحت القيصرة مشروعها الخيالي وهو غزو اليونان وتحرير شعوبها المسيحية من نير الأتراك الكفرة حتى تهتز مشاعر العالم المسيحى . وكانت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية قد نشرت منذ فترة وكلاءها فى اليونان للقيام بدعاية واسعة لها من خلال توزيع الصلبان والأناجيل وصور القيصرة والوعود بمساعدة اليونانيين فى حالة إعلان الثورة . وكان رد فعل الأتراك هو الإستنكار ، ومع جهلهم بالجغرافيا ، كانوا يتساءلون : كيف يستطيع الروس نقل أسطولهم من البلطيق إلى البحر المتوسط ؟ وفى كرونستاد Kronstadt (١) جمعت القيصرة الأسطول الروسى وفى عدة موانئ أخرى ، وجعلت على قيادته اثنين من القادة الروس الذين لم يتعودا على ارتياد البحر بينما كانت القيادة الفعلية لجون الفنستون John Elphinston القائد المحنك الإنجليزى ، لأن البحرية الروسية كانت لا تزال تعانى من التخلف وسفنها تعانى من القصور وخاصة فى نظام المدفعية والبحارة فى حالة بدائية لأنهم كانوا من الفلاحين الذين انتزعوا من خلف المحراث أو من نزلاء

---

(١) كرونستاد جزيرة روسية وقاعدة بحرية تقع غرب ليننجراد فى خليج فنلندا .
أنظر : La Rousse , p . 1459

المستشفيات . ولما كان الأدميرال الفنستون يعلق على هذا القصور كانت القيصرة ترد قائلة : « إن جـهل الروس يرجع إلى الحداثة ، ولكن جهل الأتراك يرجع إلى الكهولة » .

وعندما رست سفنها فى الموانئ الإنجليزية استقبلت بحفاوة وزودت بالأجهزة والتعليمات والإمدادات والبحارة المهرة والضباط بحيث لم يعد هناك ذورق روسى يخلو من أجهزة حربية إنجليزية ، إذ كانت السياسة الإنجليزية آنذاك تقوم على تشجيع التوسع الروسى لمقاومة فرنسا ، ولكن بدون التخلى عن السياسة التقليدية وهى الحفاظ على سيادة الدولة العثمانية . ومن ثم اعتبرت الحكومة الإنجليزية أى محاولة من جانب فرنسا أو أسبانيا لمنع دخول الأسطول الروسى إلى البحر المتوسط بمثابة عمل عدائى .

وضعت الحملة الروسية تحت قيادة الكونت أورلوف Orloff شقيق كاترين المفضل والذى كان يحلم بإعتلاء عرش اليونان ، وعندما أبحر الأسطول الروسى بعيداً عن سواحل المورة فى عام ١٧٧٠م لقى التشجيع من الوكلاء البنادقة الذين عقدوا معاهدات سرية مع الثوار لتشجيع الثورة المسيحية العامة ضد العثمانيين ثم توجهت السفن الروسية إلى منطقة مانى Mani حيث كان السكان يتوقون إلى التخلص من الحكم التركى ، ولكن لم تكن هناك خطة محددة للحملة ، ومن ثم فشل الروس فى التحكم فى عصابات قطاع الطرق التى سكنت المناطق الجبلية والتى لم تكن تجيد سوى قتل الأتـراك . واستخدم حاكم المورة محسن زاده باشا ، الصدر الأعظم السابق ، العنف مع المتمردين واستعان بعصابات قطاع الطرق الألبان ، وتمكن من دحر اليونانيين ومعاونيهم ، ودفع بالقوات الروسية إلى سفنها وذبح الثوار المسيحيين على الساحل ، فلم يكن أمام الروس سوى الجلاء عن شبه الجزيرة . وتوج محسن زاده هذا النصر فى الاحتفال بالذكرى السنوية لفتح القسطنطينية بالحصول على لقب « فاتح المورة » .

ولكن ظلت القوات الروسية باقية فى البحر المتوسط وأثبتت كفاءة فى البحر أكثر من البر بعد أن أوقعت الهزيمة بأسطول عثمانى فى مضيق خيوس ودفعته إلى خليج تسخميه Cheshme وحاصرته ، ثم أشعلت النيران فى

سفنه بواسطة سفينة يقودها ملازم بحرى إنجليزى كما دون تى توت فى مذكراته ، وكانت نتيجة هذه المغامرة الجريئة أن إمتلأ الميناء بالسفن والبارود والمدفعية محدثًا ما يشبه البركان الذى أغرق جميع السفن التركية . وكانت هذه أسوأ هزيمة لقيها الأسطول التركى منذ موقعة ليبانتو ، واحتفلت كاترين بهذا النصر بإقامة قوس للنصر فى منطقة تسارسكو – سلو Tsarsko - Selo (١) . وصنعت نيشانًا لكل مقاتل مدون عليه عبارة « كنت هناك » .

وتطلب هذا الموقف تصرفًا حاسمًا من جانب القائد الإنجليزى ، فصمم على أن يبحر الأسطول الروسى فى الحال إلى الدردنيل ، حيث كان فى حالة قصور دفاعى واضح ، ثم يدخل إلى بحر مرمرة لضرب استانبول والاستيلاء عليها ، غير أن أورلوف ، القائد الروسى الناجح ، والذى لقبته كاترين بـ ششمسكى Cheshmeski أظهر ترددًا ، وظل يدور حول مدخل المضيق بسفنه ، فأثار انتباه الأتراك ، وسرعان ما قاموا بمساعدة البارون دى توت وعدد من المهندسين الأوروبيين ببناء أربعة بطاريات اثنتنان على الجانب الأوروبى للمضيق واثنتنان على جانبه الآسيوى لضرب أى سفينة تحاول العبور . وفى مقابل ذلك لجأ الفنستون Elphinston القائد الإنجليزى إلى إغلاق المضيق من ناحية تنيدوس ، بينما حاصر أورلوف قلعة لمنوس لمدة ستين يومًا حتى كادت أن تسلم لولا أن استدعى السلطان القائد البحرى حسن الجزائرى ، وهو قرصان من أصحاب البطولات البحرية لفك الحصار ، فطلب أربعة آلاف مقاتل مسلحين بالبنادق والسيوف تم جمعهم من الرعاع المنتشرين فى طرقات استانبول ، وقد تمكنوا من النزول بطريقة سرية إلى الساحل الشرقى للجزيرة وباغتوا المحاصرين وردوهم إلى الخنادق وأجبروا بقية القوة الروسية على فك الحصار والعودة إلى سفنهم ، وقد كافأه السلطان على هذا العمل بترقيته إلى قائد عام البحرية العثمانية .

---

(١) تسارسكو – سلو منطقة فى روسيا تقع بالقرب من لينتجراد ، وهى الآن تحمل إسم بوشكين ، وكانت المقر الصيفى للقياصرة الروس .
أنظر : La Rousse, p . 1744

وظل أورلوف فى البحر المتوسط لبعض الوقت حيث كان يقوم بمضايقة السفن التركية وقطع خطوط الاتصال بين العاصمة وممتلكاتها الآسيوية ، ثم بدأ السياسة المعـروفة عن الروس وهى التدخل فى الشئون الداخلية لمصر وسوريا ، ومساندة المملوك على بك (١) فى ثورته ضد الباب العالى وإمداده بالأسلحة والمؤن وبعض الفرق بالتحالف مع والى عكا . وقد استطاع على بك الاستيلاء على قسم كبير من سوريا بعد هزيمة الوالى العثمانى فى دمشق ، ولكن هزم فى طريق العودة فى معركة عسكرية عن طريق الدسيسة أو الخيانة ، وقتل فيها ٤٠٠ من أفراد الفرق الروسية ، وأرسلت رأسه ومعها أربعة من الضباط الروس الأسرى إلى السلطان فى استانبول . وفى الجبهة الرئيسية للقتال بين الروس والأتراك على طول الحدود بينهما دارت معارك متوالية بين الطرفين ، ففى عام ١٧٧٠ نجح الروس فى الدخول إلى مولداڤيا وولاشيا ودفعوا بالأتراك إلى نهر الدانوب وسقطت جميع القلاع التركية الواقعة شماله فى أيديهم ، ولم يشغل المقاومة ضدهم إلا السكان التتار فى منطقة بندر ، ولكن بعد حصار دام شهرين وبعد قتال ضارى لم يتبق منهم على قيد الحياة سوى الثلث ، وسقطت تبعًا لذلك قلاع الدنيستر شأنها شأن قلاع الدانوب فى أيدى الروس . وفى عام ١٧٧١ جاءت نهاية شبه جزيرة القرم نفسها بعد أن هاجمها الروس من ناحيتين من خليج بريكوب ومن مضيق كيرتش ، واحتلوا أراضيها وعمتها الفوضى والنزاع الداخلى بين التتار والترك ، وتم أسر الوالى العثمانى بعد أن فر الخان دون إبداء مقاومة وفقد التتار بذلك آخر مناطق نفوذهم فى شبه الجزيرة . أما أبناء الخان فقد أصبحوا تحت الحماية الروسية التى وعدتهم بمنح الاستقلال لشبه الجزيرة ، ولكنهم بعد أن أرسلوا إلى سان

---

(١) على بك هو على بك الكبير الذى تولى منصب شيخ البلد فى مصر فى ١٧٦٠ ، ثم قام بعزل الوالى العثمانى فى ١٧٦٨ وتقلد منصب القائممقام وجمع بينه وبين مشيخة البلد . وقام بمحاولة الاستقلال عن الدولة العثمانية بالتعاون مع قائد الأسطول الروسى فى البحر المتوسط ولكنه فشل وتوفى فى ١٧٧٣ بعد صراع مع مملوكه - محمد بك أبى الذهب .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ المشرق العربى ، ص ١٤٨ -١٤٩ .

بطرسبرج أقسموا يمين الطاعة والولاء لكاترين . وهكذا فقد الأتراك غالبية الساحل الشمالي للبحر الأسود وجزءاً من أوجزاكوف وكينبورن ، وفى القوقاز طرد الروس الأتراك من چورچيا ومينجرليا Mingrelia .

وعندما علمت النمسا وبروسيا بالانتصارات المتواصلة التى حققتها جارتهم القوية روسيا ، عرضوا على كاترين التوسط من أجل السلام لدى الباب العالي ، ولكنها ردت قائلة بأنها لن تتفاوض إلا مع السلطان نفسه دون تدخل من أى قوى خارجية . وفى ذات الوقت أحرز السلطان تقدماً دبلوماسياً مع النمسا وبروسيا بخصوص وضع خطة لتقسيم بولندا ، ثم اتبع ذلك بعقد تحالف مع النمسا وفرنسا طلبًا للمساعدة ضد روسيا . وأخيراً وافقت القيصرة ، بعد انتهاء حملة ١٧٧١ ، على إعلان الهدنة فى فوكشانى وبوخارست ، ثم دخل الطرفان الروسى والتركى فى مناقشة شروط السلام .

إنهارت المفاوضات بين الطرفين بسبب رفض المفتى وهيئة العلماء التنازل عن شبه جزيرة القرم لأنها دولة إسلامية تحت سيادة السلطان الخليفة ولا يمكن وضعها تحت حماية دولة مسيحية . وبرغم موافقة السلطان والصدر الأعظم وكبار رجال الدولة على الشروط المقترحة للسلام ، إلا أنهم تراجعوا ورفضوها خشية قيام العلماء بثورة فى استانبول ، ولذلك تجددت الحرب مرة أخرى بعد توقف دام سنة ، وعين محسن زاده باشا ، فاتح المورة ، فى منصب الصدر الأعظم للمرة الثانية ، فقام بتنظيم الجيش وتسليحه وبعث الحياة فى البقية الباقية منه ، وخرج على رأس حملة فى عام ١٧٧٣ قاصداً الضفة الجنوبية للدانوب وبلغاريا فى المنطقة الممتدة من قلعتى سلستريا وهتشوك إلى سواحل البحر الأسود . وفى البداية حاصر العثمانيون الروس فى سلستريا ، ونشب القتال فى الطرقات وأجبروهم على الإنسحاب ، فدبر الروس مذبحة للسكان المدنيين العزل فى مدينة بازارچك انتقامًا من الأتراك ، ولكنهم هرعوا منسحبين بعد أن شاهدوا الأتراك فجأة فى معسكرهم وتركوا خلفهم قدور الطعام وبها اللحوم التى لم يكتمل نضجها . وفى ذات الوقت ، تقدمت قوة روسية أخرى إلى مدينة ڤارنا ولكنها هزمت أمام الأتراك بمساعدة إحدى فرق الأسطول البحرى العثمانى ، ودفعوهم خارج مياه البحر الأسود . وأعطى هذا

النصر حافزاً للأتراك لشن هجوم جديد فى عام ١٧٧٤ من منطقة شوملا التى تتحكم فى وادى الدانوب من ناحية البلقان ، بهدف طرد الروس من قلعة هيرسوفا Hirsova ، غير أن الروس استطاعوا إلحاق الهزيمة بالقسم الأكبر من الجيش العثمانى والاستيلاء على معسكرهم ، ولم يتركوا لهم سوى قوة لا تكفى للدفاع عن مدينة شوملا ، وباتت خطوط اتصالاتهم مع استانبول مهددة بسبب اتجاه الروس جنوباً ناحية مضايق البلقان . وكانت هذه نهاية المعارك العسكرية ، وأرسل الصدر الأعظم أحد الضباط إلى المعسكر الروسى لطلب الهدنة ، فطلب منه الروس إرسال مندوبين لمناقشة شروط السلام بدلاً من الهدنة . واستقر الطرفان على شروط معاهدة كوتشوك قينارجة Kütchük kainerji (١) فى غضون سبع ساعات ، وهى نفس الشروط التى رفضت من قبل منذ عامين . وقد أخر الروس التصديق على المعاهدة لأربعة أيام حتى يتوافق مع الذكرى السنوية لمعاهدة بروث فينمحى أثرها المرير من النفوس .

لقد كانت هذه المعاهدة الجديدة مهينة للدولة العثمانية وشروطها أكثر قسوة من جميع المعاهدات السابقة ، وقد وقعتها القيصرة لأنها كانت ترغب فى السلام بعد التكاليف الباهظة التى تكبدتها لتحقيق الانتصارات ، ولأنها كانت تعانى من مشكلات داخلية فى بولندا . وبمقتضى المعاهدة سيطر الروس على شبه جزيرة القرم ولكنهم لم يحكموا قبضتهم عليها ، واعترفوا بالاستقلال السياسى للتتار الذين يعيشون فى المنطقة الممتدة من بسارابيا إلى حدود بولندا ، وأصبحت تخضع لحكم حاكم وطنى منتخب بدون تدخل لا من جانب الروس ولا الأتراك . ومن الناحية الدينية تقرر أن يظل التتار رعايا تابعين للسلطان الخليفة العثمانى من الناحية الروحية ، ويعد هذا أول اعتراف دولى بحقوق السلطان على مسلمين خارج حدود دولته . ومن ناحية أخرى كان احتفاظ الروس بمفاتيح قلعتى كرتش وينى كيل ومدن آزوف وكينبورن

---

(١) كوتشوك – قينارجة هى مدينة بلغارية .

أنظر : La Rousse, p . 1459

من الأمور التى أدت إلى تقوية مركزهم فى شبه الجزيرة ، ولم يبق أمامهم سوى ضمها بشكل تام وانتزاعها من الأتراك فى أى وقت . كما سمحت المعاهدة بدخول الأساطيل الروسية إلى البحر الأسود ، وهو الحلم الذى كان يراود روسيا منذ أيام بطرس الأكبر من قرن مضى ، ومن ثم لم يعد البحر الأسود بحيرة عثمانية كما كان من قبل ، ومنح الروس حقوق الملاحة فى مياهه ، ولكن مع احترام كل طرف لمياهه الإقليمية . وقضت المعاهدة أيضاً بوجود تمثيل دبلوماسى روسى فى الدولة العثمانية فى المنطقة التى تمس المصلحة الروسية ، وفى البحر المتوسط أجبر الأسطول الروسى على الإنسحاب من الأرخبيل اليونانى ، وفى آسيا استرد الباب العالى چورچيا ومينجرليا ، وكذا ولايتى ولاشيا ومولداڤيا فى أوروبا ، ولكن مع تحفظ مهم وهو أن يقيم السلطان الحكم العادل للسكان ويمنحهم حرية العبادة ، وأن يكون للروس حق التدخل فى شئونهما عن طريق الوزراء الروس المعتمدين لدى الباب العالى . وقد امتد هذا الحق فيما بعد ليشمل بسط الحماية الروسية على جميع الرعايا المسيحيين فى الدولة العثمانية مما أدى إلى نشوب نزاعات مستقبلية . كذلك سمح للرعايا الروس بتأدية فريضة الحج إلى الأماكن المقدسة فى فلسطين دون دفع ضريبة الرأس مع التمتع بحماية القوانين العثمانية .

إن معاهدة كوتشوك – قينارچة لم تؤد فقط إلى تقطيع أوصال الدولة العثمانية بانتزاع مناطق منها ، ولكنها شكلت بداية سياسة جديدة لتمزيقها من الآن فصاعداً . ومن الناحية الدينية أدت إلى زيادة الإنهيار الداخلى الذى كان الروس هم المسئولون عنه ، حيث أجبروا السلطان على السماح بوجود وزير روسى مقيم بصفة دائمة لدى الباب العالى ، وعلى منح الإمبراطور لقب بادشاه .

لقد أثبتت أعمال السلطان مصطفى أنه كان يتمتع بقوة الإرادة وبالنوايا البناءة التى تميل إلى الإصلاح ، فقد شجع جهود البارون دى توت فى تأسيس مدرسة الرياضيات ، وجعلها تحت إدارته لتعليم ضباط البحرية والجيش وغيرهم أسرار علم حساب المثلثات . وظل يتطلع إلى أن تحكم أسرته العالم

مثل جهانجير (١) ، وكانت تحدوه آمال عريضة عبر عنها فى قصائده الشعرية متخذاً لنفسه لقب « فاتح العالم » ، ولكنه توفى قبل أن يشهد إنهيار هذه الآمال . ففى عام ١٧٧٣ صمم على أن يقود بنفسه حملة عسكرية إلى الدانوب ، ولكن اعترض العلماء ومنعه الوزراء لسوء حالته الصحية ، ولم يلبث أن توفى بعد عدة أسابيع عند منتصف العام ، ولم يحقق نواياه فى بعث الدولة من جديد والدفاع عنها ضد الاعتداءات الروسية ، والعودة إلى عهد أجداده الطموحين المستنيرين بعد أن وقفت الظروف الشخصية ونقص الموارد حائلاً فى طريقه .

خلف السلطان مصطفى شقيقه عبد الحميد الأول (٢) الذى خرج من القفص وعمره ثلاثة وأربعون عامًا . وقد وجد عند بداية توليه العرش الخزينة السلطانية خاوية لدرجة أنه عجز عن دفع هبات الانكشارية التى كانت تمنح عند تولية كل سلطان جديد . وكان لطيفًا وحازمًا ومتجدد الشباب حيث أنجب اثنين وعشرون طفلاً توفى أغلبهم ، وتولى واحد منهم العرش فيما بعد باسم محمود الثانى الذى كان يحمل فى عروقه الدماء الفرنسية من أمه إيميه دوبوك دى ريفرى Aimée Dubucq de Rivery وهى إبنة عم الإمبراطورة چوزفين (٣) ، والمحظية المفضلة لوالده . لقد حكم السلطان الجديد إمبراطورية خارجة لتوها من حرب طاحنة استمرت ثلاثة عشرة سنة وفى حاجة إلى السلام ، غير أن هذا الأمل كان بعيد المنال لأن الإمبراطورة كاترين ، ما كادت تفرغ من مشاكلها الداخلية حتى بدأت تلتفت « للمشروع العظيم » الذى

---

(١) جهانجير هو نور الدين محمد جهانجير (١٦٠٥- ١٦٥٧) من أباطرة دولة المغول فى الهند .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، تارخ الشعوب الإسلامية ، دار المعرفة الجامعية ١٩٩٩ ، ص ١٩٥ .

(٢) حكم السلطان عبد الحميد الأول من عام ١٧٧٣ إلى ١٧٨٩م.

أنظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى ، فى أصول التاريخ العثمانى .

(٣) الإمبراطورة چوزفين (١٧٦٣-١٨١٤) زوجة نابليون بونابرت من ١٧٩٦ حتى ١٨٠٩ .

أنظر : La Rousse, p . 1446

وضعته نصب عينيها وهو تدمير الدولة العثمانية ، وكما وصفها حليفها الإمبراطور چوزيف (١) إمبراطور الهابسبرج « إنها إمرأة ذات هدف وحيد لا تحيد عنه » . وعندما ولد لها الحفيد الثانى فى عام ١٧٧٨ لقبته بقنسطنطين ، وكتب عنه إيتون Eton الإنجليزى المقيم فى بلاطها قائلاً : « لقد نشأ بين أحضان المربيات اليونانيات وتعلم اللغة اليونانية على أيدى المعلمين اليونانيين وأتقنها فى فترة قصيرة ، وأُعد ليصبح إمبراطوراً على عرش القسطنطينية ، ولذلك لم يشك أحد فى مشروع الإمبراطورة » . وكانت الخطة التى وضعتها تقوم على أن يحكم هذا الإمبراطور بالتحالف مع الإمبراطور النمساوى على أن تستقل سان بطرسبرج بالقسم الأوروبى من الممتلكات البيزنطية ، ويصبح حاكماً على إمبراطورية مسيحية تضم ولاشيا ومولداڤيا وجمهورية أثينا القديمة وإسبرطة فى اليونان . ولذلك تركزت دعاية كاترين فى اليونان لدفع السكان المسيحيين على حمل السلاح ضد الكفرة العثمانيين والتعاون مع روسيا . وقد أدى هذا إلى قيام القبائل التى تسكن المناطق الجبلية فى أبيروس بإعلان الثورة ، ثم توجه وفد من اليونانيين إلى سان بطرسبرج لتقديم إلتماس إلى القيصرة ، بصفتهم مواطنين لدولة لازال حاكمها صغيراً ، لمنحهم السلاح الذى لا يستطيعون شرائه لخوض المعركة ، فوعدتهم بتلبية طلباتهم ، ثم طلبوا أن يقسموا يمين الطاعة والولاء لحفيدها فى جناحه الذى حمل إسم بازيل Basileus (٢) ، وأمرهم الصبى قنسطنطين قائلاً باليونانية : « اذهبوا وستسير الأمور وفق رغباتكم » .

وفى ذات الوقت كانت كاترين مشغولة بتحقيق أهدافها الخاصة فى القرم التى حصلت على استقلالها فى معاهدة قينارجة . فبعد أن انتخب التتار

---

(١) چوزيف هو الإمبراطور چوزيف الثانى حكم من ١٧٦٥ إلى ١٧٩٠ .
أنظر : La Rousse, p . 1446

(٢) بازيل نسبة إلى بازيل الأول المقدونى الذى كان إمبراطوراً للشرق من ٨٦٧ إلى ٨٨٦م .
أنظر : La Rousse, p . 1164

أحد الخانات من أفراد الأسرة الحاكمة ، وهو دولت چيراى ، وجده الروس غير ملائم لتطلعاتهم ، فأثاروا الاضطرابات ضده ، ثم أرسلوا قواتهم إلى القرم بحجة إعادة النظام وقاموا بعزله وتعيين خان آخر من الموالين لهم كان فى السابق أسيراً فى سان بطرسبرج ، وصار دمية ضعيفة منفذة لرغبات الروس كما جاء في وصف التتار والأتراك . ولما كان الأتراك غير مستعدين لخوض حرب جديدة ، صمموا على إظهار نفوذهم فى القرم بطريقة سلمية ، فقاموا فى عام ١٧٧٩ ، بإيعاز من فرنسا ، بتجديد معاهدة قينارچة مع روسيا واعترفوا بالخان الجديد وطالبوه بضرورة الالتزام بالبنود التى تخص المسلمين . وفيما بعد ثار التتار ضد هذا الخان لأنه صنيعة الروس وينفذ سياستهم فأرسل وفداً إلى سان بطرسبرج طالباً الحماية ، وكان رد القيصرة إرسال جيش جديد إلى القرم وقمع الثورة وقتل الثوار ، ثم أتبعت ذلك بضم القرم إليها بصفة نهائية بناء على مشورة الأمير بوتمكين Potemkin قائد قواتها ومستشارها وعشيقها الذى رأى أن الوقت قد حان لهذا الإجراء . أما الخان التعيس فقد تعرض لموجة من التهديدات والإهانات ليتخلى عن الحكم للإمبراطورة التى ما لبث أن أعلنت بصفة رسمية ضم شبه الجزيرة فى عام ١٧٨٣ ، بالإضافة إلى كوبان Kuban وما حولها . وسجن الخان الضحية لفترة وعومل بوحشية ثم تم ترحيله خارج الحدود إلى تركيا حيث قطعت رأسه .

إن العالم الغربى كان واثقاً من قيام الروس بتحرير القرم وإنقاذ سكانها من نيران حرب أهلية ومن مخاطر حرب خارجية كانوا معرضين لها بحكم وجودهم فى منطقة الحدود بين روسيا وتركيا ، وقد عبرت القيصرة عن هذا الوضع قائلة : « إن العناية الإلهية هى التى جاءت بالروس إلى القرم » . وعندما صمم نبلاء التتار على الحرب حتى الموت من أجل استقلال بلادهم ، أعمل الجنرال پول بوتمكين ، وهو ابن عم الأمير ، فيهم السيف وحدثت مذبحة راح ضحيتها حوالى ٣٠ ألف تتارى ، بخلاف عشرات الآلاف الذين فروا إلى المنفى ومعهم أعداد كبيرة من السكان الأرمينين المسيحيين حيث تعرضوا للموت من جراء الجوع والبرد القارس فى مناطق الاستبس شرق بحر آزوف . وكوفئ الجنرال على هذا العمل بمنحه رتبة القائد الأعلى لقوات البحر الأسود وحاكم الإقليم الروسى الجديد الذى أصبح إسمه

تورى Tauris والذى اشتمل على القرم وما حولها . أما الأمير بوتمكين نفسه فقد وصل إلى أعلى مراتب المجد وحمل لقب التوريني Taurian .

وبعد عدة سنوات ، توثقت العلاقات بين كاترين وإمبراطورية الهابسبرج ، ثم قامت برحلة إلى مستعمراتها الجديدة مع بوتمكين المظفر فى منطقة الحدود الجنوبية معلنة بدء عهد الاستعمار والتقدم ، ثم لحق بهما الإمبراطور جوزيف وتفقد قاعدة خرسون الجديدة على الدنيبر حيث أقيم قوس النصر ودونت عليه عبارة « الطريق إلى بيزنطة » . وقد أظهر الإمبراطور الود والإحترام للإمبراطورة ، وزار مينا سباستيبول الجديد وشاهد السفن الحربية الروسية الراسية فيه ، ثم عبروا منطقة الاستبس وناقشوا الخطط التفصيلية لتدمير الدولة العثمانية ومصير الأتراك الفقراء الأشرار . وقد تزامن هذا التقدم الروسى المطرد مع اشتعال عدد من الثورات ضد الأتراك بهدف استفزازهم وإظهارهم أمام العالم الغربى المتحضر وأمام المثقفين بمظهر المعتدين ، بينما استطاعت روسيا أن تكسب تأييد الغرب واحترامه ، فقد رأى الأدباء الفرنسيون أن كاترين إمرأة مستنيرة تعمل من أجل التحضر ، واعتبر ڤولتير Voltaire (١) أن حربها مع السلطان مصطفى الثالث هى حرب بين العقلانية والتعصب وبين الحضارة والتخلف . أما كونت ڤولنى Conte Volney (٢) فقد وصف الأتراك بأنهم برابرة البوسفور ، وأن غزو روسيا لهذه الدولة المنحطة الجاهلة يمنح فارس فرصة الحياة من جديد . ولذا فقد أعلن الباب العالى الحرب فى ١٧٨٧ ، وفى العام التالى أعلن الإمبراطور جوزيف الحرب على العثمانيين منتهكاً بذلك معاهدة السلام معهم ، وذلك من أجل الاستيلاء على قلعة بلجراد ومن أجل تأييد كاترين . وكانت الحملات البرية العثمانية مخيبة للآمال ، أما

---

(١) ڤولتير هو فرنسوا مارى ڤولتير الأديب والشاعر الفرنسى (١٦٩٤ - ١٧٧٨) ، كما كان فيلسوفاً ومؤرخاً وترك العديد من المؤلفات فى جميع هذه المجالات .
أنظر : La Rousse, p . 1775

(٢) كونت ڤولنى هو قسطنطين فرانسوا ڤولنى فيلسوف فرنسى (١٧٥٧-١٨٢٠) .
أنظر : La Rousse, p . 1775

فى البحر فقد كان لدى الأتراك قائداً مثيراً للرعب ، وهو القرصان الجزائرى الشهير حسن الذى أصلح الأسطول ونجح فى إعادة السيادة العثمانية على سوريا والمورة ووقف فى وجه التدخل الروسى فى ألبانيا فى مراحله الأولى ، وأخيراً كلفه السلطان بقمع ثورة المماليك فى مصر (١) ، ولكنه استدعاه بعد فترة قصيرة ليقود القوات العثمانية فى البحر الأسود ، على أن يكون مسرح عملياته منطقة أوجزاكوف ويعمل جاهداً على استعادة قلعة كينبورن ومداخل نهرى البوج والدنيستر . ولكن القائد العثمانى واجه مقاومة شرسة من جانب القائد الروسى الشاب سوڤاروف Suvarov الذى كان من أقوى قادة العصر ، والذى مزج بين العلم العسكرى الحديث وقدرات الجند ، فكان يشاركهم مشاعرهم وقلقهم ويثير فيهم روح الكبرياء والبطولة والإيمان بأداء الواجب . وظل ينتظر مجىء قوات حسن باشا ثم هاجمه هجوماً سريعاً خاطفاً بقوة صغيرة ، وأخيراً فتح النيران عليه عند مدخل النهر الذى إمتلأ بأسطول من السفن الحربية ، وحطم تقريباً كل أسطول حسن باشا ثم حول اسم كينبورن إلى « مجد سوڤاروف » .

وفى شتاء العام التالى تمكن من الإستيلاء على أوجزاكوف بمساعدة بوتمكين وأغرق عدداً كبيراً من الذوارق العثمانية فى مدخل الدنيستر ، ثم تقدم إلى القلعة وسط النيران وعبر المياه المتجمدة فى الميناء . وانتقم الروس لطول المعاناة التى كابدوها فى سهوب التتار القاحلة القاسية بإقامة مذبحة للسكان الأتراك فى المناطق المحيطة بالقرى الروسية ، وقتلوا غالبيتهم فيما عدا قلة من النساء والأطفال فى المدن ، وبنهاية عام ١٧٨٨ تنتهى الحرب فى الجبهة الشرقية لصالح الروس . وفى الجبهة النمساوية توقفت العمليات العسكرية لبعض الوقت بسبب تصميم الإمبراطور على أن يقود الجيش بنفسه بعد أن هزم أمام العثمانيين . ولكنه أصيب بالهلع

---

(١) سيطر على مقدرات الأمور فى مصر فى الفترة من ١٧٧٨ حتى ١٧٨٦ المملوكان إبراهيم بك ومراد بك . وكانت فترة حكمهما منن أسوأ العهود وقاسى المصريون من ظلمهما ، ولذلك أرسل السلطان حسن باشا على رأس حملة كبيرة لإعادة فرض السيطرة العثمانية من جديد على مصر .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ المشرق العربى ، ص ١٥٠ .

وتراجع فى المساء باتجاه تمسفار ، وانتشر الارتباك بين النمساويين فى الظلام والأتراك يتتبعونهم ، وعندما استجمعوا قواهم وبدأوا فى إطلاق النيران من كل جانب إكتشفوا فى الفجر أنهم كانوا يطلقونها على أقرانهم فى قلب الجيش النمساوى وسقط منهم الآلاف بين قتيل وجريح . وقد استفاد الأتراك من هذه الكارثة وسارعوا بمهاجمة العدو والاستيلاء على عدد كبير من مدافعه ، وفقد الإمبراطور أيضًا عشرات الآلاف من رجاله من جراء مرض الطاعون ، ولذلك لم يخاطر بقيادة جيوشه مرة أخرى .

وفى عام ١٧٨٩ وضعت القوات النمساوية تحت قيادة المارشال لودن Loudon ، وهو قائد عسكرى محنك وشرس يحمل الدماء الاسكتلندية فى عروقه ، وشارك فى حرب السنوات السبع ، واشتهر عنه أنه يعتبر الحرب مثل « الضيف اللطيف » . وقد بعث هذا القائد الحياة من جديد فى الجيش النمساوى وقام بغزوات ناجحة فى البوسنة والصرب واستولى على مناطق كبيرة منها . كذلك وضعت فرق نمساوية أخرى تحت قيادة أمير كوبورج The prince of coburg وإنضمت إلى الفرق الروسية فى مولداڤيا بقيادة بوتمكين ، واستطاعوا إحتلال المنطقة الواقعة بين الدنيبر ودلتا الدانوب .

توفى السلطان عبد الحميد فى بداية العام وخلفه إبن شقيقه سليم الثالث (١) ، وكان شابًا نشطًا مستنيراً يرغب فى إنقاذ بلاده وإصلاحها واستهل حكمه بإصدار أوامره بتجنيد جميع الرجال المسلمين الذين تترواح أعمارهم بين ستة عشرة وستين عامًا ، ثم نقل القائد القدير حسن من قيادة أسطول البحر الأسود إلى منصب الصدر الأعظم وجعل له قيادة الجيش العثمانى فى الدانوب . ونظراً لخبرة القائد الجديد فى البحر أكثر من البر فقد جمع جيشًا ضخمًا ليسحق به جيش كوبورج على حدود مولداڤيا . ولكن حسن لم يكن فى كفاءة سوڤاروف الذى وصل بقواته بعد يوم وليلة من

(١) حكم السلطان سليم الثالث من ١٧٨٩ إلى ١٨٠٧ .
أنظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى ، المرجع السابق ، ص ٣٢٠ .

السير فى المناطق الجبلية إلى ميدان المعركة لإنقاذ النمساويين ، وكان شعاره لجنده « تقدم واضرب بدون تأخير » واستطاع خلال ساعتين قبل صباح اليوم التالى شن هجوم على المعسكر العثمانى واستولى على الذخائر والمخازن ومدافع الحصار ، ثم إنهال على الأتراك طعناً بالحراب فى وحشية وضراوة ، وكان هذا اختباراً للأتراك من الروس الذين كانوا يشبهونهم بالصلب البارد cold steel ، وطوال المعركة وسوڤاروف يثير حماس جنده ويحثهم على الاندفاع بلا توقف . وأرسل سليم جيشاً ضخماً آخر ولكنه لقى هزيمة جديدة على يد سوڤاروف أيضاً على ضفاف نهر ريڤنيك Rivnik فحولت الإمبراطورة إسمه إلى ريڤينسكى . وقد أثارت هاتين الهزيمتين حالة من الذعر والبلبلة فى استانبول أخمدها السلطان بشنق المقاتل المسن حسن الذى طالما قدم الكثير لبلاده . وفى ذات الوقت استطاع لودن الاستيلاء على مدينة بلجراد والقلعة المجاورة لها فى سمندريا بعد حصار دام ثلاثة أسابيع . ولكن فى عام ١٧٩٠ توفى الإمبراطور چوزيف وخلفه إبنه ليوبولد (١) الذى اعترض على الحلف المقام مع روسيا ضد تركيا وانسحب منه ، ووقع على معاهدة سلام مع الأتراك فى سستوڤا Sistova ، واحتفظ بالمناطق التى تم الإستيلاء عليها طبقاً لمبدأ الحفاظ على الحالة الراهنة status quo وكان يرى أن سياسة تدمير الدولة العثمانية لن تفيد بلاده .

لم يشعر الروس بالارتياح للتراجع النمساوى ، وواصلوا هجماتهم فى عام ١٧٩٠ لدفع الأتراك بعيداً عن بسارابيا وبلغاريا غير أنهم واجهوا عقبة كأداء هى قلعة إسماعيل (١) على مصب نهر الدانوب . ولكن سوڤاروف واجه الحصار بكل شجاعة فى فصل الشتاء الطويل ، ثم أمر بشن الهجوم على

---

(١) هوليوبولد الثانى إمبراطور النمسا منن ١٧٩٠ إلى ١٧٩٢ .
أنظر : La Rousse, p . 1476

(٢) تعتبر قلعة إسماعيل من أهم القلاع العثمانية ، وهى الآن مدينة فى رومانيا . وحملت هذا الإسم نسبة إلى القائد العثمانى الذى فتحها فى القرن الخامس عشر فى عهد بايزيد الثانى ، وكانت تمتاز بموقعها الحربى الحصين .
أنظر : ناهد إبراهيم دسوقى ، محاولات الإصلاح ، ص ١٢٦ .

حامية القلعة الحصينة ، وبعد أن كابد خسائر فادحة استطاع دك أسوارها وبدأ القتال بين الأتراك والجنود الروس وشارك فيه المدنيون الأتراك فى الطرقات ، وأخيراً لقى الأتراك والتتار حتفهم بعد ساعتين من القتال الضارى ، وأعقب ذلك عمليات سلب ونهب للمدينة لمدة ثلاثة أيام ثم مذبحة وحشية جعلت سوڤاروف نفسه ينزوى فى خيمته ويزرف الدمع لهول المنظر ، ثم أرسل رسالة إلى الإمبراطورة يبشرها بالنصر فى شكل أبيات شعرية .

لقد أصبحت الهزيمة العثمانية حقيقة واقعة لا يمكن إخفاؤها ، وجاء دور الوساطة مرة أخرى ، ودخلت الدول الأوروبية فى هذه الفترة فى مرحلة جديدة فى مجال السياسة الخارجية ، فإنجلترا اتبعت سياسة جديدة تقوم على التقارب مع العثمانيين ومعاداة الروس ، بعد أن كان العدو الرئيسى لها هو فرنسا . فكانت وجهة نظر اللورد شاتام Chatham رئيس وزراء إنجلترا أن التدخل إلى جانب الأتراك ليس فى صالح إنجلترا ، أما شارل چيمس فوكس Charles James Fox وزير الخارجية فكان يؤيد سياسة حزب الأحرار وهى أن سياسة التحالف مع دول الشمال بما فيها روسيا هى سياسة الرجل الإنجليزى المستنير لأن إنجلترا تربح من التجارة معها ، ولكن الأوضاع تغيرت فى أوروبا فى أعقاب الثورة الفرنسية وأصبح الخطر القادم من روسيا فى المقام الأول . وقد تحولت سياسة التقارب الإنجليزى – الروسى إلى العكس منذ وصول بت الصغير Pitt (١) إلى السلطة والذى كون تحالفًا ثلاثيًا فى عام ١٧٩٠ ضم إنجلترا وبروسيا وهولندا من أجل الحفاظ على الدولة العثمانية ، ولذلك انسحب الإمبراطور چوزيف من الحرب ووقع معاهدة سستوڤا السابق ذكرها . ثم سعت إنجلترا وبروسيا لحمل الروس على توقيع معاهدة مع الأتراك على نفس الأسس التى وقعت عليها معاهدة سستوڤا وهى الاحتفاظ بالمناطق التى

---

(١) بت الصغير هو وليم بت (١٧٥٩-١٨٠٦) وهو ابن وليم بت (كونت شاتام) ، وأحيانًا يطلق عليه بت الثانى ، وكان رئيسًا لوزراء إنجلترا من ١٧٨٣ إلى ١٨٠١ ، ومن ١٨٠٤ إلى ١٨٠٦ ، وهو الذى أعلن الحرب على فرنسا ونظم ثلاثة أحلاف دولية ضدها .

أنظر : La Rousse, p . 1608

تم الاستيلاء عليها ، ولكن صممت كاترين على الاحتفاظ بالمناطق التى استولت عليها ، وكان ردها المتعجرف على ملك بروسيا هو : « الإمبراطورة تعلن الحرب وقتما تشاء ، وتعلن السلام وقتما تشاء » ، وأنها لن تفرط فى الأراضى الواقعة بين الدنيستر والبوج . وقد أوضح الحلفاء خشيتهم من وجود أسطول روسى فى مدخل النهر تتخذه روسيا وسيلة لتهديد القسطنطينية بشكل مباشر ، فأعلنت عن استعدادها لإعادة هذه المناطق فى مقابل مطالبة بريطانيا للأتراك بالتخلى عن إدعاءاتهم بصفة نهائية فى القرم .

وهنا صمم الحلفاء على التدخل باستخدام القوة ، فقررت انجلترا إرسال أسطول من ٣٥ سفينة إلى بحر البلطيق ، وأسطول آخر أصغر إلى البحر الأسود ، وقررت بروسيا إرسال جيش برى إلى ليفونيا (١) ، ليس بهدف تحقيق مكاسب إقليمية عن طريق القوة ولكن لضمان الأمن للباب العالى . ولكن عندما طلب پت موافقة البرلمان الإنجليزى ، مؤكداً على أهمية الدولة العثمانية فى تحقيق التوازن الأوروبى ، وعلى أن التوسع الروسى على حساب الأتراك سيشكل خطورة على بروسيا وبقية دول أوربا ، لقى معارضة شديدة فى مجلس العموم من فوكس وبيرك . فأعلن الأول أن روسيا هى الحليف الطبيعى لإنجلترا ، وتساءل : ما هى مصلحة إنجلترا فى معارضة ضم الروس لإحدى قلاع الدنيستر أو التخلى عن أرض شمال البحر الأسود ؟ . أما بيرك فقد أكد أن الأتراك فى الأصل شعباً آسيوياً ومعزولين تماماً عن الشئون الأوروبية وليس لهم أى دور فى توازن القوى . وفى أثناء المناقشات زادت حدة المعارضة واعتبر الأتراك بدائيين بينما امتدح الكثيرون الإمبراطورة كاترين واعتبروها من أشرف الملوك ، بل ذهب البعض إلى أبعد من ذلك وأعلن أن استيلاء كاترين على القسطنطينية وطرد الأتراك من أوروبا سيحقق أعظم نفع

---

(١) ليفونيا منطقة تقع على بحر البلطيق كانت محل نزاع بين روسيا والسويد فى القرن الثامن عشر . ثم كونت هى ولتوانيا واستونيا جمهوريات فى ١٩٢٠ واحتلتهم روسيا فى الحرب العالمية الثانية

أنظر : La Rousse, p . 1484

للبشرية . غير أن الحكومة الإنجليزية اعترضت على قسوة معاملة الإمبراطورة للأمم الضعيفة ، وأكدت أنه إذا لم يتم كبح جماح الروس ، سيصبح لروسيا السيادة البحرية ليس على البحر الأسود فقط ولكن على البوسفور والبحر المتوسط . وعلى ذلك لم يحصل بت على الأغلبية وزادت الضغوط عليه حتى أنه قـرر التخلى عن فكرة الحرب التى لم تعد مستساغة منذ إندلاع الحرب فى القرم . ولكنه استطاع أن يقر نظـرية الحفاظ على توازن القوى فى أوروبا والتى ترتكز على مبدأ منع نمو الإمبراطورية الروسية ومنع إنهيار الدولة العثمانية .

وبعد أن منى الأتراك بمجموعة من الهزائم والخسائر على عدة جبهات بسبب قواتهم العسكرية المتردية ، أعلن الباب العالى عن استعداده للسلام ، كما كانت ظروف كاترين مواتية لأنها انشغلت من جديد فى مسألة تقسيم بولندا أو تدعيم نفوذها فيـها . وفى چاسى (١) ١٧٩١ بدأت المفـاوضـات وتنازلت روسيا عن المناطق التى استولت عليها غرب الدنيستر ، وأصبح هذا النهر حداً فاصلاً بين روسيا والدولة العثمانية ، وحققت القيصرة حلمها بالحفاظ على أوجزاكوف والمنطقة الواقعة بين الدنيبر والبوج ، ولكن بوتمكين لم يحقق حلمه الأزلى فى حكم مملكة مسيحية شمال الدانوب تضم ولاشـيا ومولداڤيا وبسارابيا ، وما لبث أن توفى بعد أيام من توقيع المعاهدة . أما مشروع إقامة إمبراطورية يونانية تحت حكم قنسطنطين فقد أهمل تمامًا وعادت اليونان ترزح تحت الحكم التركى . وبمقتضى هذه المعاهدة أصبحت كاترين قادرة على السيطرة على البحر الأسود وعلى الملاحة فيه ، والوصول إلى القسطنطينية ، لأنها امتلكت أسطولاً أضخم من أسطول الأتراك ، وكانت تخطط لإرسال جيش قوى عند الضرورة من بولندا إلى استانبول ، ولكنـها توفيت فجأة فى عام ١٧٩٦ بالسكتة القلبية ونعم العثمانيون بفترة من الراحة . ثم تغير مجرى التاريخ ليس بالنسبة للغرب فقط ولكن للشرق أيضاً نتيجة وقوع حدثاً هائلاً وهو الثورة الفرنسية .

---

(١) چاس بلدة رومانية تقع فى إقليم مولداڤيا ، وهى مركز صناعى هـام فى الوقت الحالى .

أنظر : La Rousse, p . 1425

القسم السادس

عصر الإصلاح

الفصل التاسع والعشرون

اعتلى السلطان الشاب سليم الثالث عرش السلطنة فى عام ١٧٨٩ ، وهو العام الذى قامت فيه الثورة الفرنسية ، وقد بدأت ميوله الإصلاحية فى النضوج بعد إنتهاء الحرب التركية - الروسية حيث اتخذ عدة خطوات عملية ترجع جذورها إلى عصر التيوليب وما بعده منذ نصف قرن من الزمان ، كما أعطت الثورة الفرنسية هذه الأفكار الإصلاحية دفعة واضحة . وكان العثمانيون ينظرون إليها فى بادئ الأمر على أنها عمل داخلى بحت يخص أوروبا وحدها ، ولم يهتم بها سوى أقلية من الأتراك اعتبروها بداية لحركة فكرية جديدة يمكن أن يستفيد منها الشرق والغرب على حد سواء ، لأنها بعيدة عن المسيحية وثورة عقلانية ذات طابع علمانى وتحمل فى جوانبها دروسًا من الغرب يتعلم منها العالم الإسلامى لأنها لا تنازعه فى المعتقدات الدينية ولا فى التقاليد .

لقد اعتلى سليم العرش فى مرحلة انهيار الدولة وفقدانها لأجزاء كثيرة من ممتلكاتها مثل المجر وترنسلفانيا والقرم وآزوف ، وبرغم صلابتها ، فإنها بدأت تعانى من التفتت والإنقسام الداخلى ؛ فقد إنهارت سلطة السلطان المركزية وظهرت سلطة الباشوات المحليين الذين تعسفوا فى استعمال حقوقهم وفى فرض الضرائب ، معرضين بعض الولايات للثورة أو لخطر التهديد بها ، مثل الوهابيين الذين ظهرت قوتهم فى الصحراء العربية ، والدروز فى هضاب سوريا وفلسطين ، وقبائل السوليوت فى أبيروس شمال اليونان ، وبكوات المماليك الذين اعتدوا على سلطة السلطان فى مصر ، وانتشار النزعة إلى الاستقلال بين مختلف الرعايا المسيحيين فى الدولة . ولقد تواجدت مصادر أخرى للعصيان فى أنحاء الإمبراطورية تشابه ذلك مثل الفساد الذى عم نظام الإقطاع المسيحى الأوروبى ؛ فنظام توارث الإقطاعات الذى أوجده سليمان القانونى أدى إلى ظهور طبقة محلية عرفت بالدرة بكوات أو أمراء الوديان تجمعت فى أيديهم الأراضى والسلطة فتمادوا فى إزدراء السلطان وممارسة الضغوط على التابعين لهم مما أدى إلى انتشار البؤس والفاقة بين الفلاحين ، بينما كانت الأزمات المالية التى تعانى منها الحكومة المركزية حادة ومستعصية . وكانت مهمة السلطان الجديد هى إصلاح الأوضاع وخاصة المركزية وإدخال إصلاحات ذات طابع غربى وجعلها تتلاءم إلى حد ما مع

المؤسسات العثمانية التقليدية ، ولكن ظهر فيما بعد أن هذه المؤسسات كانت تشكل عقبة كؤود فى طريق التغيير والتحديث .

وقد عرفت مشروعات سليم الإصلاحية التى وضعها بعد توقيع معاهدة السلام مع روسيا ، بالنظام الجديد ، وهو مصطلح مقتبس من النظام الجديد الذى اتبع فى فرنسا فى أعقاب الثورة الفرنسية وجاء فى مراسلات لويس السادس عشر مع السلطان . وقد اتبع السلطان مبدأ الشورى فى برنامجه الإصلاحى واضعاً بذلك أساس تقليد جديد فى الدولة العثمانية ؛ ففى عام ١٧٩١ ، والجيش العثمانى لا يزال فى الدانوب ، أرسل تعليماته إلى اثنين وعشرين شخصاً من رجال الدولة من المدنيين العسكريين وشخصيات دينية واثنين من الموظفين المسيحيين ليقدموا مشروعات إصلاحية فى شكل مذكرات تقدم للسلطان تشبه المذكرات الفرنسية التى قدمت فى ١٧٨٩ ، لمناقشتها فى عدة إجتماعات ولجان تشكل لهذا الغرض . وكان هذا النظام الجديد الذى استغرق التخطيط له أكثر من عامين يشمل الإصلاح العسكرى والمدنى للدولة ، وطرح للجميع وحظى بموافقة عامة كمحاولة لإستعادة النجاح الإقتصادى للبلاد . إلا أن المطلب الأساسى للبلاد فى هذه الفترة كان الإصلاح العسكرى ؛ وفى هذا الصدد أرسل السلطان مبعوثين إلى أوروبا فى عام ١٧٩٢ لجمع المعلومات عن النواحى العسكرية والإدارية والإجتماعية والأفكار السياسية فى الدول الأوروبية مع التركيز بشكل خاص على النمسا ، وكتابة تقرير مفصل عنها ، ولكنه اعتمد بشكل أساسى على الفرنسيين فى عمليات التدريب والتعليم للجيش الجديد الذى أنشأه ، حيث أرسل قائمة بالضباط والفنيين المطلوبين إلى باريس ، وكان من بين المتقدمين الشاب نابليون بونابرت .

وقد ركز السلطان سليم فى عملية التحديث العسكرى على سلاح المدفعية الذى نال عنايته وإهتمامه وكتب عنه مقال قبل توليه العرش ، وكذلك الذخيرة وتحسين مصانع البنادق وترسانات الأسلحة ، كما قام بتوسيع مدرسة الهندسة العسكرية القديمة وأدخل عليها تحسينات ، وأنشأ مدارس عسكرية بحرية جديدة لتعليم فنون المدفعية والتحصينات والفنون البحرية والعلوم

المساعدة لها . وكان غالبية المعلمين فى هذه المدارس من الضباط الفرنسيين ، وهؤلاء تمكنوا بفضل تشجيع السلطان ومساعدته من تأسيس مكتبة أوروبية ضمت نسبة كبيرة من الكتب الفرنسية مثل موسوعة ديدور (١) ، كما أصبحت اللغة الفرنسية هى لغة الدراسة الرسمية لجميع الطلاب ، وفى عام ١٧٩٥ أدخلت توسعات على هذه المكتبة بعد إحياء المطبعة الفرنسية القديمة فى استانبول ، ووضعت تحت إدارة مدير فرنسى جديد ومعه نخبة من الطابعين الفرنسيين الذين استقدموا خصيصًا من باريس . وقد ساعدت هذه الإصلاحات على خلق جيل جديد مستنير استطاع أن يقف على أسس الثقافة الغربية من خلال الاطلاع على الآداب الفرنسية . وقد زاد من تدعيم التأثير الفرنسى وجود مجموعة من الدبلوماسيين الفرنسيين فى استانبول ، وهؤلاء عملوا على ضمان التأييد السياسى للثورة الفرنسية فى الدولة العثمانية فأثاروا سخط الدبلوماسيين النمساويين والبروسيين . وفى عام ١٧٩٣ رفع علم الجمهورية الفرنسية فى احتفال مصحوبًا بالتحية من سفينتين فرنسيتين راسيتين خارج القصر السلطانى ، كما رفع العلم العثمانى وسط أعلام الدول الأخرى وإلى جانب العلم الأمريكى ، وبذلك غرست شجرة الحرية فى الأرض التركية .

وقد طرأ تطور ملحوظ على مجتمع استانبول ، نتيجة للجهود الفرنسية وللاحتكاك بين المسلمين والفرنسيين ، فتكونت طبقة جديدة من الأتراك المتحدثين بالفرنسية والفرنسيين المتحدثين بالتركية مما ساعد على تبادل الآراء بين الفريقين ، وانتشرت الروح الفرنسية الثورية بين مجموعة محدودة من الأتراك ممن استلهموا أفكارهم من الغرب الأوروبى . وكانت العناصر المسيحية فى الدولة العثمانية وخاصة اليونانيين والأرمنيين المقيمين فى استانبول على

---

(١) دنيس ديدرو (١٧١٣-١٧٨٤) فيلسوف فرنسى أصدر موسوعة تحمل إسمه فى ١٧٥١ ، وله مؤلفات عديدة وكان يعقد صالونًا أدبيًا شهيرًا ، ويعد من أشهر فلاسفة القرن الثامن عشر .

أنظر : La Rousse , p . 1294

صلة وثيقة بالغرب وشغلوا مناصب هامة فى الدوائر الحكومية والإقتصادية العثمانية ، وهؤلاء انفتحوا على التعليم من خلال الإصلاحات الجديدة وتمكنوا من ترجمة الكتب الفرنسية وتعليم اللغات الأجنبية ، وعملوا كتراجمة للغة التركية للمعلمين الفرنسيين . وبرغم ذلك لم يظهر أى تأثر بالثورة الفرنسية على هذه الطبقة وخاصة أثرياء اليونانيين حيث وجدوا فى أى تغيير ضياع لإمتيازاتهم الراهنة ، ولم تحدث الاستجابة إلا عندما حاول الفرنسيون جذبهم لمبادئ الثورة كأقليات مسيحية ، وفى هذه الفترة لم يزد دورهم عن نقل التأثير الغربى فى المجالات التجارية والدبلوماسية إلى العثمانيين .

وفى الحقيقة استطاع الباب العالى فتح نافذة رسمية جديدة على الغرب الأوروبى ، وكان من بين التقارير التى وصلت السلطان تقرير ينصح بضرورة إرسال الأفراد إلى أوروبا للدراسة وملاحظة المجتمع الأوروبى ، وقد أدى هذا إلى إنشاء سفارات عثمانية دائمة فى عام ١٧٩٣ فى خمسة عواصم أوروبية مهمة كان أولها لندن فى بلاط الملك جورج الثالث (١) ، وقد زود السفراء بتعليمات لدراسة أنظمة الدول المبعوثين إليها ومؤسساتها ، وقد صاحبهم التراجمة الإغريق المعتادين ، وتراجمة من شباب الأتراك للعمل كسكرتارية مع تكليفهم بتعلم اللغة الإنجليزية وإتقانها ودراسة أساليب المجتمع الغربى وبصفة خاصة الفرنسى . لقد حقق هذا التحديث القليل فى المجال السياسى لأن أعمال الدبلوماسية الأوروبية كانت محدودة بسبب تأثير الثورة الفرنسية والحروب النابليونية ، ومن ثم لم يأت الوقت بعد لتأسيس وزارة للخارجية التركية لتكون مصدراً لسياسته الخارجية ، ولكن وجدت هيئة من الشباب الأتراك مثل أولئك الذين تواجدوا فى القوات المسلحة ممن اكتسبوا بعض الخبرات والقدرة على فهم الاتجاهات العلمانية الغربية ، وهؤلاء حصلوا على

(١) كان جورج الثالث ملكاً على بريطانيا من ١٧٦٠ إلى ١٨٢٠ ، ويعد المسئول عن ضياع المستعمرات البريطانية فى أمريكا .

أنظر : La Rousse , p . 1366

مناصب فى إدارات الباب العالى وأفادوا الإمبراطورية بمعارفهم الجديدة . وهؤلاء حدث تبادل للآراء بينهم وبين الأجانب المقيمين بأعداد كبيرة فى استانبول خلال حكم السلطان سليم مما ساعد على إدراك أسلوب الحياة على النسق الأوروبى .

وفى ذات الوقت استطاع النظام الجديد من خلال التقارير المختلفة والمذكرات أن يتعامل مع المشكلات الإجتماعية والإقتصادية المرتبطة بالإصلاح . ففى مجال إدارة الولايات ، اقترح هذا النظام إيجاد تنظيمات لتحجيم سلطات الباشوات بتحديد مدة بقاء الوالى فى منصبه بثلاث سنوات وألا يعد تعيينه إلا بعد الوصول إلى درجة معينة من إرضاء المحكومين . كذلك وضعت تنظيمات تتعلق بضرائب الولايات فاقترح إلغاء نظام الالتزام فى الأراضى الزراعية على أن يصدر مرسوم بأن تتولى الخزينة السلطانية جمع الضرائب الحكومية . وفى الحكومة المركزية اقترح تقييد سلطة الصدر الأعظم حيث فرض عليه ضرورة التشاور مع الديوان فى الأمور المهمة . وبذلت محاولات لإصلاح نظام الأراضى الزراعية وخاصة أراضى التيمار (١) وغيرها من الهبات الأخرى ، فعند وفاة المالك ينبغى ألا تباع الأرض أو تزرع لأن هذا النظام هو الذى أدى فى السابق إلى ظهور قوة غير شرعية ممثلة فى الدرة بكوات الذين توارثوا هذه الأراضى ، ومن ثم تقرر أن تعود هذه الأراضى إلى السلطان وتقوم الخزينة السلطانية بجمع الضرائب المفروضة عليها .

وقد نوقشت الترتيبات الخاصة بإنعاش إقتصاد البلاد ، فكانت هناك محاولات لإستعادة قيمة العملة التى تناقصت بسبب التضخم والضغط الإقتصادى الناجم عن الحرب مع روسيا . وفرضت رقابة حكومية على تجارة

---

(١) التيمار هو إقطاع من الإقطاعات العسكرية التى تمنح للسباهية ومساحته صغيرة نسبيًا ، وكان يطلق على التابع الإقطاعى تيمار صاحبى ، وكان يدر على صاحبه إيراداً يبلغ ثلاثة آلاف أقچة ، وكان على هذا التابع الإقطاعى أن يقدم إلى الجيش العثمانى وقت الحرب عدداً محدداً من الفرسان .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، محاضرات فى تاريخ الشعوب الإسلامية ، الإسكندرية ٢٠٠٠ .

الحبوب لأن الحالة المالية فى البلاد كانت تعتمد على وضعية الميزان التجارى ، واقترح إنشاء بحرية تجارية عثمانية يمولها الأتراك لتصبح التجارة التركية فى أيدى المسلمين على حساب الرعايا المسيحيين . كذلك تركز الاهتمام على إمكانية الحصول على قروض أجنبية لعلاج الأزمة المالية ، ولكن لقى هذا الاقتراح معارضة لأن الحكومة الإسلامية كانت ستلجأ إلى الاقتراض من دولة مسيحية لعجز الدول الإسلامية عن تقديم مثل هذه القروض . ووضعت خطة لحظر تصدير الأحجار والمعادن الثمينة وتشجيع استغلال المناجم ، وكان هناك اتجاه لإنشاء صناعة وطنية من خلال تأسيس مصانع للبارود والورق . والقليل من هذه الترتيبات تبلور فى شكل إصلاح إقتصادى ملموس أيده ذوى الآراء الحرة الذين ظهروا على السطح وشعروا بضرورة وجود إقتصاد وطنى حديث .

غير أن النظام الجديد الذى أوجده سليم الأول تركز فى المجال العسكرى ، فالإصلاح الفعال يعتمد على حكومة فعالة وهذه بدورها تعتمد على جيش حديث فعال ، وبسبب تولد الروح الحربية فى المدارس العسكرية اقترح بتأسيس فرقة عسكرية جديدة من المشاة النظاميين يتم تدريبهم وتجهيزهم على النسق الغربى ، وهذه التجربة تم تمويلها من خزينة خاصة وضعت تحت رئاسة أحد وزراء الديوان من ضرائب الإقطاعات الزراعية التى تعود إلى ملكية السلطان ، ومن ضرائب جديدة فرضت على الخمور والتبغ والبن وغيرها من السلع . وهكذا أعطيت دفعة قوية للنظام الجديد وأصبح فى الإمكان القيام بإصلاح عسكرى واسع النطاق ، وقد أدى هذا الإصلاح إلى ردود أفعال متضاربة بين الأتراك ؛ فالمحافظون كانوا يأملون فى إعادة الأمجاد العسكرية الغابرة للإمبراطورية عن طريق بعث الأساليب العسكرية القديمة ، أما المعتدلون فكانوا يميلون إلى تحديث المؤسسات العسكرية ولكن بالعودة إلى الماضى العثمانى ، وأخيراً كان هناك الأصوليون الذين آمنوا بعدم قابلية الجيش القديم للإصلاح وشجعوا السلطان على خلق جيش جديد على النسق الأوروبى . وقد أخذ سليم برأى الفريق الأخير من أجل ضمان الأمن داخل حدود الإمبراطورية ومن أجل تعزيز الإصلاح الداخلى ، ومن أجل الحفاظ على سيادة الدولة فى مواجهة التهديدات الخارجية . وهو هنا يسير على درب

بطرس الأكبر الذى أنشأ جيشًا حديثًا مدربًا على الطراز الأوروبى وهزم به أعداءه فى الداخل والخارج .

وخلال الحرب الروسية الأخيرة قام الصدر الأعظم يوسف باشا بأسر سجين يدعى عمر أغا وهو من أصل تركى ودخل فى خدمة الروس وأراد أن يناقش معه النظام العسكرى فى الدولتين . وبدأ التجربة بالسماح بتكوين فرقة صغيرة من اللاجئين وجعل لهم زيًا عسكريًا على النظام الأوروبى ، وبعد انتهاء الحرب أخذ عمر معه هذه الفرقة ووضعها فى قرية قريبة من استانبول ليشاهد السلطان سليم كيف يحارب الكفرة فى المعارك العسكرية . وقد تأثر السلطان بسرعة بتفوق هذه الفرقة فى استخدام الأسلحة النارية مقارنة بالفرق التركية ، كما أدرك مدى تفوق العدو المسيحى فى نظام التسليح والإنضباط ، وطلب استمرار بقاء هذه الفرقة وضم إليها مجندين جدد من اللاجئين مع قلة من فقراء الأتراك المسلمين الذين وافقوا بعد تردد على تلقى التدريبات واستخدام الأسلحة الجديدة . وعندما عرض الأمر على الديوان رأى أن إدخال هذه الوسائل إلى فرق الإنكشارية سيؤدى إلى إشعال ثورة لذلك لم يصمم السلطان على خطته فى هذا الشأن .

وفى عام ١٧٩٦ وصل إلى استانبول سفير من الجمهورية الفرنسية يدعى أوبير دوباييه Aubert Dubayet وكان يحمل رتبة لواء وحصل على حق إعادة فتح السفارة الفرنسية وتمتعها بكل حقوقها وإمتيازاتها ، وعلى إعادة تأسيس الكنائس الكاثوليكية ، وأحضر معه هدايا عديدة للسلطان عبارة عن نماذج من المدافع الحديثة والذخيرة بصحبة عدد من المهندسين الفرنسيين ورجال المدفعية لتعليم الأتراك وللمساعدة فى إدارة الترسانات والمصانع الحربية . وقد أدت جهودهم إلى تحسينات ملحوظة فى صناعة وتجهيز وأداء البنادق التركية . كما صحب دوباييه هيئة من المعلمين المشاة العسكريين ومن فرق الفرسان الفرنسيين لإعطاء دروس للإنكشارية والسباهية ، وقد تم بالفعل تسليح فرق الخيالة وتدريبها على النموذج الأوروبى ، بينما ظلت الإنكشارية رافضة رفضًا تامًا التدرب على هذه الأسلحة أو تعلم أساليب المناورات الفرنسية الحديثة ومن ثم اقتصر دور هيئة التدريس المصاحبة للسفير الفرنسى على

تدريب الفرق الصغيرة التابعة لعمر أغا والتى أصبحت تحمل إسم فرق الطوبجية . وعندما مات السفير وغادر عدد كبير من الضباط المصاحبين له تركيا أدخل القائد الأعلى للبحرية العثمانية حسين بعضهم فى خدمته وسمح للمسلمين بالإلتحاق بالفرق الجديدة التى لم يزد عددها على ٦٠٠ جندى .

وفى نهاية المطاف لم يستجب لهذه الأفكار التقدمية للثورة الفرنسية والتى أيدها للسلطان سوى قلة من الأتراك ، أما الغالبية العظمى من الرجعيين فى الدوائر الحكومية فكانت تعتبر الثورة الفرنسية عملاً داخليًا يخص الغرب المسيحى الهمجى ولا يخص الشرق فى شئ إلا بشكل غير مباشر ، وجاء الإنطباع الخاص بموقفهم فى التعليق الذى نشر فى الجريدة بواسطة السكرتير الخاص للسلطان أحمد أفندى فى يناير سنة ١٧٩٢ والذى قال فيه : « ليجعل الله الثورة فى فرنسا سبباً فى انتشار الزهرى فى أعداء الإمبراطورية وليقذف الله بهم فى رحى التناحر مع بعضهم البعض لتستفيد منه إمبراطوريتنا - آمين ! » . ومن جانبه كان سليم يأمل فى أن يظل بعيداً عن هذا النزاع لأن الاشتباك فى حرب لن يؤدى إلا إلى إلحاق الضرر بسياسته الداخلية الإصلاحية ، ورغم ذلك لم يكن هناك مفراً من الحرب ، فمع وصول نابليون إلى السلطة فى فرنسا أصبح من العسير تحقيق آمال سليم فى السلام إذ كانت طموحات نابليون فى السيادة تجعل الدولة العثمانية واقعة تحت تأثيرها سواء بشكل مباشر أو غير مباشر . ففى عام ١٧٩٧ تم التوقيع على معاهدة كامبو - فورميو Campo - Formio بين فرنسا والإمبراطورية النمساوية ، وقضت بتفكيك وإنهيار جمهورية البندقية وكان نصيب الفرنسيين الجزر الأيونية والمدن الرئيسية الملحقة بها ، وهذا الوضع أعطى لفرنسا فرصة لنشر آرائها عن الحرية والمساواة فى مناطق الحدود مع الدولة العثمانية وبالتالى إمكانية إشعال الثورة فى اليونان والبلقان .

وكان أمام نابليون حرية توجيه قواه ضد منافسين آخرين ولكنه عزم على ، كما ذكرت حكومة الإدارة الثورية ، إعادة تأسيس الوجود الفرنسى فى الشرق لأن هذا يمثل إحدى ضرورات الصراع مع إنجلترا . ولكنه لم يسع فى هذه المرحلة إلى إشعال صراع مباشر مع الدولة العثمانية كما فعل قيصر روسيا

إذ كانت الإمبراطورية العثمانية تنهار بالفعل أمام عينيه وأعلن لحكومة الإدارة أن الدولة العثمانية ستسقط فى الوقت الذى نحدده نحن ، وحاول تقوية المصالح الفرنسية التجارية والدينية داخل حدود الدولة العثمانية ولكن مع الاستئثار فى نفس الوقت بإحدى أهم ولاياتها وهى مصر . وكان متأثراً فى ذلك بأفكار تاليران Talleyrand (١) التى ترى ضرورة الحصول على مستعمرات جديدة ولتكن مصر إحداها . وتأثر أيضاً بتوسلات التجار الفرنسيين فى القاهرة الذين طلبوا منه أن يجعل مصر مستودعًا للتجارة الفرنسية مع الشرق على حساب التفوق الإنجليزى فى الهند .

جمع نابليون فى ميناء طولون أسطولاً ضخماً من السفن والقوات البرية وثارت التكهنات حول وجهته وهدفه ، فقيل فى البداية أنه يمثل الجناح الأيمن للجيش الذى سيغزو إنجلترا ، ولكن حينما أبحر جهة الشرق فى إبريل ١٧٩٨ ظهر واضحًا أنه سيغزو مصر . وكانت الأوامر التى تلقاها نابليون من حكومة الإدارة والتى كتب مسودتها شخصيًا ، هى أن يعمل على طرد الإنجليز من جميع ممتلكاتهم فى الشرق وتدمير محطاتهم التجارية فى البحر الأحمر وشق قناة فى برزخ السويس واتخاذ الترتيبات الضرورية لجعل هذا البحر تحت السيطرة المطلقة للجمهورية الفرنسية على أن يتم توصيله بالبحر المتوسط عن طريق شق قناة . وكان يسير فى هذه الطموحات على خطى الإسكندر الأكبر ، ولكن كان هدفه الأساسى هو القضاء على الإمبراطورية البريطانية فى الهند . وبعد أن استولى على مالطة من بقايا فرسان القديس يوحنا ، رسا بأسطولة قبالة سواحل الإسكندرية ، ثم سار بجيشه تجاه القاهرة . وهنا استيقظت مصر من سباتها الطويل لتواجه هذه القوة المسيحية التى جاءت

---

(١) هو شارل موريس تاليران وزير خارجية فرنسا من ١٧٩٧ إلى ١٨٠٧ ، وكان رئيسًا لإحدى الأسقفيات ثم دخل فى نزاع مع البابوية وترك العمل الدينى وصار من أكثر المقربين لنابليون بونابرت . وكان وزيراً للخارجية أيضًا فى عهد الملك لويس الثامن عشر ووقع على معاهدة باريس الأولى فى ١٨١٤ ، وشارك فى مؤتمر فيينا فى نفس السنة ، وأصبح سفيراً لفرنسا فى لندن فى الفترة من ١٨٣٠ إلى ١٨٣٥م .

أنظر : La Rousse , p . 1727

لتخترق قلب أرض الإسلام منذ أيام الحملات الصليبية . وقد أظهر نابليون احترامه للإسلام وأثار حمية جنده قائلاً : « إن أربعين قرناً من الزمان تنظر إليكم » ، ثم هزم المماليك في موقعة الأهرام (١) في صيف ١٧٩٨ وسيطر على مدينة القاهرة وحررها من المماليك الطغاة المغتصبين للسلطة ، إذ أن المماليك كانوا أعداءه الحقيقيين وليس الأتراك ، وأخذ يكرر إحترامه للتحالف الفرنسي - التركي ، وكان يشارك تاليران الرأي في تضاؤل سلطة السلطان العثماني على مصر وتحولها إلى مجرد سلطة إسمية وإمكانية استعادتها ، غير أن هذا كان وهماً كبيراً لأن آخر محاولة قام بها السلطان لاستعادة سلطاته على مصر كانت في عام ١٧٨٧ .

وبعد تردد وتخبط دخل الباب العالي في تحالف مع روسيا (٢) وإنجلترا ضد فرنسا ، وسجن السفير الفرنسي في الأبراج السبعة وزج بأعداد كبيرة من الرعايا الفرنسيين في السجون ، وساعد الأسطول الإنجليزي المسلمين في القبض على التجار الفرنسيين في موانى الليفانت . وفي ذات الوقت أبحر أسطول روسي من البحر الأسود إلى البوسفور حيث استقبله السلطان بحرارة واستعرض سفنه ، ثم أبحر بمصاحبة أسطول تركي إلى البحر المتوسط ، وكانت هذه المرة الأولى والأخيرة التي ترتفع فيها الراية الروسية جنباً إلى جنب مع الهلال ، وتم إخلاء الجزر الأيونية من الفرنسيين بواسطة أسطول الكفرة النمساويين ووضعت تحت الحماية التركية - الروسية ، وطلب الجميع مساعدة البابا ضد حلفاء نابليون في السواحل الإيطالية .

---

(١) موقعة الأهرام هي موقعة إمبابة التي هُزم فيها المماليك أمام الفرنسيين بقيادة مراد بك .

أنظر ، عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، الإسكندرية ، ١٩٩٩ .

(٢) تكون هذا التحالف من الدولة العثمانية وروسيا وإنجلترا ومملكة نابولي ثم أعلنت بعده النمسا الحرب على فرنسا في ١٧٩٩ ، ويعرف بالتحالف الدولي الثاني .

أنظر ، عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق .

وتلقى نابليون ضربة ثانية لأسطوله الضخم من الأسطول الإنجليزى بقيادة نلسون (١) ، برغم أن الأسطول الإنجليزى كان أقل من الأسطول الفرنسى ، بعد أن تتبعه من نابولى وفشل فى اللحاق به فى الظلام الدامس ، وأخيراً ظفر به فى خليج أبى قير وأغرقه ولم تنجو منه سوى سفينتان . وهكذا صار أسطول نابليون محاصراً فى مصر وفقد أية وسيلة للاتصال بفرنسا . وبرغم ذلك قاد نابليون قواته فى ١٧٩٩ مدعماً بالبحارة الذين نجوا من الأسطول المغرق ومن الجنود الذين حاربوا المماليك ونزل إلى سوريا بهدف السيطرة على جميع الولايات العربية الخاضعة للسيادة العثمانية ، وأعلن أن قواته ستنزل إلى نهر الفرات فى منتصف فصل الصيف ثم تبحر فى الخريف إلى الهند . وبعد أن استولى على غزة ويافا متبعاً خطى الصليبيين توقف عند قلعة مدينة عكا ، لأن حاكمها القوى أحمد باشا الجزار (٢) كان يمتلك جيشاً قوياً من الألبان والبوسنيين وشكل خطراً على السلطان ذاته ، وهو الذى تولى الدفاع عن المدنية ضد الكفرة . وقد دام الحصار الفرنسى لعكا شهرين ثم ظهر الأسطول الإنجليزى مرة أخرى فى البحر بقيادة السير سيدنى سميث لملاحقة الأسطول الفرنسى وقدم المساعدة للجزار فى شكل الجند والبحارة والمدفعية الثقيلة والتعزيزات التركية التى أنزلت إلى الساحل ، وكانت تضم فرقة من الفرق الجديدة التى أسسها السلطان سليم والتى تميزت بالتسليح الجيد ، وبرغم أن

---

(١) هو راتيو نلسون (١٧٥٨-١٨٠٥) أميرال بريطانى صاحب الانتصار البريطانى على الأسطول الفرنسى فى خليج أبى قير ١٧٩٨م ، وعلى القوات الفرنسية البرية فى ترافالجار أو الطرف الأغر ١٨٠٥م .

أنظر : La Rousse , p . 1556

(٢) كان أحمد باشا الجزار من المماليك التابعين لبعض بكوات المماليك فى مصر ولقب بالجزار لكثرة من قتلهم من أعدائه ، وقد رحل إلى الشام بعد أن اختلف مع على بك الكبير ، ثم منحه العثمانيون مدينة عكا بعد سقوط ظاهر العمر ، وتوفى ١٨٠٤ .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث .

نابليون تمكن من إلحاق الهزيمة بجيش عثمانى (١) كبير قادم من دمشق إلا أنه فشل فى اقتحام عكا ، وعلق قائلاً : « إن مصير الشرق يتوقــف على هــذه القلعة التعسة » ، وأجبر على التراجع بعد أن تكبد خسائر فادحة فى الصحراء فى طريق العودة إلى مصر .

وما لبث نابليون أن واجه قوة عثمانية جديدة قادمة من رودس على متن أسطول السير سيدنى سميث وهزمها فى موقعة أبى قير البرية ودفع بالأتراك إلى البحر مرة أخرى حيث إمتلأت المياه بعمائمهم بعد أن غرق منهم الآلاف ، واستعاد بذلك سيطرته على المماليك ، غير أن آماله تبددت نهائيًا فى إقامة إمبراطورية فرنسية فى الشرق بفضل القوة البحرية الإنجليزية فقرر الرحيل وسلم القيادة إلى الجنرال كليبر وغادر مصر سراً مع فرقته عائداً إلى فرنسا وركز إهتمامه على تحقيق طموحاته فى الغرب ، فوجه ضربة لحكومة الإدارة عن طريق القيام بإنقلاب عسكرى ونصب نفسه القنصل الأول . وبعد عامين نزل إلى مصر أسطول إنجليزى – تركى مشترك بقيادة الجنرال رالف أبركرومبى Ralph Aber cromby لتنظيم عملية استسلام الجيش الفرنسى وإعادته إلى فرنسا ، ثم تم توقيع معاهدة إميان Amiens فى ١٨٠٢ بين إنجلترا وفرنسا وبين فرنسا والباب العالى ، وبمقتضاها أعيدت سيادة السلطان إلى مصر وغيرها من الممتلكات الأخرى ، وحل حكم باشوات السلطان محل حكم المماليك وانسحبت القوات الإنجليزية من مصر .

ولكن أثارت هذه المغامرة التى قام بها نابليون إنجلترا وجعلتها تتبع سياسة جديدة فى البحر الأحمر ، فوقعت معاهدة مع سلطان عدن ووضعته تحت حمايتها وجعلته تابعًا لها حتى لا تتعرض الهند للغزو عن طريق مصر أو تتعرض مصر للغزو عن طريق الهند ، واتخذت الحيطة أيضاً فى مناطق ساحلية أخرى من الممتلكات العثمانية ؛ ففى الخليج الفارسى قامت شركة الهند الشرقية بطرد الفرنسيين من عمان وأقامت قنصلية إنجليزية دائمة فى البصرة

---

(١) هزم نابليون الجيش العثمانى فى موقعة تل طابور فى ١٦ أبريل ١٧٩٩ .
أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق .

وجعلت القنصل الإنجليزى الوكيل السياسى للجزيرة العربية . وهكذا كان فشل نابليون دافعًا لزيادة النجاح الإنجليزى فى المنطقة . وفى ظل معاهدة إميان قصيرة الأجل تنازلت فرنسا عن إدعاءاتها فى الجزر الأيونية والأراضى الملحقة بها وظلت تحت الحماية الروسية - التركية حيث بقيت روسيا فى الجزر وتركيا فى المدن الرئيسية والقلاع القوية . وقد تمكنت بعض هذه الجزر من التحرر بواسطة على باشا حاكم يانينا الألبانى الذى كان يمتلك قوة كبيرة من رجال العصابات ، وهو من المنشقين على الباب العالى واستطاع إثارة رجال القبائل ضده ومنهم قبائل السوليوت المسيحية الثائرة والتى كانت تتمتع بدرجة من الاستقلال فى مناطق أبيروس وجنوب ألبانيا .

وعاد السلام مرة أخرى بين الباب العالى وفرنسا ووافق السلطان على تحرير المسجونين الفرنسيين وإعادة الممتلكات الفرنسية ، وتم تجديد معاهدة الإمتيازات فى شكلها الأول مع إضافة حقوق جديدة للملاحة والتجارة الفرنسية فى البحر الأسود وإعادة بعث النشاط التجارى الفرنسى مع الروس والإنجليز - وبعد توقف دام ثلاث سنوات عادت مكانة فرنسا إلى سابق عهدها من القوة فى استانبول وساهم فى ذلك نجاح نابليون السريع فى أوروبا وفشله فى مصر ، وازدهر التحالف الفرنسى - التركى وصار هناك سفير فرنسى لدى الباب العالى وسفير عثمانى جديد فى باريس . وبينما كان السلطان يتمتع براحة قصيرة بعد مشاكله مع الأجانب قام تمرد داخلى خطير فى الصرب حيث أسست الانكشارية نظامًا طاغيًا واغتصبت السلطة المركزية فى إقليم بلجراد كما فعل المماليك فى مصر ، وقتلوا الوالى العثمانى وجعلوا خليفته لا حول له ولا قوة وقسموا البلاد إلى أربعة أقسام ووضعوا عليها قادة تابعين لهم ، كما وضعو أراضى السباهية تحت سيطرتهم ومارسوا ضغوطهم على الرعايا من الفلاحين المسيحيين الذين استجاروا بالسلطان طالبين الحماية وتوسلوا إليه بصفته مولاهم وسلطانهم فقالوا : « أنت سلطاننا ، احضر وانقذنا من القوم الظالمين الأشرار ، وإذا تخليت عنا فإننا سنهرب ونلجأ إلى الجبال والغابات أو نلقى بأنفسنا فى الأنهار ونضع نهاية لحياتنا » .

وكان السلطان يواجه آنذاك نقصًا فى القوات اللازمة لقمع مثل هذا

التمرد وإستعادة السيادة من الانكشارية ، ولذلك استثار المسيحيين والسباهية المعزولة وطلب المساعدة من حاكم البوسنة ، وبمعاونة بعض الجنود المسلمين والأتراك تمكن من إشعال الثورة ضد الانكشارية وأقام لهم مذبحة بواسطة الصربيين أنفسهم . وكانت هذه الثورة من جانب الفلاحين تمثل اتجاهاً غير مألوف فى التاريخ العثمانى ، فهى ثورة من جانب أقلية مسيحية تتعاون مع الحكام المسلمين وليس ضدهم . أما الانكشارية فقد تمكنت من الاستعانة بباشا وادين وبعض العناصر المسلمة المتعصبة فى المدن ، ولكنهم هزموا وإنهار حكمهم الطاغى واستعرض المسيحيون بكل فخر رؤوس قادة الانكشارية الأربعة فى المعسكر الصربى . والآن صارت الصرب كلها فى أيدى الصربيين أنفسهم باستثناء بلجراد وبعض القلاع التى كانت بها حاميات عثمانية .

وبعد أن حقق السلطان أهدافه طلب من الرعايا المسيحيين إلقاء السلاح والعودة إلى ديارهم ومزارعهم ، ولكن ظهرت نعرة قومية قوية لدى الثوار فى أعقاب هذا النصر خاصة بعد أن كانوا قد تلقوا تدريباً عسكرياً على استعمال الأسلحة النارية طوال العشرين سنة الماضية فى ظل السيادة النمساوية مما جعلهم مقاتلين أشداء ، وقد لاحظ هذا التغير المندوبون الأتراك الذين ذهبوا لإعادة الأمن فى المنطقة وثارت دهشتهم لأنهم ألفوا رؤية الصربيين عزلاً وبؤساء ، ولم يألفوا صياح أحدهم قائلاً : « أيها الجيران ، ماذا قدمتم لرعاياكم » ؟ . وهكذا أثبت الصربيون وجودهم فى مواجهة السلطان وطالبوا بالاستقلال وبرئيس منتخب هو قرة چورچ أو چورچ الأسود ، وكان إبناً لأحد الفلاحين الذى صار فيما بعد من تجار الخنازير . وقام قرة چورچ بارتداء زى رعاة البقر واحتقر العلامات الدالة على فئته ولجأ إلى الجبال ومعه فرقة شرسة وأشعل المقاومة ضد الانكشارية ، وبدافع منه لجأ الصربيون إلى طلب المساعدة من الروس أشقائهم المسيحيين وأتباع مذهبهم مذهب الكنيسة اليونانية ، ولما كان القيصر حليفاً للأتراك فى ذلك الوقت فقد نصح الثوار بتقديم مطالبهم للباب العالى ووعدهم بتأييدها ، ولذلك أرسلوا لجنة إلى السلطان تطالب بالتنازل عن بلجراد والمناطق المحيطة بها . وقد أثارت هذه المطالب أعضاء الديوان السلطانى المسلمين ورفضها السلطان وأمر بسجن أعضاء اللجنة ، ثم أرسل ثلاثة حملات متتالية لقمع الثوار ولكنها لقيت الهزيمة على أيدى الثائر

قرة چورج ، والذى اتبع ذلك بطرد الحاميات التركية من بلجراد والقلاع الأخرى وطلب من روسيا فرض حمايتها على بلاده . وهو بذلك ساهم فى صنع تاريخ للصربيين بحصولهم على الاستقلال الكامل من الحكم العثمانى ، وصارت الصرب أول دولة مسيحية بلقانية تحصل على الاستقلال بجهودها الذاتية فى القرن الذى شهد بزوغ الوعى القومى .

شهدت استانبول نشاطاً دبلوماسياً مكثفاً فى عام ١٨٠٥ حيث دخلت انجلترا وروسيا فى تنافس قوى مع فرنسا من أجل الحصول على مساعدة تركيا والدخول معها فى تحالف ضد فرنسا ، وبرغم توقيع معاهدة إميان فقد ظل نابليون يوجه أنظاره إلى الشرق ، فأرسل بعثة إلى الليفانت برئاسة الجنرال فرنسوا سباستيانى François Sebastiani الذى كان قسيساً فى الأصل ثم حقق شهرة عالمية وصار يجمع بين العسكرية والدبلوماسية وقادراً على القيام بإنجازات فى المجالين ، وطالب السلطان بإعادة تأسيس المصالح الفرنسية التجارية ، ولكنه فى الحقيقة كان يفكر فى إمكانية إرسال حملة فرنسية إلى شرق المتوسط . وبعد أن أعلن نابليون نفسه إمبراطوراً على فرنسا أصبح سباستيانى سفيراً فوق العادة لدى الباب العالى وأخذ يمارس ضغوطه على العثمانيين لدفعهم للتدخل ضد روسيا مستغلاً تحقيق الانتصارات الفرنسية على النمسا والتى انتهت بتوقيع معاهدة برسبرج Pressburg (١) فى ١٨٠٥ التى استردت فرسا بمقتضاها كرواتيا ودالماشيا وصارت ممتلكاتها مجاورة للممتلكات العثمانية ، وأصبح نابليون تبعاً لذلك قادراً على إقامة قوة حدودية على إستعداد إما لمساعدة تركيا أو غزوها حسبما تقتضى الظروف . وقد شجعت الانتصارت الفرنسية فى أوروبا السلطان سليم على إصدار مرسوم سلطانى يعترف بنابليون إمبراطوراً ويمنحه لقب « بادشاة » (٢) ، كما أرسل سفيراً فوق العادة ليعبر عن مشاعر الود والصداقة والإعجاب إلى فرنسا ، وقد رد نابليون على هذه الرسالة عن طريق سفيره قائلاً : « إن ما يسر العثمانيون

(١) برسبرج مدينة فى تشيكسلوفاكيا .

(٢) بادشاه كلمة فارسية تعنى الملك.

يسرنا وما يكدرهم يكدرنا » . وقد أثارت هذه المراسلات إستياء السفراء الإنجليز والروس ، وتكرر طلب روسيا للحصول على المساعدة التركية فى شكل حلف دفاعى هجومى ، بل ذهب القيصر إلى أبعد من ذلك وطلب من السلطان أن يعترف به كحامى لجميع المسيحين الأرثوذكس فى الدولة العثمانية وأن يمنحه حق التدخل في شئونهم بواسطة السفير الروسى .

أثارت المطالب الروسية حمية المسلمين فلجأ السلطان إلى سباستيانى طلبًا للمشورة ، وتبع ذلك قيامه بعزل الهسبودارات (١) الفناريين فى ولايتى الدانوب ولاشيا ومولداڤيا لأنهم وقعوا تحت التأثير الروسى وصاروا وكلاء للقيصر وثبت دورهم فى إثارة الاضطرابات فى الصرب بالتعاون مع قرة چورچ . واعترض الروس على هذه التصرفات واعتبروها خرقًا للمعاهدات الموقعة مع الأتراك ، ولما علم السفير الإنجليزى بالاعتراض الروسى أوعز إلى السلطان بأن القوات الإنجليزية البحرية والبرية رهن إشارته . وكان السلطان يميل إلى السلام ولكنه قابلاً للإثارة فى ذات الوقت وحانت الفرصة أمامه بهذا التصرف الروسى فأعلن الحرب على روسيا ورفض الاستماع إلى مطالب السفير الإنجليزى بتجديد التحالف الإنجليزى الروسى وطرد السفير الفرنسى . ومن ثم عاد الأسطول الإنجليزى من حيث أتى وأبحر من الدردنيل إلى بحر مرمرة فى ١٨٠٧ بقيادة الأدميرال داكورث Duckworth الذى قدم مذكرة إلى الباب العالى طالبًا استسلام الأسطول العثمانى ومهددًا بإشعال النيران فيه وبضرب استانبول بالقنابل .

وبعد جهود مضنية استطاع الأتراك فتح باب المفاوضات بين الوزير الإنجليزى والأدميرال وإرجاء رحلته لعشرة أيام . وبمساعدة سباستيانى ، الذى نصب خيمته فى حدائق السراى السلطانية ، أمكن تقوية تحصينات استانبول ووضع المدافع فوق البطاريات ، كما حرك السلطان أسطوله

---

(١) الهسبودارات جمع هسبودار وهو لقب أطلق على حكام ولاشيا ومولداڤيا ، وكانوا يتمتعون بالاستقلال الذاتى فى ظل السيادة العثمانية .

أنظر : جب ، بوون ، المجتمع الإسلامى والغرب / جـ١ ترجمة أ.د أحمد عبد الرحيم مصطفى ، القاهرة ١٩٧٠م .

بعيداً عن المنطقة ، وقام المهندسون العسكريون التابعون لسباستيانى بإصلاح دفاعات الدردنيل ، وهكذا ضاعت الفرصة من داكورث وأدرك أن ضرب استانبول بالقنابل سيضع أسطوله أمام خطر داهم فأبحر عائداً إلى الدردنيل وهذا بفضل تصرف سباشيانى السريع ووضع المدفعية على أهبة الاستعداد ، وتبع ذلك قيام السلطان بإدخال ٥٠٠ رجال المدفعية الفرنسيين فى خدمته للدفاع عن المضايق ، وبذلك تدعم التحالف الفرنسى - التركى .

وقد أعقب فشل مغامرة داكورث البحرية فشلاً آخر حينما توجه من مالطة إلى مصر لخشيته من تجدد الغزو الفرنسى عليها وكان هدفه تأسيس قاعدة بحرية فى الإسكندرية عن طريق احتلالها ، وكان يأمل فى الحصول على مساعدة المماليك الذين كانوا يسعون للوصول إلى السلطة فى مصر ضد القوة الجديدة التى ظهرت على السطح وهى قوة محمد على الألبانى من مقدونية والذى ولد فى نفس العام الذى ولد فيه نابليون وحاربه فى أبى قير ، ثم صار سيداً على القاهرة بمساعدة الحامية الألبانية السلطانية واعترف به الباب العالى باشا على مصر . لقد عزل محمد على القوة الإنجليزية فى الإسكندرية وتفاوض بشأن انسحابها بشروط مرضية ، وأتاح له هذا الوضع أن يستفيد من وجود الأسطول الإنجليزى فى البحر المتوسط عن طريق توفير الإمدادات له من ولايته الخصيبة . وكان هذا أول ظهور لهذا الحاكم المقدام على مسرح الأحداث استطاع فيما بعد تأسيس حكم مستقل له ولأسرته بعيداً عن سيطرة السلطان العثمانى .

إن الحرب ضد روسيا على الدانوب كانت بطيئة ، فلم يدفع الفريقان الروسى والتركى بكل قواتهم إلى ميدان القتال خشية نابليون ، وتخير سليم طريق الإستفادة من وجود الانكشارية على جبهة القتال وغيابها عن البلاد ليستمر فى إصلاحاته العسكرية فى فرق النظام الجديد ، وصارت فرق الطوبجية ، وهى فرق المدفعية التى دربها الفرنسيون ، فى وضع متفوق على الانكشارية . أما الفرقة الصغيرة بقيادة عمر أغا والتى أثبتت وجودها أمام أسوار عكا ، وتغلبت فى بلغاريا والرومللى على عصابات قطاع الطرق ، وهزمت الانكشارية التى وقفت فى وجهها بالتعاون مع الولاة المحليين ، فقد قرر

السلطان زيادة أعدادها بإضافة فرقتين جديدتين تم تسليحهم وتدريبهم وفق النموذج الفرنسى .

وفى عام ١٨٠٥ واجه السلطان نقصاً في الفرق العسكرية المزمع خروجها فى حملة ضد الروس فاتخذ خطوة جريئة بأن أصدر مرسومًا بإعلان التجنيد العام للانضمام للفرق الجديدة ليحل محل النظام المألوف القائم على التجنيد الاختيارى أو الإرادى ، وكان هذا يعنى ضم عناصر من عامة الشعب إلى الفرق الجديدة وكذلك من الانكشارية حيث قرر أن ينقل منها أفضل الجنود الشباب . وبرغم أن الانكشارية فشلت فى بلجراد بفضل الرعايا إلا أنها كانت لا تزال قوية فى ولايات أخرى وقاومت مرسوم السلطان بشراسة فى أدرنة وقتلت الموظفين الرسميين الذين حاولوا إجبار أفرادها على طاعة السلطان ، كما هاجمت قوة من الفرق الجديدة فى الأناضول والتى كان حاكمها يؤيد إصلاحات السلطان وهو باشا قرمان ووقع اشتباك بين الطرفين على نهر الدانوب انتهى بهزيمة فرق الباشا . وقد أثار هذا الحدث الانكشارية فى استانبول والتى كانت تلقى العون من الرجعيين فى الديوان ومن بعض العلماء ، فبدأت فى إثارة الاضطرابات التى كان يمكن أن تتحول إلى حرب أهلية فى عاصمة البلاد فى الوقت الذى تحارب فيه الدولة روسيا . وأمام هذا الموقف العصيب اضطر السلطان إلى التراجع عن الإصلاحات وقام بحل فرق الأناضول وعزل مستشاريه المصلحين وعين أغا الانكشارية فى منصب الصدر الأعظم . ولكن فى أوائل صيف ١٨٠٧ وبعد رحيل القوة الإنجليزية بوقت قصير صدرت الأوامر إلى فرق اليامق وهى الفرق المساعدة لتكوين حامية لمدفعية البوسفور ، وأن ترتدى الزى الأوروبى وتجهز على النسق الأوروبى أيضًا ، ولكنهم تمردوا وثاروا وساروا إلى ساحة ميدان الخيل فى استانبول ولحق بهم بضعة مئات من الانكشارية حاملين قدور الطعام ، وهو نظام تقليدى تعودوا عليه ويعنى أنهم لن يقبلوا طعام السلطان ، وأيدهم القائمقام موسى باشا والمفتى الأكبر الذى عين مؤخراً وتكونت محكمة لمحاكمة مستشارى السلطان والوزراء المؤيدين للإصلاح والذين تسببوا فى قيام الثورة فى استانبول وتقرر قتلهم جميعًا وقتل البعض منهم فى الساحة والبعض الآخر فى ديارهم ، ووضعت رؤوس سبعة عشرة منهم أمام الثوار .

وكان من سوء حظ السلطان أن المفتي السابق الذى كان من أكبرمؤيدى برنامجه الإصلاحى قد توفى فى العام الماضى وصارت أغلبية العلماء من المعارضين للإصلاح ، فأجبر على الخضوع وأصدر مرسومًا بحل فرق النظام الجديد ، ولكن جاء هذا المرسوم متأخراً وعجز عن حماية عرشه إذ تحالف ضباط الانكشارية مع المفتي الأكبر وأعلنوا ضرورة عزل السلطان لأنه أدخل أساليب الكفار إلى المسلمين وعزم على التخلص من فرق الانكشارية المدافعة عن الشرع والرسول (ﷺ) والتى تعمل لمصلحة الدين ولآل عثمان ، ثم صدرت فتوى تبيح هذا العزل وإلغاء فرق النظام الجديد والفرق الموجودة فى قلاع البوسفور . وعاد سليم إلى القفص حيث أعلن الطاعة لابن عمه الشاب مصطفى ليصبح سلطانًا ونصحه بألا يجرى تغييرات كبيرة فى البلاد وتمنى له حكمًا أفضل من حكمه ، ويقال أنه حاول أن يتجرع السم ولكن مصطفى دفع عنه الكأس وأقسم أن يفتديه بحياته .

حكم السلطان مصطفى الرابع لعدة شهور فقط ، فقد كان لا يزال هناك أصدقاء ومؤيدون لسليم ، وبالتحديد مصطفى البير قدار أو حامل اللواء وهو باشا إقليم روتشوك على الدانوب والذى كان من أقوى مؤيدى البرنامج الإصلاحى للسلطان ، والذى قرر إعادة سليم إلى العرش عن طريق القيام بانقلاب عسكرى ، وكانت الظروف مهيأة لذلك بعد توقيع الهدنة مع الروس ، كما كان تحت إمرته جيشًا كبيراً غالبيته من البوسنيين والألبان ، وهؤلاء ساروا إلى استانبول رافعين راية الرسول (ﷺ) بهدف توجيه ضربة للانكشارية واحتلال القصر السلطانى وعزل مصطفى وإعادة سليم إلى العرش ، ولكن تصدى لهم حرس القصر ورفضوا فتح البوابات فاقتحموها ، وهذا التأخير البسيط أدى إلى وقوع كارثة حيث أمر السلطان مصطفى فى الحال بقتل سليم وأخيه محمود حتى يتخلص من آخر المطالبين بالعرش السلطانى ، وبالفعل قتل السيافون سليم بعد مقاومة شرسة وألقوا بجثته أمام البيرقدار فور دخوله إلى فناء القصر ، ولكنه ما لبث أن أزاح مصطفى من على كرسى العرش بمساعدة جنده الألبان قائلاً : « لماذا أنت هنا ، اترك هذا المكان لمن يستحقه » . وكان السيافون قد فشلوا فى العثور على محمود بعد أن أخفته إحدى الإماء فى مدخنة الحمام ، ثم عثر عليه الجند الألبان المنتصرون ، وقبل

حلول الظلام أعلنت شعلة النيران فى القصر السلطانى عزل مصطفى وتعيين محمود سلطانًا ، وصار البيرقدار صدرًا أعظمًا . وبعد أن تخلص من القتلة وأتباع السلطان السابق مصطفى وقائد فرق اليامق اتخذ الوسائل الكفيلة بإعادة البرنامج الإصلاحى الذى بدأه سليم ، فأعاد تأسيس فرق النظام الجديد ودربها على النسق الأوروبى وأطلق عليها فرق السكمان (١) ، وأعاد رموز الإصلاح وقادته من جديد ، وكون للمرة الأولى فى الدولة العثمانية مجلسًا استشاريًا من كبار رجال الدولة وجعل مقره فى القصر السلطانى وأعلن أمامه البرنامج الإصلاحى الذى كان يعتمد على إعادة إصلاح قسم كبير من فرق الانكشارية للقضاء على مفاسدها ، كما ثبت حقوق وإمتيازات فرق الأعيان (٢) والدرة بكوات ، وبعد مناقشات حول هذه النقطة أوضح أنه يهدف إلى استقطاب هذه العناصر فى الحكومة المركزية للاستفادة منهم وللقيام بمسئولياتهم بشكل شرعى ووفق شروط محددة . كما تصالح مع الانكشارية والعلماء المتحالفين معتمدًا على حماية فرق السكمان ، وأعاد الفرق البوسنية والألبانية إلى مواقعها فى الولايات ، وكان هذا تصرفًا غير حكيم لأن الانكشارية عادت إلى الثورة مرة أخرى وهاجمت قصر البيرقدار وأشعلوا فيه النيران ثم لحقوا به فى أحد الأبراج التى هرب إليها وأشعلوا فيه النيران حتى مات محترقًا ، وانتصرت ثورتهم وأعادوا النظام القديم بكل مساوئه وبشكل أقوى من السابق .

وهكذا فشلت الحركة الإصلاحية التى قام بها سليم الثالث بعد وقت قصير ، ويعد سليم الأوحد بين السلاطين العثمانيين الذين آمنوا بأهمية الإصلاح الجذرى للإمبراطورية ، فقد حاول أن ينجز ما قام به السلطان سليمان القانونى منذ ٢٥٠ سنة على النسق الإسلامى لصالح البلاد ، ولكن بروح علمانية جديدة وعلى النسق الغربى . إن فشله المرير يرجع إلى ضعف

---

(١) السكمان تعنى الجند النشطين بالتركية .

(٢) صار للأعيان وهم الأشخاص المميزين فى الإقليم وضعًا سياسيًا فى القرن الثامن عشر وامتلكوا مساحات واسعة من الأراضى وأحياء كاملة .
أنظر : دائرة المعارف الإسلامية - جـ ١ (الأعيان) .

شخصيته ووهن نواياه ، كما يرجع إلى فشله فى التعرف على الاتجاهات النفسية للشعب العثمانى وبالتالى عجزة عن قيادته وإقناعه بإصلاحه وهو ما قام به سليمان من قبل ، وبرغم استنارة سليم وإخلاصه فإنه سمح للفريق المناهض للإصلاح بأن يشعل المقاومة ضد التحديث . ولكن السبب الجوهرى لفشل سليم يرجع إلى حقيقة خطيرة وهى أنه كان يفتقر إلى القوة اللازمة لحماية مثل هذه المهمة الجسيمة إذ اعتقد أنه بضربة واحدة يستطيع تغيير النظام التقليدى الذى سارت عليه الحكومة منذ قرون عدة والذى كان مؤثراً رغم ضعفه ، فكان ينبغى على هذا السلطان الأصولى الراغب فى ضمان النجاح لإصلاحه أن يقوم بإعادة تنظيم البناء الأساسى الذى قامت عليه مؤسسات الدولة ، أو بالأحرى كان عليه أن يؤسس دولة جديدة بآلة جديدة قادرة على اتخاذ القرارات وتنفيذها وتوفير القوة القادرة على حماية السلطان من هيمنة شيخ الإسلام ورجال الدين (العلماء) وجميع العناصر الممثلة للإسلام . إن سليم حاول القيام بمهمة خارقة بمقاييس العصر وفشل فى إنجازها لأنه حاول إدخال الأساليب الحديثة مع وجود القوى التقلدية المرتبطة بالبنيان التقليدى .

إن سياسة سليم الإصلاحية كانت تعكس وجهات نظر أقلية من النخبة العثمانية التى تميزت بسعة الأفق والتى تميزت عن النخبة القديمة التى تواجدت فى عصر التيوليب الإصلاحى ، وذلك فى الوقت الذى تواجدت فيه غالبية محافظة قوية فى الجيش وفى الجهاز البيروقراطى الفاسد من الذين استفادوا من إصلاحات سليمان ، وأقامت نوعًا من التوازن بين القوى الداخلية فى الدولة ، ثم صارت هذه العناصر المحافظة مثلاً سيئًا فى استخدام السلطة لتحقيق مصالحها الشخصية فهم يبيعون المناصب والإمتيازات ويشجعون المحاباة والربا فى نظام ضريبة الأراضى والملكيات الزراعية ويعيثون فساداً فى مؤسسات الأوقاف . وفى المستويات الدنيا حصل الكثيرون منهم على دخول طفيلية كما فعلت الانكشارية وانخرطت فى سلك الأنشطة التجارية ، ومن ثم كانت هذه القوى معرضة لفقدان مراكزها وإمتيازاتها مع أى تغيير ، ولذلك أيدت بكل قواتها بقاء الوضع الراهن status quo فى ظل النظام التقليدى إبقاء لثرواتها . لقد شكلت هذه العناصر جميعًا بناءً صلبًا

متماسكًا لا يمكن تدميره ، وكانت هذه القوى ذاتها رافضة فى ذات الوقت لتقبل أى تغيير برغم فسادها ، كما حدث مثلاً فى الثورة الفرنسية التى أنعشت روح الثورة فى العالم أجمع لقرن تالى . إن الأقلية المصلحة ظلت معزولة وواقعة تحت رحمة التيار المحافظ لعدم وجود قوة فاعلة تقف خلفها وتشجعها ، ولم يكن أمامها إلا أن تؤيد بقاء الحاكم أو عزله . لقد فقد سليم حياته بسبب سياساته المتفرنسة ، ورغم فشل إصلاحاته القائمة على بعث الأفكار الغربية المستنيرة ، فقد توغلت ، بعد حكمه ، الأفكار الغربية فى قلعة الإسلام وتوسعت آفاقها وتحولت من مجرد نهر صغير إلى تيار جارف خلال القرن التاسع عشر . إن الثورة الفرنسية عجزت عن المحافظة على مبادئها فى ظل هذا المناخ غير الملائم ، فمبادئ الحرية كانت متواجدة فى الإسلام بمفهوم شرعى ولكنها الآن صارت ذات مدلول سياسى ، والمساواة التى لم يكن لها علاقة وثيقة بالإحسان كانت ضاربة بجذورها فى الإسلام دون تطرف فى الثروة والإمتيازات الإجتماعية ، والإخاء الذى اتخذ شكل الوطنية فى جميع أرجاء الإمبراطورية العثمانية من جانب الأقليات المسيحية هو نظام قائم ومتواجد ويشمل العالم الإسلامى ككل . وبرغم ذلك ظلت المبادئ الأخلاقية للإسلام مؤثرة وفعالة حتى الأيام الأخيرة للنظام العثمانى مع وجود هذه القوى السلبية وقد عبر عنها أحد الدبلوماسيين الأتراك قائلاً : « إن بلادنا أقوى دولة فى العالم برغم محاولات تدميرها التى تأتى من الخارج وما نقوم به نحن من الداخل ، فهى صامدة أبداً » .

الفصل الثلاثون

يعتبر السلطان محمود (١) الحاكم الوحيد من آل عثمان الذى استمر فى الحكم لجيل من الزمان فى هذه الفترة ، ويعد من أقوى السلاطين المصلحين وخليفة السلطان محمد الفاتح وسليمان القانونى فى هذا المجال . وكان محمود يشبه نفسه ببطرس الأكبر المصلح الروسى ، وربما كانت ميوله الإصلاحية ورغبته فى الاقتباس من الغرب ترجع إلى والدته الفرنسية ، لأنه تلقى تعليمًا إسلاميًا تقليديًا ولم يظهر أى اتجاه فى بداية حياته للأفكار الغربية . وفى شبابه تأثر بابن عمه سليم الثالث الذى كان على صلة وثيقة به ، ورغم أنه شاهد المعارضة التى شنتها ضده الرجعية العثمانية الممثلة فى العناصر الدينية والعسكرية فإنه صمم على الإصلاح ، ولكنه لم يبدأ فى سياسته الإصلاحية الفعلية إلا بعد عقدين من الزمان بعد أن تأكد له بأن الإصلاح هو الطريق الوحيد لإحياء الإمبراطورية .

وقد شُغل السلطان فى بداية حكمه بالنزاع مع روسيا ، إذ كان نابليون بونابرت قد هجر العثمانيين حلفاء الأمس وحاول عقد تحالف مع القيصر الروسى إسكندر (٢) فى ١٨٠٧ ضد إنجلترا ، وسعت الدولتان لاقتسام ممتلكات الدولة العثمانية ، وأوضحت كلا منهما المناطق التى لها مصلحة مباشرة فيها ، فروسيا ترى أن شرق البلقان هو مجالها ، وفرنسا ترى أن ألبانيا واليونان وكريت وبعض جزر الأرخبيل مناطق ذات أهمية خاصة بالنسبة لها . وخططت الدولتان لتتقدم فرنسا بهذه المطالب إلى السلطان فإذا رفض تسعى مع حليفتها لتحرير أوروبا من ظلم الأتراك . وتحت ضغط من فرنسا وبرعايتها عقد الباب العالى هدنة مع روسيا لمدة عامين دون مناقشة أى شرط للسلام أو وضع حد لمنع تجدد الحرب معها مرة أخرى .

---

(١) حكم السلطان محمود الثانى من ١٨٠٨ إلى ١٨٣٩ .

(٢) كان القيصر إسكندر الأول إمبراطوراً على روسيا من ١٨٠١ إلى ١٨٢٥ ودخل فى عدة معارك مع نابليون وهى أوسترلتز وإرلاو وفردلاند ، وكون الحلف المقدس فى ١٨١٥ .

أنظر : La Rousse , p . 1107

وفى ذات الوقت رأى القيصر الروسى إسكندر أن ضعف وإنهيار الأسرة العثمانية الحاكمة بدا واضحاً فى أعقاب مقتل السلطان مصطفى الرابع (١) وتولى السلطان الطفل (محمود الثانى) الحكم ، وأنه من السهل على روسيا القضاء عليه ، ومن ثم بدأ يسعى لتقسيمها وليحتفظ من الوليمة بالقسطنطينية والدردنيل وذلك فى معاهدة سرية مع نابليون . وقد وافقه نابليون مبدئياً ، ثم عاد السفير الفرنسى واقترح أن تظل القسطنطينية وشواطئ المضيق منطقة حرة ، ولكن المفاوض الروسى طلب القسطنطينية لأنها عاصمة الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية وهى تنتمى تاريخياً وطبيعياً للشرق ، فاشترط المفاوض الفرنسى أنه فى حالة التنازل عنها تحصل فرنسا على الدردنيل وشواطئه بصفته الطريق الصليبى القديم المؤدى لسوريا ، وهنا رفضت روسيا أى تحالف مع فرنسا لفتح الطريق من البحر الأسود إلى البحر المتوسط . وهكذا انهارت أحلام نابليون بإقامة تحالف روسى فرنسى لتقسيم ممتلكات الدولة العثمانية وإخضاعها لحكمها . ووجد نابليون البديل لهذا المشروع بالتوجه إلى مصر الحصينة وإحتلالها قبل أن تحتلها إنجلترا . وفى إرفورت (٢) ١٨٠٨ أعاد النظر فى تحالفه مع روسيا ضد الباب العالى خاصة وأن القوات الروسية كانت لا تزال تحتل ولاشيا ومولدافيا وكانت فى حالة نزاع مع إنجلترا ، فقرر انتظار رد الفعل البريطانى على هذا التحالف المقترح . وكرد فعل لهذا التحالف قامت الإمبراطورية النمساوية بالسعى للتوسط لدى الباب العالى لإيجاد مصالحة بينه وبين بريطانيا حيث ساءها إستيلاء روسيا على الولايتين الدانوبيتين ، ورأت فى ذلك إخلالاً بالتوازن الدولى . وبرغم التهديدات الفرنسية فقد أثمر هذا

---

(١) حكم السلطان مصطفى الرابع من ١٨٠٨ إلى ١٨٠٩ .
أنظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى ، فى أصول التاريخ العثمانى .

(٢) إرفورت مدينة فى شرق ألمانيا ، اجتمع فيها نابليون مع القيصر الروسى فى ١٨٠٨ فى محاولة للتوافق .
أنظر : La Rousse , p . 1318

التوسط عن توقيع معاهدة الدردنيل فى ١٨٠٩ والتى أدت إلى تجدد الحرب مرة أخرى بين روسيا وتركيا ، وعبرت القوات الروسية ، التى خرجت من ولاشيا ، نهر الدانوب للإستيلاء على سسلتريا ولكنها واجهت مقاومة من جيش الصدر الأعظم عند شوملا ، ولم تتمكن من عبور سلسلة جبال البلقان ، وبرغم أنها تمكنت من الإستيلاء على روتشوك بعد مقاومة كبيرة . وفى ١٨١١ إنهار التحالف الروسى الفرنسى وهدد الخطر الفرنسى روسيا من جهة الغرب ، وبات لزاماً على الروس تقوية دفاعاتهم من جهة الدانوب ولذلك رأوا أنه لا بد من إيجاد حالة من السلم مع الباب العالى فوقعوا معاهدة معه فى صيف ١٨١٢ ، قبل أسابيع قليلة من اجتياح جيش نابليون لموسكو ، وهى معاهدة بوخارست واعترفوا فيها بنهر بروث حداً فاصلاً بين روسيا وتركيا ، وأعاد القيصر بقية مولدافيا وكل ولاشيا للسلطان مع احتفاظه ببسارابيا ليقترب من مدخل نهر الدانوب . وقد حاول نابليون أن يستعيد الصداقة التركية ليدفع الأتراك لمهاجمة الروس على جبهة الدانوب ووعدهم بضمان أمن الولايتين الدانوبيتين وباستعادة القرم ولكن محاولته جاءت متأخرة وباءت بالفشل لأن الأتراك كانوا قد توصلوا إلى سلام بالفعل مع الروس تحت ضغط من إنجلترا ، ووضعوا بذلك حداً لمخططات نابليون لتدمير الإمبراطورية العثمانية . وكان الصربيون هم أكثر الأطراف تضرراً فى معاهدة بوخارست إذ كانوا تحت حماية روسيا ، فاستعاد السلطان بلجراد وبعض القلاع الأخرى ووضع فيها حاميات تركية وأزيلت القلاع التى شيدها الصربيون ، وفى العام التالى وبعد سقوط نابليون عادت الصرب دولة تابعة للأتراك مرة أخرى .

لقد بقيت الإمبراطورية العثمانية التى خطط نابليون والكسندر لتدميرها على قيد الحياة لقرن آخر من الزمان ، ولكن عوامل الإنهيار الداخلى والخارجى وصلت إلى مدى بعيد فى عهد محمود الثانى ، وكانت أولى هذه العوامل ما حدث فى اليونان من تزايد حدة القومية اليونانية التى بدأت منذ أوائل القرن التاسع عشر فى شكل حركة الإحياء الأدبى وأحدثت نهضة يونانية على النسق التقليدى استلهمت أفكارها من فلاسفة الثورة الفرنسية المتحررين ، واعتنقها فئة من اليونانيين منذ عهد سليم الثالث . وقد طالب أصحاب هذا الاتجاه بتحسين التعليم حيث قامت مجموعة من الأثرياء

اليونانيين بإنشاء مدارس بعثت الحياة في تاريخ اليونان ، وبإصدار كتب فى الخارج باللغة اليونانية . وقد تواجدت بذور التحرر والبعث للروح القومية اليونانية من خلال هذا الاتجاه الذى مثلته فئات الفناريين العاملين فى خدمة الباب العالى والجاليات اليونانية التجارية المتواجدة فى استانبول وسالونيكا وسميرنا وفى مختلف جزر الأرخبيل اليونانية ، والتى كانت فى غالبيتها مستقلة ذاتياً مثل خيوس التى أبقى فيها الأتراك على نظام الحكم القائم على النسق الجنوى بموظفيه وجنده ، كذلك بعض الجزر الأخرى مثل هايدرا وسبتساى وبسارا Hydra , Spetçai , Psara والتى ظل بها نظام الجاليات البحرية الذى يتقاسم فيه البحارة حمولات السفن وهؤلاء أصبحوا نواة للأسطول اليونانى فى المستقبل . وهكذا كان فى سواحل اليونان الكثير من اليونانيين المتصلين إتصالاً وثيقاً بالغرب بصفة دائمة . أما فى أرض اليونان الداخلية فكانت الروح الوطنية أقل ظهوراً لإحكام الإدارة العثمانية قبضتها على السكان ليس لدواعى أمنية ولكن لجمع الضرائب ولتحقيق المصلحة الشخصية للباشوات الفاسدين الذين يحكمونهم . وكانت الوظائف الرسمية التى تتحمل الأعباء فى اليونان تشمل القوجة باشوات أو الرؤساء وهم الموظفين الرسميين وملاك الأراضى الذين اعتنقوا الإسلام للاحتفاظ بملكياتهم ونفوذهم وهؤلاء جميعاً سيطروا على المدن القرى وكانت مهمتهم العمل كوكلاء للموظفين الرسميين الأتراك فى جمع الضرائب من السكان واتبعوا فى ذلك أساليب سادتهم العثمانيين ، وتمتعوا بمركز متميز لحفظ الأمن والنظام فى البلاد وهذا جعلهم يمارسون ضغوطًا على أتباعهم المسيحيين . كذلك كانت الكنيسة المسيحية محافظة فى مظهرها وتمثل جزءاً من المؤسسة المدنية التى تتمتع بحماية السلطان وتمارس ضغوطاً واسعة النطاق على السكان اليونانيين .

وهكذ تواجدت بين هذه الفئات سواء كانت الكهنوتية أو ملاك الأراضى أو الموظفين الرسميين مصالح مشتركة أدت إلى تحويل النهضة الثقافية اليونانية إلى ثورة يونانية سياسية هدفها تحقيق الاستقلال القومى . وكانت فكرة الوطن اليونانى ، والتى تمثلت فى العقيدة اليونانية واللغة اليونانية ، تتحول ببطء إلى واقع مادى ملموس على أسس صلبة خلال هذه الفترة . وفى البداية ظهرت عصابات شرسة تحمل إسم كلفتس Klephts سكنت المناطق الجبلية لتكون

فى مأمن من السلطة التركية وعاشت على اللصوصية وقطع الطرق ، وبمرور الوقت تحولت هذه العصابات إلى جماعات معترف بها واستخدمت كسلاح شرعى وفعال ضد طغيان الأتراك ، وبدأت تقوم بأعمال بطولية تخدم القضية الوطنية اليونانية . وهذه الجماعات ركزت نشاطها فى جبال المورة وأبيروس والروملِلى وفى جزيرة كريت وبعض الجزر الأخرى التى كان بها زعامات متوارثة سرعان ما تحولت إلى قيادات سياسية إستعداداً للثورة القادمة . وقد استخدم الأتراك فرقًا مسيحية مسلحة تعرف بـ أرماتولى Armatoli ضد هذه العصابات ، ولكن هذه الفرق غالباً ما كانت تنضم إلى هذه العصابات . وفى البحر كانت هناك عصابات مماثلة بين البحارة الشرسين فى الجزر والمناطق الساحلية ، عاشت على القرصنة مثلما عاشت العصابات البرية على قطع الطرق . وأصبحت روح المغامرة منتشرة بين هذين النوعين من العصابات ، وكانت التجربة الإنجليزية العسكرية والبحرية التى أدت إلى الإستيلاء على الجزر الأيونية من نابليون فى ١٨١٤ هى النموذج المحتذى ، روجود العلم البريطانى على هذه الجزر أثار الرغبة فى الحرية وأشعل الثورة فى جميع أنحاء اليونان .

وكان لابد أن يكون هناك تخطيط وتنسيق لهذه الثورة حتى تحقق النجاح فتشكل أول تنظيم عام يحمل إسم فيليك هيتاريا Philike Hetaeria ويعنى « جمعية الأصدقاء » أقامته الجالية التجارية اليونانية التى تميزت بعلاقات واسعة داخل اليونان وخارجها ، وذلك فى أعقاب فشل ثورة يونانية ضد الأتراك وبمساعدة روسية فى عام ١٧٧٠ . وكان مؤسسها هو الشاعر اليونانى الوطنى ريجاس فيرايوس Rigas Pheraios الذى جعل للثورة اليونانية نشيداً قومياً . وكما حدث فى رومانيا ، كان ريجاس الذى تميز بطبيعة شعرية غير واقعية ، يحلم بتكوين إتحاد فيدرالى مستقل يضم قوميات مسيحية عديدة مثل الإمبراطورية البيزنطية وتكون اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية فيه وكذلك الكنيسة اليونانية وكان يتخيل أن يهب الصربيون والبلغار والألبان والرومانيون لحمل السلاح فى شكل اتحاد مسيحى لتحقيق الحرية اليونانية على غرار قرة چورچ وغيره من قادة الثورات المسيحية الذين هبوا ضد السلطان ، ولكن أعدم الأتراك ريجاس مما أدى إلى إنهيار الجمعية التى أنشأها مؤقتًا ، ثم بعثت مرة أخرى فى عام ١٨١٤ ولكن ليس فى اليونان بل فى روسيا بواسطة ثلاثة من

التجار اليونانيين فى أودسا ، وكان لها فرع سرى فى أثينا تحت إسم الجمعية الأدبية اليونانية يهدف إلى نشر أفكارها بين الطبقة اليونانية المتعلمة دون إثارة شكوك الأتراك .

وقد امتد نشاط الجمعية وأصبح لها فروع عديدة ووكلاء فى الولايات التركية الأوروبية وفى مدن آسيا الصغرى ، واتخذ نشاطها شكل المحافل الماسونية بنشاطها السرى المحكم وشاراتها المبهمة ويمين الولاء والإخلاص الواجب القسم به ، وقد جذبت دسائسها ومكائدها الكثير من العناصر المتطرفة فى الجاليات البلقانية ، وكان من بين أعضائها ضباط روس وتمتعت برعاية الوكلاء القنصليين الروس أعوان القيصر السريين ، وحظيت بتأييد القيصر نفسه واستعداده للدعم العسكرى فى حالة إعلان الثورة . وهكذا ضمن اليونانيون الحليف الذى يعتمدون عليه فانطلقوا فى مسيرتهم . وقد عرضت رئاسة « جمعية الأصدقاء » على أحد أعوان القيصر الروسى المفضلين وهو چون كابودستريا John Capodistria ، والذى كان يعمل فى خدمته فى سان بطرسبرج ، وأحد الموقعين على اتفاقية إعلان الحماية الإنجليزية على الجزر الأيونية ، ولكنه رفض فعرضت على الكسندر أبسلانتى Alexander Ypsilantis وهو يونانى من حى الفنار ، وكان أفراد أسرته يعملون كحكام لولاشيا ومولداڤيا ويحملون إسم الهسبودار Hospodar ، وكان من الشخصيات المميزة التى خدمت فى الجيش الروسى ، وتم تعيينه بالفعل فى عام ١٨٢٠ فى منصب « الوكيل العام للسلطة العليا » . ولما كان أبسلانتى يتميز بالروح الثورية فقد قرر أن ينشر الثورة فى الشمال ضد العثمانيين ، فقاد قواته العسكرية وعبر نهر بروث الذى كان حداً فاصلاً بين الروس والأتراك وتوجه إلى مولداڤيا وولاشيا ، وكان يعتمد على إمكانية إيجاد وحدة بين المسيحيين اليونانيين والرومانيين ، ولكنها لم تتحقق ولم يحصل على أى دعم للقضية الهللينية فى ولاشيا بل واجه ثورة محلية رفع فيها الثوار شعار « اليونان لليونانيين ، ورومانيا للرومانيين » ، واحتقره القيصر وطرده من جيشه ، وأعلن البطريرك ضده قرار الحرمان إرضاء للسلطان . ثم أرسل العثمانيون جيشاً إلى بوخارست قضت تماماً على جيشه المقدس ، وفر أبسلانتى نفسه إلى النمسا حيث سجنه الإمبراطور . وبذلك انتهى حكم الفناريين اليونانيين لولايتى

الدانوب وولد الاستقلال الروماني وأصبحت رومانيا خاضعة لحكم الهسبودارات الذين يتم اختيارهم من بين الأمراء الرومانيين .

ولم تحصل اليونان على استقلالها إلا بعد إشعال مجموعة من الثورات في مساحة واسعة من البلاد بواسطة جمعية الأصدقاء التي قادها مجموعة من الفناريين من بينهم شقيق أبسلانتي وهو ديمتري Dimitri الذي كان قائداً في جزر البلوبونيز ، وعدد آخر من المتطوعين الذين عاونوا الثوار . ويعتبر تاريخ ٢٥ مارس ١٨٢١ هو البداية الحقيقية للثورة فهو تاريخ صدور الإعلان الثوري من فرع الجمعية في باتراس . ومن حسن الحظ أن السلطان محمود لم يكن يدرك خطر الثورة اليونانية الراهن ، واختار هذا الوقت لإرسال حملة إلى أبيروس للقضاء على الباشا الثائر علي باشا الذي لقب « بأسد ياننيا » ، والذي كان قد تمكن من تكوين قوة ضخمة بمساعدة الجيش الألباني ، ووسع نطاق نفوذه واستقل عن الباب العالي واعترف به نابليون بونابرت من قبل . وفي ١٨١٩ استطاع الإستيلاء على ميناء بارجا أهم موانئ الأدرياتيكي ، ولكن تمكن خصمه وعدوه اللدود الألباني إسماعيل من الفرار وطلب الحماية من السلطان في استانبول ، فعينه في وظيفة هامة وهي أن جعله أحد رجال الخدمة الداخلية في القصر السلطاني ، وقد حاول علي اغتياله ولكنه فشل ، ودفع هذا السلطان لإعلان علي باشا عاصياً وخارجاً على سلطة السلطان وعين خصمه في الباشوية بدلاً منه وكلفه بمحاربته ، وظلت الحرب سجالاً لمدة عامين بلا طائل ، فكلف السلطان قائد قوات المورة خورشيد باشا بالخروج على رأس حملة للقضاء على باشا ونجح بالفعل في هذه المهمة بعد أن قبض عليه في إحدى قلاع جزيرة بحرية وقطعت رأسة ورؤوس ثلاثة من أبنائه وأحد أحفاده وأرسلت إلى السلطان في استانبول .

ونتيجة لذلك أصبحت قلاع المورة خالية من وسائل الدفاع فتمكن الثوار اليونانيون من إحتلالها كما تمكنوا بمساعدة الثوار البحريين أو القراصنة من السيطرة على مداخل الموانئ الهامة مما أدى إلى إعاقة وصول الإمدادات العثمانية وتقوية حرب العصابات في المناطق الجبلية ، وتمكن الثوار أيضاً من السيطرة على جزيرة سبتساى Spetsai ، وأغلقوا خليج نوبليا Nauplia على نفقة أرملة يونانية ثرية وكذلك خليج بسارا Psara وهايدرا Hydra ، ونجح

قادة السفن فى إثارة الناس ضد الأساقفة اليونانيين . وتردد نشيد شعبى فى جميع أنحاء شبه الجزيرة يقول « لن يبقى تركى على قيد الحياة فى المورة » ، وصاحبها مذابح ضد جميع المسلمين ، وانتشار الثورة إلى خليج كورنثة حيث قتل عدد كبير من سكان مدينة ليفاديا Livadia ، واعتلى الفلاحون الأسوار للإستيلاء على أثينا والتى كانت ملكًا خاصًا للسلطان وسكانها لا يقل عددهم عن عشرة آلاف نسمة ، ولكنهم لم يتمكنوا من الإستيلاء على الأكروبولس Acropolis منذ أن أعيد تحصينه فى أعقاب الحصار البندقى . وفى الغرب شبت ثورة عارمة فى مدينة ميسولونجى Mesolonghi ، وفى الشمال شبت ثورة أخرى فى مثلث شبه جزيرة مقدونيا فى خالسيديس Chalcidice حيث يتواجد رهبان جبل آثوس الذين كانوا مستعدين دينيًا وقوميًا من أجل الدفاع عن القضية . وفى كريت كان غالبية السكان من المسلمين ، وكان بها فرقة من الانكشارية ونسبة من المسلمين المتعصبين ذوى الأصول اليونانية وهؤلاء ارتكبوا مذابح ضد المسيحيين وذبحوا رئيس أساقفة كانديا وخمسة من الأساقفة داخل مذبح الكاتدرائية مما أدى إلى إثارة غضب سكان الجبال فأغلقوا ميناء كانيا Canea بمساعدة الأسطول اليونانى .

ولم يكن السلطان محمود ليذعن أمام التحدى الذى يواجه سيادته وقرر استخدام العنف ضد اليونانيين للمذابح التى أقاموها للأتراك فى المورة ، وفى استانبول أعدم المترجم اليونانى للباب العالى وعدد من الفناريين . كما قام بشنق البطريرك اليونانى فى المورة فى يوم عيد الفصح وعلق جثته على بوابة القصر السلطانى لثلاثة أيام انتقامًا للمذابح التى ارتكبت فى تريبوليتزا Tripolitza ، ثم سمح لليهود بإلقائها فى البحر بمهانة وإحتقار . وحينما قامت سفينة حربية تابعة للثوار اليونانيين بتحطيم بارجة تركية بطاقمها قبالة خيوس ، انتقم الأتراك بتدمير الجزيرة عن آخرها وباعوا بعض سكانها البالغ عددهم بضعة آلاف كعبيد ، وطردوا البعض الآخر إلى المنفى .

ويمكن القول أن هذه الإجراءات نجحت فى دفع الثورة جهة الشمال ناحية خليج كورنثة ، ولكنها فشلت فى إقتلاع جذورها من المورة . وانشغل اليونانيون فى المرحلة التالية بالمشاكل السياسية وبإنشاء حكومة محلية ، وأقاموا مجالس محلية فى المناطق التى استولوا عليها مثل مجلس السناتو فى مسينا

والحكومة المركزية فى جزر البلوبونيز وحكومات منتخبة فى شرق الروملى وغربه ، وهذه الهيئات كانت تشكل كيانات معارضة لملاك الأراضى ورؤساء الكنيسة والفناريين والتجار الموجودين فى الجزيرة والكلفتس الذين ظلوا يتمسكون بوضعهم القانونى فى البلاد ، وأصبح هناك اتحاداً ضمنياً بينهم لأنهم كان لا يعتبرون أنفسهم يونانيون يتمتعون بالحس الوطنى . وكانت أول محاولة لإقامة حكومة مركزية يونانية تلك التى تمت فى أعقاب سقوط مدينة تريپولى حينما دعا ديمترى أبسلانتى إلى عقد مؤتمر قومى بالقرب من أبيدورس Epidaurus وأعلن فيه الدستور فى ١٨٢٢ واعتبره يوماً مجيداً لأنه قام على أسس جمهورية وتضمن سلطتين تشريعية وتنفيذية . وأصبح رئيس هذا المؤتمر الكسندر مافروكور داتوس Alexander Mavrokordatos زعيم الفناريين فى الغرب فى إقليم ميسولونجى ، وتوارى أبسلانتى إلى الظل . وهكذا تحول هذا الشعب الذى خضع لعدة قرون للقهر الشرقى الذى ربطه بقيود التخلف والرجعية إلى مجتمع متحرر يقيم نظاماً دستورياً وفق النظام الغربى .

وفى عام ١٨٢٢ سقطت نوبليا Nauplia فى أيدى الثوار اليونانيين بقيادة قائد الكلفتس كولوكوترونس Kolo Kotrones وتعتبر أهم موانئ جزر البلوبونيز الشرقية وعاصمتها الطبيعية ولكنه رفض الدعوة لعقد مجلس قومى فى نوبليا وانسحب أتباعه ليدخلوا تحت حماية هايدرا وسبستاى وانتخبوا رئيساً لهم هو الثرى هادريوت كوندوريوتيس Hydroit Koundouriotis الألبانى الأصل ، وتركوا كولوكوترونس سيداً على المورة . وأصبح من الجلى أن اليونانيين لن يقبلوا أحداً من أبناء جلدتهم كحاكم عليهم ، وأصبح جلياً أيضاً أنه لا مناص من أن يحكمهم أمير من الغرب ، وهذا شئ مألوف بالنسبة لليونانيون لأنهم منذ مرحلة مبكرة وهم يعتمدون على الدعم الغربى . ولكن من الناحية العسكرية سادهم شعور بخيبة الأمل لأن أوروبا أرادات أن تعيش فى سلام بعد هزيمة نابليون ، وذلك كما جاء فى ميثاق عصبة الملوك التى أكدت على ضمان الهدوء والسلام لعقد تالى ، وكان هذا يعنى أن إنجلترا

والنمسا وروسيا لن تدخل فى حرب من أجل القضية اليونانية الوطنية ولذلك استنكروا جميعًا قيام الثورة ، وفى مؤتمر ڤيرونا (١) الذى عقد فى عام ١٨٢٢ اتفق الحلفاء على عدم استقبال المندوبين اليونانيين لأنهم ثوريين .

ولكن برزت روح جديدة بين اليونانيين وهى الفيلهللينية Philhellenism والتى نظرت إلى اليونانيين على أنهم من نسل الأبطال البواسل للعصر الكلاسيكى وأثير حماسهم بواسطة جامعى الآثار وطلاب الدراسات الكلاسيكية والمثقفين والأدباء والشعراء ، وفتحوا عيون العالم على المكان الذى ولدت فيه الحضارة الهللينية والذى كان يسكنه الإغريق القدماء ، الذى شهد آنذاك محاولة تجديد وبعث هذه الحضارة . وقد انتشرت هذه الرسالة الهللينية عن طريق الجاليات اليونانية التجارية فى عواصم الغرب الأوروبى وروسيا ، ونجحت هذه الجهود فى تكوين (اللجان الهللينية) لجمع الأموال اللازمة للثورة ، وقد ساهم الأثرياء اليونانيون المنفيون وخاصة فى روسيا بمبالغ كبيرة ، وانضم عدد كبير من الشباب المتطوعين من أوروبا وأمريكا إلى هذه اللجان للدفاع عن القضية اليونانية ، وقد عبر وليم كوبت William Cobbet عن الثورة اليونانية بقوله : « لقد أشعلها الشعراء ودعمها ماديًا الأثرياء لصالح الروس » . وكان من بين الشعراء الذين دافعوا عن اليونانين لورد بايرون Lord Byron (٢) الذى زار اليونان فى ١٨٠٩ وخلدها فى قصيدة شعرية ، ونقل نشيد الثورة الذى وضعه ريجاس إلى إيطاليا ، ثم قضى خمسة شهور فى سيفالونيا خلال عام ١٨٢٣ داعيًا للقضية اليونانية ، وأصبح بعد ذلك هو المسئول عن جمع المساعدات المالية للثوار بعد أن نجح فى الحصول على قرض مالى ضخم من الجمعية اليونانية فى لندن . ولكن

---

(١) يمثل مؤتمر ڤيرونا نظام المؤتمرات Congress System الذى سارت عليه أوروبا فى القرن التاسع عشر لمناقشة المشاكل التى تواجه دولها .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، التاريخ الأوروبى الأمريكى الحديث .

(٢) هو جورج جوردون بايرون ولد فى لندن (١٧٨٨-١٨٢٤) وهو شاعر وله قصائد عديدة شهيرة ، وأقام فى الشرق زمن الثورة اليونانية وتوفى فى ميسولونجى .

أنظر : La Rousse , p . 1209

عندما دخل بايرون إلى أرض الثورة فى ميسولونجى فى عام ١٨٢٤ وجد الفرقة والإنقسام بين الثوار اليونانيين وبعضهم يحارب البعض الآخر فيما يشبه الحروب البلوبونيزية (١) ، وبصفة خاصة كان الصراع دائراً بين مؤيدى كولوكوترونس ومؤيدى كوندوريوتيس فى الداخل والخارج ، وقد انزعج بايرون لهذا الانقسام ، وبرغم أنه كان رومانسياً فى الحديث عن القضية اليونانية ، إلا أنه كان واقعياً فى تحليل الواقع اليونانى ، فرأى أن اليونانيين الذين تحرروا من الطغيان وقعوا فى خلافات حول أسلوب التحرر والقيادة المناسبة له ، ووجد أن مهمته هى العمل على إحتواء هذه الصراعات ، وقد نجح إلى حد ما حين أصدر تعليماته بتوجيه الجزء الأكبر من الدعم المالى لكوندوريوتيس ، فكانت النتيجة أن سلم كولوكوترونس مدينة نوبليا حتى يحصل على نصيبه من هذا الدعم ، ولكن لم تكد تمضى عدة شهور حتى اندلعت الحرب الأهلية مرة أخرى بين كولوكوترونس وكوندوريوتيس ، ولكن هزم الأخير وسجن فى هايدرا ، وتوارى مافروكورداتوس عن مسرح الأحداث . وهكذا ضاع القرض الإنجليزى المخصص للدفاع عن البلاد ضد الأتراك فى القضاء على أسباب النزاع بين اليونانيين ، بينما مات بايرون على إثر إصابته بحمى الملاريا من مستنقعات ميسولونجى واعتبر فى عداد شهداء القضية اليونانية وأحد أبطالها ، وأشعلت وفاته لهيب الحركة الهللينية فى أوروبا وساعدت على تأكيد فكرة بعث الأمة اليونانية فى العالم المتحضر .

وقد حققت المرحلة الأولى من حرب الاستقلال اليونانية النجاح برغم الصراعات الداخلية ، وأثارت السلطان فى ١٨٢٥ الذى أدرك مدى عجز قواته فى القضاء عليها ، وفشله فى الحصول على تعزيزات من ولاياته الآسيوية ومن ثم قرر طلب المساعدة من واليه القوى محمد على الألبانى الأصل باشا مصر ، والذى كان قد كون جيشاً حديثاً منذ نهاية حملة بونابرت ودربه على

---

(١) كانت الحروب البلوبونيزية بين أثينا وإسبرطة فى الفترة من ٤٣١ إلى ٤٠٤ ق.م واستمرت على مدى ثلاثة مراحل وانتهت بمجئ أرستقراطية الثلاثين إلى أثينا .

أنظر : La Rousse , p . 1594

النسق الغربى ، وسبق أن ساعد السلطان فى حربه فى الجزيرة العربية . وقد وعد السلطان محمد بباشوية كريت والبلوبونيز فى مقابل القضاء على الثورة فى اليونان ، بينما كان محمد علي يخطط للإستيلاء على باشوية سوريا .

وخرج إبراهيم باشا ابن محمد على من الإسكندرية على رأس قوة بحرية كانت تعد الأقوى فى منطقة حوض البحر المتوسط ، وتقدم من كريت إلى ميناء مودون الحصين غربى المورة ، وبدأ عملياته العسكرية مفتتحًا المرحلة الثانية من الحرب اليونانية . وفى خلال ثلاثة أعوام نجحت قواته المدربة القوية فى الإستيلاء على جزر البلوبونيز ونشرت الرعب والفزع فى المنطقة مثلما كان يفعل الأتراك ، وأعادت السيادة التركية إلى المنطقة .

وقد أدى هذا النصر إلى تحقيق الوحدة بين اليونانيين ، وتم الإفراج عن كولوكوترونس وعين قائداً عامًا لقوات المورة ، ولكنه هزم فى معركتين متتاليتين على أيدى إبراهيم باشا . وفى العام التالى ١٨٢٦ ، نقل إبراهيم قواته إلى داخل اليونان لتعزيز القائد التركى رشيد باشا الذى كان يحاصر ميسولونجى ، ونجح بالفعل فى تغيير مجرى الأحداث ومنع أسطولاً يونانيًا من دخول الميناء والدخول فى المعركة النهائية التى شارك فيها السكان المدنيين وحقق فيها النصر ، وسقطت ميسولونجى فى يد إبراهيم باشا والأتراك وتبعها إنهيار حكومة كوندوريوتس وتجدد النزاع بين الزعيمين المتنافسين ومجالسهما ، ولكن تمكن إثنان من الضابط الأجانب الذين كانوا يعملون فى قيادة القوات البرية والبحرية اليونانية ، من رأب الصدع بين المجلسين وتكوين مجلس وطنى جديد ووضع دستور جديد وانتخب كابودستريا الأوتوقراطى رئيساً له ، وهؤلاء الضباط هم : الأيرلندى سير ريتشارد تشيرش Richard Church ، والاسكتلندى لورد كوتشرين Lord Cochrane . وفى نفس الوقت ضرب رشيد باشا حصاراً حول أثينا ، وحاول كوتشرين إنقاذها هى والأكروبولس ولكنه فشل وسقطت مرة أخرى فى أيدى الأتراك فى يونية ١٨٢٧ . وظهر للجميع أن اجتياح أراضى اليونان وضع حداً لحرب الاستقلال . ولكنها لم تكن النهاية ، إذ وجدت الدول الأوروبية أنه لابد من التدخل بعد ست سنوات من إراقة الدماء ، وظهر الروس كعنصر نشط يمارس

الضغوط على الأتراك ، بينما قام النمساويون تحت حكم مترينخ (١) بالضغط على الثوار ، أما فرنسا وإنجلترا فقد خشيتا من قيام حرب جديدة بين روسيا وتركيا ، خاصة وأن فرنسا كان يحكمها منذ عام ١٨٢٤ ملك متحرر هو شارل العاشر (٢) واتفق في الرأى مع قادة الأسطولين الإنجليزى والفرنسى في البحر المتوسط بأن وجود قوة بحرية يونانية أيضاً ستشكل ضمانة ضد القرصنة . وفي داخل إنجلترا بدأ حزب المحافظين يتخذ سياسة تحررية في أعقاب سقوط لورد كاسلريه ومجئ چورچ كاننج (٣) ذو العقلية الحرة والذى عين ستراتفورد كاننج سفيراً له لدى الباب العالى . وقد تأثر الرأى العام الإنجليزى في هذه الفترة بالفظائع التى ارتكبها إبراهيم باشا وبيعه اليونانيين كعبيد وما أشيع عن رغبته في إحلال المصريين محلهم ، كما تأثر الرأى العام أيضًا بالتضحية البطولية للورد بايرون في سبيل القضية اليونانية .

وكانت المهمة الأولى للدول الأوروبية هى تثبيت الحدود المستقبلية لليونان ووضعها كدولة ، وتوصلت روسيا وإنجلترا إلى التوقيع على اتفاق مبدئى في سان بطرسبرج في ربيع ١٨٢٦ لإيقاف المذابح والمصالحة بين اليونانيين والأتراك ، وكان المبدأ العام الذى أكدوا عليه هو ألا يحصل اليونانيون على الاستقلال وإنما يدفعون الجزية السنوية للسلطان ويتمتعون بالاستقلال الذاتى في إدارة شئونهم الداخلية . وفي الخريف طالب اليونانيون بتوسيع نطاق هذا الاتفاق وتوقيع فرنسا عليه ، وكان كاننج ، الذى توفى بعد وقت قصير ، قد

(١) هو مترينخ ونيبورج (١٧٧٣-١٨٥٩) مستشار النمسا الذى اشتهر بسياسته الرجعية ومعارضته للحركات التحررية في أوروبا .

أنظر : La Rousse , p . 1527

(٢) كان شارل العاشر ملكاً على فرنسا من ١٨٢٤ إلى ١٨٣٠ وهو شقيق لويس الثامن عشر وهو المسئول عن الإحتلال الفرنسى للجزائر ١٨٣٠م .

أنظر : La Rousse , p . 1239

(٣) كان چورچ كاننج وزيراً لخارجية إنجلترا ثم رئيسًا لوزرائها في ١٨٢٧ وتميز بالتحرر .

أنظر : La Rousse , p . 1217

أصر مبدئيًا على ضرورة توقيع معاهدة بهذا المعنى في لندن في يونية ١٨٢٧ بعد شهر من سقوط أثينا . وعلى هذا الأساس اتفق على أن تبذل الدول الثلاث وساطتها لدى الباب العالى ، فإذا رفض يقيمون علاقات دولية مع اليونانيين تتضمن تبادل القناصل والاعتراف بالمناطق التى تحت أيديهم كدولة مستقلة ، وقد وافق اليونانيون على هذا الاتفاق ولكن رفضه السلطان واعتبره تدخلاً سافراً من الدول الأجنبية فى شئونه الداخلية وتعدياً على حقوق سيادته ، فطلبت الدول عقد هدنة بين الطرفين وأرسلت روسيا أسطولها إلى البحر المتوسط لتلحق بأساطيل إنجلترا وفرنسا ، ومن جانبه رفض إبراهيم باشا الهدنة انتظاراً لأوامر السلطان ، ثم حاصرت أساطيل الدول الثلاثة الأسطولين المصرى والعثمانى فى خليج نفارين واتفق قادتها على ألا يبدأوا بإطلاق النيران إلا إذا بدأ إبراهيم فى حالة إصراره على عدم قبول الهدنة والرحيل إلى الإسكندرية . ولسوء الحظ أطلقت سفينة مصرية النيران على سفينة صغيرة كانت تحمل المفاوضين فردت عليها السفينة الفرنسية وبدأت المعركة التى انتهت بإغراق وتدمير أسطول إبراهيم باشا بالكامل ، وكانت هذه أسوأ كارثة بحرية تحدث للدولة العثمانية منذ موقعة ليبانتو . وقد ابتهجت إنجلترا وفرنسا لهذا العمل ، بينما اعتبرته النمسا كارثة مروعة ، ووصفه الدوق ولنجتون (١) الذى أصبح رئيسًا لوزراء إنجلترا بأنه حدث مفزع ، واستحق عليه الأميرال كودرنجتون وسام الفروسية الرفيع من الملك وليم الرابع ولكنه أقيل بعد فترة قصيرة من رئاسة الأسطول بعد أن تحقق النصر لليونانيين وكان فاتحة الطريق لتحررهم النهائي .

أما كابودستريا الرئيس الجديد للمجلس الوطنى ، فقد قام بجولة فى العواصم الأوروبية للحصول على الدعم والتأييد ، ثم عاد فى أوائل ١٨٢٨ إلى نوبليا للقيام بواجباته فى إعادة السلام إلى البلاد ، وبدأ بإرسال قواته إلى المناطق التى أخلاها إبراهيم باشا تأكيداً لإقامة دولته الجديدة عليها ، وحقق

---

(١) هو أرثر ولسلى ولنجتون (١٧٦٩-١٨٥٢) ، وكان رئيسًا لوزراء إنجلترا من ١٨٢٨ إلى ١٨٣٠ .

أنظر : La Rousse , p . 1781

فى ذلك نجاحًا جزئيًا ، ثم سعى إلى تأكيد قوته الشخصية بتعيين قوة حراسة وهى القوة الهللينية وجعلها تحت تصرفه ووعد بالدعوة لمجلس وطنى جديد لوضع شروط الدستور الجديد ، وبدأ يحكم من خلال هيئة سكرتارية تابعة له . ثم حصل الإنجليز على تعهد من محمد على بسحب قوات إبراهيم باشا البرية ، وتولت القوات الفرنسية مطاردة البقية الباقية منها فى تريبولتزا والمورة ، ثم أرجئت التسوية النهائية لتجدد الحرب بين روسيا وتركيا . وكان الروس يمارسون ضغوطًا دبلوماسية على الباب العالى منذ عدة سنوات ، بعد أن فرضوا عليه معاهدة أكرمان المهينة فى ١٨٢٦ والتى أكدت على شروط معاهدة بوخارست السابقة ووسعت نطاق بعض بنودها وحصلت بمقتضاها على بعض القلاع التركية فى آسيا ، وعلى إمتيازات كاملة على سكان مولداڤيا وولاشيا وعلى حقوق سياسية جديدة فى الصرب . وعندما فقد الأتراك أسطولهم فى نڤارين وأصبحت البحرية الروسية متفوقة فى البحر الأسود ، قرر القيصر نيقولا الأول (١) الدخول فى حرب مع عدو موسكو اللدود . وأثناء الاستعداد للحرب أخذ السلطان زمام المبادرة وأعلن الحرب على روسيا فى شتاء ١٨٢٧ .

وفى الربيع التالى خرج القيصر الروسى نيقولا بنفسه على رأس الجيش لعبور نهر بروث ، وبعد أن استولى على الولايتين حاصر عدداً من القلاع الواقعة على الطريق إلى البلقان متجهًا إلى استانبول عاصمة السلطان ، وقد قاومهم الأتراك من خلف الأسوار وسقطت ڤارنا بفعل الخيانة ، وتبعتها سلستريا ثم شوملا التى تعد مفتاح الممرات الجبلية . وفى العام التالى كان على رأس القوات الروسية المارشال دييبتش Diebitsch الذى لقبه البارون مولتكة Moltke ، بعد نجاحاته المذهلة بسابالكانسى Sabalskanski وتعنى « عابر البلقان » . وخاض هذا القائد موقعة رئيسية فى سهل كولوتسكا

(١) كان نيقولا الأول قيصراً على روسيا من ١٨٢٥ إلى ١٨٥٥ وهو ابن القيصر بول الأول وتوفى قبل نهاية حرب القرم .

أنظر : La Rousse , p . 1559

Kulewtska الواقع قبالة شوملا وهزم فيها الأتراك وشتت شملهم وفقدوا كل مدفعيتهم بأقل قوة روسية واتخذ بعد ذلك القرار الجرئ بعبور البلقان دون انتظار لإخضاع قلعة شوملا بحاميتها ودون التخلص من بقايا المدافعين عن كولوتسكا وبينما كان القائد التركى رشيد باشا يجهز دفاعاته ، ترك القائد الروسى جزءاً صغيراً من قواته لمواجهته ، وسار ببقية الجيش لمدة تسعة أيام فى جبال البلقان وعبر ممراتها وفتح ممراً إضافيًا للحصول على الإمدادات من الأسطول الروسى فى البحر الأسود ، وكان يضع فى اعتباره حماية الفلاحين المسيحين الذين رحبوا بالروس عند ظهورهم أمام أسوار أدرنة عاصمة الأتراك فى أوروبا ، وقد سلمت حاميتها بدون طلقة مدفعية واحدة لأن ظهور الجيش الروسى فجأة أذهلها لأنه لم يحدث من قبل أن عبر هذه الممرات الجبلية أى من الجيوش المقاتلة . وقد أعد ديبيتش نفسه لجميع الاحتمالات السيئة مثل مواجهة مفاجآت من جانب الأتراك بعد هذا العبور القاسى والمعاناة فى الجبال واحتاط للأمر وبرغم توقع الفشل قرر مراصلة السير إلى استانبول ثم إلى المضايق وقطع عدة أميال فى هذا الطريق . وفى العاصمة ساد الفزع والهلع ودعا السلطان الأتراك إلى التطوع لتقوية وسائل الدفاع عن المدينة ، وأخرج الراية المقدسة وأعلن عن عزمه قيادة قواته بنفسه ، وظهر أمام الشعب ليس على صهوة الجواد مثل أجداده ولكن على عربة وبدون الترتيبات المألوفة فى موكبه مما ثبط من عزيمة شعبه . وقد أشار عليه الوزراء بالجنوح إلى السلم وكذلك سفيرى إنجلترا وفرنسا فرضخ ، وبذلك أنقذ ديبيتش من كارثة محققة وأرسل فى خريف ١٨٢٩ وفداً إلى معسكره للتفاوض حول معاهدة أدرنة .

وقد وافق المارشال الروسى على الشروط المعتدلة التى عرضها عليه الأتراك ، وقبل باسم القيصر التخلى عن التوسع الإقليمى والتنازل عن جميع المناطق التى استولى عليها خلال الحرب ولكنه احتفظ بجزء من ولاشيا وبمدخل الدانوب عند منطقة سولينا Sulina التى تتحكم فى النهر ، وبذلك لم يعد النهر يشكل الخط الدفاعى الأول للإمبراطورية العثمانية . وبرغم أن السلطان استرد ولاشيا ومولداڤيا إلا أنهما تمتعتا بالاستقلال الذاتى وأصبح من حقهما إقامة جيوش خاصة بهما ويحكمهما هسبودارات من أبنائهما مدى الحياة بدون أى تدخل من جانب الأتراك فى شئونهما الداخلية ، مع تهجير

غالبية السكان المسلمين إلى خارجهما . كما تمتعت الصرب باستقلالها ، وفى آسيا استرد السلطان قارص وأرضروم وبايزيد ولكن احتفظ الروس بجورجيا وبعض أجزاء من القوقاز .

وبالنسبة لليونان التى انسحبت منها القوات المقاتلة قبل السلطان الشروط السابقة التى رفضها فى معاهدة لندن ، وجميع التسويات التى فرضتها عليه الدول الأوروبية الثلاثة ، ويعنى هذا قبوله قيام دولة يونانية مستقلة تماماً عن سيادته . وبعد مداولات مع اليونانيين حول الحدود ، تقرر بصفة نهائية فى عام ١٨٣٠ تأسيس مملكة يونانية ضمت العديد من الجزر باستثناء كريت وأصبحت تثاليا وألبانيا هى ولايات الحدود بين الدولة الجديدة وبين السلطان .

وخضعت الدولة اليونانية الجديدة لنظام الملكية الوراثية وأصبح حاكمها يحمل إسم « ملك اليونان » على أن يتم اختياره من الأسرات الحاكمة فى بريطانيا أو فرنسا أو روسيا . وقد وقع الاختيار أولاً على الأمير ليوبولد ابن الملك چورج الرابع ، ولكن رفض كابودستريا هذا الاختيار فى البداية لأنه كان يتطلع إلى الحكم ، ثم عاد ورشح ملك بلچيكا ، ولكن بعد اغتيال كابودستريا فى عام ١٨٣١ على أيدى أحد أعدائه لروحه الدكتاتورية ، أصبح الأمير أوتو Otho ملكاً على اليونان وهو ابن الملك الهللينى لودفيج فى بافاريا ، واعترف به السلطان كأول ملك هللينى على اليونان لجيل من الزمان .

ولا شك أن هذه الخسائر الفادحة خلال عقد واحد كانت بمثابة الكارثة للإمبراطورية العثمانية ، وترجع إلى سوء حكم السلطان وكراهيته وإلى ضغوط الدول الأوروبية الثلاث والشروط التى فرضوها عليه والتى كلفته فقدان أسطوله وفقدان اليونان وغيرها من الأقاليم العثمانية ، وهذا بلا شك دفعه إلى إتباع سياسة إصلاحية غيرت شكل البناء السياسى والإجتماعى للدولة .

الفصل الحادى والثلاثون

وجد السلطان محمود الثانى أنه من الأفضل عدم البدء فى برنامجه الإصلاحى فى بداية حكمه ، وبالفعل أرجأه لسبعة عشرة عامًا حتى يتمكن من القضاء على المشكلات العديدة التى واجهته فى الداخل والخارج وكان أبرزها الثورة اليونانية . وكان الهدف من الإصلاح هو نقل تركيا من دولة من دول العصور الوسطى تقوم على أساس دينى إلى دولة دستورية متحضرة تقوم على أسس علمانية ، والقضاء على النظام التقليدى وإقامة أنظمة حديثة أكثر مرونة تشبه أنظمة أوروبا . وكان من أهداف السلطان أيضًا إستعادة سيادته لمواجهة التحديات القائمة سواء فى العاصمة أو فى الولايات ، وقد وضع نصب عينيه تجربة سلفه سليم الثالث وجعلها النموذج الذى يجب أن يحتذى . وقد بدأ السلطان بمحاولة تقوية السلطة المركزية خاصة وأن الدولة شهدت تحللاً واضحًا فى تلك الفترة وتدخلت الدول الأوروبية فى شئونها الداخلية ، وكان يسير بتؤدة وبخطوات محسوبة فتخلص من الولاة الثائرين ثم التفت إلى أمراء الوديان فحاول وضع حد لتجاوزاتهم والقضاء على إمتيازاتهم ونجح فى إستعادة أراضى الدولة من القوى المحلية التى سيطرت عليها فى الأناضول والرومللى وأبرزها قوة على باشا حاكم يانينا .

وأصبحت الخطوة التالية أمام السلطان هى مواجهة أقوى أعدائه وهم فرق الانكشارية مصدر الفساد والاضطرابات فى البلاد ، فقد أدرك أن مشروعات الإصلاح لن تحقق تقدمًا طالما بقيت الانكشارية ، وبدأ فى صيف ١٨٢٦ تنفيذ مخططه وتحديداً بعد سقوطه قلعة ميسولونجى (١) فى أيدى قوات إبراهيم باشا ابن محمد على حيث كانت هذه القلعة شاهداً على تفوق القوات الجديدة التى استخدمها واليه محمد على فى مواجهة الثورة اليونانية ، وجعلت السلطان يزداد تصميمًا على إقامة جيش جديد مدرب ومسلح على النسق الغربى لينقذ البلاد من حالة الإنهيار القائمة . وقد بدأ محمود فى إجراء

(١) ميسولونجى مدينة يونانية تقع على البحر الأيونى واشتهرت بالمقاومة البطولية فى الحرب اليونانية .

أنظر : La Rousse , p . 1535

إصلاحات موسعة فى فرق المدفعية حتى يمكن استخدامها فى القضاء على فرق الانكشارية ، كما أكثر من الاعتماد على فرق الحرس الخاص على حساب فرق الانكشارية ، ثم جعل على رأس فرق المدفعية مجموعة من الضباط بقيادة قائد مغوار وشرس حمل لقب « الجحيم الأسود » وجعله على أهبة الاستعداد دائمًا وصار مقرها على ضفاف البوسفور . وأعقب السلطان هذا العمل بأن طلب من كبار رجال الدولة المؤيدين لبرنامجه الإصلاحى السعى لإصدار فتوى بإنشاء فرق عسكرية جديدة مدربة ومجهزة على النسق الأوروبى .

وقد تأثر محمود بتجربة السلطان سليم الثالث الذى أسس من قبل جيشاً جديداً ولكنه أراد أن يظهر الفرق الجديدة بعثًا للنظام العسكرى القديم أيام السلطان سليمان القانونى فأعلن أنها ستدرب على أيدى ضباط مسلمين أكفاء وليس للمسيحيين أو الأوروبيين علاقة بها .

ونجح بذلك فى الحصول على فتوى من المفتى والعلماء بأهمية الحاجة إلى مثل هذه الفرق لمحاربة الكفار على أن يتم إصلاح فرق الانكشارية أيضًا بأن تقدم كل فرقة ١٥٠ رجلاً ليتم تدريبهم على النسق الحديث مع الفرق الجديدة . وكما توقع السلطان رفضت الانكشارية تنفيذ هذا الأمر وقلبوا القزانات واستعدوا للثورة كما فعلوا فى عام ١٨٠٧ حينما تجمعوا فى ميدان الخيل وطالبوا برؤوس الوزراء ، ولكن السلطان كان قد استعد لهم هذه المرة وكانت قواته الخاصة وفرق المدفعية فى حالة جيدة وغالبية الشعب تؤيد إصلاحه فخرج إليهم بنفسه حاملاً راية الرسول (ﷺ) وحوله رجال الدين وكانت الانكشارية تملأ الطرقات الضيقة حول القصر السلطانى وفتحت النيران عليهم وقطع عليهم خط الرجعة فحاولوا الإحتماء بثكناتهم من المذبحة المنتظرة ولكن السلطان دمرها عليهم وقتل فيها ما لا يقل عن ٤٠٠٠ جندى . وخلال نصف الساعة تم القضاء على النظام العسكرى التقليدى الذى سارت عليه البلاد لخمسة قرون والذى طالما أثار الرعب فى أوروبا بنجاحاته وساهم فى ذات الوقت فى إنهيار الإمبراطورية ، ثم أكمل السلطان هذا العمل بقتل كل من تبقى من الانكشارية فى الولايات المختلفة وكان عددهم

بالآلاف . وفى نفس اليوم أعلن إلغاء فرق الانكشارية وألقابهم وشاراتهم ، وبعد شهر قام بحل فرق البكتاشية المتصوفة التى كانت تؤيد الانكشارية لعدة قرون وتساند ثوراتهم ، وأعدم قادتها ودمر زواياها ونفى مؤيديها ، وأطلق على هذا العمل الإصلاحى « الواقعة الخيرية » تيمنًا بالقضاء على هذه الفرق العسكرية الضالة التى طالما تسببت فى إشعال الثورات والفتن داخل حدود البلاد ، ثم أعلن عن تكوين فرقه الجديدة التى أصبحت تحمل إسم « عساكر محمد المنصورة » .

وهكذا وبعد سنوات من الاستعداد والدراسة صدر هذا القرار الحكيم الذى استلهم الماضى لمستقبل أفضل ، وبدأ عهد جديد من الاستنارة والتقدم نحو مجتمع متحرر متحضر بهدف خلق دولة تركية حديثة وثيقة الصلة بالحضارة الغربية فى الأجزاء المتبقية منها وهى مساهمة جادة لإطالة عمر هذه الدولة . وكانت الممتلكات السلطانية فى أوروبا وآسيا فى حاجة إلى تقوية القبضة عليها لمواجهة التهديدات الخارجية ، فوجد السلطان أنه ينبغى وضع مبادئ جديدة لنظام علمانى يقوم على الفصل بين مؤسسات الدولة وبين الدين ، وكان هذا هو جوهر سياسته الداخلية . وكان أول عمل عسكرى عاجل قام به السلطان هو التخلص من الانكشارية ثم اتبعه بسرعة بتأسيس الجيش الجديد واستبدل منصب السر عسكر بمنصب أغا الانكشارية ، وهو لقب كان مستخدمًا فى الماضى ، وأصبح صاحبه مسئولاً عن قيادة الجيش ووزيراً للحربية فى ذات الوقت ومسئولاً مسئولية خاصة عن الفرق الجديدة ، وورث من أغا الإنكشارية مسئولية الحفاظ على الأمن العام وواجبات الشرطة فى استانبول أى أنه صار مسئولاً بشكل كامل عن نظام الشرطة وصار من واجباته الأساسية .

وتقرر أيضًا وضع اثنى عشر ألفًا من جنود الشرطة فى العاصمة ونشر أعداد أخرى فى الولايات على أن يظل الجميع فى الخدمة لإثنى عشر عاماً .

وحتى يستكمل السلطان إصلاحاته العسكرية ويجعل من جيشه الجديد قوة مؤثرة وفعالة أخذ قسطًا من الراحة من الحروب وكذلك فعل الروس الأعداء التقليديين للعثمانيين بعد أن أدركوا أن هذا السلطان النشط يختلف

عن سابقيه فتوصل الطرفان إلى التوقيع على معاهدة أدرنة (١) ، وتفرغ السلطان بعدها لتدريب وتسليح جيشه الجديد وكان يضع نصب عينيه تجربة محمد على باشا وجيشه الحديث القوى . والذى كان المثل المحتذى أمامه ، وقد طلب السلطان من واليه فى عام ١٨٢٦ إمداده باثنتى عشر خبيراً للإستعانة بهم ولما رفض طلبه اتجه إلى أوروبا ، ولكنه لم يتجه إلى فرنسا لموقفها المؤيد والمتعاطف مع الثوار اليونانيين ولدعمها مؤخراً لمحمد على وكذلك إنجلترا التى تعاطفت مع الثورة اليونانية كما رفض عرضاً فى ١٨٣٤ من لورد بامستون Palmerston (٢) لإرسال فريق لتدريب فرقه العسكرية ، وأخيراً أرسل ثلاثة ضباط إنجليز إلى استانبول لتقديم المشورة فى إعادة تنظيم الجيش بعد أن أرسل بعض الطلبة الأتراك للتعلم فى المدارس العسكرية الإنجليزية . وفى عام ١٨٣٨ أرسلت بعثة عسكرية بحرية إنجليزية ولكن إنجازاتها كانت ضئيلة بسبب موقف الاستخفاض والاحتقار الذى اتخذه منها الأتراك . وأخيراً لجأ السلطان إلى البروسيين لتحقيق غرضه ، وكان متأثراً فى هذا الصدد بشخصية ضابط صغير برتبة ملازم يدعى هلموت ڤون مولتكة Helmut von Moltke (٣) والذى استخدمه كمستشار لدفاعات الإمبراطورية ولتنظيم الجيش وتدريبه . ثم بدأ تبادل طلاب المدارس العسكرية والضباط بين تركيا وبروسيا والنمسا وبدأ يظهر معه التأثير الألمانى فى القوات المسلحة التركية

---

(١) وقعت معاهدة أدرنة فى عام ١٨٢٩ بين روسيا والدولة العثمانية .

أنظر حول تفصيلاتها : عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٨٠ .

(٢) كان بامستون وزيراً لخارجية إنجلترا ومن أشد المعارضين لسياسة محمد على وطموحاته .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ مصر الحديث والمعاصر .

(٣) هلموت ڤون مولتكة (١٨٠٠-١٨٩١) من كبار الضباط البروسيين ، وصار قائداً عامًا للجيش البروسى من ١٨٥٧ إلى ١٨٨٨ ، وخاض المعارك العسكرية أثناء الحرب الألمانية الفرنسية ١٨٧٠ .

أنظر : La Rousse , p . 1537

والذى استمر وتزايد حتى القرن العشرين . ولكن يبدو أن مولتكة لم يكن من المعجبين بشخصية السلطان محمود الثانى بعد أن اكتشف أنه أدنى من بطرس الأكبر ولا يشبهه ، كما تأثر مولتكة بكراهية واحتقار الأتراك للمستشارين والفنيين العسكريين الأوروبيين وقد سجل فى مذكراته قائلاً : « كان الضباط الأتراك على درجة من الأدب والالتزام إلى حد ما ، ولكن عامة الناس كانت نظرتهم إلينا مختلفة فلم يبادلونا التحية ولم ينظروا إلينا باحترام ، وكانت النسوة والأطفال يوجهون إلينا السباب والإهانات ، فالجندى التركى يطيعنا ولكن لا يحترمنا ، والإزدراء والاستخفاف بنا كان منتشراً بين كافة الطبقات ، وكذلك كان السرعسكر يمارس سلطات قوية علينا ويعرضنا لمضايقات عديدة » .

وكانت الخطوة التالية التى قام بها محمود هى محاولة الحد من سلطة العلماء (رجال الدين) كما فعل مع الانكشارية حيث كانوا يمثلون بؤرة قوية لمعارضة الإصلاح ولسلطته المطلقة ، ولم ينس أن العلماء هم الذين تحالفوا مع الانكشارية وأسقطوا سليم الثالث وأجهضوا إصلاحاته ، ومن ثم وضع فى الاعتبار ضرورة بناء حكومة جديدة تخلو من سيطرة العلماء ، وبدأ بمحاولة فصل السلطة الدينية عن الشئون العلمانية ، وكان أمامه الصدر الأعظم وسلطته المطلقة فى المجال الإدارى ، وشيخ الإسلام ومركزه القوى على السلطان نفسه وتزايد قوته فى وقت ضعف الدولة ، ولذلك قرر أن يجعل منهما عناصر استشارية فقط مع كامل مسئولياتهما ونزع السلطة المطلقة منهما . فأصبح شيخ الإسلام يختص بالنواحى الدينية فقط ولم يعد رئيساً للهيئة الدينية الحاكمة كما كان من قبل ، وحتى فى الأمور الدينية صار رأيه استشاريًا فقط ، وأقام السلطان سلطة قضائية مدنية منفصلة تختص بالقضايا العلمانية أو غير الدينية ، وكان هدف السلطان هو القضاء على نفوذ العلماء ورجعيتهم وكراهيتهم ومقاومتهم للإصلاح ، وبالفعل لم يعد لهذه الهيئة تأثير يذكر على السلطان كما كان من قبل .

ومن ناحية أخرى جعل السلطان التعليم تحت إشرف وزارة التعليم ، والوظائف الشرعية من اختصاص وزارة العدل ، ووضع رقابة صارمة على إدارة الفتوى وصارت القدرات الشخصية للمفتى الأكبر (شيخ الإسلام) تؤخذ فى الاعتبار . أما إدارة الأوقاف التى كانت تتمتع بمزايا كبيرة من خلال

الأراضى الموقوفة والمؤسسات الدينية فى المدن بعوائدها الضخمة فقد خضعت أيضًا لرقابة قوية ولم تعد تحت هيمنة العلماء الذين كانوا يتولون جمع أموال الأوقاف وإدارة شئونها وبالتالى شكلوا قوة إقتصادية فى هذه المؤسسات الدينية .

وبعد أن فرغ السلطان من الإصلاحات فى المجالين العسكرى والدينى اتجه إلى النظام الإدارى وحاول أن يجعله علمانيًا على النظام الأوروبى حتى يجارى بعض الطبقات العثمانية التى تأثرت بالحضارة الغربية . وكان أول إجراء قام به هو إلغاء منصب الصدر الأعظم الذى ظل على مدى قرنين من الزمان يمثل سلطة مطلقة تحت إسم الباب العالى ، وقسم سلطاته بين وزارتين منفصلتين هما : وزارة الخارجية ووزارة الشئون المدنية والتى تحولت فيما بعد إلى وزارة الداخلية . كما تحول منصب الدفتردار إلى وزارة تحمل إسم وزارة المالية ، وفوق الجميع تواجد الصدر الأعظم ولكن صار إسمه الوزير الأول ويقوم بدور الواسطة بين السلطان والحكومة ، ولكن عاد استخدام اللقب الأول بعد فترة قصيرة . وأصبح الوزراء يعقدون إجتماعاتهم فى مجلس يحمل إسم « مجلس الوزراء برئاسة الوزير الأول ومسئولين عن كل شئون الدولة ويعاونهم المجالس الاستشارية فى وضع الخطط واتخاذ القرارات التى تعرض على السلطان . وكان أهم هذه المجالس مجلس الشئون العسكرية والمجلس الأعلى للشئون القضائية . وفى البداية كانت الوزارات الأربعة التعليم والتجارة والزراعة والصناعة تتبع مجلسًا استشاريًا يحمل إسم « مجلس المنافع العامة » . وبرغم وجود هذه الأنظمة الجديدة فقد ظلت الرتابة العثمانية القديمة والإمتيازات القديمة قائمة ، ولم تتناول التغييرات الجديدة سوى المظهر وظل الجوهر كما هو .

وفى الولايات لم تكن هناك أصداء واسعة لإصلاحات السلطان المركزية باستثناء إلغاء بعض النظم المعتمدة على العادات والتقاليد المتوارثة وظلت سلطة السلطان مطلقة . ومن الإجراءات التى اتخذت إحصاء الذكور فى ولايتى الأناضول والروملِّى باستثناء الولايات العربية وعمل مسح للأراضى الزراعية فيهما لتسجيل ملاك الأراضى ، وكان الهدف من هذه الإجراءات تسهيل عملية التجنيد للجيش الجديد وجمع الضرائب لتمويله ، وأخيرًا قام السلطان

بإلغاء نظام التيمار الذى ساهم فى الماضى فى إعاشة فرق السباهية وتجهيزها لفرق الخيالة زمن الحرب . فمنذ نهاية القرن السادس عشر إنهار نظام الفروسة الإقطاعية مع تزايد الفرق النظامية التى تحصل على مرتباتها من الخزينة السلطانية ، وعادت تبعًا لذلك أراضى التيمار إلى ملكية السلطان ثم تحولت إلى أراضى خراجية تجبى منها الضرائب ، ولكن كانت هناك بعض بقايا لهذا النظام القديم فى الأناضول والرومللى فقام السلطان بإلغائها أثناء إلغاء فرق الانكشارية ، وبالتالى سمحت له هذه الإجراءات بزيادة إحكام قبضته على جميع ولايات الإمبراطورية .

وفى المجال القانونى أدخل السلطان تجديدات وتحسينات جوهرية فكانت جميع القوانين فى الدولة تستمد من الشريعة الإسلامية وتعتمد على سلطة السلطان بصفته الخليفة وهذه لم تكفل المساواة للجميع فأدخل مصطلح « العدالة » التى تكفل الحقوق المتساوية للجميع أمام القانون ولذلك لقب بالسلطان « العادل » وأسس مجلساً للعدل منفصلاً عن المجالس التشريعية لتطبيق الإجراءات القانونية على كل من يتعدى على الحريات ويخرج عن حدود مسئولياته من الموظفين الرسميين . وهذا يعكس رغبة السلطان فى جعل الوظائف نوعًا من الخدمة العامة وتصبح تحت سلطة الحكومة وجعل هناك فروقًا بين القانون العام والقانون الجنائى ، وبين قوانين الشريعة والقوانين التى تخص الشئون العلمانية . ولكن فيما يتعلق بالأحوال الشخصية فقد ظل التشريع الإسلامى هو السائد بلا منازع ، فلا تغيير فى قوانين الزواج والطلاق والملكية والميراث ووضع المرأة والعبيد ، وظل الدين هو أساس القانون ولم يستطع السلطان المساس به ، وظل الرجال يعيشون فى الداخل وفق نظام العصور الوسطى ، أما فى الخارج فقد أخذت تقاليد العصور الوسطى فى التضاؤل . ويعد السلطان محمود الثانى رائد التحديث فى الدولة العثمانية فقد ساهم بإصلاحاته المتعددة فى حماية الشعب العثمانى وضمان حقوق الرعايا وتحسين أوضاعهم المعيشية إلى الأفضل فهو حامى العقيدة والبشر والساعى إلى تغيير حياتهم بشكل مرضى .

وقد تطلبت هذه الاتجاهات المستنيرة من السلطان العمل على تغيير نظام

التعليم وإبعاد سيطرة العلماء عليه فقد كان جوهر التعليم فى المدارس الدينية (الكتاتيب) دينياً ويعتمد على التلقين الشفهى ويركز على العبادات وواجبات البشر تجاه الله والمجتمع ، وهذا بلا شك ساهم فى انتشار الأمية ، ولذلك جعل السلطان التعليم الإبتدائى إلزامياً فى عام ١٨٢٤ ورفع يد شيخ الإسلام عنه ، ثم وجد أن هناك حاجة ماسة إلى مدارس عالية لتعليم المهارات الفنية المرتبطة بالنظام العسكرى حيث كان الجيش فى حاجة إلى عناصر جديدة متعلمة من رجال المدفعية والمهندسين ، فأعاد افتتاح مدرستى الهندسة البحرية والهندسة العسكرية اللتين أسستا منذ أواخر القرن الثامن عشر ، وفى ١٨٢٧ ، وبرغم المعارضة الشديدة ، أرسل مجموعة صغيرة من الطلبة فى بعثات إلى باريس مقتدياً بمحمد على ، ومجموعات أخرى إلى مختلف العواصم الأوروبية وهؤلاء شكلوا باكورة البعثات التركية إلى أوروبا والتى توالت بعد ذلك ، وقد لعب هؤلاء الطلاب عند عودتهم دوراً واضحاً فى تطوير وتحديث البلاد . كذلك أسس السلطان مدرسة دائمة لتدريب الضباط وتخير معلميها من بين المبعوثين من الضباط والجنود ووضع بذلك أساس هيئة من الضباط فى الجيش التركى لجيل تال . ووضع السلطان أيضاً أساس مدرسة للعلوم العسكرية على غرار أكاديمية نابليون العسكرية فى سانت سير ، وبرغم أن المعلمين بها كانوا إما فرنسيين أو بروسيين فإنها مثلت تقليداً عسكرياً جديداً استمد جذوره من المجتمع التركى ، ونظاماً تعليمياً متقدماً فى المجالات الثقافية والإجتماعية والسياسية أفاد الأجيال التركية التالية . وأسس السلطان أيضاً مدرسة للموسيقى العسكرية لتدريب فرق قارعى الطبول والبواقين على النظام الغربى وكان من بين معلميها دونيزتى باشا Donizetti Pasha وهو شقيق لملحن إيطالى شهير .

ومن الأعمال الجليلة التى قام بها السلطان إنشاء مدرسة سلطانية لتدريب الأطباء والجراحين اللازمين للجيش الجديد ، كما تم تدريبهم أيضاً على تقديم الخدمات للمدنيين تحت رعاية المدارس الدينية فى مسجد السليمانية وكان تعليمهم يعتمد على كتابات جالينوس وابن سينا .

وكانت المؤسسة الطبية التى أسسها محمود هى أول مدرسة فى تركيا

تقدم التعليم المدنى الابتدائى والثانوى ، وفى ١٧٣٨ أعيد تنظيمها ونقلت إلى جالاطة سراى فى بيرا ، ثم إلى جناح مدرسة العبيد فى القصر القديم وزودت بعدد من المعلمين الأوروبيين وكان التعليم فيها باللغتين التركية والفرنسية ، وقد حضر السلطان بشخصه عملية الافتتاح ووجه خطاباً للطلبة أوضح لهم أنهم سيدرسون الطب باللغة الفرنسية ، ولكن ليس بهدف اكتساب اللغة الفرنسية ولكن بهدف تعلم الطب ورويداً رويداً سيدرسونه باللغة التركية ، وهو بذلك اعتبر دراسة الطب بالفرنسية مسألة مرحلية أو مرحلة انتقالية وبالفعل حلت التركية محل الفرنسية فى المرحلة التالية وذلك من خلال الكتب الأجنبية العلمية وغيرها من الكتب التى ترجمت بواسطة الطلاب الأتراك . وهكذا كانت هذه نهاية الطب التقليدى فى تركيا وبداية الطب الحديث ، حيث مثلت المدرسة الطبية فى جالاطة سراى تحدياً لتقاليد العصور الوسطى الإسلامية عن طريق إدخال مناهج حديثة مثل علم التشريح الذى عارضه العلماء فاستخدمت نماذج تشريحية شمعية فى البداية ثم سمح للطلاب باستخدام نماذج آدمية من جثث العبيد النوبيين .

وبمرور الوقت اتسع مجال هذه المدرسة لتغطى مساحة واسعة من الدراسات العلمية والثقافية والزراعية ، واستخدمت اللغة الفرنسية للتعليم فى مجالات التاريخ الأوروبى والأدب الأوروبى وحلت محل اللغة الفارسية التقليدية . وهكذا وجه السلطان محمود اهتماماته للنواحى التعليمية العسكرية والمدنية وللفروع التعليمية المساعدة ، حيث كانت هناك حاجة للموظفين المدنيين لإدارة مؤسساته الحكومية ، وهذا الاتجاه الجديد فى التعليم كان يستمد أساساً من التأثيرات الغربية ، وانعكس ذلك فى التقرير غير التقليدى الذى أصدره مجلس المنافع العامة فى ١٨٣٨ وجاء فيه : « تهدف المعرفة فى العلوم الدينية إلى الخلاص فى الآخرة ، ولكن العلوم الدنيوية تؤدى إلى تحقيق الكمال والتقدم للبشرية فى الدنيا ، وعلى سبيل المثال يحقق علم الفلك التقدم فى مجال الملاحة البحرية ويؤدى إلى تنمية النشاط التجارى ، وتؤدى العلوم الرياضية إلى التقدم فى النواحى العسكرية وكذلك الإدارة العسكرية . وبعد مناقشة كل مشروع فى مجال التنمية الزراعية والتجارية والصناعية وصلت اللجنة الاستشارية إلى نتيجة مؤداها أنه لا يمكن الاستغناء عن وسائل

العلم الحديث وأن اكتساب المعرفة فيه هو السبيل لمعالجة العيوب ومن ثم فلابد من إيجاد نظام إدارى جديد فى المدارس » .

وكانت المدارس المقصودة فى تقرير اللجنة هى المدارس الابتدائية وقد طالبت بجعل التعليم فيها علمانياً وقد لقى هذا الأمر معارضة شديدة من شيخ الإسلام ولذلك استمر التعليم الابتدائى فى جوهره دينياً حتى القرن العشرين .

وأمام معارضة العلماء لجأت اللجنة إلى تطبيق إقتراحاتها على نوع جديد من المدارس يدرس بها تلاميذ أكبر سناً من تلاميذ المرحلة الابتدائية وأطلق عليها « المدارس الرشدية » فى محاولة لملأ الفراغ بين التعليم الدينى الأولى والتعليم العلمانى العالى . وكان التقدم بطيئًا فى هذا المجال حيث أنشئت مدرستان جديدتان فقط وألحقتا بمسجد السلطان أحمد ومسجد السليمانية وأدرجتا ضمن ميزانية التعليم فى عهد السلطان محمود ، وكانت طبيعة المناهج بهما تختص بقواعد اللغة والأدب لأن الهدف منها كان إعداد خريجين للوظائف العامة .

وكانت هناك عقبة كؤود فى طريق هذه الإصلاحات وهى اللغة ، فإصلاحات محمود لإدخال الإدارة الفرنسية والنظام الاجتماعى الغربى إلى المجتمع الاسلامى واجهت جهل الناس باللغات الغربية ، حيث لم تكن هناك سوى قلة من عهد سليم الثالث ممن أجادوا اللغات الغربية بتشجيع منه ، أما العناصر اليونانية التى عملت فى مجال الإدارة فقد أبعدت منذ قيام الثورة اليونانية ، وتطلب الأمر عناصر جديدة من المسلمين لتحل محلها وخاصة فى مناصب المترجمين فى إدارة الباب العالى ، وكان الصدر الأعظم يضطر إلى إسناد هذه الوظائف إلى معلمى الرياضيات المسيحيين ، ولكن تدخل السلطان وقرر إنشاء فصول لتعليم الترجمة فى البلاط السلطانى ثم تطورت إلى مدرسة لتعليم اللغات الأجنبية . واتجه السلطان بعد ذلك إلى بعث الخطط الإصلاحية للسلطان سليم الثالث والتى لم تكتمل ، فقام فى ١٨٣٤ بتكوين هيئة دبلوماسية تركية مسلمة وكلف أعضاء البعثات الدبلوماسية بتعلم اللغات الأجنبية للإندماج فى المجتمع الغربى واستيعاب المؤثرات الحضارية الغربية ، وبالتدريج حرم على غير المسلمين شغل الوظائف الدبلوماسية وخاصة العليا

منها ، وقد ساهم هذا فى تقدم وتطور الخدمة الدبلوماسية الخارجية خلال الخمسين عامًا التالية وخرج من بين هذه العناصر صفوة الأتراك المستنيرين الذين قاموا بأدوار فاعلة فى الشئون السياسية للبلاد .

ورغبة من السلطان فى إيجاد وسائل اتصال بينه بين أفراد المجتمع العثمانى أمر بإصدار أول صحيفة باللغة التركية فى استانبول مع ترجمة باللغة الفرنسية ، وكانت تحمل إسم « المرشد العثمانى » وكانت تصدر للموظفين الرسميين ليطلعهم على سياساته ونشاطاته . وأعقب هذا العمل بإدخال الخدمة البريدية فى ١٨٣٤ وجعل لها إدارة مسئولة وانتشرت فروعها فى جميع أنحاء البلاد وشغل وظائفها الموظفون الأتراك واختصت بتسليم وتسجيل جميع المراسلات ، وافتتح السلطان بنفسه أول خط بريد منتظم بين سكوتارى وأدرنة وصار باكورة لخطوط بريدية أخرى . وإذا كانت الإصلاحات التى قام بها السلطان فى المجالات العسكرية والقضائية والإدارية بطيئة التقدم فإن ذلك يرجع إلى صعوبة نقل الطابع الغربى كلية إلى دولة شرقية وتحويلها إلى دولة حديثة فى وقت قصير .

وفى المجال الاجتماعى حدث تغير فى ملامح الحياة الإجتماعية واصطبغت بالصبغة الغربية ، وقد بدأ السلطان السير فى هذا الطريق بإتباع أساليب أوروبية داخل البلاط السلطانى حيث أصبح يتنقل بين ضيوفه مرحبًا بهم ويتحدث معهم ويرحب بنسائهم أيضًا أى صار يقابل الناس بشكل مباشر ولا ينعزل عنهم أو يجلس خلف ستار كما كان يفعل من قبل ، واتبع تقليدًا جديدًا آخر بأن جعل وزراءه يجلسون فى حضرته ولا يقفون كما كان فى السابق وأسس مكاتبهم بالآثاث الأوروبى واختفت الوسائد والآرائك وحلت محلها المقاعد والمناضد ، وعلى خلاف التقاليد الإسلامية علقت صورة زيتية ضخمة للسلطان فى المكاتب . كذلك لفت السلطان الأنظار إلى ضرورة تغيير الكثير من العادات المتوارثة مثل إطالة اللحى وشجع على إرتداء الأزياء الأوروبية الحديثة ، وبدأ بإدخال الزى الأوروبى المكون من سراويل قصيرة وقمصان ضيقة وأحذية طويلة إلى شباب الجيش الجديد ، وصارت هذه العادات والأزياء الغربية مقبولة ومرضيًا عنها ولم تشعل تمردًا أو ثورة كما حدث منذ عشرين عامًا فى عهد سليم الثالث وأدت إلى عزله ، فلم ينظر الجندى العثمانى إلى

هذه الملابس الضيقة على أنها علامة على الكفر والانحطاط بل تقبلها بروح جديدة .

وقد استبدل السلطان أيضاً الطربوش بغطاء الرأس الإسلامى التقليدى (العمامة) ، واستخدم غطاء للرأس فى قواته العسكرية وهو الذى استخدمه من قبل السلطان سليم الثالث فى فرق النظام الجديد وكان مصنوعاً من اللباد ويحمل إسم سوبارة Subara وهو مخروطي الشكل ، ثم استبدله فى عام ١٨٢٨ بالطربوش المغربى المنتشر فى شمال أفريقيا وقد استحسنه العلماء ولم يعترضوا عليه برغم أنهم شككوا فى أصوله الإسلامية لبعض الوقت ، ولكن عندما حاول السلطان إضافة جزء أمامي لهذا الغطاء على شكل حافة جلدية لحماية عيون الجند من أشعة الشمس رفض العلماء هذا التعديل لأنه يعوق الجندى عن أداء الصلاة بالشكل الصحيح (أى ملامسة الجبهة للأرض) . وقد انتشر استعمال الطربوش العثمانى بين المدنيين والعسكريين على السواء بعد أن صدر مرسوم سلطانى بتعميمه فى ١٨٢٩ بين سائر الموظفين الحكوميين . وعلى ذلك أصبح الزى القديم والعمامة علامة على الوظيفة الدينية وصار زياً رسمياً لطبقة العلماء (رجال الدين) . كذلك أدخلت بعض التعديلات على أزياء العناصر المسيحية من الأرثوذكس تحمل الطابع الأوروبى مثل ارتداء رداء الرهبان والأحذية السوداء الطويلة وخاصة بين سكان المدن .

لقد ظل السلطان محمود على مدى ثلاثة عشر سنة ، بعد القضاء على الانكشارية فى عام ١٨٢٦ وهو يعمل جاهداً على إرساء دعائم الإصلاح فى إمبراطوريته وواجه الكثير من المشكلات المعقدة والأوقات العصيبة ولكنه صمم من أجل أن يرتقى ببلاده إلى مصاف الدول المتحضرة ، ولا شك أن مهمته كان عسيرة لأنه لا يمكن القضاء على العادات والتقاليد التى رسخت فى أفئدة العثمانيين لقرون عدة دفعة واحدة وفى فترة وجيزة ، كما ظلت العناصر الدينية تتشكك فى برنامجه الإصلاحي وانضمت إليها العناصر الرجعية المتشبثة بالماضى والرافضة للتغيير . وإذا كان شعبه قد تمتع بثمار الأخذ عن الحضارة الغربية وعاش حياة جديدة باهظة التكليف وخاصة طبقة الموظفين الرسميين فإن الجميع افتقدوا الأمان والعلاقات الشخصية الوثيقة والإخلاص الذى كان متوفراً فى نظام الحكم القديم وصاروا مستخدمين مدنيين على

النسق الغربى يعيشون بأسلوب جديد ويفكرون بطريقة جديدة ورؤسائهم لا يحتكون بهمم احتكاكاً مباشراً حسبما تقتضى قواعد العمل ، وربما دفعهم هذا الوضع لأن يصبحوا أكثر فساداً من ذى قبل .

وقد ظل السلطان فى مأمن من تهديد الحرب داخل حدود بلاده خلال النصف الأول من حكمه ، ولكن هذا الأمان كان يمثل فترة هامة بالنسبة للوالى الخطير محمد على إذ استغرقها فى إعادة بناء أسطوله الذى فقده فى نافارين وفى تقوية جيشه الذى زوده بعدد كبير من الضباط الفرنسيين . وكان السلطان قد وعد محمد على بمنحه باشوية كريت كمكافأة لتدخله فى حرب المورة وأخذها بالفعل ولكنه كان يطمع فى سوريا وطلبها من السلطان ولكنه رفض فقرر الانتقام منه وصمم على تحقيق أمله فإفتعل نزاعاً شخصياً مع باشا عكا التى تمثل مفتاح سوريا ثم أرسل إبنه إبراهيم على رأس جيش كبير ليستولى على سوريا بالقوة ، وسيطر على غزة والقدس بدون مقاومة ثم حاصر عكا بمساعدة أسطول والده ، ثم سار إلى حلب ودمشق وحقق انتصارات فى عـدة معارك ضد فرق السلطان الجديدة التى لم تكن مدربة جيداً لمواجهة العدو ، ثم عبر جبل طوروس ليستولى على قونية فى قلب الأناضول واتجه ناحية بورصا قاصداً استانبول ذاتها ليحقق حلم محمد على فى إقامة إمبراطورية على أنقاض الدولة المنهارة .

انتشر الرعب فى العاصمة وأرسل السلطان إلى الحكومة الإنجليزية متوسلاً فى طلب المساعدة ، وقد أيده ستراتفورد كاننج بكل قواه ، وكان سفيراً لإنجلترا لدى الباب العالى ولكن رفض بامستون إغاثته لأنه كان يسير على سياسة التقليل من حجم قواته المسلحة ، فلجأ السلطان مضطراً إلى طلب المساعدة من أعدائه القدامى وهم الروس وقد سارعوا بتلبية النداء وإرسال قواتهم وأسطولهم إلى سباستيبول ونزلت قوة قوامها ستة آلاف جندى عند مدخل البوسفور لحماية استانبول ، وبعد ستة أسابيع أخرى وصلت قوة أكبر من الأولى من ميناء أودسا ، وهكذا سيـطرت قوات القيصر على استانبول وتحكمت فيها من خلال جبل سكوتارى ، وبدا للعالم أن روسيا هى الدولة الأجنبية الوحيدة التى قدمت المساعدة للسلطان ، ومن ثم سار الجنود والبحارة الروس فى طرقات استانبول بحرية تامة ، ثم طلب السلطان من الضباط الروس تدريب وقيادة الوحدات التركية . وعندما استعدت قوات إبراهيم باشا لمواصلة

السير إلى البوسفور فوجئت بوجود القوات الروسية فعدلت عن خطتها وقرر إبراهيم الدخول فى مفاوضات نيابة عن والده ، وهنا تنبهت الحكومتان الإنجليزية والفرنسية للخطر الروسى . ومارس بامستون ضغطاً دبلوماسياً هائلاً على السلطان ليأمر بإنسحاب الأسطول الروسى فى مقابل إذعان محمد على وضمان إنجليزى - فرنسى بعدم تكرار هجومه مرة أخرى . ثم صدر فرمان سلطانى يقضى بمنح محمد على باشوية مصر وكريت وسوريا ودمشق وطرابلس وحلب وأطنة مدى الحياة فقط ولا تورث لذريته من بعده . وكان السلطان قد وقع على معاهدة منفصلة وهى أونكيار - اسكلسى Hunkair Iskelessi تقضى بقيام تحالف دفاعى هجومى مع روسيا فى مقابل إنسحابها من استانبول ، مع منحها سراً حق عبور المضايق فى أى وقت بسفنها الحربية وحق إنزال قواتها البرية على سواحل البوسفور ، وتعهد السلطان بعدم منح هذا الحق لأى دولة أجنبية أخرى دون الحصول على موافقة روسيا .

ولكن السلطان رفض التنازل عن جزء كبير من ممتلكاته الآسيوية لهذا الوالى الثائر الذى كان يعتزم تحويلهم إلى باشويات وراثية فى أسرته ويستقل بها عن الباب العالى ، وبالفعل أعلن محمد على استقلاله عن السلطان ١٨٣٨ ورفض دفع الجزية للباب العالى ، فقرر السلطان التخلص منه وجمع قواته عند الفرات استعداداً لغزو سوريا بعد أن إزداد سخط سكانها من الحكم الطاغى الأكثر ظلماً من حكم السلطان نفسه ، وفى ١٨٣٩ أعلن الحرب عليه ورتب لإرسال أسطوله للسيطرة على الساحل السورى بقواته البرية ولكنه هـزم أمام الأعداد الهائلة من المقاتلين الذين اشتراهم إبراهيم باشا بأمواله ، وكذلك لقى أسطوله هزيمة محققة وأبحر به القائد الخائن إلى الإسكندرية وسلمه لمحمد على . وعند هذا الحد خشيت الدول الأوروبية من التدخل الروسى للمرة الثانية فى الأزمة الراهنة فقررت الاجتماع لوضع تسوية للمشكلة المصرية - التركية .

ولكن رفضت فرنسا التدخل مؤيدة إدعاءات محمد على ضد السلطان حفاظًا على مصالحها ، وتدخلت روسيا لوضع حل للأزمة مع الإبقاء على حقوقها فى عبور الدردنيل ، ثم عقد بامستون مؤتمراً فى لندن وتوصلت فيه إنجلترا وروسيا والنمسا إلى اتفاقية تقضى بأن يقوم محمد على بسحب قواته

من سوريا وإعادة الأسطول التركى إلى الباب العالى فى مقابل الاعتراف به حاكماً على باشوية مصر وأن تصبح وراثية فى أسرته وأن يمنح باشوية سوريا مدى الحياة فقط ، وتقرر أن تقدم هذه الشروط لمحمد على وإذا رفضها تقوم أساطيل الدول الثلاثة بضرب موانئ مصر وسوريا . وعندما رفض محمد على بالفعل فى بادئ الأمر هذه الشروط تقدم الأسطول الإنجليزى أمام السواحل السورية وقام بضرب بيروت وعكا بالقنابل ثم أنزل قواته التى أشعلت الثورة فى الشام ضد حكم محمد على الفظ بالتعاون مع العرب وهزمت جيوش الاحتلال المصرية . وقد أثار هذا الموقف مخاوف فرنسا وخشيت من الاشتباك فى حرب مع إنجلترا وكان لوى فيليب (١) يرفض فكرة الحرب كلية ، ومما زاد الموقف سوءاً توجه الأسطول الإنجليزى بقيادة نابييه Napier إلى الإسكندرية والتهديد بضربها بالقنابل . وهنا تراجع محمد على وخشى أن يكرر نفس المصير الذى لقيه فى عكا ووافق على التفاوض وأعاد أسطول السلطان وقبل باشوية مصر وراثية فى أسرته ، ودفع الجزية للسلطان ، وتخفيض عدد الجيش المصرى ، وانسحبت قواته من سوريا وعادت كريت إلى الحكم العثمانى المباشر . وفى ١٨٤١ تم التوقيع على معاهدة فى لندن ، بمشاركة فرنسا هذه المرة ، وتقضى بالاعتراف بالدردنيل والبوسفور كمياه تركية وحق تركيا فى إغلاقهما فى وجه السفن الحربية الأجنبية فى وقت السلم ، وبقدر ما كانت هذه المعاهدة مفيدة لتركيا بقدر ما أثارت النزاع بينها وبين روسيا وكانت عاقبتها وخيمة بعد اثنتى عشرة سنة .

ولم يقدر للسلطان محمود أن يرى هزائم قوته على أيدى واليه الثائر أو يرى النتائج المشجعة التى آلت إليها المشكلة ، إذ توفى فى ١ يولية ١٨٣٩ ، ويعد بحق من أعظم سلاطين الدولة العثمانية ، فبرغم أنه لم يكن قائداً

(١) كان لوى فيليب ملكاً على فرنسا من ١٨٣٠ إلى ١٨٤٨ وكانت سياسته الخارجية مكروهة من الفرنسيين وخاصة التحالف مع إنجلترا وكذلك موقفه من معاهدة لندن ١٨٤٠ ، وكان عهده مليئاً بالاضطرابات الداخلية وترك الحكم فى ١٨٤٨ لاجئاً إلى إنجلترا .

أنظر : La Rousse , p . 1493

عسكرياً مثل سابقيه أو ماهراً فى فن المحاورات الدبلوماسية فإنه نجح فى المجال الداخلى فى إثبات كفاءته كحاكم يتمتع ببعد النظر وكمخطط استطاع إنقاذ الدولة من إنهيارها وتحطيم قيود تخلفها والسير ببطء فى اتجاه التحديث والتحرر ، وخلفه إبنه الأكبر عبد المجيد (١) وكان فى السادسة عشرة من عمره .

---

(١) حكم السلطان عبد المجيد من ١٨٣٩ إلى ١٨٦١ .
أنظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى فى أصول التاريخ العثمانى .

الفصل الثانى والثلاثون

لم يرث السلطان عبد المجيد القدرات المتميزة لوالده محمود ، ولكنه تميز بالنوايا الطيبة والسير بإخلاص على درب والده فى تنفيذ إصلاحاته ، كما تميز بالرقة والنعومة حتى أطلق عليه « السلطان الأكثر رقة » ، وبرغم ذلك كان شاباً رزيناً وجاداً . وقد وصفه ستراتفورد كاننج السفير البريطانى بعد أول مقابلة بأنه يمتلك شخصية سلطانية طيبة وملتزم بأداء الواجب بعيداً عن الصلف والغرور ، ويتميز بالصلابة التى تمتع بها أجداده العظام ، ويميل إلى الإصلاح القائم على استخدام العقل والمبادئ المتحررة . وتوثقت الصلة بين ستراتفورد وعبد المجيد وكانت تمثل شيئاً غير مألوف بين سلطان وسفير وأثرت هـذه العلاقة على سياسات السلطان . كذلك مارست والدته « السلطانة الوالدة » نفوذاً كبيراً عليه منذ شبابه ، وهى شركسية الأصل وتميزت بقوة الشخصية وكانت مستشاره الأول فى كل أموره . وقد اعترف عبد المجيد لستراتفورد بأنه كان فى حاجة إلى مساعدة عشرة باشوات ليحقق النجاح ، وقد حاول البحث عنهم بين الوزراء المتنافسين حتى وجدها فى شخص مصطفى رشيد باشا الذى كان سفيراً للباب العالى فى باريس ، وشغل مناصب عديدة أخرى . وكان رشيد فى لندن فى مهمة خاصة كوزير للخارجية عند وفاة السلطان محمود وعاد ليثبت للدول الأوروبية أن الدولة العثمانية قادرة على تأسيس نظام إدارى وحكومى جديد فى الوقت الذى انتشرت فى أوروبا الأفكار الثورية الإصلاحية .

لقد وضع رشيد باشا برنامجاً إصلاحياً قائماً على النموذج الأوروبى ، كما فعل السلطان محمود ، وفى ٣ نوفمبر ١٨٣٩ وفى حديقة صغيرة فى القصر السلطانى خصصت لإعداد أنواع معينة من الحلوى ثم أطلق عليها فيما بعد « ركن الزهور » ، قرأ المنشور الإصلاحى الذى أعده فى حضور السلطان وعدد من السفراء الأجانب وكبار رجال الدولة ، واشتهر هـذا المرسوم باسم « خط شريف جلخانة » ، وكان أول إصلاح فى مجموعة المراسيم الإصلاحية التى صارت تعرف بالتنظيمات Tanzimat (١) . وتعد

---

(١) تطلق كلمة التنظيمات على الفرمانات الإصلاحية الثلاثة التى صدرت فى الفترة من ١٨٣٩ إلى ١٨٧٦ ، وهى : خط كلخانة (١٨٣٩) وخط همايون (١٨٥٦) والدستور العثمانى (١٨٧٦) .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ المشرق العربى .

هذه أقدم وثيقة دستورية فى دولة إسلامية تتضمن حقوقًا قانونية وإجتماعية وسياسية للرعايا فى الدولة العثمانية مثل الماجنا كارتا Magna Carta (١) يقرها السلطان أمام المجلس ويقسم على إتباعها . لقد تبنت هذه الوثيقة الخطط والأفكار التى وضع السلطان محمود الثانى تصوراً لها فى أخريات أيامه ، ثم صارت أساسًا لنظام عثمانى جديد دام لعقدين تاليين . وقد كفلت هذه التنظيمات الحرية والأمان للحياة وللنفس البشرية وللملكية الخاصة ، ووضعت تنظيماً محدداً لجباية الضرائب ولإلغاء نظام الالتزام ، كما وضعت أسس نظام عادل لجمع وتجنيد الشباب للقوات المسلحة وحددت مدة الخدمة العسكرية ، وأوجدت المساواة العادلة للجميع فى ظل القانون ، كما أكدت على عدم فرض أى عقوبة بدون محاكمة عادلة . كذلك منح السلطان المجالس الاستشارية سلطات شبه تشريعية وزاد من أعضائها لتضم عدداً من الوزراء وأعيان البلاد ، وكان أكثر هذه المجالس قوة مجلس القضاء الذى أعيد تنظيمه وتوسيعه فى عام ١٨٤٠ ليقوم بدور جوهرى خلال فترة التنظيمات ، وصار أعضاء هذه المجالس يتمتعون بحرية التعبير عن آرائهم ، وكان السلطان ملزمًا بتأييد قرار الأغلبية وإتباع القرارات التى يصدرها القانون الوارد فى الخط الشريف ، وكان هذا الوضع يشكل تحديداً لسلطة لسلطان المطلقة ولكن من الناحية النظرية فقط لأن هذا الميثاق ليس إصلاحًا دستوريًا وإنما هو محاولة لإيجاد نظام جديد فى البلاد للعلاقة بين الحاكم والمحكوم ، ولم تشتمل بنوده على إيجاد تمثيل نيابى للسكان فأعضائه غير منتخبين وإنما يتم إختيارهم بواسطة السلطان نفسه ، وبقائهم فى مناصبهم يعتمد على موافقة السلطان وتصديقه على القرار ، وهذا يعنى أن السلطة المطلقة للسلطان باقية .

وكان من الأمور التى أثارت انتباه الغربيين فى مبادئ التنظيمات هو المساواة

---

(١) الماجنا كارتا تعنى العهد الأعظم الذى أصدرته الملكية الإنجليزية فى ١٢١٥ ، ويعد أقدم العهود التى دونت حقوق وإمتيازات جميع فئات المجتمع الإنجليزى ، وهو أساس الدستور الإنجليزى .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، التاريخ الأوروبى والأمريكى الحديث .

العملية فى الحقوق بين جميع الرعايا العثمانيين دون تفرقة فى الجنس أو العقيدة ، وقد قضى هذا المبدأ على التمييز بين المسلمين وغير المسلمين وضمن الأمان والحرية للجميع فى مجالات دفع الضرائب والملكية الخاصة والتعليم سواء فى المدارس العسكرية أو المدنية ، وفى التجنيد فى الجيش والوظائف العامة فى أى فرع من فروع الخدمة المدنية . وقد اعتبر المندوب الروسى لدى الباب العالى خط كلخانة بمثابة ضربة ناجحة أثارت دهشة الغرب وتأمله خاصة أنه صدر فى فترة تزايد فيها نمو حركة الإصلاحات والاتجاهات التحررية فى أوروبا وفى الدولة العثمانية أيضًا برغم بقاء أنظمتها التقليدية ، واعتبره دعوة جريئة من السلطان للمسيحيين ليدخلوا البلاد من أوسع أبوابها . أما اللورد بامستون فقد اعتبر هذا المرسوم ضربة سياسية هائلة تركت تأثيرها على الرأى العام فى إنجلترا وفرنسا ، بينما رأى مترنيخ وغيره ممن كانوا يدركون الوضع الحقيقي للدولة العثمانية ، أنها ارتدت ثوبًا فضفاضًا لا يلائمها . وبرغم ذلك فقد عقدت الآمال على هذا التأثير الأوروبى الجديد الذى دخل إلى الدولة وانتظر الجميع ثماره وخاصة الرعايا غير المسلمين المقيمين داخل البلاد والذين كانوا يتوقون إلى مراعاة أوضاعهم وتحسينها ومعاملتهم مثل المواطنين العاديين ، فكان السماح لهم بأداء الخدمة العسكرية التى حرموا منها نظير دفع الجزية أو ضريبة الرؤوس مكسبًا كبيرًا لأن هذا يعنى أنهم سيقاتلون جنبًا إلى جنب مع المسلمين بعد أن ظل التشكك فى إخلاصهم إذا ما قاتلوا مسيحيين مثلهم ، وتأكدت هذه الشكوك عندما طالبت بعض هذه العناصر بحماية روسيا من أجل تحقيق الاستقلال الذاتى أو الاستقلال الكامل .

ونظرًا لأن مسألة تحرير الكفرة ومنحهم المساواة الكاملة مع المسلمين كانت تواجه عقبات عديدة وأولها ضرورة تفوق الإسلام والتى كانت من أهم أسباب التفرقة فى المعاملة بين الرعايا العثمانيين حسب ديانتهم ، فقد كان متوقعًا أن تكون المساواة الواردة فى المرسوم غير مقبولة لا من الناحية الأدبية أو الإجتماعية فى المجتمع المدنى ، ولذلك ارتفعت أصوات المعارضة فى أرجاء الدولة وعجز السلطان عن حسمها . ففى عام ١٨٤١ اعتزم رشيد باشا تطوير التجارة الخارجية فأسس لهذا الغرض مجلسًا جديدًا للقضاء داخل وزارة

التجارة التى أنشأها حديثًا ليتولى فض المنازعات التجارية وأعد قانونًا تجاريًا جديداً على النسق الفرنسى فى مسائل المشاركة والإفلاس وقوائم التبادل التجارى ، ولكن اعتبرها القضاة المسلمون مخالفة للشريعة الإسلامية ، وسألوه عند عرض القانون على المجلس الأعلى هل يستمد هذا القانون من الشريعة الإسلامية ، فأجاب بأن التشريع الإسلامى يخلو من هذه الأمور فصاحوا « ملعون » ، وتم إيقاف القانون لأنه يلحق الضرر بالتجارة الخارجية ورضخ السلطان لمشيئتهم وعزل رشيد باشا وعاد إلى وظيفته السابقة فى سفارة باريس وتوقفت الإصلاحات بفضل منافسة رضا باشا والسلطانة الوالدة التى عينت مستشارها المفضل عزت محمد فى منصب الصدر الأعظم وكان معروفًا بكراهيته للأجانب وللأفكار الغربية . وبرغم ذلك نفذ رضا باشا الذى أصبح يشغل منصب السرعسكر سياسة إصلاحية لإعادة تنظيم الجيش العثمانى ليجعله فى حالة أفضل فقسمه إلى قسمين : القوات العاملة أو النظامية ومدة الخدمة بها خمسة أعوام ، والقوات الإحتياطية أو الرديف ومدة الخدمة بها أكثر من سبع أعوام ، وصار التجنيد العسكرى يتم من خلال الإقتراع أما التدريب والتسليح والتجهيز والتنظيم فقد اعتمد على أسس غربية حديثة ، وبذلك تكونت قوة جيدة عددها حوالى ٤/١ مليون جندى من الأقوياء الذين مثلوا النظام والشجاعة والانضباط العثمانى القديم ، وصار الضباط من الذين تلقوا تعليمهم فى المدارس العسكرية الحديثة ، وكان هذا هو الجيش العثمانى المسلم الخالص الذى لا يضم مسيحيين بين صفوفه برغم صدور المرسوم السابق ، وكانت أى محاولة للتغيير تشبه خلط الماء بالزيت ، أو كما عبر عنها لورد بامستون محاولة تشبه وضع قطة وكلب فى صندوق واحد مغلق .

حقيقة كان غير المسلمين يعفون من أداء الخدمة العسكرية عن طريق دفع ضريبة الرؤوس ، ولكن كان يتم تجنيدهم فى القوات البحرية كما هو مألوف ، فقد قام الضابط البحرى الإنجليزى أدولف سليد Adolphus Slade صديق رضا باشا بتكوين فرقة منهم قوامها عشرة آلاف بحار ، ولكنه فشل فى زيادة عدد السفن المقاتلة . وكانت هذه هى الخدمة الوحيدة التى قدمها رضا لبلاده وهى تكوين جيش جديد ، وخلاف ذلك انتشر الظلم واضطراب الأمن

نتيجة صدور مرسوم كلخانة ، وبعد أن كانت هذه الكلمة تعنى ركن الزهور أو قصر الزهور صارت تعنى « ركن الغبار » . وقد علم ستراتفورد كاننج أن رضا باشا استغل هذا الجو الفاسد وتواطأ مع وزير المالية واثنين من الرأسماليين المسيحيين لاختلاس مبالغ مالية طائلة من الخزينة السلطانية ، فنبه السلطان الصغير إلى ذلك وطلب منه مراقبة رضا باشا وتوثقت الصلات أكثر بين الطرفين ، واعترف كاننج بأنه وجد فى هذا السلطان المروءة أكثر من القوة ، وأنه كان دائماً يردد إمكانية الإستعانة بالأجانب فى تحديث البلاد . ومنذ هذه الفترة وجدت مبادئ ومعتقدات كاننج البروتستانتية قبولاً لدى المسيحيين فى الدولة العثمانية وصار بالنسبة لهم بمثابة الحامى المخلص بسبب سياساته السلمية فلم يظهر من جانبه أى اعتراض على أى شئ إلا فى بعض المناسبات مثل قيام شاب أرمينى وآخر يونانى بالعودة إلى المسيحيين بعدأن اعتنقا الإسلام فتم إعدامهما حسب الشريعة الإسلامية لإرتدادهما وعبر عن غضبه للسلطان وأخذ عهداً منه بعدم إهانة أى مسيحى فى ممتلكاته من الآن فصاعداً وألا يضطهد المسيحيين بسبب ديانتهم ، وعزز السلطان هذا العهد بإصدار إعلان عام وزعه فى جميع ولايات الدولة ، فأرسلت له الملكة فيكتوريا خطاب تحية .

وقد كان ستراتفورد كاننج يلقى الاحترام والتقدير من الأتراك لمكانته وشخصيته المحترمة وإخلاصه وأمانته ووضوح اتجاهاته والتعبير عن آرائه ، كما كان المسيحيون يعتبرونه « ملك الملوك » وبفضله سقط رضا باشا وعزله السلطان فى ١٨٥٤ وعين رشيد باشا فى مركز الصدارة العظمى وتجددت معه سياسة الإصلاح إرضاء لكاننج ، ثم أعلن السلطان أن الوزراء أساءوا فهم الإصلاح العسكرى وتطبيقه وكذلك العمل من أجل مصالح الرعايا ، وأعلن ضرورة تأسيس مدارس جديدة لنشر المعرفة وخصص لجنة للعناية بالمدارس الإبتدائية والثانوية واقترحت إنشاء جامعة عثمانية حكومية ، واستغرق تنفيذ هذا البرنامج الطموح سنوات عديدة وصادف عقبات كثيرة ، ووضع حجر الأساس بالفعل لمؤسسات الجامعة ولكن وقفت قلة الأموال عقبة فى سبيل الانتهاء منها وظلت جدران المبانى التعليمية ترتفع لعدة أقدام فقط . وفى مجال التعليم الإبتدائى فقد أنجز القليل بسبب الرجعية الصارخة لرجال الدين ، وفى التعليم الثانوى زاد عدد المدارس ولكن ببطء مع توصية اللجنة

بضرورة الاهتمام بالدين ، ولكن كان هناك إطار عام لتعليم مدنى علمانى منفصل عن التعليم الدينى الذى ظل تحت سيطرة العلماء ، وبمرور الوقت تكونت طبقة متوسطة جديدة من خريجى هذه المدارس شغلت وظائف الجهاز البيروقراطى بفروعه المختلفة .

وقام السلطان بتجربة جريئة فى حكومة الولايات تهدف إلى تطبيق مبدأ التشاور مع السكان فى محاولة للوقوف فى وجه غطرسة الولاة ، فتخير اثنين من النواب من كل ولاية من الأشخاص الذين يتميزون بالثقافة والخبرة والقدرة على القيام بأعباء الأعمال العامة ، وهؤلاء يجتمعون فى مجلس أعيان الولايات ويعرضون آراءهم حول الأوضاع السائدة ومتطلبات الإصلاح فى الولايات . وأسس السلطان لكل والى مجلساً يتم انتخاب أعضائه من السكان المحليين بهدف تأسيس حكومة نيابية مسئولة ولكنه فشل فى هذا المجال لأن الرأى العام العثمانى لم يستوعب روح الإصلاح ولم يفهم هدف السلطان منه ، وقد تم تمثيل غير المسلمين بالفعل فى هذه المجالس ، ولكن الأتراك المسلمين ظلوا الأغلبية المسيطرة على الأقلية والمؤثرة فى قراراته . وكان كاننج يراقب عن كثب سياسة الإصلاح ومدى تقدمها وكشف للسلطان عيوب نظام المجالس لأن إصلاح الجلخانة كان يسمح للقناصل الأجانب بالتدخل فى وجه فساد الباشوات والدفاع عن الأقليات المسيحية والمطالبة بتحسين أوضاعهم ، وقد نجح فى تحقيق إنجازين هما : إلغاء نقل العبيد فى السفن التركية ، وضمان جباية ضريبة الأرض من رؤساء الجاليات وليس من الأفراد ذاتهم .

وفى مجال القضاء تم تأسيس المحاكم المختلطة المدنية والجنائية فى عام ١٨٤٧ وكانت تضم أعداداً متساوية من القضاة العثمانيين والأوروبيين وكان اتجاهها أوروبيًا أكثر منه إسلاميًا . وصدر أيضًا تشريع للجزاءات فى ١٨٥١ وكان رشيد باشا قد أعده منذ العام السابق على صدور تشريعه التجارى والذى تسبب فى عزله منذ عقد مضى ، ويختص بإدارة المحاكم التجارية وبه تسهيلات مالية وقضائية للأجانب وليس للرعايا فقط أى لكل الأجانب الذين يتعاملون تجاريًا مع الدولة العثمانية والذين كان لا يجدون الحلول لمشاكلهم التجارية

في القضاء التركي ، وبرغم أن نظام الإمتيازات Capitulations (١) كان يضمن حق محاكمة الأجانب أمام المحاكمة القنصلية وقدم لهم الحماية في المجالين المدني والجنائي فإن الحماية في الشئون التجارية كانت غير قائمة ، ومن ثم توفرت هذه الحماية من خلال تكوين المحكمة التجارية والتي ضمت عدداً من المحاكم المختلطة مهمتها تسوية المشكلات التجارية القائمة بين الأتراك والأوروبيين . وقد أُدخل هذا النظام في ١٨٥٠ ويعد القضاء التجارى أول اعتراف رسمي في تركيا وفي دول إسلامية أخرى بأول نظام تشريعي منفصل عن العلماء وشكل نقطة بارزة في مضمار التقدم والتحرر الإقتصادى وفتح الأبواب على مصراعيها أمام الإقتصاد التركي للدخول إلى ميدان التجارة الغربية وتوفير ظروف التقارب والتعاون في العلاقات التجارية بين الطرفين .

وقد تم تنظيم هذه النواحي التجارية قبل التنظيمات العثمانية بوقت قصير في شكل معاهدة تجارية أنجلو - تركية استندت إلى مبادئ التجارة الحرة ونظام التعريفة الجمركية على الصادرات والواردات وإلغاء القيود القائمة في المجال التجارى ، وكانت تحمل الكثير من الفائدة للتجار الإنجليز والعثمانيين وأدت إلى تفوق التجارة الإنجليزية على التجارة الفرنسية في الشرق . وكان الهدف من هذه المعاهدة تحديث النظام التجارى المتواجد ومجاراته للدول الأوروبية ، وقد وقعت فرنسا وهولندا اتفاقات تجارية مماثلة فيما بعد . وهكذا تحرر التجار الأجانب من القيود السابقة وتزايدت حركة التجارة وتزايد دخل البلاد وشهدت نمواً إقتصادياً وتفوقاً تجارياً واضحاً ، كذلك أصبحت أقاليم الدولة العثمانية سوقاً رائجة للمنتجات الصناعية الأوروبية ومصدراً لتصدير المواد الخام الزراعية والصناعية ، وتأسست بهما الشركات التجارية والبنوك وشركات التأمين ومؤسسات إقتصادية أخرى جديدة ، وتزايد سكان المدن عن طريق الهجرة من القرى ، وإنهارت الحرف اليدوية التقليدية وإنهارت معها طبقة

---

(١) تطلق كلمة إمتيازات على معاهدة الإمتيازات الكبرى التي وقعت بين الملك الفرنسي فرنسوا الأول والسلطان سليمان القانوني في ١٥٣٥ م .
أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ المشرق العربي .

أصحاب الحرف وكذلك طبقة الفلاحين . وخلال جيل واحد تزايد اتساع المدن الرئيسية إلى أربعة أضعاف مساحتها وإمتلأت بالأوروبيين والقادمين من منطقة الليڤانت الذين كونوا طبقة واسعة من رجال الأعمال طغت على الأتراك ، وبذلك اتسعت الهوة بين المسلمين وغير المسلمين ، وكانت هذه ثمار النظام الإقتصادى الأوروبى الحر .

وقد واجه السلاطين دومًا مشكلة أخرى متمثلة فى نقص قيمة العملة ونقص الأموال فى الخزينة السلطانية نتيجة الفساد الذى استشرى فى أجهزة الدولة وإتباع الأسلوب القديم فى مواجهة التضخم عن طريق إنقاص قيمة العملة ، وخلال عهد السلطان محمود الثانى إنهارت قيمة العملة العثمانية ووصلت إلى مستوى متدنى لتتناسب مع المستوى المعيشى للناس وحتى تستطيع الحكومة دفع رواتب الموظفين الذين تزايدت أعدادهم بشكل كبير ، وفى عام ١٨٤٠ أصدر السلطان عبد المجيد مرسومًا بإنشاء البنك العثمانى على النسق الأوروبى بضمان الحكومة ، وتبع ذلك إدخال العملة الورقية فى شكل سندات مالية بمعدل فائدة متغير ، وفى عام ١٨٤٤ اتخذت الحكومة عدة إجراءات لتحقيق الأمان للعملة بالاتفاق مع البنك الجديد ، فتم سحب العملة القديمة وحلت محلها عملة جديدة على النظام الأوروبى قدرت قيمتها بالليرة الذهب ، وقد أدى هذا الوضع إلى نوع من الاستقرار المؤقت ، ثم تدهورت الحالة المالية فى البلاد أمام التيار الرأسمالى الذى ساد القرن التاسع عشر ، وصارت مشكلة أمام الحكومات العثمانية المتعاقبة منذ عام ١٨٥٨ وما بعدها ، فلجأت الدولة إلى سياسة الاقتراض من الدول الأجنبية مما أوصلها إلى أزمة مالية طاحنة .

وبات واضحًا أن المسلمين الأتراك لم يحققوا أدنى فائدة من البنوك والاستثمار الصناعى وكانت الفئات التى استفادت هى الأقليات غير الإسلامية من اليونانيين المقيمين فى البلاد والأرمنيين واليهود وهؤلاء حققوا ثراء فاحشًا من عملهم كوسطاء للمشرعات الرأسمالية الأوروبية التى جاءت لتسيطر على الاقتصاد التركى وأدت بالتالى إلى زيادة نفوذ السفراء الأجانب فى الدولة .

ومنذ أواسط القرن التاسع عشر فقدت روح الإصلاح فى الدولة العثمانية القوة الدافعة ، وفشلت جهود ستراتفورد كاننج ، برغم نجاحاته السابقة ، فى

إصلاح أمور كثيرة مثل السجون وطرق المواصلات والقضاء على الفساد وتحسين الأحوال المالية للبلاد ، وبرغم اهتمامه الكبير بالمشكلات الدينية للأقليات فقد فشل في تحقيق المساواة بين المسيحيين والمسلمين ، فكانت حصيلة جهودة المخلصة تنازلات على الورق ولم تترجم إلى أفعال ، وحتى رشيد باشا المصلح المجتهد واجه إنهياراً معنوياً نتيجة معارضة الحزب الرجعي في البلاد للإصلاح فغرق في الديون وانحرف إلى تيار الفساد ، والسلطان نفسه الذى اهتم بالإصلاح صار متردداً ومتذبذباً في الشئون العامة واعتمد على كاننج في أمور كثيرة فكان بدوره يلجأ إلى تأجيل البت في الأمور بأسلوب متأدب . وإنساق السلطان إلى فساد الحريم السلطانى وأثار دهشة المحقق والرحالة الإنجليزى تشارلز ماكفارلين Charles Macfarlane فكتب يقول : « قبل أن يكمل السلطان عامه العشرين أنجب ثمانية أطفال من نساء مختلفات في الحريم السلطاني في مدة لا تزيد على ثلاثة أعوام ، وفي إحدى المرات استيقظنا ذات صباح على صوت إطلاق المدافع للتحية وعلمنا أن السلطان أنجب ذكراً ، وقبله بأسبوع كان قد أنجب أنثى » .

وبرغم العجز المالى وتحذيرات كاننج من احتمال حدوث كارثة مالية في البنوك ، توج السلطان إسرافه ببناء قصر ضخم حديث وهو قصر ضلمة باغچة (١) على ضفاف البوسفور في الجانب الأوروبى بعد أن أصابه الملل من القصر القديم ، وقد كلفه القصر الجديد مبالغ طائلة حيث شيد على الطراز الأوروبى الحديث بعد عصر النهضة ، وزينه بنقوش الركوكو Rococo (٢) وبالجدران الرخامية المطعمة بالذهب والبللور والألباستر والرخام السماقى ، وقام

---

(١) ضلمة باغچة كلمة تركية تعنى قصر الحديقة ، وقد حل محل القصر القديم طوبقابو (قصر باب المدفع) .

أنظر : ناهد إبراهيم دسوقى ، محاولات الإصلاح .

(٢) الركوكو هو أسلوب في العمارة يتميز بوجود زخارف متداخلة ، وكان سائداً في أوروبا في القرن التاسع عشر .

أنظر : La Rousse , p . 1019

بطلاء الأسقف ونقشها فنانون فرنسيون وإيطاليون ، وضمت حجرة العرش أضخم المرايا فى العالم وفى حجرة نوم السلطان صنع سريره من الفضة الصلبة .

وقد أُعد هذا القصر الجديد ليحل محل القصر السلطانى القديم وصار مقرّ للإقامة الدائمة للسلُطان بعيداً عن مركز الحكم ، وأقام فيه أيضاً جميع السلاطين الذين جاءوا من بعده ، وهو على النسق الغربى ويماثل تأثر السلطان بكل ما هو أوروبى ، كذلك كون السلطان فرقة موسيقية تركية دربها الموسيقيون الألمان والإيطاليون لتقدم أحدث المؤلفات الموسيقية الأوروبية التى حلت محل الموسيقى التقليدية ، كذلك جلب السلطان عدداً من الممثلين الأوروبيين وراقصى الباليه وغيرهم فى الفنون الأخرى وشيدمسرحًا ملحقًا بالقصر لتقديم وسائل التسلية ، كل هذا فى الوقت الذى كانت فيه الأوضاع المالية للدولة تنحدر بشدة إلى الهاوية من خلال الدمار والفوضى .

لقد أصاب كاننج الإحباط بسبب فشل وعود السلطان له ، وكان ضعف السلطان والصدر الأعظم من أهم عوامل الإحباط وشاركه فى هذا الشعور بامستون الذى كان يخشى سقوط الدولة ويدرك ضعف سلطانها وسفاهة وزرائه ، ولذلك نصح سفيره بأن يضغط على السلطان للقيام بالإصلاحات الأساسية ، وقد أوضح كاننج موقفه قائلاً : « كل شئ ذهب أدراج الرياح والهدف الذى كنت أقيم من أجله فى هذه البلاد وهو الإصلاح ذهب إلى غير رجعة » . لقد فشل رشيد باشا فى مهمته الأساسية وهى الإصلاح ليس بسبب ضعفه ولكن لعجز الرأى العام العثمانى عن فهمه ومجاراته وعجز الطبقة العلمانية المتعلمة عن تقديم العون له ، كما ظلت القوى الراديكالية فى الدولة تعارض الإصلاح وتخشى نتائجه وآثار الأفكار الغربية على الحضارة الإسلامية ، فقد ظنوا أن محاولة كاننج للقضاء على الجمود ستلحق الضرر بالأتراك وستكون عقيمة بالنسبة للمسيحين ، وانتهى الأمر بأن اعتزل كاننج منصبه كسفير وعاد إلى إنجلترا فى صيف ١٨٥٢ مثقلاً بشعور سئ ، ولكنه تلقى سيلاً من برقيات الثناء والمديح عشية رحيله أعادت له الثقة بالنفس ،

وكانت من الأرمنيين البروتستانت واليونانيين والإرساليات الأمريكية والجاليات التجارية فى استانبول وسميرنا ، وكان يتوقع عدم العودة إلى الدولة العثمانية مرة أخرى ولكن تطور الأحداث خلال عام واحد دفعه إلى العودة وأصبح إسمه لورد ستراتفورد دى ريدكليف Lord Stratford de Redcliffe ولم ينعم بالسلام هذه المرة لأن البلاد كانت مقبلة على حرب جديدة مع روسيا .

الفصل الثالث والثلاثون

كان نيقولا الأول القيصر الروسى أوتوقراطياً ومتسلطاً فى حكمه ، وقد وضع فى حسبانه السقوط الوشيك للدولة العثمانية ومارس ضغوطاً دبلوماسية على الدول الغربية للمساهمة فى تقطيع أوصالها ، فبدأ بإنجلترا حيث قام بزيارة رسمية إلى لندن فى ١٨٤٤ ولكنه قوبل برفض متحفظ لمناقشة هذا الأمر ، وفى أوائل عام ١٨٥٣ ناقش هذا الموضوع بصفة رسمية فى سان بطرسبرج مع السير هاملتون سيمور Sir Hamilton Seymour سفير بريطانيا واعتبر هذه المناقشة ذات أهمية تاريخية . أشار القيصر إلى حالة الفوضى التى آلت إليها الدولة العثمانية واحتمال انهيارها وطلب من إنجلترا أن تتوصل إلى تفاهم أو اتفاق مع روسيا حول هذا الموضوع على ألا يتخذ أى طرف منهما خطوة مصيرية بدون موافقة الطرف الآخر ، وختم حديثه قائلاً : « بين أيدينا رجل مريض يحتضر ، وإذا مات قبل أن نتخذ التدابير اللازمة ستكون كارثة » . وكان رد سيمور أن اقترح اللجوء إلى طبيب وليس إلى جراح وأن المريض ينبغى أن يعامل برفق حتى يسترد عافيته ، ووافق نسلرود Nesselrode (١) مستشار القيصر ، على أن وجود هذ المريض على قيد الحياة أمر محتمل وأنه ينبغى محاولة إطالة عمره لأطول فترة ممكنة ، وكان هذا الرأى يطابق وجهة نظر رئيس الوزراء البريطانى لورد أبردين Lord Aberdeen (٢) .
وبعد عدة أيام أفصح القيصر عن مشروعه للسفير البريطانى مؤكداً أنه لا يزال يؤيد أحلام وخطط القيصرة كاترين بخصوص القسطنطينية ، وأنه لم يعد يخشى جانب الأتراك الآن ، ومن ناحية أخرى هو مسئول عن مصالح عدة ملايين من المسيحيين فى الدولة العثمانية وعن حمايتهم بمقتضى المعاهدة ،

---

(١) كارل روبرت نسلرود دبلوماسى روسى من أصل ألمانى ، أدار دفة السياسة الخارجية الروسية من ١٨١٦ إلى ١٨٥٦ .
أنظر : La Rousse , p . 1557
(٢) تولى جورج جوردون أبردين رئاسة الوزارة البريطانية من ١٨٥٢ إلى ١٨٥٥ .
أنظر : La Rousse , p . 1094

ومن الأفضل النظر فى جميع الاحتمالات من الآن حتى يتجنب الجميع حرباً أوروبية وكارثة فى حالة سقوط الدولة . ثم ذكر للسفير بود وصداقة أن روسيا لن تتنازل عن القسطنطينية لأى دولة أخرى أبداً وكذلك الولايتين الدانوبيتين ولاشيا ومولداڤيا واعتبرهما مستقلتين تحت حمايته ، كما أوضح إمكانية بسط حماية روسية على الصرب وبلغاريا ، أما مصر وكريت فلا مانع لديه من أن تحتلهما بريطانيا ، فرد سيمور بأن وجهة نظر بريطانيا تجاه مصر لا تتعدى الحاجة إلى إيجاد وسيلة مواصلات آمنة بين الهند البريطانية والدولة الأم (إنجلترا) .

ورداً على هذه الآراء طلب چون راسل John Russell (١) وزير الخارجية البريطانية الإطلاع على معاهدات حرب الوراثة الأسبانية التى تم التوقيع عليها فى بداية القرن الثامن عشر بين إنجلترا وفرنسا وتقاسمتا فيها إمبراطورية كان حكامها بلا ذرية ويعانون أمراض بدنية وعقلية وكانوا كأنهم موتى وهم أحياء ، وقارن بين هذا الوضع ووضع الدولة العثمانية « الرجل المريض » الذى قد يطول احتضاره ويبقى على قيد الحياة لعشرين أو خمسين سنة أو حتى مائة عام ، وعلى ذلك فالولايات التركية ليست مثل الولايات الأسباية ولا يمكن تقسيمها ، وحذر من محاولة توقيع أى إتفاق سرى بهذا الخصوص لأنه سيفتح الباب لنزاع مرير ، وفيما يتعلق بالقسطنطينية فقد رفض راسل قبول أى نوع من الوجود الروسى فيها لأنه سيتحول إلى ضم نهائى لها فيما بعد ، ونفى أى نية أو رغبة لدى إنجلترا للإستيلاء عليها . وكان موقف إنجلترا يتميز بالثبات والجدية تجاه تركيا وروسيا وفيما أصبح يعرف بالمسألة

---

(١) چون راسل (١٧٩٢-١٨٧٨) كان رئيساً لوزراء بريطانيا من ١٨٤٦ إلى ١٨٥٢ ثم من ١٨٦٥ إلى ١٨٦٦ . وكان وزيراً للخارجية من ١٨٥٢ إلى ١٨٥٥ ، ثم من ١٨٦٠ إلى ١٨٦٥ .

أنظر : La Rousse , p . 1658

الشرقية The Esatern question (١) ، وقد اتخذ نفس الموقف لورد كلارندون Lord Clarendon الذى خلف چون راسل فى وزارة الخارجية الإنجليزية ، وعبر عن ذلك فى آخر رسالة إلى سير هاملتون سيمور قائلاً : « إن تركيا فى حاجة إلى أن يتحملها حلفاؤها وألا يضغطوا عليها بإدعاءاتهم بهذا الشكل المهين لسيادة السلطان وإستقلاله فهو فى حاجة إلى تأييد صديق ، وباختصار فإن الدول مثل الأفراد الذين يصابون بضعف بعد قوة فإنهم يصبحوا فى حاجة إلى ما يزيل عنهم أسباب ضعفهم وإنهيارهم » .

وكان واضحاً للسفير البريطانى أن القيصر الروسى يدعى مصالح مشتركة مع النمسا ، وأنه يطلب صداقة إنجلترا ليعزل فرنسا ، فالفرنسيون أعداء روسيا الألداء ولذلك تركزت مفاوضاته مع الباب العالى حول حماية الأماكن المقدسة فى فلسطين والحماية العامة للمسيحيين فى الدولة العثمانية . لقد كان هناك نزاع سياسى حول المسائل الدينية بين القيصر نيقولا والإمبراطور نابليون الثالث (٢) يتعلق بالكنيسة الأرثوذكسية اليونانية والكنيسة الرومانية الكاثوليكية ولم تحسمه الدولتان وأصبحت الحرب وشيكة بينهما ، فقد تمسك الطرفان بقصص الإنجيل وبأضرحة بيت لحم وأورشليم وبالمناطق المقدسة الواقعة حولهم التى سار فيها السيد المسيح وأصبحت هذه الأماكن مصدر إلهام للفروسة الصليبية ومركزاً للحج من كل بقاع العالم المسيحى وتقام فيها شعائر الحج فى ظل سادتها الأتراك كما يحدث فى الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة ، وهذه المقدسات المسيحية والأديرة كان محل إحترام

---

(١) المسألة الشرقية إصطلاح سياسى ظهر فى القرن التاسع عشر وصار يطلق على عملية تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بين الدول الأوروبية بسبب ضعفها وإنهيارها وثورة الشعوب المسيحية ضدها .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ المشرق العربى .

(٢) كان نابليون الثالث إمبراطوراً على فرنسا من ١٨٥٢ إلى ١٨٧٠ ، وهو ابن شقيق نابليون بونابرت .

أنظر : La Rousse , p . 1554

الجميع ، وفوق ذلك كان الحج إلى هذه المناطق يدر دخلاً سنويًا كبيراً ، وكان على السلطات المسيحية أن تفصل بين الكنائس المسيحية المتنازعة حول هذا الدخل وحول السيطرة على هذه الأماكن ، وكان هذا هو السبب الرئيسى للنزاع الدائم بين هذه الأطراف .

وفى عام ١٧٤٠ استطاعت فرنسا من خلال معاهدة الامتيازات أن تحصل من السلطان على تنازلات تتيح لها توسيع إمتيازات الكنيسة اللاتينية فى فلسطين ، ولكن حينما إنهار حماس فرنسا الدينى وارتفعت مكانة روسيا الاستعمارية تحولت هذه الإمتيازات لصالح الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية وصار أتباعها أكثر عدوانية من اللاتين الكاثوليك وخاصة فى موسم الحج معتمدين على الدعم الدائم من الروس ، وحققوا الكثير من المكاسب والإمتيازات على حساب الفرنسيين . وعند نهاية القرن الثامن عشر إدعى الرهبان اللاتين فى بيت لحم أن مكان ميلاد المسيح ظل فى أيدى اليونانيين حوالى أربعين أو خمسين عامًا وأنهم حصلوا على هذا الحق بواسطة الفرمان العثمانى وبالتالى تم طرد اللاتين ، وأن نفوذ اليونانيين تزايد باطراد خلال القرن التاسع عشر مدعيًا ملكية الأماكن المقدسة على حساب اللاتين ، وقاموا بتطوير المؤسسات الخيرية والمدارس فى ظل البطريركية الأرثوذكسية . وبفضل الضغط الروسى انتقل انتخاب البطرك من القسطنطينية إلى أورشليم ليتمتع بحرية لعدة قرون وتدفقت المساعدات المالية من الحكومة الروسية إلى فلسطين ، وتدفقت رحلات الحج من أقصى الأماكن من روسيا وأوربا الشرقية ، وأصبح الذهب هو المصدر الرئيسى من الثروة الكنسية المتمثلة فى الضريح المقدس والمقدسات الأخرى مثل مياه نهر الأردن والمزود المقدس فى بيت لحم ، وأصبحت الأرض المقدسة رمزاً دينيًا مباركًا للروس وصار حكامهم يتخذونه سبيلاً للنفوذ السياسى فى المنطقة .

وحتى منتصف القرن التاسع عشر لم يفكر الفرنسيون فى استرداد إمتيازاتهم فى فلسطين طالما بقى الروس ضعاف ، ولكن عندما تزايد النفوذ الروسى قررت فرنسا تغيير الوضع الراهن فأصدر لويس نابليون الرئيس الفرنسى

والإمبراطور المنتظر تعليماته فى ١٨٥٠ إلى سفيره فى تركيا بأن يطلب من الباب العالى السماح بإحكام قبضة الكنيسة اللاتينية على الأماكن المقدسة طبقاً لبنود معاهدة ١٧٤٠ ، وكان دافعه إلى اتخاذ هذا الموقف هو حاجته إلى الدعم السياسى للحزب الكاثوليكى ، وقد ثار على الفور النزاع بين الرهبان وتمسكت الكنيسة اليونانية بالفرمان الممنوح لها وتطور الأمر إلى التهديد باستخدام القوة بين فرنسا وروسيا فى هذه البقعة التى حباها الله بالسلام والمحبة بين الناس على حد تعبير وزير الخارجية البريطانية . وقد هدأت حدة الصراع لفترة بعد أن توصل الطرفان إلى اتفاق يمنح الرهبان اللاتين حق المرور عبر كنيسة بيت لحم إلى الكهف الخاص بهم ، ولكنه اشتعل من جديد عندما طالب الرهبان اللاتين بضرورة تملك مفتاح الباب الرئيسى وأحد الأبواب المؤدية إلى المزود المقدس حتى يضعوا عليه النجمة الفضية المقدسة وفانوس على مقبرة العذراء .

كانت هذه هى المطالب الظاهرية التى شغلت تفكير الدبلوماسيين الأوروبيين والتى كانت أساساً إما لإشعال الحرب أو لإقرار السلام ، وهل كان هذا المفتاح مجرد مفتاح أم أداة شريرة لطرد اليونانيين وإدخال اللاتين إلى هذه المناطق . وبعد فترة من الصمت الغامض من جانب الباب العالى قدم الصدر الأعظم الجديد المناهض للروس تنازلاً واحداً للروس فى مقابل عدة تنازلات للفرنسيين وعليها صار من حق فرنسا وضع النجمة الفضية فى بيت لحم ، ومن حق بطرك اللاتين إمتلاك مفاتيح المزار المقدس ، وتسلمهم بالفعل فى يوم عيد الميلاد فى احتفال عام مع الإشارة إلى أن هذا الشرف سيشمل جميع الكنائس . وقد أصاب هذا الموقف اليونانيين والروس بالإحباط ، وثار النزع الدبلوماسى بين الدولتين مرة أخرى وزاد الطين بلة أن القيصر نيقولا رفض فى ١٨٥٢ الإعتراف بنابليون الثالث إمبراطوراً واتبع ذلك بإرسال فرقتين عسكريتين إلى الدانوب فى منطقة بسارابيا إستعداداً لعبور الحدود التركية ، وجعل أسطوله على أهبة الاستعداد فى سباستيبول . وفى فبراير ١٨٥٣م أرسل

القيصر سفيراً فوق العادة إلى الباب العالى فى مهمة صلح وهو الأمير منشيكوف Men shikov (١) ، وكان شخصًا متعجرفًا مكروهًا من الأتراك والإنجليز وأدى أسلوبه الدبلوماسى الخشن إلى قيام الحرب بين روسيا والدولة العثمانية .

وصل منشيكوف على متن سفينة حربية تحمل إسماً يميل إلى التهديد وهو « الرعاد The Thunderer » ، وصحب معه هيئة عسكرية ضخمة وقائد أسطول البحر الأسود بما يعنى أنه حمل رسالة التهديد وليس التصالح ، وبالفعل طلب من السلطان تطبيق معاهدة كوتشوك قينارجة وإصدار فرمان جديد يمنح روسيا حق فرض الحماية على جميع الرعايا الأرثوذكس فى الدولة العثمانية ، وأن يأخذ هذا الفرمان شكل الاتفاقية ، وتوقيع تحالف سرى دفاعى بين روسيا والباب العالى . وبات واضحًا أن هدف هذه البعثة ليس الاستقرار الدينى وإنما تحقيق أهداف سياسية بعيدة المدى . وقد رفض الباب العالى هذا التهديد واعتبره تدخلاً فى شئونه الداخلية ، وكان رد فعل فرنسا هو استعدادها لإرسال أسطول إلى البوسفور وآخر إلى سلاميس فى البحر الإيجى ، أما إنجلترا فقد التزمت الصمت ورفضت الطلب الذى تقدم به القائم بالأعمال الإنجليزى لإرسال أسطول إلى مالطة ، وكل ما فعلته هو أنها أعادت اللورد ستراتفورد دى ريدكليف كسفير لإنجلترا لدى الباب العالى مرة أخرى ،

وصل ستراتفورد فى شهر أبريل ١٨٥٣ إلى استانبول عابراً بحر مرمرة على متن سفينة حربية ودخل إلى قصر السفارة البريطانية ، وحتى هذه الفترة لم يحدث أى تغيير فى الوضع الخارجى كما ذكر ألكسندر وليم كنجليك Alexander William Kinglake ، ولكن مجيئه حمل معه الشعور بالأمان والخوف فى ذات الوقت ، والشئ المؤكد هو أن منشيكوف أصبح من الآن

---

(١) هو الأمير إسكندر منشيكوف الروسى ولد فى سان بطرسبرج (١٧٨٧-١٨٦٩) ، وقاد جزءاً من الجيوش الروسية فى حرب القرم وهزم فى ألما وأنكرمان ١٨٥٤ .
أنظر : La Rousse , p . 1526

فصاعداً أمام خصم عنيد . أظهر ستراتفورد مهارة دبلوماسية واضحة عندما فصل بين موضوعين : الأول النزاع حول الأماكن المقدسة ، والثانى الاقتراحات الخاصة بفرض الحماية الروسية على الرعايا الأرثوذكس . وبالنسبة للموضوع الأول فقد حسم يوم عيد الميلاد بالاعتراف بإدعاءات اللاتين المبنية على الإمتيازات السابقة ، أما الموضوع الثانى فقد اعتبره من الأمور التافهة التى تعبر عن تفاهة صاحبها . وقام ستراتفورد بدور الوساطة بين الطرفين المتنازعين وأظهر براعة فى انتزاع غرور الأمير بخصوص الإدعاءات الروسية فى الأماكن المقدسة ، وواجه السفير أيضًا شعوراً بالغرور من الجانب الفرنسى فطالب السفير الفرنسى بإتباع سياسة الاعتدال وتقدير الموقف الدولى . ثم نشأ الخلاف بين الطرفين حول تحديد مسئولية وتكاليف إصلاح الكنائس وهل يتحملها اللاتين أم اليونانيين ، وبصفة خاصة قبة كنيسة الضريح المقدس . ولم يهدأ هذا النزاع إلا عندما تدخل الأتراك وأخذوا على عاتقهم القيام بهذه المهمة مع وعد من السلطان بأن يتم هذا العمل تحت إشراف البطريركية اليونانية ، وهكذا استطاع استراتفورد ، بعد سبعة عشرة يوماً من وصوله ، أن يصل إلى حل دبلوماسى لنزاع أثار غضب الدول لثلاثة أعوام مضت .

ولكن الأمير منشيكوف صمم على أن يحقق الهدف من بعثته وطالب الباب العالى بضرورة إجابة مطلبه وهو توقيع اتفاقية بفرض حماية روسية دائمة على المسيحيين اليونانيين لضمان الحقوق القديمة والامتيازات والإعفاءات للمذهب الأرثوذكسى وهيئته وموظفيه ، وكان هذا يعنى أن يتمتع ١٢ مليون من الرعايا الأرثوذكس بهذه الحماية ، بينما لم يطالب الفرنسيون بحماية كاثوليكية عامة على اللاتين فى الدولة العثمانية وكان عددهم لا يزيد على بضعة آلاف فقط . وبات واضحًا للجميع أن منشيكوف يطالب بفرض حماية دينية وسياسته فى ذات الوقت .

وقد كشف ستراتفورد للممثل الدبلوماسى الهولندى الموقف بأكمله وأوضح الأهداف العلمانية التى تقوم على تأسيس وجود روسى سياسى فى القسطنطينية ، وأكد أنه إذا حدث ذلك ستكون هناك كارثة للاستقلال والسيادة العثمانية ، وكان يرى أن المعاهدة التى يقترحها الروس والتحالف

السرى يتعارضان مع الرغبة فى ضمان سيادة وإستقلال الدولة العثمانية اللذان يمثلان ضماناً للسلام فى أوروبا ، وهو ما اتفقت عليه روسيا مع إنجلترا والنمسا وبروسيا فى معاهدة لندن ١٨٤٠ ، بل أنه فى عام ١٨٤١ اتفقت روسيا وفرنسا على احترام حقوق السلطان فى السيادة . غير أن منشيكوف الذى كان يعكس الطبيعة المتوترة للقيصر صمم بأسلوبه الديكتاتورى على إجبار الباب العالى على قبول طلباته المتسلطة والتى صاغها فى شكل مذكرة قدمها له مع مهلة قصيرة ، وهدد بقطع العلاقات الدبلوماسية وبرحيل البعثة فى حالة الرفض أو التأخير .

وفى الجانب التركى طلب ستراتفورد من الوزراء الأتراك التحلى بالصبر وهدأ من روعهم ، ولما تأكدوا من وقوف السفير الإنجليزى إلى جانبهم ناقشوا معه إمكانية التوصل إلى حل للمشكلة يضمن الدفاع عن سيادة السلطان وإستقلاله ، وطلب هو منهم عدم اللجوء للحل العسكرى الآن حتى فى حالة احتلال الروس للولايتين الدانوبيين ، وفى ذات الوقت أصدر السلطان تعليماته للقائد الإنجليزى للأسطول البحرى العثمانى بالاستعداد على ألا يستخدمه إلا فى حالة تعرض القسطنطينية ذاتها لخطر محقق وفى الجانب الروسى ظل القيصر نيقولا يزيد الموقف اشتعالاً بإثارة ريدكليف (الديكتاتور) على حد وصفه ، وأثار بذلك المسألة الشرقية برمتها .

وبعد تبادل المذكرات الخشنة من الجانب الروسى والمهذبة من الجانب التركى تسبب منشيكوف فى حدوث إنقلاب فى الوزارة العثمانية بتجاهله للصدر الأعظم حتى أوصله إلى حد تقديم الإستقالة ، وأجبر السلطان الخجول على تشكيل وزارة جديدة تحقق أهدافه يكون فيها رشيد باشا وزيراً للخارجية والذى كان يعتقد أنه متعاطفاً مع التقارب الروسى ؛ وفى مقابلته مع السلطان صمم منشيكوف على عقد التحالف التركى – الروسى دون أى اعتبار للدول الأوروبية وبأسلوب فظ ثم غادر القاعة وهو واثق من النجاح . وقد اضطر رشيد باشا إلى إعداد الرد السلبى على مذكرة منشيكوف التهديدية بمساعدة حليفه القديم لورد ستراتفورد ومعها مهلة لعدة أيام للإجابة عليها ، وقد رفضها منشيكوف بعجرفة ، وكان يظن أن رشيد باشا خادم مطيع ، وقطع العلاقات

مع الباب العالى وألمح إلى العواقب الوخيمة إذا لم تتم ترضيته ، ثم أجل رحيله ليومين أو ثلاثة لإعطاء العثمانيين الفرصة . وقد اجتمع السلطان مع المجلس الأعلى الذى شكله لهذا الغرض وكانت نتيجة التصويت على توقيع معاهدة مع روسيا موافقة ثلاثة أعضاء فقط من الأعضاء البالغ عددهم ٤٥ عضواً . وفى اليوم التالى قدم رشيد باشا عدة إقتراحات لمنشيكوف بالاتفاق مع ستراتفورد تضمنت التوقيع على معاهدة تتنازل فيها روسيا عن كل إدعاءاتها فى الأماكن المقدسة ، ورفض أى شكل من أشكال الحماية على الرعايا اليونانيين الأرثوذكس فى الدولة العثمانية ، ورفض أى تعهد له قوة المعاهدة يمس سيادة السلطان وإستقلاله . وهكذا خدع الأمير فى الحليف الجديد رشيد وعومل باحتقار من جانب خصمه القديم ستراتفورد فما كان منه إلا أن قطع جميع الاتصالات وهدد بسوء العاقبة وغادر ومعه جميع أفراد البعثة الدبلوماسية إلى اليخت الخاص به ولكنه عاد وأجل الرحيل لأربعة أيام إنتظاراً لتحقيق مطالبه .

ثم عقد لورد ستراتفورد إجتماعاً مع ممثلى الدول الأوروبية الثلاثة النمسا وفرنسا وبروسيا لمناقشة المسألة الشرقية بجدية فى محاولة للوصول إلى قرار أوروبى فى هذا الشأن وتوصلوا إلى اتفاق جماعى وقام القائم بالأعمال النمساوى بتوجيه مذكرة إلى منشيكوف ورد عليها الأخير بمذكرة تتضمن رغبته فى عقد اتفاق منفصل مع الباب العالى وإذا وافق فسيؤجل الرحيل عن البلاد . وبرغم أن هاتين المذكرتين اختلفتا من الناحية الدبلوماسية عن المذكرات السابقة إلا أن مضمونهما ظل كما هو فى شكل الإقتراحات الأولية وأضيف إليها طلب فرض الحماية الروسية على السكان الأرثوذكس العلمانيين واللاهوتيين . وقد استجمع السلطان شجاعته ورفض المطالب الروسية ورفض منشيكوف بدوره تغييرها ، وأخيراً فى ٢١ مايو ١٨٥٣ غادر البوسفور إلى البحر الأسود ، وعلم القيصر بفشل المهمة حينما وصلته الرسائل إلى أودسا ، وعبر عن هذا الفشل الروسى ، كما ذكر Kinglake ، قائلاً : « هذا الشرير المناهض للمسيح يريد أن يسحق القيصر وكنيسته بالتحالف مع الإنجليز » .

وهكذا انتهى السلام ولكن لم تبدأ الحرب بعد ، فقد عبرت القوات

الروسية نهر برووث بدون مقاومة واحتلت الولايتين مولداڤيا وولاشيا وأعلن القيصر فرض حمايته عليهما ، ثم تحركت في المقابل السفن الحربية الإنجليزية وبعض القطع الفرنسية إلى مدخل الدردنيل لحمايته وإغلاقه بمقتضى معاهدة ١٨٤١ . وأصبح هناك أسطول إنجليزى قوى أمام جيش روسى قوى ، ولكن لم يخرج الأمر حتى هذه اللحظات عن مجرد استعراض للقوة بهدف تحقيق الأمن ، وكان الروس يأملون فى أن يقدم الأتراك بعض التنازلات حتى يحفظ القيصر ماء وجهه ، والإنجليز يعلقون الآمال على دور الوساطة بالتشاور والتعاون مع الدول الأربع الكبرى للوصول إلى حل سلمى للأزمة .

وكانت التحركات تتضاعف ناحية التسوية الدبلوماسية وكان أولها صياغة المذكرات بأسلوب مهذب هادئ كما حدث فى المذكرة التى وصلت من سان بطرسبرج والتى كررت المطالب الروسية ، والمذكرة التي أعدها الباب العالى بالتعاون مع ستراتفورد وطلبت عقد إجتماع للدول الأربع الكبرى فى ڤينا لإعداد الرد ، ومذكرة تركية أخرى تضمنت الفرمانات التى أصدرها السلطان لصالح الأقليات الدينية فى بلاده ، وكذلك جميع الإمتيازات التى حصلت عليها الكنيسة اليونانية ، ولكن لم تصل هذه المذكرات إلى القيصر لأن المجتمعون فى ڤينا رفضوها وصاغوا مذكرة أخرى دون إستشارة ستراتفورد وكانت بوحى من النمسا التى كان يهمها أمر الولايتين الدانوبيتين ، وقد قبلها القيصر ورفضها السلطان وكانت مبهمة وتتضمن الموافقة المبدئية على أى تعديل قد يضطر إليه السلطان بضمان الدول الكبرى فى شأن العلاقة بينه وبين رعاياه المسيحيين . وقد وجهت الحكومة الإنجليزية اللوم لستراتفورد لرفض هذه المذكرة ووصل الأمر إلى حد مطالبته بتقديم إستقالته وأصبحت الأجواء مهيأة للحرب وانتشرت المظاهرات وأعمال الشغب فى استانبول فى شهر سبتمبر ، وأعلن شيخ الإسلام بتشجيع من وزير الحربية الدعوة على المنابر لإعلان الحرب على روسيا ، وقامت بعض الجماعات من العلماء (رجال الدين) بقيادة مجموعات من طلاب المدارس الدينية وكتبوا عريضة وجهوها إلى السلطان ومجلسه يطالبونهم بإعلان الجهاد وقد اضطرب الوزراء ولجأوا إلى السفراء الأجانب لمساعدتهم فى حفظ الأمن العام .

وقد اتخذت فرنسا خطوة هامة فى المسألة الشرقية حيث كان الإمبراطور

نابليون يرغب فى القيام بمغامرة خارجية تثبت موقفه الداخلى ، فأبلغ السفير الفرنسى لدى لباب العالى بأن يضغط على ستراتفورد لإرسال الأسطولين الفرنسى والإنجليزى إلى العاصمة للحفاظ على أرواح الأجانب ، وكان السفير النمساوى يؤيد هذه الخطوة ، ولكن رفض ستراتفورد هذا الأسلوب الذى يعد خرقًا لمعاهدة المضايق الموقعة فى ١٨٤١ والتى تمنع دخول السفن الحربية إليها ، كما كان يعلم أن أمراً كهذا سيؤدى حتماً إلى وقوع الحرب ، وأخيراً وبمراجعة بنود المعاهدة تبين أنها تنص على بعض الإستثناءات مثل السماح لبعض السفن الخفيفة بالدخول إلى المضايق بهدف حماية العاصمة ، فوافق ستراتفورد على إرسال أربعة سفن بخارية فقط إثنتان فرنسيتان وإثنتان إنجليزيتان إلى القرن الذهبى ، وقد أحدث وجودهم الأثر المطلوب حيث هدأت روح الثورة وتفرقت جماعة العلماء الثائرة .

غير أن هذا الحل السلمى الذى قام به ستراتفورد لم يكن كافيًا ، فقد وصلت الأخبار فى منتصف سبتمبر برفض القيصر التعديلات التركية على مذكرة ڤينا ، ووصلت المعلومات إلى وزير الخارجية لورد كلارندون عن طريق الصحافة الألمانية ، بأن نسلرود المستشار الروسى أعلن أنه ينبغى على الأتراك ألا يمسوا الإعفاءات التى تتمتع بها الكنيسة اليونانية وألا يتدخلوا فى شئون الرعايا الأرثوذكس ، وقد أثارت هذه التصريحات النوايا العدوانية تجاه روسيا فى الدولة العثمانية ، وأدرك كلارندون وستراتفورد أن الأتراك على حق فى موقفهم وفتحت الصحافة البريطانية النيران على القيصر الروسى وطالبت باتخاذ إجراءات صارمة ضده ، وأنكرت الحكومتان الإنجليزية والفرنسية مذكرة ڤينا مع توجيه اللوم والتوبيخ لروسيا ، وهنا بات واضحاً أن الموقف الإنجليزى وصل إلى الذروة وتحول بالفعل من السلام إلى الحرب . ومن ناحية أخرى تزايدت الضغوط الفرنسية فى لندن من جانب السفير الفرنسى الذى نشر تقارير عن الاضطرابات فى استانبول وأعلن أن حكومته ترى أنه ينبغى أن تصدر الأوامر للأساطيل لتبدأ عملها فوراً .

ولم تنتظر الحكومة الإنجليزية تقرير ستراتفورد عن الأوضاع الراهنة وأصدرت أوامرها للأساطيل بالتحرك ، وحرص أبردين رئيس الوزراء الذى كان يتميز بالحرص على أن يعلن أن هذا العمل يحمل الطابع الدفاعى فقط وليس

عدواناً ضد روسيا وأنه لم يتصرف بناء على طلب الإمبراطور الفرنسى ولكنه اتخذ خطوات هامة لصيانة السلام والحفاظ عليه . وفى هذه الساعات الحرجة عقد مؤتمر للوساطة بين النمسا وروسيا فى أولمتز وكان القيصر على إستعداد لتقديم تنازلات من أجل السلام بعد أن وجد نفسه على شفا هاوية الحرب ، فأعلن عن مقترحات جديدة تؤكد على اعترافه بحق السلطان فى حماية الرعايا المسيحيين ، وكانت فرنسا تميل إلى قبول هذه المقترحات ولكن إنجلترا رفضتها لأنها فقدت الثقة فى النوايا الروسية وقررت إعطاء الأوامر للأساطيل للتحرك . وقد أعطى هذا الإجراء دفعة قوية للرأى العام الإنجليزى المناهض للروس . وبالنسبة للباب العالى فقد لقى الحزب المؤيد للحرب تأييداً كبيراً بعد أن وصل الشعور المعادى لروسيا إلى قمته ، كما ألقى السلطان خطبة عى وزرائه وأقسم على تنفيذ قرار المجلس ، وكان القرار المصيرى بإعلان الحرب على روسيا وعززه شيخ الإسلام بفتوى رسمية فى ٤ أكتوبر ١٨٥٣ وفى نفس اليوم تسلم ستراتفورد تعليمات باستدعاء الأسطول ، ولما كان يعلم أن وجوده سيؤدى إلى زيادة التوتر فقد أعلن عن إستعداده لتأجيل التحرك لأسبوعين ، ولكن وصلت التعليمات من باريس إلى السفراء والقناصل الفرنسيين بعدم تأخير التحرك أكثر من ذلك ، فأعطيت إشارة البدء إلى قائد الأسطول البريطانى فى ٢٠ أكتوبر وهو يوم الذكرى السنوية لمعركة نفارين (نوارين) ، ثم أبحر الأسطولان الإنجليزى والفرنسى من الدردنيل بأعلامهما الملونة إلى القرن الذهبى .

وفى اليوم التالى وصلت القوات العسكرية التركية بقيادة عمر باشا إلى الدانوب ، وكان هذا القائد المتسرع قد وجه مذكرة قبل أسبوعين إلى قائد القوات الروسية يطالبه بالجلاء عن الولايتين بعد أن حقق مكاسب سريعة ، ثم أرسل القيصر الروسى تعليماته إلى الأسطول الروسى فى سباستيبول بالاستعداد للتحرك ، وكانت هذه بداية حرب القرم بين الروس والعثمانيين . وحتى هذه اللحظة كانت الدول الأربع العظمى لا تزال ترغب فى السلام وظل ستراتفورد يسعى من أجله ولما جاءه من القيصر أنه سينتظر حتى يبدأ الأتراك بالهجوم منع إرسال الأسطول التركى إلى البحر الأسود حتى لا يشتبك مع العدو ، ومن ناحية أخرى لم يمنع القائدان الإنجليزى والفرنسى إرسال

بعض قطع الأسطول التركى إلى سينوب حيث كان الأسطول الروسى يستعرض سفنه فى البحر الأسود وأكدا أن مهمتها دفاعية وليست هجومية وكانت سباستيبول تقع على بعد ١٠٠ ميل من سينوب وتحصيناتها أضعف من أن تواجه هجوماً قوياً . ثم وصلت رسالة إلى استانبول من القائد التركى تطلب تعزيزات لوجود ستة سفن حربية روسية تحوم حول الميناء ، ولكن حالة الارتباك والتردد التى كانت فى جانب الحلفاء والدبلوماسيين الإنجليز والفرنسيين جعلتهم لا يعيرون الأمر أهمية ، وبرغم عدم وجود سفينة تركية واحدة للمقاومة فقد رفض الأتراك الإستسلام وأطلقوا أول طلقة مدفعية فردت عليها السفن الروسية بشراسة وأغرقت جميع السفن التركية إلا واحدة وقتل حوالى ثلاثة آلاف تركى .

وكانت هذه المذبحة فى سينوب Massacre of Sinope والتى هاجم فيها الروس عدوهم سبباً شرعياً كافياً لبدء الحرب الفعلية وتبعها هجوم آخر على أراضى الأتراك خلف الدانوب . وقد أقام الروس احتفالاً بهذه المناسبة فى سان بطرسبرج فى شكل أوبرا باسم « موقعة سينوب » وأقيمت الاحتفالات العامة وعم الابتهاج الجميع ، أما فى لندن فقد اعتبرت هذه الموقعة مثالاً للخيانة والغدر وأدت إلى تصاعد حمى الحرب ضد روسيا ، وكذلك فضل الإمبراطور الفرنسى العمل العسكرى وأعلن أنه ينبغى تطهير البحر الأسود من الأسطول الروسى وأن تحل محله أساطيل القوى المتحالفة الإنجليزية والفرنسية ، وعند هذه اللحظة توقف العمل الدبلوماسى وحل محله العمل الحربى وكان ذلك فى بداية عام ١٨٥٤ . وأبحرت الأساطيل الحليفة إلى البحر الأسود وفى ذات الوقت أكد السفراء الإنجليز للروس بأنها تقوم بمظاهرة بحرية فقط . أما القيصر الذى كانت يسير فى إستعداداته العسكرية بسرعة ، فقد أرسل لجنة إلى فينا تحمل مقترحات لإمكانية التوصل إلى اتفاق سلام ، ولكن رفضتها الدول الأربع فسحب سفراءه فى أواسط شهر فبراير من لندن وباريس وأمر السفيرين الفرنسى والإنجليزى هاملتون وسيمور بتسلم جوازات سفرهما ، وتسلم من فرنسا وإنجلترا بلاغاً رسمياً مؤيداً من النمسا وبروسيا بسحب جميع قواته من ولايتى الدانوب وأنه إذا لم يستجب سيعد ذلك إعلاناً بالحرب ، ولم يرد .

وفى عام ٢٧ مارس أعلن الإمبراطور الفرنسى أمام مجال الشيوخ أنه دخل الحرب ضد روسيا بالتحالف مع بريطانيا لمقاومة التجاوزات الروسية الخطيرة كما أعلنت الملكة فيكتوريا أمام البرلمان فشل المفاوضات مع روسيا بعد أن أرسلت رسالة للسلطان العثمانى توضح تأييدها له ، وفى اليوم التالى أعلنت الحرب على روسيا ، وبعد أسبوعين أعلن القيصر الحرب وبررها بمهمة مقدسة للدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية ضد إنجلترا وفرنسا اللتين تحالفتا مع أعداء المسيحية ، ثم عبرت القوات الروسية الدانوب لمهاجمة تركيا وكانت إنجلترا وفرنسا قد وقعتا معاهدة مع السلطان تلتزمان فيها بالدفاع عن تركيا ، ومعاهـدة أخرى إنجليزية – فرنسية لتحرير ممتلكات السلطان وضمان أمن أوروبا ، وقـد وصـف Kinglake هـذه المعاهـدات بأنها كانت « القوة الدافعة لحرب القرم » .

وهكذا وجدت روسيا نفسها تخوض غمار حرب جديدة بفضل طموحات القيصر التى لا حدود لها ، وبفضل أسلوبه الدبلوماسى الأهوج وجدت نفسها وحيدة فى مواجهة دول أوروبا والدولة العثمانية المتحالفين ضدها . وفى ربيع ١٨٥٤ عبر جيش روسى ضخم الدانوب وضرب الحصار حول قلعة سلستريا ، وفى نفس الوقت تجمعت القوات العسكرية الفرنسية والبريطانية ؛ تظاهرها أساطيلها فى فارنا ببلغاريا التى تعد مفتاح تركيا الأوروبية على البحر الأسود والمؤدية إلى البلقان . وقد أبلت القوات التركية بلاء حسنًا أمام الغزو الروسى لأن فرق النظام الجديد كانت فى الميدان وبرغم أنه أصابها الوهن وكانت دون المستوى عن الغرب فى القيادة والتنظيم إلا أنها قاتلت برباطة جأش وببسالة تعادل روح المجاهدين القدامى من الأجداد .

وقد قاومت حامية سلستريا الحصار بشجاعة برغم فداحة الخسائر وحينما لقى قائدها حتفه واصل القادة الآخرون القتال تحت رعاية وإرشاد إثنين من الضباط الإنجليز الشبان ومعهم متطوعين من الجيش الهندى ، وهؤلاء قاتلوا بإخلاص وتحملوا المسئولية الدفاعية أمام هجمات الروس ومعاولهم وأثاروا إعجاب القائد الإنجليزى الذى وصل إلى الموقع حديثًا . كذلك أثار الأتراك الإعجاب بثباتهم فى المعارك ومواجهة الأخطار وتعاون الجميع فى تنظيم

الدفاع عن سلستريا من أجل إنقاذها . وقام عمر باشا بتقوية الجيوش العثمانية في شوملا وتعزيزها وسار تجاه سلستريا ثم دخل في معركة مفتوحة مع القوات الروسية المحاصرة للقلعة ، وكانت قوات الحلفاء تعاني من قصور في نقل المعدات فكانوا يسمعون صوت المدافع المتواصل في القلعة من معسكرهم وفجأة وفي صباح آخر أيام شهر يونية توقفت أصوات المدافع وساد السكون بعد أن رفع الروس الحصار عن سلستريا بعد قتال دام خمسة أسابيع ، وبذلك ظل الطريق إلى ممتلكات السلطان في أوروبا مسدوداً أمام القوات الروسية .

وفي مناطق أعالي الدانوب من روتشوك على الجانب الأيمن عبر چورچيا تقابل الأتراك مع قوة روسية وبعد قتال لم يصل الطرفان إلى نتيجة حاسمة حتى جاء الضباط الإنجليز الشبان وأنقذوا الموقف لصالح الأتراك ، وكان عددهم سبعة فرق دخلت في خدمة المعسكر التركي بقيادة حسن باشا ، وهؤلاء استطاعوا في أوائل يونية عبور الدانوب وإجبار القوات الروسية على الإنسحاب ، ثم عبرت قوة أخرى تركية بقيادة الجنرال كانون Cannon ، وهو ضابط هندي خدم في الجيش التركي وصار إسمه بهرام باشا Behram Pasha ، ولم تواجه مقاومة تذكر واستقرت في الضفة المقابلة للنهر ، واستطاعت دحر قوة مشاة روسية وقتلت بعض أفرادها ، وظلت فرق المناوشين بقيادة الضباط الإنجليز الشبان تناوش فرق العدو حتى اكتمل عبور القوات التركية واستقرت في أمان . ولكن واجهت قوة برية كبيرة بقيادة خمسة من الضباط الإنجليز هجوماً روسياً أثناء محاولتهم عبور النهر للحاق بالفرق الأولى ، ونجحت في تحقيق مهمتها بعد وقوع خسائر بها ، وأخيراً أصبح هناك خمسة آلاف مقاتل على الضفة المقابلة للدانوب ، وظلت يومين دون أن تواجه أي مقاومة ثم ظهر القائد الروسي جورتشاكوف Gortchakov مع قوة من التي كانت تحاصر سلستريا وحاول دفع الأتراك بعيداً عن الدانوب ، وعند الظلام ظهر أمامه أسطول من الذوارق الحربية لم يكن في الحسبان ورسا في خليج صغير بين الجيشين المتقاتلين ومد الإنجليز والأتراك جسراً من القوارب

العابرة للدانوب ، وبذلك أصبح مضطراً إلى مواجهة القوات التركية الكاملة فى روتشوك ، فبدأ التراجع والإنسحاب بجيشه عبر بوخارست وترك الأتراك وقد سيطروا على جنوب الدانوب ، وخلال شهر عبرت بقية القوات الروسية نهر بروث وفى نفس الوقت شارك النمساويون فى الحرب بعد توقيع اتفاق مع الباب العالى ، واستطاعوا إجبار الروس على الجلاء بقواتهم عن ولايتى ولاشيا ومولدافيا ، وبذلك أغلقوا الطريق أمام التقدم الروسى إلى أوروبا .

وهكذا تحقق هدف البلاغ الإنجليزى ثم لحقت هزيمة أخرى مهينة بجيش القيصر وانتهت معها بسرعة خططه وأطماعه فى تركيا الأوروبية بفضل مساعدة قلة من الضباط الإنجليز للجيوش العثمانية . وبالنسبة للدولة العثمانية فقد حققت هذه الحرب لها الهدف الدفاعى المطلوب بدفع الروس بعيداً عن المناطق العثمانية وأصبحوا لا يشكلون خطراً مستقبلياً عليها فى البلقان . كما أصبحت الظروف مهيأة أمام الدول الأوروبية لتوقيع معاهدة سلام محترمة ومشرفة بعد أن واجهت روسيا تحالفاً أوروبياً تاريخياً ضدها فى البر والبحر ولم تقو على مواجهة الأساطيل الإنجليزية والفرنسية وكان الإمبراطور نابليون الثالث يعتبر هذه الحرب وسيلة لتمجيد أسرته ، بينما نظر إليها الإنجليز على أنها مغامرة بطولية وركزوا أنظارهم على سباستيبول التى سيطر عليها القيصر نيقولا منذ خمسة وعشرين عاماً وحصنها بالقلاع والترسانات الحربية فكانت تحدياً سافراً للقوات الإنجليزية ، ولذلك كانت تعليمات الوزارة البريطانية واضحة فى هذا المجال وتشدد على ضرورة حصار سباستيبول ، وقام بتنفيذ هذه التعليمات لورد راجلان Raglan القائد العام للقوات الحليفة بمساعدة سان أرنو St.Arnaud القائد الفرنسى واتجهوا شرقاً من فارنا لإحتلال الميناء الروسى فى إيباتوريا ، ولم يواجهوا مقاومة تذكر وانتصروا فى جبهة الدانوب .

لقد كانت حرباً خاضتها إنجلترا وفرنسا ضد روسيا وأثبت فيها الأتراك وجودهم واستفادوا من نتائجها ، فقد بلغت القوات الإنجليزية والفرنسية ٦٥ ألف مقاتل بينما كانت قوات الأتراك قلية العدد وكانت من الباشبوذوق ،

كما سجل لورد لوكان Lucan قائدهم ، فقال أنهم فرق مساعدة فقط ولم يرتدوا الزى الرسمى وتميزوا بالروح القتالية العالية ، وفيما عدا ذلك منهم مثل عصابات قطاع الطرق . وكانت الأساليب القتالية التى استخدمت فى هذه الحرب تقليدية سواء فى الجانب الروسى أو الجانب الغربى ، وتعد حرب القرم الأولى فى التاريخ التى غطتها المراسلات الصحفية التى أدخلتها إنجلترا أثناء حصار سباستيبول ومعارك ألما Alma وإنكرمان Inkerman وريدان وملاخوف وكلها إمتلأت بالبطولات ، وأدت انتصاراتها إلى تعليق الرايات فى الميناء المؤدى إلى بوابات الإمبراطورية الروسية . كذلك أدت حرب القرم إلى تأليف الروايات حول التآلف والاتحاد الإنجليزى - الفرنسى ، وتأججت المشاعر حول معارك وادى الموت وما كابده الجنود المقاتلين من أهوال فى الشتاء قارس البرودة وما حمله من أوبئة ، وحول سيدة السراج التى كانت مثل ملاك الرحمة الذى كان ينشر أجنحته حول الجرحى فى مستشفيات سكوتارى .

وقد تواصلت العمليات القتالية ودافعت القوات التركية عن بلاكلافا وانتقلت فرقة أخرى فى العام التالى إلى إيباتوريا بقيادة عمر باشا وظلت تقاتل فى ظل دفاعات متهالكة وبرغم ذلك أحرزت إنتصاراً على قوة روسية متفوقة ، ومات القيصر نيقولا بعد أسبوعين من هذه المعركة وخلفه إبنه إسكندر الثانى (١) الذى أظهر إستعداداً لإنهاء الحرب والدخول فى مفاوضات السلام . وفى نفس الوقت دارت رحى معركة على الحدود الشرقية لآسيا الصغرى حول قلعة قارص التى دافعت عنها قوات الأتراك بقيادة الضباط الإنجليز دفاعاً مشرفاً ولم تسقط فى أيدى الروس إلا من خلال المجاعة التى حدثت نتيجة تقصير

---

(١) كان إسكندر الثانى إمبراطوراً على روسيا من ١٨٥٥ إلى ١٨٨١ ، وهو ابن القيصر نيقولا الأول ، ودخل فى حرب ضد الدولة العثمانية فى عام ١٨٧٧ انتهت بتوقيع معاهدة برلين ١٨٧٨ .

أنظر : La Rousse , p . 1107

السلطات التركية فى نقل الإمدادات لفك الحصار . وكانت آخر مراحل هذه الحرب هى إرسال قوة قوامها ٢٠ ألف تركى إلى القرم بقيادة الضباط الإنجليز من أجل تسهيل استيلاء الفرنسيين على قلعة ملاخوف وفى سبتمبر ١٨٥٥ سقطت سباستيبول فى آخر معركة من معارك حرب القرم ، وكان الإنجليز يرغبون فى مواصلة القتال ولكن صمم الفرنسيون على التوقف بعد أن تحققت أهداف الإمبراطور نابليون الثالث .

وقد توصلت الأطراف المتحاربة إلى توقيع معاهدة باريس فى ربيع ١٨٥٦ والمعاهدات الملحقة بها والتى سمحت بتبادل تسليم المناطق التى استولى عليها الروس فى آسيا والحلفاء فى أوروبا ، وباستثناء تنازل القيصر لولاشيا عن جنوب بسارابيا ودلتا الدانوب ، والتى ضمها منذ ١٨١٢ ، لم تحدث تغييرات إقليمية ، كما تم تطهير ولايتى الدانوب من الحماية الروسية ووضعت تحت إدارة دولية مع الاعتراف بالسيادة العثمانية ، وأُتفق أيضًا على منح سكانها الإستقلال الذاتى فى الإدارة وحرية العبادة وحرية التجارة وحق تنظيم جيش خاص بهم ، واعترفت المعاهدة بحرية الملاحة فى نهر الدانوب ووضع تحت مسئولية لجنة دولية ، وبحياد البحر الأسود وفتح مياهه وموانيه لجميع السفن التجارية ، وإغلاقها أمام السفن الحربية مع عدم تشييد ترسانات بحرية على سواحله . أما مضيقى البوسفور والدردنيل فقد تقرر إغلاقهما أمام السفن الحربية طبقاً لبنود معاهدة ١٨٤١ ، واعترفت جميع الدول المسيحية باستقلال وسيادة الدولة العثمانية على أراضيها وقت السلم والحرب .

وهكذا انتهت حرب القرم بهذه الشروط التى كلفت البشرية الكثير من أرواح الرجال والخسائر المادية ، وقد أدت معاهدة باريس إلى سيادة الهدوء لعقدين من الزمان فى المسألة الشرقية ، وأبدى السلطان إستعداداً قوياً لتحسين أحوال رعاياه المسيحيين الذين كانت أوضاعهم السيئة من بين الأسباب القوية لإندلاع هذه الحرب .

الفصل الرابع والثلاثون

فى خلال الفترة الواقعة بين نهاية حرب القرم والتوقيع على معاهدة باريس ، سعى لورد ستراتفورد بإصرار مع الباب العالى للتوصل إلى ميثاق إصلاحى جديد للإمبراطورية العثمانية . وقد أعلن خطى - همايون فى أوائل عام ١٨٥٦ وسط إحتفال سلطانى فى محاولة من السلطان لإرضاء الدول المتفاوضة فى باريس ولإظهار حسن نواياه ولكسب إحترام الغرب لبلاده كدولة متحضرة . ويؤكد هذا الخط على المبادئ الإصلاحية التى شكلت أساس التنظيمات لإتمام إطار الماجنا كارتا التركية للقرن التاسع عشر . وقد أوضحت بنود هذا الميثاق أيضًا بشكل أكثر تحديداً من ذى قبل تمتع كافة الرعايا العثمانيين بالحرية والمساواة دون تمييز فى الدين أو الجنس أو اللغة وتطبيق المساواة فيما يتعلق بأمور أخرى مثل دفع الضرائب والتعليم والعدالة وحرية الملكية الخاصة وشغل الوظائف العامة والانتخاب ، والتمتع بحقوق الرعية دون أى تمييز طبقى أو عقائدى . وبالإضافة إلى ذلك ، اتخذ هذ الميثاق وسائل جادة لإصلاح النظام المالى والنقدى للبلاد ، ولتشجيع الزراعة والصناعة وبناء الطرق وشق القنوات .

لقد توج هذا الإصلاح جهود ستراتفورد كمصلح وأصبح بمثابة البرهان على أعماله لتحديث الدولة العثمانية وبعثها من جديد للوقوف فى وجه الإزدراء الأوروبى والعداء الإسلامى . غير أن تفاؤل ستراتفورد لم يدم طويلاً تجاه هذا الإصلاح ، فبرغم أنه يعتمد على بنود معاهدة باريس التى تسجل النوايا الكريمة للسلطان تجاه رعاياه المسيحيين فإنه افتقد قوة الإلزام أو التنفيذ لأن الدول الموقعة على المعاهدة أنكرت أى حق للتدخل مجتمعة أو منفردة فى العلاقات بين السلطان ورعاياه أو فى الإدارة الداخلية لإمبراطوريته .

لقد اعتبرت إنجلترا أن فرنسا خانتها وأنها سعت لتحقيق السلام بأى ثمن ومن أجل روسيا ، وأنها بهذا الأسلوب وجهت ضربة قاتلة للإصلاح فى الدولة العثمانية ، فبغير الضغط الأوروبى سواء من جانب إنجلترا أو فرنسا على السلطان لتنفيذ ما ورد فى فرمان الإصلاح سيصبح مجرد قصاصة من الورق تسجل مبادئ جوفاء . وكان تعليق ستراتفورد على التوقيع على معاهدة باريس هو تسجيل شعوره بالندم لأنه صدق عليها ، وأوضح أن الدول المتحالفة تنازعت فيما بينها منذ بدء المفاوضات وفى المرحلة الأخيرة للحرب ، وأن هدف فرنسا كان إعلاء مكانتها وزيادة نفوذها وتقويته لدى الباب العالى وأن

هـذا تعارض كلية مع آماله وتطلعاته التى كرس له جهوده أثناء عمله فى تركيا . ولكن برغم شعور ستراتفورد بالإحباط فإنه يدعى أنه استطاع التقريب بين الشرق والغرب والذى ظهر واضحًا فى أسلوب الحياة المحترم الذى لم يتخيل أحد أن يحدث فى العقود الأولى للقرن التاسع عشر فى تركيا . وعندما إقترب رحيله لإنتهاء مهمته الدبلوماسية أقام إحتفالاً تاريخياً وقلد باسم سيدته الملكة فيكتوريا ، السُلطان عبد المجيد وسام الفارس ووضع حول عنقه الشريط الأزرق للقديس جورج ولقبه بالشهيد وجندى المسيح بالإضافة إلى سلطان للإسلام ، ثم رحل ستراتفورد عن تركيا بغير رجعة فى أكتوبر ١٨٥٨ وخلفه السير هنرى بلور Sir Henry Bulwer والذى كان يختلف عنه تمامًا ولذلك توقع أن يهدم كل ما بناه ويدمر جميع مكاسبه .

وقد تبين بمرور الوقت أن المشكلة التى واجهت السلاطين العثمانيين وشغلت أذهانهم هي الديون وليس الإصلاح الداخلى ، وهى التى حكمت علاقاتهم بالغرب الأوروبى . فلم يكن المصلحون العثمانيون يمتلكون أى مهارة فى الشئون المالية ومن ثم تطورت الأوضاع بشكل بطئ وأدت إلى أن تصبح البلاد مثقلة بالديون ، فالزيادة المضطردة فى الواردات عن الصادرات ، والفشل فى تنمية الموارد الداخلية أوصلا الدولة إلى هذه النهاية ، وصارت الخزينة خاوية وعجزت الحكومة عن دفع مرتبات الجند وإزداد التضخم وانتشرت الاضطرابات بسبب إزدياد الفقر الذى انعكس على النظرة إلى المصلحين والأجانب .

وحتى يواجه السلطان نفقات حرب القرم اقترض مبالغ كبيرة من حلفائه إنجلترا وفرنسا ، وخلال العقدين التاليين للحرب ومع القصور فى إدارة الإقتصاد الوطنى إزدادت عملية الإقتراض من أوروبا حتى بلغ حجم القروض مئات الملايين من الجنيهات وتحولت إلى دين عام نتيجة عدم الوفاء بالقروض والسندات بالإضافة إلى العمولات الضخمة التى كان يحصل عليها رجال الإدارة المالية والرشى التى كانت تقدم للباشوات العثمانيين . وفى عام ١٨٦١ توفى السلطان عبد المجيد وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره وكان يتميز بكرم الأخلاق والميول الغربية والنوايا التحررية ولكنه افتقد فى ذات الوقت القدرة على اتخاذ القرار وتنفيذه ، كما كان خاملاً ومسرفًا وعجز عن إرضاء الرعايا المسلمين والمسيحيين فى مجال الإصلاح ، وكما فشل فى الحفاظ على

وحدة الجبهة الداخلية وفى إتمام الترتيبات الإصلاحية التى وضعها والده .

وقد خلف عبد المجيد شقيقه عبد العزيز (١) الذى كان يمتلك خصالاً حميدة ولكنه كان يدبر الدسائس مع قوى المعارضة . وبرغم أنه تميز بالوسامة وبالقوة البدنية والنشاط فإنه كان ضيق الأفق وغريب الأطوار وشديد العصبية . وقد أظهر فى بداية حكمه النوايا الإصلاحية والرغبة فى السير على منهاج سلفيه (محمود وعبد المجيد) ، وحاول التحكم فى إسراف القصر السلطانى والإقتصاد فى نفقات الدولة ومواردها ولكنه واجه عقبات مالية ، ففى القصر بالغ شقيقه فى اقتناء الجوارى حتى وصل عدد الخصيان اللازمين لخدمتهن إلى ثلاثة آلاف خصى ، وفى مجال الإصلاح أعاق الخطط الإصلاحية التى قدمها الوزراء إرضاءاً للمعارضة فى الوقت الذى كانت الدول الأوروبية تمارس ضغوطها على الباب العالى من أجل الإصلاح ضاربة عرض الحائط بمعاهدة باريس ، وعندما تدخلوا بشكل جماعى فى ١٨٦٧ وقدمت فرنسا ، بتأييد من إنجلترا والنمسا ، مذكرة إلى الباب العالى تطالب بدفع سياسة الإصلاح قدمًا ، رفضها بشدة ، ولكن رحب بها إثنان من وزرائه التقدميين وهم على باشا وفؤاد باشا واستطاعا فى الأعوام الثلاثة التالية إعادة تنظيم المجلس الأعلى وإدخال إصلاحات جديدة فى مجال القضاء ومجال التعليم .

لقد اختلفت الحركة الإصلاحية كلية فى عهد عبد العزيز عنها فى العهود السابقة ، فهى نابعة الآن من المحكومين وليس من الحكام وتركزت على التغيير الدستورى لا الإجتماعى ، فالسلطان محمود كان حاكمًا أبوياً يسعى لتحقيق مصالح شعبه بروح الكرم والسخاء ، وقد أدرك منذ البداية أنه لن يحقق النجاح فى مهمته التحررية إلا بالقضاء على جميع المعوقات التى فرضت نفسها وتحدت سلطة السلطان المطلقة فى القرون السابقة ، فزاد من سلطاته الاستبدادية بشكل لم يكن متواجداً فى عهود أجداده حتى يستطيع

---

(١) حكم السلطان عبد العزيز من ١٨٦١ إلى ١٨٧٦ .

أنظر : على محمد الصلابى ، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، القاهرة ٢٠٠١ .

فرض إتجاهاته التنويرية التى تقود إلى أولى مراحل التقدم . لقد حاول محمود الثانى المزج بين المعتقدات المتوارثة وتقاليد الإسلام وبين المجتمع الغربى ، وكانت إستمرارية برنامجه الإصلاحى تعتمد على خليفة يتمتع بقوة الإرادة وقادر على تطبيق هذه الطموحات التقدمية ، وهذه الصفات لم تتوفر فى عبد المجيد لأنه لم يستطع أن يستخدم مصادر القوة السلطانية التى استخدمها والده كما عجز عن شغل الفراغ الذى تركه وكذلك بقية السلاطين الذين هم على شاكلته .

لقد واجهت حركة التنظيمات معارضة كبيرة لأنها كانت تسعى إلى التطبيق العملى لحقوق ومصالح رعايا السلطان من خلال مؤسسات جديدة وحكومة مسئولة خالية من العناصر القديمة الممثلة فى قوى العلماء ومصادر السلطة فى الولايات وتعتمد كلية على المراسيم السلطانية وعلى سلطة السلطان . فإذا كان عبد المجيد قد مارس بغير قصد الحكم الاستبدادى فإنه بلا شك ورثه من والده السلطان محمود ، ثم تزايدت قوة هذا التيار الاستبدادى حتى وصلت إلى الذروة فى عهد السلطان عبد العزيز ، فقد حكم حكمًا مطلقًا وعارض جميع المبادئ التحررية وزاد من الحكم المركزى ، الذى اعتمد على إرادته الحديدية ، وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تحول نظام الحكم العثمانى من أوتوقراطية مسئولة إلى أتوقراطية غير مسئولة .

لقد ولدت هذه الأوتوقراطية تيارًا معارضًا عنيفًا شكل نموذجًا جديدًا للإصلاح يختلف كلية فى أهدافه عن الماضى ويعتمد على إيجاد نظام دستورى ديمقراطى ، فالسلطان محمود الثانى وخليفته عبد المجيد سعيًا إلى تحقيق الإصلاح والتقدم من خلال النظام القائم عن طريق تطبيق أساليب الحضارة الغربية عليه فى مجالات العلوم والقانون والتعليم والإدارة ، ولكن الوضع اختلف الآن فقد نشأت طبقة وسطى من الشباب المثقف الواعى Inteligentsia من بين النخبة المستنيرة التى دخلت إلى الجهاز الإدارى فى الدولة ، وكان أفرادها على دراية باللغات الأجنبية وأفكار الغرب ولديهم خبرة بالحياة فى الغرب الأوروبى ، ومن ثم رأوا أن الإصلاح الحقيقى يكمن فى المجال السياسى بعد أن شاهدوا الحكومات البرلمانية والدستورية القائمة على

تطبيق مبادئ الديمقراطية المتحررة ، ولم يعد هدفهم ، فى عهد السلطان عبد العزيز هو إدخال تلك الإصلاحات الغربية المحدودة فى التنظيمات العثمانية بل الذهاب إلى أبعد من ذلك بالبحث عن الوسائل الجوهرية فى النموذج الغربى التى تحد من السلطات الأوتوقراطية فى البلاد .

وكانت هذه المجموعة المعارضة التى تألفت من شباب الأتراك الذين تلقوا التعليم العلمانى تمثل إتجاهًا شرقيًا جريئًا وجديداً واستلهمت فكرة الحرية والوطنية التى سادت الشعوب الأوروبية منذ قيام ثورة ١٨٤٨ ، وكان شعارهم «الحرية» بينما كان شعار حركة التنظيمات «العدالة» ، وهؤلاء تحركوا فى الإطار المحدود للإصلاح وساروا فى الطريق الطويل الذى قد يقودهم إلى الثورة . وقد حددوا هدفهم وهو تأسيس حكومة دستورية فى تركيا على النسق الغربى التحررى ومزجه بأفكار الإسلام وتقاليده . وقد انقسمت هذه الجماعة على نفسها وظهرت بين أعضائها الاختلافات الأيديولوچية والاختلافات حول وسائل تحقيق الغايات ، وبعد فترة تكونت مجموعة نيابية صغيرة أخرى فى عام ١٨٦٥ فى غابة بلجراد الواقعة على البوسفور وأطلقت على نفسها «الحلف الوطنى» وكانت تمثل أول حزب سياسى فى التاريخ التركى ، ثم صار أعضاؤها يلقبون بالشبيبة العثمانية وبلغ عددهم ٢٥٠ عضواً ، وكانت جمعية سرية تعتمد فى تنظيمها على جمعية الكاربونارى (١) فى إيطاليا وعلى جمعية أخرى فى بولندا ويعمل أفرادها فى خلايا سرية ، وكانت بحق لجنة ثورية .

لم يكن هؤلاء المصلحون الجدد من رجال السياسة الذين يفرضون الإصلاح من أعلى ولكنهم كانوا من المثقفين الذين يطلبون الإصلاح من أسفل فاندمجوا فى الأوساط الأدبية والصحفية ، ووجدوا ضالتهم فى اتساع

---

(١) تأسست جمعية الكاربونارى فى مملكة نابولى ١٨٠٧ من المشتغلين بحرق الأخشاب لإنتاج الفحم فى غابات كلابريا ، وكان الغرض منها طرد الفرنسيين من البلاد ، وبعد إنتهاء السيطرة الفرنسية فى إيطاليا ، أصبح هدف الجمعية طرد النمسويين من شبه الجزيرة الإيطالية وتأسيس حكومة دستورية بها .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، أوروبا (١٨١٥ - ١٩١٩) ، دار المعرفة الجامعية ١٩٩٩ ، الفصل السادس .

نطاق ونفوذ الصحافة التركية بعد حرب القرم . وكان رشيد باشا يرعى اثنين من هؤلاء الشبيبة العثمانية قبل وفاته فى ١٨٥٨ أحدهما يدعى إبرهيم شينازى الذى تلقى تعليمه في باريس أثناء ثورة ١٨٤٨ (١) ، وأصدر صحيفة مؤثرة في استانبول ، كما كان شاعراً وكاتباً مسرحيًا . والثانى هو ضيا باشا الذى كان أحد موظفى الخدمة الداخلية فى القصر السلطانى ثم تولى مناصب أخرى أدنى منها ثم هرب إلى باريس ولندن وچنيف فى ١٨٦٧ حيث تبنى قضية المطالبة بإقامة حكومة دستورية فى تركيا وإنشاء جمعية وطنية عثمانية تنقل البلاد تدريجياً إلى الحكم النيابى . أما أكثرهم حماسة وقوة وتطرفًا فى آرائه فكان نامق كمال ، وهو أحد كبار الموظفين العثمانيين وعمل فى مجال الصحافة وكتابة المقالات الصحفية السياسية التى دعا فيها إلى اعتناق مبدئى الحرية والوطن ، وطالب بتمتع الأفراد بالحقوق السياسية وكانت رسالته الثورية تدعو إلى سيادة الشعب ومشورته وأن تكون السلطة التشريعية منفصلة عن الحكومة . وقد حاول نامق كمال أن يوفق بين مبادئ الإسلام ومبادئ برنامجه السياسى بصفته مسلماً مخلصاً ، وأن يستلهم ماضى الإسلام ويعتمد على آيات القرآن فى تدعيم مبادئ الشورى والتمثيل النيابى وحاول أن يوضح أن هذه المبادئ كانت مطبقة فى الإمبراطورية العثمانية قبل حركة الإصلاح . ولكن كان من العسير تقبل هذه الأفكار من جانب من يتعلمون تعليمًا إسلاميًا دينيًا ، فهى تناسب الجيل لذى يتلقى التعليم الحديث ويحتك بالأفكار والقيم الغربية التى لا تتمشى مع الإسلام .

وكان نامق كمال من المعجبين بالنظام الدستورى الإنجليزى ويفضله على نظام نابليون الثالث الاستبدادى ، ويرى أن النظام الأول أفضل نظام سياسى فى العالم لأنه مدعم بقوة الرأى العام وضد التسلط . وقد استقى نامق

---

(١) ثورة ١٨٤٨ قامت فى فرنسا ضد لوى فيليب وتزعمها لويس بونابرت وأقرت الدستور الفرنسى ثم تحولت إلى الإمبراطورية الفرنسية الثانية فى ١٨٥٢ بزعامة نابليون الثالث .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، الفصل الرابع .

تجاربه من خلال وجوده فى المنفى فى لندن وباريس ثم صار حليفًا قويًا للشبيبة العثمانية وللأمير المصرى الثرى الطموح مصطفى فاضل الذى كان من المفروض أن يكون وريث الأسرة الحاكمة فى مصر ليخلف شقيقه الأكبر إسماعيل (١) باشا ، ولكن الأخير حصل على لقب خديوى من السلطان ومعه حق تغيير نظام ولاية الحكم فى مصر لصالح إبنه الأكبر . ولذلك كان فاضل يريد إشباع طموحه فى الحكم بأن يصبح رئيسًا لوزراء حكومة دستورية تركية ، وأرسل إلى السلطان خطابًا مفتوحًا بالفرنسية من باريس ينتقد فيه أوضاع بلاده ويطالبه بإدخال الدستور ، وقد ترجم نامق كمال هذه الوثيقة إلى التركية ، بالتعاون مع رفاقه ، ونشره فى الصحيفة التى أصبح رئيسًا لتحريرها .

وكان رد فعل الحكومة عنيفًا إزاء هذا التصرف فأبطلت قانون الصحافة واتخذت إجراءات صارمة لتقييد حرية إصدار الصحف ، وعهدت إلى لجنة الصحافة بالقبض على هذه الجماعة فهربوا سرًا إلى باريس حيث استضافهم الأمير فاضل ووفر لهم الحماية وسمح لهم باستخدام منزله كمقر للشبيبة العثمانية أو حزب تركيا الفتاة . وفى باريس تقابلوا مع رئيس تحرير صحيفة معارضة أخرى وهو على سويفى الذى هرب من منفاه فى الأناضول ، وتعاونوا جميعًا على إصدار صحيفة باللغة التركية تحمل إسم «الحرية» بواسطة مطبعة أحضرت من استانبول .

وفى صيف ١٨٦٧ قام السلطان عبد العزيز بأول زيارة له إلى باريس ثم إلى لندن ، وكان أول سلطان عثمانى يسافر خارج حدود بلاده فى مهمة غير قيادة الجيش ، وبناء على طلب الحكومة الفرنسية إلى السفير التركى سمح لنامق كمال ورفاقه بالرحيل إلى لندن حيث تولى الأمير فاضل تدبير نفقاتهم

---

(١) إسماعيل باشا (١٨٣٠ - ١٨٩٥) تولى حكم مصر خلفًا لمحمد سعيد فى ١٨٦٣ ، وحصل على لقب خديوى فى ١٨٦٧ ، وافتتح قناة السويس للملاحة البحرية ١٨٦٩ ، واستفحلت الأزمة المالية فى عهده وانتهى الأمر بعزله ١٨٧٩ .

أنظر : La Rousse , p . 1133

فى الأعوام التالية ، وحينما وصل السلطان إلى لندن لفت نظره وسط الزحام أغطية الرؤوس الحمراء (الطرابيش) فاستفسر عن هوية أصحابها فجاءه الرد المختصر من وزير خارجته « إنهم الجماعة التى تعارض جلالتك » . وبعد أن أقام نامق كمال لفترة قصيرة فى ڤينا حيث اشتغل بدراسة القانون والعلوم الإقتصادية وترجمة المؤلفات الفرنسية إلى التركية ، عاد إلى تركيا فى نهاية عام ١٨٧٠ حيث كتب رواية مسرحية وطنية تحمل إسم «الوطن» ، وعرضت فى استانبول أمام جمهور حاشد ، ثم أثنى عليها فى أعمدة الصحيفة الفعالة التى أصبح رئيسًا لتحريرها ، وقد كان موضوعها الدفاع البطولى لقلعة سلستريا ضد الروس فى حرب القرم ، وقد تركز على إبراز مبدأ الإخلاص للوطن وليس للسلطان ولا للمجتمع الإسلامى . وكانت التعليقات الصحفية عليها أنها تحرض على الثورة ولذلك تم إغلاق الصحيفة وصدرت الأوامر بترحيل نامق كمال إلى قبرص حيث قضى بها ثلاثة أعوام .

وفى عام ١٨٧١ توفى على باشا آخر السياسيين المستنرين الذين ينتمون لعصر التنظيمات ، وتوفى قبله بعامين شريكه فؤاد باشا ، وكان على هو الوحيد من بين الوزراء العثمانيين الذى استطاع أن يعبر عن رأيه بحرية ويؤثر على السلطان عبد العزيز ، حتى أنه وصف عند وفاته بعبارة «الرجل الحر» ، فكان قادراً على تنفيذ ما يحلو له حتى لو كان معارضًا للباب العالى مثل التقرب إلى التيار الإسلامى المعارض ومناهضة التعصب للأوربيين والتعصب للأشخاص والإسراف المالى الجامح الذى تميز به السلطان ، كما كان قادراً على كبح جماح التيار الفرنسى المتحرر بعد هزيمة نابليون الثالث فى الحرب البروسية – الفرنسية (١) وإنهيار النفوذ الفرنسى .

لقد أصبحت إصلاحات التنظيمات العثمانية والميثاق الأخير (خط

---

(١) قامت الحرب البروسية – الفرنسية فى ١٨٧٠ وهُزمت فيها فرنسا وسقطت الإمبراطورية الفرنسية الثانية بزعامة نابليون الثالث وأسس بسمارك الإمبراطورية الألمانية الموحدة فى ١٨٧١.

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، أوروبا (١٨١٥ – ١٩١٩).

همايون) فى هذه الفترة ورقة خاسرة ، ومن ثم تحققت التوقعات المظلمة التى تنبأ بها لورد ستراتفورد دى ريدكليف ، وبداية من عام ١٨٧١ فصاعداً بدأت الإمبراطورية العثمانية فى معايشة العواقب الوخيمة التى ترتبت على فشل الإصلاح وأصبحت على شفا كارثة مالية . وفى أعقاب هذا الفراغ السياسى انتقل مركزة القوة مرة أخرى من الباب العالى إلى القصر السلطانى حيث أعلن السلطان بغرور أنه يعتزم الحكم مثل قيصر روسيا ويجعل وزراءه مسئولين أمامه وليس أمام الصدر الأعظم ؛ وكان أول صدر أعظم بعد هذا التصريح هو محمود نديم الذى تميز بالطموح ولكن بدون مبادئ ، فقد تميز بالطاعة العمياء للسلطان ، فإزدادات الفوضى الإدارية فى صدارته حيث قام بنفى الوزراء السابقين وجعل الباقين يعملون بلا هدف بنقلهم باستمرار من وزارة إلى أخرى بدون سبب واضح حتى يضمن عدم منافستهم له أو معارضة قوة السلطان الاستبدادية .

وفى عام ١٨٧٢ عزل عبد العزيز محمود نديم من الصدارة العظمى وعين خلفًا له ستة من الصدور العظام فى فترة لا تزيد على ثلاث سنوات وجعلهم مجرد مسئولين صوريين للخضوع لرغباته ، وكان يرفض استشارتهم فى تعيين الوزراء . وكان أولهم وأكثرهم شهرة هو مدحت باشا الذى يعد أحد أعمدة الإصلاح الدستورى كما كان سبباً فى التعجيل بعزل نديم . فهو من الذين تدرجوا فى خدمة الباب العالى حتى أصبح والياً متميزاً وتمتعت الولايات التى حكمها بالأمن والأزدهار متبعاً سياسة الإصلاح الإدارى فيها بعد أن كانت تعانى من الخوف والفقر لفترة طويلة . ولكن مدحت باشا سرعان ما أثبت أنه أكثر قوة وقدرة على الإستقلال عن السلطان واستطاع أن يظل فى منصبه ثلاثة أشهر بعد أن تغلب على دسائس عديدة ، وانتهى الأمر بإعادة نديم مرة أخرى للصدارة العظمى .

وفى هذه الآونة أصبحت نزوات السلطان واضحة وغير عادية فكانت توحى بجنون العظمة وتثير الشكوك حول توازنه العقلى والعاطفى ، فقد إزداد استبداده حيث كان يصر على أن يسجد الوزراء أمامه ويقبلون أقدام إبنه ، وأمر كل مسئول يحمل إسم «عزيز» بتغيير اسمه بصفة رسمية ، وتلاعب بأرواح الجنود حيث كان يأمرهم بالاشتباك فى معارك وهمية ويسخر منهم وهو يأكل

كميات ضخمة من البيض ، وزاد ولعه بمشاهدة صراع الديكة حيث كان يأمر بخلع الأوسمة والنياشين على الديك المنتصر .

وفور عودته من جولته فى عواصم أوروبا سعى السلطان لمحاكاة ما رآه من مظاهر الفخامة هناك التى تركت لديه انطباعاً قوياً وكان يأمل أن يتفوق عليها بأسلوب سلطانى شرقى ، فدعا الضيوف الأجانب الملكيين إلى قصر ضلمة باغچة حيث أقام إحتفالات خيالية تفوق الوصف كلفته ما يقرب من مليونين من الجنيهات .

وفى مجال التشييد والبناء تأثر أيضًا بعجائب التقدم العلمى الأوروبى فخصص مبالغ ضخمة لبناء سفن حربية حديثة ومد شبكة خطوط حديدية فى أرجاء الإمبراطورية وفى ظل الأزمة المالية التى تعانى منها البلاد أعلن بتحدى أنه سيبنى خط سكة حديد بغداد على نفقته الخاصة .

لقد كلفت منشآت السلطان المدنية الخاصة خزينة الدولة مبالغ كبيرة وصلت إلى حوالى ١٥ ٪ من جملة الإنفاق العام ، ولذلك كان الطريق السهل هو الإستدانة من البنوك الغربية ، وكان المستثمرون الأوروبيون يلاقون التشجيع من خلال البيانات المتفائلة عن المصادر الطبيعية التركية وغض الطرف عن العجز فى هذه الموارد أو تنميتها أو إدارة الشئون المالية . وكان الأتراك يلجأون إلى الحصول على المزيد من القروض الأجنبية لدفع الفوائد للمستثمرين بدلاً من محاولة زيادة عوائد الدولة ، وقد عبر رتشارد كوبدين Richard Cobden عن هذا الوضع قائلاً : « إن تركيا كانت تسدد الفوائد من القروض وليس من دخلها » . ونتج عن ذلك أن ارتفع الدين العثمانى خلال عشرين عامًا من أربعة ملايين إلى ٢٠٠ مليون جنيه ولم تحدث أى زيادة فى موارد الدولة ، وإمتصت تكاليف هذا الدين حوالى ٥٠ ٪ من الدخل السنوى للحكومة ومن ثم لاحت فى الأفق بوادر كارثة إقتصادية .

ومن عام ١٨٧٣ فصاعداً واجهت البلاد فترة من الجفاف والمجاعة فى الأناضول أدت إلى إنتشار الفقر والتذمر ، وإزدادت فى فصل الشتاء حتى أن الذئاب كانت تهيم فى أحياء استانبول وتعقر الناس ونفقت الحملان والثيران على نطاق واسع ، وكان الناس يتضورون جوعًا فى القرى ثم يموتون فى

الطرقات دون أن يدفنوا ، وأثرت الأزمة الزراعية على إنخفاض العوائد الضريبية ، ولم تجد الخزينة السلطانية الأموال اللازمة لتسيير دفة العمل الحكومى وكانت النتيجة إنهياراً ماليًا ضخماً . وفى أكتوبر ١٨٧٥ أعلنت الحكومة العثمانية فى الصحف أنها لن تستطيع تسديد سوى نصف الفائدة للدائنين نتيجة العجز المالى وأن النصف الثانى سيؤجل إلى الخمس سنوات التالية بواقع ٥ ٪ فائدة ، وقد أثار هذا التصرف غضب الطبقات الرسمية والأرمنيين واليونانيين الذين أقرضوا الحكومة .

وقد أدت المشكلات المالية للحكومات العثمانية إلى إنتشار الثورة الداخلية ضد السلطات المحلية فى بعض المناطق مثل الجبل الأسود والبوسنة وتحولت إلى حرب أهلية بين الهلال والصليب برغم تمتع هاتين المنطقتين بنوع من الحكم الذاتى وكذلك كان الحال فى الصرب ، كما عمت الثورة بلغاريا جيلاً بعد آخر ثم انتشرت فى شبه جزيرة البلقان بأكملها . وفى بلغاريا ظهر قائد ثورى اعتبر نفسه « نابليون السلاف» ونشر الرعب هو ورفاقه ضد المسلمين الأتراك وذبحوا بعضهم ، ولكن استطاعت القوات غير النظامية التركية قمع هذه الثورة والإنتقام من البلغاريين وارتكاب فظائع غير إنسانية لم يعرفها التاريخ من قبل ، حيث سويت بعض القرى بالأرض وأقيمت المذابح العامة التى راح ضحيتها فى شهر واحد ما لا يقل عن ١٢ ألف مسيحى ، وتركزت هذه الأعمال المشينة فى قرية بلطاق Baltak حينما أشعلت الفرق غير النظامية النيران فى إحدى الكنائس التى لجأ إليها آلاف المسيحيين للإحتماء ، وقتلت خمسة آلاف من سكان القرية البالغ عددهم سبعة آلاف .

وقد نقلت المراسلات الصحفية الإنجليزية أخبار هذه المذابح إلى العالم كله كما حدث فى أخبار معارك حرب القرم ، ووصفت جريدة Daily News للقراء أكوام الجثث التى بلغ ارتفاعها ثلاثة أقدام فى الكنيسة وكانت عبارة عن رؤوس وأيدى وأرجل القتلى . وأوضحت كيف استخدم الأتراك قواتهم غير النظامية الهمجية وهى عادة من التتار للقيام بهذه المذابح . وقد أدى هذا الوصف إلى انتشار السخط العام على الأتراك ، فكتب زعيم الأحرار

جلادستون Gladstone (١) مقالاً عن هذه المذابح تحت عنوان "Bulgarian Horrors" أو الفظائع البلغارية .

ودعا فيه الأتراك إلى الرحيل وطالب بالتخلص منهم . وقد تسببت هذه المذابح ، بالإضافة إلى الأزمة المالية التركية ، فى نشر حالة من الرعب من الأتراك فى بريطانيا عرفت بـ Turcophobia . كما وصفهم سير هنرى إليوت السفير البريطانى فى استانبول بالوحشية وعدم التحضر . ومن ناحية أخرى أظهر الإنجليز الندم على موقفهم المتعاطف والمؤيد للأتراك فى حرب القرم ، وكتب لورد دربى (٢) وزير الخارجية المحافظ مؤكداً أنه إذا أشعلت روسيا الحرب ضد الباب العالى فإن الحكومة الإنجليزية لن تتدخل بأى حال من الأحوال ، وقد أعلم الجنرال إجناتيف ، السفير الروسى لدى الباب العالى ، القيصر بأنباء المذابح البلغارية ووجد الأخير فى ثورة الرأى العام الإنجليزى ضد تركيا الفرصة التى كان يحلم بها وهى التأييد الإنجليزى لروسيا .

وقد واظبت روسيا على سياستها التقليدية وهى تشجيع العناصر السلافية المسيحية فى الولايات البلقانية على الثورة ضد السلطان ، ووجد الجنرال إجناتيف بغيته فى الصدر الأعظم محمود نديم الذى شاركه المعارضة لسياسة الإصلاح لأنها تؤدى إلى تقوية النفوذ الغربى فى البلاد ، وإنطلاقاً من هذه السياسة اتخذ إجناتيف موقفاً معارضاً لمدحت باشا المصلح عند وصوله إلى السلطة ونجحت دسائسه فى عزله ، وبعدها أخذ يحث السلطان عبد العزيز على التمسك بسيادته المطلقة كما هو الحال فى روسيا . وعندما أعاد السلطان نديم إلى منصب الصدارة العظمى صار إجناتيف سيد الموقف فى القسطنطينية

---

(١) هو وليم إيوارت جلادستون سياسى بريطانى وزعيم حزب الأحرار منذ ١٨٦٥ ، وتولى رئاسة الوزارة البريطانية لأربعة فترات .

أنظر : La Rousse , p . 1372

(٢) هو ابن إدوارد ستانلى زعيم حزب المحافظين . وقد تولى دربى وزارة الخارجية البريطانية ثم وزارة المستعمرات وعاش من ١٨٢٦ إلى ١٨٩٣

أنظر : La Rousse , p . 1291

وجعل السلطان يستمع لنصائح خصومه القدامى ويتخذ مواقف غير ودية تجاه أصحاب السندات من الإنجليز والفرنسيين . وفى أوائل صيف ١٨٧٦ قام حوالى ستة آلاف من طلبة المدارس الدينية فى المساجد الثلاثة الكبرى فى استانبول بالتظاهر أمام قصر الباب العالى وطالبوا بعزل الصدر الأعظم محمود نديم والمفتى الأكبر ، ويقال أن بعضهم نصب سقالات حول المبنى للصعود عليها فى محاولة لخطف الصدر الأعظم وخنقه ، وهذا النوع من الثورات من جانب طلاب المدارس الدينية مألوف فى الدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر ولكن الثورة اختلفت هذه المرة لأنها كانت تهدف إلى تغيير الوزارة وكان مدحت باشا هو الذى يتولى تمويلها وتنظيمها لخدمة الحركة الدستورية للشبيبة العثمانية .

وقد أذعن السلطان لثورة الطلاب وعزل المفتى الأكبر ومحمود نديم وعين بدلاً منه رشدى باشا ، وصار مدحت رئيساً لمجلس الوزراء ، ومنذ هذه اللحظة صارت كلمة «الدستور» على لسان الجميع . وكان الدستور الذى يرغب مدحت باشا فى إيجاده هو القائم على مبادئ الحرية والمساواة والمسئولية الوزارية أمام مجلس استشارى وطنى به ممثلين عن جميع الطبقات دون تفرقة فى الجنس أو العقيدة ، أى يصبح السلطان والوزراء مسئولين أمام هذا المجلس وله حق الحد من سلطتهم الإستبدادية المطلقة وفق النموذج الإنجليزى . وقد دعمت هذه المبادئ الديمقراطية بآيات من القرآن الكريم وتضمنت ضرورة موافقة السلطان على مراعاة حقوق شعبه وتطبيق الشريعة الإسلامية وأن الشعب غير ملزم بالطاعة للسلطان الذى لا يرعى مصالحه ، وقد عكست هذه المقترحات نفس المقترحات التى طرحها الأمير مصطفى فاضل من قبل فى خطابه إلى السلطان فى ١٨٦٧ والذى طلب فيه إدخال تغييرات فى نظام الحكم . وهكذا جاءت التغيرات المطلوبة من الشعب من أسفل وليس من أعلى ، وتأكدت حينما وقع المسلمون الوطنيون على عريضة حسن النوايا العثمانية ووزعت على الساسة فى أوروبا ، ولكنها ظلت سرية فى الداخل لأنها تناقش إمكانية عزل السلطان «الشقى المجنون» .

لقد كانت هذه بالفعل النوايا الحقيقية لوزراء السلطان ولذلك سعوا لدى

المفتى الأكبر لإصدار فتوى تجيز عزل السلطان . وقبل فجر يوم ٣٠ مايو ١٨٧٦ أحاطت كتيبتان عسكريتان بفناء القصر وكذلك بعض الزوارق البحرية على جانب البوسفور ، ووضع كذلك زورق فى مقابل المقر الصيفى للسفارة الروسية ليمنع تدخل إجناتيف ، ثم تقابل مدحت ورفاقه فى وزارة الحربية حيث قرأ عليهم المفتى الأكبر فتوى عزل السلطان وكانت الأسباب هى : الخلل العقلى والجهل بالسياسة الخارجية والإسراف وتبديد أموال الدولة والإضرار بمصالحها ومصالح الشعب . ثم أقسم الوزراء بالطاعة لابن شقيقه مراد الخامس الذى كان قد أحضر من سجنه الخاص .

وفى الفجر أعلنت طلقات المدفعية الصادرة من السفن البحرية تغيير السلاطين ، ولم يعترض عبد العزيز ووقع على خطاب التنازل وعاد إلى القصر القديم على البوسفور . وقد تعاطف الشعب فى استانبول مع هذا الإنقلاب الأبيض (بدون إراقة دماء) وهنأ الوزراء بعضهم البعض وشبهوا هذا الحدث بحادثة تدمير الانكشارية منذ نصف قرن مضى ، كما شعرت الأوساط الطلابية بأهميتها وبدورها فى إحداث التغيير وعزل الطاغية ، ورحبت أيضًا العناصر التحررية بعزل السلطان وصارت وظائف القصر مفتوحة أمام الشبيبة العثمانية أو أعضاء تركيا الفتاة وعلى رأسهم نامق كمال الذى عاد من قبرص وأصبح السكرتير الخاص للسلطان الجديد ، وبالنسبة لمدحت باشا فقد تطلع إلى تحقيق ما يتمناه من إصلاح دستورى فى الإمبراطورية ، ولكن للأسف لم تتحقق أمنيته لأن السلطان مراد الخامس الذى أظهر فطنة واضحة بفضل تعليمه الجيد وإدراكه للثقافتين الغربية والشرقية ، والذى ترك إنطباعًا طيبًا لدى الأجانب عندما صاحب عبد العزيز فى رحلته إلى أوروبا ، جعل السلطان يشك فيه بعد العودة بسبب اتصالاته مع العناصر المتحررة فى داخل البلاد وفى المنفى وأجبره على العيش فى عزلة تحت رقابة صارمة . وقد أثرت هذه العزلة على طبيعته وجعلته يدمن شرب الخمر ، ثم صدرت منه تصرفات تنم عن جنون واضطراب عقلى عقب علمه بمقتل السلطان عبد العزيز (يقال أنه انتحر بقطع شرايين يده بالمقص) .

وظل السلطان مراد عاجزاً عن إدارة شئون الدولة أو الظهور أمام الناس ،

وفحصه الأطباء الأتراك والأجانب وقرروا أنه مصاب بإنهيار عصبى شديد وسيبرأ مع الوقت ، ومع تزايد الأزمات السياسية الداخلية والخارجية فى الدولة والحاجة إلى حاكم قادر على مواجهتها قرر الوزراء عزله وتعيين شقيقه الأصغر عبد الحميد الذى كان يعيش فى عزلة مثل مراد ، ووقع اختيار الوزراء على مدحت باشا ليسأل عبد الحميد إن كان يقبل تولى الحكم أن يرفض بسبب مرض مراد ولكن عبد الحميد رفض بشدة فى البداية ، وبرغم أنه كان يطمع فى العرش إلا أنه صمم على طلب شهادة طبية بعجز مراد عن الحكم ، وكان فى ذات الوقت على إستعداد لتقديم بعض التنازلات . وعندما قدم له مدحت باشا فى الزيارة الثانية مسودة الدستور الجديد المقترح من أعضاء لجنة تضم رجال الدولة والعلماء على نسق دساتير القرن التاسع عشر فى بلچيكا وبروسيا ، قرر قبول العرش ووعده بأنه سيحقق له ثلاثة شروط وهى: إعلان الدستور وإقامة الشورى وإعادة تعيين السكرتارية الخاصة لشقيقه مراد .

وقد توسل نامق كمال ، أحد أعضاء لجنة الدستور ، لرفاقه لتأجيل عزل مراد ولكن دون جدوى ، حيث صدرت الفتوى الشرعية من المفتى الأكبر بعزله بعد حكم دام ثلاثة شهور بسبب مرضه العقلى ، ثم أعلن عبد الحميد الثانى (١) سلطاناً وأدى يمين الولاء ، وانتقل مراد إلى قصر البوسفور وعاش به حتى العقد الأول من القرن العشرين . وقد أعلن السلطان الجديد الدستور العثمانى فى ديسمبر ١٨٧٦ وعين مدحت باشا صدراً أعظماً ، ولم تطابق وثيقة الدستور المعلنة تطلعاته لأن السلطان عدّل فى المسودة الأصلية وأكد على عدة أمور مثل : مراعاة الشريعة الإسلامية فى جميع الأمور والحفاظ على إمتيازاته وتجنب وضع شروط خاصة والتقليل من بعض الأمور المحددة التى وضعها مدحت باشا ، وفى النهاية إتهم نفسه بالتسرع فى إيجاد حكومة دستورية لأنها ستخلق مشكلات عديدة فى المستقبل . وبرغم ذلك فإن مسألة قبول السلطان لإعلان الدستور تمثل فى حد ذاتها الذروة فى المطالب الإصلاحية التى دامت لقرن من الزمان ، وتعد قوة دافعة للتطور السياسى الذى

---

(١) تولى السلطان عبد الحميد الثانى الحكم من ١٨٧٦ إلى ١٩٠٩ .

يقوم على مبدأ ضرورة استشارة الشعب العثمانى والإستماع إليه وقد قدم مدحت باشا الشكر للسلطان وأعلن بداية عهد جديد من الرخاء ، وفى اليوم التالى استدعى البطاركة اليونانيين والأرمنيين وأكد لهم أن الدستور الجديد يضمن المساواة بين أصحاب جميع الديانات فى البلاد ، ثم أعلنت مدافع القصر السلطانى لعامة الشعب فى استانبول ، المسلم والمسيحى ، الحريات الجديدة .

الفصل الخامس والثلاثون

لقد تزامن إعلان الإحتفال بالدستور العثمانى مع دعوة السلطان عبد الحميد لسفراء ست دول أوروبية للإجتماع فى استانبول فى محاولة لإحتواء غضبهم ، وفى الجلسة الأولى للمؤتمر تلى على الحاضرين ميثاق الدستور . وهذا المؤتمر جاء أساسًا نتيجة مبادرة بريطانية لبحث الأوضاع فى البلقان ومحاولة التوصل إلى اتفاق بين روسيا والسلطان لتوفير الحماية للسكان المسيحيين فى أوروبا وإدخال بعض التعديلات على نظامهم الإدارى . ففى عام ١٨٧٦ كانت الثورة قد انفجرت فى البلقان وتحولت إلى حرب مفتوحة ضد الباب العالى من جانب الصرب والجبل الأسود بدعم من روسيا . وخلال ثلاثة شهور استطاع الأتراك هزيمة الصرب ، ولم يعترض طريقهم إلى بلجراد سوى التدخل الروسى والتصميم على عقد هدنة بين الطرفين . وبمساعدة ألمانيا قامت روسيا والنمسا بتقديم مذكرة برلين لفرض الإصلاحات على الباب العالى ، وطلبوا العون من بريطانيا بشكل غير مباشر ، ولكنها رفضت المذكرة والتعاون لأن الدول السابقة لم تطلب مشورتها وكذلك فرنسا وإيطاليا فى الإجراء الذى قامت به والذى عبر عنه دزرائيلى رئيس وزراء إنجلترا بقوله : « إنهم يطلبون موافقتنا على وضع السكين على رقبة تركيا ، إنه إحتلال عسكرى لأراضى عثمانية ويتعارض كلية مع إستقلال وسيادة تركيا التى تعهدت بريطانيا بصيانتها » .

وحتى يطمئن الباب العالى قامت البحرية الإنجليزية بإرسال بعض وحدات من أسطولها فى البحر المتوسط إلى مدخل الدردنيل ، ثم دعت إلى عقد مؤتمر القسطنطينية السابق ذكره فى محاولة لمنع وقوع الحرب التى تستعد لها روسيا .

وقد أوقع إعلان الدستور المجتمعين فى حيرة لأنه يعنى أن الباب العالى فى غنى عن تدخل ومساعدة الدول الكبرى والتى كانت قد فقدت الثقة فى الإصلاح العثمانى بناءًا على التجربة السابقة واعتبرته نوعًا من التجمل الخارجى بينما الجوهر كما هو ، وكانت تفترض أيضًا أن السلطان سيطلب مساعدة الغرب ضد التهديد الروسى ، ولم تتحقق غايات الدول الأوروبية تبعًا لذلك وانتهى المؤتمر فى ١٨٧٧ نهاية فاشلة ، وبعد وقت قصير وقع الباب

العالى اتفاقاً منفصلاً مع الصرب يقوم على مبدأ الحفاظ على الوضع الراهن . وغادر اللورد سالزبورى المندوب البريطانى استانبول واضعاً فى اعتباره أن الحرب واقعة لا محالة . وفى الواقع كانت مهمة إنجلترا تواجه فى هذه الفترة مصاعب جمة وخاصة منذ وقوع المذابح البلغارية التى أدت إلى إختلاف وجهات نظر الوزراء البريطانيين ، بالإضافة إلى حملات جلادستون التى أثارت الرأى العام الإنجليزىُ ضد تركيا ، فقد ألقى العديد من الخطب وعقد الإجتماعات فى جميع أنحاء البلاد ينتقد فيها الحكومة التركية السيئة وقسوتها فى التعامل مع الرعايا المسيحيين فى بلغاريا ، وأطلق على الأتراك «المتوحشين» ، وتعاطف معه اللورد ستراتفورد دى ريدكليف الذى فضل مد الحماية البريطانية على الرعايا العثمانيين المسيحيين المقهورين فى جميع أنحاء البلقان .

أما اللورد داربى وزير الخارجية البريطانى فقد انتقد حملة جلادستون الشعواء ضد الأتراك ودعوته إلى إرسال حملة صليبية لطردهم من أوروبا ، وأبلغ السلطان أن الجرائم البلغارية أثارت الرأى العام البريطانى وطالبه بمعاقبة المعتدين وتعويض المتضررين ، ولقى هذا الاتجاه استحسان روسيا التى كانت تفكر فى إعلان الحرب على تركيا وتفضل عدم تدخل بريطانيا إلى جانب الأتراك ، ولكن داربى حذرها من المساس باستانبول أو البوسفور أو مصر أو قناة السويس ، ثم تأكدت روسيا من النوايا الإنجليزية فى حال نشوب حرب من السفير البريطانى ، بالإضافة إلى أن غالبية مجلس الوزراء البريطانى كانت تعارض مساندة تركيا فى حربها مع روسيا .

وخلاف ذلك أعرب رئيس الوزراء البريطانى ، الذى كان من المتوقع أن يرقى إلى مجلس اللوردات وصار إسمه اللورد بيكونز فيلد (١) ، عن إتجاه أكثر إستعداداً للحرب ضد روسيا التى كان يخشى من توسعاتها الإستعمارية ولا يثق

---

(١) هو بنيامين دزرائيلى أو اللورد بيكونز فيلد (١٨٠٤ - ١٨٨١) . وكان رئيساً للوزراء فى ١٨٦٨ ومن ١٨٧٤ إلى ١٨٨٠ ، وهو زعيم حزب المحافظين والمسئول عن توقيع معاهدة إحتلال إنجلترا لقبرص فى ١٨٧٨ .

أنظر : La Rousse , p . 1296

فى إدعاءاتها ، وكإمبريالى بعيد النظر ، ظل دزرائيلى يؤمن بضرورة الحفاظ على سيادة وإستقلال الإمبراطورية العثمانية ، وهو المبدأ الذى أعلنه بامستون من قبل وتم التأكيد عليه فى معاهدة باريس ، واعتبره مسألة حيوية بالنسبة للمصالح البريطانية منذ افتتاح قناة السويس والحاجة الماسة إلى حماية المواصلات الإمبراطورية ضد أى هجمات أو تهديدات من الجانب الروسى . وكان موقف دزرائيلى تجاه المذابح البلغارية مشوب بالشك فى صحة المعلومات التى نشرتها إحدى جرائد المعارضة والتى اعتقد أنها تحوى بعض المبالغات ووصفها بأنها مثل « ثرثرة المقاهى » . وفى الحقيقة كانت الفظائع البلغارية فوق أى شك رغم أن أعداد القتلى كانت نصف ما تم الإعلان عنه فى الجرائد وذلك من خلال تحريات القنصلية البريطانية ، ولكن كان التساؤل هو : هل ما حدث يعد سببًا كافيًا لأن تتخلى بريطانيا عن تعهداتها وتغير سياستها التقليدية القائمة على حماية تركيا تحت أى ظرف ضد الخطر الروسى كما حدث فى حرب القرم ؟

وفى خطاب سياسى ألقاه دزرائيلى فى الحزب فى إيلسبورى Aylesbury ، وهى دائرته الإنتخابية ، أدان إنزعاج جلادستون ووصفه بأنه «عمل غير وطنى» ويضر بالمصالح البريطانية ويفسد السلام فى أوروبا ، وكتب منتقداً هذا الموقف أيضاً قائلاً : « إن جلادستون يريد أن يتورط فى مجزرة مع العالم كله من أجل المذابح البلغارية » . وفى مناسبة أخرى ألقى خطاباً رسمياً حماسيًا لصالح الإستقلال التركي وندد بالإلحاح الروسى لشن حرب . وقد فسر السلطان عبد الحميد هذا الخطاب الحماسي بأنه يعبر عن سياسة بريطانيا الرسمية واقتنع بأن الدعم البريطانى مضمون فى حالة الحرب مع روسيا ، ومن ثم رفض أى تسويات يقترحها المؤتمر ، وفى ذات الوقت أعلن القيصر إسكندر الثانى نواياه العدوانية على الشعب الروسى فى موسكو وتصميم روسيا على القيام بعمل أحادى ما لم يقدم الباب العالى الضمانات الكافية التى تطلبها أو تصل إلى حل وسط مع الدول الكبرى ، ولكن رفض الباب العالى جميع هذه المطالب لتعارضها مع معاهدة باريس .

وتلى ذلك أن أعلنت روسيا الحرب على الإمبراطورية العثمانية وسارعت

إلى عقد اتفاق سرى مع النمسا بالوقوف على الحياد فى مقابل حصولها على البوسنة والهرسك فى حالة الغزو الروسى للبلقان . وأفاق السلطان على الفور من أوهام الدعم البريطانى بعد أن ظهر الإنقسام فى وزارة بيكونزفيلد بين فريقين : فريق مثل الليبراليين وهؤلاء يريدون الإنضمام لروسيا ضد تركيا ، وفريق يؤيد الملكة ڤيكتوريا التى فضلت أن تتخلى عن منصبها بدلاً من أن تظل ملكة تقبل أرجل البرابرة الذين هم ضد الحرية والحضارة ، فقرر رئيس الوزراء أن يتخذ موقفًا وسطًا يعبر فيه عن رفضه للتصرف الروسى ولكن دون التدخل إلى جانب الأتراك كما حدث فى حرب القرم وذلك بسبب رفض الرأى العام البريطانى ، وهو ما أطلق عليه موقف الحياد المترقب ، وانتهى الأمر بأن وجد السلطان نفسه مضطراً إلى الدخول فى حرب ضد روسيا بمفرده وبغير حلفاء .

وفى الأسبوع الأخير من أبريل ١٨٧٧ غزا جيشان روسيان الإمبراطورية العثمانية ، الأول فى أوروبا والثانى فى آسيا حيث تقدم إلى قارص وأردهان وأرضروم . وفى أوروبا سلك الروس طريق رومانيا التى تعد مفتاح أوروبا ، وقد اضطرت روسيا إلى هذا الغزو البرى بعد أن سيطر الأتراك على البحر الأسود بفضل السفن المدرعة التى تركها السلطان عبد العزيز ، ثم قامت بتوحيد ولايتى ولاشيا ومولداڤيا وصارت دولة تابعة تتمتع بالحكم الذاتى وهى دولة رومانيا ، ولكن الأتراك انتقموا لهذا التصرف وقصفوا أحد الحصون الرومانية فأعلنت رومانيا الحرب على تركيا وأعلنت نفسها كدولة مستقلة وصارت دعمًا قويًا وفعالاً للروس فى تقدمهم إلى بلغاريا . وبالفعل دخل القيصر إسكندر بلغاريا كمحرر وأوجد إدارة مدنية جديدة بها وحل محل الأتراك وأعلن للسكان «أطيعوا السلطات الروسية» وتواصلت الإعتداءات الروسية على الأتراك فى تراقية وفى سهل ماريتزا واقترب تهديدهم لأدرنة ولاستانبول ذاتها .

ولكن تغيير مجرى الأحداث إثر تعيين السلطان لإثنين من القادة العسكريين الأكفاء وهما : محمد على حاكم كريت السابق لقيادة القوات العثمانية فى أوروبا والذى نجح فى إلحاق الهزيمة بقوة روسية وأجبرها على التراجع إلى البلقان وكبدها خسائر فادحة . وعثمان باشا وهو من قادة حرب

القرم والذى نجح فى هزيمة قوة روسية فى شمال البلقان ، واستطاع بناء حصن عسكرى قوى زوده بسدود ترابية ومتاريس وخنادق فى بلڤنا Plevna وتمكن بسرعة من السيطرة على الطرق المؤدية إلى قلب بلغاريا . وهكذا فوجئ الروس بعدوهم الذى استخفوا به وقد تحول إلى قوة ضاربة تحت قيادة جيدة ومسلحة بالبنادق التى جلبها السلطان عبد العزيز من أمريكا وهى من نوعية متفوقة على البنادق الروسية القديمة .

وأمام هذا الموقف الجديد وبعد أن أقام عثمان باشا المزيد من المتاريس وعمل على تقوية خطوطه الدفاعية ، حصل الروس على تعزيز عسكرى من جيش الأمير تشارلز (١) فى رومانيا والذى اشترط قيادته بنفسه . ثم وقع هجوم جديد حقق فيه الروس والرومانيون انتصاراً على الأتراك ورفعوا الأعلام الروسية والرومانية ليومين ، ولكن فى اليوم الثالث تراجع الرومانيون وحل الهلال محل النسر الروسى على أسوار بلڤنا . وبعد هذه الهزيمة اقتنع الروس بأن الإستيلاء على بلڤنا لن يتم إلا بالتنسيق مع الرومانيين ووضع خطة مشتركة لحصار القلعة حتى تتضور حاميتها جوعًا . وقد عانى عثمان بالفعل من الشتاء القارس ونقص الذخيرة وعدم وصول التعزيزات برغم أنه كسب إعجاب الغرب الأوروبى لشجاعته الحربية ، وبرغم أن السلطان وعده بإرسال جيش ضخم . وعندما ساءت أوضاع الحامية ونفذ المؤن وأخذ جنوده يبحثون عن القطط والكلاب والجرذان والفئران ليأكلوها بينما الضباط الروس يأكلون الكاڤيار ، قرر القيام بهجوم فجائى من الحصن ضد القوات الروسية ولكنه أصيب برصاصة طائشة فى قدمه وقتل جواده فانتشرت الشائعات بأنه مات وساد الرعب فى الجيش التركى كله واعتقد الجنود الأتراك أنهم بلا قائد فتركوا الروس يحتلون الحصن وفروا هاربين .

---

(١) الأمير تشارلز الأول أو كارول الأول وهو من عائلة الهوهنزلرن (١٨٣٩ - ١٩١٤) - كان أميراً على رومانيا من ١٨٦٦ إلى ١٨٨١ ثم صار ملكًا من ١٨٨١ إلى ١٩١٤ .

أنظر : La Rousse , p . 1240

وأخيراً وقع عثمان باشا إقرار إستسلامه الرسمى ودخل الروس البلدة بعد أن رفرف عليها العلم الأبيض ومات الكثير من جنده فى الأسر وأجهز البلغار على الباقين بكل وحشية . واستعد الروس فى أعقاب ذلك وعند نهاية عام ١٨٧٧ للإستيلاء على صوفيا ، كما استطاع جيش روسى آخر دخول أدرنة واقتريب من استانبول ، وحقق الصربيون وجنود الجبل الأسود أكثر من إنتصار فى جميع أنحاء البلقان ، وهدد اليونانيون بشن حرب . وفى آسيا استولى الروس على قارص وأردهان وأرضروم أى الجزء الأكبر من أرمينيا الشرقية . ثم دخلت بعض القوات الروسية إلى استانبول ونشرت الفزع فيها مما أثار قلق إنجلترا ، وطلب الباب العالى تدخل الدول الكبرى ولكن دون جدوى ، وأوغرت بريطانيا صدر السلطان بتقاعسها عن نجدته وساء الوضع واضطر النساء والأطفال والرجال الأتراك إلى الهرب من طريق الجيش الروسى واحتشد خمسة آلاف منهم داخل مسجد أيا صوفيا .

وأثار طلاب المدارس الدينية الاضطراب فى البلاد وطلب السلطان اللجوء من السفير البريطانى إذا استدعى الأمر ، ثم أرسل برقية إلى الملكة ڤيكتوريا لتتدخل لعقد هدنة ، وأحيل طلبه إلى القيصر الذى لجأ إلى المراوغة ، وأخيراً قرر الدوق الأعظم نيكولاس التفاوض حول الشروط المبدئية لمعاهدة سلام كشرط للموافقة على هدنة ، وواصل فى نفس الوقت تقدمه حتى وصل إلى بلدة سان استيفانو الواقعة على بحر مرمرة على بعد عشرة أميال من أسوار مدينة استانبول . وفى الجانب الإنجليزى قرر اللورد بيكونز فيلد إرسال خمسة سفن حربية من الأسطول البريطانى إلى بحر مرمرة منتصراً بذلك على المعارضة داخل وزارته ، وزعم للروس أنها جاءت لتحمى أرواح الإنجليز وممتلكاتهم . ثم حصل بيكونز فيلد على تصويت جماعى من البرلمان بمنحه ستة ملايين جنيه استرلينى ليضع القوات المسلحة البريطانية على أهبة الاستعداد للحرب .

ووسط هذه الأجواء المليئة بالإثارة وجد بيكونز فيلد نفسه بطلاً وطنيًا وتجمعت الحشود حوله فى ساحة البرلمان ، وعاد الرأى العام البريطانى مرة أخرى إلى وضعه السابق بالوقوف إلى جانب الأتراك وبنفس الروح التى سادت حرب القرم . وفى لندن تردد نشيد يقول :

نحن لا نريد الحرب ولكن لو أردنا
فسوف تجدونا وطنيتنا
فلدينا الرجال ولدينا السفن
ولدينا من المال ما يرد المحن

وقد هدأت الشوفينية (١) لفترة بعد أن استجاب الروس للتهديد البريطانى وهجروا فكرة إحتلال استانبول ، وبعث القيصر برقية بهذا المعنى إلى السلطان ، وبذلك لم يتحقق الأمل الروسى فى استخلاف حكام البوسفور وفرض معاهدة الإستسلام فى القسطنطينية ذاتها . وألقى الروس اللوم على بريطانيا فى هذا الأمر وعلى سفيرها الداهية سير هنرى لايارد ، والذى لقبوه بـ لاى - هارد Lie- Hard أى الكذوب .

وفى ٣ مارس ١٨٧٨ عُقدت اتفاقية ثنائية بين روسيا وتركيا فى سان استفانو ، وظلت سرية لبعض الوقت ، ولم يعلن عن بنودها التى تضمنت إقرار المصالح الروسية فى البلقان بإنشاء دولتين سلافيتين مستقلتين وهما دولة الجبل الأسود الذى تضاعفت مساحته وزاد عدد سكانه على حساب جيرانه ودولة الصرب أما البوسنة والهرسك فقد تمتعتا بالاستقلال فى ظل السيادة الإسمية للسلطان ، وكوفئت رومانيا على تعاونها مع روسيا فى الحرب بمنحها الإستقلال . كذلك كوفئت بلغاريا وتزايدت مساحتها وصارت تشبه الإمبراطورية البلغارية التى سادت فى العصور الوسطى وتحكمت فى أراضى جنوب الدانوب من البحر الأسود حتى بحر إيجة وتحكمت أيضاً فى موانيهما ، ولكنها ظلت تحت السيادة الإسمية للسلطان وتحت حكم أمير روسى وحكومة روسية وبذلك صارت معقلاً للروس فى قلب البلقان يمكن الهجوم منه على استانبول فى أى وقت .

---

(١) الشوفينية Jingoism تعنى الوطنية المتطرفة .

وكانت معاهدة سان استفانو خرقاً صريحاً للمبادئ العرقية من وجهة نظر الأوروبيين والبلقانيين ، وكانت كما رآها بيكونز فيلد أداة لتقليص سلطة السلطان التركى وقبوله الخضوع التام لروسيا ، فأعلن احتجاجه على هذه الهيمنة الروسية ، وطلب عرض هذه المعاهدة على الدول الأوروبية كما حدث فى معاهدتى ١٨٥٦ و١٨٧١ ، وطرح بنودها للمناقشة فى مؤتمر عام ، وعندما رفضت روسيا هذا الإقتراح استدعى بيكونز فيلد الإحتياطى الخاص بالجيش وأمر قوة هندية بالتقدم إلى قناة السويس ومنها إلى مالطة . وتزامن ذلك مع التعبئة العامة للجيش النمسوى - المجرى للدفاع عن مصالحهما فى البلقان . ويضاف إلى ذلك أن الحكومة البريطانية تبنت القضية اليونانية وأعلنت أنها مستعدة لاستخدام نفوذها لمنع ذوبان اليونانيين فى دولة سلاڤية . أما الشعوب البلقانية المسلمة فقد اتجهوا إلى الملكة ڤيكتوريا والتمسوا منها إقامة العدل كإمبراطورة للملايين من الرعايا المسلمين . ومن جانب آخر كون الألبان رابطة تسمى «الدفاع حتى الموت» ضد أى محاولة لإحتلال أراضيهم . وفى ظل هذا المناخ المتأزم عدل القيصر عن إتجاهاته وخططه الأصلية فى بلغاريا ، وصار الطريق ممهداً لعقد مؤتمر أوروبى تم افتتاحه فى برلين فى صيف ١٨٧٨ ورأسه بسمارك (١) .

وأدى توقيع معاهدة برلين من جانب الدول الكبرى الستة فى خلال شهر إلى إلغاء إتفاقية سان استفانو ومشروع «بلغاريا العظمى» ، وبدلاً من ذلك تم تقسيم بلغاريا إلى قسمين : القسم الشمالى وضم ميناء ڤارنا ومنح الإستقلال الذاتى فى ظل السيادة الإسمية للسلطان ويحكمه أمير بموافقة روسيا والباب العالى والقوى العظمى . والقسم الثانى عرف بروميليا الشرقية ويشمل جنوب البلقان ووضع تحت السلطة السياسية والعسكرية المباشرة للسلطان . وقد

---

(١) هو أوتو ڤون بسمارك (١٨١٥ - ١٨٩٨) ، وزير الإمبراطور ولهلم الأول فى ١٨٦٢ ، ومؤسس الوحدة الألمانية وصاحب نصر سادوڤا ١٨٦٦ على النمسا ، وسيدان ١٨٧٠ على فرنسا . وهو الذى كون التحالف الثلاثى مع النمسا وإيطاليا من أجل عزلة فرنسا ، ثم اعتزل السلطة فى ١٨٩٠ بعد وصول ولهلم الثانى إلى العرش .

أنظر : La Rousse , p . 1181

اعترض الروس في بادئ الأمر ثم خضعوا أمام إصرار بيكونز فيلد الذى رأى ضرورة عودة الوجود التركى إلى أوروبا مرة أخرى . ومع هذا الوضع الجديد أصبح هناك تهديد للوجود الروسى فى شرق البلقان وفى غربه أيضاً عن طريق زيادة النفوذ النمساوى فى البوسنة والهرسك والذى جاء تطبيقًا للمعاهدة السرية التى وقعت قبل الحرب بين النمسا وروسيا ثمناً لحياد الأولى .

وقد أعادت معاهدة برلين رسم خريطة البلقان لصالح الدول الجديدة وهى الصرب والبوسنة والهرسك وحقوق تركيا فى سنجق نوفى بازار . أما الدولة التى عانت من الظلم الروسى فكانت رومانيا والتى اشترطت روسيا فى مقابل منحها الإستقلال ضرورة إحتلال جزء من جنوب الصرب ، وتحت الضغوط الدولية وافقت روسيا على إحتلال دبروچة الموحشة بدلاً من المنطقة الأخرى التى حددتها فى البداية . وفى النهاية لم تحظ اليونان بأى زيادة فى مساحة أراضيها بمقتضى معاهدة برلين ، غير أنها استطاعت الإبتعاد عن تهديد الحكم البلغارى ، وظلت كريت تحت الحكم التركى برغم الاعتراضات التى أثارها رعاياها المسيحيين . كما لم يطرأ جديد على أوضاع المناطق التركية الأخرى فى أوروبا مثل مقدونيا وتراقية وألبانيا وجزء كبير من أبيروس .

لقد اعتبر بيكونز فيلد معاهدة برلين «معاهدة سلام مشرفة» وأن إنجلترا استطاعت من خلال الدبلوماسية تجنب حرب كبرى ، كما استطاع بسمارك تدعيم مصالح بروسيا من خلال تقوية سلطات النمسا والمجر فى غرب البلقان بما لديها من قدرة على تحسين أوضاع السكان المسلمين والمسيحيين . واستطاعت الدول الأوروبية فى هذه المعاهدة إيجاد قدر من السلام فى البلقان ولو أنه قصير المدى إلا أنه ساهم فى إستقرار المنطقة إلى حد ما ، كما استطاعوا إنقاذ أراضى الإمبراطورية العثمانية فى أوروبا من خطر الفناء الوشيك ومنحها فرصة الحياة من جديد . وفوق كل ذلك استطاعت هذه الدول الحد من الطموحات الروسية التى وضعت معظم الإمبراطورية العثمانية تحت سيطرة القيصر الروسى .

لقد كانت القوة المتصاعدة المتوقعة فى البلقان هى القومية البلقانية التى حلت محل الإمبريالية الروسية ، وهذه بزغت فى أوائل القرن التاسع عشر فى

شكل حركات التمرد المتتابعة فى الصرب واليونان والتى تماثلت مع الروح القومية فى أوروبا الغربية بهدف تحقيق الحرية للأقليات البلقانية . وقد ساعد على بزوغ هذه القوميات المبدأ الذى وضعه مؤتمر برلين وهو «الأراضى البلقانية للشعوب البلقانية» ، وكانت هذه القوميات تمثل سداً فى وجه الإمبريالية الروسية بعد أن صارت الجيوب الصغيرة أمماً لها شأنها . وكما قرر بسمارك فيما بعد أن شعوب البلقان قبلت المساعدة الروسية للتحرر من الأتراك ولكنها لم تكن مستعدة لقبول القيصر كخليفة للسلطان ، وأن مؤتمر برلين وضع نظاماً لأوروبا الشرقية يختلف عن أى نظام آخر نتج عن صراعات سابقة .

وفى آسيا ، احتفظ الروس بأقاليم قارص وأردهان وباطوم ، الأمر الذى أدى إلى توسعهم ناحية الحدود الغربية لآسيا ووضع ترسيم للحدود بين تركيا وروسيا فى هذه المنطقة . وبفضل جهود بيكونز فيلد احتفظ الأتراك بمدينة بايزيد التى كانت تمثل خطاً دفاعياً هاماً تجاه الشرق فى الطريق المؤدى إلى فارس ، وأعيد الوضع السابق لمضيق الدردنيل كم كان قبل الحرب ، كما وعد الأتراك بإدخال إصلاحات وتحسينات على أوضاع السكان الأرمنيين وحمايتهم من الأكراد . وهكذا وقع على كاهل بريطانيا حماية الأتراك ، وقد اتخذت إجراء وقائياً ضد محاولة روسيا استرداد الأراضى المفقودة فى المستقبل ، فعقدت اتفاقاً سرياً مع الباب العالي تحتل بمقتضاه قبرص حتى تتمكن من مساعدة السلطان فى الدفاع عن الأقاليم الآسيوية ضد أى هجوم روسى ، وفى المقابل كانت بريطانيا تدفع للسلطان جزية سنوية من فائض الدخل فى قبرص ووعد هو من جانبه بالتعاون معها فى إدخال الإصلاحات المقترحة . وصارت قبرص «جبل طارق جديد» يساعد على عزل روسيا عن شرق المتوسط ، ويوفر الحماية لخطوط المواصلات الإمبراطورية البريطانية مع الهند ، ويعمل على تحجيم المصالح والإمتيازات الروسية فى هذه المنطقة ، ويؤدى إلى تحكم الحكومة البريطانية فى الحكومة العثمانية فى استانبول .

وفى الحقيقة كانت إنجلترا تشك فى النوايا الإصلاحية للسلطان عبد الحميد مع تقديرها للجهود المخلصة من جانب مدحت باشا والجيل الناضج

من المصلحين الدستوريين العثمانيين الذين ساندوه . فقد اعتبرت السلطان أوتوقراطياً فى طبيعته وتفكيره وأنه يملك شخصية انتهازية أفصحت عن نفسها من خلال التعديلات التى أدخلها على المسودة الأصلية للدستور والتى اتضح فيها عزمه الشديد على حماية حقوق الحاكم وليس المحكومين وحاول إظهار واجهة غير حقيقية فى مؤتمر القسطنطينية ليمنع تدخل الدول الكبرى فى شئون دولته ، وبمجرد إنتهاء المؤتمر عزل مدحت باشا بشكل تعسفى ووضعه فى اليخت الإمبراطورى ونفاه إلى إيطاليا . ومما يدعو للسخرية أنه اتخذ هذا الإجراء طبقاً لبنود الدستور التى أضافها فى اللحظة الأخيرة وأصر فيها على منحه حق طرد كل من تؤكد معلومات الشرطة أنه يمثل خطراً على أمن البلاد ، وبعد ثلاثة سنوات تم استدعاء مدحت باشا مرة أخرى من المنفى وصدر الحكم الجديد بإعدامه ثم خفف إلى المؤبد ثم اتجه إلى الجزيرة العربية وبعدها تم اغتياله فى عام ١٨٨٤ .

وهكذا حُكم بالموت على الحريات الفردية التى نص عليها ميثاق التنظيمات ، فقد اعتبر عبد الحميد أن مدحت باشا يمثل تهديداً للحقوق الشرعية للسلطان ويسعى لتقليص سلطته المطلقة ، وأن الأمة مسئولة أمام السلطان وليس العكس ، وأن السلطان وحده هو صاحب الحق فى إصدار الأوامر وتوجيه دفة الحكم . وفى محاولة أخرى للمراوغة ، أمر السلطان بإجراء انتخابات عامة ، وتعد الأولى من نوعها فى دولة إسلامية ، وفى مارس ١٨٧٧ اجتمع البرلمان العثمانى لأول مرة ، وكان يضم مجلساً للأعيان من ٢٥ شخصاً تم تعيينهم ، ومجلساً للنواب ضم ١٢٠ شخصاً بالترشيح وانتخبوا تحت ضغوط رسمية من خلال عملية غير دستورية بالمرة . وضم هذ البرلمان ، كما أراد مدحت باشا ، مسيحيين ويهود وأتراك وعرب يمثلون جميع قطاعات المجتمع حتى لو لم يكن هناك تناسب فى أعدادهم . وكان عبد الحميد يرى فى هذا البرلمان مجرد إجتماع صورى تم اصطناعه ليعطى الشكل القانونى والتأييد الشعبى للترتيبات التى يريد فرضها على الشعب .

وبرغم ذلك ، اكتسب هذا البرلمان هوية خاصة لأنه ضم مجموعة متنوعة من النواب من كل أقاليم الإمبراطورية المترامية الأطراف ، يجتمعون

لأول مرة ويتبادلون الأفكار والخبرات ويكشفون النقاب عن المشكلات المشتركة ، ويهاجمون الوزراء والباشوات متهمين إياهم بالفساد والإنتهاكات المتعددة ، ويطالبون بإجراء إصلاحات جذرية على مستوى الدولة بأسرها . وكان من بين هؤلاء النواب رجال يتمتعون بإستقلالية التفكير وبعيدين عن الأهواء وكان يمكن أن يتحول نقدهم إلى خطة إصلاحية داخلية يستفيد منها السلطان ، ولكن حل السلطان المجلس بعد ثلاثة شهور من انعقاد جلساته ، ثم استدعاه مرة أخرى فى ١٣ ديسمبر ١٨٧٧ لمواجهة الموقف الحرج للحرب الروسية ، وفى الخطاب الافتتاحى للبرلمان قال السلطان أنه يطلب من «ممثلى الأمة التعاون والتمسك بروح وطنية لحماية حقوقنا الشرعية» وأنهاه بقوله «ليبارك الله جهودنا» . ثم وقعت الهدنة التى شاركت الحكومة فى الوصول إليها فى ٣١ يناير ١٨٧٨ ، فأثار هذا الأمر أعضاء المجلس وطالبوا باستجواب ثلاثة وزراء محددين بعد أن وجهوا إليهم عدة إتهامات ، وهنا أوقف السلطان جلسات البرلمان لأجل غير مسمى ، ولم يجتمع مرة أخرى لمدة ٣٠ عاماً .

وكان عبد الحميد يتعامل مع لجنتى الشيوخ والنواب بنفس أسلوب جده السلطان محمود وليس والده السلطان عبد المجيد الذى سعى للإصلاح عن طريق التشريعات القائمة على الحرية ، وأعلن قائلاً : «إننى أدرك أنه عن طريق القوة وحدها يمكن توجيه الناس الذين أوكل الله إلى حمايتهم» .

وبعد ذلك صرح لمراسل أوروبى مؤكداً أنه ليس ضد الإصلاح ، «ولكن الإفراط فى الحرية أمر لا يقل خطورة عن غياب الحرية» . ومنذ ذلك الوقت حل الحكم الفردى للسلطان محل الدستور الوليد ، وصار الشباب العثمانى الذى ينشد الإصلاح بعيداً فى ظل سياسة الإقصاء والمحاكمة ويواجهون جيشاً من الجواسيس فى الداخل ، على حد وصف نامق كمال الذى نفى هو الآخر مع الآخرين الذين تحولوا إلى جيش من الثوريين . وقد عبر عن هذا الوضع صديقه صنيا قائلاً : «لا شئ سوى الأسى ينتظر من يدينون بالولاء لهذه الإمبراطورية ، فالجنون الخالص هو مصير هؤلاء الناس وهذه الدولة» .

القسم السابع

نهاية السلاطين

الفصل السادس والثلاثون

كان عبد الحميد رجلاً تعيساً قاسي القلب فقد الشعور بالحب تجاه الجميع حتى نفسه منذ أن فقد أمه الجركسية وهو فى سن السابعة ، وعاش وحيداً معزولاً فى شبابه وابتعد عن الأقران والرفاق وجميع المحيطين به برغم أنه لم يكن فى القفص بل زار أوروبا فى مطلع الشباب مع عمه السلطان عبد العزيز ، وإنما نسج حول نفسه بنفسه سياجاً من العزلة . وقد ظهر هذا السلوك عند توليه الحكم حيث آثر أن يعيش ويحكم من خلف جدران قصر يلدز الحصينة على ضفاف البوسفور ، بعد أن هجر قصر ضلمة باغچة مقر والده والذى ألقى بظلال عظمته على المياه المحيطة به ، وطلب توسيع الكشك النجمى الشكل ، والذى شيد خصيصاً لإحدى المحظيات ، وأزال المنازل المحيطة به وأعد حدائقه لتكون مضرباً للخيام والبيوت الخشبية الجميلة بعد أن ضم إليها بعض الأراضى التى كان بها مقبرتين لاثنين من الرعايا المسيحيين ، وأقام به عدداً من المكاتب للموظفين والسكرتارية وثكنات ومساكن للحرس . وصار هذا هو البلاط السلطانى الصغير مركز الحكم يدير منه شئون البلاد ، ويمثل قمة العزلة والأوتوقراطية المطلقة التى نادراً ما عرفها التاريخ العثمانى .

لقد كان هذا البلاط مركزاً للخوف ، خوف عبد الحميد على أمنه الشخصى وعدم ثقته فى جميع الرجال المحيطين به وفى دوافعهم مما خلق لديه حالة من الشك والعصبية ، وظهرت هذه الحالة واضحة منذ أول حكمه بسبب إندلاع ثورة تحررية فى استانبول بوازع من شخص يدعى على سواڤى Ali Swavi قاد شباب الأتراك العثمانين الذين عادوا من المنفى بهدف عزل السلطان وتولية شقيقه المعزول مراد الخامس . وقد دخل على قصر مراد على البوسفور ومعه عدد من أعوانه المسلحين وطلب منه أن يتقلد سيفه ويتبعه ، ولكن تملك الرعب من مراد وهرب عائداً إلى جناح الحريم ، وأدى هذا التأخر إلى إعطاء الفرصة للشرطة للحضور حيث نجح قائدها فى قتل على سواڤى بالسيف ومجموعة من أعوانه وجرح آخرون ونفى من تبقى ، ثم نقل مراد فيما بعد إلى كشك آمن وسط حدائق قصر يلدز .

وكان لحركة على سواڤى أثرها فى سلوك السلطان وفى إتزانه العقلى خاصة بعد أن فسر جواسيس القصر هذا التمرد على أنه ثورة عامة ، وقد

لاحظ هذا التأثير السفير البريطانى ليارد Layard أثناء زيارته للسلطان لمناقشة بعض الأمور الدبلوماسية ، إذ اعتقد السلطان أن السفير مدسوس عليه وأنه شريك فى مؤامرة لخلعه وتولية مراد العرش ، وقد روى ليارد كيف كان السلطان منزوياً فى أحد أركان القصر يرتعد وحوله الحرس الخاص . ومنذ هذه الحادثة تحولت شكوك عبد الحميد ومخاوفه إلى مرض عصبى ملازم له ، وأصبح قصر يلدز مثل القلعة وأغلقت بواباته من الداخل ، وشيد السلطان جداراً دائرياً جديداً حوله وعدداً من الثكنات لحرسه الألبانيين الذين بلغ عددهم بضعة آلاف ، ووضع نقاطاً للمراقبة بين أسوار القصر وبها مراصد قوية للتحكم فى جميع المناطق المجاورة للبوسفور والقرن الذهبى للمساعدة فى تأمين القصر ضد أى تهديدات محتملة من أى اتجاه . وقد وصل الأمر بالسلطان إلى عدم الخروج من القصر على الإطلاق حتى أنه شيد مسجداً عند بواباته لأداء صلاة الجمعة فيه بدلاً من الخروج إلى مساجد العاصمة .

كان عبد الحميد شاحباً صامتاً كئيباً يتوقع الخطر من كل جانب ومن جميع المحيطين به ولذلك أحاط نفسه بجيش من الجواسيس والوكلاء والبوليس السرى أو المخبرين السريين الذين أمدوه بتقارير يومية عن أحوال البلاد ، وفى هذا الصدد إنتشرت مقولة بأن نصف سكان استانبول كانوا مكلفين بالتجسس على النصف الآخر . وكان عبد الحميد من الحكام الذين أحكموا قبضتهم على كل شئون الدولة ، وكان يعمل من الصباح حتى المساء ، ومن الزاهدين فى الحياة ، ويعانى من عسر هضم مزمن ولذلك عاش على وجبة صغيرة مع الماء وابتعد عن كل ما يمكن أن يصيبه بالأوبئة أو الكوليرا ، وشغل نفسه بكل الأعمال التفصيلية الإدارية مثل مراجعة العقود والأذون والإلتماسات وحسابات التجار . ونتيجة لفقدانه الثقة فى جميع وزرائه وموظفيه استغل الخلافات القائمة وأشعل نيران الحقد والبغضاء بينهم حتى لا يتحدوا ويرتكبوا أعمال الخيانة ضده ، وقبض على زمام الأمور وكان يصدر الأوامر والتعليمات للجميع بصفة شخصية ومباشرة من خلال السكرتارية الخاصة ، وبذلك فقد الصدر الأعظم مكانته التقليدية ولم يعد الواسطة بين السلطان والوزراء أو رئيساً لموظفى الدولة .

وكان عبد الحميد يحكم إعتماداً على الحق الإلهى فى السلطة وأقام دولة بوليسية بيروقراطية مركزها قصر يلدز تتمثل فيها بيروقراطية مركزية لم تتواجد من قبل . وأدخل الكثير من التطوير على نظام البرق الذى استخدمه الحلفاء لأول مرة فى حرب القرم وأنشأ شبكة تربط جميع أجزاء البلاد بواسطة شركة فرنسية منحت إمتياز هذا العمل ، ثم أسس وزارة للبريد والبرق وأدخل مناهج فى المدارس عن كيفية تشغيل البرق وإمتدت خطوطه لمسافة ٢٠ ألف ميل وربط العاصمة بجميع الولايات ، وبذلك تمكن من مراقبة موظفيه وجعلهم غير قادرين على المناورة والتلاعب ، وهذا لم يحدث فى عهد أى سلطان آخر . ومن خلال نظام البرق استطاع إستدعاء الموظفين وتجريدهم من سلطاتهم إذا لزم الأمر ، وسيطر سيطرة تامة على البيروقراطية فى البلاد ، ومثل السلطة الأتوقراطية المطلقة بلا منازع إنطلاقاً من كراهيته للحكومة المتحررة التى كان يرى أنها تجعل الشعوب تتحكم فى الحكام كما حدث فى الغرب الأوروبى .

وبرغم ذلك فلم يكن عبد الحميد مغلقاً فى المجال السياسى بل حاول التعرف على الغرب الأوروبى وحاول القيام بحركة إصلاح فى المجال القضائى وفى مجال التعليم بشكل خاص ، وقد طبق بعض الإصلاحات ولكن بشكل أوتوقراطى وخاصة فى النواحى المدنية والمالية التى كانت فى حاجة ماسة إلى التطوير . وحتى يساير الغرب ويتوافق مع رعاياه المسيحيين قرر إصلاح التعليم وإدخال تحسينات عليه لتخريج طبقة متعلمة من الموظفين لتحل محل الموظفين الذين يتم نفيهم أو عزلهم من مناصبهم ، ولزيادة أعداد الموظفين الذين يمكن الإعتماد عليهم فى المستقبل لبناء البلاد ، فأعاد تنظيم المدرسة السلطانية التى كانت بمثابة المركز الأساسى للتعليم المدنى فى البلاد ، وقام بتوسيعها لتستوعب أعداداً كبيرة من الطلاب .. وفى مجال التعليم العسكرى تم توسيع الكلية الحربية ومدارس الهندسة العسكرية والبحرية والمدرسة الطبية المدنية والعسكرية ، كما أنشأ السلطان ثمانية عشرة معهداً تعليمياً رسمياً فى مجالات المالية والفنون والهندسة المدنية والشرطة والجمارك ، وأخيراً قام بتأسيس جامعة استانبول والتى كانت إحدى المشروعات فى إصلاح التنظيمات منذ نصف قرن .

ولكى يزود السلطان هذه الكليات الجديدة بالطلاب وأعضاء هيئة التدريس ، قام بالتوسع فى المدارس الإبتدائية والثانوية ومعاهد تدريب المعلمين ، وفى استانبول تم توسيع المدرسة السلطانية فى جالاطة وسراى بأسلوب فرنسي – تركى وصارت تمثل مدرسة الصفوة من أبناء الطبقة التركية الحاكمة وكان معلموها من خريجى المدارس التركية الرائدة والأدباء . وبفضل التطبيق العملي لإصلاحات السلطان فى مجال التعليم تخرجت طبقة متعلمة جديدة من الموظفين المدنيين لتكون هيئة من البيروقراطية وضعت أساس النظام الحميدى الذى يهدف إلى مواجهة أى معارضة لنظام السلطان فى الفترة التالية .

وفى مجال الإصلاح القضائى كان النجاح محدوداً ، إذ أدخلت تغييرات على وزارة العدل بهدف إصلاح النظام القضائى المدنى والتضييق على الإمتيازات القضائية الممنوحة من خلال نظام الإمتيازات Capitulations ، ولكن رفضت البعثات الدبلوماسية الأجنبية قبول النظم الجديدة فى القضاء المختلط وفى المجال التنفيذى ، وظلت الإمتيازات تطبق على نطاق واسع كما كانت فى الماضى . وفى مجال وسائل الإتصال بذلت جهود جادة لتحديث تركيا حيث انتشرت الطباعة من خلال طبع الصحف اليومية والدوريات والكتب ولكنها خضعت جميعًا للرقابة التى أفقدتها قيمتها ، ولذلك أطلق عليها المراقبون الأجانب كلمة الصحف المخصية Gelded News paper . وكانت جميع هذه الصحف بعيدة عن مجال السياسة وتعالج موضوعات فى الأدب والعلوم وفروع المعرفة الأخرى .

وفى المجال المالى أصبحت الدولة العثمانية تحت رحمة أوروبا أكثر من أى وقت مضى ، ففى مؤتمر برلين أثارت الدول المجتمعة لأول مرة مشكلة عدم الوفاء بالديون العثمانية وقرروا رسميًا تشكيل لجنة مالية دولية فى استانبول للنظر فى إرضاء أصحاب الديون . وقد تفاقمت المسألة المالية العثمانية فى أعقاب فقدان الدولة لأجزاء من مساحتها فى أوروبا وأصبحت هناك مشكلة أمام السلطان وهى كيفية الحصول على الأموال العاجلة فاضطر إلى قبول ما فرض عليه فى مؤتمر برلين لتهدئة أصحاب الديون ، وأصدر فى ١٨٨١

مرسوماً فى شهر المحرم يقضى بتأسيس مجلس الدين العام من مندوبين من تركيا والدول الأجنبية لوضع الإيراد العام للدولة فى خدمة أصحاب الديون ، وكان هدف السلطان من «مرسوم المحرم» إستعادة ثقة أوروبا فى تركيا واعتباره اتفاقاً ثنائياً بين الباب العالى والدائنين بدون أى تدخل دبلوماسى . وقد اشترط هذا المجلس أن تتنازل الحكومة عن جزء كبير من إيراداتها السنوية لتسديد الديون وفوائدها ، وقد تضمنت إيرادات شركات الملح والتبغ والجزية التى كانت تحصل من بلغاريا والروملل الشرقية والإيرادات الزائدة عن حكومة قبرص وعدد من الضرائب غير المباشرة والعشور ، مع إعادة أى زيادات تبقى بعد الوفاء بالديون إلى الخزينة العثمانية . وكان مجلس الدين يمثل عبئاً ثقيلاً على الباب العالى ولكن أجبر الأتراك على إحترامه والإبقاء عليه ، ومرت سنوات ولم يحاولوا التنصل من التزاماتهم تجاه مرسوم المحرم الذى أصدره السلطان .

وكان تأسيس مجلس الدين العام يعنى أن تطوير الإقتصاد العثمانى يعتمد كلية على المستثمرين الأوروبيين وأن أى نجاح يحققه سيجنى فائدته الأجانب وكذلك المسلمين الأتراك من خلال اتساع نطاق التوظيف والخدمات . وقد انعش الدين العام صناعة الحرير فى بورصا ، واستغل الرأسماليون الفرنسيون مناجم الفحم فى منطقة زونجو لداق Zongulldak الواقعة على ساحل البحر الأسود ، واحتكرت شركة فرنسية - نمساوية زراعة التبغ ووفرت عشرات الآلاف من فرص العمل للمسلمين الأتراك فى مقدونيا والليفانت وشمال شرق الأناضول . وبالإضافة إلى ذلك دخلت الإمبراطورية فى مجال بناء السكك الحديدية الذى استهله السلطان عبد العزيز ، فقام عبد الحميد بمد آلاف الأميال من السكك الحديدية فى المدن الرئيسية ، وفى ١٨٨٨ تم توصيل هذه الخطوط إلى غرب أوروبا وسمع صوت بوق أول قطار من فينا إلى استانبول باكورة خط الشرق السريع .

ولكن لم يرحب السلطان عبد الحميد بسياسة إحداث ثقوب فى الحواجز بين الشرق والغرب ، وتزايدت عزلته فى مجال السياسة الخارجية مثل عزلته الداخلية ، وابتعد عن الدول الأوروبية التى تركته وحيداً فى الحرب الأخيرة

ضد روسيا ، إذ كان يشعر بمرارة خاصة ضد بريطانيا التى خانته حينما رفضت مساعدته أثناء الحرب وتسببت فى إفلاس بلاده وتدنى إقتصادها إلى الصفر ، وحينما تدخل قناصلها فى الشئون الداخلية لبلاده وصمموا على إدخال الإصلاحات التى لا يرغب فيها فى الولايات . كما كان يشعر بالفزع بصفة خاصة من مستر جلادستون الذى عاد إلى الوزارة الإنجليزية فى ١٨٨٠ لأنه كان يعتبر السلطان وحكومته مثل «هوة لا قرار لها من الخداع والزيف» .

وفى عام ١٨٨٥ ، عندما عاد حزب المحافظين إلى السلطة فى بريطانيا ، علق سير وليام وايت السفير الإنجليزى فى حديثه مع اللورد سالزبورى عن فقدان التأثير الإنجليزى والفرنسى والنمساوى على الباب العالى فقال : « إنهم يقابلون مشورتنا الآن باستخفاف وإزدراء » . وكان من الواضح أن السلطان عبد الحميد تخلى عن حلفائه التقليديين واتجه إلى روسيا العدو التقليدى للعثمانيين وصار لها حظوة متزايدة لدى الباب العالى ، كما اتجه السلطان أيضًا إلى مصدر آخر جديد للدعم والتأييد ممثل فى قوة ألمانيا الفتية التى توحدت بزعامة بسمارك وتحالفت مع روسيا والنمسا وإيطاليا فى الحلف الثلاثى أو The Triple Alliance (١) وحلف الأباطرة الثلاثة (٢) ، وقد ظهر النفوذ الألمانى واضحًا على الباب العالى من خلال إرسال الضباط الألمان لتدريب الجيش العثمانى وتطويره .

وفى أعقاب مؤتمر برلين تراجع عبد الحميد عن تنفيذ بنود معاهدة برلين ، ففيما يتعلق بالجبل الأسود الذى اعترفت المعاهدة به كدولة مستقلة

---

(١) تكون تحالف دفاعى بين النمسا وألمانيا فى ١٨٧٩ ثم إنضمت إليه إيطاليا فى ١٨٨٢ فصار يعرف بالتحالف الثلاثى ، وظل يتجدد حتى ١٩١٥ .

أنظر : La Rousse , p . 1111

(٢) تكون حلف الأباطرة الثلاثة من روسيا والنمسا وألمانيا فى ١٨٨١ ويعرف بـ Dreikaiserbund .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، أوروبا ١٨١٥ - ١٩١٩ ، الفصل الثامن .

وله ميناء على الإدرياتيكى ، هو أنتيفارى Antivari ، رفض السلطان فى ١٨٨٠ تسليم هذا الميناء خشية أن يتحول إلى قاعدة بحرية روسية وأثار بذلك الدول الأوروبية ضده ، وهددت إنجلترا من خلال سفير جلادستون فيسكونت جوتش بأنها ستحتل أحد أهم الموانئ التركية إذا لم يسلم السلطان الميناء موضع النزاع وليكن سميرنا ، ولم يتراجع إلا بعد أن شاهد سفينة إنجليزية فى مياهه . كذلك توانى عن اتخاذ الإجراءات الخاصة بالحدود اليونانية والتى تم إقرارها فى المؤتمر ، ورفض التنازل عن كل تسالية وأبيروس لليونان ، وبعد مفاوضات مطولة مع الجيش اليونانى توصل إلى اتفاق يقضى بالتنازل عن كل تسالية وثلث أبيروس فقط بإستثناء الأحياء التى يسكنها المسلمون ، ولم تحصل اليونان على كريت كما كانت تأمل .

وفيما يتعلق ببلغاريا أقرب الجيران الأوروبيين إليه فقد كان السلطان مراوغًا ، إذ تطورت الظروف فى بلغاريا ووجد الفرص السانحة للتدخل فى شئونها ؛ ففى شمال بلغاريا كان تأثير روسيا واضحًا من خلال الأمير الروسى الكسندر باتبرج المنتخب ، وحاول السلطان التخلص منه وعزله ولكنه لجأ إلى ألمانيا وطالب الشعب البلغارى الذى قاسى من الأتراك الذين عاملوهم كرعايا من الدرجة الثانية بالكسندر المحرر وسادت البلاد نزعة وطنية ورفعوا صورة الأمير فى كل مكان ونادوا بشعار «بلغاريا للبلغاريين» ، وطالبوا أيضًا بضم شطرى بلغاريا فى وحدة واحدة وظلت القوات الروسية فى البلاد حتى تستقر الأوضاع . وعندئذ قام السلطان بتعين حاكم مسيحى هو جافريل باشا الذى عرف عند الأتراك بناظر مدرسة المحاكم المختلطة ، وقام هذا بدوره بوضع الطربوش التركى وجعله غطاء الرأس البلغارى الرسمى ، وقد أساء السكان معاملته لخشيتهم أن يرسل السلطان قواته إلى بلغاريا ، كما تسمح بذلك معاهدة برلين ، ويهزم الجيش البلغارى الذى يعتمدون عليه . وظل البلغاريون يتوقون إلى الوحدة والسلطان يعارض ويرفض رفع العلم البلغارى على العاصمة فيليبوبوليس مما أدى إلى إنتشار الاضطرابات والقلاقل وترديد الهتافات التى تقول «تحيا الوحدة» ، ثم قام المتمردون بجذب جافريل باشا فى الشوارع بطريقة ساخرة ووضعوا سيفه إلى جانبه ثم دفعوه إلى الحدود التركية ووراءه طربوشه .

وكان هـذا التمـرد يمثل تحدياً للإمبراطورية العثمانية وخرقاً لمعاهدة برلين ، ولكن ظل البلغاريون يتمسكون بتحقيق الوحدة وكانوا على استعداد للدفاع عنها فى مواجهة السلطان برغم أنهم كانوا يخشون أن يرسل قواته لسحقهم ، ولكن السلطان تراجع ولم يرسل أحداً وخشى أن تتكرر المذابح البلغارية التى سبق وأثارت أوروبا ضده ، فإعترف بالأمر الواقع وقام بتعيين الأمير ألكسندر حاكماً لشرق روميليا لمدة خمسة أعوام وسمح باتحاد مجلس الدولة فى القسمين فى هيئة واحدة فى صوفيا . وقد أثارت هذه الترتيبات التى أدت إلى زيادة حجم بلغاريا وتحولها إلى دولة كبيرة حقد جارتها الصرب فطالب حاكمها الأمير ميلان بمنحه تعويض إقليمى ثم شن هجوماً عن جهة الغرب على الحدود البلغارية ، ولكن إستمات البلغاريون فى مقاومة الصربيين الذين كانوا أكثر منهم تفوقاً فى المجال العسكرى ونجحوا فى خلال ثلاثة أيام فقط فى دفعهم خارج حدود بلغاريا بل وكان يمكنهم التقدم صوب بلجراد نفسها وهنا تدخلت النمسا ، بصفتها حامية للصرب ، لإعادة السلام والأمن إلى المنطقة .

وعادت الإضطرابات من جديد فى بلغاريا بتدخل روسيا لعزل الأمير ألكسندر فقد دبرت إنقلاباً فى صوفيا ثم قامت بخطف الأمير وفرضت عليه توقيع وثيقة الإعتزال ، وقد قبل الأخير القيام بهذا العمل بعد أن ضعفت صحته وخشى من التعرض للإغتيال من قبل القوات الروسية فكتب العبارة التالية : « أنا على إستعداد لإعادة التاج الذى منحتنى إياه روسيا » ، ثم قام بتعيين مجلس ثلاثى يخلفه فى حكم بلغاريا وغادرها إلى الأبد . وقد عاد التدخل الروسى مرة أخرى وأرسلت روسيا أسطولها إلى فارنا حتى تمنع الإنتخابات والسلطان أمام هذا الوضع المضطرب يرفض التدخل ، وأخيراً أرسلت روسيا أحد مستشاريها ويدعى كولبارس إلى صوفيا ليطلب من البلغاريين تأجيل الإنتخابات ، ولم يتعاطف كولبارس مع الفلاحين البلغار وبقية السكان أثناء تجواله فى البلاد ولم يظهر أى ميول تجاه الروح القومية البلغارية ، بل واعتبر الإنتخابات البلغارية غير قانونية وغير شرعية ، وقطعت روسيا كل علاقاتها مع بلغاريا وغادر ممثلها البلاد ، وأصبح ستامبولوف Stambulov رئيس المجلس الثلاثى الحاكم الأوحد للبلاد ورمزاً لوحدتها

وتحررها بعد أن نذر نفسه للقضية البلغارية ، وأثار فى البلغاريين روح البطولة والدفاع عن وطنهم ضد العدو الروسى .

وفى عام ١٨٨٧ قرر المجلس الحاكم فى بلغاريا إنتخاب الأمير فرديناند أوف كوبورج Ferdinand of Coburg (١) حاكمًا على البلاد ، واعتلى العرش بموافقة الدول الأوروبية بمقتضى معاهدة برلين برغم معارضة روسيا وتركيا . وقد بارك اللورد سالزبورى تعيين فرديناند لأنه يمت بصلة قرابة للملكة ڤيكتوريا وصار ستامبولوف رئيسًا لوزرائه واشتهر بلقب «بسمارك بلغاريا» .

وأمام هذا الوضع الجديد فى بلغاريا لم يظهر السلطان أى مقاومة بل ابتعد تمامًا عن هذه المنطقة وأخذ يناضل من أجل الإبقاء على بقايا إمبراطوريته ، واعترف بالدولة البلغارية الجديدة التى تحولت فيما بعد إلى إمبراطورية كبرى فى أوروبا ، واتخذ سياسة دفاعية حيالها فقط وترك شئون أوروبا وراء ظهره .

---

(١) صار فرديناند أوف كوبورج ملكًا على بلغاريا من ١٨٨٧ إلى ١٩١٨ .
أنظر : La Rousse , p . 1335

الفصل السابع والثلاثون

ظل السلطان عبد الحميد يسير على نفس السياسة غير المتوازنة فى تقدير الأمور ونفس الدبلوماسية المراوغة وانسحب بعيداً عن القارة الإفريقية بعد أن فقد تونس التى فرضت فرنسا حمايتها عليها ، كما كان على وشك فقدان مصر «درة التاج السلطانى» التى كانت تحت حكم إسماعيل باشا سليل أسرة محمد على التى حكمت البلاد لنصف قرن من الزمان .

فقد وقع هذا الباشا تحت طائلة الديون التى وصلت إلى ما يقرب من ١٠٠ مليون جنيه وصار مفلسًا فى ١٨٧٦ ، وألزم بوضع الإدارة المالية المصرية تحت السيطرة المزدوجة لإنجلترا وفرنسا ، كما أجبر على تشكيل وزارة جديدة فيها وزيران أجنبيان أحدهما إنجليزى للمالية والثانى فرنسى للأشغال العامة . وفى عام ١٨٧٩ قام إسماعيل بعزل الوزيرين الأجنبيين فى محاولة لتشكيل وزارة مصرية خالصة ، فنصحته الحكومتان الفرنسية والإنجليزية بشكل رسمى بالتنازل عن الحكم ، وكانت الدول الأوروبية الأخرى تؤيدهما فى هذا الموقف ، ثم قررت الدولتان مخاطبة السلطان إذا رفض إسماعيل الإعتزال.

وأملاً فى كسب الوقت أرسل إسماعيل مندوبًا خاصًا إلى السلطان يحمل رشوة كبيرة ليوضح له أن الدول الأوروبية ترغب فى عزله دون موافقة سلطانية ، ثم عقد إجتماعًا مع مجلس وزرائه للنظر فى أمر التهديد الذى يتعرض له مركزه فنصحه الوزراء بتجاهل هذا الأمر إن أمكن أو تأجيله ، ولكن اعترض وزير خارجيته اليونانى المسيحى وكان يدعى كاراثيودورى Caratheodori وقال إن أى محاولة للتأجيل ستكون مصيرية وتجبر الدول الأوروبية على التصرف دون موافقة السلطان . وبالفعل تمت إستمالة السلطان وصدر الفرمان الذى يقضى بعزل إسماعيل وتعيين إبنه توفيق (١) خلفًا له . وبعد عامين حدثت تطورات خطيرة وواجه السلطان أزمة جديدة هددت سيادته بقيام إنقلاب بين الضباط المصريين فى الجيش بقيادة أحد الضباط وإسمه أحمد عرابى ، وهو فلاح مصرى ، ضد الخديوى الجديد توفيق ، وتطور الأمر إلى عزل رئيس الوزراء وتقويض سلطة الخديوى . ولم يكن

---

(١) تولى الخديوى توفيق حكم مصر من ١٨٧٩ إلى ١٨٩٢م.

جلادستون مستعداً لأكثر من التصرف الدبلوماسى وسار على سياسة أن أى حدث يقع فى مصر هو من مسئولية السلطان فقط ، ولكنه برغم ذلك استجاب للضغوط الفرنسية التى كانت متعارضة مع السلطان ، وأكدت الحكومتان مساندتهما للخديوى وإستمرار نظام المراقبة المالية وذلك فى عام ١٨٨٢ م .

وقد أدى هذا الموقف إلى حدوث إنفجار جديد فى مصر رفع فيه عرابى شعار «مصر للمصريين» ، وفرض وزارة جديدة على الخديوى أصبح هو فيها وزيراً للحربية ، وأعقب ذلك إرسال إنجلترا وفرنسا سفناً حربية إلى ميناء الإسكندرية تضامناً مع الخديوى ، ولكن تزايدت سطوة الجيش وطالب الضباط بعزل الخديوى ، وكان وجود السفن الحربية الأجنبية فى الميناء سبباً لإذكاء نيران الثورة ، كما إزداد خوف الأجانب المقيمين فى مدينة الإسكندرية من حالة الفوضى السائدة إذ كان هناك شيخ يصرخ عالياً فى الشوارع : «أيها المسلمون ساعدونى لقتل المسيحيين» وزاد الشغب ووقعت مذبحة راح ضحيتها خمسون أوروبياً . وهنا حان وقت إستخدام القوة لقمع ثورة عرابى ، ووقعت هذه المهمة بالكامل على عاتق إنجلترا بعد أن رفضت فرنسا التعاون فى هذا الأمر ، واستدعى ذلك إنقلاباً فى سياسة جلادستون حيث وقع تحت إغراء أكثر العناصر قوة فى الوزارة البريطانية التى طالبته بالتدخل بشكل متطرف ، فأمر الأدميرال سيمور Seymour عرابى بوقف أعمال التحصينات فى ميناء الإسكندرية الموجهة ضد الأسطولين الإنجليزى والفرنسى ولكنه رفض فقام بضرب المدينة بالقنابل ، ولم تشارك فرنسا فى هذا العمل وسحبت قوتها البحرية سريعاً تنفيذاً لرغبة السلطان عبد الحميد الذى كان مقتنعاً بأن إمبراطوريته يمكن حمايتها عن طريق مثل هذا الشقاق بين الدول المسيحية العظمى ، ثم أعلن الخديوى أن عرابى ثائر وطالب بإعلان الجهاد ضده .

وفى وقت سابق ، كانت الحكومتان الإنجليزية والفرنسية قد طالبتا بعقد مؤتمر دولى فى استانبول لإيجاد حل للمشكلة المصرية بمعاونة السلطان ، ولكنه رفض حضور المؤتمر وأرسل مندوبين بتعليمات متناقضة إلى مصر دون التوصل لشئ . وناقش المؤتمر الحاجة إلى تدخل مسلح لحفظ النظم فى

مصر ، وتلى ذلك قذف الإسكندرية بالقنابل وهو العمل الذى لم يتخيل السلطان أن بريطانيا يمكن أن تقوم به دون موافقته . والآن أصبحت إنجلترا وحدها هي المسئولة عن إعادة الأمن والنظام إلى مصر ، دون مساندة فرنسا ، فخططت حكومة جلادستون لإحتلال مؤقت لمصر خلال الشهرين التاليين . وقد حاول اللورد دفرن Dufferin ، سفير إنجلترا لدى الباب العالى ، جاهداً أن يقنع السلطان بأن يشترك فى هذا الاحتلال من خلال إرسال فرقة تركية إلى جانب إنجلترا حتى يثبت حقوقه فى ملك مصر ، وفى نفس الوقت يتأكد من إحترام بريطانيا لإستقلاله وسيادته ، وتم التفاوض حول إتفاقية عسكرية بهذا الشأن ولكنها ظلت متوقفة على توقيع السلطان الذى يماطل ويراوغ حتى يأست إنجلترا .

وفى يوم ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ قام الجنرال Garnet Wolsely بنقل قوة عسكرية إنجليزية إلى الإسماعيلية عن طريق قناة السويس ثم تحركت داخل البلاد لتدمير جيش عرابى فى موقعة التل الكبير . وفى اليوم التالى دخلت فرقة من الخيالة الإنجليزية إلى القاهرة ولم يستطع السلطان إهانة إنجلترا هذه المرة أيضاً ، ودخل الخديوى إلى عاصمته مظفراً شامخ الرأس . ووجد عبد الحميد أنه يجب أن يقوم بتعديل مواقفه تجاه السياسات الشرقية والغربية وإيجاد الاختلاف بينهما ، واتفق مع بريطانيا أن تسحب قواتها من مصر عند تأسيس إدارة قومية مستقرة فى ظل السيادة العثمانية . ونجحت الحكومة البريطانية من خلال اللورد دفرن فى خداع السلطان بوضع جدول زمنى للجلاء خلال سنتين أو ثلاث وفى ذات الوقت كانت تضع أساس الحكم الذاتى المصرى . وعندما وصلت حكومة المحافظين إلى السلطة فى بريطانيا عام ١٨٨٥ ، قام اللورد سالزبورى salisbury رئيس الوزراء بإرسال السير هنرى دراموند ولف Henry Drummond Wolf فى مهمة خاصة إلى استانبول للتوصل إلى اتفاق بين البلدين يؤكد حقوق السلطان فى مصر ومصالح إنجلترا أيضاً .

وتم الاتفاق مبدئياً على إرسال مندوبين أتراك وإنجليز إلى مصر لإجراء إصلاحات فى الجيش والإدارة ، والاتفاق أيضاً على أن تقوم الحكومة الإنجليزية بسحب قواتها خلال ثلاثة أعوام مع إحتفاظها بحق العودة لإحتلال

مصر مرة أخرى إذا هددتها الثورات أو الفوضى الداخلية ، وقبول الدول الأوروبية لبنود هذه المعاهدة التى اقترحت فى ١٨٨٧ . وثارت فرنسا وتضامنت معها روسيا وقامتا بالضغط على الباب العالى من خلال سفرائهما وهددتا بقطع العلاقات مع السلطان ، وبالتالى رفض عبد الحميد التصديق على المعاهدة . ثم غادر السير وولف عائداً إلى بريطانيا بعد فشل مهمته ، وإستمر الإحتلال البريطانى لمصر ولم يواجه الاضطرابات المتوقعة . وكان عبد الحميد يعتبر أنه حقق نصراً دبلوماسياً على بريطانيا ولكنه تحقق سريعاً من أنه ارتكب أخطاء خطيرة ، وحاول إستئناف المفاوضات مع إنجلترا مرة أخرى ولكن باءت محاولاته بالفشل وكذلك محاولات فرنسا وروسيا فى السنوات الخمس التالية .

وهكذا تغير اتجاه المسألة الشرقية بوجود الإدارة الإنجليزية فى مصر وتحول محور الصراع الدولى من تركيا إلى مصر ، من البوسفور إلى قناة السويس ، وتضاءل التهديد الروسى للسلطنة العثمانية والذى استمر قرناً من الزمان فى البلقان لأن الروس نقلوا تطلعاتهم الأمبريالية إلى آسيا ودخلوا فى نزاع مع إنجلترا وصل إلى حدود الهند ، وصارت مصر خاضعة للحكم البريطانى الفعلى بعد أن ظلت ٣٧٠ عاماً جزءاً من الإمبراطورية العثمانية . وتزايدت عزلة السلطان نتيجة للخداع الذى واجهه وفشله فى هزيمة الأجانب وإنتزاعهم مصر منه . فقد كانت مصر من الناحية الدينية محوراً أساسياً للسياسة التى كان يبحث عنها عبد الحميد من أجل الإبقاء على بقايا إمبراطوريته على قيد الحياة . فمصر كانت منذ أن دخلها السلطان العثمانى فى ١٥١٧م مركزاً للخلافة الإسلامية بوجود آخر خليفة عباسى (١) بها ثم حصوله على البيعة من شريف مكة ليصبح حامياً للأماكن المقدسة الإسلامية ، أى أن العثمانيين صاروا القادة الدينيين للعالم الإسلامى كله ، وصار السلاطين العثمانيون

---

(١) كان آخر خليفة عباسى فى مصر هو المتوكل على الله وقد قضى فترة فى استانبول بعد السيطرة العثمانية على مصر ثم عاد إليها وتوفى بها فى ١٥٤٣م .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ المشرق العربى ، الفصل الثانى .

خلفاء ، ومن ثم قرر عبد الحميد العودة إلى فكرة السلطان الخليفة ليستجمع قواه وهــيبته مــرة أخرى ، وليستبدل السلطة الروحية بالسلطة الزمنية التى فقدها .

والتف المسلمون حول السلطان لتأييد سياسته الجديدة فقد كانوا يرون أن إمبراطوريته لا تزال كما وصفهاأرنولد توينى « أقوى دولة مسلمة موثرة ومشرقة فى الوجود » . وتبع فشل إصلاح التنظيمات إزدياد الحكم الفردى المطلق للسلطان وتأسيس نظام إسلامى تقليدى قوى محرر من التدخل الأجنبى ، وتزايد إحترام الناس للسلطان الورع المتقشف الذى يدعو إلى الإعتدال والرحمة ، وحظى بتأييد جميع رجال الدولة له على الأخص رجال الدين الذين تمتعوا بمكانة محترمة بجميع مستوياتهم حتى التلاميذ والمتصوفة من كل حدب وصوب . وإنعزل السلطان فى عاصمته وتحول كلية عن الغرب وتجاهله تجاهلاً تامًا ، وكانت السياسة الحميدية تقول بأن الحضارة العربية هى مصدر الحضارة الأوروبية فى العلوم والجبر والكيمياء والفيزياء وفى بعض المخترعات الحديثة مثل البارود وفى الثقافة وكتابة التاريخ ، فلماذا إذن يتجه المسلمون إلى أوروبا التى لا تمتلك سوى بعض المخترعات المتطورة . ووفقًا لهذه النظرية دعا السلطان إلى الإتحاد الإسلامى لضم ممتلكاته المتبقية فى آسيا وهو ما عرف بالجامعة الإسلامية Pan- Islamism ولضم العناصر الإسلامية المنتشرة فى أوروبا والخاضعة لحكم دول أوروبية غير إسلامية .

وقد كشف السلطان عن هذه السياسة الإسلامية بتعيين أول صدر أعظم من الچراكسة وليس من الترك وهو خير الدين الذى كان رئيسًا لوزراء باى تونس ، وقد فسر هذا التغيير الجديد بأنه من حقه كخليفة أن يعمل لخدمة كافة المسلمين السنين من خلال الإسلام . وسار بعد ذلك على تفضيل العنصر الإسلامى على المسيحى فى إدارته ، وصار للشيوخ العرب مكانة متميزة فى القصر السلطانى تبعًا لذلك . وبذل السلطان جهداً واضحًا فى سبيل الاهتمام بمشاكل المسلمين فى إمبراطوريته مثل العرب والأكراد والألبانيين وغيرهم من المسلمين المتواجدين فى البلاد المسيحية ، وصار رجل أوروبا المريض السابق هو الآن رجل آسيا القوى ، ولم يواجه سوى مشكلة واحدة داخل حدوده تختص بالأرمن الذين كان يشك فى نواياهم .

والأرمن يسكنون جغرافيًا منطقة تقع بين الشرق والغرب ، وفقدوا إستقلالهم القومى منذ ٥٠٠ عام مضى ، وصاروا موزعين بين تركيا وروسيا وفارس دون وجود دولة أرمينية تحميهم ، وعددهم حوالى ٢,٥٠٠ مليون نسمة ، من بينهم حوالى ١,٥ مليون يمتلكون أراضى فى الولايات الشرقية الستة (١) ولكنهم لم يشكلوا أغلبية على الإطلاق فيها . والأرمن عناصر مسالمة لا تحب القتال مثل الأقليات المسيحية الأخرى فى البلقان ، وحتى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر ظل فلاحوهم ينعمون بالهدوء السياسى وموظفوهم لهم شهرة واسعة فى الرزانة والإقتصاد مثل أشقائهم فى الشركات والأعمال التجارية فى المدن . والأرمن مثل بقية الأجناس الآرية يخلصون لدينهم ولغتهم وثقافتهم ويتمتعون بكبرياء قومى قوى ، وكانوا يشعرون بأنهم أوروبيون ، ومع تقدم الوقت استفادوا من التعليم الغربى ليس من أوروبا الكاثوليكية فقط ولكن من الشرق على أيدى المبشرين الأمريكيين البروتستانت . وبدافع من الشعور القومى أرسلوا مندوبًا من قبلهم إلى مؤتمر برلين مطالبين بتعيين حاكم عام مسيحى أسوة بلبنان التى استقلت ذاتيًا فى ١٨٦١ (٢) لخدمة مصالحهم فى الولايات الشرقية . ورغم أن هذا الطلب لم يلق إستجابة فى المؤتمر ، فإن الدول الأوروبية اعترفت بحاجة الأرمن لتحسينات داخلية وإصلاحات فى ولاياتهم لضمان أمنهم ضد الچراكسة والأكراد . وطبقًا لبنود معاهدة برلين أجبر الباب العالى على تحقيق هذه المطالب وتقديم تقارير دورية للدول الكبرى للتأكد من تطبيقها .

ولكن السلطان عبد الحميد كان عنيداً ورفض الإنصياع للدول الأوروبية وكل ما فعله هو تعيين نائب حاكم مسيحى فى كل إقليم من الأقاليم

---

(١) الولايات الشرقية الستة هى : بتليس وأرضروم وڤان وخربوط وجزء من دياربكر وسيواس وتعرف بأرمينيا العثمانية .

أنظر : محمد رفعت الإمام ، تاريخ الجالية الأرمينية فى مصر ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩ ، الفصل الأول .

(٢) حصل لبنان على « النظام الأساسى » فى ١٨٦١ بعد الحرب الأهلية التى وقعت به وصار بمقتضاه صنجقاً عثمانياً يتمتع بالإستقلال الداخلى .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، المشرق العربى ، الفصل السابع .

الأرمنية ، والذى كان فى الحقيقة دمية يحركها السلطان لتنفيذ أوامره ويعزله وقتما شاء ، ولذلك عرف بلقب كله سخرية وهو "Evet Effendi" أى نعم سيدى ، نظراً للطاعة العمياء التى تميز بها . وهكذا اتضح أن عبد الحميد ليس لديه النية لتطبيق الإصلاحات التى إقترحتها معاهدة برلين وعدم إعطاء الفرصة للسفراء الأجانب للتدخل فى شئون دولته بحجة تحسين أوضاع الأرمن ، بل أصبح الشئ الواضح هو أنه إذا قام أى مندوب من سفارة أجنبية بطرد موظف رسمى لسوء معاملته للأرمن فإن السلطان كان يقوم بترقيته إلى منصب أكثر علواً . ووفقاً لشروط إتفاقية قبرص (١) اتخذت إجراءات من جانب إنجلترا وحدها ، فقد أرسلت الحكومة البريطانية قناصلها إلى الولايات الشرقية وجاءت تقاريرهم لتؤكد حالة الظلم التى يتعرض لها الأرمن والتمييز الشديد فى المعاملة ضدهم من جانب السلطات المحلية وخاصة فى جمع الضرائب والإتاوات التى تمارسها العناصر التركية الفاسدة . وفوق ذلك فى الأقاليم البعيدة المعزولة حيث السلطة التركية الضعيفة ، كان الأرمن يعانون من قسوة رؤساء قبائل الأكراد ومن إغارات عصاباتهم ، واستدعت هذه الفوضى تعرضهم للسجن عن طريق الشرطة فى هذه المناطق . ولكن كانت إعتراضات الحكومة البريطانية لدى الباب العالى مثل سحابة دخان ، وكل ما تم من إجراءات كان عبارة عن نقل الموظفين الأكفاء فى كردستان وتوفير الأمان والرعاية لهم لإخلاصهم للسلطان .

وقد أثارت هذه المراوغات سفراء الدول الست الموقعين على المعاهدة فقدموا مذكرة جماعية تنتقد الأوضاع وتطالب بالإصلاح لتأمين حياة الأرمن وممتلكاتهم ، ولكن جاء رد الباب العالى مبهماً ومتجاهلاً للنقاط المحددة فى الشكوى ، إذ كان السلطان ينتقم من الهزائم التى لقيها على أيدى

---

(١) وقعت اتفاقية قبرص بين إنجلترا والدولة العثمانية فى ١٨٧٨ وفرضت فيها إنجلترا حمايتها على قبرص .

حول تفصيلات الاتفاقية أنظر : محمد مصطفى صفوت ، مؤتمر برلين ١٨٧٨ وأثره فى البلاد العربية ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٧ م .

الأجانب على مائدة المفاوضات برفض أى دعم أجنبى لهؤلاء الرعايا المسيحيين الذين يعيشون داخل حدود بلاده ، ولم يتبق أمام الدول الأجنبية سوى التدخل المسلح لصالح هؤلاء الرعايا .

وقد عبر اللورد سولسبرى عن أسفه للفشل فى التوصل إلى حل مع السلطات التركية ، وحل محله جلادستون الذى لم يكن وضعه أفضل من سابقه ، ووصفت التقارير القنصلية الإصلاح التركى بأنه مجرد مسرحية هزلية حيث يجهل الموظفون الرسميون القراءة والكتابة . وفى عام ١٨٨٢ ضوعفت الجهود من جانب السلطات الأجنبية للحصول على الموافقة على خطة إصلاحية ، ولكنها واجهت الفشل هذه المرة من جانب بسمارك الذى عبر عن إستعداده للتعاون مع الإنجليز فى أى قضية بإستثناء قضية فرض الإصلاحات الأرمينية على السلطان ، وهذا ما رفضه جلادستون . وقد حاول الأرمن من جانبهم الحصول على الإصلاح بالوسائل السلمية معلنين أنهم لا يرغبون إلا فى الحصول على الأمان الشخصى وأنهم لا يرغبون فى الخضوع لروسيا التى تحاول فرض المذهب الأرثوذكسى عليهم ، ولكن دون جدوى وساءت أحوالهم بمرور الوقت على أيدى جيرانهم المسلمين والحكومة العدوانية للسلطان .

لقد حان الوقت الآن للأرمن فى تركيا أن ينظموا أنفسهم وفق أسس سياسية ، فبدأوا فى تشكيل جمعيات سرية قومية محلية بتأييد من أقرانهم الأرمن فى روسيا وتحديداً فى القوقاز لأنهم كانوا يمتلكون مفاهيم ثورية متقدمة عن الأرمن فى تركيا ، وهؤلاء سرعان ما انتشروا من منطقة الحدود إلى بعض المراكز مثل أرضروم وڤان بهدف إثارة الأرمن الأتراك للدفاع عن حقوقهم . وفى عام ١٨٨١ تكون تنظيم فى أرضروم باسم «حماة الوطن» للدفاع عن الشعب الأرمينى ضد الأكراد والأتراك ، وكان شعار هذا التنظيم « الحرية أو الموت » . وفى ڤان تأسس أول حزب سياسى أرمينى ١٨٨٥ وهو حزب الأرميناجان Armenagans وانتشرت أفكاره من خلال القنوات الليبرالية فى الخارج وقادت إلى تأسيس « الجمعية الوطنية الأرمينية » فى لندن ، وكان هدفها المطالبة بحق الأرمنيين فى حكم أنفسهم من خلال الثورة ،

ولكن هذا التيار كان يعتمد على القوى العظمى لتحقيق أهدافه.

وفى عام ١٨٨٧ كون الأرمن المهاجرون تنظيماً آخر على نهج ماركسى فى چنيف ، ويعد هذا أول حزب ثورى إشتراكى فى الإمبراطورية العثمانية ، وهدفه تأسيس دولة أرمينية إشتراكية موحدة تنبثق من الإقليم التركى ، وكان له جريدة تصدر فى الخارج تحمل إسم الهنشاق Hunchak وتعنى (الجرس) وهى التى أعطت الحزب إسماً رناناً وصدى واسعاً . والهنشاق حركة دولية لها قنوات منتشرة فى العواصم الأوروبية وترتبط بوكالات فى أمريكا ، ولكن كانت فروعها فى القوقاز أكثر نشاطاً ونظمت إغارات داخل الإقليم العثمانى فى أرضروم عاصمة أرمينيا التركية وفى بعض أحياء استانبول وغيرها من المراكز الحضرية التركية . وقد بلغت هذه الأنشطة ذورتها بتأسيس إتحاد فيدرالى ثورى فى تفليس فى ١٨٩٠ حمل إسم Dashnaktsutium وعرف أتباعه باسم الدشناق Dashnaks ، وكانوا وطنيين أكثر منهم إشتراكيين وانفصلوا عن الهنشاق ولكن جمعهم هدفاً واحداً وهو الصراع المسلح للحصول على حرية أرمينيا ، وصرحوا بأن الأرمن يطالبون بحقوقهم وسلاحهم فى أيديهم ولا يتوسلون أو ينتظرون العون من الغير ، وإنما سيقررون مصيريهم بأيديهم .

وعندما تنبه السلطان لعصيان رعاياه الأرمن لجأ إلى سياسة مخادعة بإثارة الفروق بين المسلمين والمسيحيين عن طريق استخدام الأكراد كقوة غير نظامية ضدهم فى ١٨٩١ وأطلق عليها « الحميدية » أى أتباع السلطان ، وبدأت بـ ١٥ ألف فارس ثم تزايدت بعد ذلك وكانت تلفت الأنظار بملابسها وسيرها بخيلاء فى شوارع استانبول . وقد نشر أفراد هذه القوة الرعب فى أرمينيا لأن مهمتهم الرسمية كانت قمع الأرمن وقمع أى عنف بشكل عام فى البلاد . وفى هذه الأثناء قام الثوار الأرمن بأعمال عديدة لإثارة ثورة المسلمين فى وسط وغرب الأناضول وخاصة ١٨٩٣ عن طريق وضع الملصقات على الحوائط التى تدعو المسلمين جميعاً للثورة ضد سياسة القمع السلطانية ، وكان رد فعل هذا الأسلوب إيقاف وحبس عدد كبير من الأرمن فى الأناضول مما أدى إلى تراجع المقاومة الأرمينية المنتظمة ، واتخذت هذه الفوضى ذريعة مناسبة فى

١٨٩٤ لتدبير مذبحة أثيمة للأرمن بناء على أوامر السلطان .

فقد استغلت السلطات التركية مسألة الجزية والضرائب التى كان يفرضها رؤساء قبائل الأكراد فى إقليم شاشون sasun جنوب موش Mush بهدف حماية الأرمن ، وطالبت بدفع المتأخرات منها ، وعندما رفض الأرمن دفع النوعين من الجزية التى أخذت شكل الإبتزاز التهديدى تم إستدعاء الفصائل التركية باتفاق مسبق مع القبائل الكردية ، وسرعان ما قاموا بمذابح ضد الشعب الأرمينى فكان الجنود يلاحقونهم بطول البلاد وعرضها ويقتنصونهم مثل الوحوش الكاسرة فى الوديان والجبال ولا يحترمون إستسلامهم ، ويضربون الرجال بالحراب حتى الموت ، ويغتصبون النساء ويصدمون الأطفال فى الحجارة ويحرقون القرى التى يلجأ إليها الفارون من هذه المجزرة ، وفى النهاية تمت ترقية زكى باشا القائد التركى على هذه العملية ونال مكافأة مجزية .

وقد أثارت أنباء هذه المذبحة التى تسربت إلى أوروبا برغم إحتياطات الباب العالى ، إستياءاً كبيراً بين الدول الأوروبية فطالبت القوى العظمى الثلاث – بريطانيا وفرنسا وروسيا – بتشكيل لجنة لتقصى الحقائق . وقد برر السلطان المذبحة بالسلوك الإجرامى لقطاع الطرق الأرمن فى ١٨٩٥ وطلب المزيد من التقصى لإثبات صحة تبريراته . وتلى ذلك عقد إجتماعات موسعة فى لندن وباريس من جانب الدول الثلاث لوضع خطة للإصلاح الأرمينى ثم عرضت على السلطان فتظاهر بالموافقة عليها . وفى نفس الوقت ، قام الأرمن يقودهم الهنشاق بمسيرة عبر مدينة استانبول لتقديم إلتماس إلى الباب العالى يتضمن مطالبهم فى الإصلاح ، ورغم نصائح البطاركة لهم بالهدوء فقد أصبح من العسير السيطرة عليهم بها صاح أحدهم وهو من إقليم شاشون قائلاً : « الحرية أو الموت » وردد الباقون مثله ، فتدخلت الشرطة وضربت العديد منهم بالهراوات حتى الموت ، وساعدتها العناصر الإسلامية المتعصبة التى ساهمت فى ذبح الأرمن ، واستمر هذا العنف والإرهاب لعشرة أيام حتى لجأ الأرمن إلى الكنائس للإحتماء ، كما حاولوا اللجوء للسفارات الأجنبية ، ولكنها اشترطت عليهم عدم حمل السلاح . وتزامن مع تلك الأحداث وقوع مذبحة فى ترابذون Trebizond وكان الأرمن يفرون منها إلى البحر فكان

المسلمون يقومون بإغراقهم حتى قُتل منهم ما يقرب من ألف رجل وأحرقت منازلهم وسلبت حوانيتهم . وهكذا كانت هذه الحملات المنظمة الرسمية فى المراكز الأرمنيية الشرقية بأوامر من السلطان متزامنة مع موافقته الظاهرية بخطة جديدة قدمتها الدول الأجنبية للإصلاح .

وكانت سياسة السلطان تجاه الأرمن تقوم على إشعال الفتنة والتعصب الدينى بين المسلمين ، فكان نواب السلطان يقومون بجمع المسلمين فى أكبر مساجد المدينة ثم يعلنون أن الأرمن يهدفون إلى ضرب الإسلام وأن على المسلمين الصالحين الدفاع عن عقيدتهم ضد هؤلاء الثوار الملحدين ، ويشجعونهم على نهب ممتلكات الأرمن والإثراء على حسابهم وإذا قاوموا ينبغى قتالهم أو أن يعرضوا عليهم تحت تهديد السلاح الاختياريين الموت أو التحول قسراً إلى الإسلام ، وكان هذا البديل يتناسب مع الأسر التى تعيش فى القرى وتعجز عن المقاومة . وكان شاكر باشا هو المسئول الأول عن هذه العمليات ، فقد كان من أكثر مستشارى السلطان عدوانًا وسبق أن عمل كسفير فى سان بطرسبرج ، وكان مركزه الصورى هو « مفتش لبعض أقاليم تركيا الآسيوية » ، وأخذ على عاتقه تنفيذ خطط السلطان وإقامة المذابح فى كل المواقع وإبادة الأرمن ونزع ملكية أراضيهم لحساب الأتراك المسلمين . وكانت كل عملية تسير على النموذج التالى : النداء فى الأبواق ثم دخول القوات التركية إلى المدينة بهدف الذبح ووصول قبائل الأكراد بهدف النهب والسرقة ثم إشعال الحرائق والتدمير وملاحقة الهاربين فى الأراضى والقرى المحيطة ، وشهد شتاء عام ١٨٩٥ قتل أكبر عدد من الشعب الأرمينى بما يعادل عشر السكان وتدمير ممتلكاتهم فى عشرين إقليمًا فى شرق تركيا مع نشر الإشاعات بأن الأرمن سيقومون بقتل المسلمين إذا لم يسبقوا إلى هذا العمل . وبلغ مجموع الضحايا ما بين ٥٠ و١٠٠ ألف بخلاف الجرحى وضحايا الأمراض والجوع . وفى المدن الكبرى وصلت أعداد القتلى إلى أربعة أضعاف هذا الرقم ، ففى أرضروم وحدها تم نهب ١٠٠٠ حانوت ودفن ٣٠٠ مسيحى فى مقبرة جماعية .

وكانت أبشع هذه المذابح مذبحة أورفا Urfa التى كان يشكل فيها

الأرمن المسيحيون ثلث السكان ، فبعد حصار دام شهرين لحى الأرمن وبعد أن لجأ القادة الأرمن إلى الكاتدرائية طلباً للحماية من الأتراك فوعدوهم بالأمان ، ثم قاموا بحركة غادرة بالالتفاف حول الكاتدرائية بفصائل من الجيش وفى ذات الوقت أضرموا النيران فى الحى الأرمينى ونهبوا المنازل وقتلوا جميع الذكور البالغين بطريقة بشعة . وفى اليوم التالى دخلت جماعات كبيرة منهم إلى الكاتدرائية منتهكينَ حرمتها لعمل مذبحة وهم يصرخون بعبارة تسخر من المسيح ، وقتلوا حوالى ٣٠٠ لاجئ وأشعلوا النيران فى جثثهم . وفى عصر نفس اليوم أعلن نفير البوق إنتهاء المذابح التى راح ضحيتها حوالى ٨٠٠٠ شخص .

وفى منطقة واحدة فقط كان الأرمن هم المعتدون البادءون بالشر ، فى جبل زيتون Zeiton – الواقعة فى إقليم سيليسيا سابقًا – Cilicia – حيث قامت قوة من الهنشاق بالهجوم وهزمت فرقة تركية وطردت الحامية من قلعة زيتون وأسرت ٤٠٠ تركى وقامت بنهب وحرق المدن التركية المجاورة ، فتقدم الأتراك بجيش كبير وقذفوا قلعة زيتون بالقنابل بعد أن قام الأرمن بإخلائها ، وأضرموا فيها النيران . وهنا دعت الجالية الأرمينية فى استانبول إلى تدخل بوساطة السفراء الأجانب إلى التوصل إلى اتفاق يقوم على أساس تسليم جميع الأطراف سواء أرمن أو أتراك الأسلحة فى مقابل منحهم العفو العام .

وفى أغسطس ١٨٩٦ قامت مجموعة صغيرة من الدشناق Deshnaks بجرأة باقتحام البنك العثمانى قلعة الرأسمالية الأوروبية خلال الظهيرة بزعم تبديل نقود ، وكان معهم رجال يحملون أكياسًا ضخمة ، كما ادعوا ، تحوى عملات فضية وذهبية ، وأطلقوا النيران من بنادقهم واتضح أن هذه الأكياس مليئة بالمفرقعات والذخيرة . وأعلنوا أنهم لا يقصدون سرقة البنك وأنهم وطنيون يرغبون فى عرض مطالبهم على السفارات الأوروبية الستة التى ضمنوها فى ملفين كبيرين وخاصة مطالب الإصلاح السياسى ، وأعطوا مهلة ٤٨ ساعة لإجابة مطالبهم وإلا سيقومون بنسف البنك ، وسرعان ما هرب مدير البنك السير ادجار ڤينسون من خلال شباك فى السقف يؤدى إلى مبنى آخر بينما تم احتجاز زملائه كرهائن ، ثم تقدم إلى الباب العالى مطالباً بعدم

اتخاذ أى سياسة هجومية ضد الدنشاق طالما هم فى داخل البنك . وتم رإسال الترجمان الأول للسفارة الروسية للتفاوض معهم وأقنعهم بمغادرة البنك ثم حملهم يخت خاص بمدير البنك منفيين إلى فرنسا .

وفى اليومين التاليين انتشرت عصابات الجماعات الدينية المتعصبة فى الحى الأرمينى فى استانبول ومعهم الهراوات والسكاكين والقضبان الحديدية ، وبدون تدخل من الشرطة ، وقتلوا كل أرمينى فى الطريق وكذلك الذين اختبأوا فى المنازل وتركـوا الجثث فى كل مكان والتى بلغ عددها ٦٠٠٠ جثة . وفى اليوم التالى للمذبحة احتج سفراء الدول الأوروبية الكبرى لدى الباب العالى وأرسلت إنجلترا سفنها لحماية رعاياها ، فصدرت الأوامر بوقف العنف ، ثم أرسل ممثلو الدول الكبرى برقية إلى السلطان يطلبون نهاية فورية للمذابح مع التهديد بأن إستمرارها يشكل خطراً على عرشه وأسرته الحاكمة . وبعد ذلك أرسلوا ملاحظاتهم إلى الباب العالى بأن ما حدث لم يكن عمليات متعصبة تلقائياً بل نتاج قوة تعمل بمساعدة السلطات ، وأن عملياتها جاوزت الحدود ولابد من البحث عنها ومعاقبتها بالقوة ، أى أنهم ألمحوا إلى أن عبد الحميد كان المحرض على هذه المذابح . وقابل السلطان هذه الملاحظات بالمراوغة والوعود بضرورة محاكمة الطرفين فى محكمة خاصة ، وقامت السلطات التركية فى محاولة للإسترضاء بحملة إعتقالات بين الرعاع الذين كانوا يذعنون للسلطان .

وارتفعت الأصوات من جديد فى بريطانيا تطالب بعزل السلطان وقام جلادستون (وكان فى سن الثامنة والستين) بعد إعتزاله العمل وخرج من عزلته ليلقى خطبة أخيرة فى ليفربول ضد « الأتراك الهمجيين » الذين تستحق إمبراطوريتهم الشطب من خريطة العالم لأنهم خزى على الحضارات ولعنة على الجنس البشرى ، ووصف السلطان بأنه « عبد الحميد السفاح » ، بينما وصفه الفرنسيون بالسلطان الأحمر ، وأصر جلادستون أن تتدخل إنجلترا عند الضرورة منفردة ضد الباب العالى وفق بنود اتفاقية قبرص . ورغم أنه فى البداية كانت هناك مفاوضات حول إرسال الأسطول الإنجليزى إلى الدردنيل إلا أنه سرعان ما اتضح أنه لم تكن هناك أى دولة مستعدة لإستخدام القوة من

أجل الأرمن كما ظهر فى حديث اللورد سولسبرى وتلميحاته للسلطان عبد الحميد .

وبرغم أن سولسبرى اهتم بالتأييد الروسى لفكرة عزل السلطان إلا أنه لم يكن مستعداً للتنازل عن مسألة المضايق ، كما أن روسيا من جانبها لم تستغ فكرة أرمينيا المستقلة مكتفية بالدور الذى تلعبه دولة بلغاريا الحديثة فى أوروبا . أما النمسا والمجر فقد كانت متورطة فى البلقان ، وفرنسا مهتمة بإستثماراتها فى الدولة العثمانية وتفضل الحالة الراهنة ، وألمانيا تأمل فى الحصول على إمتيازات فى آسيا الصغرى وتقوم بدور الحامى للسلطان ، ومن ثم فقد وصلت أفكار تقسيم الإمبراطورية العثمانية أو فرض نوع من الوصاية على أقاليمها إلى طريق مسدود ، كما فشل مؤتمر ١٨٩٧ فى فرض خطة إصلاحية على الباب العالى لمساعدة الشعب الأرمينى التعيس . ومرة أخرى منحت الإمبراطورية العثمانية فرصة جديدة للبقاء بفضل التشتت والتفكك الذى ساد الدول الأوروبية ، ولكن التصرفات غير الإنسانية التى كان يقوم بها عبد الحميد أكسبته خزياً أزلياً فى عيون العالم المتحضر .

الفصل الثامن والثلاثون

ظهر من بين الدول الأوروبية حليف وحيد مناسب كان يخطب ود السلطان وهو ألمانيا ، ورغم أن بسمارك ظل يراقب الإمبراطورية العثمانية لعشرين عاماً مضت ، إلا أن هذا لم يعكس أى خطط إيجابية للتوسع الألمانى على حساب المصالح التركية ، وإنما كان يهدف إلى المساهمة فى التأثير السياسى أمام النفوذ المتضاءل لبريطانيا ، وخلافاً لذلك فقد كان حريصاً فى التزاماته الشرقية . ومن خلال عمله كوسيط أمين فى مؤتمر برلين ، رأى بسمارك أن الدور الألمانى الأساسى فى أوروبا هو الحفاظ على توازن القوة مع روسيا وذلك من خلال تحالف ألمانيا مع الإمبراطورية النمساوية - المجرية . وطبقاً لهذا المفهوم لم تلعب الإمبراطورية العثمانية أى دور حيوى فى سياسته الشرقية ، بل كان يرى أن المسألة الشرقية The Eastern question لا تستحق إهدار دم جندى ألمانى واحد .

ولكن كانت لدى القيصر ويلهلم الثانى (١) الذى اعتلى العرش الإمبراطورى فى عام ١٨٨٨ طموحات وأحلام مبالغ فيها ، وشجعه على ذلك المارشال Vonder Goltz الذى قام على مدى خمس سنوات ومعه فريق من الضباط الألمان بتدريب الجيش التركى وتطويره وإمداده بالأسلحة والمعدات الألمانية . فرأى القيصر أن الأقاليم التركية فى آسيا ينبغى أن تصبح منطقة نفوذ كبرى لألمانيا ليس فقط فى المجال الإستراتيجى ولكن فى المجالات الإقتصادية والتجارية والفنية . وسرعان ما تم عزل بسمارك الذى كان لا يرغب فى مد النفوذ الألمانى خارج الحدود الأوروبية ، واتبع القيصر خطة شرقية طموحة عرفت بـ Drang nash Osten ، ومول سكة حديد بغداد وهو الخط المصمم ليربط برلين بالخليج الفارسى والذى توافق مع خطط السلطان عبد الحميد فى إنشاء شبكة من الخطوط الحديدية والطرق والإتصالات التلغرافية ليربط بين المركز والأقاليم الآسيوية البعيدة حتى يسهل عليه التحكم فى إدارة البلاد وتطويرها إقتصادياً .

---

(١) كان ويلهلم الثانى إمبراطوراً على ألمانيا من ١٨٨٨ إلى ١٩١٨ ، وهو ابن ويلهلم الأول .

أنظر : La Rousse , p . 1387

ومنح السلطان إمتياز إنشاء الخط الحديدى للبنك الألماني فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر مما أدى إلى تدفق الرأسماليين الألمان والتجار والمهندسين والخبراء فى كافة الميادين إلى الإمبراطورية العثمانية . ثم قام القيصر فى العام التالى على منح الإمتياز بزيارة رسمية للسلطان فى استانبول والذى أصبح الآن يعامل الجنس الألماني بكل ترحاب بعد أن كان فى الماضى يتعامل معه فى الناحية المالية بتحفظ . وقد عومل الإمبراطور بكرم ضيافة حقيقى ، إذ أمر السلطان ببناء كشك كبير بديكورات فخمة على أرض قصر يلدز يشبه القصر الصغير فى فخامته ، وأقام للوفد الألماني وليمة كبيرة وأتحفه بأكلات أوروبية موضوعة فى أطباق مطعمة بالذهب صنعت فى باريس . كما التقى السلطان بالإمبراطورة وقدم لها باقة من الزهور من حديقة القصر ووضع ماسة حقيقية وسط أوراقها . وبعد ذلك بتسع سنوات ، قام القيصر ويلهلم بزيارة رسمية أخرى إلى ممتلكات السلطان حيث كان خط سكة حديد بغداد قد وصل إلى مدينة قونية فى وسط الأناضول ، وتواجد خط بواخر ألمانية بين هامبورج واستانبول ساهم فى توريد المنتجات الألمانية إلى تركيا والتركية إلى ألمانيا لصالح كافة طبقات الشعب فى الأناضول . وعلى ذلك صار الترحيب بالقيصر مضاعفاً من قبل السلطان وساهم فيه إمتناع ألمانيا عن الاعتراض على مذابح السلطان ضد الأرمن .

وقد إمتدت زيارة القيصر هذه المرة إلى أجزاء أخرى فى الإمبراطورية العثمانية ، حيث دخل أورشليم كفارس صليبى فى زى الحجاج المسيحيين وصلى ثم ركع على ركبتيه على تراب المدينة المقدسة وهو يفتتح كنيسة لوثرية ، ثم قام ببراعة بتغيير ملابسه ودخل مدينة دمشق المسلمة مرتدياً عمامة وأظهر الخشوع أمام قبر صلاح الدين ، ووعد الـ ٣٠٠ مليون مسلم بالحماية من قبل الإمبراطور الألماني . ونتج عن هذه الزيارة حصول القيصر على إمتياز تنفيذ المرحلة التالية لسكة حديد بغداد والتى تمتد من قونية إلى جبال طوروس ثم تصل إلى الخليج الفارسى .

بدأت الحكومة الإنجليزية تظهر إهتماماً خاصاً بسكة حديد الأناضول بعد

أن إطمأنت على ممتلكاتها من خلال تحكمها فى قناة السويس ، وشعرت بالقلق تجاه الخليج الفارسى فأرسلت اللورد كيرزن Curzen كنائب للملك للتفاوض مع شيخ الكويت وتوقيع معاهدة بينه وبين حكومة الهند للسيطرة على مياه الخليج ، ووافق الشيخ على عدم التخلى عن أى جزء من أراضيه أو إستقبال أى ممثل أو نائب أجنبى دون موافقة بريطانيا ، كما فرضت قيود مماثلة على سلطان عمان ؛ وهكذا أعاقت المصالح البريطانية نهاية سكة حديد بغداد الذى لم يكتمل أبداً ، كما أظهرت روسيا إهتماماً بهذا الخط وخشيت أن يستخدمه الأتراك كسلاح ضدها فى القوقاز ، ولذلك فرضت عليهم « اتفاقية البحر الأسود » وبمقتضاها قبلوا منح إمتيازات السكك الحديدية فى شمال الأناضول لروسيا فقط وللشركات التى يوافق عليها القيصر الروسى .

كان هناك مشروع آخر خفى يتفق مع طموحات السلطان فى السيطرة على العالم الإسلامى وهو مشروع سكة حديد الحجاز الذى تقرر أن يبدأ من دمشق بهدف نقل الحجاج إلى المدن المقدسة فى مكة والمدينة ، ويؤكد بالتالى على أن السلطان الخليفة حقيقة واقعة ومن ناحية أخرى يؤدى إلى تقوية نفوذه السياسى على الشعوب العربية فى اليمن وغيرها . ونظراً لأن هدف هذا الخط خدمة الأغراض الدينية فقد جعل تمويله بالكامل من التبرعات من العالم الإسلامى ، وأن تقوم بإنشائه عمالة إسلامية بما فيها الجنود الأتراك ولكن تحت إشراف وإستشارة الفنيين الأجانب ، وبدأ العمل فى خط الحجاز فى ١٩٠١ وانتهى خلال ثمانى سنوات .

وإستمرت ألمانيا بخلاف الدول الأخرى فى الإهتمام بمصالحها بحماس واضح ورفضت فى سبيل ذلك توجيه أى لوم للسلطان فى معاملته لرعاياه المسيحيين أو مساندة الشعب الأرمينى أو كريت أو مقدونيا ، برغم أن الأوضاع فى كريت كانت متفجرة والثورات متواصلة بها منذ ثورة اليونان الإستقلالية . وكانت الدول الأوروبية تميل إلى دمج كريت مع اليونان لأن بها أغلبية مسيحية تتحدث اليونانية وكانت تتحكم فيها الأقلية المسلمة التى لم تزد على ١٠٪ من السكان .

ولقد حاول السلطان تهدئة الأغلبية المسيحية فى كريت والأقلية المسيحية من الأرمن ، ولكنه واجه ثورة عنيفة من جانب الكريتيين فحاول إرضائهم

بتعيين حاكم مسيحي ولكنه فشل في السيطرة على النظام الإدارى وسرعان ما حل محله حاكم مسلم . وإستمرت ضغوط الأغلبية الكريتية للإنضمام إلى اليونان وقابلت الحكومة اليونانية هذا الطلب بتحفظ شديد لأنها كانت تخشى من الدخول فى حرب مع تركيا . ولكن عندما قام فى الجزيرة تمرد مسلح فى ١٨٨٩ وتدفق الثوار المسيحيون إلى أثينا ، تعاطفت الحكومة اليونانية معهم وطلبت من السلطان تحسين أوضاعهم ، فاستجاب ببعض الإصلاحات ولكنه فشل فى إرضاء الكريتيين إلا لوقت قصير ، ومن ثم قرر إستخدام القوة ضدهم بإرسال الفصائل التركية التى قامت بمذابح فى كانيا وهدمت العديد من الأحياء المسيحية بها فى ١٨٩٦ وإنقلب الوضع إلى حرب أهلية بين المسلمين والمسيحيين الكريتيين ، وناشد الأخيرون الدول الأجنبية لمساندتهم وطالبوا بالوحدة مع اليونان التى استجابت بإرسال قاذفات قنابل لإيقاف التعزيزات التركية ، ثم أرسلت قوة برية لإحتلال الجزيرة .

وتأزم الموقف عندما قام قادة سفن الدول الخمسة الراسية فى مياه كريت بإحتلال ميناء كانيا ومارست ألمانيا وروسيا ضغوطهما من أجل فرض حصار دولى لإجبار اليونان على الإنسحاب ، ثم طلبت بريطانيا تأمين الحكم الذاتى للجزيرة وإنسحاب اليونانيين والقوات التركية منها فوافق السلطان . غير أن الشعب اليونانى فضل الدخول فى حرب مع تركيا مدعمًا بالعناصر الوطنية الهللينية ، واخترقت بعض الفرق الوطنية الشعبية الحدود إلى مقدونيا وتثالية ، فأعلنت تركيا الحرب على اليونان فى ربيع ١٨٩٧ ، وإستمرت ما يقرب من ثلاثين يومًا وكانت بمثابة كارثة لليونان والبحرية اليونانية برغم تفوقها على البحرية التركية ، وبرًا تراجعت القوات اليونانية من أبيروس وتثالية وساد الذعر فى أثينا مع التقدم السريع للأتراك ، ولكن أنقذ الموقف تدخل الدول الكبرى سريعًا لفرض هدنة ، وبعد ستة شهور تم التوقيع على معاهدة سلام فى استانبول وأجبرت اليونان على دفع غرامة مالية كبيرة ، وإنسحب الأتراك من أبيروس وتثالية وإكتفوا بالتنازل عن شريط صغير فى الإقليم الملحق بها ، وهكذا تم إنقاذ الأسرة الحاكمة اليونانية وارتفع مقام السلطان بهذا النصر العسكرى الذى يعود الفضل فيه للألمان .

وفى كريت إستمرت الإضطرابات لعام آخر وأخذت الدول الأوروبية تبحث عن حاكم مناسب للجزيرة التى كانت تتمتع بالحكم الذاتى فى ظل سيادة السلطان ، ولكن بعد أن أدت الإضطرابات من جانب المسلمين إلى قتل نائب القنصل الإنجليزى طلبت السلطات الأوروبية من السلطان إخلاء الجزيرة من القوات التركية وهذا ما تم بالفعل ، وعين الأمير جورج (١) اليونانى حاكمًا على الجزيرة ، وبذلك فقدها السلطان تمامًا وابتجهت أثينا لإستعادة كريت لحريتها للمرة الأولى منذ الغزو الرومانى من ١٩٠٠ سنة .

والآن تبقى إقليم تركى واحد فقط فى أوروبا فى قبضة السلطنة العثمانية وهو مقدونيا التى تمثل بؤرة البلقان ، والتى إزدادت الأوضاع فيها سوءًا وتأخرًا فى ظل الحكم التركى مقارنة بولايتى بلغاريا والصرب اللتين تحررتا من هذا الحكم ، فقد باتت الفرق التركية عبئًا ثقيلاً على الشعب بعد أن تركت بدون رواتب ، وتفشت السرقات والتجاوزات من جانب المسلمين ، ونهبت أراضى الفلاحين المسيحيين والسلطان لا يفعل شيئًا لعلاج هذا الفساد . ونتج عن هذا الوضع المتردى هجرة مستمرة للمسيحيين للولايات القريبة وخاصة بلغاريا حيث صار نصف سكان صوفيا من اللاجئين من وراء الحدود .

وكانت مقدونيا تضم خليطًا من الأجناس واللغات والأديان المتنازعة مع بعضها البعض ومع الحكومة التركية . ففى الماضى كان النفوذ اليونانى هو المسيطر عليها ، ولكن ضعفت هذه السيطرة نتيجة الحرب التركية - اليونانية الأخيرة ، ثم ظهرت ثقافة متحدية أخرى وهى ثقافة السلاف الذين كانوا يمثلون أكثرية العناصر المسيحية . وفى الفترة الأخيرة إمتد التأثير القومى البلغارى إلى مقدونيا عن طريق البطريركية البلغارية والتى شجعها الباب العالى على حساب النفوذ اليونانى . وفى عام ١٨٩٠ وافق السلطان على وجود ما يعرف بالأساقفة البلغاريين السبعة ، وأعقب ذلك تكوين الصرب ، للمرة

---

(١) هو الأمير جورج (١٨٤٥- ١٩١٣) ، الذى صار ملكًا على اليونان حتى ١٩١٣ وخلفه إبنه قنسطنطين الأول .

أنظر : La Rousse , p . 1366

الأولى ، أسقفية تمثل كنيستها فى مقدونيا . تلك كانت مكونات الصراع فى مقدونيا بين اليونانيين والسلاف عند نهاية القرن التاسع عشر ، وتزايدت حدته بتشجيع السلطان عبد الحميد للألبان المسلمين للإعتداء على أراضى اليونانيين والسلاف على السواء .

وقد تم تشكيل منظمة ثورية مقدونية فى سالونيك نادت بالحكم الذاتى للإقليم ، وفى المقابل طالبت لجنة منافسة فى صوفيا بإنضمام مقدونيا لبلغاريا ، وفى ١٨٩٥ شنت بلغاريا هجوماً على مقدونيا ، وقام قطاع الطرق البلغاريين بمهاجمة القرى التركية واشتبكوا فى طريق عودتهم مع قطاع الطرق اليونانيين ، وهاجمت الفرق العسكرية التركية غير النظامية الجانبين وألحقت الدمار بالإقليم المقدونى وإنتشرت الفوضى الشاملة . وفى عام ١٩٠٣ قام عصيان منظم مسلح فى سالونيك تم إخماده بمساعدة التعزيزات التركية القادمة من استانبول ، وقد جذب هذا الصراع إنتباه الدول الأوروبية وكان الشئ الواضح والمتفق عليه بين المسلمين والمسيحيين أن الأقاليم التركية فى أوروبا لا يمكن السماح لها بالبقاء فى ظل هذه الظروف المتردية وعجز السلطات المحلية عن إقرار النظام . وكانت النمسا وألمانيا تفضلان الحكم الذاتى فى مقدونيا لمصلحة حليفهم السلطان ، ثم قدمت النمسا مع روسيا برنامجاً للإصلاح المحدود المعتدل فى المجال الإدارى دون تغيير الوضع الراهن . أما إنجلترا فقد إقترحت بعض الإصلاحات التى تدعم الأقلية المسيحية فى ظل حاكم مسيحى مع إنسحاب القوات التركية غير النظامية .

وفى المؤتمر الذى عقد فى مدينة مورستج Mürzsteg الواقعة بالقرب من فيينا ، اتفق القيصر الروسى والإمبراطور النمساوى على إدخال تعديلات على العرض البريطانى وإخراجه فى صورة معتدلة تعطى للوجود التركى أهميته وذلك بتكوين مجلس إستشارى يضم نائبين أحدهما روسى والآخر نمساوى لتقديم المساعدة للحكومة التركية فى الإقليم على أن وتوضع الشرطة تحت إشراف أوروبى وتتولى سلطات الدولتين مسئولية الحفاظ على النظام والأمن وتشجيع نظام الإستقلال الذاتى الذى يتمشى مع الهياكل القومية المتواجدة فى المناطق ذات الأغلبية المسيحية ، أما فى المناطق المختلطة التى تضم مسلمين

ومسيحيين فقد تقرر إتباع ترتيبات الإصلاح المحلى . وقد رفضت الدول الأوروبية الستة إنسحاب القوات التركية من الإقليم الذى اقترحته بريطانيا ، وخلافًا لذلك وافق الجميع على دعم هذه المقترحات وأعطوا تعليمات لقناصلهم بالإستعداد لتنفيذها .

لم يوافق السلطان على برنامج مورستج سوى من ناحية المبدأ فقط ، أما التطبيق فقد واجه التأجيل والإعاقة من جانب الباب العالى بحجة حماية حقوق سيادة السلطان ، وحتى إذا فكر فى الموافقة على هذه « البدع» فإنه غالبًا ما كان سيقوم بتعديلها لتصبح صعبة التنفيذ . ومرت سنتان من المفاوضات ومحاولات التسوية دون إنجاز يذكر فى مجال الإصلاحات الفعالة . وفى الواقع لم تبذل كلاً من النمسا وألمانيا أى جهود لتشجيع هذا البرنامج ، فقد توحدت مصالحهما السياسية وعزمتا على عدم فرض أى ضغوط على الباب العالى أو الإعتداء على حقوق السلطان فى الحكم . وصار واضحًا أن الدولتين تعارضان أى تحسن فى وضع مقدونيا ، وترغبان فى بقاء هذا الإقليم على حالة من التخلف لأطول فترة ممكنة أفضل من أن يحل نظام دولى مستقر محل الحكم التركى ، وتبين أن النمسا كانت تخطط لزيادة نفوذها شرقًا وفى منطقة بحر إيجة ، فقد طلبت فيما بعد فى ١٩٠٨ من الباب العالى الحصول على إمتيازات إقتصادية فى مقدونيا فى مقابل تقديم المساعدة فى وجه الضغوط الأوروبية فى البلقان .

وكانت إنجلترا هى الدولة الأكثر إيجابية فى السعى لحل مشكلة مقدونيا ، فقد عرضت فى ١٩٠٥ على السلطان تشكيل لجنة دولية تعينها الدول الأوروبية برئاسة المفتش العام التركى وتضم ممثلين أجانب يتم إختيارهم لوضع الإطار العام للإصلاحات المالية للإقليم ، مع ملاحظة إستمرار وجود برنامج مورستج . وفى البداية رفض السلطان أى تدخل أجنبى ، وطالب بدلاً من ذلك بزيادة الرسوم الجمركية ، ولكن عندما قامت الدول الأوروبية – ماعدا ألمانيا – بمظاهرة بحرية ، وأوقفت مكاتب الجمارك فى ميتلين Mytilene ولمنوس Lemnos ، خضع لهم السلطان ووافق على وجود لجنة تضم أربعة خبراء ماليين أوروبيين تعمل بالتعاون مع الوكلاء المدنيين الروس

والنمساويين فى سالونيك ، غير أن هذه اللجنة لم يكن لها أى سلطة تنفيذية .

وفى عام ١٩٠٨ تقدمت بريطانيا بعرض آخر لتعيين حاكم على مقدونيا من الرعايا الأتراك بموافقة الدول الأوروبية على أن يعاونه فريق من الموظفين الأوروبيين يتم دفع أجورهم من دخل الإقليم ، ووافقت فرنسا وروسيا على هذا العرض وتم توقيع اتفاق بين القيصر الروسى والملك إدوارد السابع(١) فى مدينة ريڤال Reval (٢)، كما تقرر مد العمل ببرنامج مورستج لست سنوات أخرى ولكن بشكل محدود . وعند تطبيق الإصلاح ، أظهر المسيحيون والمسلمون على السواء عدم الرضا ومارسوا ضغوطهم على السلطان ليؤمن لهم حياتهم وممتلكاتهم . وكان المفتش العام حلمى باشا رجلاً وقوراً يحاول إرضاء الجميع فى المشروعات الإصلاحية ، ولكن تجاهل عبد الحميد هذه المحاولات بعناد وغرور برغم أنه فكر فى إرضاء الأقلية المسلمة فى كريت من قبل ، أما فى مقدونيا فقد رفض الإستجابة لمطالب المسيحيين والمسلمين . وظلت مقدونيا فى كل الأوقات تطالب بتغيير حاسم وبمساعدة العثمانيين فى إدخال التقدم والإصلاح حتى تكون على مستوى مماثل لجيرانها القوميين ، ولكن عناد السلطان وكراهيته للأجانب وإهماله لرعاياه المسيحيين وإصراره على تجاهل أوروبا أشعل نيران فتنة فى هذا الإقليم ارتدت عليه .

وقد ظهر التناقض فى إنجازات السلطان بشكل واضح فى مجال التعليم سواء المدنى أو العسكرى حيث أدى إلى نمو طبقة جديدة متوسطة نبتت بينها بذور الحرية السياسية وأخذت تشق طريقها لمقاومة إستبداد السلطان ،

---

(١) إدوارد السابع (١٨٤١- ١٩١٠) صار ملكًا على إنجلترا فى ١٩٠١ ، وهو ابن الملكة ڤيكتوريا .

أنظر : La Rousse , p . 1310

(٢) ريڤال مدينة روسية لها ميناء يحمل إسمها ، وهى عاصمة استونيا الواقعة على خليج فنلندا .

أنظر : La Rousse , p . 1721

ففى عام ١٨٨٩ ، وفى الاحتفال بمئوية الثورة الفرنسية ، قام أربعة من طلاب مدرسة الطب العسكرية فى استانبول بتشكيل أول جمعية سرية منظمة على نمط جمعية الكاربونارى الإيطالية . وقد التحق بهذه الجمعية شباب من مدارس استانبول المدنية والعسكرية والبحرية والطبية وغيرها من المدارس العليا ، واتصلوا بأول جمعية منظمة أقامها العثمانيون فى المنفى فى باريس ، وإنضم إليهم أحمد رضا مدير التعليم فى بورصا والذى كرس حياته للعمل السياسى . ثم أصدر أحد أعضاء الجمعية ، وهو عضو سابق فى البرلمان ، جريدة تحمل إسم تركيا الفتاة La Jeune Turquie وأعطى للأعضاء لقب شباب الأتراك . ثم قام رضا ورفاقه بإصدار جريدة أخرى تحمل إسم مشورة Meshveret وتمكنوا من تهريبها إلى داخل تركيا . ثم تحول إسم الجمعية إلى الاتحاد والترقى لتعبر عن توحد كافة الأجناس والعقائد لتحقيق التقدم . وقد قاد فشل الإنقلاب المضاد للسلطان فى ١٨٩٦ إلى المزيد من النفى والشك وعزل الأقاليم العثمانية ، وتزايدت المقاومة بين المنفيين فى الخارج وإمتدت خلاياهم إلى باريس والقاهرة وجنيف ولندن ، وكان الإنقسام الأيديولوجى والشخصى يسود بينهم مما دفع البعض إلى تملق السلطان وقبول عرضه للعودة إلى استانبول .

وإستمرت روح المقاومة بين صفوف الطلاب فى استانبول نفسها ، وفى مدرسة جالاطة سراى السلطانية التى ضمت أبناء النخبة الحاكمة ، والتى كان شعارها فى الاحتفالات « يحيا السلطان أو البادشاه» ، صار مع بداية عام ١٩٠٦ « فليسقط السلطان » . وهكذا تولدت الروح الثورية فى المدارس السلطانية حيث التأثير المباشر للقصر السلطانى . وفى سالونيك تكونت جمعية الاتحاد والترقى المدعمة بالجماعات الماسونية . ويهود الدونمة Dönmehs (١) (وهم اليهود الذين اعتنقوا الإسلام) ، وكانت هذه الجمعية أكثر تأثيراً من الناحية العملية من جمعية باريس التى سرعان ما اندمجت فيها فى ١٩٠٧ . وقد كان السلطان يعتقد ، وهى نظرة قاصرة ، أن حركات العصيان هذه لا يمكن أن تمتد إلى موظفيه الذين يعملون فى خدمته وكذلك الضباط فى الجيش العثمانى الذى يستمد منه قوته ، غير أن هؤلاء تمتعوا بوعى

---

(١) حول يهود الدوغة أنظر : على محمد الصلابى ، الدولة العثمانية ، ص ٤٤٠ – ٤٤٤ .

وبذكاء وأدركوا من خلال الشكاوى العديد وما تواجهه القوات المسلحة من عجز فى المعدات والأسلحة أن هذه المساوئ لا يمكن السكوت عليها ، وبالتالى شكلوا عناصر قادرة على القيام بحركة ثورية .

وفى بداية عام ١٩٠٨ انتشرت الفوضى وحركات العصيان العسكرى فى فيالق الجيش الثالث فى مقدونيا ، وتم تفسير الاجتماع الذى تم بين القيصر الروس والملك إدوارد السابع فى مدينة ريڤال على أنه تهديد أجنبى لفرض الحكم الذاتى على الإقليم وبالتالى تهديد للإمبراطورية من الخارج مما ساعد على إشعال ثورة مسلحة ضد الحكم الإستبدادى تنادى بالمفاهيم السياسية مثل الحرية والوطن والدستور ، ووجد السلطان نفسه فى مواجهة الأمر الواقع بعد أن ظل يقلل من قيمة التقارير المقدمة من جواسيسه .

وقد قاد هذه الحركة الثورية التحررية فى مرتفعات ريزنا Risna إثنان من الشباب الأتراك أحدها يدعى أنور بك وهو رجل قليل الكلام اشتهر بأنه جندى جرئ ، والآخر هو نيازى بك أحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقى الذى استطاع ضم العديد من الشباب التركي إلى الجمعية عن طريق ذهابه إلى الأناضول متنكراً فى أشكال مختلفة ، وأصبح الآن متحصناً فى المرتفعات مع الفرق العسكرية الموالية له ومعه الأسلحة والذخائر الحربية والأموال من خزائن كتائبه . وساندت جمعية الاتحاد والترقى هذين الضابطين فى ثورتهما وشكل الجميع مطلباً سياسياً واضحاً وهو إحياء الدستور الذى وضعه مدحت باشا فى ١٨٧٦ والعمل به . وعندما أرسل السلطان قوة إلى موناستير لمواجهة المتمردين قتل قائد الفرقة شمسى باشا فى وضح النهار رمياً بالرصاص ، وكذلك واجه غيره من الضباط نفس المصير ، أما الألبان الذين اعتمد عليهم السلطان كحلفاء صاروا سنداً لفيالق الجيش الثانى فى تراقية . وفى ٢١ يولية ١٩٠٨ أرسلت جماعة الاتحاد الترقى برقية إلى السلطان تطالب فيها بإعادة العمل بالدستور ، وهددوه فى حالة الرفض بالمناداة بوريثه خليفه على العرش وبمسيرة ضخمة للجيش إلى استانبول .

وإتباعاً للتقليد الإسلامى لجأ عبد الحميد إلى شيخ الإسلام لمعرفة حكم الشرع فى محاربة الضباط المسلمين الذين أشعلوا الثورة ضد سلطة السلطان ، وبعد دراسة مفصلة لكافة جوانب القضية جاء حكم شيخ الإسلام بأن مطالب الفرق العسكرية من أجل الإصلاح وعرض المظالم لا تتعارض مع قواعد

الشرع الإسلامى . فدعا عبد الحميد مجلس الوزراء للإنعقاد ، وإستمرت الإجتماعات لثلاثة أيام ، وتعاطف معظم أعضاء المجلس مع طلبات الجيش وصوت الجميع لصالح إعادة الدستور – ثم استدعى السلطان كبير المنجمين وسأله عن واجب السلطان فى هذه الحال فأكد له الموافقة وأن هذا ما تشير إليه النجوم ، فاستسلم وأرسل البرقيات إلى مقدونيا مؤكداً على عودة الدستور وأقسم على القرآن بذلك ، ثم عقد البرلمان الموقوف منذ عام ١٨٧٧ عن طريق الانتخاب وبهذا أنقذ السلطان عرشه .

وعند إستسلام أنور بك فى مقدونيا طالب بعزل الحكومة الإستبدادية وتحقيق الوحدة والتقدم وبرفع شعار « نحن جميعاً أخوة » ، أى ليس هناك بلغاريون أو يونانيون أو رومان أو يهود أو مسلمون ، فالجميع متساوون وعثمانيون . وفى إحدى المدن قام رئيس اللجنة البلغارية بمعانقة المطران اليونانى ، وفى مدينة أخرى سجن ضباط الثورة أحد الرعايا الأتراك لأنه أهان مسيحياً . وفى تجمع كبير للأتراك والأرمن أمام مقبرة مسيحية ردد الجميع صلوات الكهنة الموقرين ترحماً على ضحايا المذابح الأرمينية . كما انتشر النشاط فى مدينة استانبول وعلت هتافات الجمهور « فليحيا الدستور ويسقط الجواسيس » وسرعان ما إنحلت قوات الجيش الفاسدة . ومن ناحية أخرى أشادت الصحف بمسألة طرد المراقبين من مكاتبهم ، وعمت الأفراح لعدة أيام وأقيمت المواكب الإحتفالية المنظمة وشارك فيها الأتراك والحاخامات اليهود والأساقفة والبطاركة المسيحيون وهم يجلسون جميعاً جنباً إلى جنب فى مودة . كماكان المسيحيون والمسلمون يتوقفون فى نقاط على الطرق رافعين أيديهم المتشابكة بالصلوات والدعاء لحماية الدستور ويطلبون مباركة الله .

وقد حاول السلطان بدهاء أن يقنع رعاياه بأنه السلطان الشهم راعى الدستور والحرية ، ولذلك ارتفعت الدعوات له أيضاً وسط هذه الاحتفالات حيث ردد الناس « يحيا السلطان » ، ووقف فريق منهم مصفقين له أمام بوابات قصر يلدز الذى نادراً ما خرج منه . وفى يوم الجمعة التالى خرج السلطان إلى صلاة الجمعة فى مسجد أياصوفيا وسط الجماهير التى احتشدت لتحيته ، ويذكر أنه لم يدخل هذا المسجد منذ ربع قرن مضى ، وهكذا بعث البرلمان من جديد بعد أن ظل معطلاً منذ عام ١٨٧٧ وصار يضم أجناساً

وعقائد متعددة ، وبدا أن تركيا ستشهد فجر ألفية مباركه ، غير أن تحقيق المساواة والتقدم كان بطيئًا ، لأن شباب الأتراك فى جمعية الإتحاد والترقى كانوا في مرحلة لا تسمح لهم بالإضطلاع بأمور الحكم ، فظهرت منهم مجموعة ترغب فى الإستيلاء على السلطة بالقوة ، وهؤلاء كانوا من صغار الضباط وساندهم بعض المدنيين الذين حاولوا كبح جماح السلطان وإستبداده وإحلال العناصر المؤهلة محل مساعدى السلطان فى الحكومة الدستورية لمواجهة الأخطار المتزايدة التى تهدد الإمبراطورية ، ولكنهم لم يطمحوا إلى القيام بأى تغييرات ثورية إجتماعية وظلوا محافظين على طابع حركة الإصلاح التى تمت فى القرن التاسع عشر .

وكانت نتيجة الإصلاحات التعليمية والعسكرية والمدنية لتى قام بها عبد الحميد أن تكونت هذه الطبقة البورچوازية الناشئة والتى أظهرت بعض الأمل فى غد أفضل ولكنها كانت غير مكتملة النضج وتنقصها الخبرة اللازمة لممارسة مهام الحكم ، وبالتالى كان دورها فى هذه المرحلة هو دور القوة الحذرة خلف العرش التى تحرس الدستور بينما ظلت القوة الحاكمة فى أيدى حكومة الباب العالى المتعاونة فى نطاق ضيق مع لجنة الاتحاد والترقى على حساب القصر . وسرعان ما قام صراع بين الطرفين إذ حاول السلطان تأكيد حقه الدستورى فى تعيين رئيس الوزراء وشيخ الإسلام ووزيرى الحربية والبحرية ، وكان هذا يعنى تدمير سلطة الجمعية وسيطرة السلطان على القوات المسلحة ، فرفضت الجمعية هذا الأمر وأجبرت الصدر الأعظم على الإستقالة وعينت بدلاً منه كامل باشا ، وهو رجل سياسى ذو خبرة ، فقام بدوره بتعيين وزير حربية معتدل ومقبول ، وتم تعليق الانتخابات البرلمانية إلى نهاية العام ، وإنضم كامل باشا إلى حزب الاتحاد الحر وسار فى تنفيذ برنامج الإصلاح التقليدى .

وفيما يتعلق بمفهوم الجامعة العثمانية أو مبدأ العثمنة Ottomanism الذى يقوم على جمع كافة الأجناس والأديان فى وحدة واحدة فى ظل الحكم العثمانى ، فقد تحطم فجأة بظهور ثلاثة إتجاهات متفرقة وهى : إستيلاء النمسا على البوسنة والهرسك والإدعاء بمنح سكانها إمتيازات دستورية ، وإعلان بلغاريا إستقلالها التام تحت حكم الأمير فرديناند « قيصر

البلغاريين » مكونة الإمبراطورية البلغارية كما كانت فى العصور الوسطى ، وإعلان كريت قرارها بالاتحاد مع اليونان . وفى ١٧ ديسمبر ١٩٠٨ سار السلطان عبر شوارع العاصمة لافتتاح البرلمان التركى الجديد فى موقع مجلس الشيوخ البيزنطى القديم ، وكان الأعضاء النواب متوازنين من الأتراك والرعايا الآخرين ، والأغلبية من أعضاء جمعية الاتحاد والترقى . وكان رئيس مجلس الأعيان أحمد رضا الرئيس السابق فى باريس ، وقد ادعى السلطان فى كلمته الافتتاحية بأنه أوقف الدستور فى السابق لأن الشعب لم يكن مستعداً بعد للحكومة الدستورية ، وقال أن الوضع تغير نتيجة لتطور التعليم وصار الحكم دستوريًا ، ثم دعا جميع النواب إلى مأدبة فى قصر يلدز وشارك أحمد رضا فى شرب المياه من الينبوع المقدس حتى صدق بأن السلطان يعتزم بصدق أن يحكم بالدستور .

وسرعان ما تبدد هذا الوهم عندما تحركت العناصر المضادة التى تكتلت فى تشكيل سياسى يحمل إسم « جمعية محمد » ونادت بضرورة سيادة حكم الشريعة الإسلامية وسيادة رجال الدين ، وعارضت كافة الإصلاحات الليبرالية ، وكان لسان حالهم صحيفة تحمل إسم Volkan (البركان) دعوا على صفحاتها إلى إيجاد المزيد من العناصر الدينية فى البرلمان وبين صفوف الجيش ، بينما تزايدت أعداد الساخطين على البرلمان بين فيالق السلطان المعزولة من الجواسيس والموظفين العموميين . وفى أوائل شهر أبريل ١٩٠٩ تمردت الفيالق العسكرية فى الجيش الأول فى استانبول وسارت خلف ضباطها حتى الميدان أمام قاعة مجلس النواب ونادوا جميعاً بإستعادة العمل بالشريعة الإسلامية ، وتزايدت أعدادهم بعد أن انضمت إليهم عناصر دينية وعناصر متطرفة رددت هتافات « ليسقط الدستور » وكان هذا هو الهدف السياسى الحقيقى . وعندما تحرك هذا الجمع إلى قاعة الإجتماع هرب النواب وإستقال رئيس الوزراء (الصدر الأعظم) ، وقام خليفته بتشكيل وزارة جديدة تم استبعاد أعضاء الجمعية منها وانضم السلطان إلى هذا الفريق وأيد طلباتهم . وتزامن ذلك مع انتشار بعض الاضطرابات فى أطنة وأجزاء من سيلسيا وقامت المذابح مرة أخرى ضد آلاف الأرمن .

وهكذا قامت الثورة مرة أخرى ، وفور وصول أنبائها إلى سالونيك تصرفت الجمعية بسرعة مدافعة عن الدستور وقامت بنقل فرقة من الجيش الثالث إلى استانبول تحت قيادة الجنرال محمد شوكت باشا ومعه اثنين من الضباط هما نيازى وأنور ، وكان رئيس الفرقة ضابط شاب واعد يدعى مصطفى كمال وهؤلاء أطلقوا على أنفسهم « جيش التحرير » ، وفور وصولهم إلى العاصمة إنضم إليهم أعضاء مجلس النواب وإجتمعوا في سان استفانو كلجنة قومية وصدقوا على أوامر القائد التي تمثل إرادة الأمة وأعلنت الأحكام العرفية ومعاقبة مثيرى الشغب . ثم استخدمت هذه الفرق التى تحت قيادة ضباط من سالونيك المدافع وسرعان ما وقع قصر يلدز فى قبضة جيش التحرير . وفى صباح اليوم التالى خرج المحررون من القصر فى مسيرة يتقدمهم موكب السلطان الذى ضم الخصيان والجواسيس والعبيد . وإجتمعت اللجنة القومية إجتماعًا خاصًا لتقرير مصير السلطان الذى كان بارعًا فى عدم إظهار أى مساندة للثوار ، ولكن الشئ الثابت والذى لا يقبل الشك أنه قام بتوزيع مبالغ مالية طائلة على كل المستويات للمحرضين على الثورة أى أنه كان شريكًا فيها ، ومن ثم تقرر عزله ، وطبقًا للتقليد الإسلامي سأل أعضاء اللجنة شيخ الإسلام عن الإجراءات الواجب اتخاذها حيال السلطان الذى يقوم بأعمال تتنافى مع تعاليم القرآن والشرع الإسلامى ، وينفق أموال الشعب فى أمور عقيمة ، ويسجن ويعذب ويقتل دون سند شرعى ، وينتهك قيم العدل والسلام التى أقسم عليها ، ويتسبب بتصرفاته فى سفك الدماء ، فهل يصبح عزله مناسبًا مع هذه التصرفات ؟ وكانت إجابة المفتى : نعم .

وبعد ذلك قامت لجنة من البرلمان بالدخول إلى القاعة الكبرى فى القصر السلطانى إنتظارًا للسلطان والتى كان يشغلها السكرتارية وثلاثون من الخصيان السود . ثم خرج السلطان من خلف ستار بصحبة إبنه الصغير البالغ من العمر إثنتى عشرة عامًا فقدم له قائد اللجنة التحية والإحترام المناسب وقرأ عليه الفتوى بعزله على أن يحل محله شقيقه رشاد (١) كسلطان ، وأجاب السلطان

---

(١) يعرف بالسلطان محمد رشاد الخامس وتولى الحكم من ١٩٠٩ إلى ١٩١٨ .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ملحق ١ .

بكل شموخ « هذا أمر مقسوم » ، ثم سأل ما إذا كانت حياته سيتم الإبقاء عليها أم سيقتل ، فأجابه النواب أن هذا الأمر يرجع إلى البرلمان الذى يعمل باسم العدالة والشعب التركى . وبعد تبريرات مصحوبة بالبكاء صرخ عبد الحميد صرخة يائسة « ليعاقب الله الأشرار » ، وانفجر الأمير الصغير فى البكاء . وفى الليل أقتيد السلطان المخلوع إلى محطة السكة الحديد فى طريقه إلى سالونيك بصحبة إثنين من الأمراء الصغار وبعض المفضلين من الحريم ورجال الخدمة فى القصر ، ثم أدخل إلى ڤيلا Allatini وهى منزل شخصى يهودى .

وهكذا كانت هذه نهاية آخر طاغية عثمانى خرج مهزوماً ومحتقراً . فى البداية خضع للثورة البيضاء ، ثم فشل فى الثورة المضادة الغادرة بعد أن تحدى بنظامه الإستبدادى مدحت باشا رجل الإصلاح الديمقراطى وقاوم كل الإتجاهات التحررية التى تأصلت منذ الربع الأول من القرن التاسع عشر ، والتى صارت الولايات البلقانية القومية المجاورة تمثل نموذجاً مرئياً لها ، ومن دواعى السخرية أن تظهر هذه الميول التحررية بطريقة غير مقصودة وكثمرة لنظام إصلاح التعليم والإدارة الذى سار عليه السلطان دون النظر إلى عواقبه التى هددت عرشه ، ورغم كل الأساليب اللا إنسانية التى اتصف بها حكم السلطان عبد الحميد ، فقد طالب بأن يتم إنصافه كخليفة لا يقل شأناً عن أسلافه العظام مثل محمد الثانى وسليمان الأول الفاتحين المنتصرين . إن هذا السلطان لم يفعل أكثر من محاولة الحفاظ على ما تبقى من إمبراطوريته وتجنب الحرب التى كان يمكن أن تشتعل بسبب تورطه مع أوروبا . لقد كان عنيداً وواجه الأجانب ليس فى ميدان المعارك العسكرية ولكن من خلال خدع الدبلوماسية السلبية على موائد المفاوضات وكان هدفه الاحتفاظ بالسلام بأى ثمن ونجح فى ذلك خلال جيل كامل .

لقد قامت سياسة عبد الحميد على رفض التدخل الأجنبى لمناصرة الأقليات المسيحية فى إمبراطوريته ، ولكن تجاه رعاياه المسلمين لم يرفض التحديث بل على العكس كان يبدو كوريث للتنظيمات وللسلاطين المصلحين للقرن التاسع عشر . لقد كان السلطان المصلح محمود الثانى يؤمن

بأن الغايات الديمقراطية لا يمكن تحقيقها إلا بالوسائل الاستبدادية ، وبالفعل أثبتت حركات الإصلاح المتعاقبة وتصارع أيديولوجياتها وتبادل الأدوار بين السلاطين الضعاف والأقوياء أن مثل هذا التفكير كان صحيحاً . وتوقفت هذه الصراعات في عهد عبد الحميد الذى آمن بأن الإصلاح يفرض من فوق ولا يأتى من أسفل حتى ولو كان محدوداً ، فأدخل الكثير من الإصلاحات التى حاول أسلافه القيام بها دون النظر إلى قوى المعارضة الإسلامية أو الليبرالية ، ولكن هذه الإصلاحات التعليمية بالذات لم تحقق السعادة للطبقات الدنيا فى المجتمع التركى فقد ظلت تعانى من الفقر والتخلف العام ، وإنما ظهر تأثيرها فى الطبقات العليا فقط . كما ساهمت هذه الإصلاحات فى خلق مؤسسة خدمات مدنية كانت تركيا تطمح إليها منذ فترة طويلة ، وساعدت على خلق جيل تركى جديد ليس فى المجال المدنى والعسكرى فقط ولكن فى كافة التخصصات مثل الأطباء والمعلمين والصحفيين والتجار والصناع ، وكان هذا هو التناقض الواضح للحكم المطلق للسلطان عبد الحميد . لقد فتح بأسلوبه السيئ الطريق لمستقبل أكثر تحرراً فى تركيا من خلال وسائل الاتصالات الحديثة ودرب الكوادر العثمانية عليها ولم يبق أمام الأجيال التالية سوى أن تقوم بمشاهد التحول والتغيير .

الفصل التاسع والثلاثون

لقد أصبح رجال جمعية الاتحاد والترقى هم الحكام الحقيقيين للدولة بمؤازرة شوكت باشا القائد العسكرى والذى ظل يحكم فى ظل القانون العسكرى لسنتين تاليتين ، وكان فى الحقيقة يحكم كديكتاتور عسكرى ، وأحكم قبضته على القوات المسلحة التى سيطرت على الوزارة ورئاسة الوزراء وعلى النواحى الإقتصادية والدوائر المالية أيضًا ، ولكنه لم يستغل سلطاته بشكل سيئ بل تصرف بصدق كرجل وطنى مؤمن بالدستور ، وتعاون مع العناصر المدنية فى الجمعية التى عكفت على وضع برنامج تشريعى جديد للبلاد . وكان أول الأعمال هو تشريع التغيرات السياسية الأخيرة بإضافة عدة بنود جديدة ومنقحة لدستور ١٨٧٦ ، وحتى يعمل الإتحاديون على تقوية سلطة مجلس المبعوثان (النواب) وضعوا نهاية حاسمة للقوة التقليدية للسلطان ، فصار ملتزمًا بأداء القسم أمام البرلمان لإحترام التشريع الإسلامى والدستور وللإخلاص للدولة والشعب ، ولم يعد يتمتع بسلطة تعيين أو عزل الوزراء ، ولم يعد لديه سلطة تعيين كبار رجال الدولة أيضًا إلا بعد تحقيقهم لشروط معينة .

ولكن احتفظ السلطان بحق تعيين الصدر الأعظم وشيخ الإسلام ، وصار من حق الصدر الأعظم تعيين من يريد لوزارته على أن يقدم قائمة الأسماء للسلطان للموافقة الشكلية . وبالمثل كان رئيس البرلمان ونوابه المنتخبين فيما يخص النواب . أما حقوق السلطان القديمة مثل حق عقد المعاهدات فقد تطلبت الآن موافقة البرلمان وبالنسبة لحق النفى الذى كان من حق السلطان للحفاظ على أمن الدولة ، والذى استخدمه عبد الحميد لنفى مدحت باشا وآخرين فقد تم تعديله ليصل إلى حد الإلغاء .

وهكذا تقلصت سلطات السلطان بمقتضى القرارات الجديدة للبرلمان ، فهو موجود فى الحكم ولكن لا يحكم ، كما أصبحت الحكومة ملزمة بالمسئولية الوزارية أمام البرلمان ، وفى حالة عدم الموافقة تجبر على الإستقالة ، والكلمة الأخيرة كانت تعتمد على النية الحسنة للوكلاء . وقد أدت هذه التغيرات الدستورية فى النهاية إلى تقوية التشريع على حساب التنفيذ . وقد أجاز البرلمان تشريعات أخرى لتقوية مركزه وكبح جماح المعارضة سواء على

المستوى الفردى أو الجماعي وحتى لا يصل الأمر إلى حد التمرد الداخلى ، وتمثل ذلك فى تقييد حرية الصحافة وتقييد حرية الإجتماعات للعناصر الوطنية وخاصة إجتماعات الأقليات مثل اليونانيين والبلغاريين وغيرهم من العناصر البلقانية . كذلك اتخذت إجراءات أخرى لتشكيل فرق للمطاردة من الجيش لمواجهة العصابات المسلحة مثل عصابات البلقان . وأخيراً ولأول مرة فى الدولة العثمانية اتخذت إجراءات باسم المساواة فى الجنس والعقيدة لتجنيد العناصر غير الإسلامية فى القوات المسلحة التركية .

ولكن مفهوم القومية كان قد وصل إلى مرحلة واضحة من النضج ولم يعد ممكنًا ، حسب نظرية أنور باشا ، قبول جميع القوميات فى الدستور العثمانى وإقامة إمبراطورية متعددة القوميات ، ولذلك دعا طلعت أكثر أعضاء الاتحاد واقعية ، إلى عقد إجتماع سرى فى سالونيكا لمناقشة هذا الأمر مع الأعضاء وقال : « لقد قمنا بمحاولات فاشلة لإحتواء الكفرة فى دولة عثمانية واحدة ، ولم يتحقق النجاح لأن دويلات البلقان الصغيرة المستقلة تنشر دعايات الانفصال بين سكان مقدونيا » . وكان هذا يعنى أن تتخذ دعوة «العثمنة» شكلاً جديداً ، وحسب ما كتب السير إدوارد جراى Sir Edward Grey السفير البريطانى إلى وزارة الخارجية فإن كلمة عثمانى تعنى تركى والسياسة الراهنة للعثمنة تعنى صهر جميع العناصر التركية فى البوتقة « التركية » وليس العثمانية ، وأن سياسة التتريك تقوم على فرض اللغة التركية على العرب والألبان وغيرهم من المسلمين غير الأتراك .

وقد نمت هذه القومية التركية الجديدة بعد فشل حركة الجامعة الإسلامية ، وهى تشبه القوميات الأوروبية من حيث إعتمادها على العنصرية والجذور الجنسية ، وقد عبرت عن نفسها فى الحركة الثقافية والسياسية المعروفة بإسم الجامعة التركية Pan- Turkism . ففى القرن التاسع عشر اعتمدت الأنظمة القائمة على تأييد الصفوة الحاكمة والتى تلقت التعليم الغربى وإحترمت الحضارة الأوروبية ، وكانت تحدوها الرغبة فى تقبل الجميع وإحترامهم ، ولكن تغير الوضع الآن لأن الاتحاديين يمثلون حركة وطنية تركية ، وليست عثمانية ، تقوم على قوة الجبهة الداخلية وتماسكها وعلى

الحكم من خلال البرلمان وليس الصفوة الحاكمة ، ومن خلال الهيئة المدنية الجديدة التى نتجت عن إصلاحات عبد الحميد ، وتعتمد على الموازنة بين العنصرين المدنى والعسكرى والسيطرة على المجالين السياسى والعسكرى .

لقد دعمت الطبقة الوسطى الجديدة التى اتسع نطاقها من خلال النظام الحميدى العناصر التركية التى بذر فيها الاتحاديون بذور التحول السياسى ، فتكونت حكومة علمانية تهتم برجل الشارع ونظمت الإجتماعات الجماهيرية والمظاهرات من أجل تأييد سياستها ، ولكن هذا الاتجاه لم يكن فى مجمله فى صالح الجماهير بشكل كامل لأن أعضاء الجمعية أقاموا لأنفسهم نظامًا يعتمد على القوة السياسية ولم يقضوا تماماً على المؤسسات القديمة ، ومن ثم فهم يختلفون عن الشبيبة العثمانية ومصلحى التنظيمات لأنهم يعتمدون على المركزية فى العمل وغالبيتهم ذوى إتجاهات عملية ومنهم قلة من أصحاب النظريات السياسية والمثقفين ، وكان هدفهم الأساسى هو العمل من أجل إنقاذ الجزء المتبقى من الإمبراطورية مهما كان الثمن .

أما السؤال الذى ظل دائماً بلا إجابة :

ما هى الفكرة وراء مبدأ الإنقاذ ؟ وما هى الهوية الحقيقية للحضارة التركية ، وهل الترك ينتمون إلى الإسلام أم إلى الغرب أم يجمعون بين الاثنين معاً ؟ إن مبدأ العثمنة أى اتحاد الشعوب جنسياً ولغوياً ودينياً وهو المبدأ الذى قامت عليه الدولة العثمانية وإستمرت لخمسة قرون أصبح الآن فى طريقه إلى الفناء وإقترب الأتراك من القومية الأوروبية . إن حركة الجامعة الإسلامية التى حاول السلطان عبد الحميد توحيد تركيا الآسيوية بها أثبتت أنها غير قادرة على الاستمرار ، فما هو الهدف التركى الآن ؟ إن الإجابة تعتمد على الاتجاه الجديد للوطن التركى الذى يختلف عن الدولة العثمانية وعن الدين الإسلامى ، فكما تجمعت شعوب البلقان فى أمم صغيرة فإن الشعوب التركية أيضًا ينبغى أن يكون لها هويتها القومية الخاصة التى تقوم على الثقافة والتاريخ المشترك . وقد ظهر هذا الاتجاه منذ أواخر القرن التاسع عشر وعبر عن نفسه فى الشعر التركى وقصائد محمد أمين التى كتبت بطريقة شعبية وبلهجة عامية ، وعبر فيها عن الشعور الجديد والتفاخر والإعتزاز باسم

الأتراك ، وقال فى إحداها : « أنا تركى أنتسب إلى الجنس التركى » وفى قصيدة أخرى قال : « نحن أتراك نحمل هذا الإسم والدماء التركية تجرى فى عروقنا » .

لقد اتحدت هذه النزعة الشعرية مع نزعة علم التركيات الجديد (أى تدريس الحضارة التركية) Science of Turcology لتوقظ الأتراك وتنبههم إلى دورهم فى تاريخ البشرية منذ أيام هجرة القبائل الوثنية التركية من سهول الاستبس الآسيوية . وتبلور هذا الاتجاه فيما عرف بالحركة الطورانية نسبة إلى الأصول التى إنحدر منها الأتراك فى آسيا الوسطى ، ووصلت هذه الحركة إلى أبعد مدى وهو الجامعة الطورانية Pan- Turanianism والتى نادت بتحقيق الوحدة بين جميع الشعوب المتحدثة بالتركية ليس فى وسط آسيا فقط ولكن فى منغوليا والصين وروسيا وأوروبا والمجر والدول الوليدة الجديدة . وهكذا نشأ مفهوم الجامعة التركية بين جنبات حركة تركيا الفتاة ونادى بتوحيد جميع العناصر التركية التى تعيش داخل حدود الدولة العثمانية من الناحية الثقافية والإجتماعية ثم امتدت إلى النواحى السياسية ، وعبرت عن نفسها فى الدوريات التى كانت تصدرها الجمعيات التركية ، وفى الأندية غير السياسية التى تأسست فى عام ١٩١٢ ، والتى حملت إسم المنتديات التركية Turkish Hearths بهدف تنمية التعليم القومى والإرتقاء بالمستوى العلمى والإقتصادى والإجتماعى للأتراك الذين يشكلون غالبية الشعوب الإسلامية ، أى التركيز على تحسين أوضاع اللغة التركية والجنس التركى .

ومع مرور الوقت بدأ الإنقسام يتطرق إلى صفوف أعضاء جمعية الاتحاد والترقى ، وظهر التهديد لوحدة الجمعية فى ١٩١١ عندما تكون « الحزب الجديد » وهو من الأحزاب المعارضة وضم عناصر من المحافظين الذين وجهوا انتقاداتهم للجمعية ومناهجها السياسية والإجتماعية وبرنامجها الدستورى ، وطالبوا بعدة مطالب ترتكز على الإهتمام بالتقاليد التاريخية العثمانية وبالحفاظ فى ذات الوقت على الأخلاق والقيم الدينية القومية فى إطار الدستور أمام الاستخدام المتزايد للمنتجات الحضارية الغربية . وكان هذا الاتجاه يسعى إلى تحقيق ثلاثة أهداف وهى : معارضة التعصب ومعارضة التقدم المادى السريع

ومعارضة التقدم الثقافى الذى يحارب العادات والتقاليد المتوارثة ، وقد ناقش أعضاؤه هذه المطالب فى مؤتمر الجمعية الأخير فى سالونيكا ولكنهم لم يتوصلوا إلى حلول مجدية .

وبعد فترة قصيرة دب النشاط فى حزب الاتحاد الحر تحت قيادة داماد فريد باشا والذى كان يضم غالبية العناصر المضادة لجمعية الاتحاد والترقى والتى طالبت بحل البرلمان فى ١٩١٢ وإجراء إنتخابات عامة ، وكان هذا الإجراء الأول من نوعه الذى يتم تحت ضغط حزبى ، وفضح الحزب الوسائل المؤسفة التى لجأ إليها الأعضاء مثل الرشاوى والهبات والتنازلات . وذاعت شهرة هذه الانتخابات السيئة وصارت نقطة سوداء ضد جمعية الاتحاد والترقى وزادت من حركة المعارضة ضدها . ومن أبرز حركات المعارضة تلك التى قادها مجموعة من شباب الضباط فى استانبول بهدف كسر شوكة الجمعية والذين طالبوا بانتخابات حرة شرعية من أجل حكومة دستورية وبإنسحاب الجيش من ميدان السياسة ، والتى أدت إلى إستقالة محمود شوكت باشا من وزارة الحربية ثم تحرك هؤلاء الشباب وقدموا عريضة مطالب تتضمن تعيين إثنين من الوزراء محددين بالإسم وكذلك صدر أعظم جديد على أن يختاره السلطان ، وقد اختار بالفعل أحمد مختار باشا وهو سياسى محنك وله سجل عسكرى حافل ، وقام بدوره بتعيين كامل باشا فى منصب وزير الحربية ، وأقسم الضباط على عدم الإنضمام لأى جمعية سياسية أو التدخل فى شئون الدولة ، وتم حل البرلمان ودعا السلطان إلى إنتخابات جديدة .

ووسط هذا النزاع الحزبى الداخلى وجدت الدولة نفسها تخوض غمار حرب جديدة مع دولة أجنبية وهى إيطاليا فى شمال أفريقيا . فبعد أن فقدت الدولة العثمانية تونس وصارت تحت الحماية الفرنسية إدعى الإيطاليون ضرورة الحصول على نصيبهم من الولايات العثمانية وطالبوا بتعويضهم عن فقدان تونس بإحتلال ليبيا التى ضمت آخر الولايات الرومانية القديمة وهى طرابلس وبرقة كما تمثل آخر الأراضى الأفريقية المتبقية من الدولة العثمانية . وكان الإيطاليون قد توغلوا فى طرابلس بدعوى وجود مصالح تجارية بها ، ثم اعتبروها أرض الميعاد التى ستقع فى أيديهم لعجز الأتراك عن الدفاع عنها .

وجاءت اللحظة الحاسمة فى ٢٨ سبتمبر ١٩١١ عندما أرسلت الحكومة الإيطالية مذكرة إلى تركيا بالموافقة على إحتلال الولاية التى تعانى من الإهمال والفوضى وعرضت حياة الرعايا الإيطاليين للخطر وأمهلتها ٢٤ ساعة للرد . وقد حاول الباب العالى فى البداية إبداء إستعداده لمناقشة الإدعاءات الإيطالية وعرض على إيطاليا إمتيازات إقتصادية فى ظل السيادة العثمانية .

ومع تزايد الدعايات القومية فى إيطاليا تدعمها المصالح المالية أعلنت الحكومة الإيطالية فى اليوم التالى الحرب على الدولة العثمانية . وكان الأتراك فى وضع لا يسمح لهم بالدفاع عن هذه الولاية التى كانت تحصيناتها فى حالة سيئة وكذلك دفاعاتها البحرية منذ حكم السلطان عبد الحميد الثانى ، بينما كانت إيطاليا ، سيدة الإدرياتى ، قادرة على إرسال جيش إلى طرابلس لا يقل عن ٥٠,٠٠٠ جندى . وعندما أعلنت مصر الحياد من خلال بريطانيا ومنعت عبور القوات التركية لأراضيها ، لم يكن أمام الباب العالى لمواجهة هذا الإحتلال سوى إرسال مجموعة من الضباط الأتراك إلى طرابلس ومن بينهم أنور باشا ومصطفى كمال عى رأس هيئة من ضباط الجيش فى استانبول . ولما ارتكز الإحتلال الإيطالى على الساحل الليبى بموانيه ، استطاع هؤلاء الضباط الأتراك تكوين تشكيلات عسكرية فى الصحراء الليبية وكانوا يتلقون العون من رجال القبائل العربية بها ، ودربوا أفرادها على حرب العصابات لمهاجمة خطوط العدو ومنعه من التقدم إلى الدواخل ، وكانت النتيجة تكوين خط دفاع ثانى خلال شهرين فقط .

فى ربيع ١٩١٢ وجه الإيطاليون ضرباتهم إلى بعض الموانئ التركية فى منطقة الليفانت مثل بيروت وسميرنا وإحتلوا رودس وخيوس وجزر أخرى ، وتجنبوا الجزر اليونانية التى كانت تحت حماية إمبراطورية النمسا والمجر ، كما وجهوا ضرباتهم إلى بعض الحصون التى تحرس الدردنيل مما أدى إلى قيام الأتراك بإغلاق المضايق خشية قيام روسيا بشن هجوم على البوسفور . وصار الإيطاليون الفريق المنتصر فى خريف ١٩١٢ ، ثم وقعوا فى ١٨ أكتوبر على معاهدة سلام مع الأتراك فى أوشى Ouchy بالقرب من لوزان تنازل الأتراك بمقتضاها عن طرابلس لإيطاليا وتعهدوا بالجلاء عن بقية ليبيا فى مقابل

جلاء الإيطاليين عن جزر الدوديكانيز (١) . وقد اضطر الأتراك إلى تحقيق هذا المطلب العاجل وهو ضمان السلام فى أفريقيا لأنهم دخلوا فى حرب جديدة مع اليونان والصرب وبلغاريا فى منطقة البلقان ، بعد أن كونت هذه الدول « حلف البلقان » بالتعاون مع الجبل الأسود وقرروا القيام بعمل عسكرى فى مقدونيا بعد أن ساءت أحوال السكان فى ظل حكم الإتحاديين . وكان هدف الحلف هو تحرير الشعوب المسيحية من الحكم التركى وتحقيق الطموحات القومية على حساب العثمانيين ، وقد تخير أعضاؤه اللحظة المناسبة لتحقق هذه الأهداف فى وقت إنشغال الأتراك خارجياً وداخلياً .

وقد ارتكز حلف البلقان على معاهدتين الأولى بين بلغاريا والصرب ، والثانية بين اليونان وبلغاريا ، وطلب أعضاؤه من الباب العالى تعيين حاكم عام مسيحى محايد للإقليم وإقامة مجالس تشريعية محلية وميليشيات محلية وإدخال العديد من الإصلاحات تحت إشرافهم وبرعاية الدول الأوروبية ، وقد وافق الباب العالى مبدئياً على هذه المطالب ولكنه رفض منحهم أية ضمانات حتى يحصل على موافقة البرلمان . وكان الرأى العام العثمانى الذى عبرت عنه الصحافة يميل إلى الحرب ويفضلها على مهانة التنازلات ، كما كانت نداءات الحرب قوية بين سكان البلقان بعد أن رفضوا جميع وعود الإصلاح وشككوا فيها . وبالفعل اشتعلت الحرب التى كانت كارثة على الدولة العثمانية ، إذ كان تفوق الجيش التركى على جيش البلقان من الناحية العددية فقط ، فبلغ ٧٠٠ ألف مقاتل ولكنهم غير مجهزين للقتال وعلى درجة من الضعف وقلة التحديث ، كما أن غياب عدد كبير من الضباط نتيجة إنشغالهم بالأمور السياسية ، وكذلك غياب أنور باشا وعدد من الضباط فى ليبيا أثر فى كفاءة الجيش برغم أنه تزود بالأسلحة الألمانية الحديثة . ومن ناحية أخرى كانت إدارة التموين فى الجيش فى حالة قصور واضح ، وكذلك

---

(١) تقع جزر الدوديكانيز فى جنوب بحر إيجة ، واحتلها الإيطاليون فى ١٩١٢ وأعلن ذلك رسمياً فى معاهدة لوزان ١٩٢٣ ، ثم ضمت اليونان هذه الجزر فى ١٩٤٨ .

أنظر : La Rousse , p . 1297

ملابس الجنود الصيفية الخفيفة لا تتناسب مع جو البلقان البارد والشتاء القارص ، وأخيراً كان وجود إنقسامات داخل صفوف الجيش وعدم الإيمان الكامل بهذه الحملة من العوامل التى أضعفت المعسكر التركى .

وعلى الجانب الآخر كانت جيوش البلقان مثار إعجاب أوروبا لتفوقها العسكرى الذى تحقق خلال السنوات الأخيرة بعد أن تدربت وفق النظام الغربى ، ولإيمانها بضرورة كسب القضية القومية ، ولإيمانها أيضًا بأن الأسطورة القديمة التى تقول بأن الأتراك قوة لا تقهر قد انتهت وأن المستقبل لهذه القوميات الجديدة . وخلال ستة أسابيع فقط هزمت الجيوش التركية على ثلاثة جبهات منفصلة - إذ تقدم اليونانيون من الجنوب بقيادة الأمير قنسطنطين الذى تلقى تعليمه فى ألمانيا ، وهزموا جيشًا عثمانياً قوياً وغنموا كل مدفعيته ، وعندما وصلت التعزيزات إلى الأتراك وحاولوا تقوية موقفهم انقض عليهم اليونانيون وشتتوا شملهم وحرروا سالونيكا ودخلوها فى يوم عيد القديس ديمتريوس دخول الظافرين واستقبلهم الأهالى بالورود فى الطرقات . وهكذا وبعد حوالى خمسة قرون من السيطرة التركية ارتفعت الأعلام الوطنية اليونانية الزرقاء والبيضاء على المنازل والشرفات واختفى إلى الأبد العلم التركى ذو الهلال والنجمة .

ومن الشمال جاء الصربيون عن طريق وادى ڤاردار yardar وأنزلوا هزيمة ساحقة بجيش تركى ضخم فى كومانوڤو kumanovo ، وتلاها هزيمة ثانية فى موناستير أسر فيها عشرة آلاف تركى وهربت الفلول الباقية عبر حدود ألبانيا . ومن الشرق هاجم البلغار تراقيا وهزموا الأتراك فى معركة دامت يومين فى منطقة قيرق - قيليسا kirk-kilissa ، ثم تتبعوا البقية الباقية من الجيش التركى فى لول برجاس lule burgas ودفعوها إلى منطقة تشاتالچا Chatalja الواقعة بين البحر الأسود وبحر مرمرة وهى آخر خط دفاعى قبل مدينة استانبول ، وعند هذه النقطة وصلت التعزيزات للأتراك من آسيا وبنادق كروب krupp (١) واستطاع الأتراك استعادة الثقة بقواتهم ودفعوا القوات المعادية بعيداً

---

(١) هى بنادق كروب الألمانية المتطورة . وكلمة كروب نسبة إلى أسرة ألمانية اشتهر أفرادها بتطوير الصناعات الحربية ومنهم ألفريد كروب (١٨١٢ - ١٨٨٧) والبارون ڤون هالباخ (١٨٧٠ - ١٩٥٠) .

أنظر : La Rousse , p . 1459

والتى كانت تعاني من نقص حاد فى الإمدادات . وفى ٣ ديسمبر ١٩١٢ وقعت هدنة بين الأتراك والصرب والبلغار بدون اليونانيين .

وقد أدى هذا الموقف إلى عقد مؤتمر فى لندن أكدت فيه الدول الكبرى نفوذها فى معارضة أى محاولة تقوم بها دول البلقان للتوقيع على اتفاق سلام دون موافقتهم . وفى ١ يناير ١٩١٣ جدد الباب العالى شروط السلام وتضمنت : إستعادة أدرنة العاصمة الإمبراطورية السابقة وأجزاء من سكوتارى فى ألبانيا ويانينا فى أبيروس ، مع الاستعداد للتنازل عن بعض المناطق فى غرب تراقيا ، وصمم المندوبون الأتراك على ضرورة بقاء أدرنة ضمن الممتلكات العثمانية المتبقية ، ولكن رفضت الدول الكبرى هذا الطلب ورفعت مذكرة إلى الباب العالى تطالب فيها بالتنازل عن أدرنة لبلغاريا . وحتى لا يظهر كامل باشا أى نوع من الاستسلام قام شباب الأتراك فى جمعية الاتحاد والترقى بإنقلاب عليه فى ٢٣ يناير ١٩١٣ ، وتزعمه أنور باشا بعد عودته من شمال أفريقيا وعاونه عدد من الضباط ودخلوا مبنى وزارة الحربية وقتلوا وزير الحربية ناظم باشا بعد أن حملوه مسئولية هزيمة تركيا ثم طلبوا من كامل باشا تقديم إستقالته تحت تهديد السلاح ، وطلبوا من السلطان إعادة محمود شوكت باشا لرئاسة الوزارة . وبعد قليل رفضوا مطالب الدول الكبرى وخرقوا الهدنة واشتعلت الحرب من جديد .

وبعد مقاومة عنيدة ومذابح فى أدرنة من جانب القوات الصربية والبلغارية سقطت المدينة وسقطت يانينا فى أيدى اليونانيين وأعقبتها سكوتارى التى أخذها الجبل الأسود . واجتمعت الدول الكبرى مرة ثانية فى لندن وتم التوقيع على معاهدة نهائية لم يتركوا فيها للدولة العثمانية فى أوروبا سوى استانبول وجزء صغير من أدرنة عبارة عن شريط يمتد من البحر الأسود إلى بحر مرمرة . أما مستقبل ألبانيا والجزر التركية فى بحر إيجة فقد تأجلت مناقشتها . وهكذا وبفضل التأييد الأوروبى للقوميات الجديدة إنتهى الوجود التركى فى أوروبا . ولكن لم تظل الدول البلقانية متحدة أو متحالفة إلى الأبد فسرعان ما دب النزاع بينها بعد هذه الانتصارات السريعة ، فقد أيقظ انتصار البلغار على الأتراك أحلام الماضى بإقامة دولة بلغاريا الكبرى برغم تحذير روسيا وتأكيدها بأن تجدد الحرب فى البلقان قد يؤدى إلى تدخل رومانيا وإثارة الأتراك من جديد ، ولكن الحكومة العسكرية البلغارية كانت قد وصلت إلى حد الغرور

وباتت مقتنعة بأنها قادرة على ردع جميع القوات المتحالفة ورفضت الاستماع لأى تحذيرات . لقد كانت بلغاريا تطمع فى سالونيكا وفى وادى ستروما ودخلت فى نزاع حولهما مع اليونان . أما الصرب فكانت مستاءة من ضآلة نصيبها فى مقدونيا وفى المنفذ الصغير الذى ترك لها على الأدرياتى والذى يقع داخل ألبانيا . وفى النهاية دخلت الصرب فى تحالف مع اليونان يقضى بتقديم المساعدة العسكرية المتبادلة بين الدولتين ضد أى هجوم من جانب بلغاريا ، مع التعهد بالدفاع عن الحدود فى حالة الحرب .

وفى ٣٠ يونيـة ١٩١٣ قامت القـوات البلغارية ، برغم التحذيرات الروسية ، بهجوم مزدوج على مقدونيا دون إنذار مسبق بالحرب حتى تفصم عرى التحالف اليونانى الصربى ، وافتتحت بذلك الحرب البلقانية الثانية التى استمرت شهراً واحداً فقط . وفى هذه الحرب القصيرة السريعة توالت الهزائم على بلغاريا بشكل غير متوقع وتغير ميزان القوى فى منطـقة البلقان تبعًا لذلك . وترجع الهزائم البلغارية إلى تصميم اليونان والصرب على تحقيق النصر بقيادة قنسطنطين الذى أطلق عليه لقب « ملك مذابح البلغار » لأنه أقام مذابح عديدة للبلغار وألحق بهم الهزائم بعد أن تقدم من منطقة سرز serres وأجبرهم على التراجع براً وبحراً قرب نهر ماريتزا الذى يمثل الحدود القديمة . وقد دخلت رومانيا طرفًا فى هذه الحرب ، كما توقعت روسيا ، لأنها كانت غير راضية عن الغطرسة البلغارية وتوسعها فى البلقان ، فأرسلت جيشًا إلى الدانوب واحتلت قلعة سلستريا ، ثم اتجهت ناحية بلفنا بلا مقاومة وصارت على بعد عدة أميال من مدينة صوفيا ذاتها . ومن الغرب تقدمت قوات الصرب وعبرت الحدود البلغارية وهددت قلعة وادين على الدانوب ، وخرق الأتراك المعاهدة وتقدمت قوة تركية بقيادة أنور باشا وعبرت خطوط شاتالجا Chatallja واستولت على أدرنة وأعادت سيادة تركيا على شرقى تراقيا .

ولما وجدت بلغاريا نفسها محاطة بالأعداء المنتصرين أجبرت بعد تدخل روسيا على طلب السلام ، وتم التوقيع على معاهدة بوخارست وفيها تم تجاهل جميع إدعاءاتها وتنازلت عن جميع الأراضى التى استولت عليها باستثناء وادى ستروميتا strumitsa وجزء من ساحل تراقيا . أما الصرب فقد

استولت على جزء كبير من مقدونيا ، ولكن اليونان احتفظت بالنصيب الأكبر في مقدونيا مع شريط ساحلى ضم كافالا kavalla الواقعة غربى تراقيا . وكوفئت رومانيا بمنحها إقليم دبروچة مع حدود إستراتيچية ممتدة من الدانوب إلى البحر الأسود ، ثم وقعت تركيا على معاهدة منفصلة استردت بمقتضاها أدرنة وقيرق قيليسا التى شهدت هزيمتها السابقة وجزء من شرقى تراقيا ضم ديموطيقا وبذلك تمكنت من مد طريق حديدى إلى صوفيا . أما بلغاريا فقد خسرت المركز القيادى الذى منحته لها معاهدة برلين منذ خمسة وثلاثين عاماً .

الفصل الأربعون

وصلت الدولة العثمانية إلى المرحلة الأخيرة من تاريخها والتى انتهت فى الحرب العالمية الأولى . ففى يونية ١٩١٣ أغتيل الصدر الأعظم الاتحادى محمد شوكت باشا انتقامًا لإغتيال ناظم باشا فى أول تمرد ثورى ضد الباب العالى ، ومنذ هذا التاريخ وشباب الأتراك فى جمعية الاتحاد والترقى يسيطرون على مقدرات الأمور فى البلاد ، ويتمتعون بسلطة مطلقة فاقت سلطة عبد الحميد نفسه ، وصارت العناصر المتطرفة منهم تحكم بغير معارضة متمثلة فى ثلاثة شخصيات على رأسها أنور الذى كان البطل الشعبى للثورة وهو فى سن العشرين والرمز الذى جسد حرية الشباب التركى ورجل المبادئ على الطريقة النابليونية ، وهو الآن يتولى منصب وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة التركية ، وتوج طموحاته بالزواج من أميرة عثمانية فحصل على لقب داماد ، وكان دائماً يحاول إخفاء أصوله الأسرية حيث يقال أنه كان يعمل حمالاً فى السكة الحديدية أو ربما موظفًا فى هيئة السكة الحديدية ثم تلقى تعليمه فى مدرسة العلوم العسكرية التى تخرج منها أبناء الطبقة المتوسطة العسكرية ، وكان مثار إعجاب أقرانه لهدوئه ورصانته وبعد نظره ، وكرس جهوده للإصلاح وتحديث الجيش التركى .

أما الشخصية الثانية التى كانت تكبر أنور بتسعة أعوام فهى شخصية جمال باشا سليل إحدى الأسر العسكرية والطالب العسكرى الرزين ذو اللحية السوداء والقامة القصيرة ، والذى تميز بنشاط ملحوظ أثار إعجاب المحيطين به كما تميز بالقرارات السديدة . ومنذ أن صار جمال باشا حاكماً عسكرياً على استانبول فى أعقاب التمرد الأخير ، أظهر مهارة واضحة فى تنظيم الشرطة وفى الدفاع عن مصالح حزبه ، ثم أصبح وزيراً للبحرية وقائداً عامًا للجيش العثمانى فى سوريا حيث حكمها كأمير أوتوقراطى . ولقد كان جمال مهذباً فى سلوكه معتزاً بسلطته هادئًا ذكيًا ولكنه قاسيًا فى ذات الوقت فى أداء مسئولياته والاهتمام بمصالحه الخاصة .

وكان طلعت باشا أقدر الثلاثة وهو من المدنيين ومن منطقة أدرنة وله أصول ريفية ، ويقال أنه كان يحمل دماء الغجر فى عروقه . وقد تلقى قدراً من التعليم أهله لأن يعمل فى إدارة البريد والتلغراف فى سالونيكا وقد ساعده

ذلك على القيام بمهام منصبه السياسى فى جمعية الاتحاد والترقى . وقد لعب طلعت دوراً مهماً فى إدارة الحزب وتنظيمه بعد الثورة ، وصعد نجمه سريعاً ليصبح وزيراً للداخلية فقبض على زمام الأمور بيد من حديد . ومن صفاته قوة الإرادة والشغف بالمعرفة وخفة الظل والهدوء والوقار والبساطة برغم مظهره الخارجى القاسى والمخيف ، كما كان وطنياً بشكل متطرف مهتماً بشئون دولته حتى لقب بـ « مؤسس الثورة التركية » .

وخارج نطاق جمعية الاتحاد كانت هناك شخصية مؤثرة وهى شخصية چاويد وهو من يهود الدونمة ، وتميز بعقلية يقظة فى العمليات الحسابية والنواحى المالية ، ولذلك كان وزيراً محنكاً للمالية . أما الصدر الأعظم فكان الأمير سعيد حليم وهو من سلالة الأسرة الخديوية المصرية وخلف محمود شوكت فى هذا المنصب ، وتميز بالعقلية المتحضرة والرقى والتحرر والإستقامة الدينية ، وكان على إستعداد تام لتبنى قضية الجمعية والإخلاص لأهدافها ، وأسند إليه القيام بدور المنسق بين الشعوب الإسلامية فى الإمبراطورية والسفراء الأجانب لدى الباب العالى .

وقد قام الاتحاديون بتغيير جذرى فى وظيفة شيخ الإسلام ، فحسب النظام التقليدى كان صاحب هذه الوظيفة الهامة يتم تعيينه بواسطة السلطان مباشرة ولا سلطة للبرلمان عليه وهو رئيس هيئة دينية تهيمن على الدولة إلى جانب هيمنته على التشريع الإسلامى ، وهو أيضاً الرئيس الأعلى لهيئة العلماء . ولما كان شيخ الإسلام محافظاً ومعارضاً للتيارات التحررية فقد صمم الاتحاديون على التغلب على هذه العقبة بتعيين شيخ إسلام جديد هو مصطفى خيرى بك الذى كان بعيداً عن الهيئة الدينية ولم يرتدى رمزها وهو العمامة وجاء ليلعب دوراً واضحاً فى مجال السياسة بعد أن صار عضواً فى البرلمان ورئيساً للمحاكم المدنية ووزيراً للعدل والمؤسسات الدينية .

وهكذا وظّف الإتحاديون المؤسسة الدينية التقليدية لخدمة خطط التحديث الإجتماعية والسياسية ، وقد لقى هذا الإجراء قبولاً من جانب العلماء والعناصر المحافظة . وهكذا تبوأ عنصر جديد له طبيعة علمانية منصباً دينياً . وإمتدت سيطرة الإتحاديين أيضاً إلى القصر السلطانى الذى كان يسير فى

الاتجاه المضاد لسياساتهم ، فرئيس الخصيان وهو رئيس الخدمة الداخلية فى القصر تعاون مع الثورة المضادة وكذلك أصهار السلطان والأمراء ، ولذلك تقرر فى يناير ١٩١٤ تجريد الأسرة السلطانية من أى نفوذ ، فلم يسمح لأعضائها بالإنضمام لعضوية أى حزب سياسى وتقلصت الحريات التى تمتعوا بها . وفى نفس الوقت تم تعيين أفراد من الإتحاديين فى دائرة السلطان وبذلك صار البلاط السلطانى تحت سيطرة الحكومة الإتحادية .

ومن الناحية الإدارية قام الإتحاديون بعدة مشروعات بناءة كانت البلاد فى حاجة إليها ، برغم قسوتهم وسياسة فرض القيود التى ساروا عليها ، فأسسوا نظاماً جديداً للإدارة المحلية والإقليمية ، وشمل التحديث مدينة استانبول ذاتها عن طريق إيجاد النظام البلدى وبرنامج طموح للخدمات العامة ، كما تم تزويدها بقوات للمطافئ وخدمة النقل العام ، وأعيد تنظيم الشرطة بها وبالولايات الأخرى ، وتم العمل بنظام القوات الخاصة الذى أوجده السلطان عبد الحميد فى مقدونيا وفى جهات أخرى من الدولة وإستعان الإتحاديون فى ذلك بخبرة المستشارين الأجانب . وقام الإتحاديون أيضاً بإصلاحات فى المجال القضائى وفتحوا أبواب التعليم أما الجميع ولأول مرة سمحوا للمرأة بتلقى التعليم فى المدارس وفى جامعة استانبول وساهموا بذلك فى حركة التحرير النسائى فى السنوات التالية ، وفى دخول المرأة إلى مجال التوظيف ووضعت تشريعات جديدة تضمن حقوقها .

وأخيراً ونتيجة الإهتمام العملى بالممارسة الدستورية أجريت انتخابات برلمانية فى جميع أنحاء البلاد فى شتاء ١٩١٣ . وعقد البرلمان العثمانى الثالث جلساته فى ربيع نفس السنة ، وبرغم أنه كان يمثل حزباً واحداً فإنه ضم مندوبين لفئات عديدة مثلت الرأى العام ، ومن بينهم عدد محدود من المندوبين الذين مثلوا الأقليات المسيحية بعد فقدان الولايات العثمانية الأوروبية ، أى أن الأغلبية كانت تمثل القطاع العريض من السكان الأتراك الواعين لسياسة الخلاص أو الإنقاذ التى سار عليها الحزب .

وكان الجيش العثمانى فى حاجة ماسة إلى الإصلاح ولعب أنور باشا دوراً هاماً فى هذا المجال ، فقد تربى فى أحضان البعثة العسكرية الألمانية منذ أن

كان ضابطًا صغيراً في الجيش ، وصار بعد الثورة الجندى التركى المخلص لبرلين ووقع تحت التأثير العسكرى الألمانى وحاول تطبيق ما تعلمه على الجيش الذى كان قد وصل إلى أدنى مستوى عقب الحروب البلقانية . وكانت العناصر المحافظة فى الجيش تعارض التحديث وقام النزاع بينها وبين شباب الضباط ، ولذلك قرر عزت باشا قبل أن يصبح وزيراً للحربية تصفية العناصر القديمة ولكنه تراجع لأن جميع هؤلاء الضباط كانوا أصدقاء له ، ولم يتمكن من القيام بهذا العمل إلا بعد أن تولى منصب وزير الحربية . وشمل مرسوم التصفية مئات الضباط ومن بينهم القادة المسئولين عن الهزائم المشينة فى مقدونيا ، وغيرهم من الذين بلغوا سن الخامسة والخمسين وما فوق ، وأبقى على بعض قدامى الضباط الذين يصلحون للخدمات العسكرية فى الجيش فى وقت السلم .

وكانت الخطوة الحاسمة هى وصول البعثة العسكرية الألمانية بناء على طلب الحكومة التركية وضمت حوالى ٤٠ ضابطًا وعلى رأسهم الجنرال ليمان ڤون ساندرز Liman Von Sanders لتحديث الجيش العثمانى . وقد خلقت هذه البعثة أزمة سياسية لأنها كانت مكلفة بتحصين استانبول وضواحيها ولم يكن لها أى دوافع سياسية ، ولكن روسيا اعتقدت أن الجنرال الألمانى سيتحكم فى المضايق وسيجعل من ألمانيا قوة ذات هيمنة سياسية فى استانبول ، فاعترضت بشدة على هذا العمل عن طريق وزير خارجيتها سازونوف Sazonov الذى كان يميل إلى معاداة الأتراك ويرى إمكانية خوض حرب ضد الألمان ، وطلب من الحكومة العثمانية نقل ڤون ساندرز وفرقته إلى مناطق أخرى وأيدته فى ذلك الحكومتان الإنجليزية والفرنسية ، ومن أجل إنقاذ الموقف تمت ترقية ڤون ساندرز إلى منصب قائد عام فى الجيش الألمانى ، وعليه صار تلقائيًا فيلد مارشال (قائد ميدان) فى الجيش التركى ومن حقه قيادة الجيش بجميع فرقه ثم رقى إلى رتبة المفتش العام للجيش التركى .

وبرغم ذلك ظل النزاع قائمًا بين الألمان والسلاڤ وكان من العوامل التى زادت من حدة المعارضة الروسية التى أثرت على الرأى العام الروسى ، وقد شبه سازونوف النفوذ الألمانى فى استانبول بالنفوذ البريطانى فى مصر ، ومن ثم

بذل محاولات دؤوبة للتوصل إلى اتفاقية مع الدولة العثمانية حول المضايق تلاءم مصالح روسيا وتركيا معاً . وكانت إنجلترا تراقب الموقف واتخذت سياسة حذرة تجاه الدولة العثمانية وروسيا ، فإذا كانت السياسة البريطانية طوال العقود السابقة قد دافعت عن زجل أوروبا المريض من خلال تشجيع الإصلاح الداخلى وتأييد الأقليات فى الولايات العثمانية الأوروبية فإنها أثناء الأزمة المقدونية فى ١٩٠٧ أحدثت ثورة دبلوماسية فى هذه السياسة باتفاق إنجليزى – روسى بين القيصر والملك إدوارد السابع فى ريڤال ، وبرغم أن هذا الاتفاق كان يخص المصالح الإنجليزية – الروسية فى فارس فإنه كان مكملاً للاتفاق الودى مع فرنسا (١٩٠٤) والذى أدى إلى تكوين وفاق ثلاثى بين إنجلترا وفرنسا وروسيا لحفظ التوازن الدولى فى أوروبا . وكانت هذه العلاقات الإنجليزية الجديدة مع روسيا ، من وجهة نظر إدوارد جراى وزير الخارجية البريطانى ، تمثل تغييراً فى سياسة إنجلترا التقليدية التى كانت تقوم على الحفاظ على السيادة العثمانية ، والتى كانت بمثابة حاجز أمان فى وجه التوسع الروسى تجاه استانبول والمضايق ، وقال أن إنجلترا لا يمكنها العودة إلى هذه السياسة القديمة التى سار عليها لورد بيكونز فيلد ، ولكن يمكننا – كما قال – أن نقف إلى جانب تركيا دون أن نثير أى شك فى أننا ضد روسيا .

وكان موقف جراى من الثورة الدستورية لتركيا الفتاة هو الترحيب برغم تحفظاته من إمكانية إمتدادها إلى الرعايا المسلمين الخاضعين لبريطانيا فى مصر والهند ، كما كان حريصاً على إبعاد إنجلترا عن أى تدخل فى تركيا من منطلق الدولة صاحبة الأفضلية حتى لا يتعارض موقفها مع مواقف حلفائها الباحثين عن مصالحهم فى تركيا (روسيا فى المضايق وفرنسا فى سوريا والليڤانت) . غير أن أصحاب النظام الجديد فى تركيا كانوا دائماً يطلبون مشورة إنجلترا لأنهم ساروا وفق النموذج النيابى البريطانى على اعتبار أن إنجلترا أم البرلمانات فى العالم The mother of parliaments . وفى نوفمبر ١٩٠٨ أرسلت جمعية تركيا الفتاة إلى لندن إثنين من مندوبيها رفيعى المستوى لإقتراح إقامة تحالف إنجليزى تركى ، وكانوا يأملون أن تنضم إليه فرنسا ، ولكن اعتذر جراى وصمم على أن إنجلترا ستظل بعيدة عن الدخول فى أى تحالفات وتمنى النجاح للحكومة الجديدة وقدم لها العديد من المستشارين

الإنجليز الذين تواجدوا بالفعل فى العديد من الوزارات التركية .

وحدث تقارب مشابه فى يولية ۱۹۰۹ بعد قيام الثورة المضادة ، حينما وصلت لجنة برلمانية تركية إلى إنجلترا تطلب التحالف بهدف تحقيق التوازن مع النفوذ الألمانى ، وكان الرد البريطانى متماثلاً . وفى أعقاب هزيمة تركيا فى حرب البلقان الأولى كان رجل أوروبا المريض قد مات بالفعل وانتهت محاولات إنقاذه ، ومن ثم أوضح جراى فى مؤتمر لندن للوفد التركى أن تركيا الفتاة إذا لم تحاول ضمان الوجود التركى فى أوروبا فإن أى دولة أخرى لن تتحرك للقيام بهذا العمل . فقد تركزت عيون دول غرب أوروبا فى هذه الفترة على أوروبا ذاتها وعلى الكتلة البلقانية الجديدة التى حلت محل تركيا فى أوروبا ووجدوا أنها فى حاجة للمساندة ، وقد أدرك الأتراك هذه الحقيقة ووجدوا أن من واجبهم أن يسعوا لإنقاذ أنفسهم بأنفسهم ، ولكنهم فى ذات الوقت ضعفاء ومعزولين وبجانبهم جار متحفز ، فرأوا أنهم إذا أرادوا البقاء فلابد من وجود قوة عظمى تؤيدهم وتوفر لهم الحماية ولتكن إنجلترا .

وفى يونية ۱۹۱۳ أعاد توفيق باشا الصدر الأعظم مناقشة إقامة تحالف إنجليزى – تركى مع جراى ولكنه رفض ، وعبر السير لويس مالت Sir louis Mallet السفير الإنجليزى الجديد فى تركيا عن موقف إنجلترا قائلاً : « إن التحالف مع تركيا فى الظروف الراهنة سيؤدى إلى اتحاد أوروبا ضدنا وسيكون نقطة ضعف ومصدر خطر لنا ولتركيا أيضاً ، وإذا حاولنا تنفيذ إقتراح توفيق باشا بالتفاهم مع دول الوفاق الثلاثى Triple Entente فإن النمسا وألمانيا وإيطاليا ستعتبر هذا تحدياً للتحالف الثلاثى Triple Alliance وذكر جراى أن إنجلترا لا يمكنها وحدها إقالة تركيا من عثرتها لأن هذا سيؤدى إلى إثارة النزاع فى أوروبا ، وأضاف أن تركيا الآن صارت رجل آسيا المريض The sick Man of Asia وعليها أن تواجه سعى الدول الأوروبية لتحقيق مصالحها فى هذه المنطقة .

» وإنطلاقًا من هذه السياسة تفاوضت بريطانيا وألمانيا والنمسا وفرنسا وإيطاليا مع تركيا – بدون روسيا – فى ۱۹۱۳ ومع بعضهم البعض من أجل خلق مناطق نفوذ إقتصادية فى آسيا التركية حتى إذا تطورت الظروف تستطيع

هذه الدول تقسيم آسيا سياسياً فيما بينها كما هو واقع فى أوروبا التركية . وكان أبرز ما تم التوصل إليه فى شهر أغسطس هو اتفاق بين إنجلترا وألمانيا بخصوص سكة حديد بغداد ، إذ احتفظت ألمانيا بحق إستغلال الخط وبمزاياه التجارية فى قطاعى الأناضول وسيليسيا على ألا تقوم بمد الخط أبعد من حدود البصرة . وهذا بطبيعة الحال يتمشى مع المصالح الإمبراطورية البريطانية فى منطقتى ميزوبوتاميا والخليج الفارسى ، ولم يتم إبرام أى اتفاق بخصوص المضايق التى تربط بين آسيا وأوروبا ، لأن روسيا إطمأنت بعد أن تحالفت مع إنجلترا على عدم حدوث تهديد من جانب إنجلترا للمضايق فى حالة نشوب حرب ، ورأت أن الخطر الأكبر يأتى من جانب ألمانيا وهو الخطر الذى لم تستعد له إنجلترا إعتماداً على الحياد التركى .

لقد مارست ألمانيا نفوذها بشكل واضح فى استانبول من خلال سفيرها البارون ڤون وانجنهايم Von Wangenheim الذى أحكم السيطرة على النواحى الدبلوماسية مثلما سيطر ڤون ساندرز على النواحى العسكرية بعد أن تولى المنصب الجديد كقائد ميدان ومفتش عام ، إذ صار يتمتع بسلطات واسعة أكثر من ذى قبل وادعى أنه المبعوث الشخصى للقيصر ، وبات واضحاً أن ألمانيا خططت للتحكم فى المضايق التى ظلت وستظل مفتاح المسألة الشرقية ، وتطلب هذا الموقف دبلوماسية ألمانية جريئة وحريصة للغاية جعلت إنجلترا تفرط فى ثقتها فى الحياد التركى . ولكن إذا كانت محصلة الجهد البريطانى سلبية فإن النشاط الروسى كان إيجابياً للغاية ، ففى ربيع ١٩١٤ ناقش السفير الروسى فى استانبول ، بتأييد من سازونوف ، مع الوزراء الأتراك عدة مقترحات لعقد اتفاقية بين روسيا وتركيا لحل مشكلة المضايق بما يتفق ومصلحة الطرفين ، ومن المقترحات التى طرحت أن تقدم روسيا لتركيا الحماية المطلوبة ، وفى حالة نشوب الحرب تقوم تركيا حليفة روسيا بإغلاق المضايق فى وجه أعدائها ، وفى حالة تحقيق النصر تحصل تركيا على تنازلات من ألمانيا فى آسيا وتضمن حدوداً آمنة .

ورحب طلعت بالمقترحات الروسية وتوجه إلى سان بطرسبرج فى مايو ١٩١٤ ليقترح شكلاً مبدئياً لتحالف تركى – روسى . وفى الشهر التالى

توجه جمال إلى باريس وإقترح إقامة تحالف مع دول الوفاق الثلاثي ، ولكنه قوبل برفض مقنع من قبل فرنسا التي إدعت أنها لا تستطيع القيام بهذا العمل الذي يعتمد على الاتفاق الجماعي مع أعضاء الحلف ورفض الفرنسيون جميع الضمانات التي عرضها الأتراك على حساب دول البلقان ، واتفق معهم الإنجليز في هذا الموقف ولم يركزوا إلا على نقطة واحدة وهي الحياد التركي الذي ينبثق من المصلحة التركية المحضة . وكانت هذه المرة السادسة والأخيرة التي تفشل فيها محاولة تركيا لإقامة تحالف مع الدول الغربية ، وعاد طلعت وجمال إلى استانبول صفر اليدين ومثقلين بالفشل ، والتفوا حول قائد الجناح العسكري في المثلث الحاكم وهو أنور باشا وزير الحربية لإنقاذ الموقف ، فلم يكن أمامه سوى الدخول في تحالف مع ألمانيا ، وكان هذا يعني النهاية السيئة للإمبراطوريتين الروسية والعثمانية في الحرب التي بدأت تلوح في الأفق .

وفي ٢٨ يونية ١٩١٤ أغتيل وريث عرش النمسا الأرشيدوق فرنسيس فرديناند وزوجته في أحد طرقات سراييفو في البوسنة على يد طالب من أعضاء أحد التنظيمات الإرهابية السرية في الصرب والتي كانت تعارض ضم النمسا للبوسنة والهرسك وتخطط لإقامة الدولة السلافية القومية وبعث حركة الجامعة الصربية . وفي البداية حاولت دول وسط أوروبا إحتواء النزاع ، ولكن ألمانيا حرضت النمسا على تقديم مذكرة إلى الصرب تطالب فيها بحل جميع الجمعيات السرية السلافية وتقترح وضع الأراضي الصربية تحت السيطرة النمساوية . وقد اعترض السير إدوارد جراي على أسلوب المذكرة واعتبرها تمثل تهديداً للسلام الأوروبي وقال أنه إذا نشبت حرب أوروبية ستكون أخطر من جميع الحروب التي شهدتها المنطقة من قبل ، ولكن رفضت النمسا أي محاولة لإرضائها من جانب بلجراد وأعلنت الحرب على الصرب في ٢٨ يولية .

وفي البداية لم تتوقع ألمانيا أن تنضم روسيا إلى الحرب لأنها كانت تعلم أنها غير مستعدة ، ولذلك حاول القيصر كبح جماح النمسا ولكن بعد فوات الآوان وحتى بعد أن أوضح أن إذلال الصرب من شأنه إستثارة روسيا . كذلك حاول جراي بذل وساطته دون جدوى ، ثم حاولت ألمانيا جعل النزاع

النمساوى – الصربى مسألة نمساوية بحتة حتى لا تندفع روسيا إلى الحرب ولكن باءت محاولاتها بالفشل ، وفى ٣١ يولية أعلنت روسيا التعبئة العسكرية العامة بعد توجيه تحذير لألمانيا ، وفى ١ أغسطس أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا وتبعتها فرنسا فى ٣ أغسطس بإعلان الحرب على ألمانيا بعد أن رفضت الوقوف على الحياد . ثم غزت الجيوش الألمانية بلچيكا وحاولت بريطانيا الدفاع عن الحياد البلچيكى ولكن ضاعت محاولتها هباء فأعلنت الحرب على ألمانيا فى ٤ أغسطس ، وهكذا بدأت أكبر كارثة شهدها الجنس البشرى كما قال جراى .

وكان أنور باشا قد وقع قبل يومين على تحالف سرى بين ألمانيا وتركيا ، ومن بين شروطه أن تدخل تركيا الحرب إلى جانب الدول الوسطى إذا تدخلت روسيا فى النزاع النمساوى – الصربى ، وفى ٤ أغسطس لم يكن جراى يعلم شيئًا عن هذا التحالف ، ولكنه كان يعلم أن تركيا قد أعلنت التعبئة العامة فأرسل تعليماته إلى القائم بأعماله فى استانبول ليضغط على الحكومة التركية لتظل على الحياد ، وطلب منه أن يظهر هذا الأمر من قبيل المشورة من دولة صديقة قديمة لتركيا ، وأن يتجنب إظهار طابع التهديد . ولكن كان جراى يعى تمامًا أبعاد النفوذ الألمانى فى استانبول ، ويدرك أن أنور باشا يرغب فى جعل تركيا تقف إلى جانب ألمانيا ، وأن محاولة إغتيال أنور باشا فقط من شأنها أن تجعل تركيا تبتعد عن ألمانيا ، والآن تكاتف العضوان الآخران فى جميعة الاتحاد مع أنور وطلب طلعت من جمال الكف عن مطالبة فرنسا بشئ لا أمل فيه ، ودعما التحالف مع ألمانيا لإنقاذ تركيا من عزلتها على أن يؤجل دخولها فى الحرب لأطول فترة ممكنة حتى تتمكن من إستكمال إستعدادتها العسكرية .

وظل التحالف التركى – الألمانى فى طى الكتمان والموقف التركى الرسمى المعلن من الحرب هو الحياد . وفى ذات الوقت انقلب الرأى العام التركى على الحكومة الإنجليزية لأنها استردت من تركيا سفينتين حربيتين إحداهما تحمل إسم « السلطان عثمان » والأخرى « الرشادية » ، واللتين تم بناؤهما لحساب تركيا فى ترسانة السفن الإنجليزية ، وصار من حق إنجلترا

حرية التصرف فيهما . وقد لجأت الحكومة الإنجليزية إلى هذا التصرف عند إندلاع الحرب لأنها خشيت من استخدام تركيا لهذه السفن بشكل يهدد التوازن البحرى فى البحر الأسود . ثم عرضت دفع تعويض قدره ٧,٥ مليون جنيه فقط لتركيا وهو مبلغ أقل من تكلفة هذه السفن التى دفعتها الحكومة التركية على أقساط تضمنت خصومات من مرتبات الموظفين الرسمين فى الدولة ، ولذلك اتهم الباب العالى بريطانيا بخرق القانون الدولى ، واتهمها الشعب التركى بالسرقة ، وصبت عليها إحدى الصحف الموالية للألمان آلاف اللعنات .

وقد ساهمت هذه الحادثة فى تسهيل مهمة الإتحاديين فى تحويل دفة الرأى العام التركى تجاه ألمانيا والإبتعاد عن بريطانيا ، وأيضاً فى زيادة حماس الشعب التركى للتعبئة العامة . ثم صارت المهمة أكثر يسراً عندما وصلت سفينتان حربيتان ألمانيتان تحملان إسم جوبن goeben وبرسلاو Breslau فى ١٠ أغسطس إلى البحر المتوسط وطلبتا السماح بدخول مضيق الدردنيل بعد أن تجنبتا ملاحقة قوة بحرية إنجليزية . وأمام ضغط البعثة العسكرية الألمانية سمح لهما بالدخول وفوق ذلك تمت الموافقة على أن تفتح القلاع نيرانها على السفن الإنجليزية إذا حاولت التعرض لهما . وقد اعترض سفراء الدول المتحالفة على هذا الإجراء واعتبروه خرقًا للمعاهدات الدولية ، ولكن أعلنت الحكومة التركية فى اليوم التالى أن ألمانيا باعت هذه السفن لتركيا ، وأعلم جمال الصحف التركية أن هذه السفن ستحل محل السفن التى سرقتها بريطانيا من تركيا ، ثم حل القائد الألمانى سوشون souchon محل القائد الإنجليزى ليمپس Limpus فى قيادة الأسطول التركى – وأعقب ذلك تغيير إسم السفينتين إلى أسماء تركية هى Yavuz و Medilli ، واستعرضهما السلطان فى إحتفال رسمى وأعلن إنضمامهما إلى الأسطول التركى فى بحر مرمرة .

وبعد فترة قصيرة انسحب ليمپس من تركيا وكذلك بقية الضباط الإنجليز من كافة السفن الحربية التركية ، وعين سوشون بصفة رسمية فى منصب القائد العام للأسطول التركى وغادرت البعثة البحرية الإنجليزية تركيا بصفة

نهـائية بعد بضعة أسابيع . وهكذا كسبت ألمانيا تعاطف الشعب التركى وتأييده . ولكن وصلت چاويد بك أنباء سيئة من صديق بلچيكى عن إستيلاء الألمان على بروكسل فعلق قائلاً وهو ينظر إلى السفن الألمانية « لقد سيطر الألمان على تركيا » . وعندما تأكدت إنجلترا بأن الأتراك لن يظلوا على الحياد طويلاً ، أراد ونستون تشـرشل (١) ، أول قائد بحـرى إنجليزى يحمل لقب لورد ، أن يشق الأسطول البريطانى طريقه إلى المضايق لإغراق السفينتين الألمانيتين فى بحر مرمرة ، ولكن رفض زملاؤه هذه الفكرة . وبعد التشاور مع لورد كتشنر (٢) وزير الحربية الجديد وضعت خطة للإستيلاء على شبه جزيرة غاليبولى بمساعدة اليونانيين ، كما حث جراى على طلب المساعدة من الروس ، ولكن أعلن الملك قنسطنطين (٣) الذى كانت زوجته شقيقة القيصر أن اليونانيين لن يقوموا بأى هجوم إلا إذا بدأ الأتراك بالهجوم ، ومن ناحية أخرى اقتنع مستشارو تشرشل بأن أى هجوم بحرى إذ لم تسانده قوة برية سيكون مصيره الفشل ، ولذلك فشلت هذه الخطة .

وفى هذا الموقف المتميع بين اللا سلم واللا حرب كان الأتراك فى وضع يسمح لهم بالدخول فى مفاوضات مع كلا الطرفين المتحاربين ، كما كان فى مقدورهم إحداث الفرقة بين أعضاء الوفاق الثلاثى وأعضاء التحالف الثلاثى ، ولذلك انضمت روسيا إلى إنجلترا وفرنسا فى ١٦ أغسطس للحصول على ضمانات لحياد تركيا والتمسك بسيادتها خشية إغلاق المضايق ، ولكن

---

(١) ونستون تشرشل (١٨٧٤ – ١٩٦٥) ، قائد البحرية البريطانية فى ١٩١١ ، ورئيس وزراء بريطانيا من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٥ ، ومن ١٩٥١ إلى ١٩٥٥ . وهو زعيم حزب المحافظين وحصل على جائزة نوبل للسلام فى ١٩٥٣ .

أنظر : La Rousse , p . 1251

(٢) هربرت كتشنر (١٨٥٠ – ١٩١٦) وزير الحربية البريطانية من١٩١٤ إلى ١٩١٦ وشغل منصب المقيم العام البريطانى فى مصر قبل الحرب العالمية الأولى .

أنظر : La Rousse , p . 1436

(٣) كان قنسطنطين الأول ملكاً على اليونان فى ١٩١٣ خلفاً لوالده چورج الأول .

أنظر : La Rousse , p . 1266

دون جدوى لأن الأتراك طلبوا فى مقابل الإلتزام بالحياد بعض الضمانات التى رفضها الحلفاء وهى : إلغاء الإمتيازات وإعادة إنجلترا للسفن المسلوبة وإستعادة الجزر الإيجية ومناطق غرب تراقيا .

ومما لا شك فيه أن الأغلبية فى الوزارة التركية وفى البرلمان التركى كانت تستخف وتسخر بالأقلية العسكرية لميولها الألمانية ، ولكن فى الشهرين التاليين صار الطريق ممهداً لقبول فكرة الدخول فى الحرب وأصبح هذا الاتجاه واضحاً أمام مستر جراى ، ولذلك جعل سياسته تقوم على تحقيق هدفين أولهما : السعى لتأخير دخول تركيا الحرب إلى أبعد فترة ممكنة أو على الأقل تظل على علاقات سلمية مع بريطانيا حتى يتم تأمين وصول القوات الإنجليزية من الهند إلى السويس ، وثانيهما : عدم إستثارة أى هجوم من جانب تركيا وعدم وقوع أى خطأ من جانب بريطانيا . وبالفعل تحققت أهداف جراى ووصلت القوات الهندية آمنة إلى مصر ومنطقة البحر المتوسط .

وفى ٢٧ سبتمبر طلب الأسطول البريطانى فى الدردنيل من سفينة حربية تركية العودة من حيث أتت ، فأعطى هذا التصرف المبرر للألمان لطلب إغلاق المضايق فى وجه السفن الأجنبية ، وأعقب ذلك إصدار أنور بك أمراً بزرع الألغام فى المضايق . وظهر بضعة آلاف من الألمان فى هذه الفترة فى العاصمة التركية ، ثم مارس السفراء الألمان والنمساويون ضغوطهم على الحكومة التركية لاتخاذ إجراء ضد دول الوفاق الثلاثى ، فوعدهم أنور وطلعت بالتدخل العسكرى فى مقابل الحصول على قرض من ألمانيا . ثم قامت السفينتان جوبن وبروسلا بقيادة الأدميرال سوشون بالدخول إلى البحر الأسود لاستفزاز الروس والاشتباك معهم بعد أن زوده أنور باشا بتعليمات سرية ، بعد التشاور مع زملائه ، بفرض السيادة التركية على البحر الأسود باستخدام القوة وبمطاردة الأسطول الروسى ومهاجمته بدون إعلان حرب . وبالفعل تم ضرب ميناء أوديسا بدون سابق إنذار وكذلك سباستيبول نوڤوروسيسك Novorossisk وأغرقت بعض السفن الروسية . واعتبر جراى هذا العمل إستفزازاً من دولة لأخرى ، وأخيراً فى ٥ نوفمبر أعلنت إنجلترا وفرنسا وروسيا الحرب على الدولة العثمانية .

وكانت النهاية المأساوية التى نتجت عن تغيير الموقف التركى والذى فشلت معه الدبلوماسية الإنجليزية هى المصير المحتوم لتركيا ، فبعد حروب البلقان الأخيرة كانت البلاد فى حاجة إلى فترة من السلام لإعادة بناء قواتها العسكرية ولذلك كان ينبغى على تركيا أن تنتظر لتراقب الموقف وألا تندفع إلى الدخول فى الحرب . وقد أدرك مصطفى كمال هذه الحقائق ، بعد أن صار ملحقًا عسكريًا فى بلغاريا ، وناقش الأمر مع أنور بك وعارض بشدة مسألة التحالف مع ألمانيا وأكد أنه فى حالة إنتصار ألمانيا ستصبح تركيا تابعًا لها وفى حالة الهزيمة ، وهو ما يتوقعه ، فإن تركيا ستخسر كل شئ ، ولكن الرأى العام التركى كان لا يعى هذه الأمور .

لقد كانت المهانة التى لحقت بتركيا من جراء الهزائم المتتالية التى منيت بها فى ميادين القتال ، وترديها فى الضعف أمام الأعداء الجدد والقدامى ، وخشيتها من العزلة من العوامل التى جعلتها تعتقد أن الحياد سيؤدى إلى تقسيم ممتلكاتها بين الدول الكبرى فإندفع الشعب التركى بكل قواه للتحالف مع القوة الجديدة وهى ألمانيا . وقد توالت الهزائم والصدمات وأثرت فى الحالة النفسية لأنور باشا ، وحتى جاويد بك وهو من العناصر المعتدلة ، فضل الإستقالة من حكومة تركيا الفتاة وعبر عن الموقف ببضع كلمات « ستكون نهايتنا الدمار حتى لو انتصرنا » .

وبعد ستة قرون من الحياة جاءت المرحلة الأخيرة تحمل إنهيار ونهاية الدولة العثمانية ، فكانت بداية الحرب سيئة بالنسبة للعثمانيين إذ فقد أنور باشا فى أوائل ١٩١٤ جزءًا كبيرًا من جيشه أمام الروس فى فصل الشتاء فى منطقة القوقاز ، ثم قام جمال باشا ، حاكم سوريا ، بهجوم على مصر بعد أن عبرت قواته صحراء سيناء وهزم أمام القوات الإنجليزية وأجبر على التراجع إلى منطقة بير سبع . وفى أوائل ١٩١٥ عانى الروس من نقض الإمدادات وقطعت خطوط إتصالاتهم فى البحر المتوسط بعد أن سيطر الأتراك على البوسفور ، وطلبوا المساعدة من إنجلترا فبعث ونستون تشرشل خطته القديمة من جديد لإرسال حملة ضد الدردنيل لمساعدة الروس ، واقترح الاتجاه من المضايق إلى

بحر مرمرة ومنه إلى استانبول باستخدام القوات البحرية والبرية معًا وقد وقع هذا الخبر على الأتراك كالصاعقة لأنهم كانوا يقدرون البحرية البريطانية ويحسبون حسابها ، ومن ثم توقعوا النهاية فى الهزيمة الثالثة بعد هزائمهم فى القوقاز والسويس .

ولكن تعرضت الحملة الإنجليزية لمشاكل برية وبحرية بسبب سوء التفاهم الذى حدث بين القادة العسكريين وعلى رأسهم اللورد كتشنر ، وصارت حملة برية فقط فى شبه جزيرة غاليبولى ، وفى نهاية ١٩١٥ فشلت فى أكثر من هجوم وانسحب الإنجليز وانتصر الأتراك إنتصاراً حاسماً غير متوقع ، وذلك بفضل قيادة مصطفى كمال الذى أثبت كفاءته كقائد عسكرى يرقى إلى مستوى القادة العثمانيين القدامى . وقد أدت هزيمة الإنجليز فى غاليبولى إلى منح الإتحاديين فرصة لإلتقاط الأنفاس والتحرك الداخلى ، فسعوا إلى محاولة إبادة الأرمنيين بشكل نهائى بسبب تعاونهم مع الروس فى القوقاز ، ودبروا مذابح لمليون أرمينى تشبه مذابح عبد الحميد ، وراح ضحيتها نصفهم بالفعل .

وفى ١٩١٦ عاود الروس الهجوم على جبهة القوقاز واستولوا على قلعة أرضروم وتقدموا إلى الأناضول وإلى ميناء طرابذون للسيطرة على طرق الإمدادات فى البحر الأسود ، ولكنهم توقفوا بسبب قيام الثورة الروسية (١) فى ١٩١٧ ، وبذلك أنقذ الأتراك من هزيمة محققة فى آسيا ولكن بعد أن فقدوا مئات الآلاف من قواتهم وشارفت ذخيرتهم على النفاذ – ومن ناحية أخرى سقطت بغداد فى أيدى الحلفاء وتقدمت القوات الإنجليزية إلى وادى دجلة داخل العراق . ثم برز من بين صفوف العرب عدو للأتراك أشعل الثورة فى

---

(١) قامت الثورة الروسية فى ١٩١٧ بزعامة حزب البولشفيك وقضت على نظام القيصرية الروسية وآخر حكامه القيصر نيقولا الثانى ، وأقامت النظام الإشتراكى بزعامة لينين .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، أوروبا (١٨١٥– ١٩١٨) ، الفصل التاسع .

الحجاز (١) طلبًا للإستقلال العربى عن الحكم التركى ، وانتشرت هذه الثورة فى جميع الأراضى العربية وكان لها تأثيرها فى فترة الحرب وما بعدها .

وكانت الساعات الإحدى عشرة الحاسمة فى خريف ١٩١٨ بعد أن استولت قوات الحلفاء على أورشليم ، واستعدت للمعركة الأخيرة بقيادة الجنرال اللنبى (٢) لطرد الأتراك من فلسطين وسوريا ، وكان مصطفى كمال هو البطل التركى الذى كان قد انسحب إلى جبال حلب ووجد نفسه قائداً على بقايا القوات التركية ومسئولاً عن الدفاع عن التراب التركى وحدود بلاده . وفى ٣٠ أكتوبر ١٩١٨ وقعت الهدنة بين تركيا وإنجلترا ، وأصبح على مصطفى كمال الدفاع عن أراضى الأناضول من أجل بقاء الجيش التركى والشعب التركى .

وأرسل أعضاء حكومة الإتحاديين الثلاثة إلى المنفى حيث لقوا المصير البشع ، وإحتل الحلفاء استانبول ووضعوا الخطط لمعاهدات السلام فى باريس للقضاء على الدولة العثمانية ولتقسيم الأناضول بين فرنسا وإيطاليا واليونان مع الإبقاء على دولة تركية فى المناطق الداخلية فقط . وهنا هب مصطفى كمال ليدافع عن حقوق بلاده مرة أخرى ، وتمكن بمساعدة اثنين من القادة الأتراك من القيام بحركة وطنية مضادة للحلفاء ومضادة لشروط السلام التى وضعوها ، واستطاع فى خلال ثلاثة سنوات أن ينتصر أولاً على الحرب الأهلية ضد قوات السلطان ، ثم انتصر فى حرب الإستقلال على اليونانيين ، وحرر الوطن التركى من الاحتلال الأجنبى وأتبع ذلك بتأسيس البرلمان التركى فى

---

(١) إشتعلت الثورة العربية فى الحجاز فى ١٩١٦ بزعامة الشريف حسين بن على بالاتفاق مع إنجلترا بهدف خلق جبهة معارضة للأتراك وهزيمتهم .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ المشرق العربى ، الفصل السابع .

(٢) إدموند اللنبى (١٨٦١ - ١٩٣٦) قائد القوات البريطانية فى فلسطين خلال الحرب العالمية الأولى ، والمندوب السامى البريطانى فى مصر من ١٩١٩ إلى ١٩٢٥ .

أنظر : La Rousse , p . 1110

أنقرة . وأخيراً عقد معاهدة سلام أخرى مع الحلفاء فى لوزان (١) حصل فيها على حدود تركيا الجديدة والتى ضمت الأناضول وجزءاً من تركيا الأوروبية بما فيها مدينة أدرنة .

وأعلن مصطفى كمال قيام الجمهورية التركية فى ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣ بعد أن ألغى السلطنة العثمانية وخلع السلطان الأخير محمد السادس (٢) وأرسله إلى المنفى ، وصارت تركيا دولة قومية بعد أن كانت إمبراطورية عالمية ، وبدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الأتراك والجنس التركى .

---

(١) وقعت معاهدة لوزان بين تركيا والحلفاء فى ١٩٢٣ وحلت محل معاهدة سيفر .

أنظر : La Rousse , p . 1413

(٢) حكم السلطان محمد وحيد الدين السادس من ١٩١٨ إلى ١٩٢٣ .

أنظر : عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ملحق ١ .

الخاتمة

كانت إمبراطورية الأتراك من بين الإمبراطوريات العظمى فى التاريخ ، وتمثل آخر الإمبراطوريات الأربع الكبرى التى قامت فى الشرق الأوسط بعد الفارسية والرومانية والعربية . واستطاع الأتراك تحقيق الوحدة السياسية فى مساحة شاسعة من الأراضى وحكموها من بؤرة مركزية تلتقى عندها البحور والقارات . وقد أسهم هؤلاء الأتراك القادمين من الشرق فى إيجاد حياة جديدة فى إتجاهين : **أولاً** فى آسيا من خلال سلاطينهم المتتابعين الذين استطاعوا بعث الوحدة الإسلامية فى الأراضى الآسيوية ، **وثانياً** فى أوروبا من خلال توسعهم فى الأراضى الأوروبية التابعة للعالم المسيحى الشرقى ، ومع إستمراريتهم قاموا بعملية مزج بين الشرق والغرب ، وملأوا الفراغ الذى نجم عن إنهيار الإمبراطورية العربية فى آسيا والإمبراطورية البيزنطية فى أوروبا وأنشأوا على أنقاضهما حضارة عثمانية جديدة وخلاقة .

وكانت هناك ثلاثة ملامح مميزة للإمبراطورية العثمانية أولها : أنها دولة تركية المنشأ تدين بالولاء لأسرة حاكمة تركية الأصل لغتها الأصلية هى اللغة التركيةوترجع جذورها إلى المجتمعات القبلية فى تركستان ، وظلت محتفظة برموز وتقاليد هذا المجتمع البدوى التى انعكست على نظام الحكم فيها فى شكل الانضباط والمهارة العسكرية والقدرة على تنظيم شئون الدولة . وثانيها : أنها إمبراطورية تركية إسلامية تقوم على المساواة والإخاء بين المسلمين وعلى الحكم فى إطار الشريعة الإسلامية وإحترام مبادئ الدين الإسلامى وذلك من خلال السلطة الرسمية للعلماء (رجال الدين) التى حددت مسئولياتهم وواجباتهم فى حزم ووضوح . وثالثها : أنها إمبراطورية عالمية لأن حكمها إمتد على مساحة واسعة شملت مدناً متباينة وسهول ووديان وجبال وصحارى ، وضمت أجناساً متباينة دينياً وإجتماعياً لا حصر لها ، ونجحت فى إحكام السيطرة على هذه الإمبراطورية لفترة طويلة بخلاف الإمبراطورية البيزنطية التى مزقها الصراع الدينى بين الكاثوليك والأرثوذكس أو بين اللاتين والإغريق وبين البابا والإمبراطور . فبعد سقوط القسطنطينية استطاع الغازى العثمانى

رغم ديانته وثقافته الغربية عن البيزنطين إعادة تنظيم شئون الأمة الأرثوذكسية وصار الحاكم والحامى اليقظ وبفضل حكمته فضلت أخلص العناصر للنظام السابق حكم البادشاة المسلم على رق البابا اللاتينى ، وهؤلاء كونوا أقليات دينية وعرقية فيما بعد ، تمتعت بكامل حريتها فى إدارة شئونها الخاصة فى ظل إشراف الدولة ، وتمتعت أيضًا بالتعايش السلمى مع الجنسيات الأخرى دون المساس بهوياتها .

وهكذا وبفضل النظام المستنير للغازى العثمانى تم إسترجاع وحدة المجتمع المسيحى الأرثوذكسى التى طال إنتظارها ، وصار البطريريك المسيحى اليونانى يتمتع بسلطة شبه عالمية فى السيطرة على الكنائس الأرثوذكسية ، وهى مكانة لم تتوفر له فى ظل الإمبراطورية البيزنطية ، وتواجد بذلك السلم العثمانى الذى تشابهت مبادؤه مع السلم الرومانى فى عهد الإمبراطورية الرومانية والذى كان يمنح الأجانب القاطنين داخل حدود الإمبراطورية حق المواطنة الرومانية لتشجيعهم على توجيه طاقاتهم لخدمة الإمبراطورية . وفى الدولة العثمانية تواجد أيضًا النظام الأسرى المتوارث عن عهود الإسلام والذى ضم العديد من الجنسيات والديانات فى هيكل سياسى واحد سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهود ، بل وصارت الإمبراطورية العثمانية هى الوحيدة فى عصرها التى ألفت بين أصحاب الديانات الثلاث المتعايشين داخل حدودها .

ولكى يستفيد الأتراك من خدمات السكان المسيحيين ابتكروا نظامًا فريدًا فى الإدارة المدنية يقوم على وجود مؤسسة حاكمة من العبيد المسيحيين وهم بذلك يعسكون مبادئ العبودية التى اعتاد عليها الأتراك الأوائل فى مجتمعهم البدائي . وكان يتم الحصول على هؤلاء العبيد من أسرى الحرب أو من الشراء من الأسواق أو من الهدايا التى ترد إلى السلطان أو من العناصر التى تتقدم طوعًا للعمل فى خدمة السلطان . وكان على هؤلاء العبيد إعتناق الإسلام وعدم الزواج والإنفصال التام عن أسرهم ونبذ أى نوع من أنواع الملكية ، وفى مقابل ذلك كانوا يحصلون على قسط من التعليم والتدريب فى مدارس القصر السلطانى الخاصة بالعبيد .

وكان يتم إختيار مجموعة من هؤلاء العبيد للعمل فى الجهاز الإدارى للدولة بشكل يتناسب مع قدراتهم ومنحوا فرصة الترقى إلى أعلى المناصب فى الدولة . وهذا يعنى أن يقدم المقهور (العبد) خدماته للقاهر (السيد) . وبرغم أن الغرب نظر إلى نظام العبودية على أنه شئ مخالف للطبيعة إلا أنه أثبت أنه يمثل طريقة عملية ومستنيرة لإستغلال مهارات رعايا السلطان من الشباب المسيحى من أجل تحقيق مصلحة الإمبراطورية بل ومصلحة العبيد أنفسهم لأنهم تمتعوا بإمتيازات حرم منها المسلمون أحرار المولد لكونهم أعضاء فى أسرة السلطان وأعضاء فى الجهاز الحاكم الذى اعتمد على الكفاءة والأهلية فقط . وترتب على ذلك أن تكونت نخبة ساعدت على تأمين السلطة وإستقرار الأسرة الحاكمة وتخليص الدولة من العناصر المتنافسة حتى لو كانت من المسلمين أحرار المولد وترتب على ذلك أيضاً أن السلاطين توقفوا عن عقد الزيجات الشرعية وفق النظام المتبع واتجهوا إلى النساء العبيد وأنجبوا منهم فدخلت الدماء المختلطة إلى شرايين الأسرة الحاكمة العثمانية .

وكان نظام العبودية قائماً أيضاً فى الجيش العثمانى عن طريق تجنيد شباب الأسرى المسيحين فى فرق الإنكشارية التى كان يتم إختيار أفرادها بعناية وفق الصفات البدنية المتميزة ، ثم يتم تدريبهم ليصبحوا قوة حرس خاصة للسلطان فى البداية ثم جنداً مشاة مع تزايد أعدادهم وصاروا يشكلون القاعدة الأساسية للجيش العثمانى وعماد القتال فى الحروب . واستكمل هذا النظام بإضافة فرق الفرسان (السباهية) التى اعتمدت على نظام الإقطاع العسكرى واستخدمت كفرق إستطلاعية عند تقدم الجيش العثمانى فى المعارك العسكرية . ثم أضيفت فرق المدفعية التى لم يتواجد مثيل لها فى الشرق آنذاك وكذلك فرق أخرى غير نظامية . وقد شكلت جميع هذه الفرق الجيش العثمانى الحديث الضخم الذى تميز بالتدريب الجيد والتسليح الجيد والانضباط والثبات فى المعارك العسكرية وتفوق على أى جيش أوروبى معاصر .

وبفضل القيادة الشخصية للسلطان القادر القوى الذى كان يخرج على رأس الجيوش فى المعارك العسكرية تحققت الفتوحات الكبرى على مدى

قرنين ونصف من الزمان وتكونت إمبراطورية واسعة فى ثلاث قارات إمتدت فى آسيا حتى الخليج الفارسى شرقًا وفى أفريقيا غربًا عن طريق مصر وجنوبًا فى البحر الأحمر ووصلت إلى البلقان ونهر الدانوب ولم يعوقها سوى حدود أوروبا الوسطى . وفى البحر سيطرت على البحر المتوسط بأكمله وعلى الشريط الساحلى للشمال الأفريقى وربطت بين المحيطين الأطلنطى والهندى . وللمرة الأولى فى التاريخ استطاع الشرق أن يتوغل بعمق فى الغرب ويؤثر فيه كقوة موحدة ، فقد نجح الأتراك فى اقتحام المناطق التى فشل فيها من قبل العرب والفرس بفضل مهارتهم فى استخدام الأسلحة ومقدرتهم التنظيمية فى المجالين العسكرى والدبلوماسى ، بل وصاروا قوة مؤثرة فى ميزان القوى فى أوروبا فى عصر النهضة ، ثم وصلت هذه الإمبراطورية إلى أوج عظمتها فى عهد سليمان العظيم المشرع آخر وأعظم عشرة سلاطين حكموها .

ولكن سرعان ما حدث تحول كبير فى تاريخ الإمبراطورية بعد سليمان فتعاقب عليها خمسة وعشرون سلطانًا أقل منه كفاءة وعاشت البلاد فى عهودهم فى ظل مقدرات مختلفة ، وبرغم وضوح سكرات الإنهيار المتتالية فقد كانت هناك فترات قصيرة لمحاولة النهوض والتماسك . ففى الماضى كانت الإمبراطورية تعتمد بشكل أساسى على الحكم المطلق للسلاطين الأكفاء ، ثم تطور الأمر إلى وجود سلاطين غير أكفاء وهؤلاء انغمسوا فى شهوات الحريم السلطانى الذين صاروا زوجات لهم فيما بعد وأصبحوا القوة الحقيقية التى تتحكم فى هؤلاء السلاطين . ومن ناحية أخرى كان ولى العهد يرسل فى الماضى إلى بعض الولايات كحاكم ليكتسب الخبرة والدراية بشئون الحكم ، ثم تطور الأمر إلى إرساله إلى القفص بين جنبات القصر المخصص له ليعيش بعيداً عن العالم الخارجى فى عزلة تامة ، ويخرج بعدها ليتولى الحكم وهو فى حالة سيئة لا تؤهله لإدارة شئون البلاد .

تزامن هذا التغير مع تحول تاريخى فى القوة العسكرية أيضاً ، فبعد ثلاثة قرون تقريبًا تراجع المد العسكرى التركى جهة الغرب لتزايد قوة الغرب العسكرية والإقتصادية والصناعية بينما فقد الشرق القدرة على تحقيق الزعامة العالمية وتحول من موقف المهاجم إلى موقف المدافع . ويضاف إلى ذلك أن

الإمبراطورية التركية التى استنزفت خزائنها التكاليف الباهظة للأسلحة البرية والبحرية سرعان ما تردت فى أزمة إقتصادية طاحنة فى أعقاب وفاة سليمان مباشرة . وساهم فى حدوث هذه الأزمة أيضاً تدفق سبائك الذهب والفضة الأسبانية من أمريكا مما كان له أثره على تدهور قيمة العملة الفضية العثمانية وزيادة الأسعار وارتفاع معدل التضخم الإقتصادى .

ومن ناحية أخرى تضاعف عدد سكان الإمبراطورية عن طريق الفتوحات ، ولما توقفت هذه الفتوحات حدث عجز فى مساحات الأراضى اللازمة للإستيطان ، وحرمت طبقة الفلاحين من الأراضى الزراعية ، وإنتشر السخط بين صفوف الجيش وخاصة بين القوات غير النظامية والتى تحولت إلى عصابات قطاع الطرق . كذلك أصبحت السباهية من الفرق العتيقة لعدم مواكبتها التطور الفنى فى أساليب القتال الحديثة التى تعتمد على الجند المشاة ، ومن ثم تحالف أفرادها مع العناصر المتمردة التى شنت سلسلة من الهجمات فى الأناضول بقيادة شيوخ القبائل على أراضى الفلاحين وأتلفوا مساحات كبيرة منها .

ومن الأخطاء التى عجز السلاطين عن إصلاحها إنتقال السلطة فى الولايات إلى طبقة ملاك الأراضى بالوراثة والتى أدت إلى ظهور قوى محلية جديدة مثل أمراء الوديان وشيوخ القبائل فى المناطق الجبلية . كما كان فساد فرق الانكشارية من الأمور التى خلقت مشكلة كبيرة أمام العديد من السلاطين ؛ فمنذ أن سمح للمسلمين أحرار المولد بالانضمام إلى هذه الفرق وأبيح لهم الزواج وقيد أبنائهم فيها ، تزايدت أعدادهم بشكل واضح وخاصة فى الربع الأخير من القرن السادس عشر ، فبعد أن كان عددهم لا يزيد على ١٢ ألف أصبحوا أكثر من ١٠٠ ألف جندى . كما كان السماح لهم بالإشتغال بالتجارة من الأمور التى جعلتهم يتكسبون من أرباح بيع السلع ويستعيضون عنها بمرتباتهم وصاروا مثل طبقة الصناع المهرة فى البلاد . وقد أدى هذا التغيير إلى تدمير روح هذه الفرق فى فترات السلم وفى الحرب ، ففى السلم شكلوا تهديداً مستمراً للحكومة المركزية وللسكان المسيحيين من الفلاحين والذين كلفوا بحمايتهم وأصبحو ينهبونهم حسبما يريدون ، وهددوا

أمن البلاد الداخلى عن طريق إشعال الثورات للمطالبة بالمزيد من الإمتيازات . وفى الحرب فقدوا إنضباطهم القديم وترابطهم الذى اشتهروا به .

وخلال النصف الثانى من القرن السابع عشر تمتعت الإمبراطورية بفترة من الهدوء وأعيد بناؤها الداخلى على يد أسرة كوبريلى ذات الأصل الألبانى والتى أنجبت سلسلة من الصدور العظام اعتمد عليهم ثلاثة سلاطين متتابعين . فقد استطاع آل كوبريلى القضاء على مظاهر الفساد والظلم وإستعادة الموارد المالية للخزينة السلطانية وقمع الثورات فى الأناضول وغيرها ، وبذلو جهوداً فى محاولة النهوض بالقوات المسلحة . ولكن ظاهرة حكم آل كوبريلى لم تتكرر مرة أخرى فى التاريخ العثمانى .

وفى المجال الخارجى إنهارت مكانة الإمبراطورية فى أعين الدول الأوروبية منذ نهاية القرن السابع عشر بفضل الفشل الذريع الذى منيت به الجيوش العثمانية فى الحصار الثانى لفينا وما تبعها من حملات . فقد جاء هذا الحصار نتيجة طموحات صدر أعظم مغرور وضعيف هو زوج إبنة السلطان الذى كان بدوره من السلاطين الضعاف ، فقد وقع فى سلسلة من الأخطاء العسكرية سجلت فى ذاكرة الدول العثمانية أسفرت عن إنسحاب الإنكشارية وإنهيار قواه أمام العدو الأكثر تنظيماً وتحول الجيش إلى شرذمة من الهاربين أعادوا إلى الذاكرة قوات الحملات الصليبية الغربية فى الماضى . وابتهجت أوروبا لهذا التغيير فى مجريات الأمور واعتبرت أن ناقوس الموت دق على أبواب المسلمين الأتراك الذين طالما هددوا الشعوب المسيحية . وأعقب هذا السقوط سلسلة من الخسائر والهزائم التى تلاها معاهدات مجحفة ومهينة وإستمر هذا التتابع حتى دخول القرن العشرين .

ومع بداية القرن الثامن عشر وصعوداً ظهرت فى الأفق قوة إمبريالية هددت الشرق والغرب وهى روسيا بقيادة بطرس الأكبر الذى استطاع تكوين جيشاً ضخماً معتمداً على موارده الذاتية وجهزه بأسلحة غربية أملاً فى إحتلال العالم كله ، ولكن جاءت النتيجة عكسية إذ أدى هذا التهديد إلى إطالة عمر الإمبراطورية العثمانية . ففى فترات القوة كانت الإمبراطورية العثمانية تساهم فى الحفاظ على ميزان القوى فى أوروبا ، ولما ضعفت صارت أيضاً مصدراً

رئيسياً للاحتفاظ بتوازن القوى بين الدول الأوروبية وروسيا فكانت الحاجز فى وجه إمبراطورية القيصر وطموحاته ، وصاحب ذلك تغير عميق فى السياسة الخارجية العثمانية فأصبحت تعتمد على أسلوب التفاوض فى الإجتماعات بدلاً من أسلوب القوة وإستخدام السلاح فاقتربت أكثر من الغرب وصارت الدبلوماسية عنصراً أساسيًا فى علاقاتها الأوروبية ، ونظمت إدارة للشئون الخارجية ضمت عدداً من المسئولين المهرة فى المجال الدبلوماسى غالبيتهم من المسيحيين اليونانيين من الفناريين الذين امتلكوا خبرة واسعة عن الغرب من خلال اشتغالهم بالملاحة والتجارة ، وهؤلاء شغلوا مناصب عليا فى الدولة ولعبوا دوراً مهماً فى المجال السياسى . وكان أول هذه العناصر المترجم الفورى للباب العالى الذى صار وزيراً للخارجية ، ثم تم تعيين بقية المسيحيين اليونانيين كسفراء أو حكام للولايات المستقلة .

وبنهاية القرن الثامن عشر قاست الإمبراطورية هزيمة برية مهينة أمام الروس الذين استطاعوا أثناء الحرب العبور بأسطولهم إلى الساحل الشرقى للبحر المتوسط ونزلوا إلى اليونان وبيروت . ثم أعقب ذلك إحتلال نابليون لمصر والتحالف بين تركيا وبريطانيا وروسيا لإجلاء الفرنسيين عن مصر . ومنذ هذه الفترة أصبح التأثير الأوروبى على الباب العالى نشطًا ومهمًا ونتج عنه قيام أوروبا بدور مهم فى إيقاف إنهيار الإمبراطورية ، ودفع الحكومة العثمانية نحو الإصلاح وتحسين أحوال الرعايا المسيحيين .

وهكذا أصبح القرن التاسع عشر عصر الإصلاح ، وأول سلطان مصلح تأثر بالثورة الفرنسية هو سليم الثالث الذى خاض تجربة الإصلاح بإنشاء جيش نموذجى جديد مجهز على النسق الغربى ومدرب من قبل ضباط غربيين ، ولكن تم عزل هذا السلطان بسبب حرص الإنكشاية على إمتيازاتها ثم فقد حياته فى نهاية الأمر . وبُعد ذلك بعشرين سنة تم القضاء على هيئة الإنكشارية عن طريق المخطط القاسى الذى وضعه خليفة سليم وهو محمود الثانى الذى برز كمصلح عظيم فى التاريخ العثمانى الحديث . وكانت أهداف محمود تكوين جيش حديث وإستعادة مكانة الحكومة المركزية وسلطتها على الولايات وإقامة مؤسسات إدارية جديدة وإيجاد قانون علمانى

وضمان حقوق متساوية لجميع الرعايا فى الدولة وتمتعهم بأساليب الحضارة الغربية الحديثة التى كانت تمثل نموذج الإصلاح الداخلى فى الدولة خلال القرن التاسع عشر .

لقد كان هدف محمود نقل الدولة العثمانية فى أقل من نصف قرن من دولة سارت على طابع العصور الوسطى لخمسة قرون من الزمان إلى دولة حديثة متحررة تسير على مبادئ النظام الغربى عن طريق تعديل نظم القضاء وإيجاد حكم نيابى وإقامة إدارة بيروقراطية مسئولة . وكانت حركة التنظيمات التى أعقبت عصر محمود تعتمد فى نموها على نوايا السلاطين فتلقى دفعة إلى الأمام مع النوايا الحسنة لأحد السلاطين وتتراجع إلى الخلف مع النوايا السيئة لسلطان آخر ،. وكان إستمرار هذه الحركة يعتمد على ضرورة إقامة التوازن بين المؤسسات العلمانية الحديثة والمؤسسات الدينية ، ولكنها لم تستطع سوى إنجاز بعض التغيرات السطحية فى النواحى القضائية والإدارية وبعض الإصلاحات الطفيفة فى أوضاع الأقليات غير الإسلامية . وقد وصلت الدولة إلى درجة من الحكم البرلمانى منذ عام ١٨٧٠ ولكن لفترة قصيرة ثم عاد الحكم المطلق فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى . وقد سمح هذا السلطان الأوتوقراطى بإدخال تحسينات على نظام التعليم وفتح الباب للمفاهيم الجديدة من أجل تدعيم نظامه الإستبدادى ولكنها أدت إلى خلق جيل جديد من أعضاء جمعية تركيا الفتاة التى انقلبت عليه فى نهاية المطاف .

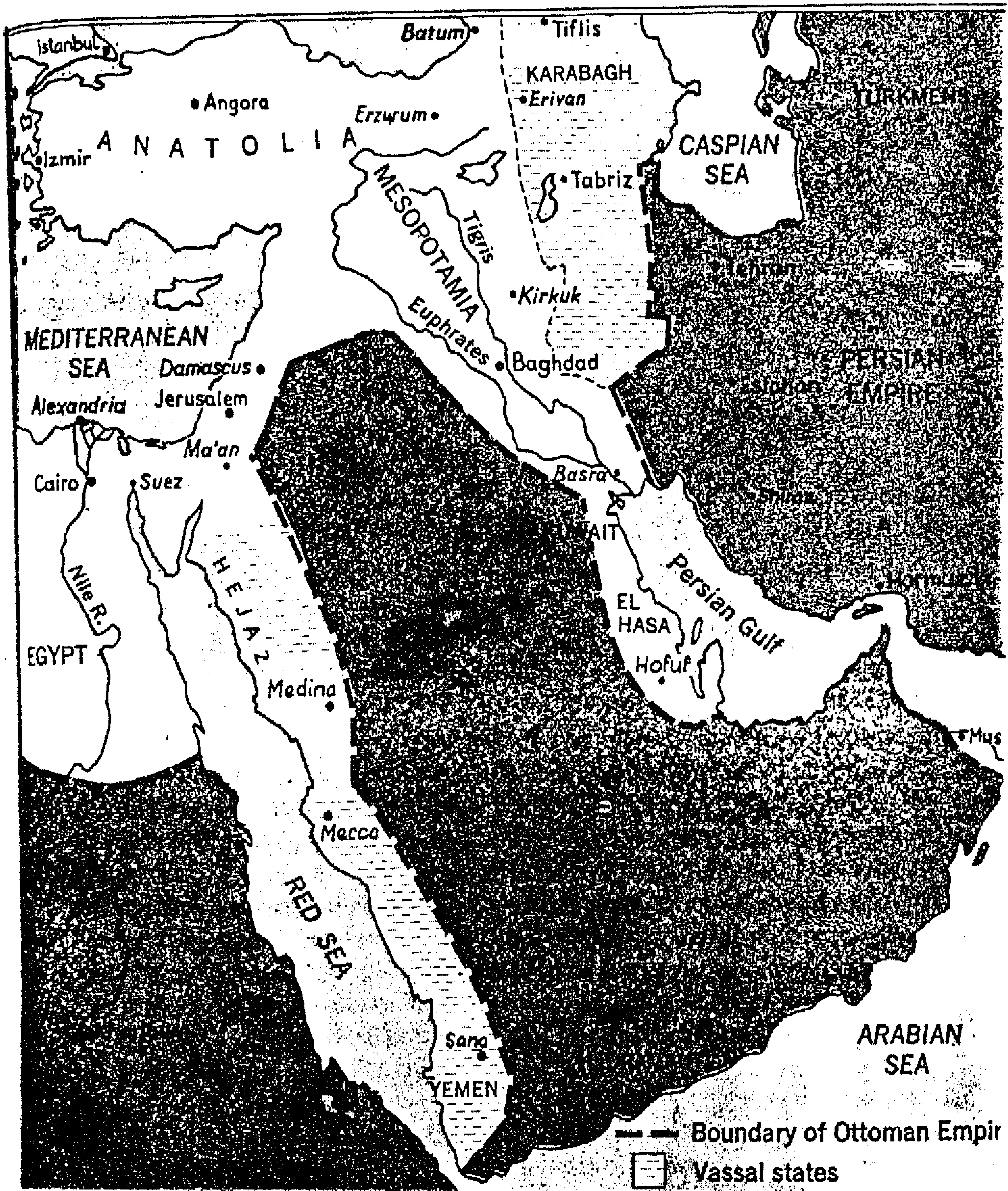
وسارت الدولة بخطى سريعة فى تيار القومية الذى مثل تهديداً للسلطان فى المركز وفى الولايات . ففى اليونان إشتعلت الثورة الإستقلالية بتشجيع من الغرب الأوروبى وانتهت بقيام الحروب البلقانية فى أوائل القرن العشرين وبقيام عدد من الدول القومية المستقلة على أنقاض الوجود التركى فى أوروبا . وبرغم أن الدول الأوروبية وقفت إلى جانب العثمانيين أو إلى جانب رجل أوروبا المريض فى مؤتمر برلين على حساب الروس ، فإن تحالف الأتراك مع ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى سارع بوضع نهاية لدولتهم ، وتحولت من إمبراطورية إلى دولة قومية على يد أعظم القوميين فى الشرق الأوسط وهو كمال أتاتورك . لقد آمن أتاتورك منذ فجر شبابه بالحقيقة القائلة بزوال عهد الإمبراطوريات

وبزوغ فجر القوميات ، وتعاون معه رفاقه من أجل إحياء الجنس التركى على أرض الأجداد ، ونجح بالفعل فى تأسيس الجمهورية التركية وريثة الإمبراطورية العثمانية على مساحة من آسيا الصغرى . واستطاعت تركيا الحديثة تحقيق الإستقرار أكثر من أى دولة من دول الشرق الأوسط على مدى نصف قرن من الزمان .

وتمثل الجمهورية التركية إمتداداً للإمبراطورية العثمانية ، فبرغم أنها لم تعد إسلامية أو عالمية إلا أنها بنيت على المبادئ الدستورية الحرة التى أرست دعائمها حركة التنظيمات فى القرن التاسع عشر ووصلت إلى نتيجتها المنطقية وهى «العلمانية» التى كانت المطلب الرئيسى للأجيال المتحررة من العثمانيين . كما أن حكام الجمهورية التركية هم نتاج عصر الإصلاح الذى أدى إلى تطور الطبقة الوسطى العسكرية والمدنية لتصبح «مؤسسة حاكمة» تنظر بفخر إلى ميراث الأجداد .

لقد صارت الأمة التركية علمانية ومزجت بين الثقافات الشرقية والغربية ونجحت فى أن تصبح دولة مستقرة متوازنة فى هذه المنطقة المضطربة من الشرق الأوسط فى ظل مؤسسها مصطفى كمال أتاتورك (والد الأتراك) الذى تفاخر بلقب «غازى» واعتبر نفسه وريث المجاهدين الأوائل خلفاء عثمان .

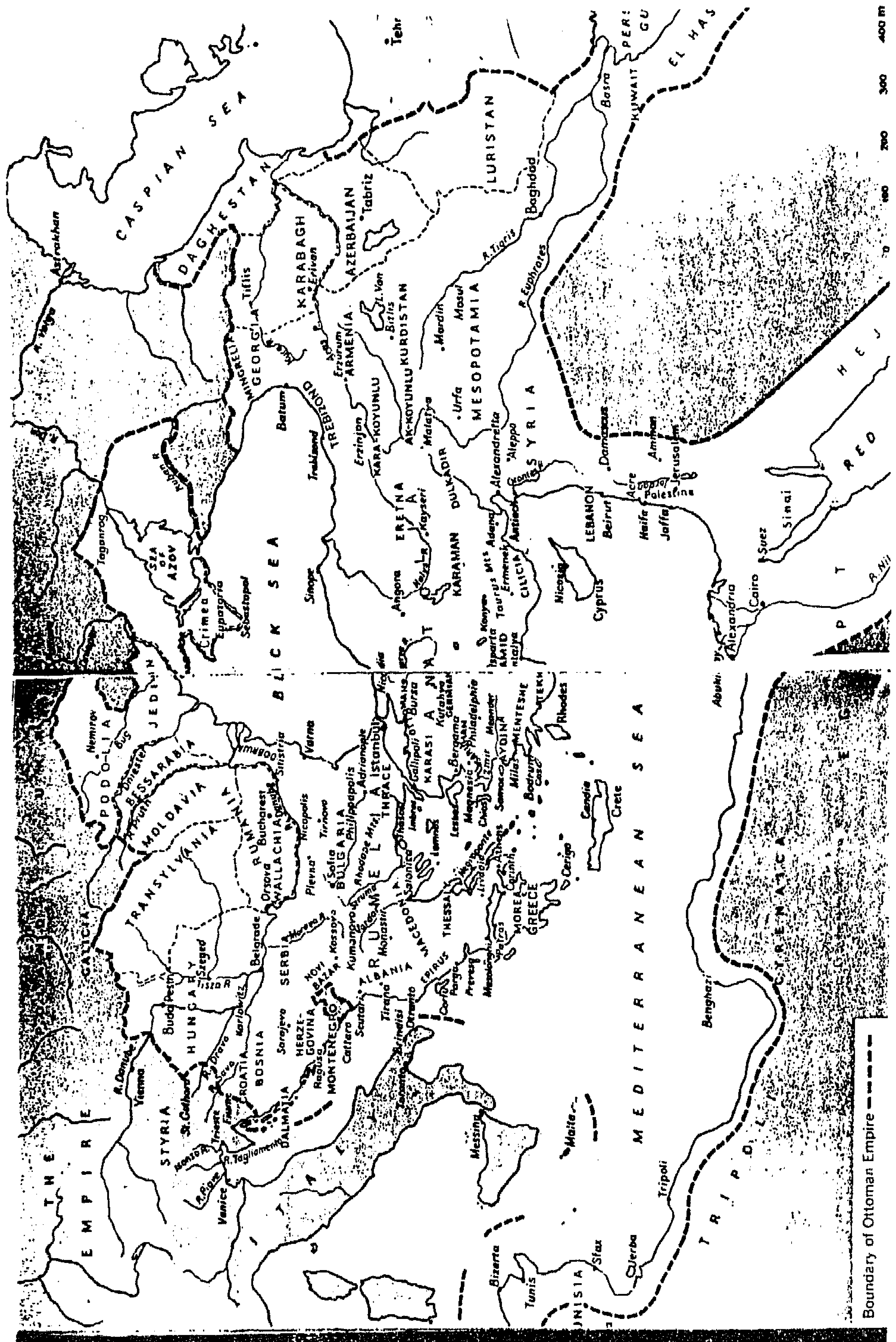
الملاحق



خريطة توضح التوسع العثمانى فى آسيا



خريطة توضح الولايات العثمانية فى أوروبا



خريطة للامبراطورية العثمانية فى أوج عظمتها فى القرن السادس عشر



صورة لقصر السليمانية

خريطة لمدينة استانبول فى القرن السابع عشر



صورة زيتية للسلطان بايزيد الأول (١٣٨٩ - ١٤٠٢)



صورة للسلطان محمد الثانى (الفاتح)

(١٤٥١ - ١٤٨١)



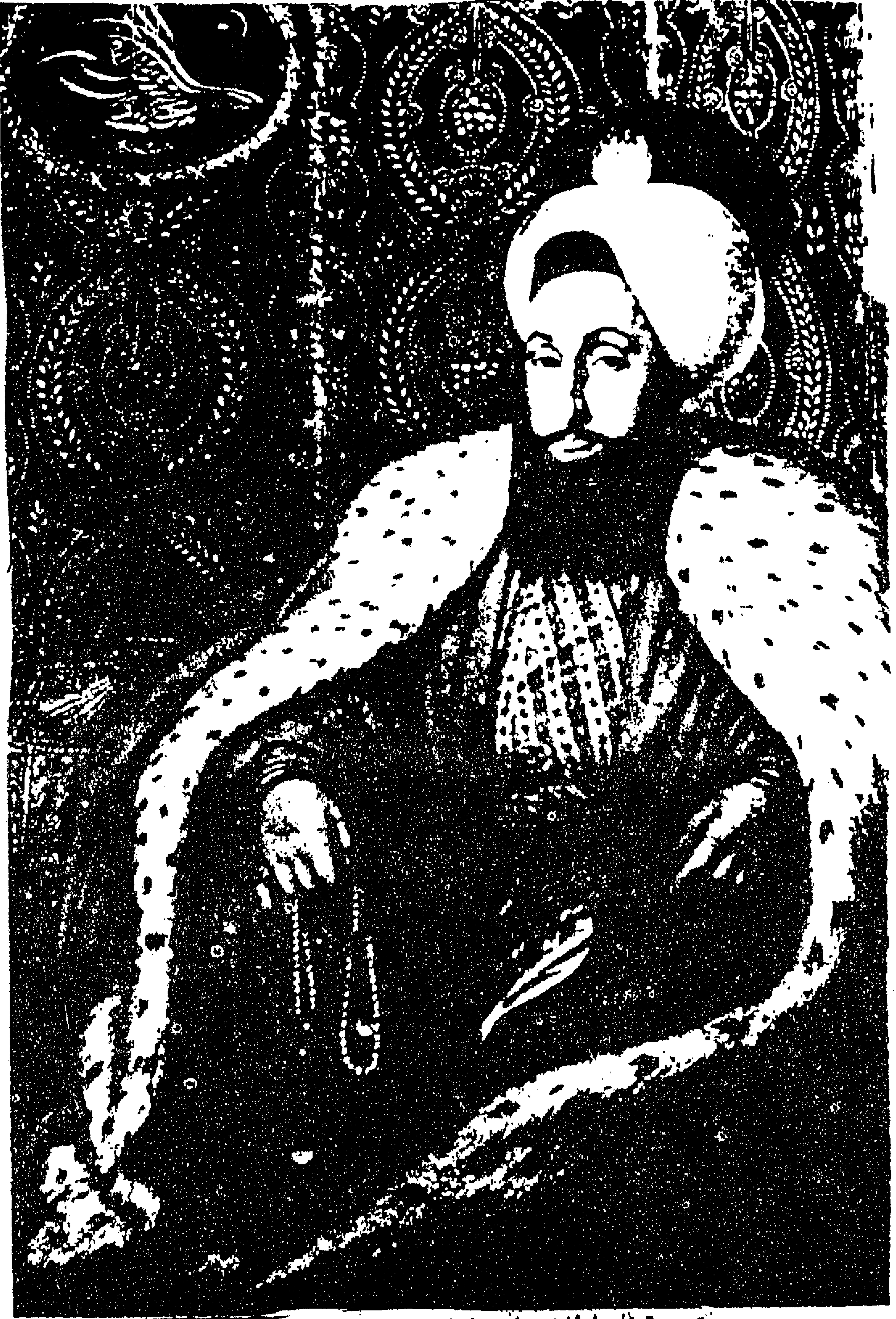
صورة للسلطان سليم الثانى

(١٥٦٦ - ١٥٧٤)



صورة للسلطان مراد الرابع

(١٦٢٣ - ١٦٤٠)



صورة زيتية للسلطان سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧)

الذى لقبه شعبه بـ «سيد العالم»، وقام بحركة

إصلاحية أدت إلى عزله ثم قتله

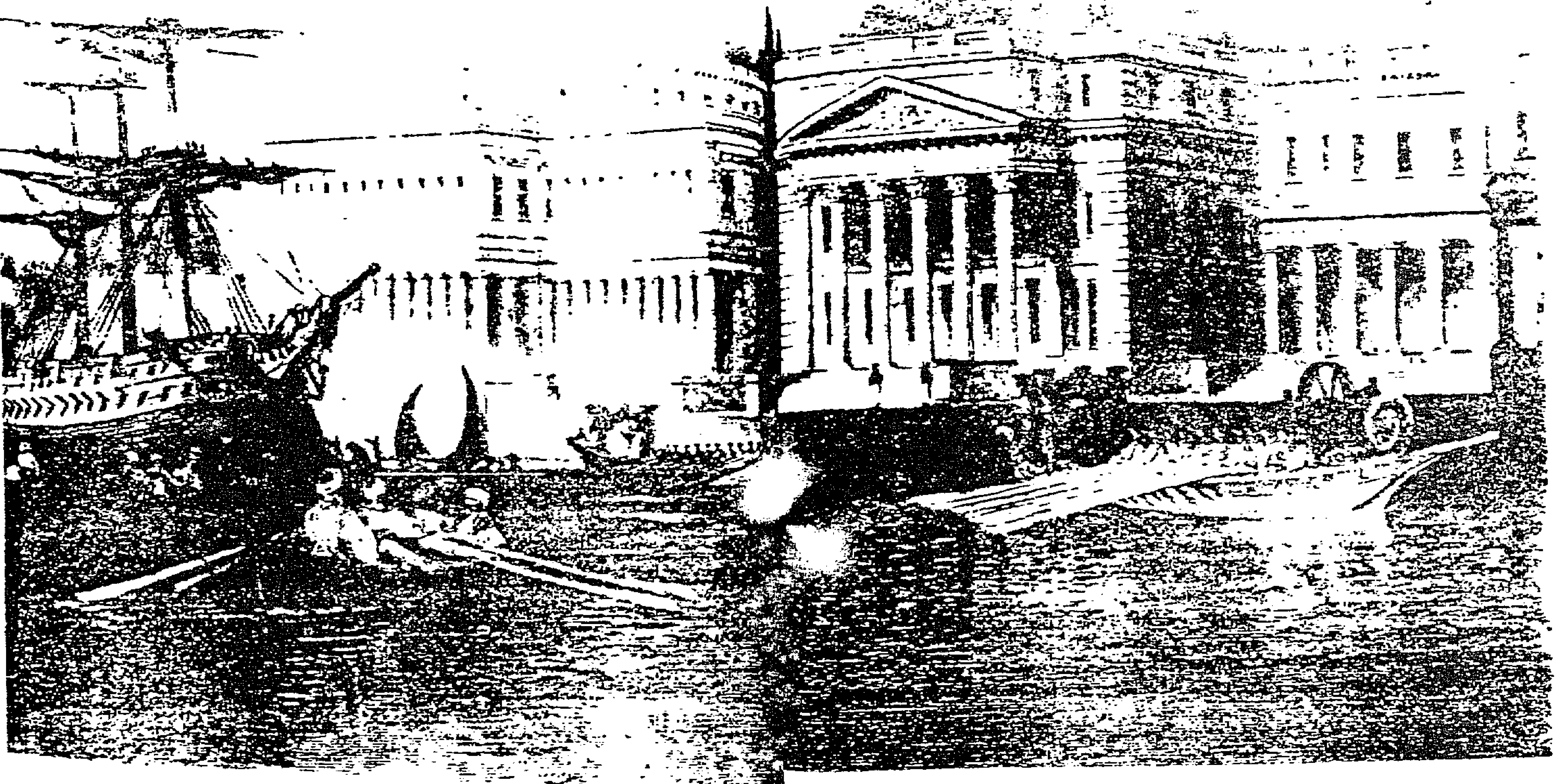


صورة للسلطان محمود الثانى

(١٨٠٨ ١٨٣٩)



صورة للسلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ - ١٩٠٩)



قصر ضولمه باغجة سراى

الذى شيده السلطان محمود الثانى فى الفترة

من ١٨٢٩ إلى ١٨٣٨ وصار مقراً لاقامته ولغالبية

السلاطين العثمانيين وحل محل طوبقا بى سراى

قائمة بأهم المراجع

SELECT BIBLIOGRAPHY

Cahen, Claude, *Pre-Ottoman Turkey*, London, 1968.

Cantemir, Dimitrie, *The History of the Growth and Decay of the Ottoman Empire* (trans. by N. Tindal), London, 1734 (extracts reprinted Bucharest, 1973).

Creasy, Edward S., *History of the Ottoman Turks*, London, 1854 (reprinted Beirut, 1963).

Eliot, Sir Charles, *Turkey in Europe*, London, 1900 (reprinted London, 1965).

Encyclopaedia of Islam, new edit., Leiden, 1954 (proceeding).

Eton, W., *Survey of the Turkish Empire*, 2 vols., London, 1799.

Forster, Charles Thornton, and Blackburn Danniell, F. H., *The Life and Letters of Ogier Ghiselen de Busbecq*, 2 vols., London, 1881.

Ganem, Halil, *Les sultans ottomans*, 2 vols., Paris, 1901–2.

Gibb, H. A. R., and Bowen, Harold, *Islamic Society and the West*, 2 vols., London and New York, 1956–57.

Gibbon, Edward, *The Decline and Fall of the Roman Empire*, edited by J. B. Bury, 7 vols., London, 1896–1900.

Gibbons, Herbert Adams, *The Foundation of the Ottoman Empire*, Oxford, 1916 (reprinted London, 1968).

Hammer-Purgstall, J. von, *Geschichte des Osmanischen Reiches*, 10 vols., Pest, 1827–35. (French trans. by B. Hellert, *Histoire de l'empire ottoman*, 18 vols., Paris, 1835–46.)

Hasluck, F. W., *Christianity and Islam under the Sultans*, 2 vols., Oxford, 1929.

Inalcik, Halil, *The Ottoman Empire: the Classical Age 1300–1600*, London, 1973.

Karpat, Kemal H. (ed.), *The Ottoman State and its Place in World History*, Leiden, 1974.

Knolles, Richard, *A Generall Historie of the Ottoman Empire*, London, 1603, and subsequent editions.

Lane-Poole, Stanley, *The Life of Stratford Canning*, London and New York, 1888.

Lewis, Bernard, *The Emergence of Modern Turkey*, 2nd edit., London and New York, 1968.

Lewis, Raphaela, *Everyday Life in Ottoman Turkey,* London and New York, 1971.

Lyber, Albert Howe, *The Government of the Ottoman Empire in the Time of Suleiman the Magnificent,* Cambridge, 1913 (reprinted New York, 1966).

Miller, William, *The Ottoman Empire and its Successors, 1801–1927,* Cambridge, 1927 (reprinted London, 1966).

d'Obsson, Mouradgea, *Tableau général de l'empire ottoman,* Paris, 1788–1824.

Pears, Sir Edwin, *Life of Abdul Hamid,* London, 1917 (reprinted New York, 1973).

Penzer, N. M., *The Harem,* London, 1936 (reprinted London, 1965).

Ranke, Leopold, *The Ottoman and Spanish Empires in the Sixteenth and Seventeenth Centuries,* London, 1843.

Runciman, Steven, *The Fall of Constantinople, 1453,* Cambridge, 1965.

Rycaut, Sir Paul, *History of the Turkes to 1699,* London, 1700.

Tott, Baron F. de, *Mémoires sur les Turcs et les Tatares,* 4 vols., Amsterdam, 1784.

Wittek, Paul, *The Rise of the Ottoman Empire,* London, 1938.

Young, G., *Corps de droit ottoman,* 7 vols., Oxford, 1905–6.

فهرس الأعلام

-أ-

—ت—

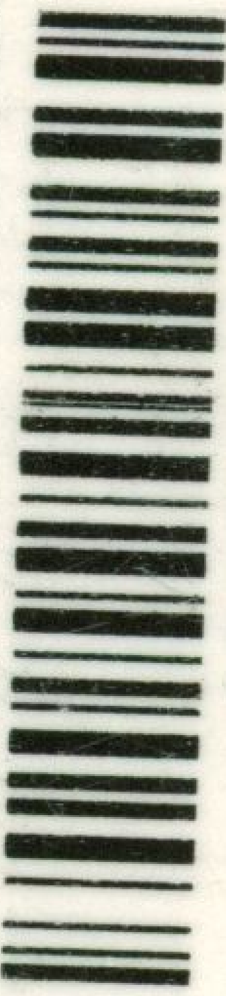
—جـ—

-ش-

-ل-

- م -

-ى-


Bibliotheca Alexandrina
1240149